التاريخ السّرّي المعتقل

أحمد رائف

سراديب الشيطان

صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين



الزهراء للإعلام العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربي
قســـم النشـــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ راتف يوإن فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U .N fax 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

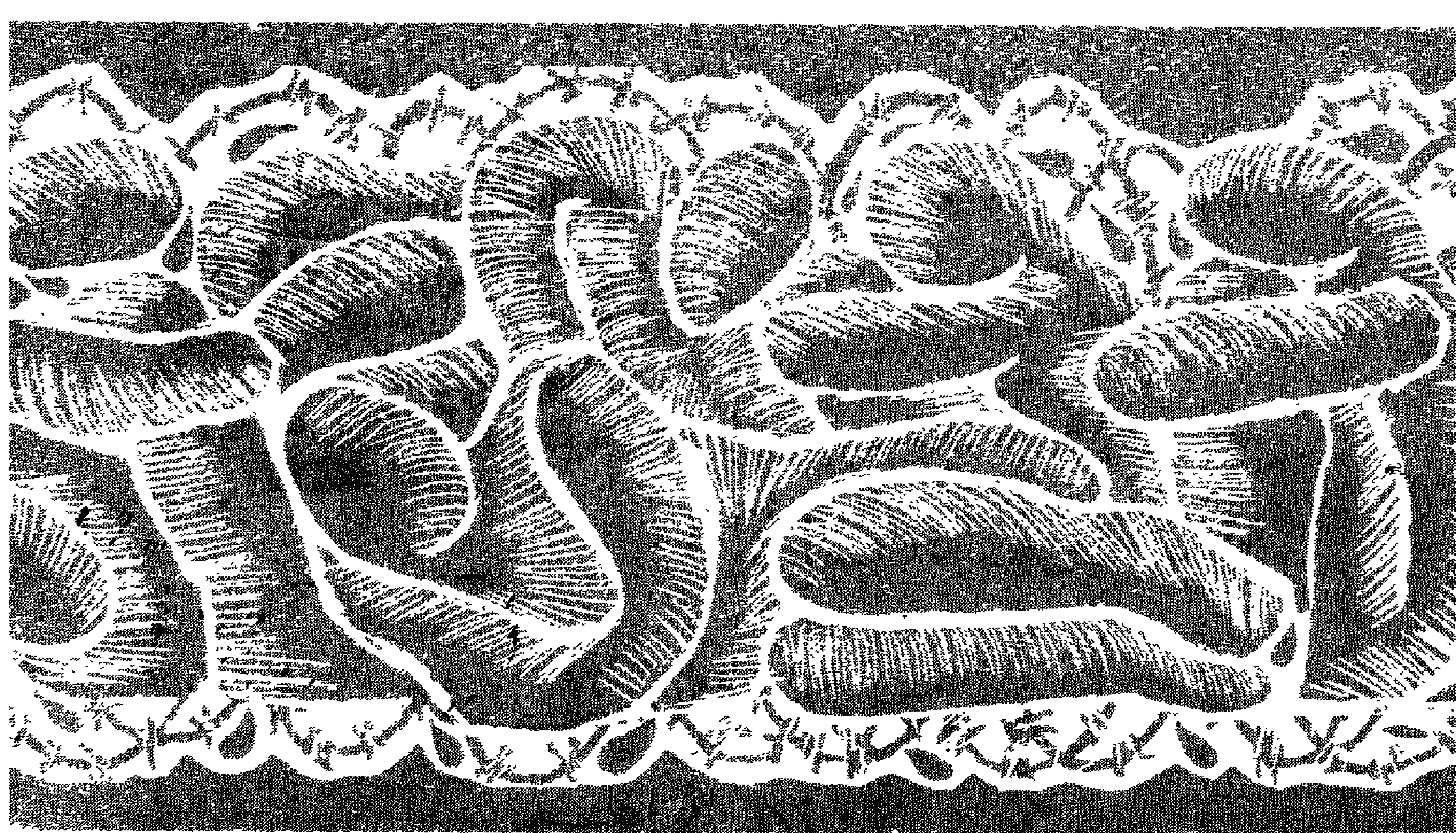
الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

التصميم والأخراج الفنى : عصمت داوستاشى

أحمد رائف

سراديب الشيطان

صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين



الزهراء للإعلام العربي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

" وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ
لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
مِن مَّحِيصٍ

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ
ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ
إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ
إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ "

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

إبراهيم ٢١ - ٢٢

إهداء

إلى روح المرحوم الأخ جابر رزق المجاهد المسلم الذى عاش حياته يدعو إلى الله على بصيرة، وتحمّل المحن والشدائد، ولم يغيّر ولم يبدّل، ووافاه الأجل فى بلاد غريبة، ثم رقد فى سلام بجوار أستاذه عمر التلمسانى المرشد العام الرابع أو الخامس لجماعة الإخوان المسلمين، حيث ينعمان بالرضوان. والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

أحمد رائف

مقدمة

مازالت مصر تعانى من أيام حكم عبدالناصر !

وسوف تعانى لسنوات لا يعلم عددها إلا الله . فقد استطاع أن يفسد الشعب والجيش والدولة ، ويغير مفاهيم الناس وأخلاقهم ، واستخدم فى ذلك أداة بسيطة الشكل عظيمة الأثر هى السوط .

ولم ينتبه أحد لهذا عندما جاء إلى الحكم .

وتسلل إلى الناس عبر شعارات براقة ، ونجح فى إحكام قبضته .

وذلك الجيل الذى تكون عبر عشرات السنين قبل قيام الثورة ، الذى استطاع أن ينشغل ويهتم بما يدور فى بلده بدليل أنه شارك فى تغيير النظام الملكى ، هو نفسه الجيل الذى قُهر على يد عبد الناصر تحت وطأة التعذيب القاسية ، وهو الذى انصرف عن الاهتمام بما يدور خوفا من السجن وفرقا من العذاب .

ثم ظهر جيل آخر وثالث لم يعرف ماذا حدث،ولا كيف تكون هذا التصور السلبى فى أذهان الناس لكل ما هو هام وله صلة ببناء الوطن وقضايا الدين ، ولم يعرف أحد أن عبد الناصر قد سلك بالناس فى سراديب الشيطان حيث ينعدم كل شىء ، ويصير الإنسان أسير الغريزة ..يبحث عن البقاء وليس أكثر من ذلك .

وحتى يزول هذا الشعور لابد من جيل رابع يتعلم فى مناخ مختلف يسمح بتطور الأفكار ونموها ، وهو أمر قد حال دون تكونه جمال عبد الناصر بنظامه الفريد الذى صنعه .

وهو نظام لايسمح بأى شىء غير بقاء الحاكم على كرسى الحكم ، ولا يوجد قوة أو قانون يزحزحه عن مكانه بغير الإرادة الإلهية وحدها .

وهذا فى حد ذاته بلاء من ربكم عظيم ..

بلاء عظيم إذا نظرنا إلى الناحية الأخرى من الوادى ، حيث ذلك الشباب الذى تكون فجأة ، وصار كموج البحر والناس عنه غافلون ..
وكل ما نسمعه أنهم شباب متطرف ..
وما معنى متطرف ؟
لاتسمع إجابة شافية من أحد .
ولا توجد فرصة لسماع رأيهم لمناقشتهم .
والنظام يزيد فى الهوة بين جميع الفرق ..
القمع البوليسى يشتد ..
والصحف القومية تنشر أخبارا لا ندرى مدى صحتها .
والصحف غير القومية تنشر أخباراً أُخر .
وكأننا فى بلدين مختلفين .
ولكن المؤكد أن الحالة سيئة على جميع المحاور وبكافة الموازين والمعايير ..
على المستوى السياسى والاقتصادى والأمنى .
القمع البوليسى يزداد .
وما يسمونه بالتطرف ينتشر .
كنا نسمع عنه أنه يحدث فى الصعيد .
ثم رأيناه وسمعناه فى القاهرة .
ألا يعنى هذا التطور والانتشار أم ماذا يعنى ؟
هل فى وسعهم أن يأتوا بشرطة تملأ البلاد فيكون هناك شرطى لكل مواطن ؟
هذا أمر مستحيل ولكنهم لا يفهمون .
وهناك حل أسهل من ذلك أسهل بكثير ، ولكنهم لايريدون .
إن جمال عبد الناصر - رغم موته - لم يترك الحكم لحظة ، فهو يحكم من خلال بعض الأراجوزات والمهرجين ، وهم يحتمون به ولكنهم لا يعرفون أنه مات .
والطوفان جارف أوهو قادم يقتلع كل شىء أمامه .
ولابد لمن يعنيه الأمر أن يعرف أنه مات .
يجب عليهم أن ينتبهوا لهذه الحقيقة ففيها نجاتهم من غضبة لا يعرف أحد مداها ولا أبعادها .
تغير العالم ولم يعد فيه مكان لديكتاتور صغير أو كبير .

وهذا الفساد الذى استشرى ، فيه هلاكهم لو يعلمون .
وقد علمتنا الأيام أن لا شيء يدوم .
لقد أفسد عبد الناصر كل شى .
ومما أفسده مستقبل الحاكمين الذين يحكمون الآن .
ويمكنهم الحفاظ على هذا الشعب من الانهيار – وهم بالتأكيد سوف ينهارون معه ــ لو استجابوا لمطالبه ورفعوا الوصاية عنه ، وعاشوا مثلنا مواطنين لا آلهة .
الحل الوحيد فى نظرى للخلاص هو طى صفحة عبد الناصر إلى الأبد ، فيصير شيئا تاريخيا مثل محمد على والخديوى إسماعيل والملك فاروق .
وكفى عبثا بمقدرات الشعوب ، لأن غضبتها لايتحملها حاكم مهما ظن نفسه قويا وحوله الجند والأمن .
إزالة كافة الألغام التى وضعها عبد الناصر فى طريق الأمة .
الفساد .
الرشوة .
القمع .
ضياع حقوق المواطنين .
التبعية الكاملة للغرب .
فقدان الهوية .
عمالة كبار الموظفين وكثير من المسئولين لجهات لا نعرفها .
عدم القدرة على الحياة .
التخلف والضياع والاضمحلال .
حكم الجهلة والمتخلفين حسب نص الدستور ، ولا أدرى هل هو الثالث أو الرابع أو الخامس منذ كان عبد الناصر .
فلا توجد أمة عاقلة تشترط أن يكون المجلس التشريعى بها لايقل عدد الجهلة فيه عن النصف .
قد جربتم الحل الاشتراكى لإحكام القبضة على الشعب .
والشعب يخرج من قبضتكم ولن تستطيعوا منعه .
جربوا الحل الرأسمالى كمرحلة قبل أن يجرب الشعب الحل الإسلامى .
وسوف يجربه بالتأكيد ، ويمكنكم معرفة هذا لو قرأتم التاريخ .

أو اتركوا الناس يختاروا ما يشاءون .
هذه نصيحة عاقلة مخلصة أقولها قبل الطوفان .
أخرجوا مصر من سراديب الشيطان قبل أن تبطش بكم .
جربوا شيئا قد جربه العالم .
الحرية .
حرية إصدار الصحف .
حرية تكوين الأحزاب .
كل من عنده شيء دعوه ليقوله للناس .
بيعوا القطاع العام للمصريين فتسددوا الديون التى ليس للشعب ناقة فيها ولا جمل .
اشترطوا أن يكون المجلس النيابى من المتعلمين والمثقفين والمفكرين ، لا أن يكون نصفه من العمال والفلاحين .
اختاروا هيئة تأسيسية لوضع دستور دائم .
امنحوا الناس فترة انتقال احكموا فيها وتنعموا قبل أن يضيع منكم كل شيء .
« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »
وقد فعلت بلا فائدة .
يا من بيده الأمر .
نجاتك وفلاحك وربحك أن تساعد الشعب على أخذ حقوقه التى سلبها عبد الناصر .
أن تعود بالبلاد إلى حالتها الطبيعية مثلما كانت فى أيام الرجعيين والباشوات والخديوى إسماعيل .
وهذه ليست سخرية ، فقد كان الشعب أسعد حالا فى حكمهم .
على الأقل لم يكن يسجن ويضرب وتلفق له القضايا .
كم باشا يحكمون مصر الآن ؟
كم بريئا اعترف أنه أطلق النار على حسن أبو باشا ؟
أنتم تمنعون زراعة الصحراء .. لماذا ؟ ولحساب من ؟
أنتم تمنعون إقامة المصانع .. لماذا ؟ ولحساب من ؟
أنتم تحرمون الناس من حقهم فى الحكم .. لماذا ؟ ولحساب من ؟

هل تظنون أن هذا يحميكم ويبقيكم ؟
هل تصرون على صيغة عبد الناصر فى الحكم ؟
الحاكم الفرعون ! .. والناس كلهم عبيد !
إن كنتم تصرون على هذا فالعاقبة وخيمة .. عليكم وليست لكم . « ويومئذ لا ينفع الظالمين معذرتهم » .
أحكمونا بقية حياتكم بعهد منكم تشرف على تنفيذة لجنة وهيئة تنتخب ، على أن نأخذ حقنا فى الحكم والمشاركة فيه بعد مَوتكم .
وهذا اتفاق عادل ومعقول .
أعلنوا هذا للناس فتطمئن الصدور وتهدأ الضمائر .
أو أنتم الذين ستضيعون فى سراديب الشيطان بعد أن يخرج الشعب المصرى منها .

* * *

إن عبد الناصر لم ينج من لعنـة التـاريخ رغم كل ما يقوله الناصريون ، وإن لعنة الشهداء والمعذبين سوف تطارد سيرته وتاريخه ، وهى محل حساب وعقاب من الله .
عبث بمقدرات أمة .
وقتل العزة والكرامة فى نفوس أبنائها .
وحولنا من شعب منتج إلى شعب متسول .
وصنع نظاما قد اعتمد الدعارة وسيلة وطريقة للحكم والسيطرة .
وضيع جهاد الآباء من أجل الحرية والاستقلال والتفوق
ولم يترك مصر إلا بعد أن أخضعها لإسرائيل خضوعا لا رأى فيه ولا كرامة ولا نملك غير أن نفعل ما يأمرون .

كان غاية همه السيطرة والغلبة على أفراد شعبه المساكين ..
وماذا كانت النتيجة ؟
مات كما يموت الناس.
ولا يعرف أحد سر موته .
ولكن المهم أنه قد مات .

وهذه هى سنة الحياة ، فكل حى يموت .
ولكنه ترك نظاما يتمسك به كل من يأتى بعده بتعديل طفيف ، ومن مفاسد نظامكم أنكم تصنعون هوة خطيرة بين الشرطة والشعب ، وسوف يقف كل منهما أمام الآخر فى يوم قريب إن لم تتداركوا هذا !
أنتم تجندون مئات الألوف لحمايتكم ، وأجدر بكم أن ترسلوهم إلى الصحراء ليزرعوها وإلى المصانع فيعمروها .أما أن تحولوا شبابا فى عمر العمل والبذل إلى وحوش مفترسة تمسك العصى وتحطم الجماجم فى صيحات لا تصدر إلا فى الغابة ففى هذا نهايتكم .

افتحوا النوافذ .
والبرنامج بسيط .
حرية كاملة لكل المواطنين بلا استثناء .
من أراد أن ينشىء حزبا فليفعل .
يستوى فى هذا الإخوان المسلمون والشيوعيون والأقباط ، وكل من لديه شىء يقوله للناس . والعاقبة لمن يُقنع .
والحكم لمن يقبله الناس .
ولتكوِّنوا أنتم أيضا حزبا ولتتقدموا للشعب ببرنامجكم ، وهوبالتأكيد لن يختاركم إن ظل على ما هو عليه ، حيث يجمع أصحاب المصالح والذين يكرهون مصر كراهية عمياء منذ أيام اسماعيل صدقى
لا تتآمروا على إفقار البلاد فإن فعلتم فلن يرحمكم التاريخ ، هذا بالإضافة إلى عذاب الله سبحانه وتعالى . وصدقونى إنه يسمع ويرى ويثيب ويجازى فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .
الأمراض كثيرة ومتفشية فى جسد هذه الأمة .
وعلاجها سهل وبسيط يتمثل فى كلمة واحدة .
لا تعضوا على الحكم بالنواجذ وكونوا مواطنين أمثالنا .
إن كنتم حقا مخلصين .
وخذوا العبرة من التاريخ البعيد والقريب .

وإن لم تفعلوا فسوف تكونون أنتم عبرة وعظة لمن يأتى بعدكم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

السبت ١٣ جمادى الآخرة ١٤٠٩
٢١ يناير ١٩٨٩

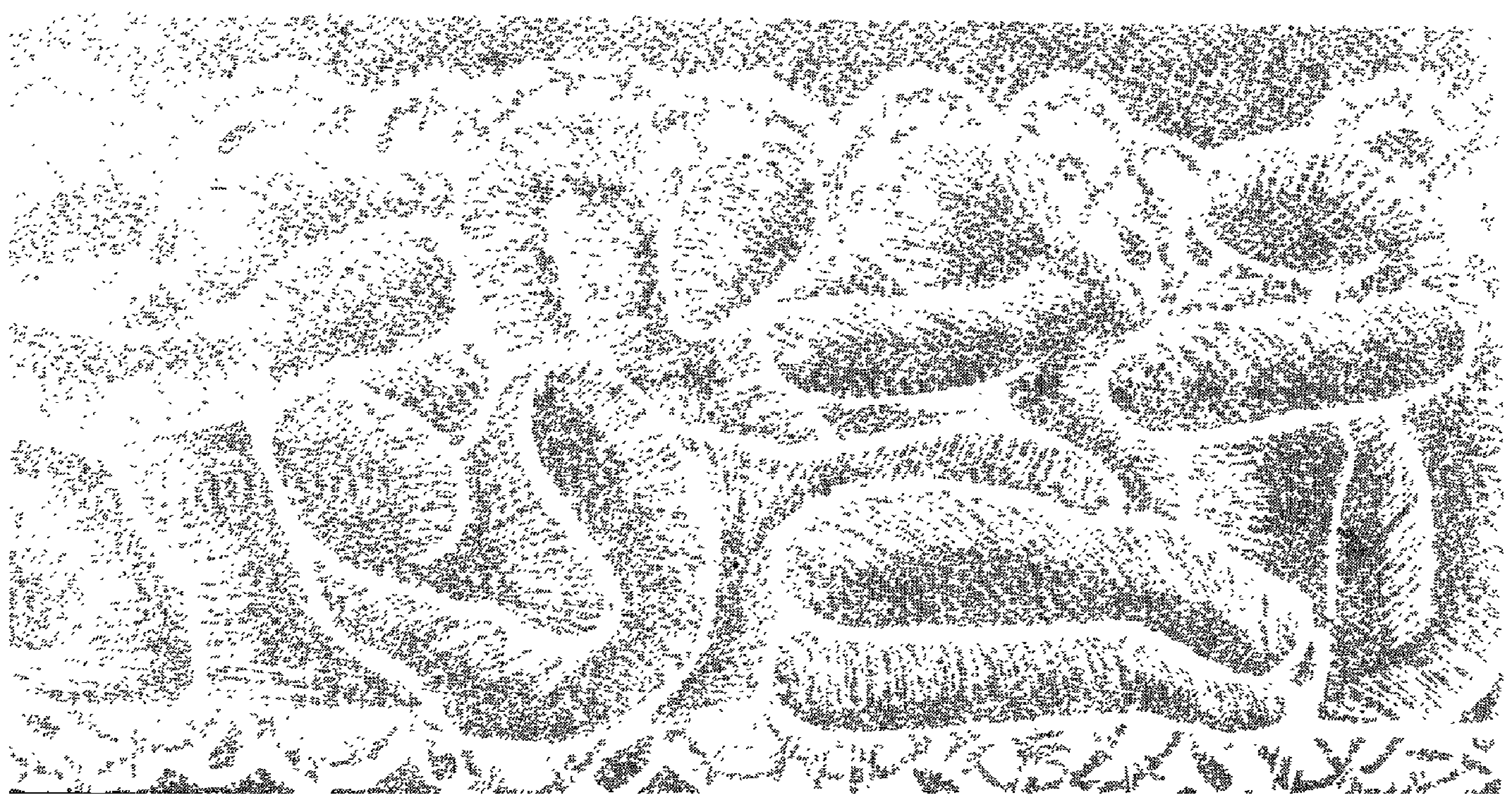
أحمد رائف

* * *

الفصل الأول

"وجاءت سكرة الموت بالحق" !
بعد موت الزعيم الخالد

تعلمنا من موت عبد الناصر أن الناس تقدر وتدبر ، ويضعون فى حسبانهم مايعرفون مما يقع أو يمكن أن يقع مما يدخل فى إدراكهم وتلتقطه الحواس أو يتصوره العقل . وتعلمنا أن معظم الناس لايضعون فى حساباتهم العوامل الإلهية الغيبية التى لاتتوافر لأحد إلا من كان قلبه عامرا بالإيمان ، فهى غامضة غير جلية ، يلتقطها القلب ولايضبطها العقل . وتتعلق بالخطة الأزلية للخلق . وهنا يكمن الفرق بين المؤمنين وغيرهم .



العبرة من موت عبد الناصر

* كنا قد نسينا فى غمرة العذاب والاضطهاد أن عبد الناصر بشر يجرى عليه مايجرى على سائر الناس من ألم ومرض وموت .

وكانت الأجهزة فى مصر حريصة كل الحرص على إخفاء أخبار مرضه ومايشكو منه .وكانوا يعتبرون مرضه من أسرار الدولة العليا التى يعاقب من يفشى سراً من أسرارها،بصرف النظر عما يمكن أن يكون لهذا المرض من أثر على قدراته ، ومنها ماله صلة وثيقة بمستقبل العرب والمصريين .

ولعلنا لاننسى قصة الدكتور أنور المفتى الذى تردد أنهم قد قتلوه بالسم لأنه تكلم فى جمع من معارفه ـــ نصفهم من المخابرات ـــ عن مرض عبد الناصر، وكيف أنه تسبب له فى ازدواج الشخصية ، وهو يحكم بهذه الشخصية المزدوجة فى آن واحد ، وقراراته تصدر مرة عن هذه وأخرى عن تلك .

ولكنه مات فجأة دون توقع من أحد أو انتظار !

وتغيرت الحياة تماما فى معتقل طره السياسى ، بعد أن تأكد الجميع من موت الزعيم الخالد فى زعمهم ، وقد ظلوا حتى يوم دفنه يشكون فى الأمر .

ومرت فترة من الوقت لايستطيع الناس فيها استيعاب ماحدث ولايصدقونه.وفى موته تكمن المشيئة الإلهية القادرة الغالبة على غير مايريد الناس أو يتمنون ويرغبون ، أو تكون على نحو لايتصوره أحد ولاينتظره إنسان .

وقد أخذنا من موت عبد الناصر عبرا كثيرة وعظات بالغات .

تعلمنا من موته أن الناس يفكرون ويقدرون ويدبرون ، ويضعون فى حسابهم ما يعرفون مما يقع أو يمكن أن يقع مما يدخل فى إدراكهم ، وتلتقطه الحواس أو يتصوره العقل . وتعلمنا أن معظم الناس لايضعون فى حساباتهم العوامل الإلهية الغيبية التى لا تتوافر لأحد ، إلا من كان قلبه عامرا بالإيمان ، فهى غامضة غير جلية يلتقطها القلب ولا يضبطها العقل ، وتتعلق بالخطة الأزلية للخلق .

وهنا يكمن الفرق بين المؤمنين و غيرهم .

«يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

وهنا يكمن الفرق أيضا فى درجات الإيمان ، وقرب الإنسان وبعده من الله سبحانه وتعالى .

وهنا تكون الثقة فى وعد الله وعنايته ، وأن كل مايمر على المؤمنين من تصاريف ينبغى الرضا بها والشكر عليها ، وأن الغيب سر لايفهمه أحد ، وهو يسير على نحو لايتعلق بالمدارك الصغيرة والرغبات الساذجة المتعلقة باللذة والألم .
وعندما مات عبد الناصر وأعلنت وفاته كانت المفاجأة البالغة .
وشك الناس أياما فى هذه الحقيقة !
ثم رأوه على شاشة التليفزيون وهو يدرج فى قبره !
وأهالوا عليه التراب أمام جميع المصورين وكافة وكالات الأنباء ..
عندئذ ...
تحول الشك إلى يقين،وتأكد الناس من موته .
وانسابت بين الجميع موجة من الارتياح العارم ، وشفيت صدور كثيرة .
وعرف الجميع أن كل الخطط البشرية يمكن أن يطرأ عليها عامل غيبى إلهى ليس فى الحسبان ، يغير كل الموازين المطروحة ، ويبدل كافة الآفاق التى يفكر فيها الإنسان أسير الحواس التى لاترى بعيدا .

وهو ينبه الناس دائما إلى ضرورة تزكية الإيمان وتثبيته فى النفس .
وهو يقول إن كل قوانين البشر يمكن لها أن تتغير فى لمحة من زمن ، وفق إرادة إلهية حيث يتغير على ضوئها كل شيء .
وهو يقول إن اجتهادنا محدود وقاصر ، وإن علمنا صغير وضئيل .
وهو يؤكد أن كل مايراه الإنسان ويسير فى خطة من رسم البشر إلى غاية قدروها وفهموها يمكن أن يتبدل فى لحظة من ليل أو نهار ، فالقوانين لانحكمها ولانحيط بها ، والغيب هو بحر المعرفة الأعظم الذى لايدركه الناس .
والله وحده يعلم أن إرادته لو اقتضت غير هذا واستمرت حياة عبد الناصر زمنا آخر أطول .. ماذا كان يمكن أن يكون ؟

الاضطهاد والمحن طريق أصحاب الدعوات

رُبّى الإخوان فى السنين الماضية على النصر .
وهيأتهم المناهج والظروف والبطولة التى قاموا بها لحكم البلاد .
واستقر هذا فى وجدان شبابهم .

وعندما واجهتهم المحنة الأولى ظنوا أن بينهم وبين التمكين فى الأرض رمية قوس . وخُيل إليهم أنما هى خطوة واحدة تخطوها الجماعة إلى الأمام فيصيرون على رأس المجتمع فيحكمون بالقرآن وتسود شريعة الإسلام .

وتعلموا خطأ أن العالم كله ينتظر إشارة منهم فيركع تحت أقدامهم .

وقد يرجع هذا إلى كلمات الإمام الشهيد الملتهبة التى لم يُفْهَمْ مرماها على وجه اليقين ، فقد غطى وهج الكلمات على عتمة الواقع وأساه .

وقد يرجع إلى عظمة الدعوة وأهميتها فى إعادة تكوين الإنسان والمجتمع ، وأنه ليس من العقل رفضها أو الوقوف ضدها .

وهو يرجع بالتأكيد إلى عدم قراءة التاريخ ، وعدم استيعاب السنن والنواميس .

ثم توالت الأحداث وتتابعت المحن !

وفوجىء الإخوان بأن طريقهم ليس طريق النصر القريب ، ولكنه طريق المحن الطويلة ، والدلائل صارت تشير إلى أنه لانهاية لها .

وتأكد لديهم ووثقوا أنها حرب إبادة من أعدائهم !

وكانت محنتهم الأخيرة التى شاهدت فصولها وعشتها معهم ، بكل مافيها من قسوة الحكام،وتجبرهم وطغيانهم،وكراهيتهم العمياء لوطنهم وأهلهم .

واختل الميزان فى نفوس المعتقلين ، فهم للمرة الأولى تنجلى أمام أعينهم الحقائق — وإن كانت لم تغب عن بعضهم — وللمرة الأولى يتبينون أن هناك محناً يمكن أن تستمر حتى تستغرق العمر كله ، وتأخذ فى طريقها جيلاً أو جيلين وربما أكثر ، وأن عوامل النصر وتحقيق الأهداف لاتخضع فقط للأمانى والرغبات .

وللمرة الأولى يفهم جمهور المعتقلين أن هناك أجيالاً قد يكون من قدرها أن تعمل وتعمل وهى تعرف أن ثمار جهدهم سوف يقطفها قوم آخرون ، يأتون من بعدهم ، ولايزالون فى رحم الغيب ، بينما هم يُقْتَلون ويُعَذَّبون ويُشَرَّدُون .

ليس النصر بإرادة الناس ، ولكنها سنن ونواميس تسير وفق مشيئة ونظام ، ويدخل فيها مالايعرفه أحد ، ومالايمكن لبشر أن يصل إليه .

حقيقة العالم من داخل المعتقل

كانت وفاة عبد الناصر فجأة بمثابة تأكيد الأمل والثقة فى قدر الله وقدرته ، فى نفوس قد أضناها العذاب والشوق إلى العدل ، ذلك الوهم الذى لاتراه إلا عبر

رُؤى مبهمة تأتى فى الليل ، أو تنبثق صادقة كفلق الصبح مع انبعاثة الفجر الحزين ، الذى كثيراً ماسمع أنات العذاب أو شهقات المحتضرين ، فى ساحة قد ملئت بالكلاب والضباط الذين باعوا شرفهم ودينهم ، ثم ضربوا بالأحذية فى صيف قائظ على رمال سيناء عام ١٩٦٧ .

كانت أيام المعتقلين مليئة بالحزن والأسى العميق ، وكانت لياليهم أرقا وسهدا قد امتزج بالأسى والغضب والرفض ، فى حزن عارم يؤذى النفس .

وتذكرت مسلم بن عقبة المرى الذى أرسله يزيد بن معاوية إلى المدينة كى يؤدب الصحابة وأبناءهم فى يوم أغبر كئيب أطلق عليه المؤرخون اسم « يوم الحرة » فقتل من قَتل وأسَر الباقين ، ورفض البيعة إلا أن يعترفوا بأنهم عبيد ليزيد .

لم يقبل منهم غير هذا،ووافقوا نجاة من القتل !

ومع اختلاف العصور والزمن فقد فعل بنا عبد الناصر وضباطه أسوأ مما فعله السادة والمتجبرون فى العصور القديمة .

كانوا ينظرون إلينا نظرتهم إلى العبيد ، وليس لنا الحق فى الحياة إلا بالقدر الذى يريده ويشاؤه سيدنا ومولانا .

كان الناس جميعا خارج المعتقل يعيشون فى واد .

وكنا نحن معشر المعتقلين نعيش فى واد آخر .

* * *

فالمعتقلون وحدهم هم الذين يرون الحياة فى مصر على حقيقتها ، وهم وليس سواهم الذين يعرفون كذب الرئيس ، ونفاق الموظفين والجلادين الصغار .

كان عبد الناصر مولعا بالطبل والزمر ، شأنه شأن كل طاغية قد ظهر من قبل .

فهو يسعد لسماع صوته ويدعو الناس إليه ويحشدهم ، ويرفع طبله عاليا،بينما أصوات زَمرِه تصم الآذان ، ومن ثم لايصل إلى الناس إلا هذه الجوقة الصاخبة التى لا أول لها ولاآخر .

فكان يكذب على الناس وهم يصدقونه .

يخدعهم وهم يصفقون له .

يقتلهم وهم يهتفون بحياته .

وأعوانه يقلبون الحق باطلا ويمهدون له رغباً أو رهباً ، أو هى وظيفتهم كما يقولون .

وكانوا يعرفون زيف حكومتهم ، وأنهم يخدمون الباطل ويعبدون الشيطان .
وكل واحد فيهم عبارة عن « ترس » صغير فى آلة ضخمة لايملك حيالها شيئا ، فهو يديرها ويدور معها ، ويلعن نفسه فى أعماقه ، ويلعنه أهله وأصدقاؤه فى أعماقهم وكان هؤلاء الأعوان هم أقدر الناس على رؤية الزيف والضلال .

المؤيدون والمعارضون

وكما سمعت فقد كانوا يمهدون للإفراج عن الإخوان المسلمين المسجونين فى خلال عام ١٩٥٨ على أمل غلق هذا الملف إلى الأبد .
ثم ظهرت فتنة المعارضة والتأييد فأحدثت أيامها شرخا كبير بين الإخوان .
ودار حوار بين المؤيدين وأحد زبانية عبد الناصر حيث قال له أحد هؤلاء المؤيدين :
ـ قد أيدنا الحكومة زمنا ولم يتم الإفراج عنا .
وقال له الضابط الكبير ساخرا :
ـ وهل تظن أننا نصدقكم فى أنكم تؤيدون الحكومة ؟
وفغر ذلك المؤيد فاه من الدهشة وقال :
ـ ماذا تعنى ؟
واستمر الضابط فى سخريته :
ـ إن كنا نحن ولم يلحقنا هذا العذاب والهوان لانؤيد الحكومة فى أعماقنا .
ـ أنتم ؟
ـ نعم نحن ..
ـ هذا غريب والله ! ولكن بالنسبة لنا ..
ـ ماذا عنكم ؟
ـ هل نحن نمثل عليكم فى تأييدنا للحكومة ؟
ـ بالتأكيد .. نحن واثقون من هذا .
ـ إذن لافائدة من الإفراج عنا ؟
ـ من قال هذا ؟
وفى يأس قال له المؤيد :
ـ نؤيد الحكومة فلا تصدقوننا وتقولون نمثل عليكم ! إذن فمتى يفرج عنا ؟
وفى ابتسامة شيطانية قال له الضابط الكبير :
ـ نحن ننتظر حتى تتقمصوا الدور وتندمجوا فى التمثيل !!

ـــ وبعدها تفرجون عنا ؟
ـــ بالضبط .

هكذا كانت تدور الأمور ، الكل يخدع من حوله ، وأصبح الزيف منهجا وطريقة فى التعامل والحياة . وصار الكل يمثل دوراً ينبغى عليه إتقانه،ويستغرق فيه حتى يصدق نفسه فى النهاية ، وينسى مابداخله من أعماق قد تختلف عن سائر مايؤديه من أعمال ، أو ماينطق به من أقوال .

وبعد موت عبد الناصر وقبل دفنه كانت أمارات على وجوه الناس تقول إن هناك أمدا للخداع وإن طال .

ومع أن الموت شيء عادى وطبيعى ، ويصيب جميع الناس إلا أن موت عبد الناصر كان له شكل يختلف . وكنا نلمح هذا حتى فى وجوه بعض الضباط الذين كانوا ينظرون إلينا باسمين بين الحين والآخر ، وكأننا قد انتصرنا على عبد الناصر .

فهذا الجبار العنيد الذى أذل العباد وأجبرهم جميعا على الكذب والبهتان كان يتحدى الحياة بحياته ، وعندما انهزم فى يونيو عام ١٩٦٧ وأجبره الشعب على البقاء صارت كلمات تخرج على استحياء من هنا وهناك تنقد الأوضاع فى مصر ، وتنادى بضرورة التغيير ، وأن النظام بما قدم كان سببا فى تلك الهزيمة القاصمة أمام اليهود .

وكثرت هذه الكلمات وصارت رأيا عاما ينادى بهذه الضرورة ، ولعلهم كانوا يريدون أن يقولوا إن من يجب تغييره هو رأس النظام نفسه ولكنهم لايستطيعون .

وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة

وكان هو فى الواقع سبب الفساد والهزيمة ، أو الهزيمة التى جاءت من الفساد .. وقد تعلمنا من التاريخ أن كل مستبد أو طاغية يحيط نفسه بمجموعة من الأوغاد قد تربوا معه ونشئوا على هَدْيه وأُشْرِبُوا تعاليمه ، ولايجعل أحداً جديداًينفذ إليه من هذا الإطار أبدا ، وعلى من يريد النفاذ والاقتراب من دائرة السوء هذه عليه أن يكون أكثر فسادا من حاشية الزعيم ، وهو أمر صعب جدا ، فمدرسة المستبد تجعل من يحيطون به فى الدرك الأسفل من الفساد والإفساد ، ويصعب أن يتجاوزهم أحد . ومن ثم فمن أين يأتى للناس بجديد وحاشيته محدودة والنفاذ إليهم كما قلنا ؟

والشعب ينادى بالتغيير ، ويتجاوب الزعيم الخالد مع هذه النغمة ، ولكن من يغير ؟طغمة قد عرفها وعرفته من أيام ٢٣ يوليو يعز من يشاء ويذل من يشاء منهم

وهذا هو التغيير ، والذى لايعجبه ينفلق . يؤوى إليه زكريا محيى الدين ثم يصرفه ويأتى بعلى صبرى ثم يصرفه ، وهناك أنور السادات وحسين الشافعى وكمال رفعت وحسن التهامى وبعض المصارعين والأفاقين والقتلة والمتآمرين .

كان السيد كمال رفعت يشرف بنفسه ويأمر بجلد الناس وسلخهم فى السجن الحربى ، وكذلك كان يفعل السيد على صبرى ، وكلمة « السيد » هذه كانت لازمة من لوازم عصر الثورة .

فكل وغد يضعون قبل اسمه كلمة « السيد » وماهو بسيد .

وجميعهم قتلوا .

وجميعهم سرقوا .

وجميعهم أفسدوا فى الأرض

وليرفع أحدهم رأسه ويعلن أنه برىء من القتل والسرقة والإفساد فى الأرض ، وسوف نلقمه حجرا إن فعل .

* * *

وقد يكون الشعب مخدرا ومضحوكا عليه ، أما الذين عاشوا محنة السجن والمعتقل فمن الصعب خداعهم ، فهم الذين رأوا الوجه الصحيح القبيح لهؤلاء المتأنقين الذين تطالعنا الصحف بوجوههم الكالحة التى امتلأت بغضب الله ظاهرا فى القسمات ، وهم يبتسمون ويُصرِّحُون ويكذبون ويخدعون ، وجميعهم جُهالٌ لايقدرون على شيىء مما كسبوا ، فما بالك بحكم الدول ؟

ولم يكن لأحد عند الزعيم الخالد حرمة ، فهو ينكل ويشرد أقرب المقربين إليه بلا تمييز ، إذا كان الأمر يتعلق بسلطانه وهيبته وتحكمه فى البلاد .

هذه هى مصر التى يعرفها المعتقلون فى طرة ، فى ذلك المساء من يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ ليلة مات الزعيم ، ومصر التى يعرفها أعوانه أيضا .

وقد تلقينا خبر موته بارتياح بالغ ، وشكرنا الله كثيرا على هذه المنة ، وعرفنا دور القدر الذى يغفل حسابه معظم الناس ، ولكنه يصدر عن خطة أزلية من تدبير الله سبحانه وتعالى .

ومن ثم يقلب الموازيين ويغير كافة المخططات !

وللمستبد فى نفوس أتباعه هيبة ورهبة وعبادة ، حتى إنهم ليضفون عليه صفة أو صفات مما اختصها الله سبحانه تعالى لنفسه ، ومنها الخلود ، فهم فى العادة يظنونه دائما لايموت ، أو أن موته بعيد لايدركونه .

وعندما يأخذه الله سبحانه وتعالى فى لحظة أخذ عزيز مقتدر فإن هذه النفوس تفقد توازنها وكأن الكهرباء قد صعقتها ، وكان أكثر الناس ذهولا بموت عبد الناصر هم أتباعه وخدامه ، إذا استثنينا أولئك الذين قتلوه ، إن صحت الشائعة التى قيلت وقتها وصدقها الكثيرون ورغم كثرة شواهدها إلا أنه لم يقم دليل حاسم عليها بعد . وكان عبد العال سلومة قائد معتقل طره السياسى أكثر خدم عبد الناصر إخلاصا له فيمن نراهم . وعندما مات عبد الناصر أصاب عبد العال زلزال ، وتصدعت نفسه من هول الحادث ، وظل أياما لايصدقه ، أو لايريد أن يصدقه .

وعندما تبين له أنه قد مات أرسل يطلب كتابة برقيات عزاء فى وفاة الزعيم.
نرسلها باسم من ؟
لأأذكر !

برقيات العزاء الزائفة

وحدث جدل كبير بين المعتقلين ، هل نرسل برقيات تعزية أو لانرسل ؟ والحقيقة أن الموضوع نوقش بجدة أقل وبفكاهة أكثر ، وكتب قليل من المعتقلين برقيات عزاء وهم إلى الفرحة أقرب ، وربما كانوا يريدون أن يعيشوا وفاة عبد الناصر بشىء من الجدية واليقين .

وذهب الشيخ عارف بعد تشييع الجنازة إلى مبنى الإدارة ، وفى يده حزمة من البرقيات وصار يناقش الحارس :

ـــ نريد أن نرسل برقيات تعزية فى الرئيس ، لاأراكم الله مكروها .

ويرد عليه الحارس فى ضجر :

ـــ ياشيخ عارف احنا مش فاضيين .

ـــ ياسيدى لازم نعزى ونقوم بالواجب .

ـــ والنبى تسيبنا فى حالنا .

ـــ والله كنا نريد أن نرسلها مع مخصوص إلى جهنم ليسلمها إلى سيادته شخصيا .

ويضحك الشيخ عارف ملء شدقيه ، وهو يعود من المكاتب ممزقا فى طريقه تلك الأوراق التى كانت بيده .

* * *

الساداتية مكان الناصرية

شمل الصخب أرجاء المعتقل بعد إعلان خبر وفاة الرئيس ، وبعد إذاعة دفنه على الهواء عبر التيلفزيون . ومن خلال هذا الصخب كان هناك صمت فى الأعماق حيث يفكر الجميع فى مستقبل البلاد وهى فريسة لهؤلاء الأوغاد الذين يمسكون بتلابيبها ويمزقون أوصالها ، ويقتلون الرجولة والكرامة فى أبنائها .

بهزيمة يونيو عام ١٩٦٧ عرف الناس نتيجة الاستبداد ، ورأوا آثاره واضحة .

وعندما مات عبد الناصر بطل السحر وهزَّ الناس رءوسهم ليفيقوا .

لقد دخلنا المعتقل ولايجرؤ مخلوق على نقد الحكومة همسا ، وكنا أثناء التحقيق حيث التعذيب نشيد بالزعيم الخالد وتفوقه وعظمته التى ليست لها حدود .

ورويدا رويدا صرنا نتهامس بما يعن لنا من أفكار أو انتقادات .

وتطورت الأمور ، وارتفعت أصواتنا نقدا ونقاشا مع من يأتى إلى المعتقل من طوائف جديدة تنتمى إلى النشاط المعادى ، حيث تكون التهمة أكثر غموضا وعدم تحديد ، أو من يأتون بهم من منظماتهم : الاتحاد الاشتراكى ومنظمة الشباب ، أو من جاءوا كممثلين للكنيسة القبطية ، فأغرب ماكنا نجده بعض القادمين الذين يؤمنون بعظمة الزعيم الخالد ، أولئك الذين تم اعتقالهم بعد خراب مالطة .

ثم تجاوز النقد والكلام أية حواجز ، ووصل خبره إلى كل مكان .

وبدأبعض الساخرين يقول إن الناصرية قد انتهت وبدأ عصر الساداتية ، وانزعج عبد العال بك وقال :

ــ هل معقول أن يوجد من يدعى الساداتية ؟

وقلت له :

ــ ياعبد العال بك هذا أمر طبيعى .

وضاقت عيناه وهو يقول :

ــ إذن فالكلام صحيح ؟

ــ صحيح مائة فى المائة .

ــ هل ينسى الناس الرئيس عبد الناصر بهذه السهولة والسرعة ثم يتحولون إلى ساداتيين ؟ هل هذا يصدق ؟

ــ هذا هو قانون مصر الخالد ياعبد العال بك .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ هل تعرف من هو أول الساداتيين فى هذا المعتقل ؟

وباهتمام شديد سألنى :
ـــ من ؟
ـــ سيادتك أول الساداتيين . هذا هو قانون مصر الخالد « اللى يجوز أمى أقوله ياعمى » . قد مات عبد الناصر ياعبد العال بك ومن الأفضل لك أن تنساه ، وأن تفكر فى السلطان الجديد ، الرئيس أنور السادات .

وبدا على الرجل الشرود والتفكير ، بينما واصلت الحديث معه :
ـــ هل تشك فى أن الرئيس هو أنور السادات .. ؟
وقاطعنى وهو يضحك :
ـــ مش راكبه عليه .. الرئيس أنور السادات ؟ .. والله ماهى راكبة !
ـــ لازم تركب ياعبد العال بك ..
وهز رأسه وهو يسألنى :
ـــ ماذا كنت تقول ؟
ـــ أقول هل تظن أن الرئيس السادات سوف يهتم قليلا أو كثيرا بالرئيس عبد الناصر ؟
وفزع الرجل وقام واقفا من مكتبه :
ـــ ماهذا الكلام ؟ هل يتنكر السادات للرئيس عبد الناصر ؟
ـــ سوف ترى بنفسك ، ومن الحكمة أن تفكر فى المستقبل ، وتعرف اتجاه الريح ، وإلا فالمباحث لاترحم . والرئيس مهما كان اسمه فهو جبار عظيم .
وعاد عبد العال بك إلى مكتبه فى هدوء :
ـــ يبدو أن الحق معك . وبماذا تنصح ؟
ـــ والله ياعبد العال بك أتمنى لو تنسى ماكان ، ولاتعد تهتم بما كان يسيطر عليك فى الماضى قبل موت عبد الناصر ، فلا شىء يدوم كما ترى ، ولاأحديعرف ماذا يأتى به الغيب ، ومصر تدخل مرحلة كبيرة من المتغيرات .
ـــ هل تظن هذا ؟
ـــ بالتأكيد .
وسكت واجما بعد أن أدرك قانون مصر الخالد وكان قد نسيه للحظات .
بدأ الناس فى المعتقل يعيدون النظر فى القضايا السياسية التى اعتقلوا بموجبها أو على هامشها كل هذه السنوات التى مضت .
وصار المعتقلون يتفكرون فى خلق المحققين الذين عذبوهم وأهانوهم وقتلوا بعضهم

وكان غاية همهم هو التلفيق وهم يعلمون .

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » !

فهذا مثلا قائد المعتقل ، لماذا كل هذه الشراسة فى معاملة المعتقلين ؟ إنه يمقتهم ويتمنى قتلهم . لماذا ؟

سؤال تصعب الإجابة عليه .

استهوته الشياطين فى الأرض حيران

لعل عبد الناصر معذور فيما فعل إذا علمنا أن هناك دورا عليه أداؤه لتثبيت حكمه ، وهو أمر يتوقف بالتأكيد على إرضاء قوى أجنبية فى الشرق والغرب ، وهو لايمكنه عصيان هذه القوى ، وإلا فقد شرعيته فى عالم العمالة والخيانة الوطنية ، ومن ثم يفقد سلطته .

فقد كان عبد الناصر واضحا فى كافة تصرفاته ، وكان منسجما مع نفسه وفى سبيل تحقيق أهدافه ،ولايخفى ذلك إلا على البلهاء والخائبين ، أما الذين ينظرون إلى الأمور بوضوح وحكمة فلا يخفى عليهم من سلوكه شىء .

أراد العزة فأخطأ طريقها ، ظنها فى الغرب مرة ، وبحث عنها فى الشرق مرة أخرى ، وصار كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى أن ائتنا فيقتلهم ويسجنهم .

ضرب الإخوان ضربا مبرحا فى عام ١٩٥٤ ، وهكذا كان الاتفاق ، ومن الوثائق التى كشفت عنها الخارجية الأمريكية بعض البرقيات المتبادلة بين السفير الأمريكى وبين الوزارة ، ومن يقرؤها يأخذ هذا الانطباع وهو أن السفير يفهم ويعلم ماذا يدور بين الحكومة والإخوان . رغم أن هناك قانونا يمنع حظر كثير من المعلومات فى الوثائق لحماية عملائهم فى بلدان العالم .

فمن ذلك القليل من الأوراق التى سمحوا بنشرها يفهم هذا ، فماذا لو سمحوا أوجاء الوقت فنشرت كافة الأوراق ؟

واليقين عندنا أن كل هذه الأسرار سوف تكشف يوما ما بالوضوح الذى لايجعل فيها لبسا أو غموضاً .

فإن كان هذا هو شأنه فما بال الضباط والمحققين ؟

هم ينفذون سياسة الحكومة .

لابأس من هذا ، ولكن هل يتجردون من الوطنية ، ومن الإنسانية ، ويهبطون إلى هذا الدرك الأسفل ؟

تتحول كل أجهزة التحقيق بمن فيها إلى أجهزة عميلة تعمل لحساب القوى الأجنبية وهى تعرف وتدرك ماذا تفعل ، وفى نفس الوقت تعذب المعتقلين عذابا شديدا ، وتنتزع منهم اعترافات تفيد هذا المعنى .

أن تخلو كل القلوب من الشفقة والرحمة ومعانى الوطنية بوعى وإدراك .

هل هذا مافعله الرئيس الراحل بمصر أم أن شعبها مهيأ لهذا الدرك الأسفل من أنواع الحياة ؟ أم الاثنان معاً ؟

* * *

وقد تحتاج هذه الأمور إلى علماء فى الاجتماع والفلسفة والتاريخ ، ولكن من الملاحظات البدهية البسيطة نرى أن الشعب المصرى بما يحمله من سبعة آلاف سنة حضارة هو شعب مستكين بليد لايثور ولايغضب ، ولايحتج ولايحرك ساكنا إذا ماظلم أو اضطهد .

هذا هو الواقع المؤسف الحزين الذى يجب علينا أن نفهمه ونعيه حتى لانكون كالذى ينفخ فى « قربة » مقطوعة .

وعلى دعاة الإصلاح والإسلام فى هذا البلد أن يعوا هذه الحقيقة جيدا ،وأن يتصرفوا مع الناس على ضوئها .

مصر بلد كلها عبيد لمن غلب .

والذى لم يقرأ التاريخ يأتى فيشاهدنا ونحن نتقلب من معتقل إلى معتقل ، وتلفق لنا القضايا ونحاكم عليها ، ويرى هذا ويبصره كل قطاعات الشعب ، ولايرتفع صوت باحتجاج أو بنصيحة .

حتى علماء الدين ومشايخ الأزهر كانوا يصفقون ويباركون المستبد وهو يعلق المشانق ويسلخ الجلود .

ربما لو رُبى هذا الشعب على الإسلام قد تتغير أحواله وتتبدل طبيعته ، ولكن ليس قبل هذا .

ومن الحكمة أن يتوجه الدعاة إلى الناس بالتربية وتغيير المفاهيم ، وليس من الحكمة أن يطلب منهم أكثر من هذا .

والتربية وتغيير المفاهيم تحتاج إلى إصرار وإلى أجيال ، وإلى فهم من الدعاة الذين يقومون على هذا .

فهم لطبيعة العالم الذى نعيش فيه .

وفهم لطبيعة حكامنا فكلهم صنائع الغرب والشرق ، قد تم إعدادهم عبر قرن من الزمن ، وهم يتبادلون استعمالهم . وهم فى الأول والآخر أعدؤنا ، وعداوتهم مستقرة فى قلوبهم . ومن انتابه شك فى هذا فلينظر ماذا يصنعون بنا .

عندما نام الشرق أقسم الغرب ألا يوقظه من سباته أبدا .

كنا مستضعفين فى الأرض

كل الشعوب تثور على حكامها الظالمين إلا شعبنا المسكين . وقد سقاه عبد الناصر خوفا وذلاً وقهراً لن تخف درجته قبل زوال جيلين أو ثلاثة .

وكان الأجدر بالناس أن يرفضوا ويحتجوا ، وهم ليسوا فى حاجة إلى تنظيم يقودهم .

كان على الكاتب الشريف ألا يطبل ويزمر ولو مات جوعا .

وكان على الصحفى أن يمتنع عن التزييف .

وكان على الضابط الوطنى ألا يضرب مخلوقا ولو مزقوه .

والقاضى لايحكم إلا بالعدل مهما حدث .

وشيخ الأزهر يتذكر الحديث الشريف « سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله »

وكان عبد الناصر إماما ، وهكذا قال القرآن الكريم « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » .

يجب أن تنتشر الطليعة المؤمنة حتى تشمل سواد الشعب كله ، وعندها سوف ينجز مايريده المؤمنون بهدوء ودون ضجيج ، ولكن ليس قبل هذا أبداً .

استطراد نعتذر عنه .

مصر بكل طوائفها فى المعتقل

ونعود إلى معتقل طره السياسى بعد يوم ٢٨ سبتمبر عام١٩٧٠ .

لم يكن فى مصر اتجاه سياسى أو دينى ليس له من يمثله فى معتقل طره السياسى ، وليس فى هذا القول أدنى مبالغة .

فقد كان هناك الإخوان المسلمون ، وهم بطبيعة الحال يمثلون الحجم الأكبر من المعتقلين ، عدداً ونوعاً ومعاملةً .

وكان هناك ممثلون لكل الجمعيات الإسلامية المشهرة ، والتى لم يسمع بهاإنسان من قبل .

وكان هناك فصائل التمرد والرفض الإسلامية التى خلقت فى رحم المعتقل .

وكانوا فى ذلك الوقت أفرادا يتجاوزون العشرة بقليل ، وكانوا يقيمون فى غرفة رقم ثلاثة من عنبر اثنين-عنبر الخطرين .

ومن خلال هؤلاء صار هذا الزخم الهائل الذى يملأ مصر وكافة بلاد العالم ، العربى منه وغير العربى ، الإسلامى وغير الإسلامى .

ويرجع الفضل فى هذا أولا وأخيرا للرئيس جمال عبد الناصر .

ويرجع أيضا لمباحث أمن الدولة ، وسائر أجهزة التحقيق والاستجواب .

والغريب أن كل أجهزة الأمن آنذاك كانت أجهزة تحقيق واستجواب .

هؤلاء هم الذين حقنوا ذلك الشباب بالتمرد والرفض .

« ولتعلمن نبأه بعد حين » !

وكان فى المعتقل مندوبون عن الكنيسة القبطية ، لايعرفون سبب اعتقالهم ، ويجيبون بهذا عندما نسألهم فى ابتسامة طيبة صادقة .

وكان ضباط المباحث لايعرفون سبب اعتقالهم أيضا !

ومثل هؤلاء كثيرون فى معتقل طره السياسى .

شباب وشيوخ من كافة الاتجاهات ، لاهم ولاغيرهم يعرف سببا لوجودهم معنا .

وقد عرفنا بعد ذلك أن التنظيم الطليعى — الذى كان له وجود فى كل مكان فى مصر — يمكن أن يوصى أى فرد من أفراده باعتقال أى مواطن من خلال تقرير يكتب لايحقق أحد فى صدقه من كذبه ، ويذهبون بهذا التقرير إلى رأس كبيرة شريرة نجسة ، فيقوم صاحبها بكتابة كلمات لاتزيد على ثلاث ويمهرها بتوقيعه « يتم اعتقال المذكور » ، ويتم ذلك بمعرفة ضابط لايعرف السبب ويلقى المسكين بطره ، وبعد أن يمل من كثرة الأسئلة يستسلم لمصيره ، ويحمد الله عندما يسمع منا قصص العذاب التى مرت بنا ، ويشعر أنه فى نعمة غامرة .

وقد يفرج عنه لسبب لايعرفه أحد ، وفى وقت لايتوقعه أحد .
يفرج عنه وقد صار له ملف بمباحث أمن الدولة .
يراقبونه ويتتبعونه ويمنعونه من السفر أحيانا ، وإن أذنوا له بالسفر فهم يترقبون وصوله ، ويفتشونه ويحققون معه ويسألونه أين كنت ، وماذا كنت تعمل ، ومن قابلت ، ولاتكذب علينا ، نحن نعرف كل شىء .
وقد يعيدون اعتقاله مرة ثانية عندما يفعلون مايسمى بضربة إجهاض أو الاعتقال الوقائى .
والمسكين لايعرف شيئا ويظن أنها طبيعة الحال فى مثل هذا المجتمع .
وقد تتطور أحواله ويرى نفسه منسلكا فى تنظيم من التنظيمات ، أو حزب من الأحزاب ، التى كثرت فى مصر هذه الأيام .

حوار مع الشيوعيين

وكان الشيوعيون بطبيعة الحال ــ ولعلهم الوحيدون ــ الذين توجسوا خيفة من موت عبد الناصر ، فقد كانت الريح معهم والدولة معهم ، وهؤلاء المعتقلون منهم ربما كانوا بمثابة رهائن لضمان حسن سلوك الذين فى الخارج ، وربما كان اعتقالهم كنوع من الصراعات الداخلية فى الاتحاد الاشتراكى ، أو مايسمى بالتنظيم الطليعى ، أو مايسمى بالسيد على صبرى .
الله أعلم :
ولكنهم أجفلوا عندما سمعوا النبأ العظيم .
ولعل توجسهم وخوفهم لأنهم شعروا بغريزتهم السياسية أن موت عبد الناصر هو بداية توقف المد العلمانى اللاديني الذى شمل مصر .
وكانوا حديثى عهد بالحرية ، فقد اعتقلوا بعد عام ١٩٦٨ ، وكانوا يحدثوننا عن ظاهرة صارت واضحة فى مصر ، بدأت واستشرت بعد النكسة ، فتيات محجبات قد ظهرن فى الطرقات والجامع والأسواق والحرم الجامعى ، وكانوا يقولون إنها ظاهرة خطيرة وتمثل ردة إلى الدين ، نعم هكذا كانوا يقولون ، ردة إلى الدين ، وأن هذه الردة قد تقوى لو وجدت الظروف المناسبة .
وكان توقعهم فى محله ، وكان موت عبد الناصر بمثابة فتح الباب لمن أراد العودة إلى الدين ، وقد كان .
وكانوا يوجعون رءوسنا بكلام كثير لامعنى له ، ويسألوننا عن البرنامج .
برنامج إيه ؟

وكنت أقول لبعضهم مثل هذه البرامج التى تتحدثون عنها علاقاتها عضوية بالواقع الذى نعيشه ، فهى خطط للتعامل مع المجتمع بشكله الردىء الذى ترون ، والمسألة أبعد من هذا وأعمق .
ويقول قائلهم :
ــ كيف ؟
وأرد عليه :
ــ لو رأيت رجلا يغرق ، وعلمت أنه مصاب بصداع فى الوقت نفسه. هل تشفيه من الصداع أم تنقذه من الغرق ؟
ويرد فى حيرة :
ــ ماذا تعنى ؟
ــ مجتمعنا رجل يغرق ، والبرنامج هو المسكن الذى يشفيه من الصداع ، وهو أصناف وأنواع متغيرة ، وكل يوم تطلع علينا الشركات بأسماء عديدة منه .
والذى يجب علينا آن ننتشله من الغرق أولا ، ثم نعالجه من الصداع .
والغريب أن كل ماكانوا يرددونه أمامنا من هراء هيجل وماركس عن « الديالكتيك » والدافع الاقتصادى للحياة ، وأنه الدافع الوحيد ، والصراع الطبقى ، وديكتاتورية البروليتاريا ، والتفسير المادى للتاريخ ، كل هذا دخل المتحف الآن ، وفى زمن وجيز ، وصارت الدول الشيوعية تفكر بطريقة مختلفة ، وتبحث لها الآن عن مخرج من الاشتراكية الآخذة بتلابيبهم ، ولعل هذا القرن لاينتهى حتى تنتهى معه هذه الأفكار ، وتصير المسألة فرقة من الفرق التى ظهرت وماتت مثل « المزدكية » أو « الزرادشتية » أو غيرها مما تحول إلى كلام باهت فى كتاب قديم .

وكنا نقول لهم :
ــ ماسبب إعجابكم بعبد الناصر وإخلاصكم له ؟ هل هى حمى عبادة الفرعون التى أصابت مصر منذ آلاف السنين ؟
وكان يرد واحد فيهم ــ قد نسيت اسمه الآن ــ وكان عصبيا صاحب مزاج متغير طول الوقت ، وهو أيضا مغرم بالكلام العظيم الفخيم الذى ليس وراءه معنى محدد واضح .. كان يقول :
ــ عبد الناصر أول قيادة وطنية تأتى مصر منذ آلاف السنين .
ــ دعنا من آلاف السنين فهذا أمر من الصعب الحكم عليه .

ـــ كيف ذلك ؟ يصعب علينا تجزئة التاريخ ، الماضى مرتبط بالحاضر والمستقبل .
ـــ فماذا تقول فى صلاح الدين الأيوبى وقضائه على الصليبيين ؟
ـــ هذا موضوع مختلف .
ـــ وماذا نقول فى قطز والظاهر بيبرس وقضائهما على التتار ؟
ـــ هذه قصة أخرى .
ـــ ماهو معنى القيادة الوطنية فى نظركم ؟
ويفكر قليلا ويقول :
ـــ القيادة الوطنية هى تلك المجموعة العفوية غير المريدة تكونت عبر التراكمات الكمية والتى يفرزها الشعب من خلال تفاعل عوامل الميثولوجيا مع الدياليكتيك الطبيعى آخذين فى الاعتبار كل ماله صلة من فينومولوجيا التغيير لتحقيق ديكتاتورية البروليتاريا
وينظر بعضنا إلى بعض بين الهزل والجد ويرد أحد الظرفاء :
ـــ هذه تحتاج إلى صيدلى ليتولى شرحها .

القيادة الوطنية قيادة إسلامية

وأقول له :
القيادةالوطنية هى التى تعمل لصالح الوطن ، وترفض العمالة للشرق أو الغرب وتغلب مصلحة البلاد على مصالحها الشخصية ، وهى التى تدرس المشروعات قبل تنفيذها ، وتقدم أهل الخبرة ، وتعطى الشعب حريته ، وتصون كرامة الأفراد ، وتنشىء جيشا قويا يصمد فى المعارك وينتصر ، وتسمح بحرية التعبير وحرية اختيار ممثلى الشعب فى مجلس نيابى حر منتخب . وأزيد على ذلك فأقول لك قولا قد تراه عظيما ، وهو أن القيادة الوطنية هى التى تسمح بإنشاء الأحزاب ، وحرية إصدار الصحف .
وبدا الذهول والعجب فى عنبر الشيوعين ، فقد كانت مسألة الأحزاب وحرية إنشائها ، وكذلك الصحف قد صارت غريبة وعجيبة ، وعُدت من دنس العهد البائد الذى انتهى بقيام الثورة المباركة ، ودرس التلاميذ فى المدارس أن سبب فساد مصر هو الأحزاب .
وارتعشت شفتا الزميل وهو يقول :
ـــ هل تري أحزابا فى مصر ؟
ـــ أنا أُعرِّف لك القيادة الوطنية ، ومصر بها أحزاب غير معلنة بالفعل ، فكل منا أنا وأنت ينتمى إلى حزب غير معلن .

ـــ كيف ذلك ؟
ـــ أنا أنتمى إلى الحزب الإسلامى ، وأنت تنتمى إلى الحزب الشيوعى العلمانى .
ـــ هل هذه هى الصورة فى نظرك ؟
ـــ هذه هى الحقيقة التى لامراء فيها ، وهى تبدو جلية واضحة لاينكرها إلا جاحد .
ـــ القيادة الوطنية فى مصر يجب أن تكون قيادة عمالية .

وأسرعت أقول له :

ـــ أنت قد قلت بنفسك إن القيادة الموجودة بمصر ليست وطنية ، وإنك تنتظر قيادة عمالية لن تكون أبدا .

وقال لى فى تحد :

ـــ وأنت ماذا تنتظر ؟

وقلت له واثقا :

ـــ أنا أنتظر قيادة إسلامية يسرع الزمن فى تحديدها وسوف تكون .

وينظر إلى الزميل نظرة خنزيرية وهو يتمتم :

ـــ مصر فقدت استقلالها وكرامتها بالاستعمار الاسلامى ـــ هكذا قال ـــ وعندما جاء العرب وحكموا هذه البلاد أفسدوا كل شيىء ، واضطهدوا المسيحيين ، وحولوهم عن دينهم بالقوة .

وقلت له فى هدوء :

ـــ ينبغى على من يتعرض لتغييرالمجتمعات مثلك أن يقرأ التاريخ ، وأن يعى درسه ، وألا يلقى الكلام على عواهنه .

أنت تتكلم عن الاستقلال والكرامة اللتين فقدتهما مصر بالفتح الإسلامى .
ويجب أن تعلم أن مصر قبل هذا الفتح كانت مستعمرة رومانية ، وكان السادة البيزنطيون الذين يحكمون البلاد يدينون بمذهب مسيحى مخالف لمذهب الكنيسة القبطية ، وهو المذهب الملكانى الذى يقول بالطبيعتين للمسيح ، ثم أنزلوا اضطهادهم بآباء الكنيسة حتى هربوا إلى الصحراء الغربية فى أديرة لايعلم مكانها أحد ، خوفا من القتل والحرق .

وقد تم إعطاء الأمان لكل الهاربين ، وترك لهم حرية الاعتقاد ، ولم يجبر مسيحى واحد على تغيير دينه ، والدليل على ذلك ـــ بالإضافة إلى ماكتبته كتب التاريخ ـــ

هو وجود المسيحيين معنا فى عنبر اثنين ، فلو كان المسلمون قد قضوا عليهم بعد اضطهادهم لما رأيتهم معتقلين معنا اليوم ، ولما وجدت قبطيا واحد فى مصر .

أما مسألة اضطهادهم التى تقول بها فقد يأتى مؤرخ « حمار » بعد ألف عام ويقول إن عبد الناصر كان يضطهد المسيحيين فى مصر ، ويستدل على هذا بالمسيحيين الموجودين بالمعتقل الآن ، وينسى أن مع كل معتقل من القبط يوجد مائتا معتقل من المسلمين ، فأى مستبد ظالم يضطهد الجميع ويظلمهم ، ولايفرق فى البطش بين الناس ، وهاأنت ذا ترى بنفسك الرئيس الراحل وهو يضطهد جميع المصريين .

ويحاول أن يغير الموضوع بعد أن يتبين جهله :

ــ يجب أن نفكر فيما سوف يأتى بعد عبد الناصر . لقد ترك فراغا عظيما .

ــ إن أعظم ماقدمه عبد الناصر لبلاده أنه مات ، وهو أمر للأسف لم يكن له فيه اختيار ،ولا فضل له فيه ، فقد كان أحرص الناس على حياة ، وإن موته فرصة عظيمة للتنفس ومحاولة لتحقيق الأهداف .

ويكمل لى مستفسرا :

ــ الوطنية ؟

وأقول له قاطعا :

ــ الإسلامية .

لست بصاحب مبادئ، فلماذا يعتقلوننى ؟!

ثم يجلس فى عنبر النشاط المعادى هؤلاء المساكين الذين لاينتمون إلى المسلمين ولا إلى الشيوعيين ، بل لهم تهم غير واضحة وليست محددة المعالم ، ومنهم من عذب ، ليس بالقدر الذى أصابنا ، ولكنه قدر كاف أن يعبد الحكومة من دون الله ، ومنهم من لم يعذب ، بل اكتفى بإيداعه فى مكان أمين إلى أجل يعلمه الله سبحانه وتعالى .

وكان هناك عظيم من المعتقلين من هؤلاء المسمين بالنشاط المعادى ، وكان ينتمى إلى حزب كبير قبل الثورة ، وقد تم اعتقاله على أثر جنازة المرحوم مصطفى النحاس باشا ، وكان قد ضاق ذرعا بالاعتقال الطويل الذى لايبدو له آخر ، ونمسك عن ذكر اسمه لمكانته الكبيرة الآن فى صفوف المعارضة المصرية بمجلس الشعب .. كان

يقول :
— أنتم لكم فى أنفسكم مايبرر اعتقالكم ، فأنتم مؤمنون موحدون ، أصحاب مبادىء تموتون فى سبيلها وتستعذبون هذا . أما أنا فلست كذلك .

كل مايدينني هو انتمائى إلى حزب قد مات وانتهى وقضت عليه الثورة بقرار ، فلماذا يعاملوننى الآن معاملة الزعماء وأبقى هذا الوقت الطويل فى المعتقل ؟ لاأمثل قضية ولاأدافع عن وجهة نظر ، وليس لى شأن بما يدور فى هذه البلاد ، ولست أدرى ماذا ينبغى أن أفعله حتى يفهم الناس الذين يحكموننا حقيقتى . ولو أعرف طريقة أفهم بها الحكومة هذه الأمور لفعلت .

وكنا نستمع إليه باسمين مشفقين ، وتتسع ابتسامتنا الساخرة بعد مرور تلك السنين الطويلة على هذه الأحداث ، عندما نرى ذلك العظيم وقد صار عظيما كبيرا ، وقطبا من أقطاب المعارضة ، ونضحك ونحن نراه الآن يحاول أن يأخذ لنفسه مكانا فى صفوف الحكومة بأية طريقة ، والحكومة ترفضه ولاتثق فيه .

زعيم بلا قضية ، وليست له وجهة نظر ، وقد صرح بهذا أمامنا منذ أكثر من عشرين عاما !

كان إنسانا مسكينا جرحته الثورة ، وضربت كبرياءه ، وجردته من كل معانى الإنسانية التى تحتويها نفسه .

أمريكا هى التى صنعت الانقلاب

كان البعض يقول إن حكومة الثورة هى قيادة وطنية قد حققت أهدافا عظيمة ، ونقلت المجتمع نقلة هائلة إلى آفاق جديدة . وكان الذين يقولون بهذا خائفين ومرعوبين من الحكومة . ويعرفون أن الطريق الوحيد إلى الخروج من هذا المعتقل الطويل هو الكذب والنفاق والتضليل . وصاروا يكذبون ويكذبون ، ومع مرور الوقت صاروا يصدقون أنفسهم ، ويتوهمون أن هذه هى أفكارهم الحقيقية الصحيحة ، واختلط الحق مع الباطل فى عقولهم وقلوبهم ، وكنت تلمح هذا جليا واضحا فى النقاش ، فتجدهم سرعان مايتشككون ، ومن ثم يسكتون،لايوافقونك ولكن لايردون .

— لماذا قام هؤلاء الضباط بالانقلاب ؟

— من طبيعة الأشياء أن يتشوف الناس إلى الأحسن ، وكان الضباط مغامرين يريدون

التغيير ، ويحدوهم فى هذا أمل للإصلاح ، يتوهمون الوصول إليه عبر حكم البلاد .
ـــ لن نختلف حول هذا المعنى ، ليكن كما قلت .
فماذا فعلوا وماذا كانت النتيجة ؟
ـــ أخبرنى أنت .
ـــ كانت البلاد تحكم حكما ديمقراطيا فاسدا ، وهناك ملك يملك ويتدخل فى الحكم .

ويقول متحمسا :

أنت قد قلت بنفسك .

واندفع قائلا :

هذا الفساد الذى تكلمت عنه يصعب علينا الوصول إلى درجته ، بعد أن تمزق المجتمع وقضى عليه .

ويهدأ صاحبنا من النشاط المعادى ويقول : لنعد إلى الموضوع ولاداعى للتفرع .

ـــ اتفق الضباط بمعرفة عبد الناصر مع الأمريكان ، وتم أخذ الإذن منهم قبل القيام بالانقلاب .
ـــ هذا أمر مشكوك فيه .
ـــ هذا أمر لاخلاف عليه .
ـــ لنكن موضوعيين ، كيف اتفق الضباط مع الأمريكان ؟
ـــ بعد الحرب العالمية الثانية ضعفت بريطانيا العظمى وتأخرت ، بينما تقدمت الولايات المتحدة الأمريكية لتأخذ مكانها . وبدأت نشاطها فى مناطق نفوذ البريطانيين بعمل انقلابات عسكرية . والذى يعنينا هنا هو منطقة الشرق الأوسط . وكان انقلاب حسنى الزعيم فى سوريا عام ١٩٤٩ ، وفشل الانقلاب .

ولم يتحقق استقرار هناك ، ومن ثم اتجهوا إلى مصر .

وكانت الاستراتيجية الأمريكية آنذاك هى العمل على منع الدول الفقيرة من الوقوع فى أحضان الشيوعية التى كانت خطرا فى هذا الوقت .

وفكر الأمريكان فى أن يقوم الملك فاروق بعمل انقلاب على نفسه ، ويتم هذا من خلال عدة إصلاحات وإصدار تشريعات تحول بين الجماهير الفقيرة وبين الثورة ، واقترحوا توزيع الأراضى الزراعية على الفلاحين ، وأوعزوا إلى بعض أعوانهم بعمل

مايسمى بحزب الفلاح لهذا الغرض ، وجاء رجال المخابرات الأمريكية إلى مصر ، واتصلوا بالملك والسراى ، وعرفوا مايدور على الساحة المصرية من توثب لتغيير النظام الملكى ، وأن هذا تيار غالب تؤيده الجماهير فى أعماقها ، وينبغى مسايرة هذا الاتجاه لقوته .

وبطبيعة الحال كان من السهل الوصول إلى تنظيم فى الجيش المصرى يصدر المنشورات ويتصل بكبار الصحفيين . ومن السهل أيضا التنسيق مع بعض الضباط ذوى الطموح ، وتشجيعهم ودفعهم إلى الانقلاب مع وعد بالمساندة والتأييد .

واندفع معترضا :

ــ هذا محض خيال .

ــ لايتم انقلاب عسكرى فى بلد من بلدان العالم الثالث إلا بهذا .

وأراد أن يستكمل وبدت عليه الرغبة فى السماع .

ــ فلتستكمل الكلام .

وقلت :

ــ اتفق على تنفيذ الانقلاب فى وقت يحدده الضباط ، وليس بالضرورة أن كل من اشترك فى هذا الانقلاب من العملاء ، ولكن يكفى واحد أو اثنان .

وفى اليوم الأول أرسلوا على صبرى إلى السفارة الأمريكية ، وكان على صلة بها . وهذا ليعلمهم بما حدث ، ونشرت الصحف أو قالت الأخبار يومها إن هذه الزيارة ليطمئن الأمريكان على أرواح الأجانب ومصالحهم . ولاأظن أن مجرد ذهاب أحد الضباط إلى السفارة بمثل هذه العبارة يطمئن أحدا ، بل من الضرورى أن يكون هناك اتفاق مسبق حول هذا .

ولم يخرج فاروق من مصر أو يتنازل عن العرش إلا بعد لقاء السفير الأمريكى كافرى ، وبعد أن تأكد أن هذه هى رغبتهم ، وأصر على حضور السفير مراسيم وداعه ليضمن السلامة بوجوده .

وسار قطار الثورة عليه العلم الأمريكى بنجومه الكثيرة .

* * *

وكان أول المشروعات التى طرحها أصحاب الانقلاب هو مشروع الإصلاح الزراعى الذى فكروا فى تنفيذه من خلال فاروق ، ثم صرفوا النظر عن هذه الفكرة ، وأثاروا التغيير على النحو الذى صار .

والإصلاح الزراعى وتحديد الملكية الزراعية مشروع ظاهره الرحمة ، وباطنه من قبله العذاب ، فهو يعطى الفقراء والمحرومين بضعة أفدنة يزرعونها ، وفى نفس الوقت يضرب الإنتاج الزراعى فى مقتل ، ففى الوقت الذى يتجه العالم فيه إلى « الميكنة » الزراعية ، ولايتم هذا إلا من خلال الرقعة الزراعية الفسيحة التى يمكن أن تتحمل تكلفة « الميكنة » ورأس المال المبذول من أجل زيادة غلة الفدان،إذ بنا نجدهم وقد فتتوا الأرض الزراعية ، وقد ظهر هذا بشكل لاينكر بعد توالى السنين . ولعلنا الآن ونحن نعيش عصر الاضمحلال نرى أثر هذا واضحا ، فقد انقرض الفلاح ، والله وحده هو الذى يعلم كيف تخضر هذه الأرض كل عام ، وكيف تدهور كل شىء ، وكيف تحولت القرية من وحدة منتجة الى وحدة مستهلكة ، حيث يعكف الفلاحون على أجهزة الفيديو التى تبث الأفلام المكشوفة ، وهذا بعد أن ينتهى الإرسال التلفزيونى . والوقت الذى كان ينهض فيه الفلاح المصرى من نومه قبل شروق الشمس صار هو الوقت الذى يخلد فيه إلى النوم ، حيث رؤى الأفلام تداعب أحلامه فى نوم متقطع مضطرب .

وقاطعنى مستاء :

ـــ أرجو ألا تخرج عن الموضوع ، نريد أن نصل إلى نتيجة ، ودعنا من حديث الفلاحين .

ـــ لنتكلم عن العمال .

ـــ أهناك حديث عن العمال ؟

ـــ شغب العمال فى كفر الدوار فحكموا بالإعدام على اثنين منهم بريئين وشنقوهما ، البقرى وخميس ، لعلك تذكرهما .

وشرد ببصره وقال :

ـــ اتهموا وقتها أنهم قد حرضوا من دولة أجنبية .

وضحكت وأنا أقول له :

ـــ أنت نفسك متهم أنك على صلة بدولة أجنبية .

ورد بعصبية :

ـــ هذا غير صحيح

ـــ أعلم أنه غير صحيح ، كل من فى هذا المعتقل متهمون بأنهم على صلة بدولة أجنبية وهو غي صحيح ، ولكن هذا هو منطق الشرطة فى التلفيق والدس للناس وتشويه صورتهم ، فهى تهمة لادلالة لها أو معنى ، وليس هذا مايعنينى ياصديقى فى الحديث .

عندما حوكم البقرى وخميس التقى محمد نجيب بالسفير الأمريكى ، وكان محمد نجيب هو الوجه الظاهر ورأس الانقلاب ، وحاول أن يعرف وجهة نظر الأمريكان فى القضية ، هل يعدمهما بعد التصديق على الحكم أو يخففه الى السجن المؤبد ، ولم يعطه السفير جوابا شافيا .

ـــ هذا الكلام غير منطقى .

ـــ لماذا ؟

ـــ فهمت من حديثك أن جمال عبد الناصر هو رجل أمريكا .

ـــ هذا صحيح .

ـــ مادخل محمد نجيب الذى يحاول إرضاء الأمريكان ، ويريد أن يعرف وجهة نظرهم فى قضية العمال ؟ هل محمد نجيب عميل هو الآخر للأمريكان ؟

ـــ حاول محمد نجيب إرضاء الأمريكان ، ولو شاءوا لصار عميلا لهم ولكنهم راهنوا على عبد الناصر الذى اتُّفِق معه من قبل .

ـــ إذن محمد نجيب هو الآخر عميل أمريكى ؟

ـــ أراد ولكنهم رفضوا ، فللأمريكان حساباتهم .

ـــ ولكن الثابت والمشتهر أن الإنجليز فى القنال أعلنوا الطوارىء بين قواتهم هناك ، وسرت شائعات مضمونها أنهم قد يتحركون إلى القاهرة فى محاولة للقضاء على الانقلاب ، فى سلسلة من التحرشات المشتهرة ، فما تفسير هذا ؟

هو سلطان قديم يرى نفوذه يتبدد ، ويرى الريح مع سلطان جديد قادم ، فهو لايسلم بهذا فى بساطة ، بل يحاول استبقاء سلطانه الذى يضيع . الإنجليز يفهمون أن الأمريكان قادمون ، ويأخذون مكانهم على عرش النفوذ فى مصر ، ويعرفون أنها طبيعة الأشياء ، وأنها التطورات الطبيعية لعالم مابعد الحرب العالمية الثانية ، وربما دارت بينهم وبين الأمريكان مناقشات حول هذه المسلّمة ، ولكنها حلاوة الروح كما يقولون . فلو استطاعوا استبقاء سلطانهم ونفوذهم فى مصر إلى عقد أوعقدين من

الزمن فيها ونعمت ، وكانت وسيلتهم هى محمد نجيب الذى كا يميل إليهم كلما رفضه الأمريكان أو ازوروا عنه .

ــ معنى هذا أن حكامنا عملاء ؟

ــ معنى هذا أن أمريكا تقتسم العالم هى وروسيا ، والنصيب الأكبر فى منطقة الشرق الأوسط يتبع أمريكا ، ومصر من هذا النصيب ، ولولا الأمريكان لما نجح الانقلاب .

هذه هى بدهيات التاريخ المصرى الحديث فى تفصيل طويل يفهمه ويعقله العالمون .

ــ ثم ماذا بعد ؟

ــ بعد سقوط الخلافة العثمانية ، وظهور نزعات التحرر القومية بين العرب ، وصيحات الاستقلال الوطنى فى بعض البلاد ، وارتفاع نغمة تدعو إلى الإسلام من جديد صارت تكبر فى مصر ممثلة فى الإخوان المسلمين ، وصدى هذه الدعوة فى البلاد الأخرى المجاورة ، ونشوء إسرائيل فى موضع القلب من العالم العربى ، كل هذا أدى إلى تفكير دهاة العالم فى عزل مصر عن العرب ، وضخ الدماء فى شرايين إسرائيل وتحويلها إلى دولة عظمى فى المنطقة ، ويتم ذلك بعد القضاء على موجة المد الدينى بضرب الإخوان المسلمين وتشريدهم وتمزيقهم ، وإيجاد نظام علمانى فاسد يخنق الحريات ، ويقضى على كرامة الأفراد ، وتضييع موارد الدولة فى المغامرات المختلفة ، ومن ثم يسهل إضعاف هذه المنطقة لمائة عام .

حدث الانقلاب وأهداف الأمريكان واضحة من الوهلة الأولى .

وسار التخطيط على النحو الذى رسموه .

لم يحدث تصريح واحد لأحد من الضباط ضد الكيان الإسرائيلى ، بل على العكس كانت هناك الاتصالات والمراسلات بين بن جوريون وعبد الناصر ، وكان الوسيط روبرت أندرسون الذى صار يطير بين تل أبيب والقاهرة ينقل الرسائل والأفكار والمبادرات .

وكان اليهود على وعى كامل بطبيعة النظام المصرى ، ويقولون إنهم كانوا يعلمون طبيعة شخصية عبد الناصر الذى عرفوه أثناء مباحثات الهدنة وأثناء الحصار فى

الفالوجا فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وأنه كان على علاقات وثيقة ببعض الضباط اليهود .

وكانت حكومة إسرائيل من خلال ماتعرف ، ومن خلال تأكيدات الأمريكان لهم تعرف أن النظام المصرى لن يقدم على حرب ضدهم مهما حدث . وهو الأمر الذى زاد من تحرشهم بمصر ، على عكس ماهو متوقع أو ماينبغى أن يكون .

وربما كانت وجهة نظر اليهود أن هذه بلاد ينبغى أن تخضع على المدى الطويل ، وأن الزمن ربما لايجود بمثل هذه الفرصة ، وأن الإرهاب والتخويف والقهر يعمل عمله إلى حقب كثيرة من الزمن ، ولاينمحى أثره بسهولة من نفوس الناس .

فالجارة القوية القادرة مصر يمكن لنا أن نخربها بالرعب من الخارج ، وهو يتمثل فى تحرشات الحدود والحروب الخاطفة ، ومن الداخل بمعرفة النظام البوليسى القاهر والاعتقالات والقتل والتعذيب ، وجعل الفساد هو المنهج العام لكل العلاقات فيها ، وهذه الأمور تخلق اليأس فى نفوس المصريين ، وتقتل عندهم الأمل ، ويستشرى الاستسلام فى وجدانهم ، وينطبع فى عقولهم عقيدة أن إسرائيل هى السيد ، وأنه لافكاك منها أبدا ، ويظل غاية مايطمعون فيه هو سلم معها ، وأن تكف أذاها عن مصر والمصريين ، وأن تعربد بعد ذلك ماشاء لها أن تعربد مع الشعب الفلسطينى والبلاد العربية الأخرى .

ولو نظرت إلى تاريخنا القريب الذى عايشناه ورأيناه لتأكد لك ماأقول .

وخيم الصمت على الجالسين ، ونظر إلىّ بين المصدق والمكذب وقال :

ــ وهل ينطبق هذا على حرب عام ١٩٥٦ مع اليهود ؟

لم يكن تأميم القناة عملا وطنيا

ــ دعنا نسترجع الأحداث . قامت الثورة ونجحت وحكم الضباط ، وطلب الأمريكان منهم العمل على تمهيد الناس لصلح مع إسرائيل ، وكانت اسرائيل دولة محدودة القوة فى ذلك الوقت . وكان لها ميناء صغير على خليج العقبة هو « إيلات » بعد استيلائهم غدرا وقسراً على قرية « أم الرشراش » القريبة من الميناء عام ١٩٤٩ . ولم تكن لهذا الميناء أية أهمية لاستحالة دخول أية سفينة إلى خليج العقبة ، لوجود القوات المصرية عند المضايق التى تعتبر بمثابة بوابة الملاحة هناك .

واليهود أكثر خبرة وحنكة ودراية من الأمريكان ، فهم قد يخططون وقد ينفردون فيما يريدون عمله ، وهم على أى حال طامعون متوثبون .

فعندما أمم عبد الناصر قناة السويس عام ١٩٥٦ ..

وقاطعنى فى حماسة :

ــ هذا أعظم عمل وطنى قام به عبد الناصر ، وهو الذى رفع شعبيته إلى عنان السماء .

ــ أختلف معك فى تقدير هذا العمل ، وأتفق معك أنه قد جعل من عبد الناصر بطلا ، وتردد اسمه على كل لسان .

وقال مذعورا :

ــ تأميم قناة السويس ليس عملا وطنيا ؟

ــ كلا على الإطلاق ، لعله كان عملاً جماهيريا يلهب الحماس ، ولكن إن أردت أن تزنه بميزان الوطنية ومصالح الأمة فهناك معايير أخرى .

هل كانت هناك ضرورة لهذا العمل ؟

ماهى الأرباح والخسائر فى حسابات تأميم قناة السويس ؟

إن أجبت على هذين السؤالين بدقة فسوف تأخذ جانبى فى هذا الموضوع ، وحتى لانتفرع نعود إليه بعد ذلك .

وأجابنى موافقا :

ــ نتكلم عن الحرب واليهود .

ــ كانت الأمة العربية فى حالة انتفاضة ، والمسلمون مُستنفَرون ضد اليهود . ورفض عبد الناصر كافة التحذيرات والمعلومات التى وصلت إليه ، والتى تقضى بأن إسرائيل قد أبرمت اتفاقا مع بريطانيا وفرنسا على الحرب ضد مصر ، وحددوا لهذا موعدا الأسبوع الأخير من أكتوبر ، أو الأسبوع الأول من نوفمبر ، وعدَّ عبد الناصر هذه المعلومات مجرد هراء ، آخذا فى اعتباره صلته المستمرة باليهود ، والتمهيد لصلح معهم ، ووقوف الأمريكان معه وحمايتهم له .

ولم يكن عبد الناصر سياسيا ضليعا يعرف أحابيل السياسة والمناورات الدولية ، وكان يظن أن إسرائيل مجرد دولة تابعة للولايات المتحدة ، ولم يكن يعرف أن لها حساباتها ، ولها أيضا عملياتها الخاطفة التى تحصل بها على بعض المكاسب والأرباح ، وأنهم أفهم للسياسة الأمريكية وعوامل الشد والجذب ، ومتى يتقدمون وفى أية نقطة يتأخرون .

ــ أنت هكذا تجرده من كافة المزايا .
ــ أنا ألقى ضوءاً على ماحدث وأقدم وجهة نظرى ، ومافهمته عبر التاريخ الكئيب ، هل أستمر أم أمسك عن الحديث ؟

وكان الكل فى لهفة ، وقد بدت على وجوههم علامات الخوف من قفل باب الكلام فى هذا الموضوع ، حيث حديث يدور للمرة الأولى بهذه الاستفاضة حول جمال عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو .

وقال متراجعا :

ــ لا لا .. لابأس من الكلام ، قل كل ماعندك ، ولكنى أحتفظ بحقى فى الرد بعد أن تنتهى .

وقال أحد الجالسين :

ــ حقك فى الرد محفوظ بطبيعة الحال ، ونحن هنا محبوسون ليس وراءنا غير الكلام ، والكلام باستفاضة ، على الأقل فى هذه الأيام المباركة السعيدة التى تسبق « أربعين » الزعيم .

كان الجميع فرحا مسروراً لايستطيع أن يخفى سروره العارم بموت الزعيم حتى صاحبنا الذى كان يدافع عنه ، ويصعب على تحليل هذه الأشياء .

وضحك الموجودون وعدت أكمل مابدأت من حديث :

ــ حرك جيشه شرق القناة باتجاه اسرائيل ، ثم جاءه الإنذار البريطانى الفرنسى الذى يقضى بانسحاب كل فريق من المتحاربين عشرة أميال شرق وغرب القناة ، ففكر وقدَّر وأمر بانسحاب الجيش ، وصار يلقى هذه الأوامر بنفسه من القيادة العامة .

وبطبيعة الحال ضاع الجيش فى الصحراء وسحقته إسرائيل ، ودمر سلاح الطيران بأكمله فى مأساة ساخرة ، مضحكة ، وكأن القائمين عليها لايعرفون شيئا من أمر الحرب والقتال .

ثم تدخلت أمريكا بعد أن رأت أن ماحدث يتمشى مع خطتها العامة . تجاه مصر والمصريين والعرب والمسلمين . وهو الخط الذى يؤدى إلى الإنهاك والتجويع والقهر ، وأن تدور الإدارة المصرية فى فلك السياسة الأمريكية أحقابا .

حصلت إسرائيل على حق الملاحة فى خليج العقبة ، ولم يعرف المصريون بما حدث ، وكانت هذه هى بذور هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ المروعة .

ووضعت إسرائيل حجر الأساس فى بناء الحرب النفسية تجاه العرب بأنها قوة قادرة وقاهرة لاتغلب ، بعد أن كان الجميع يستهين بها ويتحرق شوقا إلى قتالها عام ١٩٤٨ .

وبدت إسرائيل مارداً فى نظر العرب يصعب عليهم قتاله وهزيمته ، ولايزال يتكدس هذا المعنى حتى يشاء ربى شيئا .

هذا هو أمر فرعون ، ومأأمر فرعون برشيد .

الحكم الصالح بأية معايير هو الذى يعمل لصالح هذه الأمة ويجتهد لها ، والفرعون هو الذى يعمل لصالح نفسه ويهمه بقاؤه فى الحكم ضاربا بهذا صفحا عن أية مصلحة عامة .

والفرعون يأتى من بعده بفراعين ، فهى أسرة من أسرات الحكم لاتنقضى إلا بغضبة الشعب عليها ، واقتلاعه لطغيانها من جذوره ، وشعبنا طيب مسكين خانع ، ليست له نظرة فى معالى الأمور ، ومن ثم فلانجاة من الفراعين إلا بقدر الله ، فهو إن شاء غيرهم ، أما نحن فلاخير فينا ولانستطيع شيئا حيال الطاغوت .

وانبرى محتجا :

ــ مهلا فوجودنا بالمعتقل دليل على أن شعبنا ليس بالخانع أو الذليل .

ــ لقد رأيت بنفسك ، فقد ضربنا بالأحذية وعذبنا عذاباً شديدا ، وصفق الجمهور وارتفعت عقيرة الكتاب والصحفيين بالإعجاب والتهنئة ، عددنا قليل ياصديقى بجانب المستذلين المهانين وهم سواد هذا الشعب .!

وسيطر شرود على الجالسين !

ــ كأنه ليس هناك أمل فى ثورة شعبية تقضى على الفساد والطغيان .؟

ــ ليس قبل أجيال تنقضى وفراعين صغار يموتون أو يقتلون .

هل نعود إلى حديث الحرب والقتال ؟

حاكم فاسد ظالم قاهر لايقوى إلا على شعبه ، وهو نعامة فى الحرب ، إن حاربه اليهود قهروه وهزموه وأذلوه ، وإن حارب العرب فى اليمن مسحوا به الأرض وجعلوه عبرة ، وهو لايعلم أنه سبب ذلك كله .

* * *

كيف يحكم المسلمون

بعد موت عبد الناصر ظهرت بوادر التمرد والغضب على كل المعتقلين . حتى أولئك الذين دربوا على الطاعة ، ومثلوا دور الأتباع المخلصين ، وتهيأ الجميع لتغير المنظر على المسرح .

وأذكر حديثا دار مع الإمام الهضيبى عليه رحمة الله ، وتفاؤلى بأن شيئا عظيما سوف يحدث فى مصر بعد موت عبد الناصر .

وتأمل الرجل قليلا،وكان حكيما عظيم العقل،وقال بصوته الهادىء :

ـــ لايابنى .. ليس الأمر على الصورة التى تظنها ، تداعى الأحداث فى الأمم والشعوب يأخذ وقتا طويلا ، ولاتنس التغيير الذى أحدثه عبد الناصر فى الحياة بوجه عام ، ولاتنس أيضا أن موته لايعنى شيئا كثيرا ، هو مجرد سد قد انزاح . هناك مدرسته هى التى تحكم مصر . وحتى ينصلح الحال لابد أن يختفى الضباط إلى الأبد من ساحة الحكم والسياسة . الطريق أطول قليلا مما تظن يابنى .

وقلت له :

ـــ كيف يحكم الإخوان ؟

وفى هدوء أجابنى :

ـــ لو شئت فقل كيف يحكم المسلمون ، الإخوان هم طليعة الشعب المسلم ، وليس بالضرورة أن يسند إليهم الحكم ، والحكم حاجة طبيعية للأمم والشعوب وهو تعبير عن ذلك . وهناك ركام كثير يجب إزالته لنصل إلى هذا الأمل المنشود ، وهو حكم المسلمين .

ومد الرجل عليه رحمة الله يده وتناول المصحف مبتسما ، وفتحه كأنه يستأذننى فى الانصراف ، وكان ودودا رقيق الحاشية بالغ الأدب والتواضع مع حدته وصرامته وقوته .

وغادرته خارجا من مستشفى المعتقل حيث كان يقيم ، وفى طريقى الى العنبر وجدت شكرى مصطفى جالسا وحوله حلقة من شباب ينفث فيهم الثورة ، ويملأ صدورهم بالغضب ! ويعدهم لقتال ضروس مع أئمة الكفر إن قدر لهم أن يخرجوا من هذا السجن الطويل .

وكنت تراهم حوله وقد امتلئوا غيظا وغضبا ، وقد احمرت وجوههم وآذانهم وألقيت عليهم السلام فلم يرد أحد ، بينما لم يستطع شكرى أن يمنع ابتسامة ودودا

أرسلها إلىّ وعقلى يغلى كالمرجل ، وقد اختلط فيه الماضى والحاضر والمستقبل فى نهر الزمن المتدفق الذى اختلط .

كنا نسكن فى عنبر ٢ عنبر الخطرين .
وكان يسكن فى عنبر ١ الشيوعيون واليهود والنشاط المعادى والأقباط .
وكان العنبران فى مبنى واحد ولهما دورة مياه مشتركة قد قسمت الى قسمين كما شرحت من قبل .
وكان هذا أخطر مبنى فى المعتقل على الإطلاق ، فيه يقطن كافة المتطرفين فى نظر الحكومة .
وكانت وفاة عبد الناصر قد أحدثت الكثير من ردود الفعل المتنوعة .

وكان أكثر المعتقلين توجسا هم الشيوعيين ، فقد كانوا يعلمون أن هذا هو عهدهم ، وأن سلطانهم قريب ، وأنهم قاب قوسين أو أدنى من ديكتاتورية البروليتاريا ، وأن اعتقالهم هو اختلاف داخل الأسرة الواحدة سرعان مايحل على النحو الذى يحبون .
ولم يكن الأقباط يهتمون كثيرا بوفاة عبد الناصر ، بل كنت ترى أمارات الدهشة على وجوههم وهم يرون فرحة الإخوان وتجهم الشيوعيين .
وكان النشاط المعادى مترددا بين الفرحة والتوجس ، حسب اقترابه وبعده من قطبى الرحى فى المعتقل : الإخوان والشيوعيين .
أما فرحة الإخوان فقد كانت عارمة ، فلم تكن أمامهم فرصة للنجاة إلا بموت الزعيم الخالد ، وكانوا أقدر الناس على فهم معادلات السياسة .

عمر التلمساني لم يكترث لموت عبد الناصر

التقيت بالمرحوم عمر التلمسانى ، وتحدثت معه حول وفاة عبد الناصر .
وبدا الرجل غير مكترث ، ولايرى أى تغيير كبير قد حدث وقال :
ــ عبد الناصر أداة صغيرة فى يد أجهزة جبارة لاترحم ، شديدة العداوة للإسلام والمسلمين ، ولن يعدموا آخر يحل مكانه . لاشك أنه كان أكثر العملاء ضراوة فى ضرب الدعوة ، ولكن سوف تأخذ الحرب بين الإيمان والكفر شكلا آخر بموته .

ـــ ولكن ألن تكون هناك خطة للإخوان على ضوء ماتغير ؟
ـــ وشرد الرجل حزينا بنظرة خابية نبيلة مليئة بالإيمان والثقة وقال :
ـــ الأعداء لايسمحون لنا بالتخطيط والعمل ، ولكننا نبذل جهدنا ، وعلينا أن نحارب فى كل جبهة ، وليت قومنا يعرفون أى خير نسوقه إليهم ، وليتهم يساعدوننا على ذلك . على أى حال ربما تكون وفاة عبد الناصر سببا فى زوال مفعول السحر . ومن يدرى ماذا تأتى به الأيام .

نحن لانكفر مسلما نطق بالشهادتين

وكان الانشقاق قد حدث بين الإخوان حول مفهوم الدعوة واستراتيجية الحركة ، والأطروحات التى ينبغى طرحها للناس .

وكانت مشكلة المستشار الهضيبى تتلخص فى كلمات ..

ـــ نحن لانكفر مسلما نطق بالشهادتين .

ويضيف إليها شكرى مصطفى ومن قبله الأستاذ محمد قطب ..

ـــ وعمل بمقتضاهما .

فكان هناك من حدد الإيمان عبر مبادىء معلنة .

وهناك من شدد على أنه مجموعة من الأعمال ، وأنه لامجال للتقية فى أدائها .

وأملى المرشد العام حسن الهضيبى كتابا على ابنه المستشار مأمون الهضيبى يبين فيه طبيعة الإيمان ، وما الذى يخرج الإنسان من الملة ، واستند فيه إلى محكم آيات القرآن الكريم والحديث الصحيح . ولكنهم كانوا يحدثون قوما قد أعماهم الغضب وشتت قلوبهم الاضطهاد ، فصعب الفهم والالتقاء .

وزادت حدة المناقشات بعد موت عبد الناصر .

وكانت ترتب الاجتماعات فى المسجد المهجور القائم بجوار المستشفى فى معتقل طره السياسى فى عز الظهيرة حيث لايتجول انسان .

وكان المرحوم الإمام الهضيبى على مرضه وسنه ينتقل إلى هناك ليجلس إلى الأستاذ محمد قطب وتلاميذه،يحاورهم ويناقشهم ويحاول أن يردهم إلى ساحة الجماعة ، ويحذرهم من الفرقة والتباغض .

كان الهضيبى يمثل الخط الأساسى فى الجماعة ، أو إن شئت فقل المحافظين .

وكان محمد قطب يمثل التقدميين ، مع الاعتذار لهذه الكلمة ، كان يرى الحسم وعدم المدنة مع أعداء الإسلام ومواجهتهم ومجابهتهم .

أما الهضيبي بسنه وبتجربته وحكمته فكان لايرى مصادمة نواميس الكون ، وأن على العقلاء أن يغالبوها ويحولوا تيارها ويستعينوا ببعضها على بعض وكان شكرى مصطفى يرى القتال الضروس والإرهاب ، وقتل كل من اشترك فى تعذيب المعتقلين ليكونوا عبرة لغيرهم ، ويجب تعليم الشباب معنى الشهادة والتضحية ، وأنه لو قتل ضابط واحد فلن يفكر آخر فى تعذيب معتقل واحد بعد ذلك .

وكان يرى أن الحرب لن تنتهى ، وأن عليهم أن يزيدوا فى أوارها وحدتها ، وأنه لاينبغى أن يتم اعتقالهم على النحو الذى كان ويكون ، ويقول إنه من العار على المسلمين أن يمسك بهم كالدجاج دون مقاومة . وإن كنا نؤمن حقا أن الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا فلماذا لانستشهد عندما يفكرون فى القبض علينا ، وأن يقتل كل واحد من الإخوان واحدا من الشياطين قبل أن يمسك به . ولماذا لانبدؤهم بالحرب ؟ ومن السهل اصطيادهم فى كل مكان . وكان يقول إننا نستطيع تصفية هذه الحرب لصالحنا بقتل بضع مئات من الضباط قبل أن ينتبهوا .

ويسأله عاقل :

ــ ومانتيجة ذلك فى نظرك ؟

ويحدق فيه شكرى بعينيه الواسعتين السوداوين :

ــ سوف نخلق جيلا جديدا من الضباط المؤمنين سيخافون من القتل ، وينتبهون لكلمة الإسلام ، ولن ينفذ واحد منهم الأوامر ، نحن نسلب الظالم سيفه الذى يضرب به الناس .

ويهز الشيوخ رءوسهم أسفا .

ويسألهم شكرى محتدا :

ــ لماذا كل هذا العناء الذى عانيتموه فى حياتكم الطويلة العريضة ؟ أنتم لم تصبروا على المحنة .

ــ نحن نعيش المحنة بأولادنا وأهلينا وأنفسنا .

ــ المحنة التى تهربون منها هى الموت فى سبيل الله . أن يتوالى سيل الشهداء ، لاينبغى أن يخلو شهر واحد من شهيد يقاوم الكفر .

لست فى سنكم أو تجربتكم ، ولكنى أفهم معنى الموت فى سبيل الله وأطلبه وأدعو

إليه ، وتستطيعون أن تقودوا هذا الشعب المسكين لتحقيق الغاية التى يريدها الله منه . ولكنكم حريصون على الحياة .. أية حياة .. شغلتكم أموالكم وأهلوكم ولن يغفر الله لكم .

ويقول حكيم :
ـــ أنت تدعو إلى فتنة تأكل الأخضر واليابس .
ويرد شكرى فى حماسة :
ـــ قد هلك الفرعون ، وكل من تركهم كلاب ، والتغلب عليهم سهل ويسير ، كل ماهو مطلوب منكم أن تشعروهم بالخوف ، « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » .
يجب أن يكون هلاك الطاغية نقطة انطلاق لحرب دينية مقدسة يعلن فيها الجهاد ولن يصمد أمامنا أحد .
ـــ أنتم تحبون الحياة وسوف تموتون كالكلاب واحدا بعد الآخر ، نعم ستموتون مصحوبين بلعنة المسلمين وخيبة أمل الناس فيكم ، أما ذلك القتل الذى تتحدثون عنه وأنهم سوف يقتلوننا عن آخرنا فلعلكم كنتم تكذبون على أنفسكم وعلى الناس عندما كنتم تقولون الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ، وهو ـــ كما هو واضح ـــ غاية ماتخشونه وتخافون منه .
لو قتلونا فسوف يأتى من بعدنا من يكمل وسيكون دمنا هو وقود النصر . لن نحقق الأهداف بغير القتل والقتال والموت فى سبيل الله ، لو قتلنا عزلا فسيأتى من يحصل على الأسلحة ، ولن يقوى العالم علينا .

لقد حرص الحسين رضى الله عنه على الموت فى كربلاء ليضرب لأمثالكم المثل ويعطيكم القدوة . أنا أعلم أن كلامى لن يصل إليكم ، فالأقفال قد أغلقت قلوبكم ، وأنتم تحاورون وتناورون ، ومن الخير لكم أن تخرجوا من المعتقل ، وتذهبوا إلى الاتحاد الاشتراكى ، وتقدموا فروض الطاعة والولاء للسلطان الجديد بحجة أنه ليس بينكم وبينه ثأر . اخدعوا أنفسكم وصدقوها وانسوا الجهاد ، وابحثوا عن شىء آخر تفعلونه فى هذه الحياة ، ثم يستبدل الله قوما غيركم ولن يكونوا أمثالكم .
ـــ عندنا خططنا لتحقيق الإسلام فى المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن .

— أنتم تضحكون على أنفسكم ، وإن كنتم صادقين فما هى هذه الخطة ؟
وينفض الاجتماع دون نتيجة ، بينما يزداد عدد الشباب الذى يسر ويعجب بهذ الفكر الاستشهادى .

الإخوان يتجمعون من جديد

مات عبد الناصر وانهار السد،وصار معتقل طره السياسى يمثل المجتمع المصرى على نحو يكاد أن يكون دقيقاً ومعبرا .
انتهت كافة التحفظات من نفوس الجميع ، وصاروا يناقشون كافة القضايا فى جرأة ووضوح وعدم احتراز .

وبرزت مدرسة الإخوان كالمارد الذى ينتظر الفرصة للخروج .

الحكمة ووضوح الرؤية والنفس الطويل وعدم استعجال النتائج .
وظهرت القيادات الخفية التى لم ينتبه أحد إليها طوال سنين الاعتقال ، رغم وجودها وأداء مهامها ، ولكنها بدأت تظهر على السطح فى وضوح أكثر .
— الحاج مصطفى مشهور .
— الحاج حسنى عبد الباقى .
— الدكتور أحمد الملط .
— الأستاذ أحمد حسنين .
وكان من أبرز النجوم طول الوقت المستشار مأمون الهضيبى .
وكانت هنالك القيادات التقليدية الحائرة .
— الأستاذ فريد عبد الخالق .
— الأستاذ عبد القادر حلمى .
أعضاء مكتب الإرشاد جاءوا من السجن بعد انقضاء فترة العقوبة مثل المرحوم عمر التلمسانى .
وكان حسن الهضيبى يضم هؤلاء جميعا ، ويمسك بهم بقبضة حديدية ، رغم تقدم السن وضعف الصحة .
ولكنهم كانوا جميعا يدينون له بالسمع والطاعة .
وهذه أعظم سمة تميز جماعة الإخوان . .

وكانت جميع الخلافات والحوارات تنتهى بكلمة واحدة ينطقها الإمام الهضيبى ، وقد يسمعها البعض ولايسمعها البعض الاخر ولكنهم يتناقلونها ، وتصير دستورا لايمكن نقضه أو الخروج عنه .

وبدأت المكاتب الإدارية تتشكل وتتكون أو يعاد تشكيلها وتكوينها .

وبدأت الأسر تتكون على استحياء وحذر .

وأعاد موت عبد الناصر تشكيل الجماعة من جديد .

كانت قيادة الإخوان تتجمع وهى حذرة تترقب .

وكان من الواضح أنهم سوف يستمرون فى الكفاح والجهاد ، وأن هلاك عدوهم هو العلامة على ضرورة الانطلاق والعمل .

وكان يسودهم جو من التشكك وعدم الثقة من سنوات السجن والاعتقال الطويلة المريرة ، ومن نافلة القول أن نقول إنهم قد مروا بمحنة من أقسى مامَّر بهم من محن فى تاريخهم الطويل .

والذى لاشك فيه أنهم كانوا فى حاجة إليها ليميز الخبيث من الطيب .

بدأ نجم مصطفى مشهور يلمع فى الشهور الأخيرة من الاعتقال ، وربما فى العامين الأخيرين .

كان الرجل يقضى أيام المحنة فى الصلاة والعبادة وقراءة القرآن والصمت فقد كان الصمت من ذهب بحق فى تلك الأيام المباركة .

وكان يخرج عن عادته تلك مع أقرب المقربين إليه الذين عاش معهم فى السجن وكان مسئولا عنهم لسنوات .

وليس من الأسرار أن نقول إنه صاحب خبرة عريقة فى التنظيم والإدارة والتجنيد .

وإن شئنا الدقة قلنا إنها ملكة وسليقة قد صقلتها التجارب وشحذتها الأحداث ، وصارت الحكمة بالغة والحذر لاحدود له ، وكان مهيأ بحق لقيادة السفينة التى تتقاذفها الأمواج .

وقد بينت الأيام صحة هذه الملاحظات .

وكان الحاج صالح أبو رقيق عضو مكتب الإرشاد وأحد الزعماء القدامى ممن يرون مهادنة العهد القادم والالتفاف حوله ، ولاأحد يعرف أو يتكهن متى ينتهى ،

وليس من الحكمة مصادمته ، وكان يشايعه على ذلك قوم ، وكل هذا كان ينتهى عند كلمة المرشد العام الصارمة التى لاتقبل المناقشة .

كان هيكل الجماعة ينتشر ويتكون عبر معتقلين من كل جهات مصر ، وكانوا يختارون الأعضاء العاملين بمعايير خاصة جدا لاأستطيع أن أتبين ملامحها الآن بعد انقضاء هذا الزمن .

وكان بعض الذين لايختارون ينظرون بغضب وحسرة ، ولايستطيعون التعبير أو الشكوى ، والقيادة صارمة لاتقبل المناقشة ، وخططها سرية غير معلنة ، ولاينبغى لها أن تكون غير ذلك .

وظنى أن الاستراتيجية كانت الاستمرار والبقاء ، وحفظ الأفراد من التآكل والضياع والاستعداد للحظة غامضة قد يأتى بها الزمن .

وبين هذا التكوين الجديد كان يقف جمع غفير من المتفرجين الذين تم اعتقالهم تحت راية الإخوان ، ثم تركوا لشأنهم يدبرون أمورهم بالكيفية التى يريدون .

وفى رأيى أن هذا كان خطأ من قيادة الإخوان ، وربما كان خطأ أملته الظروف ، وقسوة الحوادث ، والمحنة الضارية التى مروا بها .

الشيخ عارف يريد البيعة

وكان الشيخ عارف رحمه الله ساخراً كما وصفته ، وجاءنى شاكيا :

ــ الناس مجتمعون عند سقيفة بنى ساعدة يبايعون .

وقلت له فى دهشة :

ــ يبايعون من ؟

ــ يبايعون المرشد .

ــ ألم يبايعوه من قبل ؟

ــ هم يجددون البيعة ، ويأخذها نائب عنه .

ــ من ؟

ــ هذا من الأسرار العليا .

ــ وأنت لم تبايع ؟

ــ كلا . هم يأخذون البيعة من الحكماء وأنا لست كذلك ، فأنت تعرف أننى سليط اللسان ، وقد أتسبب فى مشاكل هم فى غنى عنها ، وأنت ؟

ــ ماذا عنى ؟

ـــ ألم تبايع ؟

ـــ لم يدعنى أحد إلى هذا .

وقال الشيخ عارف ساخرا :

ـــ ولاأظم أنهم يدعونك .

ـــ لماذا ؟

ـــ أنت من الذين يناقشون كثيرا ، وهذه مرحلة السمع والطاعة ، وليس هناك أى وقت لوجع الدماغ والأسئلة الكثيرة .

وبدت على وجه الشيخ عارف نظرات حزينة آسفة ، وزايله مرحه ، وانهمرت دموعه على خديه ، وصار يمسحها بيده يحاول أن يخفيها .

وقلت له :

ـــ ماذا بك ؟

ـــ حزين جدا أنهم لم يدعونى للبيعة .

ـــ فى المعتقل تكثر الشائعات وربما ليست هناك بيعة .

وتجاهل جملتى وقال :

ـــ لقد عشت حياتى كلها فى جماعة الإخوان المسلمين ، ويحزننى أن أنهى أيامى بعيدا عنها ، أو أن تتجاهلنى الجماعة ، أو يرونى أقل من أن أحظى بشرف البيعة والانتظام فى الصف .

وقلت له مواسيا :

ـــ ليس فى وسع أحد أن يخرجك من جماعة الإخوان . دعهم يفعلون مايشاءون وسوف تجد مكانك يوما . ويجب أن تقدر الظروف .

وسرعان ماعاوده مرحه من جديد وقال :

ـــ على أى حال هم فى حاجة إلى بعض من يشتمون الحكومة ويسبونها ولايكونون مسئولين عنهم ، وأنا أقوم بهذا الدور خير قيام . وقد يأتى يوم أنتظم فيه بالصف وأبايع .. من يدرى ؟

الإخوان هم حكام المستقبل

وكان الشيوعيون ينظرون إلى تحركات الإخوان فى حذر وخوف .

وجاءنى واحد منهم وسألنى :

ــ هل يعيد الإخوان تشكيل الجماعة ؟

ــ لست أدرى .

وبدا عليه التشكك والحذر وقال :

ــ هم قوم لايقدرون العواقب .

وقلت له :

ــ أختلف معك .. الإخوان يقدرون العواقب أكثر مما ينبغى .. ولعل عيبهم هو المبالغة فى تقدير العواقب .

وعاد يقول مهدداً :

ــ ولكن الحكومة لن تسكت ، والتقارير تذهب إليها كل يوم .

وقلت له :

ــ لن تستطيع الحكومة أن تفعل مع الإخوان أكثر مما فعلت . ليس فى وسع الحكومة شىء للإخوان .

ــ هل تظن هذا ؟

ــ وهل تشك فى هذا ؟ الإخوان هم حكام المستقبل طال الزمن أو قصر .

وجاء عبد العال سلومة ليقول مضطربا :

الأسر والتشكيلات تنتشر فى العنابر والزنازين .

ــ هذا خبر عجيب ولكنه ليس بالجديد .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ الأسر والتشكيلات موجودة منذ اللحظة الأولى من الاعتقال . لقد جمعت الحكومة الإخوان فى معسكر كبير ، ومنعتهم من مغادرته طول الوقت .

ــ لن ترضى المباحث عن هذا !

ــ وماذا تفعل المباحث ؟

ونظر الرجل إلى متعجبا لايعرف الرد ، فقد فعلت المباحث غاية مايمكنها فعله .

قتلت وعذبت واعتقلت وشردت ومنعت لقمة العيش ، وكانوا فوقهم قاهرين ، ولم يغن هذا شيئا ، فماذا تبقى بعد ذلك ليفعلوه ؟ .

وقلت لعبد العال :

ــ موضوع الإخوان المسلمين موضوع تاريخى ، ولن يقوى أحد على القضاء على هذه الجماعة ، هل تعرف من كان يدرك هذه الحقيقة أكثر من غيره ؟

وقال باهتمام :

— من ؟

وقلت له :

— جمال عبد الناصر . كان عضو بها ويعرف البناء الحديدى لهذه الجماعة .

وقال عبد العال سلومة باستهانة :

— سنوات طويلة استطعنا فيها أن نخرج من صفوف الإخوان كثيرا منهم قاموا بتأييد الحكومة ، وخرجوا عن الصف ، وتبرأت منهم الجماعة ، وسلكوا طريقا آخر .

وقلت له باسما :

— أنت فى حديثك تعترف بوجود الجماعة ، وأنها تخرج من تشاء من الصف ، وتقبل من تشاء فيه .

— وماذا يعنى هذا الكلام ؟

— سوف يأتيك خبر هؤلاء المؤيدين بعد حين . فى ظنى أن من سلك طريق الإخوان ليس من السهل عليه تركه مهما تظاهر بهذا ، وتتغير الأيام والظروف ثم يأتى دوره وتجده مبايعا وفى داخل الصف .

— من أخبرك بهذا ؟

— هذه ليست أخبارا .. هذه مجرد ملاحظات .

خلاف حول الاستراتيجية والتكتيك

وكان أفراد النشاط المعادى من أكثر المجموعات إعجابا بالإخوان وتماسكهم ووضوح رؤيتهم حول الدين والسياسة ، وكانوا يتمنون لو ينخرطون فى سلك الجماعة .

وكان مصطفى مشهور صارم النظرة عميق التجربة لايفرح بالكثرة ، بل كان يهتم بالنوع ، ولو تخلى عن هذه الفكرة لكان فى صفوف الجماعة اليوم جمع غفير أكثر بكثير مما هم عليه الآن .

وكان محمد قطب يدعو إلى أفكاره بوضوح وصراحة ودون سرية .

لا إله إلا الله محمد رسول الله .

هى معركة المستقبل ولايجب أن تلتبس على أحد .

وكان شكرى مصطفى ومن معه شعارهم واضح .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » وكانت الحكومة تتهاوى وتتخاذل بعد أن نخرها الفساد وبعد أن هلك الزعيم ، ولكن النتيجة فى بلاد مثل مصر تظهر بعد حين بعيد ، ولكنها واضحة المعالم لكل من قرأ التاريخ .

ومن بين الشد والجذب واختلاف الحوادث قد يظهر شيىء جديد . ولكن الشيىء المؤكد أن عبد الناصر قد مات ، وبدأ أصحاب الحق يستردون تركتهم المنهوبة التى عدا عليها اللصوص .

ألا لعنة الله على الظالمين !

أدرك المعتقلون الموجودون بمعتقل طره السياسى أن ساعة الإفراج عنهم قد اقتربت بموت الزعيم ، وأن الحائل الذى يحول دون حريتهم قد ذهب إلى غير رجعة ، فتحول اليأس أملا ، والوهن عزيمة وقوة .
وسرت فيهم روح جديدة اختلفت كثيرا عن عهدهم السابق عندما كانوا يستمعون إلى « الملهم » يزعق فى الميكروفونات التى تملأ العنابر أن لا ملجأ منه إلا إليه ، والعياذ بالله .
كانت الجماعة شيئا أساسيا فى شعور الإخوان ووجدانهم ، ورغم كل ما فعلوه وقالوه ـ البعض منهم بالتأكيد ـ إلا أن أحدا فيهم لم يفكر فى ترك هذه الجماعة ! وقد يعود هذا إلى برامج التربية التى استغرقتهم سنين ، والألفة ، والمحن القاسية التى جمعتهم فى بوتقة واحدة من هنا وهناك ، كما كان ظهور حقهم وصلاح وجهة نظرهم ، وزهوق باطل غيرهم ، وفساد وجهة نظر الحكومة ، كل ذلك صار جليا للعيان .

كانت الشهور التى سبقت موت الزعيم يقضيها المعتقلون فى السخرية من الحكومة ومن تصرفاتها الرعناء التى تتسم بالارتجال وعدم الحكمة . بعد الهزيمة المنكرة التى لقيها الجيش المصرى الذى أهين إهانة بالغة كانت حديث العالم كله ، وبعد أن علق الجيش الإسرائيلى المنتصر لافتة كبيرة على ضفاف القنال يراها المصريون من الناحية الأخرى « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان

يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ، وكان الجنود المصريون يقرءونها كل صباح ومساء وهم فى داخلهم ممزقون بين الثورة واليأس والغضب والشعور بالإحباط .

وكانت تأتينا الأخبار ! ونعجب من إصرار هذه الحكومة الفاسدة – الحكومة المصرية – على هذا التكالب على الحكم على هذا النحو المهين . وأين الرجولة والإحساس بها ؟ ولماذ لاينتحرون أو يستقيلون ؟ ولكنهم ساروا فى طريق مضحك ساخر . وأذن مؤذن بينهم أنهم قد فازوا وانتصروا فى هزيمة سنة ١٩٦٧ !!

ووقف الغربان والوطاويط والبوم فى المجامع والمحافل والندوات يثبتون هذا الوهم فى أدمغة الخنازير ، ويقولون إن الهدف من المعركة كان القضاء على الحكم الثورى فى مصر ، ولم يستطيعوا ، ولهذا فنحن انتصرنا !!

ويتجاهلون أنهم الذين بدءوا المعركة ، وأنهم لم يكونوا على استعداد لها ولا يزالون .

وسمعنا الصدى يجيب « ألا لعنة الله على الظالمين » .

وبدءوا ماسموه فى تلك الأيام بحرب الاستنزاف !!

وماأدراك ماحرب الاستنزاف ؟

يفتحون النيران على طول الجبهة ، وتطلق المدافع داناتها ، وقالوا أيامها إن ثمن « الدانة » الواحدة خمسة وأربعون جنيها ، وكانت هذه النيران تطلق بلا توقف على كثبان رملية فى الجانب الشرقى من الشجرة المباركة على قناة السويس ، وكنا نضحك ملء أشداقنا بعد أن بكينا ليلة الهزيمة حتى ذبلت أعيننا .

وجاءهم الرد الإسرائيلى صارما وبالغ القسوة والعنت والسخرية معا ! . كنا نطلق مدافعنا على الرمال على مافى هذا من خسارة حقيقية ، وجهد ضائع ودم مسفوك لا قيمة له من الجانب المصرى . وهم يحرقون بقنابلهم معامل البترول فى السويس ، وأزالوا من الوجود مدن القناة ، وجعلوها ركاما ، وحولوا أهلها إلى لاجئين تجاوز عددهم المليونين ، أكثر من مهجرى فلسطين . وهدموا قناطر نجع حمادى ، وضربوا مصانع الصلب فى أبى زعبل .

وعربدت الطائرات المصرية فى سماء مصر !

هم يصيبون أهدافا حقيقية ، ونحن ننفق أموالنا وجهدنا ونطلق مدافعنا على كثبان رملية ، ألا بئس مايصنعون .

وهذا هو منطق الديكتاتور ! الطبل والزمر مهما ارتفع ثمنه وغلا والصحف « بتاعت المرحوم والدهم » يكتبون فيها مايشاءون ، وتقرأها النعاج فى الصباح

وتصدق أو لاتصدق وهذا لايعنينا فى كثير أو قليل .
كل هذا هزَّ الثقة فى نفوس الشيوعيين والناصريين المعتقلين حول جدية الحكومة وأهميتها .
وهو نفسه ماعمق الإيمان فى نفوس الإخوان المسلمين .

الصلح مع إسرائيل بدأه عبد الناصر

ثم جاء « الملهم » فنظر ، ثم أدبر واستكبر ، ثم قال إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلنقبل مبادرة « روجرز » ، والخنازير لاتعرف ماهى مبادرة روجرز ، وماهى إلا لواحة للبشر عليها تسعة عشر ، ورحم الله السادات !
قبل « الملهم » مبادرة « روجرز » والشعب لايعرف شيئا عنها ، وصفقت له لجنة الخنازير المتطورين فى الاجتماع الثنائى المتفيهق المنبثق عن الإلهام الجماعى لكل قوى الشعب غير الواعية بما يدور حولها أو فى أى مكان (هكذا كان اسمها !)
اعترف « الملهم » بإسرائيل بعد أن قضى على مصر وكرامتها .
وكانت قلة من الإخوان المسلمين الذين يعرفون التفاصيل لعمقهم فى فهم لعبة السياسة ، وبقية جمهورهم يعرفون الأمور بوجه عام ، أو يسألون عما لايعرفون أو ماستغلق عليهم .

المعتقلون من على ديانة آمون !

بدأ عصب الإخوان يشتد من جديد . فقد ظهر للجميع قصور السياسة المبنية على عبادة الفرد وتقديس الفرعون ، ولو أدى هذا إلى هدم معابده على رءوس الكهنة والسدنة والجمهور .

وكنا نسأل الناصريين المعتقلين فى طره السياسى :

– لماذا يعتقلونكم وأنتم على دين آمون ؟ ولماذا يسجنونكم وأنتم تسجدون للشمس من دون الله ، وقد زيَّن لكم الشيطان أعمالكم فأنتم فى أحسن حال معهم ؟
ويتصنع ذلك المتفيهق من عنبر واحد الحكمة والوقار ويقول :
– يارفيق .. لابد من تناقضات ثانوية بين الأصدقاء وأصحاب الطريق الواحد ، وهى موجودة وقائمة ، ولكنها بصدد الحل . أما التناقضات الأساسية بيننا وبينكم فهى تناقضات لا حل لها ، ولا تنتهى إلا بانتصارنا عليكم ، وسوف ينتهى الصراع بالقضاء عليكم وظهورنا وتمكننا ، وينعم من بقى منكم بديكتاتورية البروليتاريا .

وأقول له وأنا أحاول جاهدا ألا أبدو ساخرا :

– وكيف تعالجون هذه التناقضات الثانوية التى تقع بينكم وبين أصدقائكم ؟

ويرد الرفيق كأنها مُسلَّمة لا شِية فيها :

– بالحوار .

وأضحك وأنا أقول له :

– بالحوار من جانبكم ، أما تلك التناقضات الثانوية فتعالجها الحكومة معكم بالحذاء ، وهو أبلغ وأقوى من الحوار .

وكان جمهور العوام من الإخوان فى أول عهده بالشيوعيين والناصريين فى المعتقل يتعجب لكلامهم الكبير الفخيم على كفرهم ، ولما طال عهدهم بهم فهموا أى زيف هم عليه ، وصاروا يسخرون ويضحكون من الكلام الفخيم العظيم الذى لامعنى له . وصاروا أقوى إيمانا مما كانوا من قبل ، وعرفوا الكفر على حقيقته ، وأنه نجس لا يلتبس بالإيمان أبدا ، ولو حمله عظماء المجتمع وكبراؤهم والرئيس نفسه ، فقد كفر فرعون على ملكه العريض .

وكان المسلمون يرون ببساطة أن كل من لايرى الإسلام منهج حياة لايُعد فى قائمة المؤمنين ، وزاد من تماسك الإخوان ماكانوا يرونه من حال الشيوعيين والناصريين . وقوى من يقين الإخوان مارأوه فى اليهود المقيمين بعنبر ثلاثة من عبادة وتقى ، فهم يجتمعون فى أول النهار وآخره لصلاة الجماعة على النحو الذى يعرفون ووضحت المعادلة فى أذهان الناس بجلاء وظهور .

دولة دينية طائفية ، أقامت مجتمعا قويا وانتصرت باسم الدين ، هى إسرائيل . ودولة علمانية فاسدة أضاعت معالم الدين والأخلاق ، فلم تصمد ساعة واحدة أمام آلة الحرب الإسرائيلية هى مصر عبد الناصر .

ورغم ذلك لايريد أن يتركها فى حالها ويذهب وكفاه ما فعله بها !

وقال قائل :

– لو انتصر عبد الناصر فى حرب يونيو – وهذا ضد قوانين الطبيعة ونواميسها – لهدم الأزهر ، ولأقام مكانه معبدا مثل معبد الدير البحرى ، ولصنع لنفسه تمثالا عظيما ، ولنصب من نفسه إلها ، ولأرغم الناس على عبادته .

وعندما توالت الهزائم بعد يونيو ، وظهرت نوايا « الملهم » تجاه الفلسطينيين وإسرائيل ، بطل السحر واستفاق الناس !

وكان معظم الإخوان صامتين قبل موته لايتكلمون كثيرا فى السياسة وأسرارها ، بشكل عام شامل يلفت الانتباه ويدعو إلى الإنصات ، وبعد موته انحلت عقدة ألسنتهم ، وصاروا يتكلمون ويناقشون ويحللون ويجهرون بآرائهم .
فكنت ترى الناس من متوسطى الثقافة ومن الأميين ، وهم جمهور الذين سجنوا فى نكبة ١٩٥٤ وقضوا سنين السجن يتعلمون ويتناقشون . هؤلاء صاروا ممن يفهمون فى السياسة وأحابيلها ومعادلاتها المعقدة ، وكانوا يبهرون الناصريين والشيوعيين لفهمهم العميق ، وبساطتهم فى عرض أفكارهم ووضوحها .

الإخوان مثل جبل الثلج

وقال قائل الشيوعيين والناصريين مبديا إعجابه مرة :
– لو كنتم عددا كبيرا لحكمتم مصر وبلاد العرب .
ورد عليه خردواتى بسيط من قرية من قرى الجيزة قد نسيت اسمه :
– الإخوان مثل جبل الثلج الذى لايظهر منه غير جزء صغير فوق الماء . نحن عددنا كبير ، وأكثر مما تظن أو تظن الحكومة .

وصرت أتأمل كلمات أخينا الخردواتى على مافيها من حكمة وعلم ووعى وضرب ذكى للمثل ، وهو لم يسافر ليرى جبال الثلج المختفية تحت الماء ، ولم يقرأ الكتب والموسوعات ، ولكنه رُبى فى مدرسة السجن .

صلح الحديبية

كان موت عبد الناصر بمثابة صلح الحديبية ، مع التجاوز فى التشبيه !
فقد كان المعتقل كما قلنا من قبل به مبنيان رئيسان ، على اليمين عنبر ثلاثة وأربعة ، وعلى اليسار عنبر واحد واثنين ، وفى الفناء كانت بعض المبانى التى ذكرنا من قبل بالتفصيل مثل المطبخ والكانتين والملاحظة ، ومن خلف هذا على مسافة كانت المستشفى ، وبجوارها المسجد المهجور الذى لايصلى فيه أحد ، حتى اتخذه شكرى ومن معه للعبادة فى أواخر الأيام ، وبعد أن هجر الناس وهجروه ، وكان عنبر واحد به الشيوعيون والناصريون والنشاط المعادى واليهود . وعنبر اثنين به الخطرون من الإخوان حسب تصنيف المباحث .
وكان العنبران على اتصال ، ولهما بوابة واحدة بينهما مفتوحة طوال الوقت .

وكذلك كان الحال فى عنبر ثلاثة وأربعة ، الذين قالت عنهم المباحث إنهم أقل خطرا ، والجميع على درجة واحدة من الخطر لو يعلمون !

فيكفى أن تعرف أن بعنبر ثلاثة وأربعة كان يقطن الحاج مصطفى مشهور ، والحاج حسنى عبد الباقى ، والدكتور أحمد الملط ، والأستاذ فريد عبد الخالق وقبل هؤلاء جميعا الأستاذ مأمون الهضيبى ، والحاج صالح أبو رقيق ، ومعظم الزعماء .

فأين دقة التصنيف ؟

كان أهل عنبر ثلاثة وأربعة يلتقون بأهل عنبر اثنين فى حدود ضيقة ، وأثناء الطوابير التى كانت تستمر طوال النهار فى فناء المعتقل .

وكانوا يلتقون على استحياء وبحذر بالغين . وندر أن جاء زائر من عنبر ثلاثة وأربعة لزيارة أحد من عنبر اثنين .

وبعد موت عبد الناصر كثرت الزيارات بين أهل القسمين ، وكنت ترى من أهل عنبر ثلاثة وأربعة من يقيم طوال النهار فى عنبر اثنين حيث الخطرون من الناس .

والذى أذكره أن محمد قطب لم يكن يذهب لزيارة عنبر ثلاثة واثنين بل كان يكتفى بلقاء من يحبون لقاءه فى الطابور العام الذى يكون بالفناء أثناء النهار .

وكان يحضر الاجتماعات التى يدعى إليها فى المسجد المهجور ، ولم يكن يعتذر عن الذهاب إذا مادعى لذلك أبدا ، هذا حسبما تسعفنى الذاكرة بعد مرور هذا الوقت الطويل .

الحوار بين الإخوان

كانت ظاهرة التزاور بين أهل العنابر تمثل الصراع الفكرى ، أو لو شئنا لقلنا هو تبادل وجهات النظر حول الموضوعات الكلية ، والاختلافات حول الأفكار الرئيسية ومستقبل الجماعة ، فى عالم قد بدأت له معالم جديدة ، وماهو مستقبل النشاط وكيف يكون ؟ وكانوا قد أجمعوا أمرهم على الاستمرار .

وكان موت عبد الناصر هو الذى أكد لهم ضرورة هذا الاستمرار .

تستطيع أن تستنتج ببساطة فرسان النقاش والحوار إن كنت تعرف الإخوان ، وكل حسب تكوينه وما يحمل من خصائص ومميزات وسمات .

ولاشك أن المنظم الحقيقى لهذا الحوار هو الحاج مصطفى مشهور ، رغم أن المراقب يصعب عليه إدراك ذلك ، إلا إذا دقّق النظر ، وكان مهتما ويرقب بإمعان شديد ، أما المباحث والإدارة فقد كانتا مهتمتين بسفاسف الأمور .

وأشهد له فقد كان الرجل – مصطفى مشهور – بارعا فى حركاته وسكناته بشكل يصعب معه رصد مايفعل لغير العالمين بما يدور وراء الكواليس .
كانت الظروف والحوادث قد أفرزت قيادات طبيعية لجماعة الإخوان المبسلمين ، وقد تم ذلك من مدرسة السجون المختلفة التى مروا عليها وعاشوا فيها .
فالمرشد العام على ماهو عليه من واجب طاعته من كل أفراد الجماعة يتميز بصموده العظيم أمام الفتنة الطاغية التى عاشها فى المحاكمات الأولى عام ١٩٥٤ ثم فى المعتقل ثم فى الليمان ، وبعد أن أفرج عنه وحددت إقامته ، ووضع الحرس أمام بيته ، ثم باعتقاله ومحاكمته مرة أخرى عام ١٩٦٥ ، وذهابه إلى السجن ، فبيته ، فمرة أخرى إلى معتقل مزرعة طره السياسى .
هذا هو رأس الهرم ، وقيادته ليست محل شك أو نزاع أو مناقشة .
وكان الصمود هو المعيار الأساسى فى النظر إلى القيادات ، وفى ظنى أنه معيار له ألف مبرر لاعتماده فى التصرف والاعتبار .
وكان قليل الحركة لمرضه ، ورغم ذلك كانوا يلتقون به ، وظل الأستاذ مأمون الهضيبى المستشار هو ضابط الاتصال مع القيادة الجديدة التى أفرزتها الظروف .
ويأتى بعد المرشد العام فى سلم القيادة مكتب الإرشاد الذى حكم عليه بأحكام تتراوح بين خمسة عشر عاما والأشغال الشاقة المؤبدة .
وهؤلاء لم أر منهم إلا المرحومين عمر التلمسانى والشيخ أحمد شريت ، وربما كان هناك آخر لا أذكره وكانا فى حالة من المرض والإنهاك لا تسمح لهما بالحركة الكثيرة المكثفة لجمع الشمل وتقريب وجهات النظر وصناعة الهيكل الجديد .
أما القيادة الفعلية الحركية القادرة ، فكانت تتمثل فى أربعة يأتون بعد المرشد العام مباشرة .
مصطفى مشهور .. أحمد حسنين .. د . أحمد الملط .
ورابع لا أذكره .. ربما كان الحاج حسنى عبد الباقى .. وأغلب ظنى أنه هو ..

مجتمع العشرات غير المؤيدين

وأود أن أسجل هنا أن ما أكتبه ليس تاريخا بقدر ماهو ملاحظات ومشاهدات لواحد ممن قدر لهم أن يعيشوا هذه المحنة وأن يشترك فيها عن كثب أحيانا ، وعن بعد فى أكثر الأحيان ، وفى تقديرى أن ما أقوله ليس من الأسرار .
ثم تأتى العشرات ..
وما أدراك ما العشرات ؟

هم الذين قضوا فى السجن عشر سنين و لم يؤيدوا الحكومة ، و لم يجل ذلك بخاطرهم أبدا ..فهم العمد الخرسانية للتشكيل الجديد ، وهم الذين أجمعوا أن يكونوا وقوداً للدعوة حتى يموتوا . وكنت تجلس مع بعضهم فتجد أن خاطر النصر والتمكين فى الأرض ليس ببالهم ولاخاطرهم ، وغاية ما عندهم أنهم يؤيدون واجب الدعوة حتى الموت ، وبعدها يفعل الله ما يشاء .

وكان فكرهم واضحا وبسيطاً لايعتوره تعقيد أو تركيب ، ولا يدخلون فى متاهات النظريات والتفصيلات ، وغاية ما يعرفونه أن تستمر الجماعة قائمة ، وأن ضياعها يؤثر تأثيراً حقيقيا على أمل المسلمين فى النهوض من كبوتهم مرة أخرى . ولا يخفى على أحد أن « العشرات » هم أعضاء ما سمته الحكومة عام ١٩٥٤ بالجهاز السرى للإخوان المسلمين .

وكان أحد الظرفاء من هؤلاء يقول فى أبى زعبل للتعارف :

– أخوكم فلان الفلانى من العشرات فئة ، « الزعبلاوى » إقامةً، « القطبى » مذهباً .

ويقول عندما ينتهى من الطعام :

– الحمد لله العلى الكريم الذى أطعمنى وسقانى وجعلنى من الإخوان المسلمين ، ومن الجهاز السرى العظيم الحديث منه والقديم .

ولا شك أن هؤلاء العشرات – على ما بينهم من تماسك وترابط ، وما يتسمون به من صمود – قد كانت بينهم بعض التناقضات ، تلك التى كان يتكلم عنها من قابلناهم من الشيوعيين والناصريين ، وكانوا يقولون إنها فى العادة تكون بين الأصدقاء ، والتى يطلق عليها التناقضات الثانوية ، و لم تكن لتظهر أو تراها إلا إذا اقتربت أكثر وأكثر حتى تجد نفسك فى البؤرة ، وعندها تلمحها بوضوح . وهى أحيانا فى التفكير ، وأحيانا أخر فى أسلوب الحركة ، والتصرف حيال مجتمع طاغ ونظام مستبد سفيه ، أو فى كيفية تبليغ هذه الدعوة إلى العالم متجاهلين واقع السجن . وكم كانت تتلاشى هذه التناقضات عند قانون السمع و الطاعة الشديد الصرامة .

ولا أدرى إن كان الأمر يمثل ميزة أم عيبا ، أم يحتوى على كثير من المزايا وقليل من العيوب ، أو العكس : كثير من العيوب وقليل من المزايا ، وأغلب الظن أنه نظام يحتوى على الاثنين معاً بقدر لا أدريه ويصعب قياسه ، حيث نعيش التاريخ بأحداثه اللحظية والحكم النهائى يحتاج شيئا من الوقت غير قليل .

الطبقة الثانية من الجماعات

ثم يأتى بعد ذلك أهل السجون من غير « العشرات » بدرجات متفاوتة فى القرب والبعد من ثقة القيادة أو من مكانهم فى الصفوف .

ويمثل كل هؤلاء أقلية بالنسبة لجمهور المعتقلين على ذمة قضايا الإخوان المسلمين . فقد كان هناك الذين سبق اعتقالهم وجاءوا بحكم العادة أو الناموس . وكان هناك أيضا الذين اعتقلوا للمرة الأولى وكانوا من الإخوان ولم يكونوا ضمن قوائم تعرفها الحكومة ، ثم جاءت بهم الظروف وانتظموا فى الصفوف . وكان نوع آخر من المعتقلين على ذمة هذه القضايا ولم يكونوا من قبل من الإخوان المسلمين أو غيرها من الجماعات ، ومنهم من لم تكن له علاقة بالنشاط الدينى على أى صورة من الصور ، وعدد كبير من هؤلاء صار من أشد الناس تحمسا للإسلام وقضاياه ، ومن ثم انخرطوا فى الأنماط الإسلامية العديدة التى أفرزها الاضطهاد الشديد .

ومن أشهر هؤلاء المرحوم شكرى مصطفى الذى اختط لنفسه طريقا متفردا . وأغلب الجدد من المعتقلين حفظوا « المأثورات » واندرجوا ضمن جماعة الإخوان ولعلهم لم ينتظروا أن يدعوهم أحد إلى ذلك . وكانوا يقرءون ورد « الرابطة » عند المغيب ، ولم يبق بين المعتقلين غير القليل النادر الذى اعتزل أو تظاهر بالبعد عن كافة أنواع هذا النشاط .

أما الأمر المؤكد فهو أن جميع من كانوا بالمعتقل الذين جاءوا تحت اسم الإخوان المسلمين .. كانوا أو صاروا من أشد الناس حماسا واهتماما بالإسلام وقضاياه . ومن المؤكد أيضا أن أعظم ماصهرهم وجعلهم يتقاربون ويتآلفون ويتصادقون هو بوتقة الاضطهاد الشديد ، والتعذيب الجماعى المشترك ، فقد صنع هذا نوعا من الود والتفاهم يصعب شرحه كيف تكون ، ويستحيل نسيانه أو تجاهله على مر الزمن .

فقد يلتقى شخصان فى الطريق وآخر عهدهما بلقاء منذ عشرين عاما أو أكثر ، ولكن سرعان مايعتنقان ، وكأن آخر لقائهما كان بالأمس القريب ، عندما كانا يتجولان بين العنابر ، قبل « صفارة » الصول التى تعلن انتهاء الطابور .

وفى بعض الأحيان عندما يذهب المرء إلى مأتم لتقديم العزاء فى أخ كريم قد رحل ، فتنظر فى السرادق وتجول العين فى أنحائه فيجد إخوة كراما أعزاء ، وقد عمل فيهم عامل الزمن بفرشاته ، فكأنهم فريق من الممثلين قد جرت يد « ماكيير » مبدع عليهم

فتغيرت ملامحهم ، ولكن تعرفهم بسيماهم ، وكثيرا مايقوم هذا ليحيى ذاك فى حب صادق وشوق حقيقى ، ويتحول العزاء إلى نوع من الاحتفال باللقاء .

القيادة من الحرس القديم

بدأت قيادة الإخوان نشاطها فى جمع الشمل قبل موت عبد الناصر ، وبلغ هذا النشاط ذروته بعد موته ، ولعلهم قد صنعوا شيئا غريبا فريدا فى نوعه ، فهو تنظيم بغير تنظيم ، وترابط بغير تشكيل ، وبيعة غير معلنة ، وعهد صامت وتصميم حديدى على العمل من أجل الإسلام ، والتزام لاتعرف كيف نشأ ، وصعب عليك أن تدرك كيف تكون ، والمباحث لاتدرى وما ينبغى لها أن تدرى وما تستطيع ، والله من ورائهم محيط .

ويقف خلف هذا البنيان رجال من الصلب والفولاذ هم قيادة الحرس القديم .

واستطاع رجال الحرس القديم الذين قاموا على أمر الجماعة فى هذه الفترة المضطربة أن يكونوا « كوادر » جديدة لم تؤثر فيها الخلافات والتناقضات الثانوية التى تحدث بين الأصدقاء كما يقول أصدقاؤنا الشيوعيون ، ولولا الشك والحذر لصاروا فى حالة أكبر وأعظم مما هم عليه الآن . فقد كانوا يتحركون والشك قانون يحكمهم ، والحذر ميراث فرضته عليهم التجارب والمآسى التى مرت بهم وجرت عليهم .

ورغم هذا فلم ينجح رجال الحرس القديم فى تسوية النتوءات الحادة التى ظهرت فى مجتمع معتقل طره السياس ، والتى تمثلت فى بذور جماعات تنتهج العنف والحرب كطريقة لا محيص عنها فى مواجهة أعداء الدعوة .

وعندما تنظر اليوم تجد أن هذه البذور قد أفرخت فيضانا من الجماعات والتصورات قد ملأت البلاد ، وانتشر أثرها إلى خارج مصر ، وأصبح لايخلو مكان فى المعمورة منهم ، وقد عظم أمرهم اليوم ، وصارت حالتهم أكبر من أن يحتويها نقاش أو حوار ، وأغلب ظنى أنهم الذين يرثون الأرض ، بغض النظر عن صحة منهجهم من عدمه ، فجميع الأطراف تتعاون على تمكينهم ، بعضهم عن قصد والبعض الآخر عن غير ذلك ، وكل الظروف تشير إلى أنهم يسيرون فى طريق نهايته الحكم والسيطرة والانتقام ممن خانوا قضية الإسلام ، وهم فى نظرهم كثير .

كانت مهمة رجال الحرس القديم شاقة وعسيرة ، ولكنهم كانوا يقومون بها بجد وحماس ودأب ودون فتور ، وكانت تقابلهم العثرات والمشكلات والصراعات كلما

اقتربنا من قمة « الهرم الإخوانى » إن جاز التعبير .
فهناك نوعان من هذا الحرس .
حرس مستأنس داجن ثابت على دعوته حريص عليها بطريقته . وحرس حديدى صارم مستفز ، مصر على تحويل الهزيمة نصرا مهما كانت العقبات . وكان الصراع بين النوعين ، وكانت الغلبة للأخير لأنه الأكثر حماسة والأقرب إلى نفوس المستذلين والمستضعفين فى الأرض .
كان الصنف الأول يرى احتواء الحكومة والنظام ، وأن من السهل الدوران حوله واختراقه وخداعه ، أما الصنف الثانى فيرى التجمع والترابط ، وترك هذا النظام حتى يذوى ويتلاشى ويغرق فى أخطائه حتى الموت ، وكان لايرى الاقراب منه ، بل يرى الحذر من الاختلاط به ، ولايرى هدنة معه بحال من الاحوال .
وكانت كل الاسماء لامعة ومشتهرة من الفريقين .
وقد أفرز هذا الصراع مدرسة فكرية ينتمى إليها الكثيرويمكن أن نطلق عليها مدرسة الإخوان المسلمين ، وقد يخرج عن هذه المدرسة شيء جديد لايزال فى رحم الغيب ، أو أن هذا سوف يكون ، فهى سنة الأيام وقانون التاريخ ، واختلاف الليل والنهار .
ولعل هذا هو سبب اضطراب الأجهزة فى تصنيف الناس ، فصعب على الأمن أن يتصور ما آلت إليه جماعة الإخوان ، « وما ينبغى لهم وما يستطيعون » .
فقد صار الأمر أكثر عمقا من تقرير يكتبه مخبرٌ جاهل ليقرأه ضابط لاخبرة له ، فى عالم قد تعددت مساربه ، وصار أكثر تعقيدا وتركيبا من أن تفك طلاسمه عبر ملفات قد غطاها التراب ، أو تقارير أقل مايقال عنها إنها سطحية بعيدة عن الصدق والدقة فى معظم حالاتها .
وأهم عوامل التمكين لهذه المدرسة هو مسلسل الاضطهاد والظلم والتضييق وتجاهل أوليات علم الاجتماع ومبادىء دراسة التاريخ والمعرفة بنواميس الكون . كان من أكبر دعاة الالتفاف حول النظام وتطويقه واختراقه هو الحاج صالح أبو رقيق والأستاذ فريد عبد الخالق وآخرون ، وكان منهم المرحوم منير دلة قبل أن يموت .
وهذه كلها استنتاجات أملتها علىَّ المشاهدات والملاحظات .

النظام يصفّى نفسه !

وكان المرشد العام المرحوم حسن الهضيبى يميل بطبيعته وبحكم خبرته إلى الصنف الذى يدعو إلى التماسك والترابط وعدم الاختلاط بالنظام ، وينهى عن مهادنته ، بل

هو يأمر بحرب صامتة لايستخدم فيها السلاح ، وانتظار لحظة النصر عبر هذا الطريق ، وكانت له قولة مشهورة :

– سوف يصفى هذا النظام نفسه فلا تستعجلوا الزمن ، فإن الله لايعجل بعجلة أحدكم .

وكان محمد قطب نسيج وحده ، فهو لايناور ولا يلف ولا يدور ، ويصل مباشرة إلى الهدف الذى يريد ، وهو أن جماعة المؤمنين يجب أن تتميز عن المجتمع وتستعلى عليه بما أنعم الله عليها من الإيمان ، وتعلن هذا وتدعو إليه ، والأمر لايستحق السرية ، والشهادة أمر سهل ، ولاتكون إلا لمن أنعم الله عليه ، وكلما دفعنا إلى الساحة بشهيد اقتربنا من النصر ، وزادت فرصتنا فى إعلاء كلمة الله .

والفرق بينه وبين أصحاب العنف أنه يدعو إلى الثبات والمواجهة بكلمة الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن ننطلق بوضوح ودون مواربة ، وإن كان لابد من شهداء فليسقطوا تحت هذا الشعار ، ويوما سوف ينتصرون ويتبين الشعب إلى أى شيء يدعون الناس .

والآخرون يرون المواجهة بالرصاص والمدفع والانتقام والبطش بالجبارين ، والبحث عنهم وترصدهم ، وتصفية كل من يعاونهم ، وإن سقط أبرياء فى هذا المجال ، ويقولون إنه مهما مات من الأبرياء فلن يبلغ عددهم عدد الذين ماتوا من الجوع والعطش على رمال سيناء عام ١٩٦٧ ، أو الذين حصدتهم نيران اليهود فى الحرب ، والذين ضاعوا وأبيدوا بإرادة قائد جاهل وزعيم كاذب لايرى ذاته فى مرآة المجتمع والتاريخ .

وكانت هناك اتجاهات مختلفة وكثيرة تجمع من بين هذه العناصر ، وتمثل أشياء جديدة تختلف عن سائر ماقدمنا وشرحنا ، ولكنهم جميعا يندرجون فى مدرسة الإخوان المسلمين التى نجت من الفناء ، وصارت كشجرة طيبة قد ثبت أصلها فهى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها على نحو ما وبطريقة ما .

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾

وقد استقطبت هذه المدرسة إليها كثيرا ممن اعتقلوا تحت اسم آخر غير الإخوان المسلمين ، وهؤلاء جرى عليهم ماجرى على غيرهم فى التوجه الإسلامى بأنماطه المختلفة ، وصوره المتعددة .

والذى أذكره ولاأنساه أبدا أن الأيام الأخيرة لى فى المعتقل قد شهدت وسمعت كل جموع المعتقلين وهم يفخرون بانتسابهم إلى الجماعة ، ويعلنون ذلك ولايتبرءون منه ، وتذكرت أيام الاعتقال الأولى حيث الإرهاب الذى لم يسبق له نظير ، عندما كانوا يأمروننا بلعن الجماعة والتبرؤ منها فرادى أو ونحن مجتمعون عبر هتافات مؤلفة مؤثرة التنغيم ، كاذبة المعنى ، يعرف كذبها كل من يرفع عقيرته بها عاليا ، وكنا نفعل ذلك بالليل وفى النهار ، وفى كل مناسبة ، وبلا مناسبة حتى أدرك كل واحد فينا أنه عرض ردىء لنص بالغ السوء لايشعر به الممثلون ولايحسونه ، فهم يقدمونه كل ليلة على خشبة المسرح وإحساسهم كبير بالغثيان .

ولكن يأتى الوقت الذى يغير فيه الممثلون أداءهم ويرفضون النص الهابط ويعلنون ذلك بغير مواربة ، ويظهر موقفهم الحقيقى فى أشد الظروف ظلاما وقسوة .

فقد لعن عبد الناصر وعهده بأعلى صوت ، وأعلن الكل تمسكه بشرف الانتماء إلى جماعة الإخوان ، ولتذهب التقارير إلى الجحيم ، ولتذهب كل الأجهزة أيضا إلى الجحيم ، لقد صنعت هذه الأجهزة لهؤلاء الناس شيئا عظيما لم يكونوا ليقدروا عليه . جعلتهم يؤكدون هويتهم وكانت العودة إلى الذات .

كانت جماعة الأربعة – إن جاز التعبير – تجوب العنابر شرقا وغربا للنقاش وتأكيد العهد وإزالة مااعترى النفوس من آثار التحقيقات ، وكانت ندوب هذه التحقيقات كثيرة ومنها ماهو عميق يصعب البرء منه . ولكن وضح أنهم قد حققوا شيئا فى هذا المجال ، حيث صفت النفوس ، واجتمع الشامى مع المغربى كما يقولون ، بعد أن افترقا كثيرا تحت فرقعة السياط والكلاب العاوية التى تنهش اللحم ، والضباط اللئام الذين لايعرفون الشرف والمروءة ، بل وأبسط قواعد الرجولة والأخلاق .

وكان تكثيف الجماعة – جماعة الأربعة – على العشرات ، فمن بعدهم ، وهكذا حتى تصل إلى ذلك الجديد الذى يدخل المعتقل للمرة الأولى لغير سبب وجيه أو غير ذلك ، قد جاء هكذا ولا أحد يعرف لماذا جاء ، وشاء حظه أن يبقى حتى التصفية النهائية فصار من الأقطاب ، وصنف فى أول القوائم .

حوار مع المرحوم الهضيبى

كنت كثيرا ما أتسلل إلى مكان المرشد العام المرحوم حسن الهضيبى حيث كان يقيم فى المستشفى ، وكان يساعدنى على ذلك الأستاذ مأمون الهضيبى ، فقد كانت هناك أحاديث عامة فى قضايا مختلفة ، وينبغى أن تنقل إلى جمهور المعتقلين من الإخوان ، ولايتسنى ذلك بغير هذه اللقاءات .

وكنت أحد الذين يقومون بمثل هذه الدور .

وكانت هناك أحاديث خاصة تنقل إلى الإخوان عبر قنوات لا أعلم عنها شيئا ولم يكن لى دور فيها من قريب أو بعيد .

وفى مرة من هذه اللقاءات سألته :

– مارأى فضيلتك فى حادث المنشية ؟

وكان رحمه الله مهذبا صبورا جم الأدب ، يعمل حسابا للصغير قبل الكبير ، رغم مكانته وهيبة الجميع له بلا تمييز ، وقال لى :

– من أى ناحية ؟

– من كل ناحية .

وشرد الرجل ببصره قليلا وقال :

-كثيرا ماسألتنى عن هذا الموضوع كأنك لم تشف غليلك بعد !

-كلا يا فضيلة المرشد . ولكن ألا تراه موضوعا يستدعى الأسئلة الكثيرة ؟

معك الحق يابنى . هو موضوع جدير بالتأمل والبحث . ولكن سره قد مات مع إعدام هنداوى ومحمود عبد اللطيف ، والتفسير الحقيقى لهذا الحادث عندهما ، وربما عند آخرين على قيد الحياة ، ولكن أنى لنا معرفتهم ؟

– يقولون هو من صنع الإخوان دون إذنك .

– ليس هناك ثالث غير هنداوى ومحمود يعرف شيئا عن هذا الموضوع ، وليس من العدل أن تعتبر هذه الجماعة الكبيرة قد انحصرت فى هذين . ظنى أنهما قد استدرجا إلى هذا الأمر ، أحدهما أو كليهما ، بطريقة لم يتسن لى معرفتها شخصيا ، رغم أنى قد أكثرت فى الأسئلة مثلك مع عشرات ممن أعرف . وهناك من الجرائم مايصعب الكشف عنها لسنين طويلة ، ثم تعرف فجأة ، وقد يأتى ذلك اليوم .

– والجهاز السرى ؟

– تقصد النظام الخاص ؟

– الاثنين معاً ياصاحب الفضيلة .

– الجهاز السرى اسم أطلقته الحكومة على النظام الخاص بعد أن أعيد تكوينه .

وابتسم الرجل وشرد ببصره وقال :

–هل تعرف أن هذا الملف لم يغلق بعد .

وسألته فى لهفة :

– أى ملف يافضيلة المرشد ؟

وقال الرجل :

– ملف النظام الخاص .

واعترتنى الدهشة وأنا أقول :

ـ رغم كل ماجرى من تحقيقات ؟

– لم تحدث تحقيقات على الإطلاق فى كل قضايا الإخوان بعد ثورة يوليو .

– وماذا تسمى ماحدث .

– يمكنك إطلاق أى اسم عليه غير اسم التحقيقات .

واستعاد روح القاضى القديم وهو يجلس للحكم على المنصة :

–نعم يابنى .. التحقيقات شيء يختلف .. ماحدث ليس بتحقيقات .

ووجدت الرجل رحمه الله زاهدا فى الحديث حول هذا الموضوع ويفضل الابتعاد عنه والكلام فى أى شيء سواه ، ورغم هذا ألححت عليه بالسؤال :

– كانت سياستك هى تصفية النظام الخاص .

– هذا من الطبيعى يابنى .. نظام خاص كان عبد الناصر أحد أفراده ، ثم انتقل إلى الجانب الآخر ويعرف كل شيء عنه ، ماذا تنتظر منى أن أفعل وأنا على رأس الجماعة ؟

وقلت له بإصرار : كان ذلك قبل الثورة .

– قبل الثورة كان الأمر يختلف ..

وسكت قليلا كأنما يتذكر ماحدث فى السنين الماضية ثم قال :

ـكانت هناك مجموعة قد عرفت لأجهزة الأمن ، وكان لابد من ابتعادها قليلا عن دائرة الضوء ، وكان النظام قد ابتعد قليلا عن أغراضه فى تحرير البلاد الإسلامية وعلى رأسها مصر التى كانت تحت الاحتلال .. وإن شئت الدقة فقل إنه أوشك أن يبتعد عن أهدافه وأغراضه ، وقد جئت للجماعة والعاصفة الهوجاء تهب على الجماعة ويجب أن نعمل حسابا لهذه العاصفة .. ومن حقى أن أعزل رئيس النظام وأن أضع آخر مكانه لأمور أراها وأقدرها . وقد أتكلم فيها مع البعض ، وقد أذكر

كل الأسباب والدواعي وقد أخفى بعضها حسبما يقتضيه الظرف وحسب التقدير العام للموقف .. والقرار هو كحكم القاضي وهو لايصدره إلا بعد توافر كافة المعلومات لديه .. أمر القاضي وقراره يختلف عن رؤية المتفرجين .. وإن كان القرار يتعلق بكيان الحركة الإسلامية فى العصر الحديث فلك أن تقدر صعوبته والوقت الذى استغرق لإقراره .. والتفكير العميق حوله قبل ذلك .. ومن الصعب الدخول فى تفصيلاته الآن .. لايزال الملف مفتوحا ! .

وسكت الرجل عليه رحمة الله مسترجعا مافات من أحداث .

وجلست أمامه صامتا أنظر إليه وأتمنى لو أكمل حديثه واستمر :

– بعد قيام ثورة يوليو وتأكد انفصالها عن حركة الإخوان كان لابد من رؤية جديدة وشاملة لكل شيء .. مجموعة كانت معك وتأتمر بأمرك ، أو هكذا كانت تدعى ، ثم أقامت دولة وانفصلت عنك ، وهى تعرف كل أسرارك .. هذه حالة تحتاج إلى معالجة جديدة مختلفة .. يجب أن تعيد ترتيب البيت من جديد ، وكل مايعرفونه عنك ينبغى أن يدخل عالم الأسرار مرة أخرى ، فكان لابد من تصفية النظام الخاص الذى يعرفونه تصفية حقيقية وكاملة لحماية الإخوان حيال عدو شرس لايتقيد فى عداوته بقواعد الأخلاق والدين .

وبدت فى وجه الرجل الذى غضنته السنون امتعاضة الذكرى ..

وأسرعت لأسأله :

–ولكن فضيلتك أقمت نظاما جديدا مكان القديم .

وقال :

–هذا جيش ، وحتى تعمل على علاج حالته لابد من تشكيل جديد .

– قد فكّر هذا التشكيل الجديد فى مقاومة الحكومة والقيام بحركة اغتيالات ..

– من قال هذا ؟

– هذا ماسمعناه وعرفناه من التحقيقات .

وابتسم وقال :

–قد قلت لك .. لم تكن هناك تحقيقات .. وهناك فرق بين التفكير وتبادل الآراء حول بعض النقاط ، ثم تذهب هذه المناقشات إلى صاحب القرار فيرى فيها رأيه .. حتى ماتسميه بالتحقيقات لم يثبت فيها أننى أمرت بشيء من هذا على الإطلاق .

– لماذا اختفيت ؟

– جاءت معلومات مؤكدة أنهم ينوون قتلى .

– وهل تخشى الموت أو القتل ؟
وعاودته ابتسامته الواثقة وقال :
–لكل أجل كتاب .. ولكن .. لو اغتالتنى الحكومة بأية طريقة ألا تتصور أن هناك فتنة دامية سوف تكون ؟ لقد اختفيت خوفا من إراقة دماء المسلمين .
لم يكن جمهور الإخوان يعرف طبيعة مايجرى ، وظل عدد كبير منهم يظن أن ما يراه من خلاف مع الحكومة إنما هو خلاف داخل صفوف الجماعة .
– واليوم .. ماذا ترى ؟
وبابتسامة عذبة قال :
–البركة فيكم .
وكانت هناك عشرات الأسئلة كان يجيب عليها بالصمت ، ولا يتكلم إلا عندما أغير السؤال ، أو أتكلم فى موضوع آخر .

الحاج صالح أبو رقيق

اختلفت شخصية الحاج صالح أبو رقيق كثيرا بعد موت الزعيم ، فقد فارقه قدر كبير من حذره الذى اشتهر به ، كان يتكلم ولكن فى حدود ، بعد هذا الحادث المفاجىء الذى غيَّر الحياة فى مصر صار يتكلم بحرية أكثر وحذر أقل .
عندما تنظر إليه تلمح فى عينيه دهاء بعيد الغور ، ويشملك بنظرته فكأنه الصحراء المترامية لاتعرف مداها ولكنها محيطة بك .
ويقول :
–قصة الإخوان سياسية فى المقام الأول ، وينبغى على الإخوان أن يدركوا هذه الحقيقة ويتبينوها ويتعلموها أيضا ، نحن فى صراع لاينتهى أمام قوى نعرف بعضها ولاتعرف البعض الآخر ، ولكن عندنا من الوعى والنظر مايمكننا من فهم مايحيط بنا ، ولاينبغى أن نقف جامدين أمام الأحداث ، بل علينا أن نستوعبها ونطوقها ونغير من خططنا حسب ماتمليه علينا الدواعى والظروف .

وأسأله مداعبا :
– وقصة الاتصال بمستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية أثناء مفاوضات الجلاء عام ١٩٥٤ ؟

ويضحك ساخرا ملء شدقيه فى مرح حقيقى ويقول :
ــ هذه قصة قد أكل الدهر عليها وشرب ، وأنت تعرف حقيقتها .
وقد مات من أدخل عليها التعديلات المخلة .. هذه قصة قديمة ..
ــ وهل هناك قصة جديدة ؟
وياخذ وجهه طابع الجد وهو يقول :
ــ نعم .. موت عبد الناصر هو علامة لتغير فى سياسة مصر والعرب وفى نظرة الغرب إلينا .. هو بداية لمتغيرات كثيرة علينا أن نعيها ونفهمها ونتصرف على ضوئها .. يجب أن ندرك العلامات المهمة التى تطرأ على الحياة ، ويجب أن نعرف كيف نستفيد منها .. وينبغى ألا نتأخر فى فهم الحدث إذا وقع ..
– وماذا هناك ؟ مات عبد الناصر وجاء السادات !
وهزَّ رأسه نافيا :
– لا .. الأمر مختلف وسوف ترى .. لقد ترك عبد الناصر مدرسته تحكم وتدير البلاد .. وهى تتخذ السادات سُلَّماً للوصول إلى الحكم ..
وقلت له :
ــ وماهى مدرسة عبد الناصر ؟
– أووه .. على صبرى .. سامى شرف .. محمد فوزى .. هيكل .. الاتحاد الاشتراكى .. المخابرات .. الدولة كلها ..
– والسادات على رأسها ..
– هو دخيل على هذا الكيان ، وسيحاولون الخلاص منه فى أقرب فرصة .
– وهل يستطيعون ؟
وسكت الرجل طويلا وعيناه تدوران فى محجريهما وقد تجمع فيهما خلاصة مايمكن للمرء أن يتخيله من دهاء وعمق تفكير ، ثم سكن وبدت عليه علامات الاهتمام والجد وقال :
– لاأظن .. هناك صدام وشيك سوف يخرج فيه السادات منتصرا ..
ودهشت :
– ويتخلص من كل هؤلاء ؟
– نعم ..
– كأنه يقضى على الدولة ؟
– هو يقضى على دولة عبد الناصر ويقيم لنفسه دولة جديدة هو رئيسها وولى

النعم فيها .. هذه سنة الحياة .. والسادات شخصيته لايعرفها كل هؤلاء .. يرونه غرا يسهل القضاء عليه وتسييره وهو ليس كذلك .

– وما دخل الإخوان بكل هذا ؟

وتبدو علامات الاستنكار على وجه الرجل وهو يقول :

– دخلنا بكل هذا ؟ هذه هى فرصتنا للخروج من هذا القمقم الذى وضعنا فيه .. والفرص الكبيرة لاتتكرر كثيرا فى هذه الحياة .. يجب أن يستوعب الإخوان هذا الموقف ويستثمروه لصالحهم ..

– أنت تتكلم عن غيب لم يأت بعد ، بل تتصوره ، وسامحنى لو قلت تتوهمه .

– سوف ترى بنفسك وفى وقت قريب .

– وأمريكا ؟

وانفعل الرجل وهو يقول :

– وما أمريكا ؟ هم حفنة من البشر ، لهم عقول ولنا عقول ، هم رجال ونحن أيضا رجال ، ولانقل مهارة عنهم ولاينبغى لنا .

فريد عبد الخالق

وفى ملابس جميلة أنيقة وبابتسامة عذبة لاتفارقه أبدا تجد الأستاذ محمد فريد عبد الخالق وهو يسير فى الفناء جئية وذهابا ، وفى وجهه بشر لم يفارقه أبداً منذ رأيته لأول مرة مسلوخ الساقين من التعذيب فى السجن الحربى ، حتى أناقته فى الطابور بمعتقل مزرعة طرة السياسى بعد موت عبد الناصر .

ويقول فى استنكار :

– ما العجيب فى موته ؟ أليس بشرا يجرى عليه مايجرى على الأحياء ؟

وأقول له :

– سامحنى ياأستاذ ، رغم يقينى بما تقول فإنى أرى موت عبد الناصر عجيبة من العجائب وغريبة من الغرائب ، وأنا على يقين من أنه بشر كما تقول .

ويضحك الرجل بعذوبة ويقول :

– لقد صنع لنفسه نظاما كان سيقتله ويقضى عليه لو لم يمت ، وهذا هو منطق المستبد عبر التاريخ .. وما يعنينا الآن هو ماذا بعد عبد الناصر ؟

وقلت له مستدرجا :

– السادات بعد عبد الناصر .

وضحك الأستاذ فريد عبد الخالق ضحكته العذبة المميزة :

– أتكلم عنا نحن الإخوان المسلمين .

– المفروض أن هناك قرارا بحل الجماعة .

وقال الأستاذ فريد :

–مثل هذه الجماعة لاتحل بقرار لأنها أمل المسلمين فى القرن العشرين ، وعليها أن تواجه محنتها بشجاعة ، والطريق الوحيد فى رأيى هو الاهتمام بالتربية والثقافة والتعليم فينشأ الجيل المسلم القادر على تحقيق الأهداف . أما موت هذا وحياة ذاك فهى أمور مما يجرى على الكون والناس . صحيح إنها فرصة جيدة لاستنشاق مزيد من الهواء النقى ، ولكن ليس أكثر . علينا أن نهتم اهتماما كبيرا بالتربية والثقافة فهى الطريق المضمون المأمون .

وقطع حديثنا بعض الذين جاءوا يحيونه ويتحدثون معه . واستأذنني بتلطف . وأدب بالغين

الاتحاد الاشتراكى نظم جنازة عبد الناصر

مات عبد الناصر تاركا بلده وقد احتله اليهود وتحكمت فيه أمريكا أكثر .

وكان من تركته المثقلة ذلك العدد الكبير من المعتقلين أو من صفوة الذين يحملون الأفكار على تناقضها وتباينها ، ولم يكن ينوى أن يفرج عن شخص واحد من كل هؤلاء المجتمعين فى طرة . فقد كانت هذه عادته منذ أن منيت البلاد بحكمه ، فعندما سحق الجيش وارتفع العلم الإسرائيلى على ضفة القناة ، حشر فنادى فجاءوا بالسياسيين والأعيان والكبراء وكل من يظن فيه قدرة على إبداء الرأى والمقاومة ، ورأيتهم بعينى يوم الجمعة ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ فى معتقل أبى زعبل السياسى ، ثم نادى فى ظلمات التليفزيون أنه يتنحى وأهل الرأى والسياسة يضربون فى أبى زعبل ، وحملت الشاحنات الأنفار والصعاليك من كل بلاد مصر حتى ترى صحافة العالم كيف يتمسك المصريون ببطل إسرائيل الذى قدم لها أعظم خدمة فى تاريخها القصير .

وقالوا ببجاحة ووقاحة إنها مظاهرات تلقائية تعبيرا عن رغبة قوى الشعب العاملة فى دعم الإمبراطورية اليهودية .

وأخبرنى أحد الاصدقاء ، وكان محافظا لمحافظة بالوجه البحرى ، وكان أيضا من الضباط الأحرار أنه فى ذلك اليوم الأغبر المشئوم جاءته إشارة عاجلة من الأمين العام للاتحاد الاشتراكى بالاستيلاء على كافة وسائل النقل فى محافظته وشحن أكبر عدد يمكن له من النعاج والحمير وإرسالهم إلى القاهرة على وجه السرعة ، والأوامر أن يلقى بهم فى أى ميدان أو أى مكان ، وهناك سيجدون الدليل الذى يقودهم إلى بيت « الملهم » لمنعه من التنحى .

وقد أخبرنى ذلك الصديق أن الأوامر كانت تقضى بصرف مبالغ لكل رأس من خمسة وعشرين قرشا إلى جنيه ، وحددوا التعريفة فالأفندية يصرف لهم جنيه والعمال والفلاحون خمسة وعشرون قرشا على مافى ذلك من مناقضة لنص صريح فى الدستور .

وعندما زال خطر العقلاء والسياسيين القدامى صرفوهم وأخرجوهم ، وكان ذلك بعد أن قال الشعب كلمته .

ونزولا على إرادة الأمة وامتثالا لأمر الشعب ظل « الملهم » جاثما على صدر مصر . وخبا الأمل فى النفوس ، وضاعت الفرصة فى الخلاص . ولم يكن هناك من حل غير « عزرائيل » وبالصورة التى يراها وحسبما هو مقدر ومكتوب .

وجاء الحل فريدا وعبقريا ولاتهمنا الطريقة التى استخدمها عليه السلام .

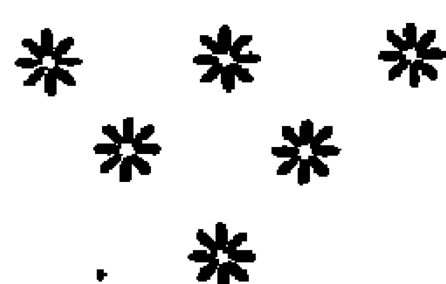
ولايعنينا هل دسوا له السم ؟ هل فعلها أصدقاؤه أم أعداؤه ؟ .

ولكن الذى أثار اهتمامنا وأبهجنا أنه قد ذهب إلى غير رجعة ، وكل من تركهم من تلامذته وصبيانه يتساقطون واحدا بعد الآخر بذلك الحل العبقرى الفريد ، فليس للشعب من دور ، لقد حطمت كبرياء الأمة وقل بها عدد الرجال ، ولم يعد أمام أحد غير النظر والاعتبار فى السنن والنواميس .

وبالنسبة لمصر سوف يظل « عزرائيل هو الحل » ولفترة لايعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى ، وبالطريقة التى سطرت فى الأزل .

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾

هكذا قال لى شكرى مصطفى عندما سنحت الفرصة بصعوبة للحديث معه عن موت الزعيم بذلك المسجد المهجور فى يوم حار عند انتصاف الشمس .



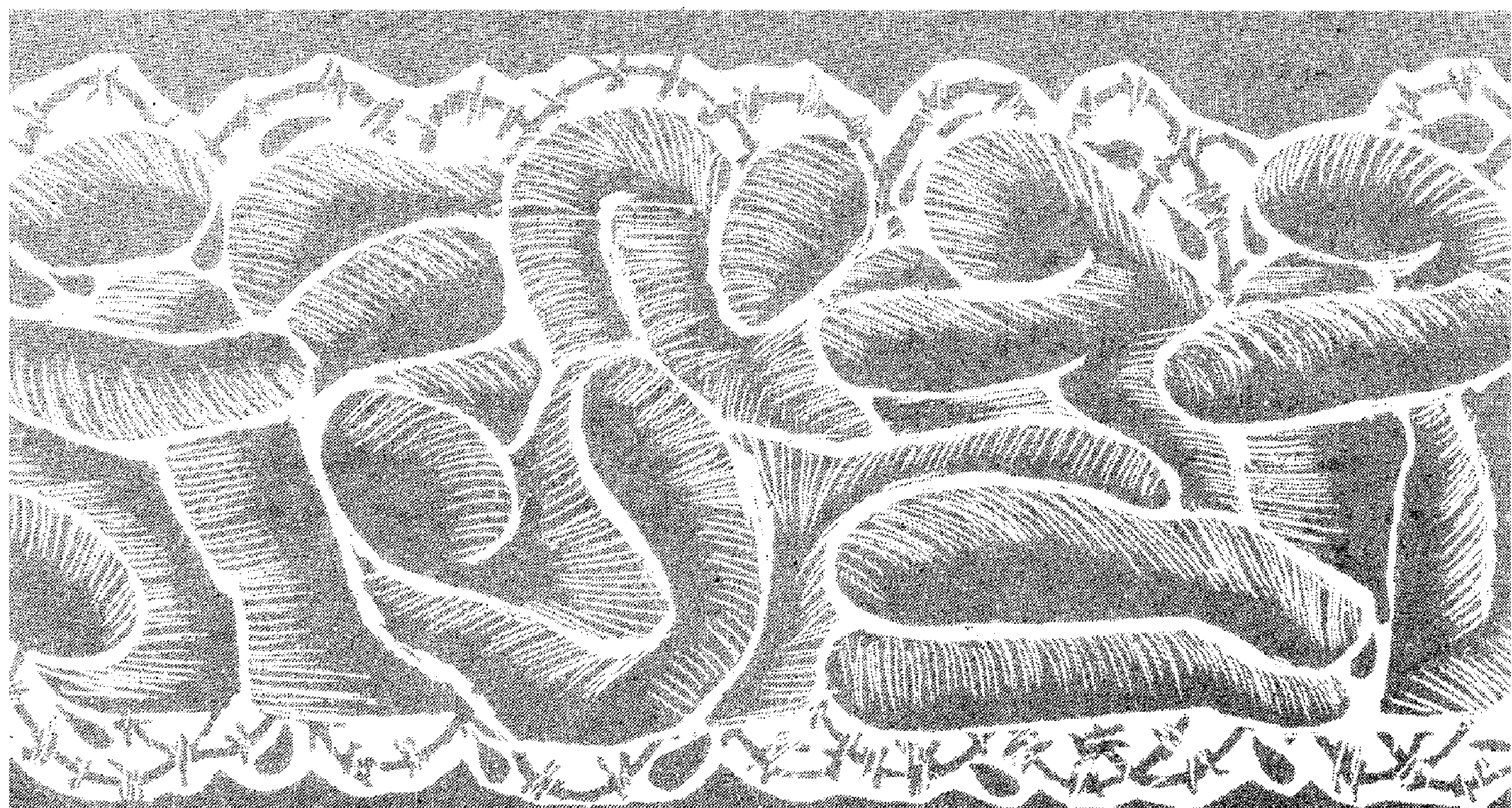
الفصل الثانى

" وقد أفلح اليوم من استعلى "

الطريق إلى العنف

﴿ من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون . ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه . سيجزون ماكانوا يعملون . وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون ﴾

الأعراف : ١٧٨ - ١٨٢



الاضطهاد هو الأب الشرعى للعنف

بين موجة الفرحة الغامرة التى شملت الناس جميعا غداة موت الزعيم ، والتى شملت كل من بالمعتقل المؤمنين منهم وغيرهم على حد سواء ، وبعد أن فرض الخبر نفسه وسار حديث الجميع بغير تمييز ، كان هناك واحد من أشد أعدائه لددا وخصومة وحقداً ، وبدا وكأنه قد اغتاظ من موته ، وقد ظهر ذلك فى تقطيبه الشديد وتجهم وجهه الذى زاد .

هذا هو زعيم التكفير – حسبما يحلو للمباحث أن تسميه – شكرى مصطفى .

فعندما بلغنى خبر موت الزعيم كان من أوائل من خطروا ببالى هو شكرى مصطفى ، وظننت أنه سوف يكون أسعد الناس بهذا الخبر ، ولما رأيته على هذه الحال الذى زاد معها ضيقه تعجبت ولم أربط فى أول الأمر بين خبر الوفاة ومابدا عليه من تجهم وضيق ، وقلت لنفسى لعل أموراً أخرى تعكر مزاجه فأنسته الفرحة بموت عبد الناصر ، التى تعنى الخلاص من هذا السجن .

وترجع معرفتى بشكرى مصطفى إلى أيام التعذيب الأولى فى السجن الحربى ، ثم رجلنا إلى معتقل أبى زعبل على قدر ، وجمعنا عنبر الزعماء – هكذا كانوا يسمونه – ثم انفصل مع الآخرين إلى زنازين شمال عندما رفضوا تأييد « الملهم » حينما كنا نرفع عقيرتنا بالهتاف بأننا وراءه إلى أى مكان حتى الجحيم . وكانوا يرغموننا ويكرهوننا إكراها أدبيا وماديا أن نكتب وثائق بالدم لتأييد « الملهم » وأننا فداؤه ، وهذا ما قاله الشعب لكل الفراعين .

وهو مارفضه شكرى مصطفى وجماعة معه ذكرت أسماءهم بالتفصيل فى البوابة السوداء .

وتغيرت أحوال شكرى مصطفى داخل زنازين شمال .
ومن داخل هذه الزنازين نضج فكر الرفض الذى بلغ مداه عندما قالوا بكفر الحكومة ، وزادوا فى هذا حتى اعتبروا أن الأرض كلها دار حرب ليس فيها إسلام .

وقد تم هذا كله على مراحل ، كانت تزداد حدتها وحرارتها مع توالى أيام الاعتقال ، وزيادة الضغط ، وخيبة أمل الحكومة فى كافة المجالات ، وفشلها المتلاحق فى أمور السياسة والحرب والتنمية ، ورغم أن هذه كلها ليست مبررات كافية لموقف فكرى بالغ الحدة والتوتر إلا أن هذا هو الذى كان . وليس هنا مجال توصيفه وشرحه .

ثم غادرنا معتقل أبى زعبل السياسى وغادره معنا أهل زنازين شمال ، وذهب الجميع إلى معتقل طره السياسى حيث المستقر والمستودع إلى أن يأذن الله بما يشاء .

وفى معتقل طره السياسى تميز الناس ، ومات الزعيم فتميزوا أكثر ، ووضحت الرؤية أمام الجميع ، وانحاز كل إلى حيث يريد .

وفى معتقل طره السياسى انعزل شكرى مصطفى وفريق معه ، وتجنب الآخرين تجنبا كاملا ، لايؤاكلهم ولا يشاربهم ولايحادثهم هو ومن تبعه من المؤمنين به ، وزاد من هذا الانفصال ذلك الموقف الذى وقفه شكرى أمام حسن طلعت رئيس المباحث الذى جاء يزورنا ليواسينا ،فسمع من شكرى يومها ما أوجعه وما أوجع الإخوان وأسعدهم أيضا ، فقد اشبع رغبتهم فى النيل من هذه الحكومة المستبدة ، وفى الوقت نفسه خافوا من تقرير حسن طلعت إلى الإدارة السياسية العليا ، وهى بالتأكيد سوف تزيد فى النكال بهم .

لهذا كان الإخوان يعجبون بشكرى مصطفى أنه وقف وسب الحكومة سبا بالغاً ، ولكنهم يتجنبونه ويتحاشونه وهو أيضا يفعل ذلك ، ويسرف فى هذا التجنب استعلاء عليهم ، فهم من وجهة نظره على الباطل ويحبون الدنيا ويكرهون الموت ، لهذا كان موقفهم المتخاذل أمام هذه الحكومة المستبدة العنيدة الكافرة الفاجرة من وجهة نظره .

* * *

حوار مع شكرى مصطفى

احتلت حتى أجد شكرى مصطفى وحده فأتكلم معه ، وسنحت هذه الفرصة يوما ما بين صلاة الظهر وصلاة العصر ، ووجدته فى المسجد المهجور جالسا وحده يقرأ فى المصحف ، وجلست بجواره صامتا أنتظر أن يفرغ من قراءته .

وفرغ منها ولم يلتفت إلىّ ، وأيضا لم يغادر المكان ، ففهمت أنه غير مستاء لوجودى ، وتشجعت وتحدثت :

– كنت أود لحديث معك منذ فترة طويلة .

– ......

– لماذا لا ترد ؟ هل ضايقك وجودى ؟

واعتدل شكرى مصطفى وصار يتأملنى للحظات ثم قال :

– ماذا تريد ؟

– أحببت أن أعرف رأيك فى موت جمال عبد الناصر .

وأجاب بسخرية واضحة :

– تحقيق صحفى ؟

– ليس هكذا بالضبط . لاتوجد هنا صحافة . أم تقصد شيئا آخر ؟

وتنهد وبدا عليه كأنه يشفق علىَّ وقال :

– لست أدرى وأنت العاقل الرشيد ترضى بما أنت عليه من كفر ؟

وابتسمت وقلت :

– سوف أجيبك عن سؤالك بعد أن أسمع إجابتك .

– تسألنى عن رأيى فى موت جمال عبد الناصر ؟

وقلت له مشجعا :

– كأنك اغتظت من موته .

– هذا صحيح .

– لماذا ؟

– كنت أود أن أحظى بشرف قتله .

– هذا أمر صعب .. هناك الحرس والجند والمدافع .. ثم أخبرنى لماذا تقتله ؟

– ألا تراه يستحق القتل ؟

وقلت له :

– قد يكون مرتكبا لجرائم يستحق عليها القتل . ولكن من يعطى لنفسه حق القتل ؟ لابد من محاكمته وأن يقضى قاضى بهذا إن كانت التهم ثابتة . وأن يمنح حرية الدفاع عن نفسه وأن يمكن من هذا .

وضحك ساخرا حتى ظننت أنه لن يكف عن الضحك ثم قال :

– هذه أول مرة أضحك فيها من قلبى منذ أيام التعذيب .

وكنا فى أيام التعذيب نضحك كثيرا من جهل الضباط ومانراه من مفارقات كثيرة . ثم كف عن الضحك ونظر إلىَّ جادا وقال :

– أنت تسخر بطبيعة الحال .

– أنا جاد كل الجد .

أريد أن أعرف رأيك أنت بصراحة ألا تراه يستحق القتل ؟

وفكرت قليلا ثم قلت له :

– هو من وجهة نظرى يستحق القتل ولكن لابد أن يحكم بهذا قاض .

الشعور شيء والعدل والإحسان ونظام المجتمع شيء آخر . ونحن لسنا قضاة .

وقال شكرى ساخرا :
– أنتم دعاة لا قضاة ..
وكان هذا هو الشعار الذى رفعه حسن الهضيبى وسرى فى مجتمع المعتقلين وقلت له :
– هذا صحيح نحن دعاة ولسنا قضاة .
– ألا ترى الأمر مضحكا ؟

– لا .. ليس مضحكا على النحو الذى تظن . لو أعطيناك حق قتل جمال عبد الناصر دون محاكمة – وهذا أمر صعب – فسوف نعطى غيرك حق قتلك ، سوف نمنح الفرد حرية القصاص على النحو الذى يراه ، ومن ثم ستعم الفوضى كل أرجاء البلاد .

من يريد أن يقتل آخر فسوف يفعل .. أى حياة سوف يحياها الناس لو صار الأمر على هذا النحو ؟ كل إنسان له من عدوه من يفكر فى قتله . الظلم والاضطهاد ووجود حكومة فاسدة شريرة مثل التى تحكمنا أقل ضرراً من التصور الذى تقوله .
وسكت طويلا مطرق الرأس ، وكنا متربعين على الأرض ، قد جلس شكرى على قطعة من القماش يحملها أينما ذهب ، بينما جلست بجانبه على التراب فلم أكن أحمل قماشا مثله فى يدى أثناء تجوالى عبر العنابر والفناء .
وطال صمته !
وقلت له :
– لم تخبرنى برأيك فيما قلت .
ورفع رأسه وكانت عيناه الواسعتان السوداوان تمتلئان بالشرر ، ولكن تكلم فى هدوء وقال :
– أنت لاترى مقاومة الحكومة والعمل على القضاء عليها ؟
وقلت له :
– حكومة مثل حكومة جمال عبد الناصر من لايعمل على إزالتها مخطىء آثم مقصر فى حق نفسه وبلده ، وهو لايختلف عن الدواب .
وحملق فى وجهى مستفسرا بينما واصلت الحديث :
– لايوجد شخص واحد فى هذا المعتقل موافق على بقاء هذه الحكومة ، والدليل على ذلك هو وجودنا جميعا فى الأسر .

وفى حدة قال :

– هى حكومة كافرة وكل من لايرى هذا كافر مثلها .

– لو تأملت لوجدت أن هذا ليس لب الموضوع ، هذه كلمات مطاطة غير واضحة الدلالة مثل الإنسانية المعذبة واليأس القاتل والأزمة الطاحنة ، هذه كلمات تقع تحت باب الأدب والفن أكثر مما تقع تحت باب القانون والشريعة . ونحن أولى الناس بفهم هذه المعانى .

ونظر إلىَّ شاكا ثم قال :

– هل أرسلك الإخوان لتؤثر علىَّ ؟

– مشكلة الإخوان أنهم لايدركون خطورتك ، ولا يفكرون فيك ، ولا يتناولونك تناولا جاداً ، أما أنا فأرى المستقبل لأنى قرأت الماضى وفهمته ، وأكاد أتخيل ماسوف تفعله عندما تغادر هذا المكان .

– وهل نغادر هذا المكان ؟

– دوام الحال من المحال .

وأطرق ثانية ثم رفع رأسه وقال :

– لو انضممت إلىَّ فسوف نعمل شيئاً عظيماً يتحدث عنه التاريخ .

وسكت طويلا محدقا فى وجهه ناظرا فى عينيه اللتين لاتطرفان ، ويخرج منهما وهج كأنه الشمس فى يوم حار ، وتذكرته فى عنبر ١٢ وديعا لايعرف شيئاً مما يدور ، ويسألنى عن قصة الإخوان والحكومة والإسلام والأمويين والعباسيين والفاطميين وحسن البنا وجمال الدين الأفغانى ، ولم يكن يعرف شيئا عن هذا كله وقتها . وهاهو ذا الآن يضع نفسه فى قائمة دعاة الإسلام العظام الذين غادروا الحياة بعد أن تركوا فيها أثرا ليس من الصعب تجاهله . وشردت بأفكارى خلال وجهه وعينيه .

وأفقت على صوته :

– لماذا سكت ؟ ماقولك ؟ انضم معى وسوف نفتح هذا العالم .

قلت :

– أيام الحروب بين المسلمين والبيزنطيين على ثغور الروم ، كان كل فريق يأخذ أسرى من الجانب الآخر . وكان المسلمون يحسنون معاملة الأسرى . على العكس من البيزنطيين كانوا يسيئون معاملة أسراهم من المسلمين ، وكان هؤلاء الأسرى يقضون فى الأسر سنين طويلة .

وكان منهم من مات فى الأسر ، ومن يفرج عنه ويعود إلى أهله ووطنه فهو ذو حظ عظيم ، ويعتمد ذلك على قدر الله سبحانه وتعالى ، وعلى ظروف سياسية تقضى بحسن التعامل بين الحمدانيين والبيزنطيين ، فيعقدون اتفاقا ويفرج عن بعض الأسرى ، ولم يكن هذا يحدث كثيرا . فأقل مدة قضاها أسير مسلم عند الروم لم تقل عن عشر سنوات إذا استثنينا أبا فراس الحمدانى ، فقد قضى أقل من هذه المدة لتدخل سيف الدولة .

وقاطعنى شكرى مصطفى فى ضيق :

– هل هى محاضرة فى التاريخ ؟

– أنت تدعونى لأمر عظيم فلا أقل من أن أعرض وجهة نظرى ، وأناقش ماتعرض على قبل الرفض أو القبول . وهذه أبسط الحقوق .

وطأطأ برأسه موافقا وقال :

– الحق معك ... تفضل سوف أحسن الاستماع .

–وأنا لن أطيل عليك .. تخيل هؤلاء الأسرى المسلمين الذين كانوا يعيشون فى معسكرات قد أقامها لهم البيزنطيون ، شبيهة بهذه المعتقلات التى نعيش فيها الآن ، وربما كانت أحوالهم أكثر سوءا ، تخيلهم وهم يشغلون أنفسهم طول النهار وشطراً كبيرا من الليل يقولون فيه لأنفسهم إنكم كفرة ويجب حربكم ، وينبغى قتالكم ، ثم ينبرى واحد ويقول لو خرجت من هذا الأسر فسوف أقتل رومانوس الأول القيصر البيزنطى ، ثم يدعو غيره لموافقته والانضمام معه والاتفاق على هذا . ألا يعد ذلك ضربا من الجنون ؟ . ثم تخيل شخصا آخر من الأسرى – أسرى المسلمين – يذهب إلى الضابط البيزنطى المشرف على حفظ النظام وترتيب المعيشة فى معسكر الأسرى ، ويقول له : أنتم قوم عادلون ، ولو أطلقتمونى من الأسر فلن أعود لحربكم مرة أخرى . يقول له هذا ليخدعه بعد أن ضاق لسوء المعيشة والأسر الطويل ، وشوقا إلى أولاده ووطنه ، وهو لايعنى هذا الكلام ولايعتقده ، بل كل مايطمع فيه أن يكتب اسمه فى قوائم الأسرى الذين يسلمون إلى المسلمين لو حدثت معاهدة أو مفاوضات . هل بعد مثل هذا الرجل كافرا قد ترك الملة ؟ لاأظن .

وشرد شكرى مع كلامى قليلا وقال :

– أنا لاأعرف الحمدانيين والبيزنطيين ولكنهم جميعا كانوا على ملة واحدة هى الكفر ، ولم يكن القتال بينهما من أجل إعلاء كلمة الله ولكن للسيطرة والقوة .

– أنت هكذا تجرد الإسلام والمسلمين من تاريخهم . هل قرأت تاريخ الحمدانيين ؟

– كلا ..

– إن كنت تنوى أن تقيم جماعة إسلامية تدعو إلى الله على بصيرة ، أليس من الأولى والأجدى أن تعرف تجربة المسلمين بقراءة تاريخهم ؟ وعاودته سخريته ومرارته وقال :

– تريدنى أن أقرأ تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وأولئك الذين قلت عنهم الحمدانيين .

وقاطعته :

– وقبل هذا كله تقرأ السيرة النبوية وتفهمها ، وتدرس القرآن وتفسيره وتعرف آراء أئمة الفقه مثل الشافعى ومالك وابن حنبل وأبى حنيفة وغيرهم . بل تقرأ تاريخ العالم وتلم بعلم الاجتماع وعلم النفس و ...

وقاطعنى ضاحكا من جديد وقال :

– تقصد أن أعكف على الدراسة ؟ كم يستغرق هذا من السنين حتى يمكن لى أن أفهمه وأستوعبه ؟

– لست أدرى ولكن هذا هو الطريق الوحيد لمن يريد التعرض لمثل ما تريد أن تتعرض له .. أنت تكون جماعة لتقيم دولة .. وأبسط القواعد أن تعرف كل ماله صلة بهذا الموضوع . لقد اختلف العالم كثيرا عن ذلك الذى تتخيله منذ أكثر من ألف سنة .. وأقول تتخيله ولاتعرفه .. فالخيال شىء والمعرفة التى تبنى على الدراسة شىء آخر .

وكان سكوته معناه أن الكلام قد لقى موقعا ما فى نفسه .

وبعد فترة من الصمت شملتنا سويا قال :

– ومارأيك فى الخوارج والشيعة ؟

– رأيى فى الخوارج والشيعة ؟

– نعم .

وفكرت قليلا وأنا أجهد نفسى حتى أستميله ولا ينقطع الحوار :

– هم أحزاب المعارضة فى صدر الإسلام .. قد حكم الأمويون ومن بعدهم جاء العباسيون ، ولكل دولة تصورها ووجهة نظرها ، وخالفهم فى هذا التصور

الخوارج والشيعة ، وأرادوا انتزاع السلطة منهم على ضوء ما اعتقدوه .
وشرد مفكرا وقال :
– أحزاب المعارضة فى صدر الإسلام ؟ هل فى الإسلام أحزاب ؟
– هذا ماجرى .. قد تحزَّب الناس طول الوقت منذ أيام الرسول ﷺ .. هذه طبيعة البشر والأشياء .. لايتفق الناس على رأى واحد لاختلاف التصورات والرؤى .. وما قولك فى الشافعية والحنفية والمالكية وغيرهم ؟ ألا ترى فى ذلك نوعا من التحزب ؟
– هو نوع من التحزب على نحوما .. ولو كان فهم الإسلام ومبادئه وتفاصيله شيئا واحدا لقال كل من مالك والشافعى وأبى حنيفة كلاما يتفق تماما مع الآخر .. ولما وُجدوا أصلا .. الأمر يحتاج إلى شيء من التفكير .. والتفكير العميق المتروى .. والانفعال لايقيم الدول ولاينشيء المجتمعات ، بل هو يدمرها ويقضى عليها .
– لايحتاج الأمر إلى كل هذه القراءات والدراسات .. الإسلام واضح .
– لست معك . هل يمكن « لتمرجى » فى مستوصف بقرية صغيرة من قرى ريف مصر أن يجرى جراحة دقيقة فى المخ ؟ أو يقوم على تغيير صمام فى قلب ؟
وانفعل غاضبا :
– ماذا تعنى ؟ هل أنا « تمرجى » ؟
وحاولت تهدئته :
– كلمة « تمرجى » ليست سباً ، والإسلام قد سوى بين الجميع ، أم تراك نسيت ؟ ولكن إقامة الدول أمر أصعب من إجراء جراحة فى المخ ، وأكثر تعقيداً من تغيير صمام فى القلب ، ولايقوم بهذه الأعمال إلا خبير . والخبرة شيء أكبر وأعظم من الدراسة ، وهى تأتى بعدها ، وإن كنت صادقا مع نفسك فلا ينبغى المغالطة ، على الأقل أمام نفسك .
وعدنا إلى الصمت وقطعه قائلا :
– وأنت ؟
– ماذا عنى ؟
– هل ترفض ماعرضته عليك ؟
– لم أرفضه بعد ، نحن نتناقش ونتحاور لنصل إلى شيء .
– الإيمان بالله لايحتاج إلى كل هذا التفكير والجدال .

وغاظني كلامه ، ولكنى كظمت غيظى وقلت :

– فى هذا المعتقل الذى نعيش فيه ما الذى يفرق بينى وبينك ، ما الذى يجعلك مؤمنا ويجعلنى غير ذلك ؟

وسكت ولم يجب على سؤالى .

وقلت :

– كل هذا من آثار التعذيب ، هناك مايبقى على الظهر والساقين من بقايا السياط ، وهناك مايبقى فى العقل والنفس ، والأجسام تختلف ، وكذلك العقول والنفوس ، والهدم سهل والبناء أصعب وأكثر تعقيداً .

– لم تخبرنى هل توافق على الدخول فى جماعة المسلمين وتبايع الإمام ؟

– تقصد أنت والدكتور عصمت بدوى ؟

والدكتور عصمت بدوى كان هو الوحيد فى ذلك الوقت الذى يتبع شكرى ، وكان أستاذا فى كلية الصيدلة ، شابا عميق الإيمان ، ليس على شيء من الخبرة والثقافة بأمور الدين ، وكل مايعرفه أن إمامه هو شكرى ، وكان هذا يعد سلسلة من الانشقاقات ، ثم انفصل هو شخصيا بعد هذا الوقت ، وصار أميرا لجماعة جديدة ، وكان أعضاؤها واحدا فقط هو عم حنفى ، وكان يعمل طباخا فى فندق الهيلتون قبل اعتقاله ، ولا أذكر بقية اسمه :

وقال شكرى :

– وهل هناك غيرنا ؟

– هناك غيركم بالتأكيد يرون ماترون مع اختلافات طفيفة لم يتسن لى معرفتها ، فهناك عبد الله بن أحمد السماوى ، وهناك الشيخ على إسماعيل ، وهناك .. وهناك ..

وصرت أعدد له الجماعات الإسلامية الجديدة بمعتقل طره السياسى والتى تجاوزت الثلاثين ، وعدد أفرادها مجتمعين لايتجاوز العشرين !!

وقال شكرى بإصرار :

– نحن على الحق وهم على الباطل .

وقلت له بإصرار أكثر :

– جميعهم يقولون ذلك . والحقيقة أن كل واحد فيكم يرى جانبا ضيئلا

صغيرا من الحق . أما الحق فهو أكبر وأعظم من تلك المقولات المتناثرة على ألسنكم هنا وهناك . والحق لايعرف بالرجال ، ولكن يعرف الرجال بالحق .

– مايغيظنى فيك هو قدرتك الفائقة على الكلام الكثير والجدل .

– وما يعجبنى منك هو سعة صدرك وحسن استماعك وصبرك .

وأرضته هذه الجملة فابتسم وقال :

– وماهو رأيك أنت ؟

– فى أى شىء ؟

وفى حدة بالغة تكلم وقد ارتفع صوته :

– ليست هناك أشياء غير الإيمان والكفر .. إسلام أو لا إسلام .. وفى هدوء وصوت منخفض قلت له مذكرا :

– لقد اعتقلنا جميعا باسم الإسلام .

وزادت حدته وارتفع انفعاله :

– ثم كفرتم وغيرتم وبدلتم ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾

وتمالكت نفسى وأنا أخشى من انقطاع الحديث وأن يقوم آخذا فراشه ومصحفه ويغادرنى ، فقلت له متحسسا كلماتى :

–أنت تستخدم الآية وتستدل بها فى غير موضعها . هذه واحدة . والثانية أننا لم نكفر ولم نبدل ولم نغير .. وإلا فأين الدليل على ذلك ؟

– مارأيك فى محمد قطب ؟

وتعجبت من هذه النقلة العجيبة . ولكنى قلت :

– رجل عالم فاضل مسلم يعى درس التاريخ ، وله نظر واجتهاد .

– وحسن الهضيبى ؟

– هذا هو المرشد العام للإخوان المسلمين ، وخلاصة التجربة الإسلامية فى محاولة التحرر فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وهو رمز للصمود عظيم .

وفى حدة بالغة قال :

– هؤلاء لايفهمون الإسلام . وحسن الهضيبى قد استأنسته الحكومة .

ولم أتعجب أو أستغرب من كلامه ، فهذا هو منطقه وهذه هى شخصيته ، وعندما فكرت فى لقائه والحديث معه لم أتوقع أقل من هذا .

وقلت له هادئا :

- قد فشلت الحكومة فى استئناس حسن الهضيبى ، وهذه حقيقة شبيهة بالشمس فى سطوعها .

- لم تخبرنى برأيك .. ماهى خططك من أجل تحقيق الإسلام ؟ كيف تفكر ؟

- الحكمة والموعظة الحسنة .

وملأت السخرية وجهه وهو يردد :

- الحكمة والموعظة الحسنة ؟ نؤيد الحكومة ؟ بالروح بالدم نفديك ياجمال ؟

- أنا لم أقل هذا .. لقد ذكرت لك نصا قرآنيا .. واللفظ الذى نطقته هو « الحكمة والموعظة الحسنة » حسبما أمرنا القرآن الكريم مبينا لنا سبيل الدعوة إلى الله .

- كيف تترجم هذه الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة إلى الله مع الأخذ فى الاعتبار واقعنا الذى نعيش فيه ، وسيطرة الجاهلية والكفر على كل شيء ؟

وتصورت أنها بادرة طيبة لنقاش لعله يسفر عن نجاحى معه فيما لم ينجح فيه أحد من قبل ، ولعلى كنت من أكثر الناس إحساسا وشعورا بمنهج شكرى رحمه الله وقلت :

- هذا هو الكلام العلمى المنضبط ، وأتمنى أن يكون هذا هو منهجك فى التفكير دائما .

فلنسم العالم الذى يحيط بنا بأية تسمية ، قد نختلف عليها ولكننا سوف نتفق على ضرورة تغييره ، والتغيير يحتاج دائما إلى الأسلوب الأمثل .

- لابد أن نتفق على التسمية .

- الشيء المؤكد أننا نتفق على التغيير .

- نتفق على تغيير شيء نختلف فى تعريفه ؟

- ولم لا ؟ كل منا يرى الأشياء من وجهة نظره ، وتختلف وجهات النظر فى تحديدنا للأشياء .

وقال منتصرا :

- وتختلف أيضا وجهات النظر فى التغيير .

وقلت له :

- هذا صحيح .. ولكن هناك درجة من الاتفاق على الأسلوب الأمثل ، فمثلا إذا اتفقنا على إزالة بناية ما وإقامة غيرها ، فهناك قواعد عامة منطقية تحكمنا فى هذا .

فيمكن مثلا أن نضربها بالمدافع وندكها دكاً على من فيها من سكان ، وقد يترتب على هذا هدم بنايات مجاورة ، ناهيك عن قتل من فيها من بشر ، وهذه طريقة من الطرق . وقد تخليها من السكان ويخرجون بأشيائهم ونكلف المهندسين بالإزالة دون أن يتعرض أحد للخطر .

ـ دعنا من ضرب الأمثال .

ـ هذا هو أسلوب القرآن الكريم ، وأنت رجل مسلم فاهم للقرآن وهدأ قليلا وقال :

ـ فلتستمر فى الحديث .

ـ الأسلوب الأمثل هو تفهم الزمان والمكان وعدم مصادمة نواميس الكون . والاقتراب من الهدف فى هدوء ودأب وصبر دون تحطيم .

ـ هذا كلام إنشائى لايحمل خطة .

ـ هذا كلام يحدد منهجا للعمل الإسلامى فى بلد كمصر .

ـ هل يصلح هذا فى بلد يحكمه جمال عبد الناصر ؟

ـ قد مات جمال عبد الناصر وكنت تود قتله .

وقال شكرى يائساً :

ـ سوف يحكمه جمال عبد الناصر آخر صغير .

وقلت له :

ـ لاحظ العلامات والتغيرات ، نحن ننتقل من الأسوء إلى الأقل سوءاً .

جمال عبد الناصر نفسه فهم قبل أن يموت أنه لايستطيع المضى قدما فى سياسة القمع إلى النهاية ، فسمح بثقب صغير للتنفس ، وجمال عبد الناصر الآخر الصغير سوف يزيد من هذه السياسة تحت ضغط الشعب ، وهكذا .

ـ لايوجد شعب .

ـ نحن نوجه الناس ونعلمهم ونبصرهم وندعوهم إلى الأحسن ، ويوما ما سوف يستجيبون . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

ـ هذا مشوار طويل .

ـ لايوجد غيره .

وضحك شكرى مصطفى ساخراً وقال :

ـ وبعد بيان ٣٠ مارس يمكن أن يسمحوا بتطوير مجلس الأمة ، ومايدريك

ربما يسمحون بعمل أحزاب ، وانتخابات .. إلى آخره إلى آخره ..

– ولماذا تستبعد هذا ؟ تأكد أن هذا كله سوف يكون .. وربما يصل المسلمون من خلاله إلى شيء .

– نحن نريد هدم كل شيء لأنه قام على الباطل ، وأنت تفكر فى استخدام الوسائل الجاهلية لتحقيق الإسلام ، المجالس النيابية تلك التى بلينا بها من أوروبا .

– أنت مخطىء ياصديقى .

وانتبه شكرى باهتمام :

– ماذا تعنى ؟

– المجالس النيابية التى جاءتنا من أوروبا أصلها إسلامى ، وقد أخذها الأوروبيون من المسلمين ثم تطورت مع الزمن حتى وصلت إلى ذلك الشكل الذى نراه الآن .

وبدت عليه دهشة بالغة وكأنه غير مصدق وسألنى :

– ماهذا الكلام ؟ كيف كان ذلك ؟

– استولى المنصور بن أبى عامر على خلافة الأمويين فى الأندلس ، وحكم باسم هشام المؤيد الصبى الصغير . وحكم أبناؤه من بعده ، وحدثت الفتن وانهارت الدولة الأموية هناك ، ثم ظهر مايسمى بدول الطوائف فى الأندلس . وفى كل مدينة كبيرة أو إقليم كان هناك حاكم قد كوّن لنفسه عصبية ، وصار له من أهله وعشيرته ومن الجند والأتباع ما يجعله يستنكف أن يكون تبعاً لأحد ، وتكونت أكثر من عشرين دولة طوائف فى ذلك الوقت ، على النحو الذى تعيشه بلادنا الآن .

وكان الحال فى قرطبة عاصمة الخلافة يختلف عن سائر المدن والأقاليم ، فلم يكن فيها ذلك الكبير صاحب العصبية ، عدا فتيان من بنى أمية تتابعوا على الحكم أسابيع أو شهورا ثم أكلتهم الفتن ، وعمت الفوضى وانهار النظام من جديد .

وبدا على شكرى مصطفى أن صبره أوشك أن ينفد وقال :

– لعلك لازلت ترانى ذلك التلميذ القديم الذى كان يجلس إليك فى معتقل أبى زعبل لسماع الدروس والاستفسار .. أنا لاأحب هذه المحاضرات الطويلة عن التاريخ .

وقلت له متلطفا :

– لابد من مقدمة لفهم الموضوع ياصديقى ، وليس من داع للغضب .

ورد فى ضيق :

ــ أنت تتكلم عن المجالس النيابية وأن أصلها إسلامى .

ــ لو أنتظرت قليلا لفهمت ماأريد .

وتنفس الصعداء وقال :

ــ لا بأس من الصبر .

وحاولت جهدى أن أشرح له دون أن يغضب وينفر من السماع وينتظر حتى نهاية الحديث وقلت :

ــ كما قلت لم تكن قرطبة عاصمة الأندلس كمثيلاتها من المدن والأقاليم ، لم توجد الشخصية ذات العصبية والأتباع التى يمكن لها أن تسيطر . وزادت الفوضى فاتجه وفد من الأعيان والكبراء والتجار والعلماء وقادة الجند للقاء أبى الحزم بن جهور قاضى قرطبة آنذاك ، وكانت للرجل مكانة فى نفوس المواطنين لدينه وعلمه بالفقه أصوله وفروعه ، وهو القاضى قبل هذا كله . وطلبوا منه أن يحكم المدينة لضبط النظام ، وفى هذه العصور المضطربة ذات الطبيعة الخاصة لم يكن لقاض مثله أن يحكم وكل ما يحمله من مؤهلات هو ورعه وعلمه بالقضاء وأداؤه له .

وكانت مشكلة واجهته ، ففكر فيها ، فابتدع نظاما جديدا فريدا استنبطه من الإسلام لعلمه بأصوله . وأنشا أبو الحزم بن جَهْوَر ما يسمى بحكومة الجماعة .. اختار وزيرين هو رئيسهما ، واتفق أن يسير الحكم من خلال هذه اللجنة ، وألاتكون القرارات وأية مراسيم إلا ممهورة بتوقيع الثلاثة مجتمعين ، وكأنه مجلس للوزراء صغير له رئيس ، وهذه اللجنة تدعو مجلسا ــ كلما استدعت الظروف ــ مكونا من هؤلاء الذين ذهبوا إلى ابن جهور ، واختاروهم بعناية من أرباب الحرف ، يعنى رئيس كل طائفة مثل الحدادين ومثل النجارين وغيرهم ومن التجار والأعيان وقادة الجند كما بينت . وإن لم يكن هناك ما يدعو إلى اجتماعهم فهناك لقاء دورى يبحثون فيه المشكلات ويرون الرأى فيها ، ثم يرفعون مايرون لمجلس الثلاثة فتخرج المراسيم والقرارات .

وبدأت حكومة الجماعة بنظام جديد أيضا ، لم يكن له وجود من قبل أدى إلى ثراء البلاد وغنى أهلها .

فقد أمر أبو الحزم بن جهور بتوزيع الأموال الخاصة بالدولة على التجار

وأصحاب الحرف يتاجرون فيها ، وللدولة رأس المال دون ربح ، ولها أن تطلب ما تحتاج وفق نظام وضعوه واتفقوا عليه . وكانت النتيجة أن ازدهرت الحياة فى قرطبة ، ومن ثم فقد جاءتها التجارة والبضائع من كل مكان ، وأرسلت هى الأخرى ماأخرجته مصانعها إلى كل مكان ، وصارت من أغنى البلاد فى حوض البحر المتوسط فى تلك الآونة من الزمن .

– ثم ماذا ؟

وبدا على شكرى مصطفى الاهتمام بالحديث فواصلت :

– وكما تعلم – وهو لم يكن يعلم – كان فى الجانب الشمالى من بلاد الأندلس الممالك النصرانية الشهيرة مثل أراجون وليون ونافار وقشتالة .

وكان ملوك قشتالة يتبنون مشروع حرب الاسترداد لطرد المسلمين من الأندلس ، وكان ملوك قشتالة هؤلاء رغم كراهيتهم العميقة للمسلمين إلا أنهم كانوا أكثر الناس اعجابا بهم لتفوقهم الهائل فى العلوم والفنون والثقافة بشكل عام . فكل العلوم كانت تدرس بالعربية فى معظم جامعات أوروبا آنذاك .

ورأى هؤلاء الملوك أن يستفيدوا من هذه التجربة الفريدة التى صنعها أهل قرطبة رغم ما تتسم به من الاقتراب الكثير من النظم الجمهورية الحديثة ، فأنشئوا مايسمى « بالكورتيس » وهو مجلس من الأشراف والنبلاء شبيه بذلك الذى أقامه أبو الحزم بن جهور من حيث الشكل ، ثم تطور مع الزمن ، ومنه انتقلت إلى أوروبا فكرة إنشاء هذه المجالس ، وعمل الزمن عمله حتى صارت على النحو الذى نراه اليوم .

وقال شكرى :

– هذا كلام عجيب .

وواصلت حديثى :

– ولو تأملت لوجدت أن أبا الحزم بن جهور بمجلسه هذا الذى صنعه إنما هو تطوير وتفسير لما يسمى عند الفقهاء بأهل « الحل والعقد » .

ولكنه وضع فى اعتباره اختلاف الزمان والمكان ، وأنه فى بلد إسلامى أوروبى حيث لاتوجد العصبية أو قوة الجند أو أى من العوامل المشتهرة فى تلك الأيام مما يثبت الملك ويرسخ دعائمه .

واستغرق شكرى مصطفى فى التفكير ، وكان رحمه الله - رغم كل شيء - من أصحاب النظر رغم غرابة نزعاته ورؤاه فى ذلك الحين ، وكان آخر عهدى به فى المعتقل فلم أره خارجه ، ولو أنى كنت أتوقع تطورات ماجرى منه وماجرى له ، رغم عدم دقة المعلومات بشكل عام .

ووجدته يفكر متقبلا للحديث فقلت :

- يجب أن نفهم أن مايحدث فى التجربة الإنسانية ليس بالضرورة غير إسلامى . وليس كل مافى الكون جاهليا نجسا ، فالحضارات تتزاوج ويخرج من خلالها ما يفيد الإنسان .

وامتلأ وجه شكرى مصطفى بانفعالات شتى ، هى مزيج من الدهشة والتعجب والتصديق والتكذيب والاقتناع وعدمه ، وصارت تعبيراته متنافرة متباينة ، ولكنه سرعان ما اعتدل فى جلسته وواجهنى فى تحدٍ وارتدى قناعه الساخر وقال لى :

- تريد أن نصنع مجلسا « للكورتيس » لنحقق الإسلام فى هذه البلاد التى تعفنت من الكفر والجاهلية ؟

وأحسست بخيبة أمل ولكنى تماسكت ، وليس هذا ماأقصده بالتأكيد وقلت :

- لقد أردت فقط أن أبين لك أن هذه المجالس النيابية لها أصل إسلامى ، ولم تأت من جاهلية أوروبية كما يظن الكثير . فشأنها شأن فلسفة اليونان .

- وماذا عن فلسفة اليونان ؟

- قد ترجمها المسلمون وأعادوا صياغتها ، ثم قدموها للناس عربهم وعجمهم مسلمهم وكافرهم . ولولا حركة الترجمة الضخمة لكتب الأولين والتى نشأت فى العصر العباسى الأول لما عرف العالم أرسطو وسقراط وأفلاطون وأفلوطين وغيرهم .

وقهقه شكرى ساخرا :

- لقد ذهبت بنا بعيدا ! ! وماذا عنهم ؟ وما أهمية أرسطو وسقراط ؟

وتخوفت من النتيجة فآثرت التراجع وقلت :

- على أى حال هذا موضوع آخر .

وانفجر غاضبا كالبركان ساخرا :

- والفارابى وابن رشيد وابن سينا والكندى .. هؤلاء الملاحدة الكفار .. لم يفسد المسلمين غير الكلام .. الكلام الكثير ، وهم أحوج ما يكونون إلى العمل .

وفى هدوء سألته :

– هل قرأت شيئا للفارابى أو ابن رشد ؟

وحدق فىَّ ولم يرد وعدت أسأل :

– هل قرأت عنهم ؟

ولم أنتظر إجابته بل واصلت :

– الإجابة لا .. وهذا ليس من العدل فى شيء .. حتى يمكننا الحكم على الأشياء يجب علينا أن نحيط بها ونفهمها ويعجبنى ديكارت عندما ..

وقاطعنى كأنما قد لسعته عقرب وقال :

– هل قلت يعجبنى ديكارت ؟

– نعم ..

– انتهى الحديث بينى وبينك .

– أظن أن عقلك أكبر من أن تنهى الحديث لأنى قلت جملة لم أكملها وعاد يضحك ساخرا :

– إن كان ابن حزم لانقيم له وزنا فتقول أنت ديكارت ؟ وماديكارت ؟ حمار كافر من حُمُر الغرب المسيحى الملحد ..

– إن كان الكلام للتسلية والممازحة فلا بأس .. وإن كان موقفا علميا فأنا اعترض ولا أرضى لك هذا .

ووقف وهو يلملم فراشه وقال لى :

– هل تنضم إلى جماعة المسلمين وإمامهم وتطرح ماأنت فيه من شرك وكفر ؟

ولم أملك نفسى من السخرية والمرارة وأنا أقول له :

– كم أنت مسكين ياعزيزى شكرى .. لو كانت لديك فكرة واضحة عما تقول أو ما تدعو إليه لكان الكلام أولى وأجدى .. كل ما عندك هو غضب قد امتزج بعنف هائل مع رغبة عظيمة فى التحطيم والانتقام وليس هذا سبيل المؤمنين .. وهذه من جرائم عبد الناصر .

وكأنى قد رأيت الشرر وهو يخرج من عينيه عندما غادرنى دون سلام أو كلام .

* * *

هل حقا الموت فى سبيل الله أسمى أمانيكم ؟

ووقفت مشدوها حزينا أنفض التراب الذى أثاره قيامه المفاجىء السريع ، وأنا أرى بعين خيالى غبار الخيل التى كانت تحمل الخوارج وهم يغيرون على الكوفة فيقتلون الأبرياء لأنهم لم يجدوا جند الوالى ، وكأنى أرى الغيب ، فقد كان شكرى مشروعا خطيرا يوشك أن يكون ، قد قام المعتقل بإعداده إعداداً جيداً ، وأشرف عبد الناصر وضباطه على صناعته ، ولم يغفلوا تفصيلة صغيرة فيه .

وفوجئت به يعود .. ودهشت ووقفت صامتا وبدأ كلامه وقد اصفر وجهه من فرط الانفعال ، وكان كلامه كأنه طلقات من مدفع آلى سريع الطلقات ، وكان يتكلم دون تلعثم أو ارتباك رغم تأثره البالغ :

– أنت وأمثالك هم أعداؤنا الحقيقيون فأنتم درستم وقرأتم وعرفتم وصار الدين فى نظركم مجرد أفكار ترددونها ، ونظريات تكونونها عن حركة التاريخ وسير الأحداث ، وإن قلنا لكم الأمويون وظلمهم قلتم عمر بن عبد العزيز ، وإن ذكرنا العباسيين وعبد الله السفاح قلتم الظاهر بالله الذى كان يصوم النهار ويقوم الليل .. هذا كلام سمعته منك فى أبى زعبل وليس من غيرك .. سوف نقيم جماعة على التقوى وسوف نغير كل شىء ولن يقدروا علينا ، لقد رأيت كل شىء فى رؤاى بالليل ، وهى تأتى فى العادة كفلق الصبح .. أنتم ماذا فعلتم للإسلام ؟ تكلمتم كثيرا وعندما يأتى وقت العمل تدخلون كالجراد المذعورة .. لماذا لم تموتوا قبل أن يقبضوا عليكم ...

هل حقا الموت فى سبيل الله أسمى أمانيكم ؟ لاأظن .. هى مجرد شعارات جوفاء ليس فى الواقع منها نصيب .. لو قتلك عبد الناصر مثل ماقتل سيد قطب ألا تعتبر نفسك شهيدا ؟ ولكنكم تخافون الموت وترتعد أبدانكم عندما ماتتذكرونه .. وعظماؤكم من قادة الإخوان ماذا فعلوا بالشباب الذين ساقوهم إلى الموت وليس لديهم أى تصور عن الدولة التى يفكرون فى إقامتها .. ماذا فعلوا بكم ؟ قد ألقوكم فى السجون والمعتقلات وأنتم تسيرون خلفهم كالنعاج لارأى لكم ولا مشورة . قد وليتم يوم الزحف ..التقى الجمعان .. فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة .. نكصتم على أعقابكم .. وبعد هذا هل تظن أن أى واحد منكم من المؤمنين ؟

سأقيم جماعتى من قريتى فأنتم نبت عفن قد أفسدته العلوم والثقافة ودمرت عقله الكتب ، سأبدأ بالأميين وأنتهى بهم ، فهم الأصل ، وهم الذين نزل من أجلهم القرآن وهو يخاطبهم وليس غيرهم .. وسيزداد عددنا ولن يقدر أحد علينا .. هذا ماأؤكده لك .. وسوف يأتى اليوم الذى تسمع فيه بخبرنا .. ويومها ربما أقول لكم اذهبوا فأنتم الطلقاء .. والطليق ليس له الحق فى الخلافة .. هذا بعد أن نثخن فى الأرض .. وربما نكون من قتلى معركة الكفر والإيمان التى توشك رحاها أن تدور .. أنا أقول لك هذا الكلام لأن لك فى نفسى منزلة ، ولا أريدك فى معسكر الكافرين .. صدقنى أنتم فى نظرنا لاتختلفون عن غيركم ..

قال هذا الكلام أو ماهو شبيه به ، فقد مضى وقت طويل على هذا الحادث ، ووقف ينتفض من الغضب والانفعال وقد تصبب عرقا ، وتأملته صامتا لأقول شيئا وهو ينتظر منى الحديث .

– مالك لاتنطق .

وقلت له مهدئا :

– لست مهيأ لسماعى يأخى العزيز .

وثار كالبركان :

– لست بأخيك .

– الكلام لايجدى .. لو كان الكلام يجدى معك لانتفعت بما قلته لك عندما التقينا فى عنبر ١٢ .. أنت حالة نفسية ، وينبغى أن تعرض نفسك على طبيب نفسانى بعد الخروج من المعتقل ، قبل أن تفكر فى إنشاء الجماعة .

– هذا ماقاله المشركون عن رسول الله .. قالوا مجنون .

وشعرت بالأسى والأسف وقلت له :

– أود الانصراف .. هل تريد أن تقول شيئاً آخر .

– نعم .

– تفضل إنى أستمع إليك .

– هيا .. اذهب وأخبر المباحث بما سمعت فتنال الحظوة وتخرج مع الخارجين فى كشف الإفراج القادم .

يذر عبدالناصر بذرة العنف فى كل بلاد الإسلام

وشعرت بعمق الإهانة وأننى أمام شخص غير طبيعى ، وهذا ماأعرفه من قبل ،

ولكنى ابتلعت إهانته فليست هناك جدوى من تنبيهه إليها وقلت :
– لقد قلت بنفسك هذا لرئيس المباحث من قبل .
وتركته أنها هذه المرة ، وخرجت من المسجد المهجور وأنا أفكر فى جريمة عبد الناصر التى ارتكبها فى حق هذه الجماهير الممتدة فى ذلك الجسد الهائل الممتد من المحيط إلى الخليج ، فقد صنع نظاما إرهابيا صار قدوة لكل البلدان المجاورة ، وهم يقلدونه ، ومن ثم سوف يكون فى كل بلد شكرى مصطفى آخر بملابس مختلفة وبلهجة أخرى ، ولكنه سيكون بنفس هذه الروح المدمرة التى ترفض العلم وتلقى بنفسها فى مجهول الخرافة ، وتنتظر يوما يحطم العالم نفسه إثر حرب ذرية بين العملاقين كما كان يقول فى بعض أحاديثه الساذجة ، ويعود الجميع إلى استعمال السيف فى الحرب حيث عالم الكهوف والجبال والأحراش .

قد فقد الأمل فى الحياة ، ويريد الموت بطريقة مبتكرة تحوطها هالة من وهج الإيمان الزائف حيث مواكب من الجن والأشباح تشيعه إلى مقره الأخير ، وهو يدعو غيره إلى الانتحار ، ويبحث عن وقود من البشر لتلك « المحرقة » التى يزمع إنشاءها . وتخيلت عالم شكرى مصطفى المزمع أن يكون .. عالما قد ملىء بالفتية والفتيات وقد ملئت أخيلتهم بأحلام الشهادة وضباب التضحية من أجل غاية لايفهمونها وفى سبيل مُثُل لاوعى لهم بها ، ومن خلال طريق مخوفة مجهولة قد فرض الوهم نفسه عليها ، وغابت عنها الحقائق وتوارى العلم بعيدا كأنه نقطة من نور خابية تراها العين .

وقلت ربما هذا طور من الأطوار يتحرك إلى شىء معلوم مفهوم يؤدى إلى شىء ، ولكننا لانصنع الكون ، فنحن بعض أدواته ومن خلالنا يتشكل التاريخ وتكون المشيئة الإلهية على قدر العلم الذى كان .

* * *

الشيخ على إسماعيل يرجع عن فكر التكفير

ساعد موت عبد الناصر على زوال الشعور الضاغط بالتعذيب والاضطهاد والذى كان مجسما عند أصحاب التكفير ، فمنهم من هدأت نفسه وعاد إليه وعيه الذى ضاع مع السياط والأسياخ الحديدية المحماة بالنار .

* * *

وجلست مع الشيخ على إسماعيل شقيق المرحوم عبد الفتاح إسماعيل الذى أعدم مع الشهيد سيد قطب ، وكان يقيم فى غرفة « المكفرين » وكان من زعمائهم يوما ، ثم اعتزلهم وأقام جماعة وحده .

وكانت غرفة « المكفرين » من عنبر اثنين تضم لفيفا من الجماعات الجديدة أدناها واحد وأكثرها عددا اثنان ، بعد أن كانوا لفيفا .

وكان الشيخ على إسماعيل يتميز عن الآخرين بأنه من خريجى الأزهر ، فقد حصل العلوم الشرعية ، وعلى إلمام جيد بالفقه والتفسير ، ويفهم القواعد الأصولية واختلافات الفقهاء وأدلتهم حول هذا الاختلاف ، ولهذا كان من أهم الشخصيات الموجودة ، لأنه يستطيع أن يبنى تكفيره للناس على قواعد فقهية ،وعنده من الأدلة والأسانيد ما يجعل الحجج أمامها ضعيفة ، مع استعداد الناس العظيم لهذا الاتجاه الذى يغذيه العقل الباطن ، ورفض المجتمع ، والشعور العارم بالاضطهاد .

وفى غرفة أربعة من عنبر اثنين جلسنا على « نمرة » الشيخ على إسماعيل . وكان الرجل عليه رحمة الله كريما خفيف الظل على حس عال بالفكاهة رغم علمه وفقهه وإيمانه بالله ، ولا أذكر ماذا قدم لى يومها من حق الضيافة .
وقلت له :

– مارأيك فى موت عبد الناصر ؟

وابتهج وأشرق وجهه وقال :

– وهل هذه فى حاجة إلى رأى يا أبا راتف ؟ لقد رد الله سبحانه وتعالى الأمل الذى كاد يتبدد من نفوسنا . الموت حق ولكن هلاك هذا الطاغية قد أعاد الثقة إلى النفوس التى أضناها الظلم . لقد هدأنا وأصبحنا ننظر إلى الأمور نظرة أكثر تعقلا ، وقد أعملت الرؤية فى كل النصوص التى كنا « نكفر » بها فوجدتها يمكن أن تؤخذ على وجه غير ذلك الذى ذهبنا إليه . ولأول مرة أفهم رأى الفقهاء فى شروط الفتيا والجلوس للقضاء ، فقد كانوا يشترطون عدم وجود أية ضغوط على ذلك الذى يتعرض لهذا حتى يكون رأيه نزيها محايداً .

وكان يتحدث وهو يتلفت يمنة ويسرة ، كأنه خائف من أولئك المتناثرين فى هذه الغرفة الكبيرة من جماعات شتى وعددهم قليل كما ذكرت .

وهمست له :

ـ هل تخشاهم ؟

وبدا الحرج على وجهه وقال :

ـ هم يؤمنون بالتصفية الجسدية لمن يذيع الأسرار .

ـ وهل توجد أسرار بعد هذا الزمن الطويل فى المعتقل ؟

ـ كل ماكان يقال فى هذه الغرفة هو من الأسرار بغض النظر عن طبيعته .

ـ وهل تنوى أن تحكى لى بعض هذه الأسرار ؟

وقهقه الشيخ على إسماعيل عاليا وقال :

ـ كأنك لم تسمع بما حدث ؟

ـ قد حدث الكثير .. أيها تقصد ؟

وفى همس لا أكاد أتبين منه كلماته قال :

ـ لقد تركت « التكفير » وعدت إلى صفوف الإخوان .

ـ هذه قد سمعت بها ، ولكنى لم أعرف التفاصيل .

وقال لى :

ـ مارأيك لو خرجنا إلى الفناء نتحدث ، لأنى هنا لا أضمن عاقبة الكلام .

وقلت له :

ـ لا بأس من هذا .. هيا بنا .

ونحن خارجون صرت أنظر يمينا ويسارا على أولئك الذين قد جلسوا على « نمرهم » وهم يتلون القرآن فى صوت خفيض ، فلما قمنا تركوا مصاحفهم وصاروا ينظرون ناحيتنا شذراً ، وكانت عيونهم تنطق بالشرر ، وتنذر بالخطر ، ولا يرون فى هذا الاجتماع خيرا أبدا ، وجميعهم كانوا من الشباب وأعمارهم أقل من الخامسة والعشرين . وتشجعت وألقيت السلام على أحدهم ، فوضع وجهه فى مصحفه و لم يرد على .

وفى الممر بين الغرف ونحن فى طريقنا إلى الفناء للحديث قلت للشيخ على :

ـ لماذا ينظرون إلينا هكذا ؟

وحوقل ومصمص شفتيه وقال :

ـ **﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾** .

ـ ما أسهل أن نستدل بآيات القرآن الكريم .

وكنا قد اقتربنا من الباب المؤدى إلى الفناء الخارجى للمعتقل ، وتوقف الشيخ على إسماعيل ، وقال لى باهتمام :
– هل تعرف أن شكرى مصطفى يبحث عن غرفة فى عنبر اليهود ليقيم هناك هو وجماعته ؟
– جماعته ؟ تقصد الدكتور عصمت ؟
– نعم .
– الجماعة ثلاثة فأكثر ، هكذا تعلمنا من اللغة العربية ؟
وضحك وهو يقول :
– هناك فرد بأمة أم تراك نسيت ؟ « إن إبراهيم كان أمة »
– إبراهيم وليس شكرى ياشيخ على . ولكن لماذا يفكر فى الانتقال إلى حيث يقيم اليهود ؟
– يقول إنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى قبول الدعوة من غيرهم .
– كيف اعتزلت « المكفرين » ؟
– جاني من أخبرنى أن فضيلة المرشد يريدنى فأسرعت إليه .
– ألم تضعوه مع الكافرين ؟
–كنا نضعه فى أول القائمة ، ولكن سرعان ما نسيت هذا وأسرعت بالذهاب . يبدو أن كلامك الذى كنت تقوله صحيحا .
– أى كلام تقصد ؟
– كنت تقول إنها أمور يحكمها الشعور وتحركها العاطفة وليس قواعد الفقه وأصول الدين .. هذا الكلام صحيح إلى حد كبير .. وهذا ماشعرت به شخصيا وجلسنا عند شجرة فى فناء المعتقل تقع بين « الملاحظة » والمستشفى كبيرة وارفة الظلال ، ووجدت دموع الرجل تنساب على وجنتيه فقد كان عاطفيا عميق الشعور ، وهذه ظاهرة كنا نراها كثيرا فلا نعجب لها ، فهؤلاء المعتقلون الذين صمدوا أمام التعذيب و لم ترتفع أصواتهم بالصراخ والعويل إلا فى أقل القليل – كان كل واحد منهم أو أغلبهم يحمل بين طيات صدره قلب طفل ، وسرعان ما يتأثر لأى موقف له صلة بالشعور فتدمع عيناه ويرق قلبه وتراه فى صورة مختلفة ، وتركته حتى انتهى واستمعت إليه :
– أنت تعرف كيف أمسكوا بنا ، وتعرف ماذا فعلوا معنا ، وكيف جعلونا نعترف بمالم نقترف . وكيف كانت جلسة لدراسة القرآن تسببت لصاحبها فى

الأشغال الشاقة المؤبدة منها وغير المؤبدة . وتعرف كيف أعدموا أخى الشهيد عبد الفتاح إسماعيل ، وقد رأيته ممزقا بالسياط قبلها لأنه هو الذى جمع الناس لدراسة القرآن . وقد رأيت الشهيد سيد قطب وهم يجرونه جراً وهو لايستطيع المشى مرضاً وضرباً . وكذلك الشهيد محمد يوسف هواش وغيرهم وغيرهم .. أنت تعرف كل هذا فقد حدث فى وجودك .

وطافت بخاطرى ذكريات التعذيب وكيف كان وحشيا غير إنسانى . وتذكرت هؤلاء الضباط وقد تجردوا من كل رحمة وهم يتعاملون معنا ، وقد وضحت أمامهم صورة ما كانوا يسمونه بالتنظيم ، وأنه ليس بتنظيم . وتذكرت المرحوم فاروق المنشاوى وهم يخلعون أظافره هو وفايز إسماعيل . والمرحوم جابر رزق عندما سقط على الأرض وطلبوا منه النهوض فلم يستطع رغم لسع السياط ، والمرحوم أحمد إسماعيل الفيومى وهم يدقون رأسه على « الفسقية » وكل الشهداء الذين سقطوا فى هذا المعترك الدامى . وكان يكفى أن يجمعوهم فى صعيد واحد ، ويقف أحد هؤلاء الضباط ويعلن فى وضوح وصرامة .. ممنوع قراءة القرآن .. ممنوع الاجتماعات لأى سبب كان .. وكان الكل سيمتثل .. وتنتهى القصة بغير ما خلفته من آثار جسام ، أقلها أنها سوف تقضى يوما على هذا النظام ، وظنى أنها تكون نهاية مروعة تصير حديث العالمين ، فهم يسيرون فى نفس الطريق بعد كل تلك السنين .

وقلت للشيخ على إسماعيل حزينا من الذكرى :

– ومن يستطيع نسيان ماحدث .؟ نعم أعرف كل ماجرى .

وانبرى الشيخ :

– أخذونى من بين أولادى بليل وحدث لى مثل ما حدث لك .. وتبين لهم أننى برىء حتى من حلقات الدراسة التى كانت تجرى ، ورغم ذلك لم أرحم من العذاب والضرب ، وبعد أن تبين لهم براءتى جاءونى بعد أيام وأعادوا العذاب ، وهم يسألون عن القنابل ، وكانت مشكلتى أن أبحث فى ذاكرتى عن محل لبيع هذه القنابل لأدلهم عليها . وكدت أموت يومها من العذاب فقد أصر الضابط أن آتيه على الأقل بقنبلة أو قنبلتين .. وأجهد ذاكرتى فلا أقدر .. ثم نقلونى بين الحياة والموت إلى « الشفخانة » ومكثت بها أياما .

ثم دخلوا علىَّ وجراحى لم تلتئم ، وظننت أنهم جاءوا للاعتذار عما حدث ، وفوجئت برئيسهم يسألنى :

– أتذكر مكان القنابل ؟

ومادت بى الأرض وضاق صدرى وعرفت أنه الموت ، وشعرت بالعجز ، وقلت له :

– ياسيادة الضابط القصة ليست قصة قنابل .. أنت تعرف أنه ليس عندى منها شيء ، ولا أعرف طريق الحصول عليها ، وأنا عالم من علماء الأزهر ، وليس هناك ما أفعله بهذه القنابل ، والرأى أن تأخذنى ومعك القنابل اللازمة ونذهب إلى بيتى ومعك المصورون وتستخرجونها وأنا أعترف عندها أمامهم .

وقال الضابط :

– تعترف بماذا ؟

وزادت حيرتى ودق قلبى سريعا ولا أدرى ماذا أقول له ولكنى قلت :

– أعترف بكل شيء .. سيادتك تخبرنى بما أقول ولو غيرت حرفا واحدا فأنا بين أيديكم افعلوا بى ماشئتم ، وهكذا تستريح ضمائركم أمام الله . وقال لى الضابط فى سخرية ووحشية :

– الله !! كم أنتم حمير ياعلماء الأزهر .. لو كانت لديك ذرة من عقل لعرفت بعد كل الذى حدث أنه وهم صنعته فئة فى زمن قديم ، وزاد من هذا الوهم أن يأتى كل حين من الوقت من يدعى أن الله قد اتصل به وأرسله نبيا ، ويصدقه بعض السذج والبلهاء من أمثالك .. دجالون يزعمون أنهم أنبياء ويأتى أغبياء فيصدقونهم .. الله هذا لايوجد فى غير رأسك العفن .

– من كان هذا الضابط ؟

– لا أذكر اسمه .. ولكن هكذا قال لى .. وكان يقف معه ضابط آخر والطبيب والكل يبتسم معجبا بكلام هذا المسكين .

ورغم علمى بكل هذا ولكن عندما أسمعه أدهش ، وسوف أظل هكذا أبد الدهر أدهش لسماع الجريمة ، ولو سمعتها ألف مرة ، وقلت له :

– وماذا قلت له ؟

وقال الشيخ على إسماعيل :

– لم أقل شيئا ، ولكنى فى هذه اللحظة فقط عرفت أننى أتعامل مع كفرة . ووضحت الرؤية لى ، وعممت هذا على الجميع منذ ذلك الوقت .

– وكيف انتهت قصة القنابل ؟

وشرد الشيخ على ببصره ليتذكر وقال :

– سكت لم أنطق بحرف بعد هذا الكفر البواح الذى سمعته ، وأعاد علىَّ

السؤال عن القنابل و لم أرد لأنى فهمت الموقف ، أنا أتعامل مع كفرة غلاظ شداد لا يعصون الشيطان ماأمرهم . وأشار الضابط إلى الطبيب وقال له : أعطه الحقنة المسمومة فنستريح منه إلى الأبد .

ولحظتها أحسست بالراحة وهم يمسكون بذراعى وأنا لا أقاومهم ، وقلت أذهب إلى الله سبحانه وتعالى فأشكو له ما يعلم وأخلص من هذا العذاب .

وأعطونى الحقنة وغبت عن الوعى .

– والقنابل ؟

– لم يتحدث أحد معى بشأنها بعد ذلك .

وشرد كلانا قليلا وكل يتذكر مامرَّ به من أحداث جسام ، وطافت بخاطرى جملة ابن خلدون الشهيرة « الظلم يؤذن بخراب العمران » وقد خربت العمران والحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه .

وأفقت على حديث الشيخ على إسماعيل وهو يقول :

– قصصت كل هذا لفضيلة المرشد عندما طلبنى وعرف أننى أتزعم فريق « المكفرين » وأنا الذى أمدهم بالآيات والأحاديث والأسانيد الفقهية ، وهى كثيرة كما تعلم .

وضحك كلانا من كل قلبه للذكريات المبكية المضحكة وقال الشيخ على :

–اسمع يا « أبو رائف » . هل تشك فى كفر هؤلاء ؟

وضحكنا ثانية وقلت :

– هل عدلت عن أفكارك مرة ثانية ؟ ماذا قال لك المرشد ؟

– عندما انتهيت من قصتى قال لى : وأين صبر المؤمنين الصادقين ؟ فلندع حساب هؤلاء على الله سبحانه وتعالى ، ولنصبر ونحتسب ولنقم بدورنا ، وهو يتلخص فى الدعوة إلى الإسلام وتفهيم الناس ، وينبغى ألا نشتت جهودنا فى الهدم ولنفكر فى البناء ، فنحن دعاة لاقضاة .

ونزل كلام المرشد العام على قلبى بردا وسلاما ، وذهب مافى قلبى من غضب وضيق ، وعدت ثانية فرداً فى جماعة الإخوان المسلمين وأنا أعرف واجبنا حيال هذه الأمة التى ضيعها حكامها .

وقلت له متردداً :

– ولكن .. هل تراهم كافرين ؟

وقال متحمسا :

– الكافرون بشر يمكن لهم أن يؤمنوا يوما ، ولكن هؤلاء كالأنعام بل أضل هم أقل من الدواب ، هم كافرون كافرون كافرون . ولكن لاينبغى علىَّ أن أقول هذا فليس ذلك سبيلنا ، ويجب أن ألتزم بالصف ، وليحتفظ كل واحد بأفكاره لنفسه وينسجم مع ماتراه الجماعة وتقرره . ثم مافائدة أن نصرخ فى الناس أنت كافر .. وأنت كافر .. سوف نبدد طاقتنا أو نستنفد قوتنا فيما لايفيد .. ولن يكون دورنا إيجابيا فى هذا المجتمع .

وهل تظن أن هؤلاء الجالسين كالغربان فى غرفة أربعة من عنبر اثنين سوف يسكتون ؟ أبدا .. سوف يخرجون يوما من هذا المعتقل ، وسوف يملكون قرى مصر ومدنها بأتباعهم ، والناس على استعداد لتقبل هذا ، فالكل يكره الحكومة كراهية التحريم . وسوف يأتى اليوم الذى يكون إنقاذ المجتمع من التدمير فى يد الإخوان المسلمين . وقلت له :

– وماهو رأيك فى جمال عبد الناصر ؟

– من ناحية الكفر والإيمان ؟

– نعم .

وانفعل الشيخ على إسماعيل انفعالا شديدا وهو يقول :

– هذا كافر سواء وافق المرشد على هذا أو لم يوافق .

ونظرا إلىَّ متعجبا وقال :

– هل تشك أنت فى هذا ؟ بعد كل مافعل وتسألنى هل هو كافر أو مسلم ؟

وانصرف غاضبا ولحقت به وهو يتمتم :

– قتل الشهداء وضرب المسلمين وقوى اليهود وأضاع الأرض . وقال شريعة الله لاتصلح ، وكتب الميثاق .

والتفت إلىَّ ضاحكا ، وعاد إليه صفاؤه من جديد .

حوار مع السماوى

كان عبد الله بن أحمد السماوى شابا وسيما يرتدى الملابس العربية القديمة على النحو الذى يظهر فى المسلسلات التليفزيونية الرديئة التى يشرف عليها صفوت الشريف

الآن - وهذه العبارة لاتقع تحت طائلة قانون المخابرات الجديد ، فليس فيها مايفيد أنه يجيد نوعا آخر من المسلسلات لايعرض على الناس ، ولكن كان هناك اقتراح ببيعه للحصول على عمله صعبة من بيروت ، فهذه كلها مجرد شائعات ، ونحن نثق فى دين الوزير وأمانته وشرفه وتاريخه الحافل فى خدمة مصر والإسلام من خلال الكاميرا التليفزيونية الخفية . وأعتذر لهذا الاستطراد ولكننى أحببت ألا تضيع الفرصة قبل أن أحيى الرجل الذى قضى حياته [redacted] ، وكان له نبوغ مبكر فى عالم الإخراج والتصوير .

ونعود إلى عبد الله بن أحمد السماوى صديقنا الشاب آنذاك .

جاء إلى المعتقل متأخراً،ولكن دون سبب معلوم كما جاء غيره من الشباب والشيوخ،وكان دون العشرين ، مهذبا رقيقا هادئا لايغضب ولا يثور إلا لله،وهكذا كان يقول ويتكلم اللغة الفصحى فى حديثه العادى معنا أو مع غيرنا ، وأحيانا ما يستعملها فى الشجار،الأمر الذى كان يستحيل معه الإمساك عن الضحك الشديد ، ويصير الأمر فكاهيا عندما ينقلب علينا لضحكنا منه وهو ينتظر مناصرتناله .

وكان يرى أن هذا هو أهم مظاهر العودة الصحيحة إلى الإسلام ! وقد سمعت أقواما يتحدثون الفصحى وقد ينفعلون بها ويأتى كلامهم بليغا طبيعيا مؤثر لايثير ضحكك بل يثير انتباهك وإعجابك لأن ثقافتهم قد اكتملت وصارت هذه هى طبيعية حديثهم فلا تنبو كلمة ولا يشذ لفظ ، بل ترتاح الأذن تماما مع الحديث .
وكنت أحب الحديث مع عبد الله بن أحمد وكان اسمه الأصلى طه السماوى ، وتوقعت له أن يكون زعيما كبيرا فى ذلك الوقت ، وقد صح توقعى وصار كذلك .
وكنت عندما أحاول أن أفهم لماذا قبض عليه لا أستطيع ، وهو يحكى لك كل ما يمكن أن يساعدك ويساعده على الاستنتاج والفهم بلا فائدة .
وسلك الشاب سبيل « المكفرين » وكان هذا هو السبيل الذى يصعب عليك أن تمنع مثله من ولوجه بعد أن حدث له ما حدث من ظلم واضطهاد .
وصار يتردد على مدارس التكفير المختلفة،يستمع إلى هذا ويناقش ذاك ، ولم يأخذ الأمر منه وقتا طويلا فسرعان ما استقر رأيه وتبلورت أفكاره،وصنع فرقة تكفيرية هو رئيسها ومعه شخص اسمه عبد الحميد الجمال .

وكان هذا أمرا طبيعيا آنذاك فى تلك الفترة المضطرمة من الاضطهاد ومن الظلم والاعتقال الذى لايبدو له آخر .
واستطراد آخر لا مندوحة عنه .

هذه الجماعات التى وصفت « بالتكفيرية » كان لايزيد عدد أفرادها عن ثلاثة وهى تتراوح بين الرقمين ، اثنين أو ثلاثة فهى نوع من الانسجام النفسى والتوافق فى الميول والنزعات فى ظروف قاسية يبحث فيها الشاب عن صديق يحدثه ويستمع إليه ، ثم يأخذ الأمر بعدا فكريا فجا ، تؤصله بعض المعلومات الفقهية التى تأتى من هنا أو هناك ، حيث يعتورها الخطأ والنسيان والتشويش .

وكانت أغلب شخصيات التكفير رغم التجاوز فى إطلاق هذا اللفظ - شخصيات « شكسبيرية » لها ملامحها الدرامية المميزة ، وهى لاتتشابه فى شىء إلا فى النزوع والنفور والرغبة الجامحة فى تحقيق الذات ، مع التباين الكبير بين الأحلام والقدرات والإمكانات التى يمكن أن تحققها .
وكان أمل كل واحد من هؤلاء وقد أكون مخطئا - أن يكون حسن البنا الآخر الذى يأمر فيطاع ناسيا ظروف المكان وتغير الزمن ، والامكانات الشخصية .
وكان هذا أحد أسباب الكوارث !
وقد ساعدت الحكومة وممارساتها الإرهابية الإجرامية فى تكريس هذا الواقع عن قصد أو غير قصد ، والأولى أرجح واكثر منطقية .
أما حسن البنا فرجل قد اشتركت عوامل كثيرة فى صنعه ، أهمها ملكاته الخاصة وما ألقى الله سبحانه وتعالى فيه من مواهب وخصائص اجتهد فى تطويرها والإفادة منها .
فقد كان هو شخصيا مشروعا إسلاميا ناجحا قد أحسن إدارته وجاء بأحسن النتائج ، فى زمن كان أحوج مايحتاج إليه فيه ، وكانت الساحة كلها مهيأة لظهوره ، فقد تضافرت عوامل التاريخ والجغرافيا ومبادىء الإسلام فى ظهور حسن البنا ، فكان ظاهرة فريدة من نوعها لتوفر هذه العوامل مجتمعة .

وقد تطورت ظاهرة التكفير وهى تعبير عن رفض المجتمع شكلا وموضوعا فى نظام لم يكن يسمح بكلمة واحدة للنقد ضد أى مخلوق يمثل السلطة بشكل أو بآخر .

وكان الحاكم يرى نفسه إلها لايقبل أن يُشرك به ، ولا يغفر ذلك ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء . وهو الأمر الذى جعل المعارضة الحقيقية تعتمد فى كيانها على الكفر بهذا الإله المزيف . ومانحن فيه من تيار جارف غالب ماهو إلا ظاهرة من ظواهر التعبير للمعارضة الحقيقية ، التى لم تتح لها فرصة الظهور بشكل هادىء وطبيعى .

نظرية الحاكم الفرعون

ولايزال النظام يعتمد نظرية الرئيس الحاكم الفرعون الاله ، وهى نظرية قد عفا عليها الدهر ، ولم تعد تصلح للتعامل مع الناس . حتى ولو فى بلد ضعيف مثل مصر — والمطاوى والسكاكين والجنازير ، سوف تجبر هذا الاله على النزول من فوق عرشه . وفى تقديرى أن فرصة إصلاح هذه المواقف قد ذهب إوانها ، فعدة الفرعون الإله فى مواجهة هذا المد الدينى الهائل — مع كافة التحفظات حول مايقولون — هو جيش من الشرطة قد صنع عداوة مع الشعب ، فهم يبطشون بالناس دون تمييز وهذا يجعل الجميع يتعاطفون معهم ، وإذا تكرست العداوة بين الشرطة و جمهور الشعب العادى فإن عواقب وخيمة سوف تكون .

ويعتمد الفرعون الإله فى مواجهة هذا المد الدينى — الذى يمكن أن يكون رشيدا — على مجموعة من العلماء المهازيل الذين يتقوتون من فتات الحكومة ، حتى إن أكبر عمامة فى مصر تصدر بيانا يكتب فى الصفحات الأولى ، ويقول بتكفير هؤلاء المتطرفين ، ثم يقول البيان إنه لايجوز أن يكفر مسلم مسلما ! وكيف يتأتى هذا وصاحبه يكفرهم فى أول البيان ؟

وهؤلاء العلماء المهازيل الذين يبيعون دينهم بدنيا غيرهم ، وهم لايعلمون أنهم محل احتقار الجميع .. الفرعون .. والهامان .. والمستضعفين .. وأنفسهم .. لبعض من عنده بقية احترام للقرآن الذى قرأه والفقه الذى يلوكه بفمه كأنه يمضغ لبانا . هؤلاء يرون الشرطة تضرب الناس وتقتلهم فيوجهون حديثهم إلى المضروبين المقتولين ويطلبون منهم الهدوء والتعقل ، وكان أولى بهم أن يوجهوا حديثهم إلى الضارب . إلى صاحب البطش الأكبر وإلى الهامان وإلى جنودهما . لو كان بيان العلماء قد وجه إلى الحاكم الإله لمنع الفتنة ، لو قالوا له أنت بشر تخطىء وتصيب ويمكن أن تموت فى ظروف غامضة كما حدث للفرعون الأول لهدأت الفتنة ، لو قالوا له إنك بشر يمكن أن يأتى قادر ويغرقك بالرصاص كما حدث للفرعون الثانى لسكن الجميع ،

لو قالوا له لاتدفع الشعب إلى موقف ضيق لهدأ الناس ، ولقابلوا كلام العلماء بالاحترام والتوفير ، ولكانوا أكثر طاعة لهم فيما بعد .

ولكنهم جلسوا فى صحن الأزهر-وهو لم تعد له المكانة القديمة - واهتزت العمائم ومضت عدسات التليفزيون وكل عالم كبير يقف ويلقى كلمة يؤكد فيها أنه ليس من علماء السلطة ، وأنه لم يأت بأمر الشرطة .

* * *

سبحان الله !!

وهل اتهمكم أحد بهذا ؟ يكاد المريب يقول خذونى .

ثم يتحدثون عن فتنة دامية توشك أن تشمل البلاد . ويقولون إن تغيير المنكر باليد يكون مهمة الحاكم ، وتغييره باللسان يكون من مهمتهم،يعنى أصحاب العمائم .

حسن هذا وجميل ! ولا خلاف عليه أيضا ، فليكن الأمر كما قلتم ، وليس فى وسعى جدالكم أونقاشكم.فأنتم أصحاب نظر، وقادرون على الفتيا،وتعرفون من أمور الدين والفقه مالا أعرف .

الخلاف حول تفسير معنى المنكر !!

هل تقصدون بالمنكر الأشياء المخالفة للإسلام والتى ليس فيها نص صريح أو حكم واضح ، مثل أن تخرج المرأة سافرة ، أو أن تعمل فى مكان ما ، وبعض الجماعات يرون هذا منكراً ، وللحاكم أن يغيره إن شاء أو لايفعل ؟

هل هذا ماتقصدون ؟

أما احتلال حى بأكمله والضرب بالرصاص على النوافذ والشرفات ، ومنع التجول وتعذيب المواطنين ليس فى المعتقلات ولكن فى داخل هذه الأحياء بالضرب المبرح بكعوب البنادق . والأمر بالقبض على المتهمين أمواتا فهذا ليس من المنكر، بل هى جرائم تستدعى تدخل جماعات حقوق الإنسان فى العالم !!

وهل تستطيع الشرطة مهما كبر حجمها ومهما زيدت مخصصاتها أن تستطيع مقاومة ماسمى ببؤر الإرهاب التى انتقلت من الصعيد إلى القاهرة ؟

ألا يدل كل هذا على أن هناك خللا ما فى التناول ؟

لو وجه العلماء خطابهم إلى الحاكم وإلى هامان لهدأت الفتنة وظنى أنها سوف تزيد لأن هناك خللا فى كل شىء .

نحن على عتبات عصر الإرهاب والعنف !
والطريق إلى العنف قد بدأ منذ سنين ، من أيام معتقلات عبد الناصر، حيث انعدم القانون وظن الحاكم أنه فوق كل شيء .

صلاح الدسوقي وإلغاء مجلس الدولة

ومن طريف مايروى ..
كان صلاح الدسوقي صديقا « للملهم » ويلعب معه التنس للرياضة كل يوم . وصلاح الدسوقي الششتاوى هذا كان من الذين يعذبون المؤمنين فى السجن الحربى عام ١٩٥٤ ، ثم صار محافظا للقاهرة ، ولا أدرى ماذا تسنم من مناصب أخرى بعد ذلك .

سامحونى فى الاستطرادات الكثيرة فأنا أكتب ملاحظات ومشاهدات وذكريات .
وسامحونى أيضا فى قطع الحديث ..
تحت على المكتب أمامى أثناء الكتابة الآن جريدة الأخبار عدد الخميس ٥ يناير ١٩٨٩ الطبعة الأولى ، فى الصفحة الأولى خبر مكتوب على النحو التالى :

تطوير صناعة الطعمية

الإسكندرية — مكتب الأخبار
يعقد فى الإسكندرية اليوم مؤتمر تطوير الطعمية ، ويبحث المؤتمر طريقة تصنيع الطعمية حاليا والأساليب العلمية الحديثة فى تصنيعها آليا . وسيفتتح المؤتمر الدكتور سعيد عبد الفتاح رئيس جامعة الاسكندرية والدكتور محمد أحمد صباح عميد كلية الزراعة بالجامعة ، وسيعقد المؤتمر بقاعة المؤتمرات،بالكلية ، ويشرف عليه الدكتور محمد يوسف ، ومن المنتظر أن يتوصل المؤتمر إلى أسلوب جديد فى أنتاج الطعمية .

هذه ليست نكتة ! ! وليست كاريكاتيرا ! !
وإتماما للفائدة نكتب العنوان الرئيسى للجريدة نفسها لسان حال الدولة بعرض *الصفحة كلها وهو كالتالى :*

المقاتلات الأمريكية تسقط مقاتلتين ليبيتين فوق البحر المتوسط .
ولا تعليق !!

ونعود إلى موضوع صلاح الدسوقى قبل أن نستكمل الحديث مع الأخ عبد

الله بن أحمد السماوى ، وأكرر الاعتذار لعدم الترابط فى الشكل رغم تأكده فى المضمون والله أعلم .

كان صلاح الدسوقى من ضمن المعذبين ، الذين يقومون بالتعذيب ، وقيل والعلم عند الله أنه أحد مدبرى حادث المنشية « تمثيلية محاولة اغتيال الملهم للقضاء على الإخوان » وكان هو الصديق الصدوق للزعيم فى فترة ، ثم انقلب عليه بعد ذلك وأودع المعتقل مثل غيره ممن انقلب عليهم ، وقد كان الرئيس واضحا وصريحا دائما – الرئيس عبد الناصر – وليست عنده وسطية فى الأمور ، إما أبيض وإما أسود .. هكذا .

السجن .. أو الوزارة ولعب التنس ..

وكانت هذه مرحلة لعب التنس مع صلاح الدسوق ...

وكان هؤلاء الضباط الذين اشتركوا فى صناعة الثورة ، والذين قتلوا الناس وعذبوهم يتميزون بالحقد الهائل الذى يملك قلوبهم حيال أى مخلوق يختلفون معه .. كما حدث من واحد فيهم كانت زوجته لاتستلطف جارتها ، فأمر ذلك الضابط بالقبض على زوجها وعذب فى محنة ١٩٥٤ ، ومكث سنتين فى المعتقل ، وخرج منه وقد صار من الإخوان المسلمين .

وكان صلاح الدسوقى على خلاف مع أحد وكلاء وزارة الصحة .

خلاف كبير أو صغير الله أعلم ...

ولكنه فى الاستراحة بين اللعب قال للزعيم :

– هناك واحد بيشتغل فى وزارة الصحة وسمعت إنه « بيلسن » علينا .

وهو تعبير بلدى ! وكلمة « بيلسن » هذه كانت استخداما « رئاسيا » فى تلك الفترة واستخدموا جميع المرءوسين ، وهى تعنى أن يتكلم فى حق الثورة ، وهى من « اللسان » عضو الكلام عند الإنسان أو أحد أعضائه . وكانت هذه الكلمة الغامضة التى يتهم بها أى فرد تتسبب فى الحكم على المتهم بأى شىء مثل الاعتقال والفصل ، أو أى شىء ، وضع تحت هذه الكلمة أية عقوبة من العقوبات التى تخطر ببالك أو لاتخطر وانزعج الزعيم ، والتفت ناحية صلاح الدسوق الششتاوى :

– يعنى إيه يا « صلوحة »

هذه كانت عادة الزعيم لأنه رحيم وطيب القلب ويدلل خدمه ومساعديه ، فيقول لسامى شرف يامشمس ويقول لمحمود الجيار يا جىّ ، وقد نطق الأخيرة أمامى واحد

ممن سمعها منه ونطقها غير كتابتها ، وقد اجتهدت .

– لا أبدا باسيادة الرئيس .. موضوعه سهل ..

– حطه فى المعتقل مع الإخوان ..

وبابتسامة صفراء قدم له صلاح الدسوقى ورقة وهو يقول له :

–احنا صبيانك ياريس،ونعرف كيف نؤدب هؤلاء الكلاب ، الاعتقال سهل ولكن لازم نفصله من وظيفته علشان يشحت .

ونظر عبد الناصر إلى الورقة فى يد صلاح الدسوق وقال :

– ماهذا ؟

– هذا قرار جمهورى .. بس سيادتك توقع عليه بالاستغناء عن خدماته .

وأمسك الزعيم بالورقة يوقع عليها دون أن يقرأ الاسم وهو يقول :

– فصله يستدعى قرار جمهورى ؟ هو بيشتغل إيه ؟

– أبدا ده هلفوت .. بيشتغل وكيل وزارة الصحة ..

وأعطى عبد الناصر القرار لصلاح الدسوقى بعد أن وقعه وهو قرفان متعكر المزاج يبدو عليه الضيق وقال :

– أنا يا « صلوحة » مش عارف البلاوى دى بتدحدف علينا منين داهية ؟

الزعيم لايعرف من أين تأتيه هذه البلاوى !

تأتيه من الشعب اللى رفع الراية لصلاح الدين وسلمها يمين عبد الناصر، ويمينه يمين .. حسب كلمات الأغنية الملغاة والتى كانت تغنيها أم كلثوم .

ثم جاء السادات ومنع إذاعتها بقرار جمهورى !

المهم ...

رفع وكيل الوزارة قضية أمام مجلس الدولة ضد رئيس الجمهورية بصفته كما تقضى العادة بذلك . فإذا أصدرت وزارة الزراعة قراراً ضد أحد الموظفين وأراد ذلك الموظف أن يقاضى الوزارة فهو يرفع القضية ضد وزير الزراعة بصفته ، سواء كان الذى أصدر القرار هو نفس الوزير أم تغير وجاء وزير آخر .

هكذا جرت العادة فى المحاكم بمصر المحروسة .

يعنى القضية ضد القرار الجمهورى وليست ضد عبد الناصر وأى « عرضحالجى » يستطيع فهم هذا الموضوع دون لبس .

وأعتذر للقارىء العزيز إذ أعود لموضوع الطعمية مرة أخرى !
فجرائد الصباح كلها على مكتبى وأنا أكتب،الحكومى منها والشعبى ، الكاذب فيها والصادق،وأقلب النظر بين الحين والآخر فى هذه الصحف كنوع من الترويح أو تحت وطأة الانفلونزا ، وكما يقولون فالصحف يفسر بعضها البعض ، فأنت تقرأ خبرا فى جريدة وقد تسخر منه مثل ذلك الخبر الذى كتبته منذ صفحات عن مؤتمر لصناعة الطعمية وتطويرها تشرف عليه جامعة الإسكندرية ثالث أو رابع جامعة فى التاريخ البشرى ، وقد تظن أن الذى كتبه يتعاطى المخدرات ، ثم تنظر فى الصحيفة الحكومية الأخرى فتجد الكلمة الرئيسية لرئيس التحرير حول هذا الموضوع فتفهم أنها سياسة دولة ، ورئيس التحرير فى العادة وبحكم الوظيفة فى الصحف الحكومية يروق للبعض أن يسميهم كتاب السلطة (وفتح السين أو ضمها لايغير المعنى) لأنهم الذين يروجون أفكار الحكومة بغض النظر عن صحتها أو من عدمه .

وجدت فى الصفحة الأولى لجريدة الجمهورية إحدى جرائد الحكومة الثلاث فى نفس اليوم عدد الخميس ٥ يناير سنة ١٩٨٩ تحت عنوان :
الصناعات الصغيرة موضة عام ١٩٨٩ بقلم : محفوظ الأنصارى .

« الموضة » هذه الأيام .. ولأيام قادمة .. هى « الصناعات الصغيرة »
– ستتحدث عنها الصحافة ، أخبارا ، وتصريحات وتعليقات ، و« فتاوى »
– ستتمسح فيها المصالح والإدارات والوزارات .. أجهزة العاصمة ، وأجهزة المحليات « سيركبها » البعض ، ليقطع بها طريقا .. ويصل بها إلى « محطة » .. ويسجل بها « أبناطا » .. حتى ينتهى « المولد » وينفض .. وحتى تفقد « الموضة » اغراءها وجاذبيتها .. وإلى أن يفتح الله علينا « بموضة » جديدة أو موديل جديد وموسم جديد .. فنبدأ « اللعبة » من أولها وحتى نهايتها .

قد تبدو الصورة مزعجة بل و « مقرفة »

قد .....
قد ......
قد ......

لكن الشيء المؤكد فى صحته .. هو أن « الصناعات الصغيرة » هى الحل .. وعلى وجه الدقة .. هى إحدى الأدوات ، والوسائل الاساسية للحل .

– حل ......

– حل ......

– حل ......

هى كذلك ....

هى كذلك ....

هى السبيل ....

هى هذا وذاك وغيرهما كثير ..

ومن أجل هذا وبسببه .. تولدت الخشية أو الخوف .. واكتسى الحديث بمسحة تشكك أو تشاؤم ..

فلايصح أن نتعامل معها بنفس الأسلوب الذى تعاملنا به مع قضايا على نفس الدرجة من الأهمية والخطورة ، فى السابق .. ولم نكمل فيها المشوار ..

– هل تذكر بهذه المناسبة .. قضية الاستثمار ..

– قضية إزالة المعوقات وتبسيط الإجراءات ..

– قضية الدعم ووصوله إلى مستحقيه .

– قضية الفائض والمخزون ..

– قضية « التكنولوجيا » وعصر الكمبيوتر .

فى كل هذه القضايا ، وغيرها .. تعاملنا معها بأسلوبين :

– إما أسلوب « الموضة » ، التى تظهر وتملأ الدنيا ، وسرعان ما تخبو وتذوب ويبتلعها النسيان .

– أو أسلوب « الموسم » .. أى الاهتمام الموسمى بمشكلة من المشاكل أو أزمة من الأزمات .. أو قضية ، تندفع إلى سطح (البقية ص ٣)

ويملأ الكاتب نصف صفحة ثلاثة هذه بالكامل بمثل هذا الكلام الذى كتبنا معظمه ، ولا ينسى بطبيعة الحال أن يشيد بعظمة وحكمة الرئيس .

وفهمت أن كل من حكمنا حكماء وعظماء !!

وأن الطعمية هى الحل ، ومن أجل هذا يعقدون لها المؤتمرات الدولية .

وأن سياسية الدولة ربما تأخذ هذا الاتجاه ، الأمر الذى له أكبر الدلالة على أننا نعيش فى مستشفى للأمراض العقلية أو مصحة للأمراض النفسية على أقل تقدير .

ونعود إلى قضية صاحبنا وكيل وزارة الصحة .
رفع يطلب بطلان قرار رئيس الجمهورية بفصله من عمله ..
وأخذت القضية شوطاً طويلا .
وأوشك مجلس الدولة أن يحكم ببطلان هذا القرار .
وعلم صلاح الدسوقى الششتاوى أحد أبطال مذبحة سنة ١٩٥٤ مع الإخوان .
وذهب يلعب التنس مع الرئيس كالعادة .
وأثناء شربهما للكوكاكولا المستوردة كلمه فى الموضوع .
كانت كل المشروبات الموجودة فى العالم تأتى إلى الرئاسة والمباحث وأجهزة أخرى يحرم القانون إفشاء أسرارها ،

فمن الجائز أن تستخدم هذه المشروبات فى تنفيذ سياسة عليا !!!
قال صلاح الدسوقى للرئيس :
– تصور ياريس الرجل المجنون اللى سيادتك فصلته من وزارة الصحة .. والله ما أنا عارف أقول إيه ..
ويحاول الرئيس أن يتذكر :
– راجل مين ده يا « صلوحة »
– يافندم ده رفع قضية ضد سيادتك .

لا يجوز الطعن على قرارات الرئيس أمام أية جهة !

وقامت القيامة ووقعت الواقعة واصفر واربد وجه الرئيس ، وأرغى وأزبد وهو لايكاد يصدق هذا الكلام ، حتى أخرج له صلاح الدسوقى صورة من عريضة الدعوى المقامة ومكتوب فيها عبارة « ضد السيد رئيس الجمهورية بصفته » وفى اليوم التالى كان بدوى حموده رئيس مجلس الدولة يجلس مرتعدا فى مكتب الرئيس الذى كان يروح ويجىء حوله كالأسد الهائج ويقول :

– أنا لا أصدق ماأسمع .. بعد كل هذه السنين يوجد من يجرؤ على رفع قضية ضدى ؟ هل هذا معقول ؟ انطق ..

ويبتلع بدوى حموده ريقه وهو ينطق بصعوبة ..

– يافندم القصة مش دعوى ضد سيادتك شخصيا ، ولكن هى دعوى ضد رئيس الجمهورية بصفته .. يعنى ..

ويقاطعه الرئيس مزبداً :

– يعنى إيه ضد سيادتك ومش ضد صفتك .

– لا يافندم يعنى بصفتك .. أصل القانون .. وهذا لايكون إلا فى مجلس الدولة ..

ويقاطعه الرئيس بصوت كالرعد :

– اكتب لى قرار جمهورى الآن بإلغاء مجلس الدولة .

ويحكى بدوى حموده للذى روى لى القصة أن هذه العبارة نزلت فوق رأسه نزول الصاعقة ، فبعد هذا العمر الطويل فى خدمة الحكومة والثورة وتأليف القوانين وتفصليها على المقاس المطلوب ، أنهى خدمتى بهذه الكارثة ، أن يتم إلغاء مجلس الدولة على يدى .

وألقى الرئيس بنفسه بورقة فى وجه بدوى حموده وهو يصرخ فيه :

– هيا اكتب القرار الجمهورى .

– حاضر يافندم ..

وراح عبد الناصر وجاء كالأسد ، بينما جلس بدوى حموده كالفأر وفى يده الورقة ولا يدرى ماذا يكتب فيها . وفجأة قال للرئيس :

– عندى فكرة قانون ستعجب سيادتك يافندم .. نعم .. قانون يافندم .. كل قراراتك من أعمال السيادة ولا يجوز الطعن فيها أمام أى جهة .. لا مجلس دولة ولا مجلس الأمن حتى .

وهدأ الرئيس تماما وامتدت يده إلى الجرس وضغط عليه .

ودخل الساق فى رتبة وزير ، وكل الوزراء يعرفونه ويبجلونه ويتملقونه ، وقال له الرئيس :

– هات حاجة ساقعة لبدوى .

وكتب بدوى القانون .

وهذا بعض التاريخ السرى لمصر عبد الناصر !

* * *

نحن لا نكفر أحداً بل نعرض عليه الإسلام

في هذا المناخ العام تم اعتقال عبد الله بن أحمد السماوى ، وإذا كان رئيس مجلس الدولة هكذا يسارع بتلبية أوامر الزعيم فما بالك بضابط شرطة أو وزير شرطة سوف يبالغ فى تنفيذه هذه الأوامر .

ومنها أن يأتى إلى المعتقل ألف برىء بل عشرة الاف دون ذنب ، ودون تهمة واضحة . ومن هؤلاء عبد الله بن أحمد السماوى الشاب الصغير الذى لم يصل بعد إلى العشرين فى ذلك الزمن الأغبر .

وكان من الطبيعى أن يصير من « المكفرين » بعد أن رأى مارأى من اضطهاد وعذاب ، وضياع للمنطق والعدل ، والعبثية واللامعقول فى كل مايدور حوله من أحداث ، وحكومة يقول عنها مثلى أنها فاجرة ظالمة لاترعى مصلحة أحد ، بل لاتهتم بمصلحتها وغاية ماتحرص عليه هو البقاء والبقاء ولو على أشلاء الشعب ، فلابد أن يحكم عليها عبد الله بن أحمد فى ذلك الزمن بالكفر ، ولابد له أن يحكم على مثلى بذلك إن لم أوافقه على رأيه ، ولكنه لم يفعل .

واكتفى بفكرة عرض الإسلام علينا فإن قبلنا ، فنحن مؤمنون وإن لم نقبل فنحن الذين اخترنا طريق الغى ، وذنبنا يقع علينا .

وقلنا له اعرض علينا الإسلام الذى تراه .

فقال وهل هناك إسلام تراه وإسلام آخر أراه ؟ دين الله واحد .

فقلت له :

ـ قل هذا لنفسك .. دين الله واحد .. ولكن الرؤية ووجهة النظر قد تختلف أحيانا .. هذه هى طبيعة العقل والحياة .. ولهذا كان اختلاف أئمة الفقه .

وكان يقول :

ـ سوف أعرض عليكم الاسلام فى الوقت المناسب .

ونضحك معه :

ـ تقصد عندما يكون وجهة نظر .. عندما تستعد .. تقرأ وتدرس ثم ترى ماذا يقال ، ومايمكن أن تأخده من نصوص لتخدم فكرة قد كونتها بالفعل فى رأسك .. وكان العكس ينبغى أن يكون .

ومرت الأيام والشهور ، وتحدثنا معه فى الكثير ، وجلس هو إلى الكثير ، آخذا فى اعتباره أن أهم من يلتقى بهم ويتحدث إليهم هم أصحاب النزعات إلى التكفير ونبذ المجتمع .

وكغيره من أصحاب هذا الفكر الذين التقيت بهم فى معتقل طره السياسى..كانت ميول إلى القيادة والإمارة والترأس ، فأغلبهم لايرضى أن يكون مأموراً وإن صار فلفترة قصيرة ريثما يستعد ويمهد ، ثم ينصب نفسه أميراً ولو على شخص واحد ، وهو الذى يتركه بعد فترة ليصبح أميراً هو الآخر ولو على نفسه .

كان كل مانراه من فكر التكفير ونزوع أصحابه هو ضرب من الرفض والاحتجاج والغضب والثورة والرغبة فى إعلان ذلك إلى الجميع ملتمسا صاحبه غاية مايقدر عليه ، وفى أضعف حالاته أن يظل بداخله كراهية مريرة فى وجدانه وتصور وفكرة فى رأسه ، بغض النظر عن احتمالات الخطأ والصواب أو دواعى الحق والباطل .

وعبد الله بن أحمد السماوى واحد من هؤلاء ، ولكن كانت له من الميزات مايجعله قريبا إلى قلب من يرفضه ، فهو لم ينهج سبيل الانفصال والاستعلاء بشكلهما العام ، وظل على هذا حتى الأيام الاخيرة التى سبقت الإفراج حيث ترك الجميع وأنا منهم .

أما قبل أن يتخذ هذا الموقف ، فكان كثيرا ما يحلو لنا السمر معه ، وكنا نتخذ من زنزانة الاستاذ على محمود الصحفى مقراً مختاراً لنا ، حيث نجلس فيها ويجتمع الشامى مع المغربى ، ثم يأخذ بنا الحديث مداه .

وفى هذه الآونة كنا نتحدث معه فى فساد فكرة تكفير المجتمع والابتعاد عنه ، وكيف أنها فكرة سخيفة وغير عملية ، وكان الحديث يدور فى شيء من الجدية التى تختلط دائما بالدعابة والهزل والسخرية،رغم حرصنا الشديد على غير ذلك .

ولم يكن السماوى كشكرى مصطفى عنيفا غضوبا متنائيا عن الناس يمهد لأمر عظيم سوف يكون بعد الإفراج عنه ، بل كان ودودا حلو المعشر ، يشاركنا جدنا ولا يغضب من هزلنا عندما يكون هذا الهزل له صلة بفكره الذى لم يتكون بعد ولم يأخذ شكله الأخير .

وكان السماوى يحاول أن يلتزم بكل مايصل إلى علمه من الأوامر والنواهى ويعمل على تطبيقها ، ولايفكر حولها أو فيها ومصدره أى حديث قد سمعه أو قرأه بغض النظر عن درجة صحة الحديث ، ولم يكن يجهد فكره فى التفكير بعيداً عن الدلالة الظاهرة أو سبب وظروف الحديث ، ويتناسى الزمان والمكان بطبيعة الحال .

فمثلا قرأ أو سمع أن الرسول ﷺ كان يكتحل ، فيصر على أن يفعل ذلك ونحن فى المعتقل حيث لايوجد سوق للعطارة ، فيرسل أو يوصى بمن يأتيه بهذا « الكحل » حتى يكون كرسول الله ﷺ فى كل شيء حتى تكحيل العينين ، والله أعلم بحقيقة القصة ، هل اكتحل الرسول عليه الصلاة والسلام مرة أم كانت عادة عنده ؟

وفى ظروف مثل ظروف المعتقلين الموجودين بطره السياسى ألا يرفع عنهم حكم الكحل لتعذر الحصول عليه والمشقة فى إتيانه ؟
وكان يحاول أن يقلد مشية رسول الله ﷺ كما وصفتها الكتب ، وأشياء أخرى لا أذكرها،وأغلبها يرتبط بالشكل العام وعلاقته ضعيفة جدا بالمضمون ، بل قد يؤثر عليه فى بعض الأحيان .

وكانت تتم هذه الأشياء فتعطى شكلا فكاهيا فى نهاية الأمر ، ورغم هذا فقد كان يصر على أدائها مهما كان فيها من عنت ومشقة .
وكنا نتسلى بهذه الأشياء التى نراها ونسمعها فى ذلك المعتقل الأصم الذى ارتفعت أسواره وأحكمت أبوابه ، ولم يعد أمامنا غير مانراه ونعيشه .

وكان كل يوم يمر عليه يقربه أو يقترب به من باب الرفض الأعظم ، وهو العنف والتفكير فى سحق كل من يخالفه ولا يتفق معه .
وكان هذا هو شعار كل أصحاب النزعات التى تستهدف الرفض ولو لم يعلنوا .
من ليس معى فهو مع أعدائى ضدى !
ولم يكن ذلك صحيحا بكافة المعايير ، فجميع المعتقلين قد أعلنوا عن رفضهم للمجتمع ولكن بطريقة تختلف عن طريقة هؤلاء . ودليل ذلك كونهم معتقلين .

الهجرة حتى تقوم الحرب الذرية

وعندما مات عبد الناصر كان الأمر قد بلغ مداه بعبد الله بن أحمد السماوى وشعر أن العناية الإلهية تؤهله لدور عظيم ، وأن الظروف كلها تسير معه إلى تحقيق هذه الغاية .
وهذا ماقاله لى عندما سألته عن رأيه فى موت جمال عبد الناصر !

وكان فى هذه الآونة قد اقترب كثيرا من أفكار شكرى مصطفى وانتظم فى جماعته لفترة قصيرة جدا ، ولكن حال دون التقائهما نزوع كل واحد منهما للإمارة والقيادة ، ولا يجتمع سيفان فى غمد كما يقولون .

وكانت فى أعماقه رغبة عارمة للحرب والقتال فى ميدان لايراه ولكنه يتمنى أن يكون .

وكان ساخطا من ظهور الدبابات والطائرات والحرب الالكترونية وسائر هذه المسميات ، وكان يرى أن الذى يحكم بين الحق والباطل إنما هو بمعناه الحرفى وليس بمعناه المجازى .

وكان يشاركه فى هذا التفكير شكرى مصطفى ، وربما كان الأخير هو صاحب هذا الرأى ، ويتمنون أن يأتى اليوم الذى يقاتلون فيه بالسيف والسهام ، حيث الخيل والكر والفر والاحتماء خلف التلول والجبال .

ومازالت هذه الفكرة تلح عليهم حتى تصوروا حرباً ذرية سوف تقوم بين الامريكان والروس وتنتهى الحضارة على كوكب الأرض ، ومن ثم يعودون إلى استعمال السيوف ضد مخالفيهم .

ومن هذا المنطلق تبلورت فكرة الهجرة عن ديار الكافرين ، والاحتماء بالكهوف والجبال من الحرب الذرية القادمة .

واعتقد عبد الله بن أحمد بعد تلك الفترة القصيرة التى قضاها تلميذا فى مدرسة شكرى – وربما قد نقل عنه – أن خير مكان للاحتماء والحياة حتى يأتى وعد الله هو جبال اليمن ، ولم يكونوا قد رأوها ، ولكنهم سمعوا عنها وعرفوا كم هى شاهقة وعالية ومليئة بالكهوف ، وكانت تصوراتهم عن اليمن من الأخبار المتناثرة التى وردت فى كتب الحديث والتاريخ الإسلامى ، والتى أتيح لنا أن نطلع عليها فى ذلك المعتقل ، ولم يكن كل مايطلبه الإنسان يجده فى المعتقل . فقد كان كلى شيء بحدود وبقدر معلوم ومرسوم .

وكان السماوى يتمنى أن يجتمع كل المسلمين الفاهمين على رأيه ، ويقبلوا قيادته لحرب المجتمع عندما يخرجون أو يأذن الله بزوال هذه الدولة فنخرج من معتقل طرة بعد أن نحطم أبوابه ونحن فى جمعنا الغفير .

وقال الشيخ عارف :

– ولماذ نكسر الأبواب ونحطمها إن سقط النظام ؟

وقال على محمود :

– هم سوف يفتحون لنا الباب ، ويعطوننا فرصة لجمع أشيائنا ونخرج بهدوء .

ويبتسم عبد الله بن أحمد ويقول من بين ابتسامته التي يحاول أن يعبر بها كثيرا :

– لا .. الرمز هنا مطلوب..تحطيم الأبواب والأقفال والخروج فى جمع .

وأقول له :

– نسير إلى أين ؟

وينظر إلى الشيخ عارف :

– نسير إلى بيوتنا .. ليس هناك مكان آخر نذهب إليه .

ويسأل على محمود فى خبث :

– وملابسنا وأشياؤنا التى تركناها كيف نأخذها ؟

ويرد الشيخ عارف ساخرا :

– سوف يعين قائد إسلامى للمعتقل وهو يتولى إرسال الحاجات إلينا .

وهنا يتدخل الشيخ السماوى :

– لا توجد معتقلات فى الإسلام .

ويرد الشيخ عارف :

– وماذا نفعل بالحاجات .. الأشياء .. الملابس ..

– نعود إلى الرأى الأول .. لا ضرورة للخروج فى جمع غفير .. كل واحد يجمع أشياءه ويخرج فى هدوء .

ويقول الشيخ عارف رافعا صوته :

– وماذا سنفعل مع أعداء الإسلام .

ويرد السماوى فى صرامة :

– ليس لهم غير السيف .

ويقول على محمود :

– يجب أن يتم التحقيق والمحاكمة لتحديد أعداء الإسلام .

ويضحك الشيخ عارف عاليا ساخرا :

– نحاكم الشعب كله ؟ وماذا يكون مصيرنا ونحن فى المعتقل قبل أن نأتوا إليه ؟ ورجل مثلى سجنت واعتقلت قبل أن تولد ...

ونضحك ولكن السماوى يأخذ الأمر جدا ويقول :

– كل هذه الأمور سوف تبحث بدقة ، وظنى أن حكمكم سيكون حكم الطلقاء ، تدخلون فى الاسلام ، ولكن لا تتولون المناصب والوظائف العامة .

– ومن سيتولاها ؟

– جماعة المسلمين .

– وأين هم ؟

ويعود الضحك من جديد .

الطريق إلى الزعامة طويل

وينظر عبد الله بن أحمد فيجد نفسه صغير السن حدثاً ، وبالمعتقل عدد غير قليل من المجاهدين أصحاب السابقة فى الاسلام من جماعة الاخوان ، ويتحسر ويزداد تحسره عندما يعلم أنه لو سلك نفسه فى هذه الجماعة ، فلن يصيبه الدور فى القيادة قبل زمن غير قليل ، وربما لا يأتيه فى حياته أبداً .

فكان كثيرا ما يكلمنا عن حداثة السن وأنها ضرورية للقيادة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اختار شبابا لها .

وأقول له :

– ليس أمامك غير شابين جعلهما رسول الله صلى الله علية وسلم فى هذا الموضوع ، فيوم الفتح جعل عتاب بن أسيد أميرا على مكة حتى لاتتنازع المشيخة من قريش ، وأسامة بن زيد لتأديب الروم فقد كان موتورا لاستشهاد أبيه زيد بن حارثة فى مؤتة . وقد كان ذلك جائزا لا واجبا .

أما بقية القواد والأمراء فقد كانوا من أصحاب السن والتجربة . وعندما مات صلى الله عليه وسلم لم يفز على بن أبى طالب بالخلافة لأسباب كثيرة كان منها أنه حديث السن . وكان الذى يناقش الأمر هم كبار الصحابة .

ويسكت عبد الله بن أحمد يائسا فحجته ضعيفة وسنه صغيرة والطريق إلى الإمارة صعب وطويل ..لهذا كان لابد من رفض تلك « التركيبة » الاجتماعية بمسلميها وكافريها ، والأفضل أن يكونوا جميعا كافرين ، ومن السهل تكوين الجماعة اللازمة لتحقيق الاسلام من الشباب ، وإن كان فيها كهل أو كهلان فلن يحدث ضرر .
ومن ثم كان لابد أن يضع هؤلاء الذين يراهم فى المعتقل والذين جاءوا باسم الاسلام فى مصاف المنافقين أو الكافرين أو المسلمين الذين فى إسلامهم زيغ ودخن ، وهكذا يسهل رفضه ، ويستريح ضميره الدينى ، ويكون أكثر حرية فى العمل .
واعتبر عبد الله بن أحمد موت عبد الناصر إيذانا بعصره الجديد وعالمه المختلف ، وعليه هو مهمة تشكيله كيفما أراد وعلى النحو الذى يتصوره . واشتدت خطاه فى هذا الطريق وابتعد عنا رويدا رويدا ، حتى اجتنبنا تماما ولم يعد يختلف إلينا ، وصار يعاملنا معاملة الكافرين ولكن على استيحاء شديد وفى أدب جم .

سقط فاروق بعد أن اضطهد الإخوان

كان كل من بالمعتقل يرفض المجتمع بدرجات متفاوته .
فمنهم مجموعات كانت تريد الإصلاح على ضوء المعطيات الموجودة ، على أن يكون التصادم معه حواريا جدليا .
ومنهم من كان يرى أن دور المصلحين والراغبين فى التغيير لاينبغى أن يتخطى مجرد إبداء الرأى والإعلان عنه ، والناس أحرار فيما يعتنقون أو ما يفعلون .
ومنهم من كان يرى أن عليهم واجب القضاء على هذا المجتمع واجتثاثه من جذوره ، ولو على أشلاء كل الأحياء من كافة الفرق التى لاترى رأيهم .
ولكنهم يتفقون جميعا على ضرورة تغيير هذا المجتمع بشكل أو بآخر ..
ولم تكن هذه القضايا مطروحة فى أيام الاعتقال الأولى ، فقد كان الناس فى شغل عن هذا كله بالسياط والتعذيب وتمزيق الأوصال والاستشهاد ، وهو أمر أكبر وأعظم من أى تفكير .
وقد أخطأ عبد الناصر مرتين ..
الأولى عندما اعتقل وعذب ونكب ونكل .
والثانية عندما تركهم يعيشون سويا فى معسكر يفكرون ويناقشون . فهو قد خدم فكرة رفضه وعزله وتغيير نظامه ، إن طال الزمن بعض الشيء ، فنظامه بالضرورة إلى زوال .

وقد مر الاخوان المسلمون بتجارب سياسية عديدة قبل الثورة . وكان اضطهادهم من الأسباب الرئيسية المباشرة لسقوط النظام الملكى وقيام ثورة ٢٣ يوليو .
وقد تعلموا كثيرا مع النظم الديموقراطية ، فهم الذين جاءوا بصدقى رئيسا للوزارء وهم الذين أسقطوه ، وكان شعارهم هو حسن الظن إلى أن يثبت العكس . وهم أيضا الذين جاءوا بالنقراشى ، وهم الذين دعموه وأيدوه بإرسال العرائض والمكتوبات التى تبين تأييد الشعب له أثناء وجوده فى مجلس الأمن ضد شعبية الوفد والنحاس باشا بصفة خاصة . وهم أيضا الذين قتلوه !

وكانوا ينظمون المظاهرات تهتف بحياة الملك أثناء ذهابه إلى البرلمان ، وحتى يطمئن الأمن ويسمح للمظاهرة بالتمكن ويفسح لها الطريق وتقترب من موكب فاروق أكثر ، هنا ترتفع الهتافات الإسلامية الإخوانية .
واستطاعوا بنجاح أن يتواجدوا فى مخيلة الملك وتفكيره بجهودهم الذاتية ، ناهيك عن تقارير الأمن التى كانت ترفع إلى السراى .

وكان حسن البنا قد سافر إلى السعودية لأداء فريضة الحج والنفى بالملك عبد العزيز آل سعود وأخبره أنهم يهتمون بتربية الأجيال القادمة وأنهم يهتمون بأساتذة الجامعة وبأن ينهجوا النهج الإسلامى فصير هذا عونا على تنشئة الطلبة تنشئة إسلامية ودار بينهما حوار طويل .
وقال له الملك عبد العزيز :
هل تسعون فى نشاطكم هذا للحكم وتريدونه ؟
ورد عليه حسن البنا :
- بل الحكم هو الذى يسعى إلينا .
والذى لاشك فيه أن هذا الحوار قد عرفه الملك فاروق أو وصل مسامعه بطريقة أو بأخرى . وكان بمثابة تحذير وانذار للنظام !
وتداعت الأحداث على النحو الذى صار .
من كل هذا نخلص أن الإخوان قد صارت لهم تجربة عريضة فى التعامل مع الأنظمة بشتى أشكالها الملكى والرئاسى ، الديمقراطى والاستبدادى . والتصور أنهم بعد نكبة عام ١٩٦٥ وما حدث بها من ويلات أخذوا يعون دروسا قد حفرت أخاديدها فى قلوبهم ، ومن ثم قد استقر رأيهم وفهمهم على سنن ليس من السهل اقناعهم بالحيدة عنها ، بعكس أولئك الذين جاءوا للمرة الأولى .

* * *

انفجر الطوفان من معتقل طرة السياسي

كان عالم التكفير والهجرة يستعد ويتكون فى رحم المعتقل القاسى ، وقد شارك النظام الأحمق فى صياغته وتحديد مساره ، ولم يخطر ببال أحد منهم أن ذلك الاضطهاد الكبير يمكن أن يسفر عنه حقد وكراهية تنمو جذوتها فتتمثل رغبة فى الانتقام والتغيير .

وكما قلنا فتلقى الناس للاضطهاد والظلم يختلف من شخصية إلى أخرى ، ويكون رد الفعل على حسب هذه الشخصية وثقافتها وتجربتها فى الحياة . فقد نجد رجلا بسيطا كان يعمل فى حرفة بسيطة قبل أن يعتقل .
ثم جاءوا به على قدر من الله بعد أن سلبوه حق رعاية أبنائه ، وحرموه من سعيه فى طلب الرزق ، وألقوا به فى مكان لتهمة لايعرفها وبسبب جريمة لم يرتكبها ، فهو دائما يصلى بالليل ويتهجد ويدعو على من ظلمه ، ولايزال يتذكر مافعلوه به حتى يستقر فى وجدانه كراهية كل مايمت إلى الحكومة بصلة .

وهو رجل بسيط الثقافة نال حظاً ضيئلا من التعليم ، قليل الكلام فلا يختلط بهذا أو بذاك .
وهو رغم إيمانه بالله سبحانه وتعالى وعلمه ويقينه بأنه لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ، ورغم كونه تقيا يعمل الصالحات ، إلا أنه يرى نفسه أقل من معظم الموجودين حوله والمعتقلين معه ، من حيث المكانة الاجتماعية ، وارتفاع درجة الثقافة والتعليم ، والهيئة بوجه عام ، لهذا فهو ينزوى ويبتعد عن الناس بقدر مايستطيع ، حماية لنفسه ولكرامته ، أو هكذا يظن .

ورغم هذا كله فإنه يجد نفسه فى معتقل أبى زعبل السياسى وقد صنف مع الزعماء ووضع فى عنبرهم ، وعدوه ضمن ستة وثلاثين شخصا هم فى رأى الحكومة الجاهلة وأجهزتها غير الواعية من أخطر الناس شأناً ، وأنهم سبب كل بلاء وشقاء .
(لم يكن الحاج مصطفى مشهور ضمن سكان هذا العنبر مثلا)
ويصاب صاحبنا بدهشة عارمة ، ويستقر فى وجدانه أنه تحت يد باطشة قادرة تفعل ماتشاء ، بغض النظر عن علمها أو جهلها . وتستقر نفسه ويهدأ باله بعد فترة من الوقت .

وتتغير أحواله عندما يجلس إليه من يحدثه حديثا جديداً ربما قد سمعه من قبل ، ولكنه بدأ يستشعر معناه ومراميه بشكل جديد ، فيقول له محدثه :

ـ أنت أعظم من هؤلاء الكبراء والعظماء ، وإن كانوا يتكلمون الكلمات الغريبة التي يلوكها المثقفون . فأنت بإيمانك أعظم وأكبر . وهناك فرق بين أمية القلب وأمية العقل ، وهناك التفكير والإلهام . وإن تقوى الله هي أعظم أبواب المعرفة وأصدقها ، وأنت بحسن إيمانك أكثر ثقافة منهم ، فقد حرمهم المولى من علمه اللدني ، ومنحك إياه . وجعلهم يبيتون ما لا يرضى من القول أما أنت ففي نعمة ، وحتى تظل عليها فواجبك هو الإيمان وشهادة أن لا إله إلا الله قولا وعملا ، يعني أن ترفض أي إله يعبد من دون الله ، على أية صورة كانت هذه العبادة ..

ومن ثم تظل دائما أعلى وأكبر من كل هؤلاء .

ويقع الكلام في نفس صاحبنا موقعا حسنا ، فهو يراه حلاً لمشكلته . وهو يحقق ذاته وسرعان مايجد نفسه في صفوف المعارضة العنيفة بالفكر أو بالقتل ، والتي ترى أهمية البطش بهؤلاء الكافرين أينما وجدوا ، أو الموت في سبيل الله .

وتعلمنا في المعتقل أن الطريق إلى العنف سهل وبسيط ويمكن أن يعتنقه عدد كبير ، وأن نار الاضطهاد هي التي تغذيه ، وأن التعذيب هو « المحضن » الطبيعي للقضاء على أي نظام .

* * *

أعقل الرافضين

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد

هذا ما قاله لي محمد قطب عندما سألته عن رأيه في موت جمال عبد الناصر !! قال بيت الشعر في بساطة ، ودون تشف أو أي تعبير يوحي بالفرحة والحبور ثم أردف :

ـ الموت هو مآل كل حي ، والعبرة بما بعد الموت .

وقلت له :

ـ ألا يعني هذا تغيرا على نحو ما في السياسة المصرية ؟

وقال :

– فى السياسة المصرية فقط ؟ والعربية والإسلامية ، ونظرة القوى العالمية إلى المنطقة .

وقلت له :

– وهل لهذا من توضيح يا أستاذ ؟

وكانت طريقة الأستاذ محمد قطب فريدة فى نوعها ، فهو عندما تفاجئه بسؤال يجيبك عليه بداهة أو يفكر قليلا ثم يتكلم ، وعندما يتكلم مجيبا على السؤال الذى وجهته له تشعر كأنه قد سبق له تحضير هذه الإجابة ، فالكلام يخرج من فمه مسلسلا جزلا دون تلعثم وفى ترتيب ، وأحيانا يقول لا أعرف ، وأحيانا أخرى يقول دعنا نفكر بصوت مرتفع ، ثم يطرح أسئلة مختلفة حول السؤال فتتضح الرؤية فيه ، ثم يمضى فى الشرح والإفاضة ، وكم قال لنا من أشياء أثناء فترة الاعتقال كنا نعدها ضربا من الخيال ثم حدثت وصارت حقيقة .

وقال الرجل :

– بالنسبة لموت عبد الناصر فهو بمثابة العد التنازلى لثورة ٢٣ يوليو ، وهذا العد التنازلى قد يستغرق عشرين أو ثلاثين عاما .

وفزعت وقاطعته مستنكرا :

– عشرين أو ثلاثين عاما ؟

وابتسم وقال :

– وربما أكثر من ذلك .. هذا يتوقف على عوامل كثيرة نعرف بعضها ولانعرف البعض الآخر ، ولكن المؤكد أن دولة الثورة تسير إلى النقص وليس إلى الزيادة .

وزادت ابتسامته وقال :

– أنت تستكثر عشرين أو ثلاثين عاما ؟ طيب أنا شخصيا موافق على هذا الرقم بشرط أن يتم الجلاء بعده دون قيد أو شرط .. ثورة ٢٣ يوليو مثل الاحتلال الإنجليزى ، هى فى نفس حجمه رغم أن تأثيرها فى مصر أعظم ألف مرة من تأثير الاحتلال .

كان عبد الناصر يستعد لعقد صلح مع إسرائيل ، وكان قبوله لمبادرة « روجرز » خطوة فى طريق هذا الصلح ، ومات بطريقة لم نعرفها بعد ، ولن يتسنى

لنا معرفتها إلا بعد انتهاء ذلك العهد بأكمله ، ثم تفتح بعض الملفات ، وربما يظهر فى ملف منها الطريقة التى مات بها ، وعلى العموم هذا لايقدم أو يؤخر فى الأمر ، فهى قد تعيننا على فهم بعض الظواهر ، وقد لاتضيف إلينا جديداً مهما .

سيقوم السلطان الجديد بإبرام الصلح مع إسرائيل ، وإن صدق حدسى فسيتم هذا قبل عشر سنوات ، هذا إن ظل على قيد الحياة هذه المدة ، وإن مات فسوف يقوم بإبرام الصلح من يأتى بعده ، ولو أنى أرجح أن أنور السادات هو الذى يوقع اتفاقية صلح مع إسرائيل .

والحقيقة أننى أحسست بفزع حقيقى وقلت :

– يتم صلح مع إسرائيل ؟

وعاد يقول لى فى تأكيد :

– لقد قامت ثورة ٢٣ يوليو من أجل هذا الصلح مع إسرائيل ، ولكنه تأخر بعض الوقت .

ربما لظروف خارجة عن إرادة أصحاب القرار .

– وهل يقبل المصريون هذا الصلح مع إسرائيل ؟

وزادت ابتسامته وهو يقول :

– المفروض فيك أنك أحد الذين يفهمون هذه الأشياء .

يقبلون أولا يقبلون ليس هذا مأخوذاً فى الاعتبار .

وكنت أود أن أستمع إليه ولا أقاطعه ، فهو أحد قلة نادرة فى بلاد العرب ، ممن يفهمون المخططات الاستعمارية والأ لا عيب الدولية ، ويعرفون كيف تسير هذه اللعبة ، ولكننى كنت أجد نفسى مضطرا لمقاطعته بين الحين والآخر ، وقلت :

– وهل يقبل العرب ؟

– هم أيضا مثل المصريين يقبلون أو لا يقبلون لن يفيد هذا فى شيء ، المهم أن الصلح سيتم بين مصر وإسرائيل ، ومعنى هذه العبارة أنه سيتم صلح بين إسرائيل والعرب ، فمصر هى أكبر دولة عربية ، ويدخل العرب فى اللعبة على نحو ما . بطبيعة الحال هناك خطط لتحقيق هذا ، وهذه الخطط تتغير وفقا للمتغيرات ، مثل موت عبد الناصر مثلا . فالصلح به يختلف عن الصلح بغيره ، ولهذا وسائله وشكله وللآخر كذلك . غاية ما تريده أمريكا من نظام ٢٣ يوليو هو أن يعمل على إقرار الأوضاع فى الشرق الأوسط . وهذه العبارة تعنى أمن وحماية إسرائيل ، وأول خطوة

فى تحقيق هذا الأمن هو الصلح بينها وبين مصر ، ثم تتلوها خطوات كثيرة ومتنوعة ولها اتجاهات مختلفة .

أهم ما يشغل أمريكا هو المد الدينى الذى بدأ فى الظهور بمنطقة الشرق الأوسط .

وسألته بتعجب :

– وأين هذا المد الدينى الذى تتحدث عنه ؟

وقال فى ثقة :

– وهل تظن أن عين أمريكا غافلة عما يحدث بالمعتقل هذه الأيام ؟ هم قريبون جدا منا ، ومعلوماتهم عما يدور فى معتقل طره السياسى أكثر من معلومات أجهزة الأمن ، فهم يجمعون المعلومات منهم ومن غيرهم ، وعندهم تفاصيل أدق مما لدى غيرهم ، وهم يخضعون ما يجمعون من بيانات للفحص والتحليل ، ومن ثم تكون قدرتهم على التنبؤ كبيرة ، على النحو الذى يحدث فى مصلحة الأرصاد الجوية ، فالذى يقف ويقول طقس معتدل شمال البلاد مع احتمال سقوط أمطار خفيفة على الساحل ، فهذه العبارة تتم من خلال معلومات قد تم تحليلها فأدت إلى هذه النتيجة .

وقاطعته قائلا :

– معظم تنبؤات مصلحة الأرصاد الجوية غير دقيقة ، وتأتى بنتائج عكسية .

وقال :

– لأنها مصلحة أرصاد جوية مصرية ، شأنها شأن أية جهة مصرية ، أمنية كانت أو زراعية تعتمد على تحليل معلومات ناقصة فتتوقع نتائج لا تكون فى أغلب الأوقات أما مصلحة الأرصاد الجوية الأمريكية فهى لا تخطىء لأنها تعتمد على معلومات كاملة ، ومن ثم تكون نتائجها دقيقة . والأمريكان عندهم مصلحة للأرصاد السياسية تشمل العالم أجمع ، وهى تهتم بهذا الموضوع اهتماما يفوق اهتمامها بأى شىء آخر ، فنحن نعيش عصر أمريكا ، وهى حريصة على دوام هذه السيطرة ، وتشترك فى تسيير الأحداث ، وخلفها فى كثير من الأحيان ، ويساعد على هذا شعوب جاهلة مريضة قد قتلها التخلف بعد أن فقدت إيمانها بالله .

فهذا الذى تراه اليوم فى المعتقل من تعدد الجماعات وإن صغر عددها ، واختلاف الآراء مهما كان بعضها تافها لايستحق المناقشة ، سوف ينتقل برمته من المعتقل إلى مصر ، ويشملها جميعا بأعداد أكبر وبحدة أكثر ، وسوف يشمل كل البلاد العربية

والإسلامية ، وسوف يكون في أوروبا وأمريكا عبر أفواج المهاجرين إلى هناك ، هربا من الاضطهاد أو بحثا عن الأمن والأمان .

وعندما يكتمل شكل هذه الجماعات التى أتحدث عنها سوف تعمل أمريكا على إذكاء جذوة الخلاف بينها ، وأرجو ألا يخطر بذهنك أننى أتكلم عن جماعة التبليغ ، أو الجمعية الشرعية وجمعية الهداية الإسلامية مع الإخوان المسلمين ، حيث يوجد لكل ممن ذكرت ممثلون شرعيون لهم فى المعتقل . هذا خلاف الإخوان الذين يمثلون الجانب الأكبر والأكثر خطراً بين هذه الجماعات ، من وجهة نظر الغرب والذين يقومون على رصد الظواهر ومراقبة التحركات والتأثير فيها . فأنا أتكلم عن جماعات سوف تظهر فى المستقبل القريب ، فقد وضعت البذور وأثمرت وأخرجت زرعا ، وسوف ينتقل هذا بكامله إلى الخارج . وقد ترى واحدا ممن نراهم رائحين وغادين هنا وهناك يبحثون عن نصير لهم أو تابع فلا يجدون ، ولكنهم خارج هذا المعتقل سوف يتبعهم الكثير ، أكثر مما يظن أى أحد ، ربما عشرات الألوف أو قل مئات الألوف.

– ألا تبالغ قليلا يا أستاذ فى الأرقام ؟

وابتسم فى تواضع وهدوء وقال :

–هذه رؤيتى على أى حال .

–وهل يسمحون بهذا ،

–هناك أمور لا يقال فيها يسمح بها أو لايسمح مثل شروق الشمس وغروبها ، والصيف والشتاء ، وسائر مايجرى فى الكون من سنن ونواميس .

–والإخوان المسلمون ؟

–ماذا عنهم ؟

–كيف ترى مستقبلهم ؟

وسكت الرجل برهة من الوقت وقال :

–سيأخذون شكلا آخر وسمتا مختلفا .

–كيف ؟

–لست أدرى .

قالها الرجل بلهجة من يعرف الإجابة ولكنه لا يحب الخوض فى مثل هذا الحديث .

–وأنت ؟

–ماذا عنى ؟

–ماذا تنوى ؟

–ما ترى .. ليس هناك جديد أضيفه .. ما أقوله هنا سوف أقوله فى كل مكان أذهب إليه ، يجب أن تتحد المعركة بيننا وبين أعدائنا ، وهى معركة العقيدة أولا وآخراً ، لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن كانت هذه هى الراية المرفوعة فلن يحدث لبس أبدا عند أحد ، وغير ذلك ضرب من اللغو . ما قلته لك فى أبى زعبل هو ما أقوله الآن فى طرة ، وإن أحيانى الله فسوف أقوله فى أى مكان .

وفرقتنا « صفارة » الشاويش معلنة انتهاء الطابور .

* * *

ومضيت أفكر فى كلام محمد قطب .

فقد ذهب الشهيد سيد قطب مخلفا وراءه « تركة » أحس شقيقه أنه مسئول عنها .

عدد قليل من التلاميذ لهم صلابة وثبات وقوة .

« المشروع الإسلامى » وقد نفض عنه الغبار قبل أن يستشهد .

تفسير لمعانى القرآن وروح الإسلام له وهج يعشى الاعين .

أعين الأصدقاء قبل أعين الأعداء .

راية قد نكست لبعض الوقت ، وعليها أن ترتفع من جديد .

انقسام مع الأهل أملته ظروف الخوف والفزع والرغبة فى الحياة .

واجب عليه أداؤه دون أن يتجاوز الخطوط الحمراء .

تلك الخطوط الذى رسمها بنفسه لنفسه ، ولم ترسمها له أجهزة الأمن وقوى الشر وغيب قادم قاتم فى جلبة تملأ المكان والزمان ، وصخب لم يسمعه أحد بعد ، فقد كان المسلمون يجتازون عتبة الطريق إلى العنف رغم تحذير العقلاء .

* * *

* *

*

الفصل الثالث

"هل أتاك حديث الغاشية" ؟

الحاكم النذل يخلق أمة بلا أخلاق ويقود شعبا كالنعاج . الحاكم المستبد هو غاشية تغشى الناس ، تبرز أسوأ مافيهم ، وتقتل كل ما عندهم من ملكات ومواهب .

والضرب بالسياط يقتل كرامة الإنسان .



طبع في مصر

* أغضب كتاب «البوابة السوداء» الناس جميعا عندما ظهر للقراء .

أغضب القارىء لأن الكتاب لم يشف غليله فى كثير من الأمور التى تناولها .

وزعم القارىء أن الكتاب لم يفصح عن هوية المؤلف ، وبهذا جاءتنى الرسائل .

وأغضب إخوة المعتقل والسجن ؛ لأنى لم أوف الموضوع حقه ، وتجاوزت عن كثير من الحقائق والحوادث التى يشيب لهولها الولدان .

أغضب الزبانية الذين كشفت عن قليل مما فعلوه من جرائم .

وأغضب أجهزة الأمن الحديثة ، فما جاء فى الكتاب يصنع إسقاطا على مايصنعون هذه الأيام فى زعمهم ، ويلقى أضواء على ممارستهم ، ومن ثم يثير غضب الناس .

وأذكر أننى عندما قدمت الكتاب للرئيس حسنى مبارك فى معرض القاهرة للكتاب عام ١٩٨٦ أبدى عجباً شديداً من عنوانه ، وقلب صفحاته واطلع على فهرسه وسألنى :

— أين طبع هذا الكتاب ؟

قلت له باسما :

— طبع فى مصر .

على طريقة « صنع فى مصر » التى عرف بها الرئيس .

سألنى مداعباً :

— وهل سمحوا لك بنشر هذا الكتاب ؟

وناوله إلى أحد مساعديه وقال :

— سوف أقرأ هذا الكتاب باهتمام .

وقبل أن ينصرف قال لى :

— هذا حدث أيام الرئيس عبد الناصر ؟

قلت له :

— نعم ياسيادة الرئيس .

قال متوجساً :

— ولكن هذا لايحدث الآن بطبيعة الحال .

قلت له وأنا لاأستطيع منع الابتسام :

— الكلام كثير . وأنا لم أشرف بعد بالاعتقال فى عهدكم السعيد .

ونظر إلىّ متشككا للحظة، وابتسم وانصرف ، ومن ورائه عدد كبير من الوزراء

الكبراء ، انصرفوا خلفه وهم يتخافتون ويتلفتون كالأفاعي السامة .
من بينهم لمحت عيني أحمد رشدى،وهما مزيج من عين الأفعى وعين الصقر .

الذين غضبوا من كتاب "البوابة السوداء"

الكتاب كما يعرفه من اطلع عليه يحكى قصة طغيان عبد الناصر،وفساد الأجهزة العديدة التى أنشأها لحماية نظامه الذى أسس على الفجور والفسق والضلال كما شهدنا وعرفنا .

كانت هذه الأجهزة تتظاهر بحمايته والمحافظة على النظام ، وكان الشعب قد تحول بعد الطغيان إلى قطيع من النعاج ، ومن ثم فليس هناك ثمة مايخيف .

ولكنهم كانوا يخترعون المؤامرات الوهمية ، ويختلقون القصص ليعيش الزعيم فى جو من الهلع والفزع والرعب ، فيظن أنهم الذين يحرسونه من طوفان هائل من الممكن أن يجرفه أمامه ، فتركهم يعيثون فى الأرض ، ويظلمون ويقهرون ويضربون ويعتقلون ويصادرون الأموال ويكبسون البيوت ، على نحو أشد وأعتى مما كان يحدث فى أشد عصور التاريخ ظلاماً وقتامة .

كانوا يسرقون وينهبون ويأكلون المال الحرام ، وهو فى أدنى صوره مكافآت التعذيب التى كانوا يتقاضونها ، وثمن رءوس الشهداء ، وكانت العطية جزلة وكبيرة .

كان اللواء أحمد رشدى وزير الداخلية السابق من الذين غضبوا لفتح هذا الملف ، ولم يدر أنه ملف لم يغلق لحظة ، وسيظل مفتوحاً حتى لحظة الحساب .

أشهر من غضبوا من نشر كتاب « البوابة السوداء » هو اللواء فؤاد علام .

ومأأدراك مافؤاد علام !! ثم مأأدراك مافؤاد علام !! .

غضب أحمد رشدى لأنه قد أعلن توبته من كل مااقترفت يداه .

والله أعلم بالسرائر .

فؤاد علام

ومابال فؤاد علام لايتوب مما فعل ؟

وهو الرجل الذى عاش عمره يلهث خلف السلطة ، ثم غادرها أو غادرته إلى الأبد ، وانتهى دوره فى التاريخ المصرى الحديث الملىء بالشهداء والمعذبين ، وهاهو ذا قابع فى بيته ينتظر الآخرة ، حيث الحساب العسير والكتاب الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وإنى لفى دهشة من غضب فؤاد علام . على التعذيب والقتل والتشريد ! فحسب علمى — وأنا مؤلف الكتاب — لم أعرض له إلا فى أقل القليل .

وبرغم دوره البالغ وأعماله التى يعجز القلم عن سردها ووصفها فإننا لم نعرض لها كثيراً ، بل كنت أكتفى بالإشارة إليها والمرور عليها ، وكنت أفتح له بهذا باباً للاعتذار والرجوع .

ولو أنه أعتذار غير مقبول ، ولايوجد من بين الأحياء من يمكنه قبوله . والذين يملكون الصفح والغفران هم الشهداء ، ونحن لانملك قبول الاعتذار نيابة عنهم بعد أن غادروا الدنيا .

الذين يملكون الصفح هم أولئك الذين استشهدوا على أيد آثمة .. فؤاد علام وأحمد رشدى وأحمدراسخ وحسن أبو باشا وغيرهم من أكابر المجرمين والجلادين .

وسوف تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم وسياطهم وسجونهم . ونحن مهما اجتهدنا فلن يمكننا محاكمتهم فى كتاب ، فأمرهم أعظم عند الله من أن تكتب عنهم صفحات ثم ينتهى الموضوع .

لعلى أتنازل عن حقى وأغفر لهم بضع الاف السياط التى كانت من نصيبى ، وكذلك ضرب الهراوات المركز الموجع ، وقد أسامحهم طمعاً فى رحمة الله وعدله وصفحه .

لكنى بالتأكيد لاأملك الصفح عن فؤاد علام وزملائه فى قتل العشرات ، ويكفى من رأيتهم بنفسى من الشهداء .

— زكريا المشتولى .

— بدر القصبى .

— أحمد السيد شعلان .

عقوبة على التأليف

وفؤاد علام شخصية غريبة فريدة ذات طابع خاص ، يندر أن تجد له نظيراً أو مثيلاً .

فهو يقتل والبسمة على شفتيه ، ويحرق بالنار من خلال نظرة شاردة حالمة ، وله فى القتل والتشفى والتعذيب متعة وروعة لاتخفى على أحد ممن وقع تحت يديه ، وهو يذكرنى بحمزة البسيونى الذى فرمته الأسياخ فى لحظة بليل .

كان مريضاً صاحب نزعة إجرام وانتقام بلاسبب ظاهر ، ولعل هناك فى طفولته مايعلل هذه النزعة للإيذاء ، ولكنى لاأدعى العلم بتاريخ حياته .

ولم أكن أعرف أننى سوف أقضى فترة العقوبة على ظهور الطبعة الأولى من البوابة

السوداء التى كانت قد ظهرت على استحياء فى ربيع عام ١٩٧٤ ، وكان هذا الكتاب أول كتاب يظهر ليحكى أسرار حكم عبد الناصر ، ومن بعده صدرت الكتب تترى وكانت هذه العقوبة قد تأخرت بضع سنين .

عندما أصدرت الكتاب لم يكن يعنينى فؤاد علام وغيره من الجلادين ، بل كان غاية همى ألا يتحول جمال عبد الناصر إلى وثن يعبده الناس لجهلهم بمافعل ، كنت أخشى أن تستمر أكاذيبه وشعاراته تسود واقع الناس وتصوراتهم أمداً ، ثم تتباعد السنون فيصير مثل أتاتورك اليوم فى تركيا ، فأينما تذهب إلى أى مكان فى تركيا: قرية أو مدينة أو مبنى حكومى أو أهلى تجد وثناً عليه كآبة يمثل الغازى أتاتورك ، وهم لايقبلون مجرد مناقشة أى عمل من أعماله ، ولكن الصحوة الإسلامية اليوم فى تركيا كفيلة بتحطيم هذه الأوثان فى زمن ندعو الله ألا يطول .

ونسى فؤاد علام الزعيم وقرر أن يعاقبنى .

وتأخرت عقوبته سنين !

وكان ضابطا صغيرا آنذاك،وفعل مالست أدريه فطردوه من المباحث ، ولاأدرى أين قذفوا به ، ثم عاد مع تقلبات الليل والنهار .

وقد أخبرنى هو بذلك يوما ، واعتبره من الظلم الذى يصيب المؤمنين .

ثم جاءوا به على قدر .

وجعلوه على سجون الأرض ومعتقلاتها .

وهو فى هذا المجال حفيظ عليم .

ورفعوا درجته ، وجعلوه نائبا لمدير مباحث أمن الدولة .

وهو خبير بالدسائس والمؤامرات ، ولايبارى فى ألاعيبه وأساليبه ،فهذا عمله .

واستند على ذلك الذى عينه ، وهو حسن أبو باشا .

وأهمل مديره وتجاهله ، وصار يقضى الأمر دونه .

والباشا لايعرف الحياء ، ويعرف ذلك كل من عاينوه وخبروه .

ويشهد بذلك يوم القيامة من استشهدوا على يديه .

وقرر أن يعاقبنى على إصدار الكتاب .

وكتب ماشاء الله له أن يكتب من زور وبهتان ، ورفع الأمر إلى هامان ، وأدرجونى فى قوائم الممنوعين من السفر سنين .

وقابلته وعاتبته،فادعى كذبا أنه ليس المسئول ، وقال إن الذى فعل هم رجال الأمن القومى .

وتأملوا معى :

مباحث أمن الدولة .

الأمن القومى

الأمن المركزى

أمن رئاسة الجمهورية .

الجيش .

الطيران .

البحرية .

وآخرين من دونهم لانعلمهم !

ومع كل هذا فنحن أضعف الدول ، وأقل الناس شأنا فى الرقعة العربية . وعلى مستوى الكون نقع فى آخر القائمة ، إن كانت ثمة قائمة تصنف البشر وتضع لهم الدرجات .

ومايزال الباشا يدوخنى ويهد فى حيلى ، ويستعرض أمامى قوته وسلطانه ، ويمنعنى من السفر رغم الخسائر التى ترتبت على ذلك حتى قيض الله عظيماً من العظماء أمره ونهاه وزجره ، وانتهت مدة العقوبة ، وخرج من بعدها مطرودا من مباحث أمن الدولة ، وصار مواطنا عاديا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

كنت أتردد عليه ليلغى ذلك القرار الظالم ، وكنت أصبر على هرائه وادعائه ، ولم أكن أملك غير هذا .

انتحار الشهيد كمال السنانيرى !!

أذكر مرة أثناء هذه الزيارات أنه أخبرنى أن الشهيد كمال السنانيرى قد انتحر .

تعجبت وسألته :

ــ وكيف تم الانتحار ؟

ونظر نظرة صفراوية وقال :

ــ أنت لاتصدق إذن أنه انتحر ؟

وقلت :

ــ أنا أسأل كيف تم هذا ؟

وانتفخ فوق كرسيه ، ووضع ساقا على ساق ، ومد يده إلى مسبحة أمامه على المكتب وصار يلعب بحباتها ، وانطلق صوته كفحيح الأفعى :

– ربط عنقه بفوطة ، ثم ربطها بكوع الحوض الموجود بالزنزانة وصار يجذب نفسه حتى مات . وفى الصباح اكتشف السجان الجثة ، وجاء الطبيب الشرعى وعاينها وأثبت سبب الوفاة .

قال هذا ثم حدق فى عينى بتحد ظاهر .

قلت له :

– ولماذا انتحر ؟

ابتسم ابتسامة شيطانية وقال :

– عندما تقابله فى الجنة عليك أن تسأله .

قلت له :

– المنتحرون فى العادة لايذهبون إلى الجنة .

وقال ساخرا :

– يا سيدى هذا مجاهد قديم ، وأمضى عمره فى السجون و المعتقلات ، وهو من أهل بدر ، وما يدريك « لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

و لم أستطيع أن أجاريه ، وخيم علّى صمت حزين على الشهيد ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها خبر استشهاده ، وكنت أعرف أنه يعذب أشد العذاب أملا فى معرفة معلومات عن التنظيم الدولى للإخوان المسلمين ، فهكذا كانت الشائعات تملأ كل مكان .

وقطع الصمت فحيح الأفاعى :

– كأنك لاتصدق أنه انتحر ؟

قلت له :

– ما رأيك أنت ؟

واعتدل فى جلسته وقال :

– أنا الذى أسألك .

– بطبيعة الحال لاأصدق ذلك ، ولاأظن أن هناك من يمكنه تصديق هذا الكلام ،

وأنت لاتنسى أنني خبير بالأساليب ، وقد تم التحقيق معي بمعرفة سيادتكم ، وأيامها كانوا يهربون ولاينتحرون .

وتنهد فؤاد علام حزينا :

— وماذا نفعل لمودة الديمقراطية والحرية التي ملأت مصر !

قلت له ضاحكا :

— تقصد الحرية والديمقراطية التي ملأت الصحف وحفلت بها الخطب !

استمر مستاء حزينا :

— نعم .. هذه اللهجة أصبحت لاتسمح لنا بأداء واجبنا على الوجه الأكمل . صرنا نعمل حسابا لصحف المعارضة ، ولتلك الأحزاب الورقية التي أمر بإنشائها السادات ، وصار لزاما علينا أن نطور في الأساليب .

وقلت بعفوية :

— ولكن ماالسبب الحقيقي لقتل كمال السنانيري ؟

ونظر إلى نظرة مستنكرة غاضبة فقلت :

— أقصد السبب الحقيقي وراء انتحاره .

وملأت الابتسامة وجهه من جديد وقال :

— كان يعرف الكثير ولايريد البوح به ، فآثر الموت حفاظا على إخوانه .

قلت له باسما والمرارة تملأ حلقي :

— كان يسر كمال السنانيري أن يسمع هذه الشهادة منك .

— هو يسمعها .. أليس الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ؟

وتعجبت من الرجل :

— أنا لاأفهمك ياسيادة اللواء .

— بل تفهمني جيدا .. كلانا يفهم صاحبه ..فلنتكلم في موضوع آخر .. موضوع منعك من السفر .

— متى تأذن لي بالسفر ؟

— تعالى إليَّ في الأسبوع القادم .

شجرة تنبت في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين

هذا مثل من الزبانية الذين كانوا يحكمون مصر .

وهو نبت كالح كئيب .. نما واستشرى وصار له وجود فى كل مكان فى أرض مصر .

هو فساد سرطانى قد استشرى بعد أن وضعت بذرته فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

وظهر هذا الفساد واضحا جليا فى معسكرات التعذيب والاعتقال الناصرية .

فقد كان الجلادون يبذلون غاية جهدهم فى التنكيل والعذاب ، وكانوا يستطيعون أن يخففوا منه ، فلم يكن هناك من رقيب غير الله الذى يراهم ، ولكنهم لم يكونوا يعملون له أى حساب ، والظن أنهم لم يكونوا يؤمنون به وبوجوده ، بل كان إيمانهم بعبد الناصر وخوفهم منه أعظم وأكبر ، ويظنون أنه يراهم هو وقبيله من حيث لايشعرون .

وكانوا يسرفون لأن إلههم الذى يعبدونه يراهم ، وهم لايعرفون سواه،ولايؤمنون بغيره .

ذلك الإله الزائف هو الرئيس جمال عبد الناصر !

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو أغلقت بوابة سوداء ضخمة على شعب مصر .

ونصبوا الوثن وزينوه ، وانتشر من حوله السدنة والكهنة ، والويل لمن رفض عبادته وتقديم القرابين له .

وانتهت أحلام الإصلاح وقضاياه .

وذهب أمل الناس فى مجتمع جديد يسوده العدل .

لم يعد هناك من شىء يشغل أحدا غير عبادة الفرعون الجديد .

وصار هو الوطن والدين والانتماء ، والخروج عليه خروج على كل هذه المعانى ، وصارت معارضته خروجا عن الملة والعياذ بالله .

وصار عبد الناصر هو مركز الثقل ، وهو المحور الذى يدور حوله كل شيىء ، وكل ماعداه صار باطلا ووهما ، ولم يعد أحد يفكر فى سواه .

وأقاموا المشانق والسياط لكل من يخرج عن هذه الخطة .

والحقيقة أن عبد الناصر قد غير تاريخ مصر والعرب والمسلمين ، أو غير مساره لسنوات لايدرى عددها إلا الله .

وشعب مصر شعب مؤهل ومدرب على الذلة والخنوع والهوان .

وهو يعرف كيف يتماوت كالثعلب إذا رأى الخطر .

ولعمرى ليس ذلك من شيم الكرام !

المصريون يقتلون محمد كريم

تحضرنى قصة رواها الجبرتى عن السيد محمد كريم الثائر البطل الذى قاوم الفرنسيين ، ودعا المصريين باسم الإسلام لمقاومتهم ، وكانت له فى هذا المضمار قصص كثيرة ، وكاد يجمع القاهرة صفا لمقاومة الغزاة .

وبعد أن فعل الأفاعيل بالفرنسيين قبضوا عليه وأودعوه السجن .

ثم حاكموه وحكموا عليه بالإعدام .

وتدخل بونابرت الرحيم وخفف الحكم لو استطاع محمد كريم أن يدفع ثلاثين ألف ريال كغرامة أو فدية لحياته .

وكانوا قد صادروا أمواله من قبل وصار فقيرا معدما .

وحددوا لإعدامه موعدا بعد صلاة عصر يوم فى قلب القاهرة .

وأرسل الشهيد إلى بعض مدينيه يطلب دفع الفدية من ماله الذى عندهم فتهربوا واختفوا .

وجاء موعد الإعدام .

وطلب محمد كريم أن يسمح له بجولة فى شارع الأزهر يبحث عن مدينيه .

وسار الرجل مكبلا بالحديد والجند يلكمونه ويكزونه ، وكلما وقف أمام متجر من المتاجر لم يجد فيه غير الصبى ، ويسأل عن صاحب المتجر فيقال له إنه لم يأت بعد من صلاة العصر .

وقطع الطريق جيئة وذهابا بلا فائدة ، وصار يصرخ قبل إعدامه :

ـــ اشترونى يامسلمين .. فليدفع كل واحد خمسة ريالات من أموالى التى دفعتها لكم من قبل .

واختفى التجار الجبناء وعلق الشهيد .

ولست أدرى لماذا لم يجمعوا له الفدية ؟

فيصل يشفع فى سيد قطب

وتذكرت قصة حكاها لى مؤخراً أحد الوزراء فى عهد عبد الناصر .

والقصة عشية إعدام الشهيد سيد قطب .

كان هذا الوزير يجلس مع عبد الناصر لمناقشة بعض الأمور الاقتصادية .

كان يحضر الجلسة أنور السادات وحسين الشافعى .

ودخل سامى شرف وفى يده ورقة ، وحاول أن يهمس فى أذن عبد الناصر الذى

رفع صوته محتدا :

— إيه ؟ .. فيه إيه ؟

وتمتم سامى شرف :

— ياافندم هذه برقية من الملك فيصل يلح فى الرجاء فى عدم إعدام سيد قطب .

وبدأ الغيظ والضيق على وجه عبد الناصر وقال :

— أنا مش عارف أولاد :..... دول مهتمين ليه بسيد زفت ده ؟

ووقف سامى شرف مرتبكا ، وصرخ فيه عبد الناصر :

— انصراف .

وأسرع سامى شرف يغادر المكان .

واستوقفه عبد الناصر ثانية وقال له :

— اسمع ..

— أفندم ..

وفكر عبد الناصر قليلا وقدّر ، فقتل حيث قدر ، ثم قتل حيث قدر ، ثم أدبر واستكبر وقال :

— اعدموه فى الفجر بكره ، واعرض علىَّ البرقية بتاعت سى فيصل بعد الإعدام ، ثم أرسل برقية اعتذار له .. وينكتب فى الأهرام تم الإعدام فى سطرين .

والتفت إلى الفردتين وقال ضاحكا ممازحا :

مش كده ولا إيه ؟

وشاركاه فى الضحك ، وانصرف سامى شرف .

وأعدم سيد قطب مع الصبح .

ومعه محمد يوسف هواش

ومعهما عبد الفتاح إسماعيل .

وأقيمت المآتم فى كل البلاد الإسلامية .

أما الناس فى مصر فكانوا يسيرون فى الشوارع فى ذلك الصباح كالخنازير .

وجف حلقى وأنا أسأل الوزير :

— وأنت ماذا قلت ؟

وقال :

ـــ أنت لاتعرف عبد الناصر .. ليس هناك من يستطيع مناقشته ..فما بالك بالاعتراض على حكمه .

وقلت للوزير :

ـــ وانتهى الاجتماع بطبيعة الحال بعد هذا القرار الفظيع .

وقال الوزير السابق :

ـــ على العكس استمر أكثر من ساعتين ، وفاتت منى يومها صلاة المغرب و لم أستطع الاستئذان للصلاة .

سألت :

ـــ وهم ؟ ألم يكونوا يصلون ؟

فكر الوزير قليلا وقال :

ـــ لم أر واحدا منهم يصلى إلا فى العيد أحيانا أمام كاميرات التليفزيون .

وسألته واجما :

ـــ وبعد تنفيذ حكم الإعدام ألم يظهر واحد من الوزراء الألم أو الاحتجاج ؟

وقال الرجل :

ـــ بعد تنفيذ حكم الإعدام فى الشهيد سيد قطب كان كل وزير يحرص على أن ينقل عنه للرئيس كلمة تدل على الفرحة والابتهاج .

وشردت بأفكارى .

وتذكرت الحاج صالح أوزجان عندما قال لى :

ـــ دخلت على الملك فيصل رحمه الله عندما أعدم الشهيد سيد قطب ، و لم أكن أعرف بالخبر بعد ، ووجدته حزينا دامع العينين .

وتعجبت ودهشت وسألته فقال لى :

ـــ عظم الله أجرك فى الشهيد سيد قطب ، فقد لقى ربه اليوم .

وتمتمت :

ـــ إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقال الملك فيصل :

ـــ أرسلت إليه وتوسلت أن يطلقه حيا ويطلب فيه مايشاء ، ولكنها إرادة الله ، ولكل أجل كتاب ، ولابد لهذه الأمة من شهداء .

وعدت بالذكرى إلى اليوم الذى جاءنا فيه خبر إعدام الشهيد .
وكنا أيامها بمعتقل أبى زعبل السياسى .
وكان الكلام حراما وممنوعا .
والرعب يخيم على العنابر والزنازين .
وكانت رغم هذا أول صلاة جماعة فى فناء المعتقل .
وكانت صلاة المغرب .
وقرأ الامام :
« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين » .
وضج المعتقل بالبكاء .

اليابان تبحث سر النهضة المصرية أيام إسماعيل

استطاع عبد الناصر أن يحول الأمة كلها الى قطيع من النعاج .
ضرب الصغير والكبير بالحذاء .
صارت كلمته هى القانون والقضاء .
أجهض كل أمل فى الإصلاح .
حكم الأمة بنفسية مريضة مليئة بالأحقاد والأهواء ، وبجسم عليل قد هده المرض وأثر على فكره وعقله ، وصدق أنه إله ودعا الجميع إلى عبادته ، ولم يرحم فى حكمه شيخا أو امرأة أو صبيا ، فقد رأينا كل هؤلاء يعذبون بأمره وبأيدى رجاله وزبانيته .
أبعد الحكماء ورفع السفهاء ، وعاد بالبلاد إلى دورة بعيدة المهوى عميقة القرار .
ومن عنده شك فى هذا فلينظر إلى الناس كيف يعيشون اليوم فى مصر .

بدأت نهضة مصر فى الوقت الذى بدأت فيه نهضة اليابان .
وكانت مصر قد قطعت شوطا فى التقدم والازدهار .
وروى الرافعى فى كتابه تاريخ الحركة القومية فى الجزء الخاص بعصر إسماعيل أن وفداً يابانيا قد قدم إلى مصر عام ١٨٦٨ م وفيه علماء وحكماء ومفكرون ، جاءوا ليدرسوا سر هذه النهضة حتى يسيروا على نهجها بعد سنين من التخلف .
كان هذا منذ أكثر من مائة عام !

وانظروا اليوم إلى اليابان وأية قمة وصلت إليها !
وتأملوا مصر وأى درك نزلت إليه .

قطار الرحمة والضباط

قامت الثورة فانتشرت الملابس الكاكية فى طول البلاد وعرضها .
ونحى الحكماء والعلماء وحلّ محلهم الشاويشية والصولات .

ووغد زنيم أطلق عليه لقب « مندوب القيادة » صار له مكتب فى كل وزارة وفى كل مصلحة من المصالح الحكومية ، وكل مهمته أن يحول الجميع إلى جواسيس وإلى كتبة تقارير ، ويسرق ويسرق قدر مايستطيع .

وكان الشعب المسكين يحلم بآفاق جديدة فوثق بهؤلاء الأوغاد .
وخرج « قطار الرحمة » يجوب البلاد بطولها وعرضها يطلب التبرعات .
وفى القطار اجتمع الضباط مع الفنانات .
وبدأ الفساد من اللحظة الأولى .

وعاد كل ضابط ومعه حقيبة مليئة بالنقود هى حصيلة التبرعات .
ورقم تليفون فنانة وعنوانها من أولئك اللائى كن فى صحبته .

ويحكى أحد الذين شهدوا هذه المهزلة فيقول :
ـــ كانت الفاحشة ترتكب فى كل مقصورات القطار فى المسافة بين المحطة التى قام منها والمحطة التالية ، وعندما يقترب القطار من المحطة الجديدة يسرع الجميع بارتداء ملابسهم ، وتسرع الفنانات بوضع الماكياج على وجوهن ، ثم يخرجن إلى المساكين الذين اجتمعوا لدفع التبرعات .

وذكر أسماء شهيرة من رجال الثورة المباركة ، وكيف عادوا بالمال وبالمطربات والفنانات .

ويحكى عن اسم شهير قدمت له كنيسة صليبا من الذهب تبرعا لقطار الرحمة ، وكيف تم ضبطه وهو يحاول كسره وأخذ قطعة منه ، ولكنه لم يستطع ، فلم تكن معه الأدوات اللازمة لهذا ، ولما أعيته الحيل وضع الصليب بأكمله بين جلده وبين السروال .

هكذا بدأت الثورة عهدها المبارك فى مصر غير المحروسة .
كان الناس يحلمون بالعدل ، فأشبعهم الشاويشية ضرباً على القفا بعد قيام الثورة .
كانوا يحلمون بالشبع بعد الجوع ، وأوشكوا اليوم أن يأكلوا الروث .
كانوا يطمعون فى مزيد من المشاركة فى حكم بلادهم ، وقامت الثورة وأخذت من الجميع توكيلا موقعا على بياض ، وصاروا يعيشون فى بلادهم بلا حقوق .

انتهى جيل العمالقة

حفلت مصر قبل الثورة بمئات الشعراء والأدباء والمفكرين والعلماء والباحثين .
فالحرية هى المناخ الذى يسمح بتفجر الطاقات فى جميع المجالات .
فإن قلت الشعر قبل الثورة المباركة تسامت الأسماء أمام مخيلتك ، ووجدت الدواوين تملأ رفوف المكتبات .
أحمد شوقى .. حافظ ابراهيم .. إبراهيم المازنى .. إبراهيم ناجى .. على محمود طه .. محمد الأسمر .. الشيخ محمد عبد المطلب .. اسماعيل صبرى .. عزيز أباظة .
وتستطيع أن تملأ مجلدا بأسماء شعراء عظام .
وتسأل عن الشعر بعد الثورة فلا تجد الا مجموعة من « السناكيح » والصعاليك والأفاكين ، سماهم من يدعى عبد القادر حاتم بشعراء فصاروا كذلك ، وأضاف إلى القائمة من يدعى ثروت عكاشة .
ولكم من هم ؟ وأين هم ؟
ليسوا سوى أسماء هزيلة قد كتبت فى كشوف مهترئة بأيد خجلة رغم بجاحتها .
وإن قلت الأدب والرواية قفزت الأسماء تفرض نفسها .
محمد حسين هيكل .. محمود تيمور .. توفيق الحكيم .. نجيب محفوظ .. محمد عبد الحليم عبد الله .. على أحمد باكثير .. محمد فريد أبو حديد .. سيد قطب .. أحمد حسن الزيات .. محمود شاكر ..
وتستطيع أن تملأ بأسمائهم مجلدا ..
وانظر إلى مصر بعد أن أوسعها الشاويشية ضربا بالشوم وصفعا على القفا فلن تجد من تسميه أديبا غير أولئك الذين فرضوهم علينا فرضا عبر قوائم لانملك مناقشتها ، ولايعرفهم أحد الا إذا عاد إلى تلك القوائم واطلع عليها .

وانظر مثلا إلى العقاد وطه حسين ، وهل صار لهما مثيل أو شبيه بعد أن غلب اللون الكاكى على أرض الكنانة ؟

الإجابة لا . لأن من يقتل الكرامة فى أمة يقتل معها الموهبة والإبداع ويزرع الخوف ، فتتغلب الغريزة على كل نظرة أو أمل فى السمو .

حكم الشاويشية والصولات

طرد الضباط كل أصحاب الموهبة والخبرة فى كافة المجالات .

ولم يكن أمامهم غير الاستعانة بالصولات .

فهم يأتون بضابط يجعلونه وزيرا أو مديرا أو رئيسا ، وينشغل هذا الضابط بالإمرة والرياسة والسرقة ، والعلاقات النسائية التى لم ينج أحد منهم من إغرائها وبريقها . ثم يترك أمر الإدارة التى وكلت إليه إلى صول الكتيبة ، الذى كان يخدم معه أيام الفقر والوطنية .

ويجد حضرة الصول نفسه وقد صار كبيرا ينحنى أمامه وكيل وزارة ، يحمل لقب دكتوراه ويسأله التوجيه فى أدق الأمور الفنية .

ويستعرض الصول المشكلة بعقلية ضحلة خربة ثم يصدر فيها القرار !

وقد حكى لى أحد الأصدقاء ، وكان يعمل فى مصلحة المناجم والوقود التابعة لوزارة الصناعة فى أول الثورة ، عن أحد هؤلاء الصولات الذين تمكنوا فى غفلة من الدهر .

ويقول هذا الصديق إن ذلك الصول الذى كان يحكم تلك المصلحة كان يستعين فى حكمها وإدارتها ببعض من يعرف من الشاويشية والأنباشية فى تأديب الموظفين وإذلالهم .

وكان الحضور فى الثامنة صباحا ..

ثم يرفع سجل التوقيع .

ويجمع الذين تأخروا .

وفى غرفة جناب الصول أمروا بخلع أحذيتهم .

وارتفع صراخهم وهم يجلدون بالعصا على أقدامهم .

وكان منهم وكيل للوزارة يعمل فى المصلحة .

وفعل به مثل مافعل بالآخرين .

واحتج وقدم استقالته .
واستدعاه سيادة العقيد ، وصار يصفعه على وجهه حتى غشى عليه .
هذه ليست أساطير ، ولكنها حقائق قد عاينها الكثير من الناس .
وانضبطت أحوال المصلحة فى الحضور والانصراف وملازمة المكاتب .
وذهب الإنتاج ولم يعد حتى كتابة هذه السطور .

وكان هذا الصول يحضر الاجتماعات ويرأسها عندما يكون سيادة العقيد منشغلا مع صديقته ، وكان وقته كله لها .

وفى هذه الاجتماعات التى يحضرها الفنيون والأساتذة والاختصاصيون كان الصول يقول لهم :
ــ كنتم ستخربون البلد ياجهلة ياأولاد الكلب .
نعم .. هكذا كان يخاطب الصول أساتذة الجامعة .
وهكذا كان يفهم الحكام أصحاب السترات الكاكية .
كانوا يظنون أن العناية الإلهية هى التى وضعتهم على كرسى الحكم .
والنتيجة واضحة تماما ، وظهرت للجميع هذه الأيام .
فقد هبطوا بمصر والعرب إلى هاوية بعيدة القرار ، والخروج منها يقترب فى حكمه من المستحيل الذى لايعقله أحد ، وفقا لنواميس الكون والحياة .
وأذكر أن جنديا من جنود التعذيب فى السجن الحربى ، وكان من صنف لو قوم بالمال أيام بيع العبيد فى أسواق النخاسة لعلقت على سترته ورقة بالسعر ، ولاأظنه يتجاوز ثلاثة قروش ، فهو لايساويها « وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لايأت بخير » . قال هذا الجندى وهو منتفخ الأوداج :
ــ كنتم تريدون الحكم ياأولاد الكلب ! انتم فاكرين إنها سهلة ؟ هانحن فى الحكم وتعبانين ولاننام الليل .
هذا الجندى الذى يُردّ عند البيع لو طلب فيه صاحبه قرشين .. لايختلف كثيرا عن أولئك الذين تسنموا المناصب العالية مثل جمال عبد الناصر وعلى صبرى وعلى شفيق والمشير عبد الحكيم عامر وكل زملائهم بلااستثناء .
والفرق بينهم وبين ذلك الجندى الذى يحكم معهم أنه كان يقوم على سرقة ماتيسر له من « تعيينات » السجن وأدواته على قدر استطاعته .

أما الآخرون فكانوا يرتدون الملابس الغالية الثمن والعطور الفرنسية،يضمخون بها أجسادهم ليخفوا بها رائحة الجيف المنبعثة من صدورهم العفنة .
وهم يسرقون كل شيء بلا استثناء .
كل مايعجبهم يأخذونه .
أخذوا ماأرادوا دون خجل أو تحفظ .
البيوت والأراضى وحتى الزوجات والبنات .

وأين موقع فؤاد علام وأبو باشا وأحمد راسخ وأحمد رشدى من كل هذا الفساد والاجرام ؟
لقد كانوا كذلك الجندى الأبله البسيط ، يقومون بدوره ولكن بملابس أكثر أناقة كما قلت ، وحظهم فى الغنيمة أكثر من سرقة « التعيينات » أو حصيلة « الكانتين » .
وكانوا يساومون على الجرائم المؤلفة التى شاركوا فى وضع السيناريو لها بخيالهم المريض ونفوسهم العفنة .
هؤلاء لو شنقوا ألف مرة لكان ذلك عقابا دون العدل .
ولو ظل الرصاص ينهمر عليهم دهرا وهم يموتون ويحيون لما أخذوا ماينبغى لهم من عقاب .

* * *

تغيير النظام فى مصر

ذهب كل أمل فى الإصلاح مع حكم الضباط .
وهذا شيء بديهى ومن السهل فهمه ،فالحكم والسياسة ينبغى أن يقوم عليهما المتمرسون بشئونهما ، ولا ينبغى أن تترك هذه الأشياء للهواة والجهلة ويتم تغير مسار أمة من الأمم تحت ضغط مفكريها وكتابها والرأى العام الذى يمكنهم صنعه وتعميمه .

ولنتخيل مثلاً مؤسسة ضخمة مثل مؤسسة الطاقة النووية ..
هل يمكن أن يقوم على إدارتها مجموعة من النجارين أو الحدادين ؟
وشركة مثل شركة « جنرال موتورز » .
هل يتيسر لمجموعة من الحلاقين أن يديروها ويضعوا لها السياسة ؟
قد يصير الأمر على هذا النحو لأمور لادخل لإرادتنا بها ..
ولكن كيف تكون النتيجة ؟

سوف يعود هؤلاء غير الاختصاصيين بهذه المؤسسات إلى درجة الصفر المطلق ، ولو أراد الله لعاد النمو من جديد ، وتكونت مجموعات من القادرين والفاهمين ، ويعودون إلى النقطة التى استلم فيها الإدارة الحدادون والنجارون والحلاقون ، ولكن متى يتم هذا حسب السنن والنواميس ؟

ربما بعد مائتى عام !

فعندما يسود الجهلة والمتغطرسون ويحكمون تراهم يصنعون تقاليد جديدة ويعملون على تربية جيل يرثهم ويسير على نهجهم ومنوالهم .

وهذا الجيل الجديد يأخذ أفكاره وأخلاقه من سادته ويورثها .

وتدور البلاد فى ساقية نكدة من الفساد .

وتسود المفاهيم الخاطئة ، ويتعود الناس المنكر ، ومع الزمن لاينكرونه بقلوبهم ، وذلك أضعف الإيمان كما يقول الحديث الشريف .

ومن أطرف مايجرى هذه الأيام وهو نتاج تجربة أصحاب الملابس الكاكية،أنك تقرأ الصحف اليومية فتشهد بعض الملاحظات .

تلحظ أن السرقة والاختلاس وبيع الذمم وشراءها صار شيئا مستساغاً لايغضب له أحد ولايدهش .

تجد أصحاب المناصب الكبيرة فى قفص الاتهام بتهمة السرقة والكسب غير المشروع .

محافظ سابق مثلا !

وتتأمل ..

فتجد العجب العجاب !

هذا المحافظ كان فى اتحادات الطلبة أيام الزعيم الخالد !

وكان يكتب التقارير عن زملائه .

وكان السبب فى اعتقال عدد منهم !

وشجعوه على هذا وغرسوا فى نفسه هذه المفاهيم .

وجعلوه نائبا لوزير أو وزيرا .

وأجلسوه فى ناحية من مجلس الوزراء أثناء انعقاده .

واختل ميزان الكون فى عقله وقلبه .

وجعلوه قدوة لمن يريد أن يكون فاسداً أو عميلاً .

ثم دارت دورة الأيام ونصبوه محافظا . وصار يسرق ويسرق والدنيا كلها تعرف ومايبنغى له أن يكون أمينا ، فقد ربى على غير هذا .
فما الذى حدث اليوم ليحاكموه بتهمة السرقة ؟
والمحافظون الآخرون الذين يسرقون اليوم والأمس متى يحاكمونهم ؟
ماهي معايير محاكمة اللصوص من الحكام ؟
لاشك أنها معادلات يضيق العقل عن فهمها .
وأولئك الذين فى مكان أكبر من المحافظين !
طبقة الوزراء .. ماذا عنها ؟
والذين هم أكبر من الوزراء ؟

وهنا يرتعد القلم ويتوقف عن الكتابة ، فماينبغى لنا أن ندخل قدس الأقداس فى عالم الجريمة والفساد فى بلاد أقل مايقال عن أهلها وسكانها أنهم أقل من النعاج !
وتلاحظ ملاحظة أخرى لاتقل عجباً عن الأولى .
كان المجرمون الأوائل يعذبون المواطنين خلف البوابة السوداء سراً ، ولايسمحون بتسرب الأخبار والتفاصيل عن هذه الجرائم .

واليوم !
قد تطورت الأمور تطورا بعيدا ، وصار مهوى الدرك لايصل إليه أحد .
فالصحف قد ملئت بأخبار المعذبين .

والصور قد نشرت للمساكين وهم مكبلون بالأصفاد ، والسياط علاماتها قاطعة على ظهورهم وجنوبهم .
ويقدم بعض الضباط إلى المحاكمة بتهمة تعذيب المواطنين .
ويقوم بعضهم بضرب المحامين فى قدس المحكمة ، وأمام حضرة القاضى .
ثم يحكم لهم بالبراءة !
لنقص الأدلة !!!
وصارت جميع أقسام الشرطة بلا استثناء تقوم على جلد المواطنين وتعذيبهم ، وتنشر هذه الأخبار ويقرأها الناس .
ولاشيء بعد ذلك !

كانت الإشارة إلى تعذيب مواطن فى صحيفة تقيم الدنيا وتقعدها .

أما اليوم فقد اعتبر الناس هذا عملا عملا عاديا ، أوخبرا لايلتفت إليه ، ولايهتم به أحد ، مثل قيام الرئيس بافتتاح محطة للمجارى،أو كوبرى يهوى ويسقط بعد أن ينصرف الرئيس بأيام .

قد تعود الناس على سماع الجرائم ، ولم يعودوا يستنكرونها .

وهذا والله أمر عظيم !

ومن الملاحظات أن تأتينا الصحف بخبر عن مجموعة من العاطلين أو غير العاطلين قد اختطفوا فتاة واعتدوا عليها ، وتركوها بين الحياة والموت ، ومرة يقولون إنهم طعنوا أخاها أو زوجها بمطواة ، وأخرى يقولون إن الفتاة عمرها عشر سنوات ، وثالثة إنها فى العشرين .

وتتابع الصحف هذا الخبر يوما أو بعض يوم . ثم تنتقل إلى خبر آخر مثيل له .

وفى بداية ظهور هذه الأخبار اهتم الرأى العام بها ، وقامت الصحف بعمل كثير من التحقيقات الصحفية ، وعمل لقاءات مع علماء الاجتماع والقانون ، والذين يفسرون الظاهرة ويبحثون عن طرق تلافيها ، ويقترحون العقاب الصارم الرادع لمن يفعل هذه الجريمة النكراء .

ومع الزمن اعتاد الناس هذا النوع من الأخبار ، وصار أمراً عاديا أن يقرأه الناس كل يوم أو كل يومين ، ويجدونه مكتوبا فى زاوية مهملة من الصحيفة ، وقد لايعلق عليه أحد . ولايستنكره إنسان .

وصارت أخبار اغتصاب الفتيات فى أعمار مختلفة مثل تصريحات رئيس الوزراء أو وزير التموين فى عدم أهميتها وجدواها .

واعتاد الناس المنكر وألفوه ، وصار جزءا من حياتهم اليومية ، يقرءونه ويسمعونه ويرونه ، وأصبحت سمة الحياة فى مصر الجريمة والباطل والاضطهاد والظلم والاستكبار وكل مانعيشه ونحياه هذه الأيام هو الثمرة التى غرسها ورعاها المجرمون الأوائل وتعهدوها بالسقاية والاهتمام ، حتى خرجت إلينا شجرة خبيثة تنبت فى أصل الجحيم ، « طلعها كأنه رءوس الشياطين »

* * *

شروط أساسية للمنصب الكبير

كان الحاكم فى الماضى تعبيراً عن إرادة الأمة بشكل أو بآخر .
وتغيرت الدنيا ، وصار الحاكم تعبيرا عن رفض الناس وكراهيتهم وازدرائهم .
كان أصحاب الحكم فى الماضى لهم كرامة وكبرياء واعتداد بأنفسهم، ومن تمسه شبهة أو أقل من ذلك استقال وترك الحكم ، ويرفض أن يعود حتى بعد ظهور براءته فى يقين لايقبل الشك .
وأصحاب الحكم اليوم على النقيض !
لايحصل على المناصب الكبيرة الا من هو مجرم وضالع فى الكبائر، ولابد له من ملف أسود كريه يخلد صاحبه فى جهنم .

قصة اختيار المدعى الاشتراكى

روى لى المستشار مأمون الهضيبى حكاية اختيار المدعى الاشتراكى الأستاذ عبد السلام حامد ، وهى عجيبة من العجائب ولكنها تتسق مع طبيعة النظام .
كانت الشائعات تتردد حول هذه القصة ، وكان من يعرف تاريخ الأستاذ عبد السلام حامد يستبعد هذه الشائعة ، ويظن أن النظام ليس فى حاجة إلى وضع رجل كان ممثلا للنيابة فى يوم من الأيام ، ويقوم بنفسه على تعذيب المتهمين والشهود ، وليس ثمة ضرورة لهذا .
وفى يوم كان مجلس الشعب مجتمعا ، وعرف المستشار الهضيبى أن الأمر ليس مجرد شائعة، وأنهم ينوون عرض هذا الأمر على المجلس وإقراره فى نفس اليوم . فقام من مجلسه إلى حيث يجلس يوسف والى فى مقدمة الصفوف ، وهو رجل صاحب مناصب كثيرة أغلبها غامض ومجهول ، ومن المعلن فيها أنه نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة منذ زمن بعيد ، وله صفة أخرى فى الحزب الوطنى الحاكم لاأذكرها .
والحزب الوطنى هذا هو خلاصة تجارب أصحاب الملابس الكاكية ومستشاريهم حتى يواكبوا عصر الكمبيوتر ، ويتطوروا مع الزمن .
ومعذرة للاستطراد .
همس مأمون الهضيبى فى أذن يوسف والى :
— هل صحيح أنكم سوف تعرضون اسم عبد السلام حامد لمنصب المدعى الاشتراكى ؟
ورد عليه يوسف والى حذرا فى صلف وبرود :
— نعم .

وقال المستشار :
ــ وهل أجريتم التحريات اللازمة للترشيح لمثل هذا المنصب ؟
وقال يوسف والى فى كبرياء وأنفة :
نحن لانرشح أحدا من فراغ .
ــ كيف ؟
ــ عندنا كافة المعلومات عنه .
ــ هذا غريب والله .
ــ أى شخص يرشح لمنصب كهذا تجمع عنه التقارير من كل أرجاء الأرض ، وتشترك جميع الأجهزة فى صياغة هذا التقارير ، حتى تكون الصورة واضحة .
وانبرى فى تكبر !
ــ هل لك اعتراض عليه ؟
وقال مأمون الهضيبى :
ــ هل تعرف أنه كان يقوم على تعذيب المتهمين فى السجن الحربى عام ١٩٦٥ ؟ .
وبدا الاستنكار على وجه يوسف والى :
ــ لقد كان رئيسا للنيابة .
ــ أعرف .

واعتدل يوسف والى فى جلسته ، وبدا عليه الاهتمام ، ولو أن الموضوع برمته لايعنيه وكأنه أراد أن يعرف أبعاد هذا الكلام وقال :
ــ ياأستاذ مأمون : هذه شائعات وأنت رجل قاض ، وكنت رئيسا للمحكمة ، ومن السهل اتهام رجل شريف بتهمة هو برىء منها ، ولايملك الرد عليها فى نفس الوقت .
وقال له مأمون الهضيبى فى هدوء :
ــ لقد حقق معى شخصيا،وأمر بتعذيبى أثناء التحقيق وتم ذلك ، رغم تنافيه مع كرامة النيابة وكرامة الإنسان نفسه ، ولن تعدموا شخصا آخر يقوم بنفس الدور وعلى نفس الدرجة من الخدمة ، وليس من داع لهذا بالذات .
وظهر القلق على يوسف والى .
قلق ليس مصدره التهم الموجهة إلى المدعى الاشتراكى الأستاذ عبد السلام حامد

فهو يعرفها بالتأكيد ، ويعرف أكثر من ذلك عنه وعن سائر الجالسين .
ولكنه لم يكن يظن أن الأمر مشتهر ومعروف الى هذا الحد ، وهم يحرصون على أشخاص ملفهم فى حرز مصون ماأمكن لايعرف مابه أحد ، وهذه أصول لعبة الحكم والنظام فى مصر .
وتلفت يمنة ويسرة .
ووقفت عيناه على صفوت الشريف وزير الإعلام .
وابتسم ابتسامة ساخرة غامضة ، وعاوده الجد من جديد .
وقلب النظر فى الوجوه .
واستقرت عيناه على من يدعى كمال الشاذلى ، وهو أحد الإفرازات « الكاكية » إن جاز التعبير . وأشار إليه فأسرع نحوه .
وقص عليه ماسمع .
وبعظمة وتعال قال الشاذلى كمال كأنه قد وجد المخرج :
— سيادة المستشار من السهل الكلام ، ولكن هل عندك الدليل على هذا ؟
الدليل هو الحل ، ولو وجد فسوف نسحب ترشيحه .
وسأله المستشار الهضيبى سعيدا لهذه النتيجة :
وهل تستطيعون ذلك ؟
وأنتفخت أوداج الشاذلى كمال إلى غاية مايمكن للأوداج أن تنتفخ ، وقال :
— سوف نطلب من الرئيس أن يسحب الترشيح .
قال الهضيبى :
— رئيس من ؟

— رئيس الجمهورية .. والآن .. عن طريق التليفون .
وكان يتكلم بنبرة عالية وفى ثقة بالغة :
— ولكن لابد من الدليل ياسيادة المستشار ، لايجب أن نلقى التهم على عواهنها
وفى هدوء أخرج مأمون الهضيبى ورقة من جيبه وقدمها لهما :
— هذا هو الدليل .. وثيقة حكومية تدينه بتهمة التعذيب وهو رئيس للنيابة .
واضطرب كل من يوسف والشاذلى وهما يتخاطفان الورقة ليقرءا مافيها ، وقد بدا عليهما الهم والغم ، وصارا يقلبان النظر وكأنه قد أحيط بهما .

وأردف المستشار الهضيبى :

ــ أرجو أن يبلغ أحدكما سيادة رئيس الجمهورية أنه ليس من مصلحته أن يكون عبد السلام حامد مدعيا اشتراكيا وله هذا التاريخ غير المشرف . وأبلغوه أيضا أن لديكم قوائم بمئات يصلحون لمثل هذا المنصب ، ولاتوجد أدلة ضدهم ، ومن الصعب الحصول عليها ، وياليتكم تختارون رجلا نظيفا لهذا المنصب ، ليس ضده أى شيء موثق أو غير موثق .

خرج يوسف والى والشاذلى وثالث من نفس الشجرة ، وعادوا بعد قليل .

قال يوسف للمستشار الهضيبى :

ــ قد طلبنا سحب الترشيح من الرئيس ولكنه رفض .

وتعجب الهضيبى :

ــ رغم ماأخبرتماه عنه ؟

قال أحدهما :

ــ قد تهتز مكانة الرئيس وهيبته لو سحب الترشيح ، ومعناه أنه لايستطيع الحكم على الرجال .

وقال الهضيبى فى دهشة :

ــ لايعيب الرئيس أن يسحب ترشيح عبد السلام حامد من منصب المدعى العام الاشتراكى بعد أن تبين له أنه قد ارتكبها ، وهذا يزيد من قدره أمام الناس .

وقال الذى عنده علم بالنظام :

ــ خلاص .. انتهينا .. الرئيس قرر أن عبد السلام حامد سيكون المدعى الاشتراكى .. ولاراد لقضاء الرئيس .

وكان من قبل يؤكد أنه يستطيع أن يأمر الرئيس بسحب الترشيح فيفعل !

وقال الهضيبى آسفاً :

ــ لاحول ولاقوة إلا بالله .

وقاد معركة شرسة ، وكشف عن تاريخ الأستاذ عبد السلام حامد أمام حضرات النواب المحترمين .

وتم التصويت .

وتم تعيين عبد السلام حامد فى منصب المدعى الاشتراكى رغم أنف مصر .
ربما فات المستشار الهضيبى أنهم كانوا يعرفون عنه ماقاله لهم ، بل يعرفون أكثر وأكثر مما لم يتح لمأمون الهضيبى أن يعرفه .
ولكنه لم يفت عليه أنهم يختارون على علم بما يفعلون ، وأهم صفة لصاحب هذا المنصب الكبير أن يكون له ملف أسود ملىء بالجرائم ، حتى يكون متسقا مع نفسه فى واجب حماية النظام الذى هو جزء منه ، والذى يحرص عليه حرصه على حياته ، فلو سقط هذا النظام فسوف يقدمه أى نظام جديد للمحاكمة .
محاكمة عادلة !
الحكم فيها الإعدام !
وكم هو صعب ومحال أن نجد وطنيا شريفا يجلس فى المنصة العالية . وصارت هذه الظاهرة مما يعرفه رجل الشارع ، ولايملك معها غير الضحك والسخرية .
وكم من كلام عجيب وغريب أسمعه ، ورغم ماأعرف عن النظام وطبيعته ومنهجه فى اختيار السدنة إلا أننى أحيانا لاأستطيع التصديق .

كيف يختارون الوزراء ؟

اختاروا مرة وزيرا لوزارة مهمة .
وعرفت هذا الخبر على مائدة للعشاء فى مطعم بلندن ، وكنا قد عدنا من معرض فرانكفورت للكتاب عام ١٩٨٦ ، وكان الجالسون على المائدة ممن يشتغلون بالثقافة .
وسمعت اسم الوزير للمرة الأولى .
ولم أكن قد سمعت به من قبل .
وسألت الجالسين عنه فأجابتنى الضحكات المجلجلة من معظم الحضور .
وتعجبت وسألت :
ماذا هناك ؟ هل غريب أننى لم أسمع باسم هذا الوزير من قبل ؟ هل هو أول وزير نكرة يأتى إلى الحكم بعد الثورة .؟
وهمس واحد فى أذنى وهو ناشر كبير :
— لانستطيع أن نخبرك بسبب الضحك لوجود سيدات على المائدة .
وامتلأت دهشة وعجبا وأنا أقول :
— وهل للضحك صلة بهذا الوزير الجديد ؟
وعاد الهمس من جديد .
وأخبرنى بما يقال عن ذلك الوزير !

وبالفعل لم أصدق .
ولكن جاءنى الجواب :
ــ أمره أكثر شهرة من أن تصدق أو تكذب .
وصرت أقلب كفاً على كف وأنا أقول :
ــ أنا أعرف أنهم يأتون بمختلس أو جلاد أو .. أو .. ولكن ليس إلى هذا الحد .
وضحك محدثى مجلجلا وهو يقول :
ــ لايوجد حد للاختيار ، ولعل هذا يكون أقل سوءا من اللصوص والجلادين .

وجدت الحق معه .

ووضعت وجهى فى الطبق أزدرد طعامى بلا شهية ، والضحكات والنكات تتعالى وكلها تدور حول الوزير الجديد .

هذه هى مصر المحروسة التى تمكنت منها الشياطين،وأعانهم على ذلك شعب ميت بليد خانع ذليل .

حكاية جمال باشا فوزى

قد يكون الحاكم نذلا ، وهو كذلك فى أغلب الحالات .

وقد يأتى النقائص معتمدا على أن الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت وضيعة ومشينة ، وكم تدور من فظائع وراء الستر والحجب .

حدث أثناء الصراع بين محمد على باشا والسلطان العثمانى أن فوجىء جمال باشا فوزى قائد الأسطول التركى بتعيين خورشيد باشا صدراً أعظم ، وكان على خلاف معه ، والكراهية بينهما شديدة .

وكان جمال باشا يرابط بأسطوله فى أحد الموانى على بحر « إيجة » .

وجاءته الأوامر من الآستانة بالقفول إليها ، فعلم أنه العزل من المنصب .

وكان جمال باشا يرى أن الخلافة العثمانية قد دب فى جسدها السوس ونخر عظامها ، وهى فى حاجة الى دم جديد ورأس قوية تدير هذه الإمبراطورية المترامية الأُطراف ، وكان أمله فى محمد على باشا كبيرا ، ويظن أنه القادر القوى الذى يستطيع أن يغير التاريخ لو جلس على كرسى السلطنة فى الاستانة .

وكانت الدلائل جميعها تشير إلى ذلك وإمكانياته .

فقد استطاع محمد على أن ينشىء جيشا قويا قادرا ، وأن يقيم المصانع فى مصر ،

وعلى الأخص مصانع الذخيرة والسلاح ، وكان مؤهلا لهذا الغرض لو ساعدته الظروف .

فكر جمال باشا فوزى وقدر .

ثم قفل بالأسطول إلى الإسكندرية ، ووضع نفسه تحت تصرف محمد على باشا .

وصار الأسطول المصرى أقوى الأساطيل الموجودة فى البحر المتوسط آنذاك .

ومضت رايات محمد على باشا خفاقة مرفوعة ، حتى فهم الغرب أن وصوله إلى الآستانة خليفة للمسلمين معناه تغير التاريخ ، وأنه يستطيع أن يحشد كل هذه القوى والطاقات لدحر الغرب وهزيمته .

وأجمعوا أمرهم على هزيمته ونجحوا .

واستطاعوا أن يحجموه ويرغموه على قبول معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، وأن يتم الصلح بينه وبين السلطان على ضوئها ، وكسائر المعاهدات التى تبرم كان لها بنود معلنه وأخرى سرية لايعرفها إلا من يهمه الأمر .

والبنود المعلنة قد كتبتها الكتب وأطنبت فى شرحها .

أما البنود السرية فمنها عودة الأسطول التركى ، وتسليم جمال باشا فوزى للعقاب .

وتم عودة الأسطول التركى إلى السلطان .

وأبى محمد على أن يسلم جمال باشا فوزى .

وأصرَّ السلطان على تسليمه ، فبهذا قضت المعاهدة .

وأصرَّ محمد على باشا على الرفض .

وتدخل أهل الخير بينهما للتوفيق .

وجاء وافد السلطان إلى القاهرة ، وقال لمحمد على :

ـــ الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا المأزق هو موت جمال باشا فوزى ، وأنت تعلم أن الموت حق على رقاب العباد .

وأخرج من جبته شيئا لمحمد على وهو يقول :

ـــ هذه قارورة بها شيئا نادر ، ولا يوجد مثله إلا فى خزائن السلاطين والملوك ، ويقينى أنها تفيدك ، فهى تسرع بقدر الله وقضائه .

وانصرف وافد السلطان .

وجلس محمد على باشا يقلب القارورة بين يديه مفكرا ، وكان قد حضر المقابلة أحد خلصائه ، فتقدم منه وتناول القارورة وهو يقول :
ـــ دعنى أعفيك ياسيدى من هذا العناء .
وتركها له محمد على باشا وهو ينظر فى أثره ساهما .

وذهب ذلك الياور إلى قصر جمال باشا فوزى بالقاهرة ، واستأذن فى المثول بين يديه ، وأذن له .
وتحدث معه طويلا عن شجاعته وبلائه وإيمانه بربه ورضاه بقضائه ، وذكره بالموت ، وأن ماعند الله خير مما عند الوالى والسلطان ، وأن الموت هو الراحة الكبرى فى مثل هذه الأيام الكالحة . وأنه من الخير للإنسان أن يأتيه الموت فى بيته بين أهله وخدمه،وفى هدوء وبلا ضجيج .

ثم أخرج القارورة من جيبه ، وصار يقلبها أمام نظر جمال باشا فوزى الذى أدرك مايراد ، بينما أردف الياور وهو يحدق فى عينيه بثبات :
ـــ لو أمرت بصنع القهوة فسوف يكون الأمر سهلا .
وامتقع وجه جمال باشا وأيقن أن لانجاة .
وقال له متلعثما :
ـــ أنا لم أصل العصر بعد
وقال له الياور :
ـــ لسنا على عجلة من أمرنا ، نستطيع السمر حتى صلاة المغرب،ويمكننا أن نصليها جماعة .
وقام جمال باشا فوزى فى هدوء مهدودا وهو يتمتم :
ـــ تكفى صلاة العصر وتقبيل الأولاد .

وعاد بعد برهة ، بعد أن ارتدى أجمل ماعنده من ملابس ، ومن خلفه خادم يحمل فى يده صينية القهوة وعليها فنجانان ، وفتح الياور القارورة وأفرغها فى فنجان جمال باشا فوزى وهو يقول :
ـــ لن يأخذ الأمر أكثر من نصف دقيقة ، والأولاد فى رعاية مولانا الوالى ، وليس هناك من ألم ، سوف ينتهى كل شىء بأسرع مما تظن .

وظهرت من خلف الستر طفلة صغيرة صارت تنظر إلى أبيها الذى تناول القهوة وصار يرشف منها ويردد :

ـــ قسمت .. قسمت .

يقصد أن هذا هو قضاء الله .

وأرسل محمد على باشا إلى السلطان يعتذر إليه عن عدم القدرة على تسليم جمال باشا الذى مات فجأة .

حديث الغاشية

الحاكم النذل يخلق أمة بلا أخلاق ، ويقود شعبا كالنعاج .

الحاكم المستبد هو غاشية تغشى الناس ، تبرز أسوأ مافيهم ، وتقتل كل ماعندهم من ملكات ومواهب .

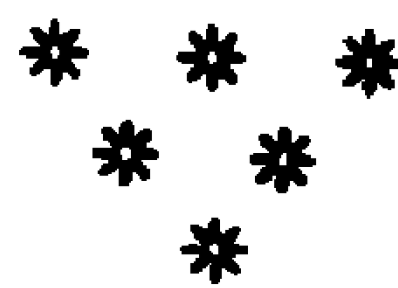
والضرب بالسياط فى المعتقلات يقتل كرامة الإنسان .

وعندما تموت الكرامة فى شعب فذلك أسهل الطرق وأقربها إلى الانحدار ، ونحن فى مصر فى آخر درك ومزلق من الانحطاط،من هول مامر بنا فى ظلمات الاستبداد وفرقعة السياط ، وحكومة لاترحم،وهى فاجرة لاتعرف الله ، ومانحن فيه اليوم هو نتاج العذاب والسيطرة .

عذاب المؤمنين الصادقين فى السجون والمعتقلات .

والسيطرة على الفنانين والفنانات ، والعبث بكل المقدسات ، فى دولة قد غاب الله سبحانه وتعالى عن فكرها وعبدت فردا وقدسته ، وارتكبت فى ساحة معبده كل الموبقات .

وكان حديث الغاشية التى تغشى الناس اليوم بعذابها الأليم .



الفصل الرابع

"وتلك الأيام نداولها بين الناس"

﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين ﴾

آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٠



* كان صيف عام ١٩٥١ فى بلدة شبين القناطر حيث ولدت ونشأت .
وهى تقع على بعد ثلاثين كيلو مترا تقريبا من مدينة القاهرة .

ولم تكن مدينة آنذاك ، بل هى شيىء أشبه بالقرية ، ولكنها ليست كالقرى التى نراها فى ريف مصر هذه الأيام ، حيث المنازل غير المنتظمة ، والروث الذى يملأ الطرقات . ودروب وسكك قد اضطربت ونشأت بين هذه البيوت والبشر والبهائم الذين يسيرون بين الأزقة فى انتظام وتزامل ، ثم يبيتون ليلتهم فى أماكن متجاورة .

كانت فى ذلك الوقت شبيهة بالقرى الإنجليزية ، ويمكن أن يتخيلها من قدر له زيارة الريف الإنجليزى ، بطرقه المستوية النظيفة، وحدائقة المتعددة ، حيث ينعدم التراب كأنه لاوجود له ، والنظافة التى تشمل المكان فى عبق عبقرى .

هكذا كانت شبين القناطر فى ذلك العام !

بلدة نظيفة الطرقات ، وبها عدة حدائق بأماكن مختلفة ، يقوم العاملون على ترتيبها كل صباح ومساء ، وكذلك يفعلون بالطرقات .

وكانت الإدارة تهتم بنظافة البلدة آنذاك اهتماماً فائقا .

وكانت الدوائر الحكومية تقوم على عملهاباهتمام ويقظة، وشعور بالواجب والمسئولية عميق ، وكانوا لايتقاضون الرشوة ، وهو أمر عجيب وغريب ، قد يستغربه ويتعجب منه شباب هذه الأيام التى نعيشها، حيث الفساد الضارب بأطنابه على كل شيىء ، والرشوة التى يتنفسها الموظفون فى مصر ، فهى لهم كالماء والهواء .

فكان مفتش الصحة يقوم بواجبه ومعه موظفوه ومساعدوه ، وهم يمرون على القنوات والمستنقعات التى تقع خارج البلدة حيث يضعون المواد التى تمنع تكاثر البلهارسيا ، وكذلك الرش المستمر للقضاء على الناموس والذباب .

وهم يمرون كل يوم على الأحياء الفقيرة ، وكانت معظم الأحياء فقيرة ولاتزال ، ويقومون بتطهير المنازل من الحشرات الضارة ، وغاية مايأخذونه من أصحاب البيت هو كوب صغير من الشاى .

وكانت هناك وحدة مكافحة الإنكلستوما والأمراض المستوطنة ، وتعمل بجد ونشاط ، وتقدم العلاج المجانى كل يوم .

والمستشفى الأميرى حيث العناية الكبيرة بالمرضى الفقراء، وتقديم العلاج المجانى أيضا ، وكذلك العمليات الجراحية ، وكانت العيادات الخاصة لاتزيد على ثلاث .

* * *

وكانت هناك المدرسة الثانوية حيث تقدم الوجبات الساخنة اليومية للطلاب فى مطعم المدرسة ، وهى مكونة من طبق به خضروات تعلوه قطعة كبيرة من اللحم ، وطبق من الأرز وآخر من السلطة،ورغيفين ، وحلوى أو فاكهة الموسم ، وهذا الطعام يقدم ظهرا ، بالإضافة إلى وجبة باردة بعد الدرس الثانى كل يوم .

وكانت هناك المدرسة الجديدة أو مدرسة « حافظ الفقى » لأنها كانت قصرا لصاحبها،ثم أجرها أولاده للحكومة حينا من الدهر ، حتى استولت عليها حكومة الثورة .

وكانت هناك مدرستان أوَّليتان ، مدرسة مصطفى الجندى الأولية،حيث تعلمت فيها ، وهى تقع على مقربة من ضريح سيدى سعيد . ومدرسة أخرى قد نسيت اسمها ، وتقع فى شارع الفقهاء،الشارع الرئيسى من البلدة ، وكان هذا الشارع مستويا بحجارة البازلت السوداء من أيام المرحوم الخديو إسماعيل ، ثم نزع معظمها لأسباب لاأعرفها فى آخر عهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، وقد زرتها مؤخرا فوجدت آثاراً قليلة منها باقية .

وكان التعليم فى تلك الأيام يبدأ من « الكُتَّاب » حيث يحفظ الطفل ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم على الأقل ، ثم ينتقل إلى المدرسة الأولية فيقضى فيها سنوات ، ثم ينتقل إلى المدرسة الابتدائية ، حيث الشهادة الابتدائية القديمة مفخرة العهد البائد الذى سبق الثورة المباركة .

وكان التلاميذ يتعلمون فى تلك الأيام !

* * *

وكان بالبلدة مركز بوليس حيث المأمور ، تلك الشخصية المهيبة فى البلدة كلها ، وكان هناك الأمباشى والشاويش ، وأى منهما له قيمة كبيرة ، فيكفى ظهوره فى أى مكان حتى يستقر الأمر وينتهى الشغب .

كان الأمباشى أو الشاويش يذهب إلى مكان الحادثة بغير سلاح ، وكان يعامل معاملة من معه جيش كامل ، فقد كان الناس فى تلك الأثناء يحترمون النظام والقانون ويعملون لهما كل حساب ، رغم أن البوليس فى تلك الأيام لم يكن يضرب أحدا أو يعذبه ، ولم يخطر ببال رؤسائه فى ذلك الوقت أن يجرد جيشا للقمع وقتل الأبرياء كما يفعل « الأمن المركزى » هذه الأيام بأوامر وزير الداخلية ، وكان وزير الداخلية

فى تلك الآونة رجلا وطنيا محترما له رأى وتصور ، وتصدر تصرفاته عن مسئولية كاملة ، وكان عفّ اللسان شأنه شأن جميع الوزراء آنذاك .

* * *

ويذكرنى هذا بوزير داخلية حديث ، من الذين أفرزتهم أيام الثورة السوداء ، وأشاعوا عنه أنه كان يتاجر فى الحشيش ، ويعمل على تهريب البضاعة لبيعها للناس ، ثم وضعوه وزيرا ، واتصل به صحفى كبير يتوسط لابن أخته فى دخول كلية الشرطة وهذه الأيام كما تعلمون لايتم فيها شيىء إلا بالواسطة .

وعبر التليفون دار الحديث الآتى :

الصحفى الكبير : إزى صحتك ياسعادة الباشا ؟

الوزير : الحمد لله وانت يا ... بيه ؟

الصحفى الكبير : طول ماأنت بخير أنا بخير ياباشا .

الوزير : تحت أمرك يا .. بيه .

الصحفى الكبير : والله كنت أريد من سعادتك خدمة .

الوزير تحت أمرك يا .. بيه .

الصحفى الكبير : ابن أختى أريد أن ألحقه بكلية الشرطة .

الوزير :: بالتأكيد بالتأكيد .. اعتبره قد التحق بها .

الصحفى الكبير : ربنا يعمر بيتك يامعالى الوزير .

الوزير : وعلى فكرة يا .. بيه .

الصحفى الكبير : تحت أمرك .

الوزير : الواد ابن أختك ده جايب كام مجموع ؟

الصحفى الكبير : خمسين فى المائة يامعالى الوزير .

وجلجلت ضحكة الوزير عالية عبر أسلاك التليفون وقال :

الوزير : يعنى ابن العاهرة عاوز يدخل كلية الشرطة بهذا المجموع ؟

ولم ينطق الصحفى الكبير وأُرتج عليه !

ولكنه ذهب يشكر الوزير بعد أن التحق ابن أخته بكلية الشرطة بعد أيام . ماعلينا من هذا فليس هو موضوعنا .

* * *

في بلدتنا شبين القناطر كان هناك مبنى المحكمة حيث جلس الزعيم مصطفى النحاس باشا قاضيا على منصتها يوما ما .
وكان القاضي يحكم بالعدل ولايرتشي ، ولم يكن لأحد أي سلطان عليه مهما علا ذلك الأحد .

* * *

وكان هناك النادي حيث يجلس فيه الموظفون بعد الظهر لشرب الشاي ولعب البلياردو ، وهي لعبة أدخلها الإنجليز إلى مصر .
نسيت أن أخبركم أن المدرسة كان بها جميع الملاعب لكافة الألعاب المعروفة ، وكان عدد التلاميذ في الفصل لايزيد على عشرين ، ويعرفهم المدرس بالاسم واحدا واحدا ، وفي تلك الأيام كاد المعلم أن يكون رسولا كما قال الشاعر ، فهو محترم من التلاميذ ومن الآباء ومن كل أهل البلدة .
وكان التلاميذ الذين يأخذون دروسا خصوصية يعدون على أصابع اليدين ، وكانت مَعَرَّة ولايفعلها إلا أخيب التلاميذ ، ويحاول أن ينجو منها بسرعة ، ولادخل للمدرس في نجاحه أو رسوبه آخر العام ، بمعنى أن لايعطيه المدرس نموذج الامتحان فيدخل وهو يعرف طبيعة الأسئلة أو نصها .

كان المدرس محترما جدا !
وكان التلاميذ يذاكرون ويجدون .

* * *

وكانت هناك محطة القطار الذي يغادر إلى القاهرة كل ساعة ، ويصل في موعده بالتمام ويغادر في الوقت المحدد له دون أن يتغير ذلك أبداً ، وكانت العربات جميلة وأنيقة ، والكراسي مكسوة بالجلد الفاخر في الدرجة الأولى والثانية ، وكان الركاب يجلسون على الكراسي في سفرهم ، ولا تجد واقفا أبداً .
وكنا نذهب للنزهة إلى محطة القطار لجمالها وأناقتها وحسن تنسيقها ، والورود التي كانت تحيط بها من كل جانب تأخذ اللب وتبعث البهجة في النفوس .
وكان قضيب السكة الحديد يفصل مابين البلدة والحقول المترامية المتناسقة التي لايصل البصر إلى مداها مع الخضرة الغامرة ، وتغريد الطيور الذي لاينتهي .

وكنا نخرج الى هذه الحقول للمذاكرة والقراءة أيام الخريف والربيع،حيث الهواء النقى والنسيم العليل كما يقول الأدباء .

* * *

وكان التعليم لكل الأولاد لافرق بين صغيرهم وكبيرهم ، وكان هناك مايسمى بالتعليم الإلزامى ، وهو يفرض التعليم على الأطفال لسن معينة ، ويعاقب ولى الأمر الذى لايلحق ابنه بهذه المدرسة .

وكان يجلس فى الفصل الواحد جميع التلاميذ:ابن المأمور وابن الخفير .

ولم نكن نسمع فى تلك الأيام عن المدارس الخاصة ، وربما لم تكن قد نشأت بعد .

وكان الناس يعرف بعضهم بعضا ، ويتزاورون فى المآتم والأفراح ، ويجامل بعضهم بعضا فى كافة المناسبات ، ويجلسون لفض الخلاف فى بيت أحد الكبراء أو العقلاء ، ولايذهبون إلى البوليس والشرطة إلا فيما قلَّ وندر .

هكذا كانت الحياة فى بلدتى قبل الثورة المباركة !

وقد يظن البعض أننى أبالغ فى الوصف ، ولكنها الحقيقة التى وعيتها طفلا ثم تأملت فيها رجلا بعد مضى السنين .

هذه هى الصورة البهيجة لبلدتى فى ذلك الزمن .

* * *

والصورة القاتمة كانت تتمثل فى الفقر الذى كان يشمل قطاعا كبيرا منها ، وقد تضاعف حجمه فى هذه الأيام التى نعيشها حتى صار أغلب الناس فقراء . فقد كنا نرى صوراً للفقر أيامها وندعو الله أن تنتهى يوما ، ثم جاءت الثورة وازداد عددهم ، وهاهى ذى الثورة تقترب من نهايتها،ولكن بعد أن حولت معظم الناس إلى مساكين لايستطيعون الوفاء بالتزاماتهم اليومية أمام أنفسهم .

كنا ننعى القذارة التى نراها فى بلدتنا فى بعض الأحيان ، وكان يحدها من الشرق والغرب ترعتان لتصريف المياه ورى الأرض ، وكان بعض الفقراء يرسلون نساءهم لغسل الملابس هناك على الشاطىء ، وكنا نعد هذا من القذارة ، ثم رأينا ماحدث

بعد ذلك بسنين طويلة ، وكيف تحولت تلك البلدة إلى مدينة تموج بالقذارة بكافة أنواعها ، فقد ألغيت الحدائق تماما ، وأقيمت مكانها المبانى غير المستوية والمحلات والمتاجر ، واختلط الروث مع البشر مع « مياه المجارى » حيث تضع البائعات خضرواتهن أو «جبنهن» فى وعاء من « الخوص » على الأرض وقد نفذت إليه هذه المياه القذرة ، والناس يرون هذا بأعينهم ويشمونه بأنوفهم ، ثم يشترونه ويأكلونه بأفواههم ، ولايملكون لهذا البلاء رداً أو تعديلاً .

فالفقر والجهل والمرض والقذارة والتخلف أمور نسبية بطبيعة الحال .

كنا فى تلك الأيام نرى أنفسنا فقراء رغم ماوصفت ، وكنا نعلم أننا جهلاء ولايقدر أحد على أخذ حظه من التعليم ، وكنا نرى المرض يستشرى بين الناس ، ثم مرت السنون وعلمنا أن ماحلمنا بتغييره لانحلم الآن بالعودة إليه .

ولات حيـن منـاص !

* * *

كان غاية الظلم فى بلدتى آنذاك أن يرسل المأمور جنديا من جنوده ليشترى الزبدة حسب التسعيرة ، وكنا نرى هذا ظلما ومقتا واستكبارا فى الأرض .

واليوم أسمع عن مركز البوليس فى بلدتى شبين القناطر أن الناس يساقون إلى هناك حيث يضربون ضرباً شديداً موجعاً ، ومنهم من مات من هذا الضرب ، والناس فى بلدتى صاروا كالخنازير لايحسون ولايغضبون،وهم كغيرهم فى بلاد مصر .

ويأخذون القتيل ويغسلونه ويصلون عليه فى الجامع الكبير ، ثم ينصبون سرادقا حيث يجلس الشيخ عبد العاطى ناصف ليقرأ القرآن ، وقد يأتى القاتل ومعه المأمور للعزاء ، وقد يفرح بهذا أهل القتيل ، ويتحدثون عن الواقعة بفخر واعتزاز ، وكيف أن المأمور بنفسه قد حضر للعزاء .

ويسمعون القرآن ويتمايلون يمينا ويسارا،وينفض الحفل ، وصاحبنا ملقى فى المقابر يأكله الدود ولاينتقم له إنسان ، ثم ينسى الناس قصته بعد حين .

وهذه هى بلدتى مثل كل بلاد مصر، قد حلت بها اللعنة ونزلت بها النقمة ، فهى عبرة ومثل للمكذبين .

كان الأمن والنظام مستتبا فى بلدتى فى تلك الأيام .
وكان الخروج على القانون أمرا نادرا غير ملحوظ ، ومن يفعل فهو يحاسب .
وكانت داوريات الشرطة على الخيل تجوب البلدة بالليل ، وتخرج أيضا إلى الطرقات المتصلة بها فى القرى المجاورة .
واليوم آلاف الأحكام بالسجن والغرامة ولايتم تنفيذها !

وليس من مصلحة الشرطة أن ينفذ المجرم هذه الأحكام ، فكل مرة يذهب المخبر لتنفيذ أمر الضبط والإحضار يتقاضى من المجرم مبلغاً يتراوح بين عشرة جنيهات وخمسين جنيها ، فمن مصلحة الشرطة ألا يتم القبض على هذا المجرم ، فالقبض عليه يعنى انقطاع هذا المورد ، ولاشك أن المخبر يقتسمه مع آخرين على أكتافهم النجوم والنسور والكلاب .

كانت الشرطة فى بلدتى عندما كنت طفلا فى خدمة الناس ، فهى تحميهم وتحقق الأمن وتفض مشاكلهم ، وصارت اليوم مارداً جباراً مخيفاً،يقتل ويسرق ويهتك الأعراض .
كان المأمور عندما كنت طفلاً رجلا مهيبا يخشاه الجميع ، ولكنه رجل طيب لايرتكب الجرائم ، وماينبغى له أن يفعل .
والمأمور اليوم يرسل وارده كل نهار إلى التجار ، إما لأخذ الطعام الحرام دون أن يدفع ثمنه ، أو الجزية التى يفرضها على المحلات والدكاكين ، والكل يدفع خوفا من تلفيق القضايا،والضرب والتعذيب حتى الموت ، ثم يأتى وكيل النيابة ويزيف محضرا لينجو القاتل من حملة النجوم والنسور والكلاب على أكتافهم .

وعندما كنت طفلا كان وكيل النيابة رجلا فاضلا ليست له صداقات ، وينعزل عن الناس ليظل محايدا طول الوقت ، وهو يعيش تحت سلطة ضميره الذى يقوده إلى الصواب دائما .
أما اليوم فهو يشارك فى السهرات الماجنة بالليل ، حيث الخمر والميسر وماتيسر من النساء ، وكذلك يفعل القاضى .
والناس يدورون فى دوامة من البلادة والبلاهة وهم كالبهائم والخنازير .

* * *

كان مجتمع البلدة فى ذلك الوقت من صيف عام ١٩٥١ يتكون من شرائح مختلفة :
كبار الموظفين . ويندرج تحت هذا الاسم المأمور ومعاون المباحث والضباط ووكيل النيابة والقاضى وسكرتير المجلس البلدى ونظار المدارس ومفتش الصحة وأطباء المستشفى الأميرى ، ورئيس بنك التسليف الزراعى .
وصغار الموظفين . وهم الذين يعملون تحت إمرة السابقين .

وهاتان الشريحتان تتداخلان ، ولايوجد حد فاصل دقيق بينهما ، ويتم هذا التداخل من خلال العمل وطبيعته ، واتصال التلاميذ بعضهم ببعض فى فصول المدارس المختلفة .

وتلحق بهما شريحة أخرى أو تسبقهما وتتداخل معهما أيضا .

هذه الشريحة تتمثل فى الأعيان ، من أصحاب الأراضى الزراعية والتجار ، أو إن شئنا أن نكون أكثر تحديدا فإننا نقول كبار التجار ، وهؤلاء فى بلد صغير مثل بلدتى لم يكونوا كباراً على النحو الذى نراه اليوم ، بل يمكن القول إنهم تجار الجملة فى البقالة والخضروات والفواكه وغيرها من المحاصيل .

ثم طبقة العمال وصغار الحرفيين،أولئك الذين يعملون لدى أصحاب المتاجر والحوانيت ، وكان هؤلاء يمثلون قطاعا كبيراً فى البلدة .

ومن خلال طبقة صغار الموظفين كان مدرسو المدارس الإلزامية ، وهى تعد بحق أهم شريحة فى البلدة ، وهى التى تمثل القيادة الفكرية ، ولها شعبية ونفوذ فى سائر أنحاء البلدة .

وكان هناك فى تلك الأثناء عالم من علماء الأزهر ، يطلقون عليه الشيخ على الواعظ،ولا أذكر وظيفته على وجه التحديد ، وغاية ماأذكره أنه كان ملتحيا،ويصادق كبار الناس فى البلدة ، ولايختلط بصغارهم .

أما الزعامة الدينية فقد كانت للشيخ محمد العروسى مأذون البلدة ، حيث كان درسه اليومى بين صلاة المغرب والعشاء .

وكان يجلس إليه بعض الصالحين من صغار الموظفين والتجار والعمال ، وكان يحضر إليه أيضا بعض الطلبة .

وكان يخطب فى جامع « المعلويين » الشيخ عبد الباسط فواز ، ثم ورثه ابنه الشيخ أحمد عبد الباسط .

وكان هناك أيضا الشيخ يس وكان كفيف البصر ، له خطبة مشوقة تشد الانتباه ، وهو يشبه الشيخ عبد الحميد كشك فى طريقة خطابته .
وعلى وجه عام لم يكن للعلماء نفوذ يذكر فى بلدتنا ، ولكن يرحب بهم فى الولائم والاحتفالات .

* * *

وكانت هناك طبقة يسمونها « الفقهاء » وهى لاتعنى المدلول الذى نعرفه ، ولكنهم قوم قد حفظوا القرآن الكريم ، وهم يقرءونه على المقابر أيام الخميس ، حيث يذهب الناس زرافات ووحداناً لزيارة الموتى ، ويتقاضون أجراً زهيداً على هذا هو مليمات ، وهى عملة لم يعد لها وجود فعلى فى عالم اليوم ، ولكن كانت لها قوة شرائية فى تلك الأثناء ، أو يكون الأجر رغيفا من الخبز المتواضع المصنوع من دقيق الذرة .
ومن يترق من هؤلاء « الفقهاء » فهو يعمل خادما فى مسجد ، حيث يؤذن للصلاة فى وقتها ، أو يفتح كتّابا يحفظ فيه الأطفال القرآن ، أو يقرأه على الناس على مُكث فى المآتم والمناسبات .
ولم يكن أغلب أهل هذه الطبقة بأصحاب دين ، وربما كان منهم من لايقيم الصلاة ، وكان الناس يعرفون هذا ويسخرون منهم .
وتبقى فئة لم نذكرها ، ولعلها كانت أهم فئة فى البلدة آنذاك .
طلبة الجامعات والمدارس الثانوية ، وهم الذين كانوا طلائع البلدة ومثقفيها . وأصحاب التوجهات الثورية والسياسية .
ولم يكن فى بلدتنا شيوعى واحد !
ولم يكن فيها من ينكر الدين ويلحد فى ربه !
كان بالبلدة كثير من العصاة ، ولكنهم مؤمنون فى ضمائرهم وقلوبهم ، ويظهر هذا فى كلامهم وأحاديثهم .

* * *

وكنا عند ذهابنا الى المدرسة صباحا عن طريق القنطرة ، حيث نفق يمر من تحته الناس والعربات ويمر القطار من أعلاه ، نرى لافتة كبيرة قد كتب عليها بخط جميل باللون الأبيض ، بينما اللافتة قد طليت بالأسود .

« عمر عبد الفتاح التلمسانى »
« المحامى بالاستئناف العالى ومجلس الدولة »
وكان هذا الرجل العظيم من أبناء بلدتى ، وقد قُدِّر له أن يكون المرشد الثالث لجماعة الإخوان المسلمين ، بعد وفاة المرشد الثانى المرحوم حسن الهضيبى ، وهو أيضا من قرية تتبع بلدتى إداريا ، هى عرب الصوالحة مركز شبين القناطر .
والغريب المثير للدهشة أن الناس كانوا فى ذلك الوقت متحزِّبين ، كل ينتمى إلى حزب من الأحزاب السياسية التى كانت موجودة مثل الوفد والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى الأصلى ، وكان كل من ينتمى إلى حزب من الأحزاب يدافع عنه ويتبنى قضاياه ، ولايتهاون فى سبيله ، ويضحى بكل رخيص وغال من أجل فوز هذا الحزب وتفوقه .

وكانت هناك فى ذلك الوقت طائفة تتبع حزب الحكومة ، وهى الآن نفسها أو أبناؤها اليوم هم أتباع الحزب الوطنى ، ليس ذلك الذى أنشاه مصطفى كامل ، ولكن ذلك الحديث الذى أنشاه المهرجون والمطبلون وأولاد الأفاعى على أنقاض هيئة التحرير والاتحاد القومى والاشتراكى والمنابر فحزب مصر .

* * *

وكما كان ببلدتى عدد من الأقباط يعملون فى صناعة الذهب وهم « الصاغة » وكان منهم الخواجه « إدوارد » والخواجة « نصيف وهبة » .
وكانت هناك كنيسة فى قرية على بعد كيلو متر واحد من بلدتى هى (المنية) وكان راعيها الأب شنوده ثم مات وجاء من بعده الأب مينا .
وكان التعايش السلمى بين الأقباط والمسلمين .
وأمام المدرسة الثانوية كانت تقع « ارسالية التبشير المسيحية » ويقوم عليها الإنجليز البروتستانت وبها مستشفى كبير ، وكانت التذكرة ثمنها قرشان ، ويدخل المريض ويعالج وتجرى له الجراحة ، وربما يتبقى له شيء من القرشين وهو خارج ، ورغم هذا لم يتنصر أحد أبدا .
وكان الأقباط يكرهون هذه الإرسالية لاختلاف المذهبين .
وكان الأقباط يحتكرون بعض الأنشطة الهامة فى البلدة .
فالصيدلية الوحيدة فى ذلك الوقت كانت « أجزاخانة وديع »

وبعد ذلك بسنوات قامت صيدلية أخرى هى « أجزاخانة السلام » لصاحبها الدكتور فايز بشاى ، وكان شابا صغيرا ، ولكنه كان مبشرا متحمسا لدينه ، ولايترك فرصة دون الحديث عن الخطيئة والخلاص والمحبة وسائر المقولات المسيحية .

وكان جميع مدرسى اللغة الإنجليزية من الأقباط .

وكذلك كان معظم مدرسي الحساب والرياضة .

وكان كل الصرافين من الأقباط .

كنت تجدهم يحتلون أماكن عجيبة وغريبة فى مجتمع بلدتنا ، ولكن كانت العلاقات بينهم وبين المسلمين طيبة طول الوقت ، ولأذكر حادثة واحدة قد حدثت يفهم منها أن هذه العلاقة ليست على مايرام .

وكان يستذكر الدروس معى فى البيت زميل اسمه « فائق مسيحه عبده » لاأدرى أين هو الآن ، وكان أبوه يعمل صرافا فيما يسمى « بنك ريتشو » ، وريتشو هذا كان من أكبر تجار القطن فى البلاد آنذاك .

وكانت عائلة « فائق » زميلى هذا متدينة إلى أبعد الحدود ، وأسرته مكونة من الأب والأم وأربع بنات وصبى آخر ، وكانوا يذهبون إلى الكنيسة بانتظام،ثم إلى مايسمى بمدارس الأحد ، حيث النشاط الرياضى والتثقيفى .

وقد صنع الإخوان المسلمون مدارس الجمعة على هذا الغرار عندما نشطوا بعد محنتهم الأولى من جديد ، وكانت هذه المدارس ــ مدارس الجمعة ــ تحت إشراف الأخ حسن عيسى عبد الظاهر الطالب بالأزهر ، والذى قدر له أن يكون بعد ذلك الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر الأستاذ بجامعة قطر الآن .

* * *

كانت « الخمارة » الوحيدة فى البلدة للخواجة « ينى » وهو يونانى أقام فى شبين القناطر، وفتح محلا للبقالة ، يبيع فيه الخمر أمام قهوة « عسر » وقد انتهت معالمها الآن ، وكانت تقع فى ميدان المحطة .

ثم اتفق الخواجة « ينى » وأعد دارا للسينما مع بعض اليهود فى القاهرة ، وكان يوم افتتاحها يوما مشهودا ، فقد اجتمع الناس الذين لم يجدوا تذاكر للدخول خارج

دار السينما ، وكانوا قد جاءوا من القرى المجاورة ليروا هذه العجيبة ، وكلما أتذكر هذا اليوم أتذكر معه عبارة الإمام الشهيد حسن البنا : « ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ، ولكن غالبوها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض » هذه العبارة الفريدة لأولئك الذين يحرمون السينما والتليفزيون وأدوات الفن المختلفة من ناحية المبدأ ، وكان أولى بهم وأجدر أن يحرموا ما يقدم من خلالها إن كان حراما ، ويحلوا ما يقدم فيها إن كان حلالا .

فلو رأيت الناس وهم يملئون المكان خارج السينما وفى وجوههم بهجة ودهشة لفهمت النفس البشرية ، وكيف هى مولعة بكل عجيب وغريب .

ومما يستدعى التذكر أيضا أن الأفلام التى كانت تعرضها « سينما بنى » وهى الأفلام المصرية القديمة كانت كلها تحض على مكارم الأخلاق وتدعو إلى الفضيلة ، ولم تعد كذلك الآن بطبيعة الحال .

وأذكر يوم عرض فيلم « ظهور الإسلام » فى هذه السينما وكيف ملئت القاعة لحافتها ولم يعد هناك جالس وواقف ، بل هى كتلة بشرية قد اجتمعت منقطعة الأنفاس فى انبهار شديد ، وكأنهم يرون الإسلام فى أيامه الاولى ، رغم رداءة التمثيل وضعف الأدوات فى ذلك الوقت ، ولكن كان جمهور المتفرجين فى هذا اليوم ، وكنت معهم يكبرون ويهللون وينفعلون مع المواقف ، وظل الفيلم حديث الناس زمنا طويلا ، وكانت عربات « الكشرى » تقف على مقربة من دار السينما تبيع للرواد .

وكذلك عربات الترمس والكبدةالمقلية واللب والفول السودانى .

ولنجاح هذه السينما وتأثيرها فى مجتمع بلدتى الصغير ، حيث كان جميع الناس يرتادونها ، وأذكر بعض الذين كانوا يذهبون كل ليلة ليروا نفس الفيلم ، كان الشيخ يس يخطب خطبته على هيئة فيلم ، بمعني أنه يبدأ الخطبة فيقول :

– سوف نعرض لكم اليوم فيلما هو آدم وحواء . .

ويمضى فى الخطبة كأنه يحكى قصة فيلم ، وكيف خلق الله سبحانه وتعالى آدم ومن

بعد حواء وخطيئتهما ، وكيف جرت الأمور كما يرويها القرآن الكريم ، وهذا لشدة انجذاب الناس للسينما فى ذلك الوقت .

* * *

وكان عدد أجهزة الراديو فى بلدتى محددا جدا ، والذين يحوزونه فى بيوتهم يشار إليهم بالبنان .

وأذكر يوم اشترى والدى رحمه الله جهاز راديو ، اجتمع كل أهل الحى يستمعون إلى نشرة الأخبار وهم فى ذهول من تكلم الحديد ، والبعض منهم يدور حول الجهاز يحاول أن يفهم سر هذا الكلام الذى يسمعه وكيف يصدر من هذا الصندوق ، وأذكر أن ثمن هذا الجهاز وهو من ماركة « فيلبس » كان واحدا وعشرين جنيها تدفع بالتقسيط المريح على حين من الدهر ، وكان يوجد مايسمى بالراديو بسماعات ، وهو عبارة عن « ايريال » هوائى ينصب فوق أسطح المنازل ، وينزل السلك إلى سماعات هى من مخلفات الجيش الإنجليزى ، وعبر إبرة تنتقل على قطعة من « الكحل » يمكن التقاط بعض الموجات الإذاعية .

وكان راديو السماعات هذا له أيضا انتشار محدود .

وكانت الإذاعة المصرية فى ذلك الوقت على بساطتها وقلة ساعات إرسالها تقدم مادة جيدة للمستمع ، وكان كبار الكتاب مثل عباس العقاد ومثل طه حسين وغيرهما يلقون الأحاديث اليومية ، وكانت جادة ولاتقدم إلا ماهو مفيد للناس ، بالإضافة إلى برامج الترفيه البريئة التى لاتسىء،ورغم ذلك كنا نسمع بعض المتنطعين من المشايخ يقول إنها حرام .

ولله فى خلقه شئون !

ولست أدرى السند الذى اعتمدوه فى تحريم الراديو فى ذلك الوقت ، ولا أفهم لماذا ينشغل هؤلاء الناس بتسفيه كل ما هو جديد بغض النظر عن فائدته أو

عدم فائدته . ولعلها طبيعة فى الناس ، فعندما يتدنى المجتمع لا يفكر علماؤه إلا فى التوافه من الأمور ، ولا يتشغلون إلا بما هو هزيل وسخيف ، ولعلنا لم نسمع فتوى واحدة يقول فيها صاحبها فى ذلك الوقت إن قبول الاحتلال الانجليزى حرام ويجب مقاومتهم بكل طريقة ووسيلة ، وإن من يقتل فى سبيل ذلك فهو شهيد .

وإنى أذكر هنا عندما دخل « الحبر » المستورد إلى اليمن ، كيف اختلف العلماء حوله ، هل هو حرام أم حلال ؟ ذلك أن بالحبر مادة « الكحول » وهى مسكرة .

وقد قال أحد الظرفاء معلقا — ولم يكن عالما — إن شربه حرام والكتابة به حلال ، وقال : لاأعرف عاقلا يشرب الحبر .

والذى يثير الحسرة أن علماء الإسلام فى العصر الحديث ، وأقصد بهؤلاء فقهاء السلطان الذين يحلون ويحرمون حسب مزاج الحكومة وطلبها لايتماشون مع أى عصر ، رغم عدم انضباطهم وانعدام ورعهم ، وهم متخلفون ثلاثمائة عام عن أى نقطة زمنية يعيشون فيها .

وهذا من علامات عصر الانحطاط والجهل والتبعية .

ولعل السبب فى تشددهم فى المسائل التافهة ، هو تسيبهم فى الأمور الكبيرة .

فهم يرتكبون الكبائر والمنكرات بموافقتهم ورضاهم على الظلم وبعد الحكومات عن الدين . ثم يثرثرون بعدها فيما لايفيد .

وماأبلغ كلمة المسيح : « ويل لكم أيها القادة العميان الذين يغصون بالبعوضة ويبلعون الجمل » .

وكان يخاطب الكهنة من بنى اسرائيل ، وماأشبه كهنة اليوم بهم .

وهم فى هذه الأيام نسوا الراديو ، وكانوا قد انشغلوا بعده بالتليفزيون ، ثم نسوه هو الآخر، وصاروا يتكلمون فى الأفلام الرخيصة التى استجدت وصارت تملأ الدنيا كلها ، ومن يدرى ماذا يكون من أمرهم .

ومعذرة للاستطراد .

* * *

وأنا هنا لاأكتب مذكرات ،ولكنى أحاول أن أنقل تجربة عشتها ، عسى أن يقرأها من يستفيد منها ، ونحن من خلالها نستعرض كيف سارت الأمور .

كان الناس فى بلدتى يخافون الحكومة ويهابونها فى تلك الأيام .

رغم الحرية والديمقراطية التى كانت مناخا طبيعيا يعيشه الشعب ، وهم يخافونها ويهابونها طول الوقت .

ولكنهم مستذلون مستضعفون مهانون من جميع الحكام حسبما رأيت وشاهدت فهناك من الحكام من يضربهم بالحذاء ، وهناك من يضربهم بالقبقاب أو « الشبشب » وهم مضروبون على جميع الأحوال والأوضاع .

ورغم هذا فقد كان مجتمع بلدتى أكثر نضجا ووعيا منه فى هذه الأيام !

وأذكر يوما زرت فيه أحد أقاربى ، وكنت قد تركت البلدة منذ زمن واعتذر لعدم استطاعته تقديم الشاى لى لعدم وجود ماء ، وقال إن المياه والكهرباء قد انقطعتا عن المدينة منذ عشرين يوما .

وتعجبت يومها وسألته :

ـــ وماذا فعل الناس ؟

ـــ ونظر إلى فى عجب واستغراب وقال :

ـــ لم يفعلوا شيئا ؟

إلى هذا الحد من السلبية والهوان صار الناس !

* * *

وكان أكثر الأحياء شهرة فى بلدتى حى « القيسارية » وبها محلات البقالة و« مسمط » وبعض الترزية الذين يفصلون الملابس الإفرنجية ، أو أولئك الذين يصنعون الجلاليب والبيجامات .

وربما تعود كلمة « القيسارية » هذه إلى قرون بعيدة أيام حكم الرومان ، فكل بلد به حى بهذا الاسم ، وبه المحلات التجارية .

و « القيسارية » هى « القيصرية » وتنسب الى قيصر الذى كان يحكم البلاد ، وعلى مقربة من هذا الحى فى بلدتى كان « مصنع حلج الأقطان » المصنع الوحيد آنذاك ، ثم أغلق فى عهد الثورة المباركة بعد أن تم التأميم ، مع سائر ماأغلق من مصانع لم يجدوا لها مديرا أو لم يهتموا بها ، أو لسبب آخر لاأعلمه .

وقد زرت المدينة بعد ذلك فوجدتهم قد هدموه وأقاموا مكانه مساكن ، دفع فيها المقاول رشوة لمجلس المدينة ، فهى تنقض على رءوس ساكنيها المساكين ، أو ربما تكون قد انقضت بالفعل عندما يصل إليك هذا الكتاب .

وكان هناك حى « الجبسة » و هو يقع على حدود البلدة الجنوبية الشرقية على مقربة من المقابر حيث الطريق إلى كفر حمزة فالقاهرة ، أو الذى يسمى طريق المعاهدة ، وسمى هذا الطريق المتقدمون فى السن اسم « الخليج » لأن كانه يمر خليج أمير المؤمنين ، وهو الاسم الذى أختاره عمرو بن العاص على الترعة التى تصل النيل بالبحر الاحمر .

ومن الواضح أن إطلاق أسماء الرؤساء أو الملوك على المشروعات التى تقام تقليد مصرى قديم قد جرى عليه المسلمون عندما فتحوا البلاد .

وقبل الدخول إلى طريق كفر حمزة بعد المرور على مقابر البلدة نجد مايسمى « بتل اليهودية » وهى أنقاض مدينة « رعمسيس » التى بناها رمسيس الثانى والمظنون أنه فرعون موسى عليه السلام .

وحسب النظرية التى تقول إن الطرق الرئيسية فى أغلبها طرق قديمة الإنشاء فإننا نتصور أن هذا الطريق هو نفسه الذى سلكه بنو إسرائيل خلف موسى وهم يخرجون من مصر حسب القصة المشهورة التى رواها القرآن الكريم .

وكان فى بلدتنا أحياء أخرى كثيرة مشتهرة فى ذلك الحين ، وهى تنسب إلى الأماكن أو العائلات ، مما يؤكدأن هذه العائلات كلها من أصل عربى قدم مع جيوش الفتح الإسلامى ، فالعرب وحدهم هم الذين يتمركزون فى أماكن مع أسرهم وذويهم فهناك « الصوافين » و « الحبابية » و « الوكلاء » و « الشعالنة » و « الخِوَلَة » ، و « الطنانية » وكلها أسماء عائلات وأسماء أحياء فى الوقت نفسه .

وأحيانا ماكانت تحدث بعض الخلافات بين فردين من عائلتين مختلفتين ويخرجون للشجار والقتال ، ويخرج رؤساء العائلات الأخرى للحجز بين المتشاجرين ، وهو أيضا تقليد عربى قديم .

وكانت أقوى العائلات وأغناها فى بلدنا آنذاك هى عائلة الفقى ، ومن هذه العائلة كانت أمى يرحمها الله .

وهناك قصة سمعتها وأنا طفل صغير وهى أن جد أمى ، وكان كبير البلدة قد التقى بعرابى باشا وهو عائد منهزم من معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ أمام الإنجليز ،، وقد أكرم جدى هذا وفادته ، وطلب عرابى منه أن يهدم قنطرتين على الترع التى تدور حول البلدة حتى يعوق تقدم الجيش الإنجليزى إلى القاهرة .

وانصرف عرابى بعد أن حدثه جدى حديثا طيبا ووعده بفعل مايمكن ، وبعد ذهابه قال جدى لمن حوله :

ــ هذا الرجل لايفهم فى العسكرية والقتال . لقد عاد بشرذمة قليلة من الضباط على الخيل ، وانتهى الجيش المصرى ، وهل يمنع تدمير القنطرتين من احتلال مصر ؟ لقد تحققت الهزيمة وتم الاحتلال ، ولن نخسر غير تكلفة القنطرتين عندما يأتى الإنجليز بعد يومين أو ثلاثة ، ويجبروننا بقوة السلاح على بناء القنطرتين من جديد ، ويجمعون التكلفة من الفلاحين .

ولاأدرى هل كان جدى محقا فى رأيه هذا أم لا ، فكل حادثة فى هذا الكون تخضع لملابساتها الخاصة .

وكان أغلب أصحاب الحرف يتجمعون أيضا فى حارات أو أحياء خاصة بهم فهناك « الجزماتية » « والحدادين » و « النجارين » و « العطارين » وغيرهم .

وبطبيعة الحال قد تغير كل هذا الآن،واختلط الحابل بالنابل وصارت المدينة كما قلت خلطة عجيبة من الحيوانات والبيوت والبشر ، وتراها لو قدر لك من طائرة هليوكوبتر ذات شكل عجيب من خلال هذا الزحام .

* * *

كانت قوة البوليس قليلة العدد ولكنها تحمى الأمن والنظام .

كان عمال البلدية لايتجاوزون العشرين ولكن النظافة هى الطابع العام ، فهم يخرجون

قبل الشمس لكنس الشوارع ورشها بالماء ، ويخرج كل بستانى مسئول عن حديقة ليهتم بها ويرعى شئونها .

كانت المدارس قليلة،ولكنها منضبطة ومنظمة ، وتعلم التلاميذ .

وكان كل شيىء على أتم مايرام ، ولكنه لم يكن يعجب أحدا ، وكان الكل يفكر فى الثورة وتغيير النظام .

كانت البيوت منتجة ، ففيها البهائم حيث اللبن والزبد والجبن ، وفيها الدجاج حيث البيض ، وقد اختفى هذا الإنتاج الآن وصارت مدينة مستهلكة يستورد لها الطعام ويباع فى المجمعات الأستهلاكية،حيث الرشوة والواسطة للحصول على ماتريد ، فالذى يُعْرض لايكفى كل المستهلكين .

وكان الناس فقراء ولكنهم كانوا شرفاء أيضا !

وكانت القاهرة شيئا بعيدا لايذهب إليها أحد إلا فى القليل النادر ، فكل شيىء متوفر فى البلدة ، ولايذهب إلى القاهرة إلا عدد قليل من الطلبة الذين يدرسون فى الجامعة ، وبعض الموظفين . أما باقى الناس فلم تكن هناك ثمة ضرورة تحتم عليهم الذهاب .

وكان هناك شخصان يقومان بالسفر كل يوم إلى القاهرة ، ويسمى كل واحد منهما(الأبونيه) ومهمته أن يشترى الأشياء التى يحتاجها الناس من القاهرة ، وهم يأتون إلى داره حيث يوزعها عليهم فى المساء نظير رسم صغير محدود ، هو أقل بالتأكيد من أجرة التذكرة للمسافر إلى القاهرة .

وكنا نذهب إلى القاهرة كتلاميذ فى رحلة نشاهد فيها حديقة الحيوان،تلك الحديقة التى أقامها الخديو إسماعيل وصنع لها سوراً لايزال قائما ، ولايمكن لجهة أخرى فى مصر اليوم أن تقوم بإنشاء سور مثله مهما بلغت قوتها وخبرتها،فقد تغير نوع البشر .

أو نذهب فى الرحلة لزيارة المتحف المصرى والمتاحف الأخرى،وكذلك الأهرام والقناطر .

وكنا نذهب بقطارالمرج إلى الزيتون فى الإجازات لزيارة مكتبة الزيتون ونمكث وقتاً فى المطالعة ، ولاأعرف مصير هذه المكتبة الآن ، ولما كبرنا فى السن قليلاً كنا نذهب إلى دار الكتب فى باب الخلق بالقاهرة ، حيث نرى كتباً أكثر ، ويمكننا الاستعارة منها .

ولاأظن أن أحداً يرتاد هذه المكتبات العامة فى هذه الأيام التى نعيشها الآن ،إلا نادرا،وأتصور أنها قد تحولت إلى شىء آخر، ولم يعد لها وجود .

* * *

كان سعر البيضة سبعة مليمات .

وكان زوج الحمام « بخمسة أبيض » يعنى قرشين ونصفا .

ورطل اللحم الكندوز بثمانية قروش ونصف .

وأقة البطاطس بقرشين هى الأخرى .

وكان الحذاء لايتجاوز خمسة وعشرين قرشا ، ويستعمل إلى يوم القيامة .

والبدلة الواحدة قماشا وتفصيلا تساوم فيها فتدفع ثلاثة جنيهات من أصواف إنجليزية مستوردة .

وتستطيع القياس على هذا كيف كانت الحياة تسير .

وقد يقول قائل كان عدد الناس فى هذه الأثناء عشرين مليونا ، أما اليوم فقد تجاوز الخمسين !

فإن قالوا هذا قلنا لهم كان عدد الناس أيام محمد على باشا الكبير لايتجاوز ثلاثة ملايين نسمة .

ولكن كانت الحكومات المتعاقبة تراعى هذه الزيادة المطردة وتعمل على مواجهتها بزيادة الإنتاج وخطط التنمية .

وهذا على خلاف مافعلته الثورة المباركة !

فقد كان غاية همها المعارك فى الكونغو ، والشهيد باتريس لومومبا ، والحروب هنا والمؤامرات هناك ، واعتماد خورشيد ، والكلام الفارغ الذى لاأول له من آخر .

كانت صناعة الحكام قبل الثورة هى المدارس والمصانع والتطوير .

وصارت صناعة الحكام بعد الثورة هى الكلام والكلام والكلام ، ثم القهر والتعذيب وقتل الشرفاء ، وتحويل المواطن الى فأر ذليل .

وقد نجحوا فى ذلك أيما نجاح ! وبلغوا غاية نجاحهم وظهر أثره فى ٥ يونية عام ١٩٦٧ عندما ضرب موشى ديان جمال عبد الناصر على قفاه أمام العالم أجمع ، ثم سقاه جونسون ــ الرئيس الأمريكى وقتها ــ من مياه المجارى .

* * *

ونعود إلى صيف عام ١٩٥١ الذى بدأنا به الحديث .

كانت إجازة المدارس، وكان الجو حاراً، وكنا نسير على شاطىء الترعة ، وكان رمضان حيث العطش الشديد لأطفال لم يتعودوا الصيام .

وسمعنا الأذان فتنبهنا .

كان الآذان قادما من شقة فى أحد البنايات المطلة على شاطىء الترعة ، وكانت أول مرة نسمع فيها آذانا ينطلق من شقة ، ففى العادة لانسمعه إلا من المساجد .

واقتربنا ووجدنا لافتة كبيرة قد وضعت على مدخل المنزل وقد كتب عليها « شعبة الإخوان المسلمين بشبين القناطر ».

ودخلنا وأدينا صلاة العصر خلف المرحوم مصطفى شحرور نائب الشعبة آنذاك .

وبعد الصلاة علمنا أنها جميعها تقام فى الشعبة ، وكان بها عدد وفير من مختلف المهن والطوائف .

وأخبرونا أن درسا يقام بعد صلاة التراويح .

وتذكرت صلة قديمة كانت لى مع الإخوان .

* * *

كانت هذه الصلة قبل ذلك التاريخ بخمس سنوات يعنى عام ١٩٤٦ .

وكنا نلعب أمام منزلنا الذى يقع أمام محطة القطار .

وكانت القطارات تأتى وتروح كل ساعة بانتظام كما قلنا .

وكان يلذ لنا أن نقترب فنشاهد القطار وهو يدخل المحطة .

وفى هذا اليوم لمحنا شيئا غريبا لم نره من قبل .

كانت القطارات مليئة عن آخرها وتموج بالبشر ، وهناك ضجة كبيرة ، وينزل الركاب وينتظمون صفوفاً كأنها طوابير الجيش ، وهم يرتدون ملابس عادية ، ثم يسيرون فى خطوات منتظمة ومعهم قائد يقودهم . وانطلقت الهتافات يدوى بها قائد الطابور ويرد عليه الباقون فى صوت كالرعد :

الله أكبر ولله الحمد .

لا إله الا الله . محمد رسول الله . عليها نحيا وعليها نموت .. وفى سبيلها نجاهد . وعليها نلقى الله . الله غايتنا والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا .

فى سبيل الله قمنا .. نبتغى رفع اللواء .. فليعد للدين مجده أو ترق فيه الدماء .

وساروا يخترقون شوارع البلدة على النحو الذى وصفت ، وأنا أسير خلفهم مشدوها أسمع الهتافات تدوى ، والنسوة يرددن الزغاريد فى إيقاع مثير ، وانتابتنى نشوة غامضة وأنا أسير مسحوراً خلف هذا الموكب متجاوزا الخط الأحمر الذى رسمته لنا الأسرة فى دائرة البيت .

وفى نهاية المطاف وجدنا سرادقا ضخما قد أقيم فى « النعناعية » وهى ناحية من البلدة قد ملئت بالحدائق وأشجار الكافور والسنط .

وصار هؤلاء القادمون يأخذون أماكنهم على الكراسى التى أعدت ، وقد تركوا فى مقدمة السرادق أكثر من عشرة صفوف ، واستمر التتابع والناس يأتون يرددون الهتاف على النحو الذى وصفت ، ووجدت حسنين افندى نصر وكان ناظراً للمدرسة الإلزامية الثانية فى البلدة يقوم على النظام والترتيب .

ثم دوى صوت الطبل من بعيد فى إيقاع عسكرى مهيب .

وتكأكأ الناس من النظارة وأنا منهم لنعرف سبب الضجة .

ورأيت صورة لم تذهب من ذهنى أبداً رغم مرور السنين .

كان طابور الجوالة الخاص بالإخوان المسلمين يتقدمهم شاب يرتدى ملابس العلماء بعباءة بيضاء ، هو الإمام الشهيد حسن البنا ، وكان يسير على الإيقاع فى مشية عسكرية رغم ثيابه التى يرتديها ، ومن خلفه شاب يرتدى الملابس الكاكية يحمل علماً أخضر كبيراً قد رسم عليه سيفان بينهما مصحف ، وكلمة الإخوان المسلمون ، وبين قاعدة السيفين كتبت كلمة « وأعدوا » .

وخلف هذا الشاب كان خمسة يسيرون فى تجاوروهم الذين يقومون بالضرب على الطبل ، ثم طابور الجوالة الكبير بالملابس الكاكية والمشية العسكرية المنضبطة .

وعند ظهور الشيخ حسن البنا جاوزت الزغاريد عنان السماء فى ترجيع مهيب عجيب لازلت أذكر أثره حتى الآن .

وامتلأ المكان بالضيوف ، وكان فى مقدمة الجالسين فى الصفوف الأولى كل رجال الإدارة فى البلدة،وعلى رأسهم مأمور المركز .

وتلى القرآن الكريم،ثم قام الإمام الشهيد ليتكلم بعد أن قدمه حسنين أفندى نصر فى حماسة وحب وفخر وإعزاز .

وتكلم الرجل . .
وخشعت الأصوات للرحمن ..
وانطلق يجلجل ويجلجل ، وليس من صوت يبين غير كلامه المتهدج المؤثر ، ومازال الرجل يعلو ويعلو حتى استحال إلى قبسة نورانية من الإيمان والجلال ، وكانت له وقفات فى الحديث،يعلو فيها هتاف الإخوان المشهور الذى ذكرته منذ قليل .
كان عمرى وقتها صغيرا جدا ، ولهذا لم أكن أعى كلامه على وجه التحديد .
كل ماأذكره أنه كان يتكلم فى موضوع يمكن أن نضع له عنوانا هو :
كيف نفهم الاسلام ؟
وتأخرت يومها عن البيت ، فقد انتهى الرجل من خطابه قرب الساعة الحادية عشرة مساء .
ولم يفارق هذا الموقف خيالى بعد ذلك أبداً ؟
وكانت هذه أول مرة أسمع فيها عن الإخوان المسلمين وأراهم فى ذلك العرس البهيج . وعلمت فى اليوم التالى أن معظم أهل البلدة قد ذهبوا إلى السرادق يستمعون .

وظل هذ الحفل حديث الناس لأيام طويلة ، وكنت أسمع أبى رحمه الله يتكلم مع ضيوفه وزملائه عن ذلك الذى حدث ، ولكنى لاأفهم القصة على وجه التحديد لصغر سنى .
كل ماشعرت به أن طاقة من النور قد انبثقت فى قلبى وظلت تقودنى دهراً طويلا ، ولم يغب عن بالى أبدا حتى هذه اللحظة حرارة اللقاء .
كانت صورة حسن البنا يومها غريبة رائعة مؤثرة ، وكأنه الإسلام نفسه وقد انبعث على صورته ، بعد أن اغتيلت الخلافة العثمانية ووطئوها بالأقدام ، ثم دفنوها فى التراب ، وأقاموا حفلاً بهيجا صفق فيه العلمانيون وطبَّل فيه اليهود والمشركون ، وكل أصحاب الثارات القديمة من الإسلام .
بدأ الضياع الذى شعر به المسلمون على أثر سقوط الخلافة العثمانية يتبدد ، وبدأ حلم جديد يغزو أنفسهم ، حلم لم يتهيئوا له التهيئة الكاملة فقابلوه بالفرحة والزغاريد ، ولم يكونوا يعلمون أنه فى سبيل تحقيق هذا الحلم سوف يسقط شهداء وشهداء ، فتية أطهار ، وحتى ذلك الرجل نفسه صاحب اللباس الأبيض والصوت

الرخيم المعبر ، سوف يخر كالأسد الجريح من طلقات رجال الشرطة فى الشارع العام .

لم يكن أحد يعلم أن رمز الإسلام حسن البنا سوف يقتل .

ولم يكن أحد يعلم أنه بعد قتل الإمام البنا سوف يكون كل واحد ممن سمع صوته وانتبه إليه وصاحبه فى سفر .. سوف يكون حسن البنا آخر .

نعم على أى نحو من النواحى سيكونون حسن البنا سواء فى قوتهم أو ضعفهم ، قربهم أو ابتعادهم ، فى صمودهم أو فى بأسهم ، وهم أحرار أو وهم فى ظلمات السجون .

وهذا ماحدث بعد حسن البنا .

ذهب الإمام شهيدا إلى ربه فى ليلة من ليالى آخر الشتاء .

وقامت جماعة الإخوان تعيد ترتيب الدار من جديد فى مناخ قاس وزمن صعب ، قامت تضمد جراحها بعد أن فتن من فتن ، وتماسك من تماسك .

ولكن أصر أغلب المسلمين على الاستمرار فى طريق الدعوة بعد أن رأوا صدق نبوءة مرشدهم ، فالتشريد والاعتقال والسجن الذى وعدهم به قد حدث وعاينوه بأنفسهم ، وتأكدوا أنهم من أصحاب الدعوات .

* * *

اختلطت الذكريات فى رأسى وتداخلت ، فلا أعرف ماذا حدث ثانيا وماذا حدث أولا .

الشوارع تدهن بالجير الأبيض يغطى مساحات كبيرة من أسوار البيوت ، وترسم صورة عربى يرتدى عقالا ويكتب بجوار الصورة :

تطوعوا لإنقاذ فلسطين الجريحة .

وفى منزل جدتى .. ملئت حجرة كبيرة بكراسى من الخيزران ومكتب خشبى قديم وبعض اللافتات ، ومنها ذلك العلم الأخضر الذى كتب عليه شعار الإخوان وكان يحمله الشاب الجوال الذى كان يسير خلف الإمام الشهيد تحت قرع الطبول .

ولافتات كثيرة تدعو إلى القتال فى أرض فلسطين .

وأسأل جدتى عن هذه الأشياء فتقول :

ــ هذه أشياء تخص المسلمين .

ـــ ولماذا جاءوا بها إلى بيتك ؟
ومن بين الحزن والتعب تقول لى :
ـــ الحكومة الكافرة وضعت المسلمين فى السجن .
ومن بين حزنها شرحت لى القصة ، كيف باعوا ممتلكات الإخوان فى المزاد العلنى وقد اشتراها أحد أقاربها الطيبين حتى يردها للمسلمين يوما .
وإطفاء الأنوار ، وغارات اليهود بالطائرات على مصر ، وهرج ومرج كثير . والمدرسون يأمروننا بالقيام لحضرة الناظر الأستاذ مصطفى الجندى ، الذى يشرح لنا فظائع اليهود وما يفعلونه بالفلسطينيين العرب الأبرياء ، ويطلب من كل التلاميذ التبرع بمصروف الغد من أجل إنقاذ فلسطين .
وعند خروج الناظر من الفصل لن أنسى همسة جعفر افندى الطنانى لحضرة الناظر :
ـــ حكيت لهم مايفعله اليهود بالمسلمين ، و لم تخبرهم بما يفعله المسلمون بالمسلمين .
وكنا صغاراً فلم يهتم كل من الناظر والمدرس بالحديث امامنا ، رغم نظرة حضرة الناظر الحرجة ناحيتنا وهو يقول لجعفر افندى :
ـــ ياجعفر افندى خلينا نأكل عيش .
وكانت الصحف تتكلم عن الأوكار والسيارة الجيب والانفجارات والإرهابيين ، و لم يكن فيها من حديث عن الإنجليز أو اليهود .

وأذكر أننى سمعت أمين افندى صقر وكان صديقا لأبى ، ويأتى إليه بين الحين والآخر ويجلسان للسمر الطويل . سمعته يقول له :
ـــ شركة الاعلانات المصرية التى فجرها الإخوان المسلمون كانت وكراً لليهود فى مصر . ألف عفارم على الإخوان ..
لم أكن وقتها بقادر على تحديد صورة صحيحة منضبطة عما يدور فى مصر ! كنت أسمع جملا وكلمات متفرقة من هنا وهناك وأعرف أن غليانا يدور ، ولكن ماهى طبيعته ؟ لست أدرى !
وظلت رؤى الإخوان والإسلام تتخللنى بين الحين والآخر حتى دخلنا الشعبة فى ذلك اليوم من أيام صيف عام ١٩٥١ .

* * *

لعلى لاأكون مبالغا لو قلت إننى اكتشفت فى الشعبة عالماً غريباً .

فقد كان بها معظم الزملاء فى المدرسة المشهود لهم بالجد والنشاط .

ولاحظت أن كل واحد فينا يعجب لوجود زملائه معه فى نفس المكان .

وكان كبار الطلبة من المشهورين فى البلدة يملئون الغرف ، والشعبة كخلية النحل وفى غرفة من الغرفات جلسنا إلى الشيخ حسن عليان من عرب الصوالحة يعلمنا قراءة القرآن ويفسره لنا ، وكان شابا نشيطا قد درس بالأزهر ، وكان صارما حازما يعاملنا معاملة الكبار ونحن مازلنا أطفالا ، وظلت هذه الذكريات تعاودنى دائما بعد مرور السنين ، وأسائل نفسى هل كان الشيخ على حق ، وأجد أنه كان على حق ، فقد استطاع أن يشعرنا بالمسئولية والجدية فى وقت مبكر جدا ، ولهذا فقد اختلفت نظرتى للأمور ونظرة جيلى كله عن جيل أولادنا مثلا .

ففجأة وخلال شهور قليلة كنا ندرك من أمور السياسة ومايدور فى مصر ماقد لايفهمه كبار هذه الأيام . أصبحنا نعرف أبعاد المشكلات التى يتداولها السياسيون ، صرنا ندرك معني الاحزاب وظروف تكونها ، وماهى العقدة فى إخراج الإنجليز من مصر، ومن هم أصحاب المصلحة فى بقائهم . وماهى أهمية الجهاد فى سبيل الله . وهل هو جهاد من أجل مصر وحدها . أم من أجل تحرير كافة الأقطار الإسلامية التى تقع تحت نير الاستعمار . وماهو واجب المسلم فى هذا العالم الذى نعيشه .

وماهى الشروط والاستعدادات حتى يؤدى هذا المسلم واجبه ؟

كل هذا تعلمناه أو سمعناه فى ذلك الصيف .

* * *

دخلنا المدرسة مع الخريف .

وكان النحاس باشا قد ألغى معاهدة ١٩٣٦ .

وخرج الفدائيون إلى القنال من شباب الإخوان يدمرون القطارات ويهاجمون المعسكرات ويموتون .

وصارت القاهرة هى بؤرة الأحداث ، وجاء إليها كل مندوبى الصحافة ووكالات الأنباء من سائر أنحاء العالم ، وبدأ الضغط الجدى على بريطانيا فى الجلاء عن مصر ، ويبدو أنها قد استجابت لهذه الضغوط الممثلة فى الاعتداء على معسكراتهم ومحاولة خلعهم بالقوة من مصر .

وبدأ العد التنازلى للاحتلال الإنجليزى لمصر ، وصار واضحا لجميع المراقبين والمحللين أن الإنجليز يبحثون عن طريقة مثلى للخروج من مصر ، وأن المسألة مسألة وقت ليس إلا .

وكان الإنجليز يتفاهمون مع الأمريكان فى ذلك الحين على ترتيبات الخروج ، وكيف ستكون السياسة بعد خروجهم ، وكيفية تكريس انفصال مصر عن السودان .

ولم نكن نحن ندرى فى هذا الحين مايدور .

كل ماكنا نعرفه هو الحركة السياسية اليومية ، وتفاعل الأحداث وتطورها ، والخروج فى مظاهرات ضخمة ، حيث يتجمع الطلبة من كافة القوى الوطنية بالمدرسة ، ثم تبدأ بالهتاف ويسخن الجو ، وينضم إليهم بقية التلاميذ المسطحين الذين لا رأى لهم ولاانتماء فجو الحماسة جو ينتقل بسرعة إلى من يعيش فيه .

وقد تنتظم بعض الفصول،وسرعان مايذهب إليها بعض الطلبة القادرين ويجبرون الأستاذ على إخراج التلاميذ للانضمام إلى المظاهرة .

ويرتفع الصراخ ، ويخرج الناظر فيقابله التلاميذ بهتاف واحد يشق عنان السماء .

نريد العلم علم المدرسة .

وفى تلك الأيام الخوالى كان لكل مدرسة علم .

ويستجيب الناظر للضغط .

وتخرج المدرسة كلها فى طابور طويل إلى محطة القطار ، وهتافاتهم تثير البهجة والحماسة فى نفوس كل المواطنين ، وهم فى طريقهم إلى المحطة يمرون على مركز البوليس حيث يقف بعض الضباط وبعض الجند ولايتعرضون لهم بحال . بل هم يبتسمون معجبين ومحيين .

وفى القطار الذاهب إلى القاهرة نجده قد ملىء بالمدارس الأخرى ، فالزقازيق الثانوية وبلبيس وأبو كبير والتل الكبير . وفى الطريق تلحق بنا قليوب الثانوية بهتافاتها العالية .

ثم يتوحد الهتاف ، ويصير لهذه المظاهرة هتاف مميز، يخرج من فم واحد ويردده الجميع .

وفى ميدان باب الحديد نجد المدارس قد جاءت من كل أنحاء مصر .

وتختلط الأصوات والصرخات ، وتتباين الهتافات ثم تتوحد ، فنجد أن هتاف الإخوان المسلمين هو الذى يسود المكان .

الله أكبر ولله الحمد .

ولعلى قد تجاوزت الخريف الى الشتاء .

ولعلى أقف مع مصر وهى تشيع شهداء الإخوان الذين ماتوا فى القتال !

وكان يوما مشهودا فى القاهرة .

وفى هذا اليوم وضحت الرؤية ، فقد تحدد مصير النظام وظهر خطر الإخوان فى منعطف جديد .

ولله فى خلقه شئون !

كانت المدرسة فى ذلك الوقت تضم جمعا كبيرا من طلبة الإخوان ، أو من كانوا يسمونهم بالأشبال . وكان هناك مسئول عن المدرسة من الطلبة،وهو على ماأتذكر الدكتور عبد الفتاح خالد منصور ، وكان له سلطان على المدرسين،وأيضا على الناظر ، وكان مهذبا دمثا يعقد اجتماعاته كل يوم اثنين ، وكان هناك مسئول عن كل فصل ، وربما كان فى الفصل الواحد عدة أسر . والأسرة تتكون من خمسة لهم نقيب . ولهم برنامج دراسى ورياضى وتربوى وتثقيفى ، ولهم حضور واحترام بين كافة المدرسين والتلاميذ .

وكان أكثر من نصف المدرسين من الإخوان ، وكان الناظر نفسه من المتعاطفين مع الجماعة ، وكان ينظر برضا وحبور إلى نشاطهم وإلى حسن أخلاقهم وجديتهم وتفوقهم فى دراستهم .

* * *

كل هذه النظرات والذكريات محاولة لرسم صورة الإخوان ودورهم فى المجتمع المصرى فى تلك الأثناء التى سبقت ثورة ٢٣ يوليو .

كانت هناك شعبة فى كل قرية ومركز من حولنا . ويجتمع فى هذه الشعبة صفوة المثقفين وأهل العلم والطليعة الرائدة التى لها دور فى تغيير المجتمع الصغير والكبير ، من خلال التداخل فى فض المنازعات ومن خلال التربية والتعليم والتثقيف ، وجعل العبادة منهجا يوميا يحرص الجميع عليه .

بالإضافة إلى هذا كان للإخوان الدور الرائد فى تنبيه الشعور القومى والوطنى ، وبعث الحس الإسلامى الكامن فى نفوس الذى يحلم بدولة عظيمة يحكمها الإسلام .

واستطاعت شعبة الإخوان أن تجند الشعب المصرى كله بكافة طوائفه فى مختلف المجالات،فى حدود نطاق وجودها لحرب الإنجليز والسراى والفساد .

وخرج المتطوعون إلى القتال .

وكانوا جميعا من الشباب صغار السن كما وصفنا .

وسرت فى القرى والكفور والنجوع روح غريبة جديدة .

وكانت الشعبة الرئيسية فى مركز شبين القناطر لها نظام ثقافى وتربوى ورسالى ، فكل يوم جمعة يذهب إمام وخطيب إلى قرية مجاورة لخطبة الجمعة .. إلى معظم القرى تقريبا .

ويخطب الخطيب بروح جديدة ، وبعد الصلاة يجلس فى « دوار » ويجتمع بشباب القرية وشيوخها وأهلها ، ويساعده أهل شعبة القرية فيجتمع كل الناس ، ويكون مؤتمر شعبى دينى ، تناقش فيه كل القضايا ، وكان يحدث فى أحيان كثيرة مناظرات مع أصحاب الأحزاب الأخرى ، تبدأ بعداوة وتحدٍ وتنتهى باتفاق وصداقة .

واستطاعوا فى زمن وجيز يسير أن يجعلوا من القضية الوطنية الدينية هى شغل الناس الشاغل .

وبدأت جماهير الشعب تفكر فى الجرائم التى يرتكبها القصر والبوليس السياسى .

وظهرت صور حسن البنا فى البلاد والبيوت والمساجد والمدارس .

وتهيأ المسرح لجديد سوف يكون وبدأت معالمه !

كان الناس قد بدءوا يتعودون على عادات جديدة مع ظهور الإخوان فى البلاد ، فتغيرت طبائع الصناع والموظفين ، وصار الجميع حريصين على تغيير المجتمع من خلال رفض العادات الموروثة التى لانفع منها ، والتى كانت تعمل عمل السوس فى البنية الأساسية للدولة والمجتمع .

صار يتردد أن الملك هو سبب كل مصيبة ، وأن رجال الحاشية هم الذين يمدون له فى الغى .

وكثرت الحركات الوطنية وكلها تصب بروافدها فى نهر الإخوان المسلمين .

ولعميق الأسف لم يكونوا على وعى كامل وواضح بكل مايراد بهم .

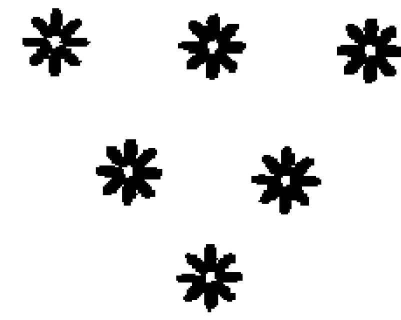
وكانت الدوائر تحيط بهم ، والأعداء يعدون عدتهم لحربهم والقضاء عليهم واستئصالهم ، وأكد هذا اشتراكهم فى حرب فلسطين ، ثم المقاومة الساخنة للإنجليز فى القنال .

واتصل بهم الشيوعيون يحاولون التنسيق معهم .

وكذلك فعلت جماعة مصر الفتاة .

وعزفت معزوفة جديدة تعلن حياة جديدة لما أطلق عليه بعد ذلك بدول العالم الثالث .

وتهيأ الجميع وشاركوا فى انقلاب ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .



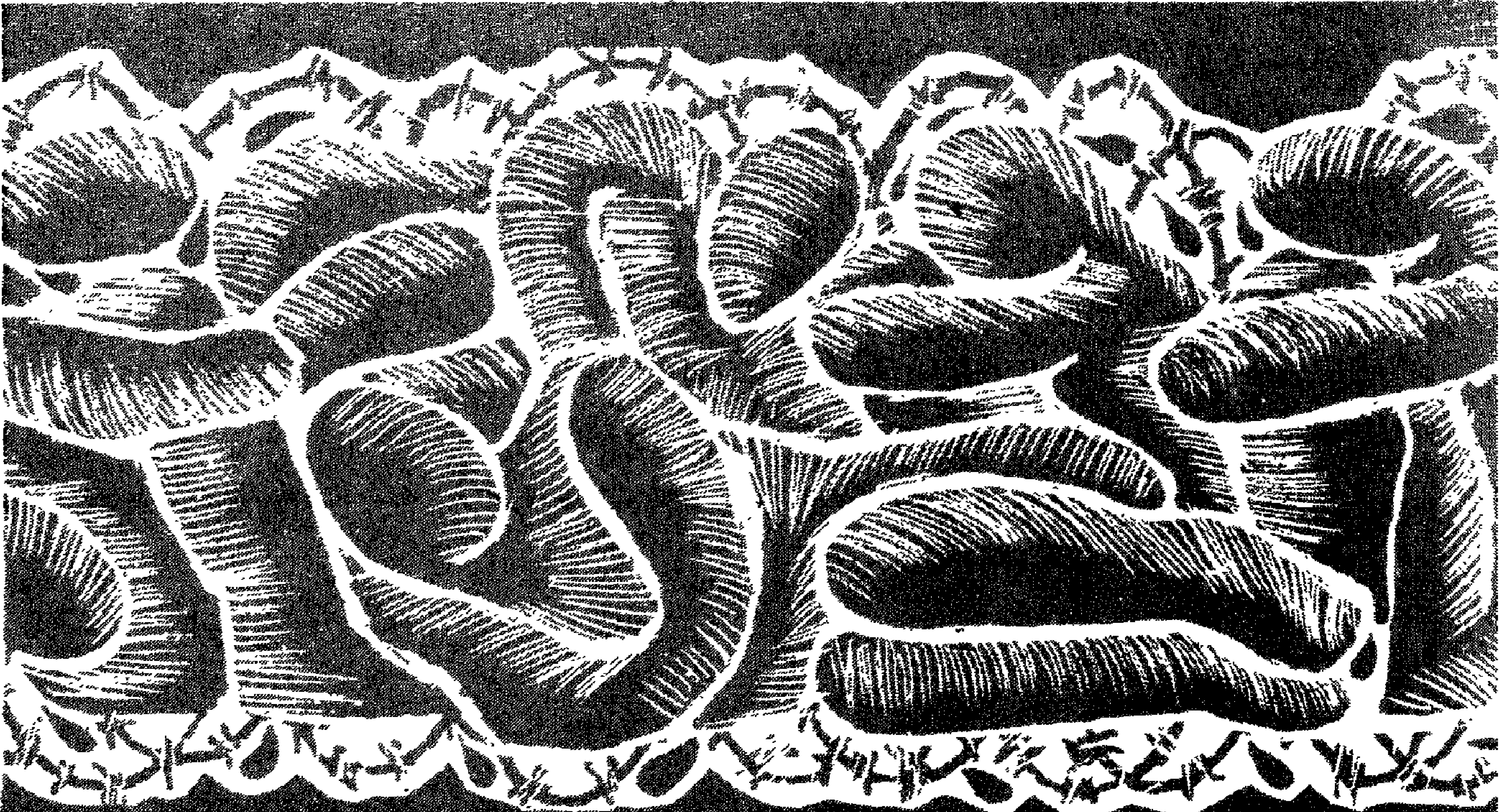
الفصل الخامس

"ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون"

الإخوان بين المطرقة والسندان

﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وماستكانوا والله يحب الصابرين . وماكان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٧



النظام الخاص

* ارتبط تاريخ الإخوان المسلمين بالنظام الخاص الذى أنشئوه . وينعى عليهم هذا كثير من الكتاب وأصحاب الدراسات ، وهناك ربط مستمر ودائم بين الإخوان وبين الإرهاب في خطة تم نجاحها وآتت أكلها ضعفين .

ولعل هذا الكلام له حظ من الدعاية أكثر من حظه العلمى الموضوعى .

والغريب أن كثيرا من كتاب الغرب الذين تعرضوا بالبحث والكلام عن الإخوان هم أنفسهم أو هى نفس المدرسة التى مجّدت وأشادت بالمقاومة الفرنسية للاحتلال النازى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وقد أشاد كتاب الغرب بوجه عام بدور المقاومة الأوروبية للنازية فى تلك الحقبة ، سواء حدث هذا فى فرنسا أو هولندا أو بلجيكا أو أى مكان آخر من أوربا ، وكتبت الروايات ودون التاريخ ، ودبجت القصائد، وعبىء العالم كله، واحتشد لتحية هؤلاء الأبطال الذين قاوموا النازى . لم يصفهم كاتب واحد بالإرهاب ، رغم أنهم كانوا يطلقون الرصاص على القوات النازية المحتلة ، وكانوا يطلقونه أيضا على المتعاونين معهم من المدنيين ، ولم يفرقوا فى هذا بين رجل وامرأة ، فكل من تعاون مع النازى كان لابد أن يقتل ، وبأية طريقة ، سهلة كانت أم صعبة ، هادئة أم تتسم بالوحشية والقسوة .

ويتبادل الوطنيون التهنئة فى الصباح كلما سمعوا عن اغتيال خائن بالليل . وأطلق « النازى » كلمة « الإرهابيين » على هؤلاء الأبطال الذين قاموا بأعمال المقاومة ضدهم ، رغم أنهم كانوا محل تقدير وإعجاب وإعزاز وثناء من كل المثقفين فى العالم آنذاك ، ولايزال التاريخ يمجدهم ويشيد بدورهم .

ونعود إلى النظام الخاص الذى أقامه الإخوان المسلمون ، فنجده لم يفعل أكثر مما فعله النظام الخاص الفرنسى، عندما أطلق الرصاص على الألمان وعملائهم من أهل البلد .

وقد تكون النظام الخاص للإخوان المسلمين فى ظل الاحتلال الإنجليزى لمصر .

وقام بدور وطنى كان له أثره فى الجلاء بعد ذلك .

وعندما أعلنت الدولة اليهودية فى فلسطين فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ كان أول من ذهب لقتال اليهود هم أعضاء النظام الخاص كانوا هناك من يناير .

ولو لاحظنا الفترة الأخيرة من تاريخ مصر الحديث لوجدنا أن هذا النظام كان له دور كبير فى مسائل أساسية .

ولو مررنا أيضا مروراً سريعا على أعمال المقاومة التى كانت فى الفترة مابين إنشائه حتى ظهوره سافرا مدججاً بالسلاح لوجدنا الأمر كما يلى :

دوره فى حرب اليهود بفلسطين عام ١٩٤٨ .

تسخين المقاومة إلى ذروتها ضد الإنجليز فى القنال عام ١٩٥١ .

التحضير والقيام بالاتفاق مع الضباط بثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

وهذه أكبر ثلاثة أعمال قام بها النظام الخاص للإخوان المسلمين .

وقد يكون هناك من يقول إن هذا النظام كان تشكيلا جهاديا وطنيا ، قد أسس على التقوى وطاعة الله ، ولكن كانت له أخطاء .

وإن كان الأمر كذلك فهو شيء طبيعى ، فكل تشكيل له أخطاء ، ولكن ماهى هذه الأخطاء على وجه التحديد ؟

تختلف الأقاويل والرؤى حولها ، فالبعض يقول لم يكن من المناسب اغتيال أحمد الخازندار القاضى ، ويرد عليهم من يقول إنه كان عميلا للإنجليز ، وإنه كان يقول بشرعية الاحتلال ، وإن وجود القوات الإنجليزية فى مصر كان بموجب معاهدة شرف وصداقة – يقصد معاهدة ١٩٣٦ – وإنه قال هذا فى المحكمة رداً على الدفاع الذى كان يشير إلى دوافع المتهمين الوطنية فى عدوانهم على العساكر الإنجليز .

وهناك من يقول إن قتل النقراشى باشا كان من أخطاء هذا النظام ، والصواب والخطأ يخضعان لظروف الحادث ، ونحن هنا نذكر أقوال المحايدين ، وبطبيعة الحال هناك أعداء الإخوان وأصحاب المصلحة فى عدم وجودهم على الساحة المصرية ، وهم الذين وصفوهم بالإرهابيين وألصقوا بهم هذه التهمة ، ونحن هنا لاننناقش هؤلاء بأى حال .

وكان هناك من المحايدين من وصف مقتل النقراشى باشا بأنه عمل وطنى يستحق الإعجاب والثناء لأسباب موضوعية أطنبوا فى شرحها ووصفها .

وعموما فقد اختلفت رؤى المحللين السياسين حول نشاط النظام الخاص ، فهناك من دافع عن وجوده بشكل عام . وأثنى ووافق على كل جزئيات نشاطه ، وهناك من أقرّ وجوده ، ووافق الإخوان على مثل هذا النوع من النشاط فى مواجهة قوى الاحتلال الإنجليزى ، ولكن كانت لهم تحفظات على بعض الممارسات والتصرفات .

نشأة النظام الخاص

تكون النظام الخاص على فترات ومراحل ، وكان يستهدف كما قلنا ـــ وحسب رأى الذين كونوه وأداروه وكذلك أعضاؤه ـــ الإنجليز فى مصر واليهود فى فلسطين .

وكذلك مساندة المجاهدين المسلمين فى كافة الأقطار الإسلامية التى تعانى من الاستعمار ، سواء كان إنجليزيا أو فرنسيا أو غير ذلك .

وكان الإخوان ينوون نقل هذا النشاط الجهادى إلى كافة هذه الأقطار .

وكان عندهم مايسمى بقسم الاتصال بالعالم الإسلامى،يقوم بالعمل على تنظيم هذا وترتيبه .

وإذا علمنا أن « الحبيب بورقيبة » عندما هرب إلى مصر فى الأربعينيات لجأ إلى دار الإخوان المسلمين ، وأقام فيها ، وهناك من خرج معه إلى شارع إبراهيم باشا ـــ الجمهورية الآن ـــ ليشترى له بعض الملابس للمعيشة والخروج،من قمصان وبيجامات وغير ذلك .

وكذلك كان « هوارى بومدين » رئيس الجزائر السابق من المقيمين فى حارة متفرعة من شارع الأزهر ، ومعه كثير من حكام الجزائر السابقين والحاليين ، وكان الذى يقوم على مصالحهم وشئونهم هو الأستاذ صالح أبو رقيق ، وهو أيضا الذى كان يقوم بدفع أجرة هذا البيت بمعرفته من ميزانية الإخوان .

وتفصيل ذلك يطول ، فلو تتبعنا هذا الأمر على هذا النحو لوجدنا طلائع المجاهدين المسلمين فى شتى الأقطار قد جاءت إلى مصر واتصلت بالإخوان ، وأن هناك تنسيقا ما من أجل طرد المستعمر ، أو التخلص من الحكومات الظالمة المستبدة على النحو الذى حدث فعلا فى الثورة اليمنية عام ١٩٤٨ حيث كشفت عن صلة الإخوان الوثيقة بهذه الثورة ، وكانوا يأخذون على الإخوان اغتيال الإمام يحيى ، رغم أن الحقيقة قد أظهرت بعد ذلك أن من قام بقتله هم شباب من كافة القبائل اليمنية .

وهناك بطبيعة الحال من يعد هذه من مفاخرهم وحسناتهم .

واختلفت الآراء حول نشأة النظام الخاص للإخوان بشكل عام .

هناك من يقول إنه قد تكون عام ١٩٣٧ ، على أثر ظهور الخطر اليهودى فى فلسطين ، وعلى الأخص بعد ثورة فلسطين الإسلامية عام ١٩٣٦ .

وهناك من يقول إنه قد تكون فى بداية عام ١٩٤٢ مع تحرك الصراع بين الألمان

والإنجليز فى الحرب العالمية الثانية ، واقتراب قوات المحور من الأراضى المصرية قادمة من ليبيا على يد الغازى روميل آنذاك .
وبسؤال الكثير من أهل الذكر حول هذا الموضوع يبدو أنه لايوجد تاريخ دقيق أعلن فيه نشأة هذا النظام .

ويبدو أنه قد نشأ على مراحل ، وعلى صور مختلفة ، وبأشخاص متعددين،ويتضح لنا ذلك من تعدد الروايات حول نشأته ، ويبدو أيضا أنها حلقات قد تداخلت فى بعضها حتى أخذت شكلها الأخير ربما مع عام ١٩٤٤ .

فقد حدثنى أحد قادة هذا النظام أنه كان عضوا فى تشكيل جهادى يضمه هو وآخرين ، قد أقاموه بأنفسهم وبمعرفته هو وزملائه قبل أمر حسن البنا عليه رحمة الله له بالاندراج ومن معه ليتكون النظام الخاص .
وكانت هناك مجموعات أخرى شبيهة ليست تابعة لأحد ، ولكنها قامت من منطلق عقائدى جهادى .

وهناك أوجه كثيرة للنظر حول هذه النقطة عن كيفية نشأة النظام الخاص للإخوان ، ولكن ليس هناك بالتأكيد توقيت دقيق لتاريخ تسربه إلى الجيش المصرى . ولكن بالبحث والسؤال نستطيع أن نصل إلى بعض المعالم .

ففى غضون عام ١٩٤٢ كان قسم العمال بالمركز العام للإخوان المسلمين يستهدف ضم أكبر عدد ممكن إلى صفوف الإخوان ، ونشر الدعوة بينهم والتغلغل فى صفوفهم .

وكان يقوم على هذا القسم المهندس [redacted] .
وكانت منطقة المعادى بما فيها من مصانع هى هدف هذا النشاط .
ومن خلال العمل على تجنيد أكبر عدد ممكن استطاعوا الوصول إلى صف الضباط الفنيين العاملين بالقوات المسلحة من سلاح الاسلحة والمهمات .

وقد كانت الصلة وثيقة بين هؤلاء العمال وبين الفنيين من العسكريين .
وكان هؤلاء الفنيون من صف الضباط يذهبون إلى المركز العام لحضور درس الثلاثاء ومن أشهر هؤلاء الحاج عباس السيسى .

وكانوا يظهرون بين الناس بملابسهم الرسمية ، وقد قال البعض إن المشهد كان مليئا بالعسكريين فى يوم من أيام الثلاثاء هذه .

وأزعج هذا الإمام الشهيد حسن البنا ، وكان رجلا بعيد النظر كثير الحرص بالغ الحذر ، وهو الأمر الذى جعله يفكر فى عزل هؤلاء العسكريين والتنبيه عليهم بعدم الظهور بهذا الشكل السافر ، فى بلاد يحكمها الإنجليز ، ويعرفون أخبار الناس ونشاطهم من خلال القلم المخصوص أو البوليس السياسى ، فالمباحث العامة ، فمباحث أمن الدولة فيما بعد .

ومنذ هذا الوقت بدأ التفكير بشكل جدى فى نشر الدعوة بين صفوف الجيش ، وتطلع الإمام الشهيد إلى ضم ضباط إلى النظام الخاص .

وعهد إلى الصاغ محمود لبيب وكيل الجماعة آنذاك بالعمل على تحقيق هذا ، وقد نجح نجاحاً كبيرا فى هذا المجال ، ولعله هو الأب الحقيقى لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقد أدى إلى تدعيم هذا الاتجاه وتقويته ظهور الضابط عبد المنعم عبد الرءوف فى المركز العام للإخوان ، واستماعه إلى درس الثلاثاء ، واجتماعه بالمرشد العام . وكان عبد المنعم عبد الرءوف ضابطا وطنيا متدينا متحمسا ، به بعض الاندفاع ، وله خصائص مميزة بوجه عام ، ومن الذين يجيدون الترتيب والتجنيد والتنظيم . وكان أحد العوامل الهامة التى دفعت عجلة الإخوان بسرعة داخل صفوف الجيش وكان عزيز المصرى يعاون محمود لبيب فى نشاطه .

وكان عبد المنعم عبد الرءوف ضابطا له شعبية داخل صفوف الجيش، صنعتها محاولته مع آخرين تهريب الفريق عزيز المصرى إلى صفوف الألمان عندما كانوا على مقربة من الحدود المصرية ، وسقوط الطائرة عند قليوب فى قصة غامضة فى تفصيلها حتى الآن ، وتدور حولها الكثير من علامات الاستفهام .

بدأ الإخوان يكونون خلايا سرية بين صفوف الضباط فى الجيش .

وكان الجيش مهيأ تماما لمثل هذا النشاط !

فعندما ألغى أتاتورك الخلافة العثمانية عام ١٩٢٥ تبدّد كل أمل للمسلمين فى الكرامة وتحقيق الهوية .

ثم تكرست دول سايكس ــ بيكو على أنقاض خلافة الإسلام .

وجدّ الإنجليز والفرنسيون فى تزكية الشعور القومى والوطنى بين المسلمين ، وهو

الأمر الذى لم يكن له وجود من قبل ، بقدر ماهو موجود الآن بين أهل إقليمين فى دولة واحدة .

وبدأ تلامذة المستعمرين فى العالم الإسلامى فى تحريك أكبر حملة للتغريب وطمس الهوية الإسلامية للأمة بين الناس .

وقامت جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ ، وكأنها جاءت على قدر مع إلغاء الخلافة ، وكأنها رد الفعل الطبيعى ضد هدم المآذن ورفع الصليب وإبعاد القرآن .

ويمكننا القول إن أكثر المثقفين والذين كانوا لايزالون على دينهم ، وتداعبهم أحلام المجد المنصرم كانوا يفكرون فى استعادة ماكان عليه المسلمون .

ولم يكن آمال التحرر من المستعمر هى التى تداعب نفوسهم فقط ، بل كان الأمر أبعد من هذا وأعمق ، فقد كان هؤلاء جميعا تداعبهم فكرة الإسلام فى دولته الكبيرة القادرة التى كانت منذ قرون ، ثم ضيعها عبث الحكام .

ولاشك فى أن كثيرا من ضباط الجيش المصرى المسلمين كانت تداعبهم هذه الخيالات ، ويرون إمكانية تحقيق ذلك عبر القوة ، ومن خلال تجربة لم يقدر لها مايلزمها من نضج واكتمال .

وكان يدعم هذا الخيال فى نفوسهم ظهور العسكريات المتغطرسة فى العالم ، وكانوا يرون « هتلر » وهو يطأ أوروبا بحذائه ، وفى خياله تسطع أشباح القياصرة الرومان .

وكان العالم متقطع الأنفاس وهو يرقب « هتلر » أثناء حربه مع العالم أجمع بشعب كان منهزما هزيمة قاسية منذ قليل .

وكان « هتلر » هو المثل الأعلى الحديث فى نفوس كافة الشباب من أهل البلاد النائمة ، أو كأنه المثل الذى ضرب للمستضعفين فى الأرض .

كل هذا جعل الكثير من الضباط يسارعون إلى الانضمام لتشكيل الإخوان السرى فى الجيش ، مع احتفاظ كل منهم برؤيته الخاصة حول كل شيء .

وكان هذا الانضمام يخضع لنظام دقيق محكم ، فلم يسمح لكل المتعاطفين والذين امتلئوا حماسة أن يكونوا أعضاء عاملين . كما كان كل ضابط يخضع لتجارب عديدة ، وإلى كثير من الاختبارات والتهيئة حتى يظفر بهذه المكانة .

ويظل الباقون بعيدا حتى يأتى دورهم . فهم يمثلون الرأى العام أو البيئة التى تسمح بالاختيار والنشاط .

وكان جمال عبد الناصر من المسارعين فى الانضمام إلى هذا النظام .
واجتاز كافة الاختبارات حتى جلس للبيعة ذات مساء .
والأمور تجرى على قدر الله ومشيئته بعد التفكير والتقدير .
وقد باشر نشاطه كعضو عامل فى النظام الخاص للإخوان عام ١٩٤٤ .
وكان معه عدد من الذين قدر لهم أن يشتهروا بعد حين .

كمال الدين حسين

حسين الشافعى

عبد االلطيف البغدادى

حسن ابراهيم

خالد محيى الدين

حسين حموده

وكان يرأس هؤلاء الجدد الضابط صلاح خليفة ، شقيق الدكتور كمال خليفة واشتكى عبد الناصر أن رئيسه فى التنظيم أقل رتبة منه ، وهو أمر لايتفق مع تقاليد الجيش ، وحكم الأقدمية الذى يحدد القيادة والرئاسة .
ووصلت هذه الشكوى إلى الإمام الشهيد حسن البنا أخبره بها عبد الرحمن السندى عن طريق أبى المكارم عبد الحى ، وكان مسئولا عن تشكيل الإخوان فى الجيش بجوار عبد المنعم عبد الرؤوف ، أو بالاشتراك معه .
وكان كل من عبد المنعم وأبى المكارم يتبعان الصاغ محمود لبيب فى التسلسل القيادى لهذا التشكيل الجديد .

وكان تعليق الإمام الشهيد على شكوى عبد الناصر أن الرئاسة والمسئولية فى صفوف الإخوان تعتمد على السابقة فى الدعوة وحُسْن الإسلام .
وضرب مثلا بأخ من الإخوان اسمه محمد رسمى كان كاتبا عموميا .
أمام محكمة امبابة ، ولم يأخذ حظا من التعليم ، ولكنه كان نقى القلب مخلصا مطيعا وله سابقة فى الدعوة ، وكان يرأس اسرة من بين افرادها الدكتور عبد العزيز كامل والدكتور حسن الباشا ، وهما من أساتذة الجامعة . وقد يكون فى هذا الكلام شيء من النقد والاعتراض ، ولكن لابد أن نأخذ فى اعتبارنا ظروف تلك الفترة وطبيعة المجتمع آنذاك .

ال الإمام الشهيد إن تنظيم الإخوان فى الجيش يتبع جماعة الإخوان ، وهو مقيد بها وتقاليدها ـــ يقصد عبد الناصر ـــ وإن تنظيم الإخوان فى الجيش ليس من مؤسسات الجيش .

وابتلع عبد الناصر اعتراضه وسكت على مضض .

وكانت سياسة محمود لبيب المسئول عن النظام تقضى بالتشاور والتفاهم مع أبى المكارم عبد الحى وعبد المنعم عبد الرءوف ، وتستهدف التحام الجيش والشعب ، ونقل الخبرات وتبادلها من خلال مجموعات منتقاة .

وكانت هناك خطط وأفكار ودراسات لتصرف كبير تفضى الأحداث إليه ، والكل يخطط له رويدا رويدا .

القيادة بين الجيش والشعب

تم الاتفاق على تكوين نشاط مزدوج بين العسكريين والمدنيين على مستوى قيادات النظام الخاص .

وقد تم الاتفاق على عشرة لبدءالتجربةولتنفيذ هذا الاندماج من خلال معسكر صيفى صغير بصحراء « الصف » على مقربة من بلدة « أطفيح » حيث يعيش الحاج حسنى عبد الباق أحد هؤلاء العشرة ، وهو أيضا من أعيان الناحية .

واتفق على أن يقوم العسكريون بتقديم كل ماعندهم من خبرات عسكرية أثناء انعقاد هذا المعسكر ، وكانت هذه الخبرات قليلة جدا ، لاتعدو عدة كتب فى الاستراتيجية والتكتيك ، بالإضافة إلى قوانين الضبط والربط العسكرية .

واتفق أن يقوم المدنيون بتقديم خبراتهم المتقدمة جدا فى عالم المفرقعات ، وكيفية تركيب العبوات الناسفة .

وقد استفاد عبد الناصر من هذا الدرس واستخدمه شخصيا وبمعرفته أثناء أزمة مارس ١٩٥٤ فى القاهرة ، وقد راح ضحيتها بعض المدنيين حسبما روى عبد اللطيف البغدادى فى مذكراته .

وكان هؤلاء العشرة سبعة من المدنيين وهم :

١ ـــ عبد الرحمن السندى .

٢ ـــ مصطفى مشهور .

٣ ـــ حلمى عبد المجيد .

٤ – حسنى عبد الباق .
٥ – محمود الصباغ .
٦ – السيد فايز عبد المطلب .
٧ – أحمد حجازى .
والثلاثة من العسكريين كانوا :
١ – عبد المنعم عبد الرءوف .
٢ – أبو المكارم عبد الحى .
٣ – جمال عبد الناصر حسين .
وأثناء انعقاد المعسكر كانوا عرضة للكشف مرتين !
وكانوا قد أقاموا معسكرهم فى بقعة مهجورة من الصحراء ، لايرتادها أحد وقد ذهبوا إليها بليل حيث الظلام الذى يستر كل شيء .
ولم تكن الشرطة أيامها على تلك الدرجة من الهيمنة والبطش ، على النحو الذى صار بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وكان من السهل إقامة مثل هذا المعسكر .
وفى ليلة من ليالى الصيف الحارة ، وأثناء نوبة عبد الناصر فى الحراسة قام بإيقاظ زملائه فى قلق وعلى عجل .
واستيقظوا مسرعين وأخذوا وضع الاستعداد .
وكانت تبدو عند خط الأفق أنوار كاشفة لسيارات بعيدة تتجه صوبهم .
وتشاوروا مشاورة سريعة ، وألح عبد الناصر فى اقتناص هذه السيارات والقضاء على من فيها .
ووجود معسكر يضم مجموعة من العسكريين وأخرى من المدنيين أمر لايخطر ببال حكومة من الحكومات ، هذا بالإضافة إلى أن الكشف عن مثل هذا يؤدى إلى خطر عظيم لايخفى على أحد .
وكانت معهم المدافع الآلية وكمية الذخيرة اللازمة للدفاع والهجوم ، وكانوا يستطيعون السيطرة على هؤلاء المجهولين القادمين .
وعمرت المدافع الآلية ، ووضع كل واحد مايلزمه من ذخيرة بجواره .
وكان آمر المعسكر هو المرحوم عبد الرحمن السندى .
وكانت تلك السيارات القادمة قد فقدت طريقها إلى أحد المحاجر ثم صارت تبتعد فى هدوء ودون قصد عن النقطة التى كانوا يعسكرون عندها .

وكانت وجهة نظر عبد الناصر هى اصطياد هذه السيارات ومن فيها ، رغم زوال الخطر من باب التدريب على حرب العصابات .
واستنكر الباقون منه هذا ووبخوه عليه .
وتكررت حادثة شبيهة بالأولى ، ومرت بسلام لحسن الحظ ، وتغلبوا عليها فى هدوء .
وانفض المعسكر فى موعده المقرر بعد أن حقق الغرض منه .

من تقاليد النظام الخاص

كان النظام الخاص للإخوان فى تلك الفترة يمثل نواة نشطة لدولة فتية قادرة شديدة الحماس ، حيث يقوم الأفراد بواجباتهم قربة إلى الله سبحانه وتعالى وتحقيقا للإسلام ، وتمهيدا لتغيير المجتمع فى وقت يرجونه قريبا .
وكان هذا النظام يشمل خليطا متميزا من المجتمع المصرى ، وفيه سائر أصحاب الاختصاصات ، وشتى أنواع المهن من شباب دون الثلاثين فى أغلب الأحوال .
وكانوا يختارونهم عن وعى وعلم وبتمحيص شديد ، ويمر الذى وقع عليه الاختيار بشتى أنواع الاختبار .
وكان موغلا فى الصرامة والسرية ، ولايجوز لمن وقع عليه الاختيار ثم انضم إليه طائعا أن يتركه أو يستقيل ، فليس هذا واردا بأى حال .
وليس من المتوقع أو المنتظر أن يخون واحد من أعضائه بأن يفشى أسرار النظام ، ومن يفعل « يُخلى سبيله » وهى عبارة غامضة لايخطىء أحد دلالتها . ولم يحدث هذا حسبما نما إلى علمنا .
وربما يرجع ذلك لصعوبة الاختبار ودقة الاختيار ، ثم حماسة أعضائه وإيمانهم الفائق بأهمية تحقيق الإسلام فى المجتمع .

وكان هذا النظام يقوم بعملية هيمنة وسيطرة على المجتمع المصرى ، وهو أمر سهل فى بلد قد تمزق بين المحتل الإنجليزى وعملائه من بين الحاكمين .
وكان الإنجليز حريصين كل الحرص على ألا يصل إلى كرسى الوزارة ، أو أن يتولى رئاستها إلا من كان ضالعا فى العمالة لهم بشكل أو بآخر .
وكانوا رغم سوئهم — عليهم رحمة الله — لم يسيئوا الى مصر والمصريين بالقدر الذى فعله من جاء بعدهم من الوطنيين الشرفاء الذين خلقوا فينا العزة والكرامة

كذبا وادعاء ، ومازلنا نعيش فى ضلالهم وزيفهم ، ولكننا نبصر فى ابتهاج شمسهم المائلة إلى المغيب فى بحر لجى لايرحم، هو بحر التاريخ .

اهتم هؤلاء الحاكمون الذين جاء بهم الإنجليز بكل شيء عدا الشرطة والأمن السياسى ، على العكس من الذين جاءوا من بعدهم ، أولئك الذين اهتموا بالأمن السياسى وتركوا كل شيء عدا ذلك وأهملوه .

حتى استقلال البلد فرطوا فيه وأضاعوه .

ونترك الاستطراد فنقول إن الظروف هى التى مهدت للنظام الخاص التغلغل فى كافة الأنشطة . ويخطىء من يظن أنه كان نظاما جهاديا فقط ، يستهدف طرد الإنجليز والقضاء على تلاميذهم وأعوانهم فقط ، بل كانوا — كما قلنا — هم النواة لدولة جديدة تتدرب على الإدارة والحكم . وهى أيضا تتناول كافة المشكلات بالعلاج ووضع الحلول .

وقد عملوا فى هذا المجال دون سابقة من خبرة أو تجربة .

وكانت لهم رؤية بها قدر كبير من الشمول والخيال .

وكانت تلك الحقبة من الزمن التى نشأ فيها النظام تتسم بالإثارة والرغبة الجامحة فى التغيير والتبديل ، وقد ظهر هذا فى اتجاهات شتى :

أقام النظام الخاص الشركات المختلفة فى عالم التجارة والصناعة .

وكأنهم يضعون النواة الأولى للاستقلال الاقتصادى .

وكانوا قد وضعوا الأساس للصناعة الوطنية .

ولعل فكرتهم فى إقامة مصنع للذخيرة والأسلحة لم تكن مبالغا فيها ، إذا أخذنا بعين الاعتبار الهمة العالية التى كان يتميز بها أولئك الناس .

ولم يكونوا بأى حال مسرفين فى الخيال بالقدر الذى لم يكن يتناسب مع الزمان والمكان .

واستطاعوا باقتدار أن يقيموا فروعا وإدارات مختلفة تشكل كل نواحى النشاط كما قلنا .

كانت هناك مجموعة تهتم بالسياسة والأخبار والحركة التى تشمل العالم ، وتقوم بإعداد الدراسات والتقارير حول هذا .
وهناك جماعة تقوم على رصد نشاط السفارات والشخصيات العامة وعمل تقارير مفصلة عن كل هذا .

وجاء الوقت الذى صار فيه جميع الذين يتحركون فى السر أو فى الخفاء من ساسة وكتاب وضباط كبار تحت عدسة النظام المكبرة ، فهم يعلمون عنهم كل شيء ، فى وقت غابت فيه المعلومات وعزت ، والناس ينشطون ويتحركون ولايعلم أحد مايدور .

استطاع رجال النظام الخاص أن يكونوا تصورا واضحا عن حركة كبار رجال وزارة الداخلية ، فهم يعرفون إلى أين يذهبون للسهر مع عشيقاتهم ، وكيف يرسلون بتقاريرهم إلى الإنجليز فى سفارتهم ، ودور العشيقات فى نقل الأخبار بين الداخلية والإنجليز واليهود .

وقد كشفت كل هذه الأسرار فى قضية السيارة الجيب عندما ضبطت ، وكان ضبطها خطأ كبيرا وقع فيه بعض القائمين على النظام .
حصلت الحكومة على عدد ضخم من التقارير حول كل مايدور فى مصر المحروسة .
ولهذا كان البطش عظيما بهم ، وهو بطش يهون إذا قيس بما حدث بعد ذلك !

وكانوا يهتمون اهتماما خاصا بالشرطة ورجالها ، وصلة اللواءات بكل جميلة ومشتهرة بين الممثلات ، وعلى الأخص من كانت يهودية منهن .

ونذكر هنا تلك الصلة الشهيرة بين عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية والممثلة كاميليا التى ماتت فى حادث احتراق طائرة .

وكان لهذه الممثلة صلات حميمة بالقصر والإنجليز واليهود ، وربما جهات أخرى لانعرفها .

وقد استطاع النظام الخاص ولأول مرة أن يكشف مايدور خلف الستار فى غيبة وغفلة من المصريين .

وكما قلنا كان لكل مسئول ملفه الخاص به .
كل تحركاته وهواياته وصفاته وعاداته ، وكل مايهتم به ، وصلاته المختلفة بهذا وذاك .

ومن طريف مايروى أن الشيخ عبد المنعم النمر تعجب لإلقاء القبض عليه فى ذلك الوقت فى أواخر الأربعينيات وأودعوه سجن الأجانب ، وكان الرجل وطنيا يتعاطى الإرهاب ضد الإنجليز وأعوانهم كسائر الأحرار من رجال الأزهر فى ذلك العهد .
وكان الشيخ النمر يتلطف فى نشاطه هذا ، ويفعل مايشاء ولايشعر به أحد .
ثم جاء المرحوم أسعد السيد مسئول المخابرات فى النظام الخاص ، وأعد التقارير الخاصة به بعد وقت غير قليل من رقابته وتتبع خطاه .
وأودع التقرير أرشيف النظام ، ثم عثر عليه ضمن ماعثر عند ضبط السيارة الجيب .

واعتقل الشيخ النمر وكان يتعجب .

لماذا كتب أسعد هذه التقارير عنه ؟

وفى سجن الأجانب التقى به وسأله :

ــ لحساب من كل هذه التقارير ؟

ــ لحساب الإخوان يامولانا .

وفى دهشة سأل الشيخ النمر :

ــ ومالفائدة منها ؟

وسكت أسعد قليلا ثم قال :

ــ للتاريخ .

وفى انفعال قال الشيخ النمر :

ــ وأنت تظن نفسك الجبرتى ؟

الإنجليز والقصر فى مواجهة الإخوان

انتبه الإنجليز والقصر لخطورة نشاط الإخوان المسلمين ، ولم يكونوا يعرفون حجمه بعد ولا إلى أين يسير ، وكان ذلك قبل حرب فلسطين ، ولكنهم عرفوا أنهم يعزفون معزوفة جديدة تختلف عن كل ماعزف تحت عنوان الجهاد الوطنى آنذاك ، كلام جديد وروح جديدة سوف تضر بالتأكيد .

وعرفوا أن الإخوان قد أخذوا طريقا لو ساروا فيه أكثر من ذلك فنهايته وخيمة العاقبة أو ينبغى أن تكون ، فهم يحلمون بمجتمع إسلامى دستوره القرآن ، وطريقهم

فى هذا هو الجهاد فى سبيل الله ، حيث الرسول زعيمهم ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم .

ومن ثم فقد فتحوا عيونهم جيدا لحربهم .

وربما لم ينتبه الإخوان لهذا للاسف ، أو انتبهوا ولم يكن فى وسعهم شيء ، ومضى النظام الخاص فى تحقيق غاياته عبر الوسائل التى ارتضاها .

مقتل سليم زكى وآخرين

قتل سليم زكى باشا حكمدار القاهرة فى مصادفة شارك هو شخصيا فى صنعها .

فقد اقتحم الباشا كلية الطب لفض المظاهرات والاعتصام ، وكان يجلس على مقدمة سيارة مصفحة وفى يده مدفع آلى فى شكل مستفز يثير الغضب ، وكان الطلبة ينظرون إليه على أنه صنيعة الإنجليز وعصاهم التى يضربون بها ، ومن الدور الثالث أو الرابع ألقى أحد الطلبة الشبان قنبلة من النوع الذى لايقتل ، ولكنها أصابته فى موضع قاتل .

ولم يكن طالب كلية الطب هذا ــ الذى صار فيما بعد طبيبا كبيرا ــ يقصد قتله أو حتى إصابته ، ولكن هكذا شاءت إرادة الله .

ثم قتل الخازندار والنقراشى ، وبدأت أحداث المسلسل تتصاعد فى عنف لا يستطيع أحد إيقافه .

وكانت المواجهة صريحة مع الإخوان من الحكومة التى يساندها القصر والإنجليز ومن لانعلم .

ولعل من أخطاء النظام الاستجابة لتحرشات الحكومة ، وكان عليه أن يتجاهل هذا كله ليحقق أغراضه ، ولكن تلاحق الأحداث وتنوعها ربما لم يدع لهم هذه الفرصة ، هذاإذا أخذنا فى الاعتبار إعلان الدولة اليهودية فى فلسطين المحتلة ودور النظام فى حرب العصابات ضد اليهود .

فالحوادث تتلاحق ويأخذ بعضها بخطام بعض ، وإن تجاهلنا هذه لايمكن لنا أن نتجاهل تلك ، فقد أجبر الإخوان على البروز بقوتهم ، ولاأدرى هل كان يمكنهم تحاشى هذا الموقف أم لا ؟

ففجأة وعلى غير انتظار فوجىء العالم أجمع أن هذه الجماعة بمعرفة الشيخ حسن البنا قد استطاعت أن ترسل فريقا كبيرا من المتطوعين المدربين من الشباب للقيام بحرب العصابات ضد اليهود .

وتعجب الجميع عندما رأوا المسلحين يخرجون من الشُعب للحرب .

وكانت غاية ظنهم أنها جماعة لاتختلف كثيرا عن سائر الجماعات الإسلامية التى تملأ مصر . ربما ليس إلا فى درجة الحماسة ، ولكن أن يكونوا مسلحين ومدربين فذلك أمر جديد يثير الترقب والانتباه والحذر .

الفصل بين المدنيين والعسكريين فى النظام الخاص

كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ هى العلامة الزمنية للفصل الحقيقى بين العسكريين من الإخوان والمدنيين منهم من أصحاب النظام الخاص .

وكان جمال عبد الناصر قد ذهب مع آخرين إلى بيت فى حى الصليبية حيث قام بالبيعة على السمع والطاعة كما قلنا من قبل .

وصار عضوا عاملا فى التشكيل العسكرى للإخوان .

وحدثت الظروف التى شرحناها آنفا مثل حرب فلسطين والعثور على السيارة الجيب وبها كافة المستندات المطلوبة لفهم نشاط النظام الخاص .

ومنذ ذلك التاريخ اتفق على فصل نشاط العسكريين عن المدنيين لحمايتهم من البوليس السياسى الذى نشط وصار يتتبع آثار أعضاء التنظيم فى كل مكان .

ولعل هذا التوقيت هو الذى حدد فيه جمال عبد الناصر إمكانية الانفصال عن تشكيل الإخوان مع الحفاظ على دعمهم وتأييدهم،والاستفادة من شعبيتهم الجارفة .

ولكنه أخرَّ إعلان ذلك رسميا حتى ثلاثة أيام مضت على نجاح الانقلاب .

وصارت محاورات ومناقشات كلها تضع « بروتوكول » الانفصال الشكلى مع بقاء الصلة العضوية .

واتفق على أن يكون مجال عبد الناصر ومن معه هو ضم ضباط جدد إلى التنظيم من كافة المسالك والاتجاهات والذى يجدون فيه تدينا وصلاحاً يرسلونه إلى الإخوان ، ويبقى معه أصحاب النزعة الوطنية الذين لايتقيدون بقواعد الدين ولايريدون .

وكان هذا لسلامة الضباط وعدم تجريم الإخوان فى اتصالهم بالجيش . أو هكذا استطاع أن يقنعهم بذلك .

وكانت هذه النقطة هي بداية انطلاق عبد الناصر فى التحرر من التبعية للتنظيم الإخوانى مع الاحتفاظ بتأييده ودعمه لكل خططه .

وهو فى قرارة نفسه لم يكن يدين لهذا التنظيم أصلا ، بل كان يعتبره وسيلة لغاية ما ، وقد أثبتت الحوادث صدق ذلك فيما بعد ، وماجاء مستقبلا من أحداث .

ومع الأيام تكرس الانفصال بين النظام الخاص وتنظيم الضباط الأحرار الذى سماه بهذا الصاغ محمود لبيب ، بعد أن كانت الصلة بينهما عضوية .

ولم ينتبه الإخوان لهذا (التاكتيك) الذى استخدمه عبد الناصر ، فقد كانوا يعتبرونه عضوا منهم قد بايع وأقسم على السمع والطاعة ، ولم يكن هناك مايريب فى الأمر .

كان الصاغ محمود لبيب هو الذى يعرف شخصيا كل من هو عضو فى تنظيم الإخوان من ضباط الجيش ، ثم سلّم هذه القائمة لجمال عبد الناصر عندما اشتد به المرض .

وسلمه أيضا الأموال الخاصة بهذا التنظيم ، وكان مصدرها اشتراكات الضباط . وقد حضر هذه الواقعة الصاغ حسين حمودة آنذاك .

كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ هى العلامة الزمنية التى أظهرت قوة الإخوان وخطرهم على المصالح الغربية فى مصر وبلاد العرب .

وكانت حرب فلسطين أيضا هى النقطة التى فتحت الآفاق أمام جمال عبد الناصر وطورت أحلامه إلى إمكانية السيطرة على مصر من خلال انقلاب علمانى وطنى فى زعمه تكون جماعة الإخوان فيه أداة مفيدة وذات دور فعال .

ومن الصعب الحكم على نوايا عبد الناصر فى تلك الآونة ، ولكن من السهل تفهم هذا من النتائج التى صارت بعد ذلك عند تتبع الحوادث وماأدت إليه .

وكانت قضية السيارة الجيب هى العلامة البارزة لنهاية النظام الملكى ، فقد حوكم النظام أثناء نظر القضية وعند محاكمة المتهمين .

وكانت حرية الصحافة فى تلك الأثناء حقيقة واقعة ، وليس كما يحدث فى هذه الأيام ، فكل مايدور فى المحكمة تتناوله الصحف وتكتب عنه ويهتم به الرأى العام .

وتهيأ جميع المصريين إلى أن هذا النظام لن يكتب له الاستمرار بعد نظر قضية السيارة الجيب ، فقد نشرت المخازى والمساوىء ، وعرف فساد الحكم والقائمين عليه ، وبدأت القوى الوطنية تنادى بأهمية التخلص من الملكية ومايتبعها .

وبدأ الأمريكان والإنجليز يدركون أهمية تغيير هذا النظام خوفا من ثورة اشتراكية شيوعية حيث كانت تلك هى المخاوف العالمية آنذاك .

وكان لدى عبد الناصر من الانتباه مايجعله يدرك ويفهم هذه الأمور !

ولم يكن الأمريكان بعيدين عن التيارات الوطنية ، ولكنهم كانوا يرصدون الشارع ويرقبون الأحداث ، ويتهيئون ويُهيئون لعالم جديد فى مصر .

وكانت بريطانيا العظمى قد خرجت من الحرب العالمية الثانية منتصرة ، ولكن بعد أن فقدت لقبها الذى تميزت به أكثر من قرن .

ولم تعد بريطانيا العظمى بل صارت بريطانيا فقط !

والارتباط بين أمريكا وبريطانيا ارتباط عضوى يحقق مصالح واحدة ، وأمريكا فتية ذات مال كثير ونفوذ ، وهى فى أول عهدها بالانفتاح على العالم ، وتستطيع أن تحل محل بريطانيا فى منطقة الشرق الأوسط .

والأمريكان وفقا للمنهج الغربى الذى طوروه عن المسلمين عبر اتصالات استمرت قرونا أثناء الحروب الصليبية والدراسة فى جامعات الأندلس ، كانوا أصحاب علم ودراسة ، وهم خلاصة التقدميين الذين هاجروا إلى العالم الجديد بعد اكتشافه .

فهم يرصدون الظواهر ويجمعون المعلومات فى دقة ودأب ، ومن تكن هذه هى طريقته فهو يستطيع أن يتفهم حركة التاريخ ، ومن البدهى أن تكون له ملكة التوقع والتنبؤ ، وإن كان ذا قدرة فيمكنه التدخل فى سير الأحداث ، ويقدر على تحريكها وتوجيهها .

وكان كل شيء مرصودا فى مصر أثناء السنوات العشر التى سبقت قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ .

وكان الأمريكان يعلمون طبيعة سير الأحداث ، ونشاط الضباط فى الجيش ، وصلة ذلك بالإخوان المسلمين .

وكان الأمريكان أيضا يعرفون طبيعة التنظيمات الشيوعية وحجمها وقدرتها ، بل كان يشكلون بعض هذه التنظيمات وينفقون عليها للهيمنة والفهم، واستقطاب وتحديد كل أصحاب النزعات الاشتراكية ، والتحكم فى بورصة التنظيمات السرية .

وكان هناك تنسيق بين المخابرات الأمريكية والمخابرات الإنجليزية فى التعامل مع الحالة المصرية لحلول الأولى محل الأخيرة فى النفوذ والسيطرة .

ومن ثم فهناك اتفاق وتصور لما ينبغى أن يكون .
ويتم هذا من خلال العقل الإنجليزى الذى يفرض تصوره على القدرة الأمريكية فى عالم ضعيف قد فقد حضارته ويستعد لاستقبال سيد جديد « العم سام » .
وكان على السيد الإنجليزى القديم أن يرحل عن ضفاف النيل وهو فى غاية الحزن والأسف فقد أجبرته الظروف . وكان أمرا مفهوما ومقررا ، بعد أن فقد اسمه وشرفه وسمعته فى هذه البلاد عبر حملة إعلامية استمرت أكثر من سبعين سنة هى عمر الاحتلال الإنجليزى .

وكان هذا السيد الإنجليزى قد فقد قدرته على الإنفاق بعد أن خرج من الحرب منتصراً ، ولكن بعد أن استهلك أثناءها الكثير من أرصدته وقدرته ، وذهب جيل الساسة والإداريين العظام .
أما السيد الأمريكى الجديد فلايزال فتيا قادرا على الإنفاق فى بلاد لابد أن يتحكم فيها الغرب بغض النظر عن الشكليات وأهميتها فى نوع السيطرة والهيمنة .
وكان الضباط الوطنيون قد اشتركوا فى معسكرات للتدريب فى فلسطين المحتلة قبل قيام دولة إسرائيل .

وكانت هذه المعسكرات تحت إشراف الإنجليز ، ولم تكن بعيدة عن أعين الأمريكان،حيث الدراسة والفحص والبحث وتحديد الهوية لشباب من الضباط يتسم بقلة الثقافة وضيق الأفق ، وعدم إدراك مايدور فى العالم،مع الأمية السياسية والبعد الكامل عما يسمى بلعبة الأمم فى عالم المتغيرات .

وقد قدر لهؤلاء الضباط أن يحكموا مصر بعد ذلك أكثر من ثلاثين عاما . فكان منهم المحافظ والوزير ورئيس البنك والمسئول عن المؤسسات المختلفة .
وكان منهم من أقام جهاز المخابرات المصرى بعد الثورة . !
وكان الإخوان على وعى بما يدور على شكل ما . ولكن كانت هناك هوة كبيرة بين الوعى والقدرة على إبطال المخططات .

رياح الثورة تهب

جاء عام ١٩٥٠ ومعه المشكلات والزوابع فى بلد قد تحدد مصيره من وجهة نظر الكبار الذين يتحكمون فيه .

وكان قد تكرس الانفصال الشكلى بين الضباط الأحرار والإخوان .

وجاءت انتخابات نادى الضباط .

ووقف الضباط الأحرار فى تماسك شديد خلف اللواء محمد نجيب مرشح الجيش ضد اللواء حسين سرى عامر مرشح القصر .

وكان أمام الضباط الأحرار مرشحون ثلاثة .

الفريق فؤاد صادق .

السيد طه بطل الفالوجا فى حرب فلسطين . هكذا سموه .

اللواء محمد نجيب .

وتم اختيار اللواء محمد نجيب عقب لقاء بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب فى بيته بحلمية الزيتون .

وقصة إصرار الضباط الأحرار على اختيار محمد نجيب رئيسا للنادى رغم إرادة الملك قصة مشتهرة ومعروفة وتناولها الكثيرون من الكتاب شرحا ورواية ، ودارت تفاصيلها أمام أعين المخابرات الأمريكية اليقظة .

ولم يفهم الملك فاروق يومها أن مصيره قد تحدد ، شأنه فى هذا شأن أى حاكم فى البلاد المتخلفة، حيث يعتمد فى رؤيته على تقارير للأمن أغلبها مختلق وتعوزه الدقة ، هذا بالإضافة إلى تغلغل النفوذ المخابراتى الأجنبى فى صفوف الأمن .

ويظل الحاكم فى البلاد المتخلفة دائما بعيدا عن القارعة حتى تحطم رأسه ! وهم يعيدون نفس الخطأ فى تكرار ممل بطىء ينتهى دائما بنهاية محتومة ، حيث يعرف الجميع أن شمسه مائلة للمغيب ، أما هو فيعيش مع أوهام التقارير التى يكتبها له رجال الأمن ، وهم فى العادة بين أمرين ، إما أنهم على وعى بما يكتبون فهم مسيرون ، أو على جهل وتخبط وعجز ، والأولى هى ماأعتقد وأظن والله أعلم .

وكانت جماعة الإخوان تضمد جراحها فى تلك الفترة بعد نكبة ١٩٤٨ .

ولعلهم كانوا يعتمدون منهجا آخر وخطة جديدة بعد اغتيال الإمام الشهيد .

وتمثل هذا فى اختيار المرحوم حسن الهضيبى مرشدا عاما للإخوان .

ومن طريف مايروى أن عبد الناصر عندما زار محمد نجيب فى منزله بحلمية الزيتون ، وبعد عودتهم من حرب فلسطين ، ذكر له بالتفصيل كل ما يفعله الضباط الأحرار ، وطبيعة النشاط ، والمنشورات التى يكتبونها ويعدونها ويرسلونها إلى جميع الضباط وكافة المكاتب .

وسأله سؤالا مباشرا .

هل يقبل قيادتهم أم لا ؟

وذكر له أنهم سوف يمضون فى هذا الشوط بعيدا ، وأنهم ينوون عمل أشياء أكثر تقدما وخطورة ، وأن أوانها قد جاء ، ولم يكن نجيب ساذجا .

ورحب الرجل صاحب التاريخ الطويل فى التنظيمات السرية .

فقد اشترك محمد نجيب فى جمعيات سرية مختلفة منذ عام ١٩٢٠

وكما قلنا كان الناس جميعا مشغولين بالتغيير ، وتداعبهم أحلام التحرر والاستقلال ، وكانوا يعملون على هذا بكافة التوجهات السرية والعلنية .

وكل الفاهمين يريدون تحقيق الهوية الإسلامية للأمة بعد سقوط الخلافة العثمانية وأفول شمسها للمغيب .

وقال عبد الناصر لمحمد نجيب :

ـــ المجموعة التى أنتمى إليها من الضباط تشترط أن يكون شخصك بعيداً عن كافة أنواع النشاط التى نقوم بها .

وفكر محمد نجيب قليلا وسأل :

ـــ لماذا ؟

وفى براعة قال جمال عبد الناصر :

ـــ أنت رتبة كبيرة ولانحب أن نعرضك للكشف .

وسكت محمد نجيب متأملا موافقا ، بينما أردف جمال عبد الناصر حازما :

ـــ سوف أكون أنا صلتك بالتنظيم فما رأيك ؟

وكان من الطبيعى أن يوافق محمد نجيب ، فلم يكن من المنطقى أن يشاركهم فى طبع المنشورات ، أو أن يقوم بتوزيعها مع صغار الضباط .

وكان من الحكمة أن تدخر هذه الشخصية ليوم مثل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

وهنا تبرز طبيعة جمال عبد الناصر الذى عاد إلى مجموعته ، ولم يكن هو رئيسها

بل كان فردا منها ، وهم ينتخبون مسئولا عنهم كل فترة على طريقة الإخوان .
وقال عبد الناصر لمجموعته :
ــ قد اشترط محمد نجيب شرطا أساسيا للموافقة على رئاسة التنظيم .
وحدَّق الضباط فى وجه عبد الناصر الذى قال :
ــ لايتم أى اتصال به إلا من خلالى ، هذا حتى نحقق أمنه الشخصى ونحافظ عليه ، فلا يصل علم الأمن إليه .
وأمن الحاضرون على هذا الشرط . ! وهكذا صار عبد الناصر نائبا للامام الغائب ، ومن ثم فقد استطاع أن يتحرك بعيدا وباقتدار . وأن يمسك بخيوط كل شىء ، واضعا هدفا أمامه أن يكون يوما على رأس التنظيم .
وقد ساعده على هذا سرعة حركته ودأبه ومثابرته .

بدأ العد التنازلى لتغيير النظام فى مصر

اجتاز الضباط أزمة انتخابات ناديهم بنجاح .
كان يسند محمد نجيب تنظيم الضباط الأحرار والقواعد الإخوانية العريضة فى صفوف الجيش من صغار الضباط .
وكانت الأزمة فى صفوف الإخوان بعد الحملة الإعلامية العاتية ضد ما أسموه بالإرهاب ، وماأطلقوا عليه ممارسات التنظيم الخاص ، واكتشاف الوثائق التى تؤكد قيام النظام بالتجسس على الأحزاب والبوليس .
وقتل الخازندار واغتيال النقراشى ، ومحاولة اغتيال حامد جودة ، وكانوا يرتبون لإبراهيم عبد الهادى ، والتبس الأمر عليهم فنجا .
وكان سيل المقالات فى الصحف والمجلات .
وانفض كثير من الإخوان خوفا من الحكومة !
واستجاب الكثير للدعاية المضادة ، وأعلنوا براءتهم من الإرهاب .

واغتيل الإمام الشهيد حسن البنا فى مشهد درامى مؤثر ، حيث قامت الحكومة بتنفيذه كما تفعل أية عصابة من العصابات ، دون اعتبار لقدسية الحكومة ــ أية حكومة ــ ومكانتها ودورها فى المجتمع .
وبدأت كافة القوى الوطنية فى مصر تستعد للتغيير وتتهيأ له ، وتحاول أن يكون لها دور فى صناعته حتى تأخذ جانبا من الغنيمة ، أو تشارك فى الحكم على نحو ما .

وكانت الحكومة هى الجهة الوحيدة التى لاتشعر برياح التغيير التى تهب ، رغم قدرتها المفترضة على الحصول على كافة ماتريده من معلومات على الأقل فى هذه الناحية .

وكان الأمريكان قد استقر عزمهم على إجراء التغيير ، بعد أن فقدوا الأمل فى فاروق ، وإمكانية استغلاله فى إحداث انقلاب ضد نفسه .

وأخطروا الإنجليز بنيتهم هذه !

وبدأ العد التنازلى لتغيير النظام فى مصر !

وصارت كل القوى تبذل غاية جهدها فى تحقيق ذلك،والحكومة غافلة نائمة .

مقتل حسن البنا كان عاملاً من عوامل انفراد عبد الناصر بالتنظيم

لاشك أنه بعد ضرب الإخوان فى عام ١٩٤٨ واستدعاء جمال عبد الناصر لمقابلة إبراهيم عبد الهادى لشكه فى وجود صلة بينه وبين الإخوان تجمد النشاط السياسى إلى حين ، وصارت كافة الاتصالات مشوبة بالحذر الشديد والتوجس ، وبلغت حدة التوقف فى فترة من الفترات .

وكانت صلة جمال عبد الناصر عبر تنظيم الإخوان بالجيش من المفروض أن تنتهى فى التسلسل الهرمى بشكل أو بآخر إلى عبد المنعم عبد الرؤوف ثم عبد الرحمن السندى رئيس النظام الخاص على الرغم من انفصال النشاط العسكرى والمدنى .

وكان عبد الناصر قد استطاع أخيرا أن يستحوذ على التنظيم من الناحية الميكانيكية على الرغم من انتماءات معظم أفراده إلى جماعة الإخوان . ولكنه كان يدرك أن التنظيم يتبعه فى النهاية ، وتكون النتائج حسب القدرة على « التاكتيك » وإمكانية التحرك وسرعته .

ورغم أن تنظيم الضباط الأحرار هو إخوانى الهدف والتشكيل ، إلا أن عبد الناصر بدأ ينفصل رويدا رويدا عن الجماعة،من خلال تجاهله للقنوات الشرعية التى كان يتصل بها من خلاله ، وفى عام ١٩٥٠ التقى صلاح سالم موفدا من قبل جمال عبد الناصر بالصاغ صلاح شادى:التقيا فى تفصيل طويل رواه الأستاذ صلاح شادى فى كتاب حصاد العمر .

وكأن صلة جديدة بين تنظيم الضباط الأحرار والإخوان عبر قناة جديدة .
وكأنه مشروع جديد تماما لاصلة له بجذوره القديمة ، ولعلها الخدعة الكبرى التى قام بها عبد الناصر ، ولعلها قد انطلت تماما على أستاذنا الأستاذ صلاح شادى وحسن النية من جانبه وارد بالتأكيد ، وكذلك انطلت على كل مجموعة الاتصال الجديدة .

كانت الفترة بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٢ من أشد الفترات فى تاريخ مصر صخبا وقلقا ، وتنظيما وترتيبا أيضا ، وكانت هى المدخل والبيان لثورة يوليو .
فعندما اغتيل الخازندار وقتل النقراشى وكانت محاولة نسف مبنى المحكمة وخروج النظام الخاص سافرا عن وجهه،أخذ المثلث القذر يضع اللمسات الأخيرة على محاولة القضاء على الإخوان ، مثلث يقع وهو بين نقاط ثلاث : القصر والحكومة والإنجليز .
وتم اعتقال جماعة الإخوان ، أو من وصلت أسماؤهم إلى علم البوليس السياسى ، وتدخل بعض السياسيين فى الوساطة بين حسن البنا والنظام .
وكانت شروط الصلح قاسية جدا .
عرضوا عليه أن يقوم بتسليم كل قطعة سلاح فى حوزة الجماعة أو يدل عليها .
وطلبوا منه قائمة بأسماء النظام الخاص فى الجيش والشعب .
وألمح المفاوضون وكانوا مجموعة من الساسة مثل صالح حرب باشا ومصطفى مرعى وغيرهم أن نظير هذا سيسمح للاخوان بالنشاط .
وأضاف مصطفى مرعى على استحياء أن الحكومة على استعداد لدفع منحة شهرية لحسن البنا .
وكان غاية مايفكر الرجل فيه هو المعتقلين من الجماعة ، وكيفية إنقاذهم من المعتقل .
وكان وحيدا حائرا إلا من بعض الأصدقاء الذين يزورهم بين الحين والآخر على تخوف من إحراجهم لرقابة البوليس الصارمة له .
وكان هناك من يحرص على لقائه سراً فى خفية عن أعين البوليس ذلك هو المرحوم حسن الهضيبى المرشد الثانى .
وذهب إليه حسن البنا وقص عليه القصة ، وأخبره أن ثمن الإفراج عن المعتقلين والصلح وعودة الجماعة هو ماذكر .
وأكد له حسن الهضيبى أن هذا فخ يسوقونه إليه ، ونصح بعدم الاستجابة إلى هذا الطلب ، ووقف مشاورات الصلح ، فهى خدعة لايجب أن تنطلى عليه ، وأنها

مفاوضات شكلية الغرض منها كسب الوقت لعمل شيء ما ، وكان هذا هو رأى حسن البنا أيضا .

وفي هذا اللقاء أكد المرشد الأول للمرشد الثاني أن وقف مفاوضات الصلح معناه القتل على قارعة الطريق ، وأن هذا مصير لاينبغي الهرب منه أو الخوف من حدوثه .

وأدرك حسن الهضيبي أن الأيام الباقية لحسن البنا لاتتجاوز بضعة أيام .

وكان هذا آخر لقاء بينهما !

واستشهد الإمام الشهيد بعد ذلك بأيام على قارعة الطريق بيد الحكومة الآثمة وترك بمستشفى القصر العيني ينزف حتى الموت .

والذى لاشك فيه أن موقف الإمام الشهيد من الصراع السياسي والمسلح ضد السلطة والإنجليز كان موقفا تمليه حركة الأحداث السريعة المتلاحقة التي لم تسمح له بالتقاط الأنفاس أو الاختيار وإحساسه المؤلم باعتقال الإخوان .

ونعود إلى عبد الناصر عضو النظام الخاص الذى خرج من النافذة بحجة الحفاظ على تنظيم الضباط الأحرار الابن الشرعي لجماعة الإخوان ، ثم دخلها من الباب الخلفي بعد أن أخفى هذا الوليد ونسبه إليه .

دخل الجماعة من الباب الخلفي على أثر ذلك اللقاء الذى تم بينه وبين صلاح شادي،والذى مهد له صلاح سالم من قبل .

كان يريد التخلص من عبد المنعم عبد الرءوف وأبي المكارم عبد الحي ومعروف الحضري وفؤاد جاسر وغيرهم وغيرهم من القيادات التي يمكن أن تجعل مكانه بعيدا عن الصدارة على مائدة الاجتماعات بوجودهم وتألقهم وإعجاب الضباط بهم .

وبدأ التحضير للثورة من خلال تنظيم للضباط انقسم أعضاؤه حول تحديد هوية هذا التنظيم ، بعضهم يظن أنه إخواني الشكل والمضمون ، والآخرون من السكارى والمخمورين المغامرين يرونه تنظيما وطنيا ، وهو أداة جيدة للمغامرة والانقضاض على السلطة .

ولم يكن أحد يعرف أنه تنظيم جمال عبد الناصر فقط عبر جمال عبد الناصر نفسه .

* * *

المرشد الجديد والنظام الخاص

وبدأ المرشد العام الجديد حسن الهضيبى عليه رحمه الله يعيد ترتيب البيت ، وكانت أول مشكلة تواجهه أو تعرض لحلها هى وضع النظام الخاص وصلته بقيادة الجماعة ، وما هى صلاحيات هذا النظام وقائده ؟ وأين ينبغى أن يقف ؟

وإنصافا للحق فمن خلال ماقرأناه وسمعناه عن شخصية المرحوم عبد الرحمن السندى أنه كان مغامرا جريئا مقداما ، وكان من الشخصيات النادرة فى عالم التنظيمات السرية واختيار الكوادر وفق قواعد دقيقة مدروسة .

وقد ساعده انتصاره المتعدد فى عمليات كثيرة،وتخطيطه المحكم فى تحقيق نفوذ بالغ العمق على مساعديه وأعوانه .

وقد أخبرنى واحد من هؤلاء ، من أعضاء النظام الخاص ــ وهو شخصية كبيرة الآن ــ أنه كان ينظر وغيره إلى عبد الرحمن السندى على أنه عملاق مارد ليس له نظير أو شبيه .

وقلت له وكيف كان يدور الحديث بينكما ؟

واندهش الرجل كثيرا وقال :

ــ أى حديث يمكن أن يدور بيننا ؟ أنا رقم ١٤٦ ، لقد كنت أراه فقط فى اجتماعات الثلاثاء التى يحضرها كافة الإخوان ، ولم يدر بينى وبينه حديث قط ، صلتى بالنظام الخاص لاتعدو المجموعة ورئيسها ولاشىء أبعد من هذا .

وقلت له :

ــ مثل الجيش ؟

ــ أى جيش ؟ لايوجد أى وجه للمقارنة بين النظام الخاص وأى جيش فى العالم . النظام الخاص تحكمه الطاعة العمياء والإيمان المقدس بأن هذه الطاعة جزء من كمال الدين وتمامه .

هذا الرجل أستاذ فى الجامعة وشخصية مرموقة ويشغل منصبا دوليا الآن .

وهذه الأمور التى ذكرت تجعل شخصية عبد الرحمن السندى متوثبة يصعب جماحها ، وهى بكل المعايير ــ وهذه وجهة نظرى وقد أكون مخطئا ــ خطر عظيم على النظام العام لجماعة الإخوان . فهو يرأس نظاما قويا حديديا يتبعه مباشرة ، وكان هو يتلقى تعليماته من المرشد الأول الذى استشهد ، ولعله كان يرى نفسه فى مكانة لايساويه أحد فيها ، ولعله كان أبصر بكل مايعترض طريق الإخوان من مشكلات . وهو لايدين بالطاعة لغير حسن البنا ، ومات حسن البنا وجاء من بعده

قاض قد تخطى الستين يختلف تماما عن البنا ، وقد قابل كل من الهضيبى والسندى الآخر ببرود شديد وعدم ارتياح من أول لقاء تم بينهما .

وهو أمر ليس غريبا ويتفق مع طبيعة الأشياء .

رجل عاش حياته على منصة القضاء .

وآخر عاش مختفيا عن أعين الشرطة والرقباء ، ويعمل على إسقاط النظام .

وعلى الثانى أن يكوم مرءوسا للأول ! ، والأول يرفض ذلك ويرى رأيا آخر ،وهو مازاد الأمر تعقيدا شديدا ، وأدى إلى الصدام الذى حدث بعد ذلك .

* * *

وعلى نفس النحو كان ينظر عبد الناصر لعبد الرحمن السندى .

وكان لايرى له مكانا بجانبه . لهذا كان حريصا أن تكون صلته من طريق آخر ، حيث لايلتقى بهذا الوهج الذى يسلب الزعامة ويضيع الفرصة فى التآمر وتحقيق الأهداف ، ولعل الاتصال بالإخوان عن طريق صلاح شادى ذلك الرجل الوديع المهذب الخجول الرقيق الحاشية يكون أولى وأجدى وأنفع لتحقيق الأهداف .

والظن أن عبد الناصر قد استطاع خداع الاثنين معا ، واستخدمهما لتحقيق أهدافه على نحو ما وفى أزمنة مختلفة . والأمور تجرى بمقادير .

كان عبد الناصر حريصا كل الحرص على استخدام الإخوان ، وعدم الانفصال عنهم إلى آخر مدى ممكن ، فهو على يقين من أنها القوة الشعبية الكبيرة المنظمة القادرة والمسلحة أيضا .

وكان الإخوان يرونه واحدا منهم !

وكان عبد الناصر حريصا على هذه الصلة ولو أمام جماهير الإخوان البعيدة عن الأحداث ، فكان يضع قادة الجماعة فى السجن ويذهب ليقرأ الفاتحة أمام قبر حسن البنا . ومعه حشد من المصورين والصحفيين .

حسن الهضيبى يتعرف على مؤسسات الجماعة

لم تكن جماعة الإخوان المسلمين بعد أن نمت ذلك النمو الكبير فى وحدة متجانسة متكاملة ، ولم يتح لقادتها عمل هذا الانسجام والتناسق بين كافة الأقسام المختلفة والمتباينة أحيانا مثل النظام الخاص وقسم الوحدات .

وجاءت الكوارث التى انتهت باستشهاد حسن البنا فقضت تماما على أى أمل قريب فى تحقيق هذه الوحدة والتجانس ، هذا رغم الكثرة العددية الهائلة إذا ماقيست بأى حزب من الأحزاب .

منذ هذا الوقت كان عبد الناصر يعلم معلومات يقينية عن الجماعة ، وعلى الأخص جهازها الضارب « النظام الخاص » . وكما قلت كان حريصا على قطع العلاقة التنظيمية به . وصنع أو شق لنفسه قناة أخرى عبر صلاح شادى وحسن عشماوى وعبد القادر حلمي ومنير دله ، رحم الله الأحياء منهم والأموات .

وانعدام الوحدة والتجانس فى صفوف الإخوان جعل شخصية مثل حسن الهضيبى وهو على رأس الجماعة لايعرف بتفصيل مايدور بين جماعة الاتصال هذه وتنظيم الضباط الأحرار ، ولايعرف موعد الانقلاب إلا قبل وقوعه بأيام ، حيث طلبت منه الموافقة ، وضغط عليه فى قبولها بحجة ضيق الوقت رغم تردده الشديد لنقص المعلومات لديه وارتيابه فى إمكانية النجاح .

واضطر جمال أن يؤخر موعد الثورة يوما حتى تأتيه موافقة المرشد التى تعنى وقوف الشعب المصرى بأكمله خلف حركة الجيش .

فى هذا الوقت كانت الأجنحة المتصارعة لاتعرف على وجه اليقين حقيقة مايدور ، وكانت مجموعة الاتصال ليست لديها الخبرة الواسعة بإقامة الدول وتغيير المجتمعات وكيفية التنسيق مع قوة مثل قوة الضباط .

وكانت تضع اليقين محل الشك ، وتفكر فى الأمور بقلبها وليس بعقلها .

ولم تكن تعرف طبيعة الشخص الذى تتعامل معه .. جمال عبد الناصر .

تصرفت معه على أنه واحد من أعضاء الجماعة ، لاقيمة لسلطان الدنيا كلها أمام كلمة المرشد وقانون السمع والطاعة ، فاكتفى صلاح شادى الوديع الرقيق بقراءة فاتحة معه على الباب وهو يودعه عشية الثورة !

وكم قرأنا الفاتحة ألف مرة مع أوغاد لم يجعلوا لها أدنى اعتبار !

وتحركت آلة الإخوان الضخمة لمناصرة الانقلاب ، وضمانتها سورة الفاتحة التى قرأها الأستاذ صلاح شادى وحده على سلم بيته مودعا جمال عبد الناصر ، ولم يكن بينهما أى اتفاق واضح غير ثرثرة هنا وهناك أغلبها من رياض الصالحين .

وفى العصافرة كان الهضيبى شديد التردد فى مناصرة هذا الانقلاب ، ولم يكن يعرف كافة مايدور فى صفوف الجماعة ، ولاشك أن المجموعة التى طلبت منه

التصديق على قيام الثورة قد عرضت الأمر من وجهة نظرها وعلى النحو الذى فهمته ، وكان فهما خاطئا بكافة المعايير كما بينت الأحداث .

ولم يكن أمام الهضيبى غير الموافقة ، ولكنه بشخصية القاضى استمع بإمعان وسأل عشرات الأسئلة ، والقاضى لايحكم بحسه ولكن بما يقع تحت يديه من أدلة وبراهين ومعلومات .

وهكذا سارت الأمور !

مهرجان الثورة والإخوان

وظل المهرجان قائما مدة ليست يسيرة ، الإخوان يظنون أن الانقلاب من صنعهم والضباط المسلمون على يقين من أنهم قاموا بالانقلاب تحقيقا لخطة الإخوان .

وعبد الناصر يتعامل مع جميع الفرق المتناحرة ، ويوسع شقة الخلاف بين الجميع ، والسكارى والمخمورون من الضباط ينظرون بتوجس وحذر لصلة عبد الناصر الوثيقة بالإخوان ، وهو لايكشف لأحد عن خططه بل يخفيها فى نفسه ، وينظم مايريد على شكل أحداث تفضى فى النهاية إلى رغبته .

وقد حكى لى المرحوم عبد المنعم عبد الرءوف أمام الأستاذ أحمد عادل كمال وأمام اللواء حسين حمودة أنه عندما ذهب إلى الإسكندرية لحصار رأس التين ، وكان أخبر الناس بجمال عبد الناصر ، وأكثر معرفه به من صلاح شادى وحسن عشماوى وسائر الإخوان المسلمين – حكى أنه اقترح على عبد الرحمن السندى أن يمده بألف من الإخوان يرتدون ملابس الجيش ويقوم بالقبض على مجلس الثورة ولم يكن يعرفه أحد فى ذلك الوقت ويكون الحكم إخوانيا خالصا .

ولم يستطع عبد المنعم عبد الرءوف أن يحقق شيئا من هذا .

الكل يظن أنه انقلاب الإخوان فكيف يقومون بالقبض على القائمين به ؟ ولم يستمع أحد لقوله ، ودفع الجميع الثمن غاليا بعد ذلك .

واستطاع عبد الناصر استقطاب كل العناصر الإخوانية التى تركت الإخوان وركنت إليه بحجة أنه الأمير الشرعى للحكم الإسلامى المنتظر .

ومن طريف مايروى أنه تعرف على سامى شرف الشهير فى « كتيبة » فى منزل عبد القادر حلمى ، وجمع أشهر معاونيه من بين صفوف الإخوان . وأسماء أخرى كثيرة صارت لها شهرة فى عالم الناصرية لاينبغى ذكرها فى هذا المجال ، وباختصار حتى لاتضطرب الموازين .

* * *

التقى المرشد العام بجمال عبد الناصر فى بيت صالح أبو رقيق يوم ٢٨ يوليو عام ١٩٥٢ وقال له :

ــ أنا لم أتفق على شىء مع هؤلاء يافضيلة المرشد وهاهم أمامك .

ولم يعلق أحد من الجالسين وكان منهم صلاح شادى وحسن عشماوى .

وسكت المرشد بقية الجلسة التى استمرت ساعتين .

وفى نهايتها قال لمن معه لاخير يرجى من هذا الرجل .

وتحت ضغط الحماس العارم فى صفوف القاعدة الإخوانية طلب أعضاء مكتب الارشاد من المرشد العام الذهاب إلى قصر عابدين وكتابة كلمة فى سجل التشريفات يحيى بها ثورة الجيش ، وكان ذلك بعد أسبوعين أو ثلاثة من الثورة .

وكانت الكلمة محل غضب واعتراض ولوم من جمال عبد الناصر .

وجاءت قصة الوزارة واجتمع مكتب الإرشاد ورفض الاشتراك فى وزارة مع ضباط الثورة لأسباب متنوعة ، ليس من بينها خطة واضحة المعالم أو رؤية لما هو قادم فى عالم الصراع الذى بدأ .

كانت خطة عبد الناصر أن يجعل ضباطه من الإخوان ينقلبون عليهم من خلال إفهامهم أنه صاحب الحق الشرعى وأن الآخرين عصاة ، وكان يسوق الحوادث فى هذا الطريق بحنكة ودهاء أكثر من الإخوان بالتا كيد ، الذين كانوا فى مرحلة لايعرفون من معهم ومن عليهم ، وخططهم غير واضحة ، وخبرتهم السياسية ضعيفة .

وقد ظل كثير من الإخوان حتى آخر لحظة يحسنون الظن بجمال، حتى إن يوسف صديق قد ذهب لتحذير المرشد العام من خطر جمال عبد الناصر على الحرية وسيره فى سبيل تحقيق ديكتاتورية العسكر وليس ديكتاتورية البروليتاريا التى كان ينادى بها يوسف صديق ، وكان هذا اللقاء فى منزل المرحوم منيز دله ، وسمعت زوجته الحديث فقالت ينبغى تنبيه الأخ جمال على الفور .

وبلغ الأخ جمال ونكل بيوسف صديق .

وسار فى طريقه يدير الصراع فى حنكة ودهاء ، وأرسل من أوعز إلى المرحوم عبد الرحمن السندى فى فترة من فترات الصراع أن يقوم على اغتيال الأستاذ المضيبى وأكد له أن الحكومة سوف تغض الطرف عن هذا .

ورفض الرجل هذه الفكرة !

العالم يرفض فكرة حكم الإخوان

واقترب عام ١٩٥٢ من نهايته .

وفى الأسبوع الأول من ديسمبر التقى سفراء الدول الأربع الكبرى بجمال عبد الناصر واحدا بعد الآخر .

السفير الأمريكى .. الروسى .. الإنجليزى .. الفرنسى .

وكان لهم مطلب واحد .

قال السفير الامريكى :

ــ نحن لم نساعدكم فى الوصول إلى الحكم ليحكم الإخوان ، ونحن نفضل حكم أى حزب شيوعى على حكم هؤلاء المتطرفين .

وقال السفير الروسى :

ــ نحن نفضل حكم الأمريكان على حكم الإخوان .

وقال السفير الفرنسى :

ــ إن حكم الإخوان فمعنى هذا أن يمتد اللهيب الإسلامى إلى المغرب العربى .

وقال السفير الإنجليزى :

ــ على ضفاف القنال ثمانون ألف جندى بريطانى سوف يتحركون إلى القاهرة إن لم تضعوا حدا لهذه المشكلة الإخوانية .

وأخفى عبد الناصر سروره واجتمع مجلس قيادة الثورة ، وكان من به من السكارى والمخمورين قد اجتمعوا من قبل بهؤلاء السفراء .

وطرح الأمر ، لخداع الجانب الإخوانى فى المجلس ، وكانوا بطبيعة الحال على استعداد كامل للانخداع بحكم التكوين وعدم اتساع الرؤية .

وطلب عبد الناصر الرأى من المجتمعين .

ونقل المخمورون ماسمعوه من السفراء !

قوة الإخوان الشعبية كبيرة ، وللقضاء عليها ينبغى أن تتكون قوة شعبية أخرى تحتويها ثم تلفظها ، ويُتخلص منها واحدا بعد الآخر .

وقال عبد الناصر :

ــ نستطيع خداع الدول الكبرى لو قبل الإخوان تجميد نشاطهم والاندراج فيما يمكن أن نسميه بهيئة التحرير ، ويكفى أن ننزع اللافتات من فوق شعب الإخوان ونضع مكانها لافتة عليها اسم هيئة التحرير .

ثم أرسل البكباشي مؤخرة الثورة ــ كما كان يسميه ــ إلى المرشد العام واقترح عليه هذا الاقتراح ، وقال له سم من شئت ليكون رئيسا لهيئة التحرير هذه . ولكن حكمة الرجل وتجربته جعلته يرفض ، وعلم أنها الواقعة ليس لوقعتها كاذبة .

الرؤية السياسية للإخوان

والذى نعرفه أن قيادة الإخوان كانت على وعى بالمخططات الاستعمارية وعدائها التقليدى المتوارث من أيام الحروب الصليبية فى الشرق والغرب ، فى بلاد الشام والممالك اللاتينية التى نشأت ثم بادت ، وفى حرب مايسمى بالاسترداد فى الأندلس المسلمة . ثم ظهور الممالك الأوروبية والإمبراطوريات عقب عصر الكشوف الجغرافية . والصدام الكبير بين البرتغاليين والمماليك فى مصر ، واكتشاف رأس الرجاء الصالح ، ثم خروج بريطانيا بأساطيلها لغزو الهند المسلمة ، وسائر مافى هذه القصة من تفاصيل القوة التى خرج بها الغرب ، والضعف الذى آل إليه الشرق .

وتغير أسلوب الصراع مع الزمن ، وصارت السياسة تغنى عن الأساطيل والمدافع أو ينبغى أن يكون الأمر كذلك .

وتطورت المعارف والعلوم والنظرة إلى الأشياء . وبدأت صحوة المسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية أو أثناء التمهيد لذلك ، وهى علامات تغير الأزمنة وتحولها من طور إلى طور ، عبر عالم غامض لاتبدو فيه الحدود الفاصلة بوضوح بين العهود والعصور، ولكنها تتداخل فى امتزاج يصعب فصله أو إدراك علاماته على وجه التحديد .

سقطت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ، وظهرت أمريكا وروسيا على أنقاض عالم ماقبل الحرب العالمية ، فى الوقت الذى كان المد الإسلامى فيه قد صار يشكل خطرا جديدا وتكوينا يوشك أن يفرض نفسه على عالم مابعد الحرب العالمية .

وهنا تلتقى كافة القوى فى الشرق الملحد والغرب المسيحى على احتواء هذا المدالجديد ، ليس بالحديد والنار ، ولكن بالسياسة وحسن التقدير ، ومن خلال التلاميذ والصنائع والعملاء ، وهم أسهل شيء يمكن عمله فى بلاد قد فقدت حضارتها ودينها وشرفها،وانهزمت روحيا ونفسيا أمام أعدائها .

ورغم أن قيادة الإخوان ومفكريهم كانوا يدركون هذه الأمور الواضحة وهو ماينبغى لأهل العلم والثقافة ، إلا أن الحوادث بتلاحقها لم تكن تدع لهم الفرصة

لتبين الخطوات المرحلية ، مع العجز عن النظرة الجزئية للتفصيلات التى تأتى وفق خطط مرسومة من هنا وهناك .

وكان جسم الإخوان المسلمين أو البنية الأساسية لهم تعتمد على مدرسى المدارس الإلزامية والصناع بمختلف تخصصاتهم ، ورغم الدور الذى لعبه هؤلاء فى القرى والأحياء الشعبية فى المدن الكبرى إلا أنهم عكسوا أفكارهم على قيادة الإخوان وعلى مفكريهم أيضا ، وكان العكس هو الذى ينبغى أن يكون . لهذا كان الإدراك السياسى العام ضعيفا مع انعدام القدرة على تكوين الكوادر السياسية وقيادة الشارع المصرى من خلال تبنى مشاكله الرئيسية .

وبوجه عام لم تمنحهم الأحداث الفرصة الكافية العادلة للتفكير والتخطيط . وتصوروا خطأ أن طبيعة المرحلة تستدعى الحشد والجمع ورص الصفوف لجند قد لايتبينون الخطة الكلية ، وقادة لا يعرفون غاية هذا الحشد على وجه واضح مبين .

كل هذا ترك أثره على الجماعة عندما دخلت حربا من نوع جديد لم تعهده من قبل ، واستغرقتها تفصيلات لم تكن ببالها .

وضع الغرب أمامهم عدوا قادرا منظما يمدونه بالمعلومات والتفاصيل ، وهم أيضا يعينونه على الحركة ويرسمون له الخطط لضرب الإخوان وينفذون معه .

ونصف الإخوان يظنونه واحدا منهم .

وأكثر من النصف يتصورونه صراعا داخليا فى صفوف الجماعة .

ذلك العدو هو بالتأكيد جمال عبد الناصر .

صنعه الغرب ومهد له ووطد لسلطانه ، والتقت الغاية فكان حلف غير مقدس ، وربما أدرك جمهور الإخوان ذلك فى السجون والمعتقلات، وفى صحراء الواحات الحارقة حيث النفى والسجن والبعد عن العالم حتى ينسوا الإسلام أو ينساهم الناس .

لماذا قامت ثورة ٢٣ يوليو ؟

كان حسن الهضيبى يفهم هذه الأمور بالتفصيل ، وقليل ممن معه .

وكانت صلته بالجماعة هى صلة السمع والطاعة، وعلى دخن فى أحوال كثيرة ، ولم يساعده قرب عهده بقيادة الإخوان على الاحاطة السريعة بطبيعة المؤسسات المنتشرة داخل الجماعة وقدرتها وتأثيرها على سير الأحداث .

وكانت رغبته عميقة فى ترك القيادة ، وأبدى هذه الرغبة فى ظروف متعددة ، ولكن الواجب أرغمه على البقاء حتى آخر لحظة من حياته .

ومن ثم أصبح رمزا للصمود والتحدى والصلابة .

لم ينتبه الإخوان أنه بظهورهم يؤذنون بدولة جديدة مؤهلة لقيادة العالم وسيطرتهم عليه من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى على شواطىء إندونيسيا واليابان . وأنهم مؤهلون لهذا الدور ، وأن جميع العوامل تؤدى إليه .

ولم ينتبهوا إلى قوة خصمهم وأساليبه ، وكانوا عاطفيين أكثر مما ينبغى فى بساطة المؤمنين وسذاجة الصالحين ، وغفلة المتحمسين .

لم يعرفوا أن هناك المعاهد العلمية والمخابرات العالمية تقوم على رصد الظاهرة الإسلامية،وتضع الخطط للقضاء عليها وإبطال مفعولها .

وبعد كل هذه السنين نجد التاريخ يعيد نفسه ، وهذا مايحدث الآن مع التطور الكبير فى المعلومات وطرق تصنيفها وسرعة الحصول عليها .

وجد الإخوان أنفسهم فى حرب لم يفهموها ولم يدركوا أبعادها ، وتناولوها تناولا ساذجا ، حتى بدت الصورة لبعضهم ولبعض أصحاب النظرة الجزئية أن الأمر لايعدو صراعا على السلطة فى بلد صغير يقع على ضفاف النيل اسمه مصر .

والحقيقة أنها كانت حربا ضروسا شديدة الوطأة لمحو كلمة الإسلام .

« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

واستطاع أعداء الإخوان والإسلام أن يشغلوهم عن استراتيجية الحرب ، وأن يشغلوهم بالتفصيلات الصغيرة ، وأن يستنفدوا طاقتهم فى نقاشها وتحديد موقفهم منها ، بينما الحركة الاستراتيجية ماضية قدما فى قتل هذه الطليعة وسحقها ، وكان لهم ماأرادوا إلى حد ما .

أو على الأقل فى تلك الحقبة التى مضت من الزمن .

لم يع الإخوان درس التاريخ،فكانت محنتهم المروعة التى تركت أثرها على التغيرات الاجتماعية الكبرى ، ولاتزال .

كان قيام ثورة ٢٣ يوليو لوقف المد الإسلامى،ورصد القوى الإسلامية بشكل دقيق ، ووضعهم فى المختبر لوضع العلاج لمثل هذه الظواهر فى مستقبل الأيام ، فالتاريخ هو نهر الزمن المتدفق عبر الأزل فى اتساق مع الماضى والحاضر والمستقبل .

وعندما ندخل فى التفصيلات نجد جماعة قد انقسمت على نفسها ،وقد استغرقتها الجزئيات،وهى قادمة على محنة مروعة قد قدرت لهم فيها الإبادة،لولا لطف الله ورحمته وعهده بالحفاظ على دينه حسب النواميس التى ارتآها .

* * *

كان أمام حسن الهضيبى خياران لاثالث لهما .

الخيار الأول أن يدخل فى حرب سافرة مع النظام الذى يمثله جمال عبد الناصر واحتمالات انتصاره كبيرة وموجودة رغم كل المعوقات إذا أخذنا فى الاعتبار أن جسم الإخوان الأكبر يدين له بالسمع والطاعة ، وأن من بين هذا الجسم عددا غير يسير من الضباط،ومن بينهم من هو فى موقع قيادى مؤثر ، بالإضافة إلى أن البلد مازالت به روح الحرية التى لم يقدر لها القتل بعد ، وكراهية معظم من فى الجيش من الضباط المحايدين لجمال عبد الناصر،حسدا أن صار رئيسا لمصر وجلس على كرسى فاروق .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن قوة الإخوان الشعبية تسمح لهم بتحرك ناجح يلتف حول السلطة،ويأخذ مكان الحكومة فى مناورة قد يسفر عنها حرب أو قتال ينتهى فى النهاية لصالحهم .

ورفض حسن الهضيبى هذا الخيار .

وكان الحق معه .

فالحابل قد اختلط بالنابل ، وسوف يصعد بجماعة إلى كرسى الحكم بعد طوفان من الدم،وسوف يؤكد الديكتاتورية ويقوى جذورها باسم الإسلام عبر عناصر لم تكتمل تربيتها بعد ولم تع درس التاريخ ، ولاتفهم ما الذى يراد بها ومنها على وجه التحديد ، فى عالم متغير شديد التعقيد .

وأحد الأدلة على صواب نظرته أن معظم الجبابرة الذين حكموا مصر فى عهد الثورة وأحكموا رباطها بحذاء الغرب قد مروا على شعب الإخوان يوما ، ومنهم من بايع المرشد على السمع والطاعة ، ومنهم من كان فى النظام الخاص .

وإذا أعطينا مثلا قريبا إلى الذهن فنقول: ... الذى لبث فى الوزارة أحقابا ، كان من أعضاء شعبة العباسية للإخوان .

ولعل من يقول وماذا فى هذا المثل ؟

... ،لنرى التغيير الضخم الذى صنعته القوى

المعادية للإسلام عبر حكومة الثورة،بدءا بضرب الإخوان وانتهاء إلى مانحن فيه الآن ، وما أدراك مانحن فيه الآن ؟

وكان الخيار الثانى هو ترك الأمور تسير على النحو الذى رسمه الأعداء وهو أبقى للدعوة وإعطاء الفرصة لجولة فى المستقبل ، وأعمار الأمم تقاس بعشرات السنين ، وليس من صواب الرأى الدخول فى حرب لايدرك القائمون فيها على الجيش أبعاد المعركة وأهدافها .

وكان هذا هو الخيار الصعب الذى اختاره حسن الهضيبى مع بذل جهده لتخفيف هذه المحنة،ووقعها على نفوس الإخوان .

وبذل فى هذا السبيل غاية مااستطاع .

رفض بإصرار أية فكرة لإحداث شغب .

استطاع أن يقنع معاونيه بعدم التفكير فى اغتيال عبد الناصر ، فالأمر أكبر وأعظم من وجوده أو عدمه .

عرض فكرة محاولة ترتيب البيت من جديد ، ومحاولة دراسة المعطيات وكافة الظروف المحيطة .

فى هذا الوقت كان محمد نجيب يتقرب من الإنجليز ويستعين بهم فى صراعه مع عبد الناصر . وكان لايزال يظن أن الإنجليز هم سادة الموقف،وأنهم وراء الأحداث والتغيرات ، ولم يتخيل أبدا أنهم — الإنجليز — قد تركوا القيادة وتنفيذ المخططات للأمريكان .

وكان هذا هو الفرق الجوهرى القاتل فى صراعه مع عبد الناصر ، ذلك الصراع الذى انتهى تلك النهاية المأساوية التى يعرفها الجميع .

وكان الهضيبى أبعد نظرا ، فقد كان يرى الحقيقة ظاهرة ، فعربة الشرق الأوسط قد جلست أمريكا على مقعد القيادة فيها،وبجوارها جلست انجلترا لمجرد إرشاد القائد إلى بعض علامات الطرق لطول عهده بالمكان .

أما العربة نفسها — عربة الشرق الأوسط — فقد تحدد مسارها بشكل لايقبل المناقشة أو المراوغة ، وغايتها منع حدوث انتفاضة إسلامية هائلة تغير التاريخ فى ذلك الجسم الضخم المارد الممتد فى أكبر بقعة من أرض العالم القديم ، وهو أيضا يرنو بعين متوثبة إلى العالم الجديد .

* * *

الهضيبي يريد تخفيف الصدمة

كانت مهمة حسن الهضيبي شاقة وصعبة ، فقد استوعب كافة المعادلات فى عقله ووعاها بوجدانه ، وكان من القادرين على فهم حركة التاريخ ، ودور المسلمين وإمكاناتهم فى هذه المدلهمة التى زاد وغطى عليها ظهور عبد الناصر .

أراد الهضيبي أن يخفف ماوسعه من شدة الصدمة ، وحاول أن يجعل المحنة أقل فظاعة مما كانت عليه ، ولكن لابد له لتحقيق هذا من وجود جهاز قادر على درجة مقاربة من فهمه للأمور ، ولم يكن هذا متيسرا للأسف الشديد .

كانت الظواهر واضحة،ولم يدركها أحد على شكلها الصحيح .

أرادوا أن يصدروا بيانا صحفيا ينعى على الاستعمار « الإنجلو أمريكى » وقدم خالد محيى الدين البيان لجمال عبد الناصر فاعترض وقال يكفى الاستعمار الإنجليزى أو الاستعمار فقط ، وهذا يحقق المعنى المطلوب .

وحكى لى المرحوم منير دله — وكان مستشارا بمجلس الدولة — عن مشروع قانون تابع « للنقطة الرابعة » وكانت النقطة الرابعة هى من مقدمات الاقتراب من هذه البلدان النائمة ، وهو يعطى صلاحيات أمريكية على حى شبرا كتجربة تصل إلى المجلس البلدى والشرطة وكل شىء .

كان هذا فى الأيام الأولى من الثورة .

والتقى منير دله بعبد الحكيم عامر وقصَّ عليه القصة وتعجب ، وقال له هذا غير معقول ، وأجابه منير دله أن المشروع مقدم من مجلس الوزراء ، وكان رئيس المجلس هو جمال عبد الناصر ، وأكد عبد الحكيم عامر أن عبد الناصر لا يمكن أن يوافق على مثل هذا المشروع .

وتم لقاء عاجل بين الثلاثة .

وكان عبد الناصر يتكلم بسخرية واستهانة فى هذا اللقاء .

قال له منير دلة :

— هل تفهم ماذا يعنى هذا القانون ؟

وقال عبد الناصر :

— وماذا يعنى ؟

— يعنى أننا نضع حى شبرا تحت الإدارة الامريكية بالكامل .

وقال عبد الناصر :

ـــ والله لو وافقوا على أن يضعوا القاهرة كلها تحت إدارتهم لوافقت . أنتم لاتدركون مزايا الإدارة الأمريكية والحكم الأمريكى .

وضحك ساخرا .

وقال له منير دلة فى حزم :

ـــ لن يوافق مجلس الدوله على هذا القانون .

واصفر وجه عبد الناصر انفعالا وقال :

ـــ هذه هى مساوىء الديمقراطية والحرية وسائر مانعرف من كلام فارغ .

وتودد إليه منير دله وهو يقول :

ـــ هل تدرك ياجمال ما الذى تفعله ؟

وفى غضب أجاب :

ـــ أدرك جيدا ، وسوف يأتى الوقت الذى نحقق فيه أهدافنا دون العودة إلى مجلس دولتكم هذا الذى يضم طائفة من الجهلة المخرفين .

والتفت منير دله إلى عبد الحكيم عامر :

ـــ مارأيك ياعبد الحكيم ؟

ولم يرد عبد الحكيم بكلمة واحدة !

ولم تصل تلك المعانى بوضوح إلى جمهور الإخوان .

وعندما قص منير دله هذه القصة على حسن الهضيبى ابتسم ساخرا ولم يعلق ، ربما لأنه يفهم هذه الأشياء جيدا وليس فى حاجة إلى أدلة جديدة .

وكانت المشكلة الرئيسية عنده هى كيفية التخفيف من هول الصدمة القادمة .

هذا ليس عصر الإخوان

فهم البعض أنه يستجيب لطلبات عبد الناصر عندما قام بفصل قادة النظام الخاص من جماعة الإخوان المسلمين،عقب لقاء تم بين قادة الثورة وقادة الإخوان وعلى رأسهم المرشد العام ، وفهموا أنه يقوم على تصفية الجماعة .

وقد أخطئوا فى هذا الفهم بالتأكيد .

كان الهضيبى يعرف جيدا أن هذا ليس عصر الإخوان ولكنه حكم الأمريكان ، والإخوان لايفهمون هذا وأنهم بصدد محنة ضروس ولكن لايعلمون .

والغريب أننا مازلنا نعيش فى حكم الأمريكان .

ولعلها آخر أيام حكمهم !

وبدأت قصة الحمل والذئب ، ودوت مدافع حرب الإبادة .

والرجل يعمل جاهدا على تخفيف عدد القتلى والجرحى فى معركة ليست متكافئة بلا فائدة .

وأذكر مرة عندما التقيت معه فى مستشفى معتقل طرة السياسى .

وسألته :

ـــ فضيلة المرشد .. هل تنوى كتابة مذكراتك ؟

وسرح طويلا وابتسم وقال :

ـــ كلا ..

وقلت له متأدبا :

ـــ لماذا ؟ ألا ترى لها أهميتها وفائدتها ؟

وزادت ابتسامة الرجل عليه رحمة الله وقال :

ـــ ضررها بالغ ومحقق !

ـــ لماذا ؟

وفتح المصحف معلنا نهاية اللقاء كعادته .

وكثيرا مافكرت ما الذى يمكن أن تحتويه مذكرات ذلك الرجل العظيم ؟

ونعود إلى ماكنا فيه ..

أمريكا تحكم قبضتها على مصر !

عبد الناصر ينوى ضرب الحركة الإسلامية فى مقتل ، ومقتلها هو الإخوان !

وجماعة تهيىء نفسها للحكم بالإسلام ، وهى غير واعية من أنها لاتستطيع ، على الأقل فى تلك الحقبة السوداء من الزمن .

ولايزال سوادها جاثما على المكان !

ورجل على رأس الجماعة يريد أن يدخل بها إلى طور الكمون،حتى تتهيأ الظروف بأقل مايمكن من خسائر فى المال والأرواح .

ولعله نجح فى بعض ماكان يفكر فيه ، وربما كان يستطيع النجاح بشكل أكبر من ذلك لو فهمه كل من معه .

ولكن كما هى عادة التاريخ فإن التغييرات الكبرى لايمكن أن يعيها غير أفراد قلائل ، وعلامات الأزمنة لايفهمها غير الندرة والصفوة من الناس .

كانت خطة الرجل بسيطة وسهلة .

وهى تجنب الصدام ، ولو أدى الأمر إلى تسليم مفاتيح المركز العام لجمال عبد الناصر، مع الفتوى بعدم جواز قتله هو أو غيره .

ولكن ماذا يفعل حيال جمهور قوى غاضب مسلح ، قد هيأ نفسه للنصر والحكم ؟

وفكرت الحكومة فى اغتياله ، واختفى تجنبا لرد فعل قتله .

وصارت تعرض الخطط واحدة إثر أخرى وهو فى مخبئه ، ويرفضها واحدة بعد الأخرى . واضطر تحت ضغط الظروف إلى الموافقة على قيام مظاهرة مسلحة تنادى بالحرية والديمقراطية عندما يعلن محمد نجيب ذلك من أجهزة الراديو من الإذاعة ، وكان هدفه الدفاع عن النفس ولكنه كان حلما من الأحلام .

وكان محمد نجيب ممن لايفهمون معادلات السياسة فى مصر هو الآخر ، وكان يعيش عصر الإمبراطورية البريطانية التى انتهى عهدها ، وأمر حسن الهضيبى بتشكيل الجهاز السرى ليرث النظام الخاص تمهيدا لطور الكمون الذى كان يفكر فيه ، وكان لابدَّ له أن يسيطر على جميع التشكيلات ، ويحصل على كافة الأسلحة الموجودة طرف المجموعات .

ولم يكن الجهاز السرى الجديد يفهم حقيقة أبعاد مايجرى .

وكان كل تصرف يفعله أو يأتيه الهضيبى يقابله سيل من الشائعات والإعلام المضاد .

وقد صرَّح لبعض من يثق بهم قائلا :

ــ يجب أن يتهيأ الإخوان لمحنة قاسية الله سبحانه وتعالى وحده يعلم كيف تنتهى .

وقال أحد الجالسين :

ــ عندنا قوة تستطيع أن تقف أمام الجيش .

ونظر الرجل إليه ولم يرد ، فلم يكن هذا صحيحا ! وتكلموا فى باب المقاومة المسلحة ، ورفض الرجل فى حزم . ولم يجد من ينصفه فيما فعل ، إلا قلة من الفاهمين الذين أدركوا وجهة نظره بوضوح ، وعلموا أن عين الحكمة هو ماارتآه . ولو أطاعوه لخف الضرر كثيرا عما كان ، ولصارت المحنة أخف ضراوة ووحشية مما كانت .

* * *

حسن الهضيبي يتهيأ للمحنة

وهيأ حسن الهضيبى نفسه لنهاية شبيهة بنهاية سلفه حسن البنا ، ولهذا كان مطمئنا واثقا من خاتمة المطاف وأن الخير فيما يقدره الله .

وعندما حكمت عليه محكمة الشعب بالإعدام لم ير أكثر هدوءا وانشراحا مما كان عليه .

واتصل أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف آنذاك بالسيدة المرحومة حرم المرشد العام وقال لها :

ــ اطمئنى ، نحن نبذل قصارى جهدنا لتخفيف حكم الإعدام إلى المؤبد .

وردت عليه رحمها الله فى التليفون :

ــ لقد أخذ مكان رجل أريق دمه على قارعة الطريق العام ، وهو مهيأ دائما منذ أخذ هذا المكان لنفس المصير . ولكن ماشعورك أنت .. عضو مكتب الإرشاد السابق فيما يحدث الآن من التنكيل بالمسلمين ؟

ووضع أحمد حسن الباقورى السماعة دون أن يرد ، والله وحده يعلم المشاعر التى كانت تجيش بصدره ونفسه ساعتها .

* * *

عود على بدء

لاشك أن اختيار حسن الهضيبى مرشدا عاما للإخوان المسلمين بعد وفاة المرحوم حسن البنا كان اختيارا مثاليا . فلم تكن توجد الشخصية التى يتفق عليها الإخوان اتفاقا تاما بين أعضاء مكتب الإرشاد . وكان من المشاكل الرئيسية التى تواجه الجماعة

وضع النظام الخاص ، فهو مع أهميته فى الدور الوطنى والقومى إلا أن هناك ماينبغى علاجه وله صلة بالنظام عقب الحوادث التى حدثت مؤخرا آنذاك .

استفحل النظام،وشعر رئيسه بصلاحيات وسلطات لاحدود لها بعد نجاحه فى كثير من العمليات التى قام بها ضد الإنجليز وأعوانهم ، ويقال إنه كان يقوم على تنفيذ أشياء دون الرجوع إلى حسن البنا

والذى وضح للأذهان هو قوة عبد الرحمن السندى وسلطانه الذى زاد،وشعوره بأهميته وأهمية النظام لحماية الجماعة ، وقد يكون الحق معه ، ولكن لابد أن يكون هذا فى إطار من نظام ، وهذا مابدأ يتزعزع فى نفس المرحوم عبد الرحمن السندى .

وكان الإعلام الهائل الذى قامت به الحكومة ضد الإخوان ، ووصفهم بالإرهاب والمبالغة فى تصوير عملياتهم وعرضها على الرأى العام وتشويه صورتها ، وتغيير دوافعها ، كل هذا لابد له من خطة لعلاجه مع الناس .

فاختيار أحد رجال القضاء يحسن الصورة أمام الناس والرأى العام ، ذلك أنه عندما يرون علما من أعلام القضاء فى ذلك الوقت قد صار مرشدا عاما للإخوان فإن الصورة تتحسن كثيرا لديهم ولو لم يذهب الموضوع إلى أبعد من هذا .

ولكن لو جاء هذا المرشد الجديد وقال كلاما ضد الإرهاب ، تمهيدا لتحرك إعلامى جديد، فإن هذا يساعد على تحسين الوضع بشكل عام .

كان المرشد العام يعرف أن هذا النظام الخاص معد لتحرير مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية من الاستعمار ، ولكن الكلام فى هذا المجال لايصلح ، والشرح لن يفيد ، بل سوف يزيد من سوء الصورة التى صنعها الإعلام .

ولهذا كان كل شيء يحتاج إلى تحرك جديد وتصور مختلف .

وكان هذا هو واجب المرشد العام الجديد رغم معلوماته القليلة عن مؤسسات الجماعة وأعضائها ، ومن الطريف أنه هو نفسه ــ حسن الهضيبى ــ قام على طبع أحد منشورات الإخوان إبان نكبتهم عام ١٩٤٨ ، ونجح فى وضع المنشور على مكتب الملك فاروق بمعنى أن صلته بالعمل السرى موجودة .

وكان لابد من عمل إعلامى مضاد لإعلام الحكومة ، وبدأت الشائعات تخرج من الصفوف الإخوانية ، بعضها عن غير قصد ، والآخر وفق خطة مرسومة .

ولم يعترض الإخوان على شائعة أن حسن الهضيبى هو مرشح الملك ، حتى إن جهات الأمن تصورت هذا فى فترة من الفترات ، وأنه قد جاء لإلغاء النظام الخاص ومحو العمل السرى ، وتنظيم علانية الدعوة . وقد أدى هذا دورا هاما فى تحسين الصورة أمام الحكومة والناس . والغريب أن مايقوله الناس تصدقه الحكومة ، وماتقوله الحكومة لايصدقه الناس أبدا .

وزادت هذه الشائعات حتى إن الإخوان أنفسهم قد صدقوها ، أو صدقها بعضهم وفى اجتماع تم مع المرشد الجديد سأله حلمى عبد المجيد :

ــ هل صحيح أن فضيلة المرشد ينوى إلغاء النظام الخاص ؟

ورد عليه المرشد الجديد، وكان قليل الكلام :

ــ إن النظام الخاص من الجماعة كحرف الخاء لانستطيع حذفه .

وكان قد ذهب إليه من قبل المرحوم عبد الرحمن السندى ومعه الشيخ سيد سابق ، وسأله السندى عن حقيقة مايقال عن نيته فى إلغاء النظام الخاص ، وأجابه المرشد الجديد بكلمة واحدة غامضة :

ــ لاسرية فى الدعوة .

وقيل إن عبد الرحمن السندى كان متغطرسا فى هذا الاجتماع ، وإنه كان يكلم مرشده الجديد بشىء من الكبرياء والأنفة ، وإن كان قد حدث شىء من هذا فربما شعر قائد النظام بأن ماقام بينائه يوشك على الانهيار على يد مرشد جديد لايعرف أبعاد الدعوة وأسرارها من وجهة نظره .

وكان السندى قد طرح اسما على الإخوان يكون مرشدا هو المرحوم صالح عشماوى ، ولكن الإخوان استقروا على حسن الهضيبى وبايعوه .

وخرج السندى ثائرا من اجتماعه مع المرشد ، وأعلن لأعضاء النظام أو لقيادته يقينه من أن المرشد الجديد قد جاء لإلغاء النظام .

وذهب واحد للقاء المرشد يسأله عن هذه القصة ومدى حقيقتها .

وابتسم الرجل الذى حنكته الأيام ، وقال لذلك الذى جاء يسأله :

ــ كيف يتسنى لقائد نظام سرى ــ يقصد السندى ــ المفروض أننى رئيسه أن يأتى ليسألنى فى أمر دقيق كهذا ومعه شاهد ؟ هذا يتنافى مع أصول السرية وطبيعتها لو يعلم فهو ليس عنده نظام ولا يعرف السرية .

وسأله الرجل عن حقيقة الموضوع .

وزادت ابتسامة المرشد العام الغامضة ولم يقل شيئا .

ولم يخطر على بال أحد من أعضاء النظام وقادته وعلى رأسهم السندى عليه رحمة الله أن هذا النظام وقيادته صار معروفا بأسماء أصحابه بعد الحوادث المشهورة ، وأنه من الحكمة أو طبيعة العمل السرى أن تتغير كل هذه الأسماء التى صارت هدفا مرصوداً .

ولكن هذا يأخذ وقتا ليس باليسير ، وهناك أوليات ينبغى عملها .

وبكل المقاييس كان يجب تغيير كل الأسماء التى ظهرت وعرفت من مكان القيادة .

ولكن الأحداث تلاحقت فأحدثت ارتباكا فى كل توقيت .

* * *

ثم فصل تنظيم « الضباط الاحرار » — الذى أنشأه الإخوان — عن الإخوان عام ١٩٥٠ قبل أن تتم انتخابات نادى الضباط ، وقبل ضم محمد نجيب إلى هذه المجموعة ، وتولى عبد الناصر قيادة التنظيم ، ثم جاء الوقت الذى أشترط فيه أو استطاع إقناع صلاح شادى بأن صلة « الضباط الأحرار » بالإخوان لاينبغى أن تكون عبر عبد المنعم عبد الرؤوف أو أبو المكارم عبد الحى وذلك لتأمين التنظيم .

وعرض الأمر على المرشد الجديد الذى يتحسس طريقه لمعرفة الجماعة عبر حقول الألغام التى خلفتها نكبة عام ١٩٤٨ ووافق ، ولعلها خطوة من وجهة نظره فى سبيل تغيير الأسماء المعروفة التى قد يضر وجودها أكثر مما ينفع .

وتشكلت لجنة للاتصال بالضباط الأحرار مكونة من منير دله وصالح أبو رقيق وصلاح شادى وعبد القادر حلمي وحسن العشماوى .

ثم توثقت الصلة بين الضباط الأحرار ويمثلهم جمال عبد الناصر ، وبين اثنين هما صلاح شادى وحسن العشماوى ، وكان الأخير على صلة وثيقة بجمال عبدالناصر وقريبا إلى قلبه ونفسه ، وكان الأول هو منافس عبد الرحمن السندى فى العمل السرى ، وكان المرشد الجديد يثق به ويتلمس طريقه عبر الجماعة من خلاله وآخرين .

وكان المرشد يتوجس من عبد الرحمن السندى . وذلك عندما علم أن ذلك الزائر الذى ذهب إليه يسأله عن حقيقة قصة إلغاء النظام قد جاء بعد اجتماع خطير أعد له عبد الرحمن السندى وجمع فيه نخبة من قيادات النظام مثل مصطفى مشهور وأحمد حسنين وحسنى عبد الباق وحلمى عبد المجيد والسيد فايز والدكتور أحمد الملط وكمال السنانيرى ومحمد شديد وجمال فوزى .

وفى حماسة وعنف عرض المرحوم عبد الرحمن السندى فكرة خلع المرشد وتنصيب صالح عشماوى مكانه ، ورحم الله الجميع .

ودافع عن فكرته ، وحاول أن يأخذ قراراً من المجتمعين بهذا ، ولو وافقوا لتم له ماأراد ، ولكن المجتمعين أصروا على سؤال المرشد والاستفسار منه .

* * *

استقرت الأحوال للمرشد الجديد،وبدأ ينفذ سياسته الجديدة لاعادة ترتيب البيت من الداخل ، وإزالة ما علق باسم الإخوان من علام سيىء

وقضى شهوره الأولى يستمع ويحاور ويسأل ويستفسر حتى انتهى إلى قرار ، كان هذا القرار هو تنحية عبد الرحمن السندى عن قيادة النظام الخاص .

وكان محقا فى قراره ، فليس من المعقول أن يقوم على رأس النظام اسم معروف لكل دوائر الأمن فى مصر والعالم .

ذهب الأخ محمد شديد إلى المهندس حلمى عبد المجيد وقال له :

ـــ قد قرر المرشد العام عزل عبد الرحمن السندى عن رئاسة النظام .

ودهش حلمى عبد المجيد ولم يكن يصدق وأعاد السؤال للتأكد ، وأكد له محمد شديد أن هناك مشاورات كثيرة قد تمت واختير هو- حلمى عبد المجيد - رئيسا جديدا للنظام . وقال حلمي عبد المجيد :

ـــ ليس أمامنا غير السمع والطاعة ، ومن الذى اختاره المرشد ؟

ـــ أنت .

وتشكك حلمى عبد المجيد فى هذا الكلام،ولكن محمد شديد أكد له هذا،وأخبره أنه موفد من المرشد العام لإبلاغه هذا القرار .

وأسرع حلمى عبد المجيد للقاء المرشد العام وجلس إليه فى بيته ، وقال له إنه ممن يسمعون ويطيعون،ولكن هذا الاختيار ربما لايكون موفقا .

وصار يسوق له من الحجج والمعاذير والأسباب والدواعى ما يجعله يرجع عن قراره ، وسمَّى له أسماء أخرى تصلح لهذا العمل خيرا منه .

واستمع إليه المرشد العام باهتمام وصبر ثم قال :

ـــ كل ماقدمته من حجج ومعاذير لم أقتنع بها وأرجو تنفيذ التكليف .

وصار حلمى عبد المجيد رئيسا للنظام الخاص بدلا من عبد الرحمن السندى،وكانت عليه مسئولية إبلاغ قيادة النظام بهذا التكليف الجديد .

وكان حلمى عبد المجيد مناورا،فجمع مجلس قيادة النظام وتلطف فى إبلاغهم التكليف الجديد ، وكان حريصا كل الحرص على ألا يثير حفيظة عبد الرحمن السندى ، الذى لم يتبين طبيعة البعد « التاكتيكى » والسياسى لهذا القرار ، فقد كان يعتبر نفسه هو الأب الشرعى لهذا التشكيل،ولاينبغى أن يقوم غيره على رعايته . وازداد حلمى عبد المجيد فى التلطيف ، وبين أنهم سوف يسيرون على ما كانوا عليه ،

وكل مافى الأمر أنه سوف يكون همزة الوصل بين النظام وبين المرشد ، وأضاف :
ــ اعتبرونى ضابط اتصال وليس أكثر .
وسارت الأمور على دخن !
فالقصة لاتعدو تغيير رئيس بآخر ، ولكن للمسألة أبعادا كثيرة،فلها أبعاد إعلامية وسياسية،وخطة ينبغى أن تبلغ مداها لتحقيق هدف المرشد فى إزالة كل الآثار التى ترتبت على حوادث الماضى القريب ، فى وقت كانت جماعة الإخوان فيه لاتزال تضمد جراحها الغائرة الكثيرة .
وبدأ الأمر يظهر على صورته الحقيقية .
ليس حلمى عبد المجيد ضابط اتصال فقط ، بل جاء بسياسة جديدة ينبغى أن تنفذ وفق خطة متكاملة مرسومة وهى تصفية النظام تماما .
وبدأ عبد الرحمن السندى يدرك هذا ، وهو يرفض تنحيته عن رئاسة النظام شكلا وموضوعا ، ويعتبر أن هذه هى المنطقة الحرام التى يجب ألا يدخلها المرشد العام أبدا ، وأن التشكيل الذى قام هذا النظام الخاص عليه أبدى ولايقبل التغيير .
وفى يوم من الأيام فوجىء حلمى عبد المجيد بأن عبد الرحمن السندى يستدعيه لحضور اجتماع لمجلس النظام .
وذهب إلى مكان الاجتماع رغم عجبه الشديد !
وفى الاجتماع الذى حضره كل أركان حرب النظام انبرى عبد الرحمن السندى يبين خطورة الانسياق خلف هذه المخططات التى تستهدف تصفية التشكيل فى النهاية ، ثم ألقى قنبلته فى الاجتماع !
يجب تغيير المرشد العام،وهى قضية لاتقبل المناقشة ، وأن له عليهم حق السمع والطاعة ، ولنبحث كيف يتم هذا التغيير بهدوء ودون خسائر .
انبرى حلمى عبد المجيد يرد على عبد الرحمن السندى فى هدوء،وبين أن حق السمع والطاعة للمرشد العام أولا ، وقال إن عبد الرحمن قد فقد صفته كرئيس للنظام بقرار المرشد وهو ملزم للجميع ، والتفكير فى غير هذا عبث وخروج عن خط الدعوة . وقال له إننى كنت أمثل ضابط اتصال بين النظام وبين المرشد إكراما لك ، فإذا وصل الأمر إلى نقطة العصيان فإنى منذ هذه اللحظة المسئول عن النظام الخاص بقرار المرشد .
ولم يعترض أحد من الموجودين .

وبدأ حلمي عبد المجيد يتصرف دون الرجوع إلى عبدالرحمن السندى فى شيء .
ومن أهم مافعله حلمى عبد المجيد هو تغيير لائحة النظام الخاص .

فقد كانت حافلة ببعض بنود شديدة ، منها إخلاء سبيل من يفشى أسرار النظام ، ومعنى إخلاء سبيله مطاط وغامض ، ويصل فى التفسير إلى القتل .
وكلمة إفشاء الأسرار أيضا كلمة مطاطية وغامضة ، فمثلا لايعذر أحد بافشاء الأسرار بسبب التعذيب .
وكانت هناك حادثة الاعتداء على حامد جودة ، وانهار أحد أعضاء النظام وأدلى بمعلومات كثيرة أثناء التحقيق معه فى قسم مصر القديمة ، ومن ثم كانت هناك نية أو تفكير فى إخلاء سبيله .
وتم تغيير لائحة النظام الخاص .

* * *

كان عبد الناصر بحكم صلته العضوية بالنظام وأفراده على علم بالكثير من هذه الخلافات التى لم تكن تظهر على السطح ، بل كانت تدور تفصيلاتها بين عدد محدود ممن قدر لهم العلم أو الاشتراك فى هذه الأمور . ولهذا كان طلبه أن تكون الصلة بالجماعة من خلال آخرين فى الوجه المقابل لعبد الرحمن السندى قد قوبل بارتياح شديد .
وبدأ الاخوان .. المرشد العام ومجموعة قليلة تدرس التفاصيل الخاصة بالثورة قبل موعدها بأسبوع ، وأخر الموعد يوما كما هو معروف . واشترط الهضيبى عدم إسالة الدماء ، وعدم قتل فاروق ويكتفى بطرده من البلاد .
وبطبيعة الحال كانت الأمور تسير دون علم ضباط الاخوان الأصليين بما يدور ، مثل عبد المنعم عبد الرءوف وأبو المكارم عبد الحى وغيرهم الذين انفصلوا عن تنظيم الضباط الاحرار ليعطوا الفرصة لإلحاق العناصر الوطنية غير الإسلامية للدخول فى التنظيم .
ولكن عبد المنعم عبد الرؤوف فى لقاء عابر مع صلاح نصر فى حلمية الزيتون قبل الثورة بيومين فهم من صلاح نصر أن الاستعدادات قد تمت ، وكان الأخير لايتخيل أن عبد المنعم عبد الرءوف بعيد عن هذه الأمور .
والتقى عبد المنعم عبد الرءوف ببعض المسئولين فى الجماعة ، ولكنه لم يحصل على

جواب شافٍ عن سؤاله .

وذهب إلى حلمى عبد المجيد وقال له :

هناك تحرك فى الجيش يوشك أن يكون بين ساعة وأخرى،ولاأدرى ماهى علاقتنا بهذا ، فالإجابات كلها غامضة .

ــ وما المطلوب ؟

ــ يجب سؤال المرشد سؤالا صريحا محدداً إن كانت هذه الحركة من صنعنا فنحن معها وماهو المطلوب منا ، وإن كان يريد إحباطها فأنا ومن معى من الضباط قادرون على ذلك ، وإن طلب منا أن نبقى على حالنا وندع الأمور تسير كما تسير فنحن أيضا ننفذ ، المهم ماهو المطلوب منا على وجه التحديد .

ــ ربما تكون مخطئا فى هذه التصورات ؟

وأجاب عبد المنعم عبد الرءوف فى حزم :

ــ أنا على يقين مما أقوله لك .

وسافر حلمى عبد المجيد فى قطار الصحافة الذى يقوم الساعة الثالثة صباحا إلى الإسكندرية ، ووصل إلى بيت المرشد فى الساعة السادسة صباحا ، ودق جرس الباب ، واستقبله المرشد فى هدوء ، فقد كان من الطبيعى أن يدق بابه أى أحد فى أى وقت من أوقات الليل أو النهار .

ودعاه المرشد إلى شرب الشاى والإفطار معه ، وصار يستمع إليه صامتا إلى كل ماقاله عبد المنعم عبد الرءوف .

ثم خرج معه إلى الشاطىء ، إلى الكابينة التى كانت له بالعصافرة ، وقال له تكلم معى حتى الساعة الثامنة ، فعندها موعد مع أحمد باشا عبد الغفار ، وعندما يأتى اذهب أنت بعيدا حتى ينصرف وعد إلىَّ .

وبعد أن انصرف أحمد عبد الغفار باشا عاد حلمى عبد المجيد إلى المرشد الذى قال :

ـ بلغ عبد المنعم عبد الرءوف « وأبو المكارم » عبد الحى أن هذه الحركه حركتنا ، ونريد لها النجاح ، وعليهما ألا يدخرا وسعا فى ذلك .

وعاد حلمى عبد المجيد سريعا إلى القاهرة ، وأبلغ عبد المنعم عبد الرءوف بما حدث .

ورغم استياء عبد المنعم عبد الرءوف الشديد ، لأنه أقدم فى الرتبة من جمال عبد الناصر وأنه .. وأنه ... إلا أنه ذهب لجمال عبد الناصر ووضع نفسه تحت تصرفه .

واصفر وجه جمال عبد الناصر عندما فوجىء بحضور عبد المنعم عبد الرءوف وأنه يعلم التفاصيل ، وكان ممن يخشاهم من الضباط على نفسه وقيادته .

وابتلع عبد الناصر المفاجأة وقال :

ــ اسمع يامنعم .. كل ماأريده منك هو رأس التين .

ــ وأبو المكارم ؟

ــ قصر عابدين .

وبعد أن أبلغ أحمد أبو الفتح جمال عبدالناصر أن الملك قد عرف كل الأسماء ماعدا اسم جمال عبدالناصر، وأنه ينبغى عليهم التحرك الليلة ، وكانت ليلة ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ ، أصر عبد الناصر على انتظار رأى المرشد الذى كان يدرس كافة التفاصيل التى قدمت إليه ، ورفض بشدة أن يبدأ التحرك دون رأيه وموافقته النهائية .

وقامت الثورة ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

* * *

خرج المرشد من لقائه الأول مع جمال عبد الناصر غاضبا ، وأعلن أنه مغامر يريد الحكم ، وتأكد أنه ليس الأخ الملتزم بالبيعة ، والذى يعرف قانون السمع والطاعة .

وقد بنى سياسته منذ الوهلة الأولى على أنها حكومة جديدة،ويمكن أن تسير فى طريق الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، وعلى الأخص بعد التخلص من الملك ، وأنه يمكن التعاون معه تحت هذا الباب وليس أكثر .

لم يتفق واحد قط من الإخوان فى الرأى مع المرشد العام حول هذه النقطة !! بل هناك من صار يظن أن عبد الناصر من ذؤابة الإخوان حتى مست الأسياخ المحمية ظهره فى السجن الحربى .

وقد أخبرنى المرحوم منير دله أنه رأى بعينه جمال عبد الناصر والذى يدعى بالسيد على صبرى أثناء تعذيبه بالسجن الحربى ، وعندما التقت أعينهما به توارى جمال عبد الناصر ، وهو الذى طالما تناول الطعام فى بيته على مائدته قبل الثورة وبعدها ، وأياديه البيضاء عليه أكثر من أن تحصى .

أما مايسمى بالسيد على صبرى فقد تقدم ناحية المرحوم منير دله ، ووقف أمامه ببجاحة وصلف أثناء تعذيبه ، وصار يلقى عليه الأسئلة .

كان المرشد العام للإخوان المسلمين المرحوم حسن الهضيبى فى واد ، وكل الإخوان المسلمين فى واد آخر بالنسبة لنظرتهم إلى جمال عبد الناصر والثورة .
استطاع المرشد أن يفهم المسألة من الوهلة الأولى بينما تأخر فهم الإخوان لها كثيرا .

حكم عادل ومحاكمة ظالمة !

كان درس الثلاثاء من تقاليد الإخوان .
وعقب الدرس كانت تلقى الأسئلة ويجيب عليها المرشد العام .
ومن الطبيعى أن تكون هناك بعض الأسئلة قد أرسلتها الحكومة أو أوحت للبعض بطرحها ، وهذا من السهل جدا فى تجمع به عدة آلاف من البشر . بل من المستنكر أن يهمل مثل هذا الاجتماع لفهم تيار واتجاه أكبر تجمع شعبى فى مصر .
وأعيدت محاكمة قتلة المرحوم حسن البنا .

وكان ممن حكم عليهم بالإعدام فى هذه القضية إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء الذى قام على تدبير الحادث (١) .
وسأل سائل فى نهاية درس الثلاثاء عن رأى المرشد العام فى الحكم الذى صدر .
وأجابه حسن الهضيبى :
حكم عادل ومحاكمة ظالمة .

وجلس إليه أحد كبار الإخوان ومعه مجموعة من الإخوان بعد ان انفض الجمع واحتج على طريقته فى الإجابة على ذلك السؤال فقال :
–لابد أن يقف المتهم أمام قضاته الطبيعيين ، وإن نحن وافقنا على هذا الوضع الشاذ فسوف يأتى اليوم الذى نقف نحن أنفسنا فيه أمام هذا النوع من المحاكم .
وكأنه كان يرى الغيب !

---

(١) خفف الحكم عنه إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ثم أرسل إلى مستشفى القصر العينى حيث قضى هناك بضع شهور للاستجمام ، ثم ذهب إلى بيته .

الإخوان يقدمون الضباط إلى الشعب

ظل الناس فترة لايعرفون غير محمد نجيب كقائد للحركة المباركة ، وكانوا يرون صور جمال عبد الناصر ومن معه ولايعرفون أسماءهم حتى جاء الوقت للإعلان عنهم .

وطلبوا من المرشد العام أن يساعدهم فى تكوين شعبية لهم ، وانتووا الخروج فى رحلة للوجه البحرى يخطبون ويتكلمون ويراهم الناس ويعرفونهم .

وتم عمل تعميم على جميع الشعب بترتيب أحسن استقبال لهم .

وقد كان ..

وخرج ركب رجال الثورة فى موكب شعبى كبير من القاهرة إلى الزقازيق ، وقد شكل هذا الركب أعضاء جماعة الإخوان المسلمين ، وكل شعبة برجالها تنضم إلى الركب ، حتى وصلوا إلى الزقازيق ومعهم جمهور غفير، كأن الشعب المصرى قد خرج معهم ، وعدوى الحماسة تنتقل بسرعة من هذا إلى ذاك .

وكانت الذبائح تذبح أمامهم عند مدخل كل قرية وبلدة .

لاحظ جمال عبد الناصر ذلك التجمع الشعبى الهائل ولم يكن يتصوره .

وأدرك فى هذه الرحلة قوة الإخوان الشعبية ، فقد كانت هتافات الإخوان المعروفة تنطلق مع كل خطوة ، وهتافات أخرى لتحية محمد نجيب ولأحد آخر .

وتم هذا فى« أبو كبير » وكفر صقر والمنصورة والسنبلاوين .

وكان جمال عبد الناصر يخشى من سمنود بلد المرحوم مصطفى النحاس باشا ، ونبه الإخوان إلى هذا فطمأنوه .

وتم عمل ترتيب خاص لمدينة سمنود !

فقد تم احتلال المدينة مع الفجر من جمهور الإخوان من مختلف بلاد الوجه البحرى ، ودخل ركب الثورة المدينة ومعه الصحفيون ورجال وكالات الأنباء العالمية ، وكان الإخوان يقفون أمام البيوت وعلى مداخل الحارات وفوق السطوح ، وكان أعظم استقبال لرجال الثورة فى مدينة سمنود موطن الرئيس الراحل مصطفى النحاس .

وكان هذا الحدث فى عناوين الصحف فى كافة أنحاء العالم .

وكانت هذه إحدى نقاط التحول الكبيرة فى تحقيق أكبر شعبية للثورة ورجالها .

وتكررت الرحلة فى الصعيد ، وبدأت من أسوان فى طريقها إلى القاهرة .

وفى الرحلتين تأكد عبد الناصر أن الشارع المصرى من أقصى البلاد إلى أقصاها يملكه الإخوان المسلمون ملكية لاينازعهم فيها أحد ..

وقد أثار هذا كل القلق فى نفسه وعجّل بتفجير الصراع !

كانت كل محطة يقف فيها قطار الثورة لايسمع فيها إلا الله اكبر ولله الحمد .

وعندما وصل القطار إلى محطة « الحوامدية » كانت هتافات الإخوان قد بلغت مداها . وقد حدث هذا أيضا بكنيسة بينى سويف .

وكان صدر جمال عبد الناصر يغلى كالمرجل من الحقد والغضب والحسد .

ووقف القطار وصار جمال يخطب ، وعند كل سكتة يرتفع الهتاف .

الله غايتنا .. الرسول زعيمنا .. القرآن دستورنا .. الخ .

ولم يطق جمال عبد الناصر ، وانطلق صوته من الميكرفون يسب الإخوان الذين نزل سبه عليهم نزول الصاعقة ، فهم الذين صنعوه :

-لاتكونوا كالببغاوات ترددون مالاتفهمون .

وأعطاهم درسا فى الإسلام !

وانفض الجمع يخيم عليه الذهول !

بدأ الانفصال

بدأ عبد الناصر يطرح مشروعاته لاحتواء الإخوان .

فتح معسكرات التدريب للحرس الوطنى ، فلم يذهب أحد إلا بعض المرتزقة الذين كانوا يتقاضون خمسة عشر قرشا فى اليوم .

وتكلم جمال عبد الناصر مع المرشد ومكتب الإرشاد ، وطلب منهم أن يصدروا تعليماتهم بعد مقاطعة الإخوان لهذه المعسكرات .

وملئت المعسكرات عن آخرها !

ثم كانت هيئة التحرير ، وهى أكبر خطة طرحها عبد الناصر لاحتواء الإخوان ، ورفض الهضيبى الفكرة بحزم شديد .

وقال أحد أعضاء مكتب الإرشاد لجمال عبد الناصر أثناء اجتماع مجموعة منهم معه لثنيه عن هذه الفكرة — وكانوا يحسنون الظن به — إنه لايمكن أن تضع زيتا وماءفى زجاجة وتجعلهما يختلطان .. سيظل الماء ماء والزيت زيتا .

وأظن أن الذى قال هذا هو الأستاذ فريد عبد الخالق .

وقال له حسن عشماوى :

-أنت تجمع حثالة الناس فى هذه الهيئة ، ولن يأتى فيها غير بقايا الأحزاب ، ومن لارأى لهم ، أم تراك تريد شراء البعض ليهتفوا لك ؟

ورد عليه عبد الناصر :

-أيوه أنا أشتريهم ليهتفوا لى أحسن مايشتريهم غيرى ليهتفوا ضدى .

ـــ الإخوان معك وهم يؤيدونكم .

ـــ هذا غير مضمون .

وعندما صدرت التعليمات للإخوان فى كافة البلاد بعدم الانضمام إلى هيئة التحرير فهموا أنهم بهذا ضد هذه الهيئة . ومن ثم حُدث الكثير من حوادث الشغب والاشتباك ، حتى وصلت مداها فى الجامعة عند استقبال نواب صفوى على ماهو معروف ومشهور .

* * *

وتطورت الحوادث بين الإخوان والثورة .

وكان زمام المبادرة بيد الإخوان ، وكانوا يستطيعون القضاء على الثورة فى بادىء الأمر . ولكن كما قلنا كان الإخوان شيعا وأحزابا فى موقفهم من الثورة ورجالها ، حتى تميز الفريق الذى أدرك الضرر الذى يمكن أن يلحق بالبلاد والعباد من حكومة علمانية تنفذ مخططا أمريكيا فى المنطقة ، واختلف هذا الفريق على نفسه ، ودخلوا فى مناقشات بيزنطية حول الفتنة ودم عبد الناصر حلال أم حرام ؟ فى الوقت الذى كانت نفوس الإخوان تعبأ ضد الثورة ورجالها عبر المنشورات التى كانت سبب أرق عبد الناصر .

وعرف المرشد العام أنه أمام سنن ونواميس لايمكن التغلب عليها .

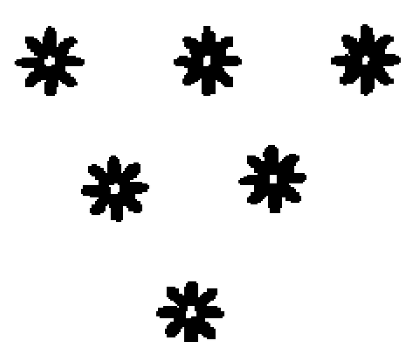
وصدرت التعليمات بهجر الشعب ، وأن يلزم كل واحد بيته ، وأن يسكن الجميع حتى تمر هذه العاصفة الهوجاء .

وفى ذلك الوقت الحرج الصعب كانت هناك أكثر من جهة تتكلم باسم الإخوان ، وكان هناك من نادى بجمال عبد الناصر مرشدا عاما للإخوان ..

إى والله !

وكان واحد من أعضاء الهيئة التأسيسية يحكى كيف كان فى بيت عبد الناصر وهو يهم بالذهاب لأداء العمرة أو الحج ــ لاأذكر ــ وكيف ساعده فى إحكام ملابس الإحرام على جسده . وكان يحكى القصة على تفاهتها وهو يبكى تأثرا . ثم حدث حادث المنشية .

ودخلت الجماعة السرداب إلى حين .
أما مصر فتخللتها سراديب الشيطان .



الفصل السادس

"ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا"

حوار مع طاغية صغير

﴿ ربنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً ﴾ .

الأحزاب: ٦٧ — ٦٨



* قصة التعذيب فى سجون الظالمين متنوعة متشعبة كثيرة التفاصيل .

قد أمر بها الخنازير ، وقام على تنفيذها الكلاب .

وينبغى على من يقرؤها أن يحيط بها،ويمعن النظر فيها ، ويستخلص العظة والعبرة منها ، وأن يعمل جهده على منع تكرارها وحدوثها .

وإن مات فى سبيل ذلك فهو شهيد .

وفى بلاد مثل هذه التى نعيش فيها يصعب منع العذاب والتعذيب والتنكيل . قد تغير البشر فى بلادنا ، واستطاع الظلمة فى وقت غير كبير أن يحولوا العاملين فى الدولة الى قطيع من الجلادين والسيافين ، وكل فى مجال اختصاصه ، وهم لايعرفون الرحمة ولايفكرون فيها ، ويرونها خَوَرا فى الطبيعة وضعفا فى الهمة ، وهم يمرون على « التنور » مصبحين ، وفى الليل فلايعقلون ، وهم يقولون :

ـــ اخسئوا فيها ولاتكلمون .

كما كان يفعل محمد بن عبد الملك الزيات الوزير العباسى مع المعتقلين !

هذا هو منهج الظالمين عبر السنين ، وهى حجة المستكبرين ، ومن شايعهم على هذا من صغار الجلادين .

« لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة » ، ويقتلون ويذبحون ويعذبون ، وماعليهم من رقيب أو سلطان . لايعرفون الرحمة ، ولم يسمعوا عن الشفقة ، وهذا ليس نثرا يقال ، ولكنه واقع عشناه سنين .

ويعيشه غيرنا فى هذه الأيام .

والظلم صنو الكفر ، والقسوة توأم الفسق والضلال .

وعالم الظلمة والجلادين عالم قد عبد الشيطان وسجد له ، واستحل الدم الحرام والمال الحرام . وهم ربما لايؤمنون بالبعث والنشور ، وإن حدث فلن يهتموا فى أية أودية جهنم يكون التكفير عن ذنوب لاتصلح فيها توبة ، ولاينفع فيها تطهير .

وقد ابتلانا الله بحكام حكموا البلاد والعباد بالسطوة والقوة والغلبة .

أغرقوا الناس فى سيل لاينتهى من الكلمات والشعارات .

وكان هذا غاية مايمكن أن يقدموه للناس .

ومن اعترض على ذلك قطعوا رقبته ، وقبل أن يقطعوها سلخوه حيا ، وكانوا قد انتزعوا لسانه قبل سلخه وقتله .

عالم سادت فيه القردة وحكمته الخنازير ، وعلت فيه كلمة الشيطان .
عالم قد غلب فيه الباطل وزهق الحق .
ولكن إلى حين ، وحين قريب بالتأكيد .

على كل رأس مكافأة

عندما يتحكم فرد فى أمة فهى لاتسير إلى خير أبدا ، ولابد أن يسوقها هذا الفرد إلى مصرعها ، ولايتركها حتى تصير عبرة للأمم ، فهو يحول السادة إلى عبيد حتى يكون هو السيد الوحيد ، ولايتم له هذا حتى يصير شعبه قد صار أقل قيمة من نعاج شاردة فى ليلة شاتية ظلامها شديد .

هذا هو منهج الاستبداد فى التاريخ ، وهذه هى سطوره مهما اختلف الزمن وتنوعت القرون والثقافات .

وللناس دور كبير فى صنع الطاغية وتمكينه من رقابهم ، ولو شاءوا لما كان هناك طاغية واحد فى أى بلد من البلدان .

والمسلمون هم أولى الناس من غيرهم بدفع الظلم عن أنفسهم .

« والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون »

وَلأنْ يموت بعض الشهداء فى مقاومة حاكم ظالم ، أو القضاء على نظام مستبد ، فهو خير من موت الأمة جميعها ، والقضاء على كل ملكة فيها .

وإنى أتذكر الآن كيف كانوا يمسكون بنا من بيوتنا قرب الفجر، ونخرج معهم كالدجاج المذعور ، ويأذنون لنا بحقيبة بها بعض الأدوات والحاجات لمن أراد ، ثم يقذفون بها أو يسرقونها ، ويدخل الواحد منا زنزانته وحيدا فريداً ليس معه أحد إلا الله .

وكانوا عند الاعتقال يأذنون ويسمحون بأى شىء يطلبه هذا الذى جاءوا من أجل القبض عليه .

وفى العادة لايعرف القادمون للقبض سبب القبض على وجه التحديد ، وكل مايعنيهم هو أن تتم عملية القبض بنجاح ، فعلى كل رأس مكافأة .

فهم يجيبونه إلى كل مايطلب مادام سيذهب معهم فى النهاية .

أريد أن أصلى .. لابأس .. فلتصل ..

لم أتناول عشائى .. ما المانع.. تناول عشاءك .
أغير ملابسى .. تفضل .. نحن فى الانتظار ..

كان هذا يحدث فى الماضى ، ولاأدرى المنهج والنظام هذه الأيام .

بطبيعة الحال هذا هو أسلوب المباحث العامة أو مباحث أمن الدولة بلغة هذه الأيام ، فهى أكثر تحضرا وتهذيبا من غيرها من الأجهزة فى القبض والقمع والتعذيب .

أما أولئك الذى شاء حظهم أن يتم القبض عليهم بمعرفة المباحث الجنائية العسكرية أو المخابرات فالأمر معهم يختلف . فقد كانت قواتهم الظافرة تضرب كل من تجده فى بيت المطلوب القبض عليه ، ولاتكتفى به وحده ، بل هى تقبض على سائر من تجده بعد ضربهم وإهانتهم ، ولاتوجد قوائم بأسماء المطلوبين ، أو توجد ولكن لايلتفت إليها ولايهتم بالأسماء التى بها ، وفى السجن الحربى يحلها ربنا !

من المسئول ؟

عندما جاء الضباط الى حكم مصر عام ١٩٥٢ كان كبيرهم يظن أن طريقه إلى الاستبداد طريق طويل وليس سهلا ، وكان هذا يؤرقه ويضايقه ، وكثيرا ماشك فى إمكانية الوصول الى هذا المقام الذى تسنم فيه الألوهية فى زعمه .

ولكنه استطاع بعد كفاح أن يعلن للناس بأعلى صوته من فوق منصات الاحتفال :

ـ أنا ربكم الأعلى .

كان يظن أن الشعب الثائر الذى تعود الحرية سوف يقاوم طغيانه وجبروته . ولكنه فوجىء أن الشعب مهيأ لهذا ، وأن جميع الناس على استعداد أن يكونوا عبيدا ، وساعدوه ودفعوه دفعا للطغيان والتكبر .

وضاع صوت المؤمنين والراشدين بين الطغام وجوقة المصفقين الصاخبة .

قصة عبد الناصر لن تنتهى حكايتها وآثارها قبل قرن وربما أكثر !!

لم يكن عبد الناصر نفسه يظن أن الأمر سيكون له بهذه السهولة التى صارت . ويؤكد من عرفه وصاحبه أنه كان يعمل كل حساب للشعب المصرى ويخشى منه ، وكان يجهد نفسه فى السيطرة عليه ، ورسم الخطط لإذلاله،والقضاء على الزعماء الذين يلتف حولهم الناس ، وقد تم له ماأراد .

ومن المسئول ؟ الكاتب والقارىء وكل من يعيش فى مصر .

الضابط الذى صار امبراطورا

التقيت به فى حفل عشاء .

وكان واحدا من الثوار الذين قاموا فى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وهالنى منظره بملابسه الغالية وأزرار الذهب التى تبدو على القميص خارجة بين الكم واليد ، والأناقة المتناهية ، رغم السن المتقدمة ونظرة التعالى التى يحاول إخفاءها بابتسامة متواضعة كاذبة ، ولكنه لايستطيع .

وجاء حظى أن جلست بجواره على المائدة بين تأففى وقرفى الداخلى .

أهذا هو الثائر الفقير الذى خرج يوما لإنصاف المظلومين وإعطاء الحق للمحرومين وتحرير البلاد من الجبارين ؟ .

وبدأ الحديث مترددا وجلا ، كل واحد يقدم ويؤخر كلمة أو جملة لامعنى لها ولكنها الظروف وحكمها .

وعرف صاحبنا أننى كنت أحد الضحايا الذين لبثوا فى السجن سنين .

وأبدى أسفا وحزنا وتأثرا ، وتواعدنا على لقاء نتحدث فيه بوعد قاطع منى ألا أخبر عن اسمه أو أذكره .

وكان لقـاء ..

قصر أو بيت أو شقة،هذا لن يهم القارىء فى شىء . ولكنى أشك أن فاروق كان يعيش فى مثل هذا الجو الأسطورى من الثراء والفخامة والخيال .

هذا ماتبقى للثائر الكبير بعد ذهاب السلطة .

ورغم ما هو فيه كان يبدى طيبة وزهدا ، ويترحم على الشهداء ، ويتأسف للمظالم التى حدثت ، ويضع كل شىء على رأس عبد الناصر .

وأخذ بنا الحديث مناحى كثيرة !

وقال :

ـــ كان عبد الناصر يعمل كل حساب لجماهير الشعب المصرى ، فقد كان يعيش فيه ، وكان يعرف كل التيارات التحتية التى تحكم الشارع ولاتظهر للعيان ، وكان يتخيل حجم التنظيمات السرية ، وقدرة الاتجاهات المختلفة على خلق القلاقل وتسيير المظاهرات . وكان أكثر من يدرك خطورة سلاح المظاهرات ، وأنه أقوى من كل

أسلحة الجيش مجتمعة ، وأن إسقاط الحكومات سهل على الجماهير لو اتحدت وخرجت إلى الشارع . وكثيرا ماكان يتحدث حول هذه المعانى .

وسكت قليلاً يسترجع الذكريات ثم قال :

ــ كانت هناك بعض عربات « الجيب » تدور على البيوت لتجمع الضباط من بيوتهم ليحضروا اجتماعات مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة . وانشغلت العربات بإحضار السادة الضباط ، وأراد الضابط المكلف بالحملة أن يجامل عبد الناصر فأرسل له سيارة كاديلاك سوداء من سيارات الملك التى صودرت لحساب مصر، أو لحساب السادة الجدد فهم ومصر شيىء واحد . على الأقل من حيث الغنائم والأسلاب فى نظرهم . هكذا قال !!

واستمر يقول وهو ينظر بعيدا عبر الزمن :

ــ ونزل عبد الناصر من السيارة الكاديلاك السوداء الفاخرة،وسأل عن ذلك الضابط المسئول عن الحملة ، فجاءه يسعى وهو سعيد يظن أن هناك مكافأة .

وإذا بعبد الناصر يصفعه على وجهه،ويسبه سبا قبيحا .

وانتابتنى دهشة وأصابنى ذهول وقلت :

ــ يصفعه على وجهه ؟

وضحك الثائر الكبير ولم يرد على سؤالى ولكنه أكمل :

ــ قال له عبد الناصر وهو يسبه ويضربه ، لقد نمت فى أرضية السيارة طول الطريق خوفا من أن يرانى الناس فتكون الطامة الكبرى ويفتكوا بى .

افهم ياغبى .. الناس يظنون أننا قد جلسنا على كرسى فاروق ، ونحن قد جلسنا مكانه بالفعل ، ولكن لاينبغى لأحد أن يفهم أننا قد أخذنا ماعنده من سيارات وقصور لنستعملها. فى هذا نهايتنا .

كان فسادنا أكبر من فساد فاروق

ويقول الثائر الكبير :

ــ وأخذوا كل شيء وزادوا على ماكان عند فاروق ، ولم يفتح مخلوق فمه بكلمة بعد أن ماتت الأمة،وانهزم الشعب أمام الجلادين الجدد،الذين فاقت ضراوتهم كل من سبقهم .

وقلت له :

ــ ولكنك كنت أحد المشاركين ، وأنت ولاريب أحد الفاعلين .

وسكت الرجل قليلا يستعرض أحداثا مرت عليها سنون ، وجرت منذ زمن

بعيد ، وكأنها ذكريات لاتسره ، أو كأنه نادم على ما كان منه،واشتراكه فيها وقال :

ــ صدقت .. ليس من السهل التبرؤ مما حدث ، قد اشترك عدد كبير فى صنع هذه المأساة ، وكنت أحد هؤلاء ، ولكن لم تكن الصورة تبدو على هذا النحو فى مبدأ الأمر ، لقد كنا جميعا ــ باستثناء قلة ــ من الضباط المخلصين الوطنيين الفقراء . وانصرف نظرى إلى القاعة ومافيها من فخامة الديكور وثرى الرياش وأفقت على صوته مستمرا :

ــ كانت أحلامنا هى الاستقلال التام والتخلص من الملكية الفاسدة ، ومن سيطرة رأس المال على الحكم ، وسائر ماسمعت من شعارات لم يتحقق منها شىء ، ألقيت على مسامع الناس لخداعهم . كنا نريد الخير للشعب ونبغى سعادته ، ولم نكن نعرف أننا نتخلص من ملكية فاسدة مقيدة بدستور وبمجلس من النواب مهما قيل فيه فقد كان قادرا على كبح جماحها ، واستبد لنا بهذا ديكتاتورية مستبدة فاسدة طاغية لايقدر عليها أحد ، حيث تخشع الأصوات للرئيس ، وينعدم الهمس،ويعلو جبين الوطن إكليل من العار والفساد .

لم يكن فى تقديرنا أو حسباننا أن هذا يكون .

كل من نادى بالديمقراطية أو تحدث عن الحرية ضرب على أم رأسه،وقال لنا الزعيم إنها الرجعية والثورة المضادة تتحرك لتضيع المكاسب الوهمية التى لم يعرفها أحد ، ولم يرها إلا عبر الشعارات التى ملأت كل شىء .

وكل من دعا إلى الإسلام قال لنا الزعيم هؤلاء عملاء السعودية وأمريكا .

ثم قال الحرية كل الحرية للشعب ولاحرية لأعداء الشعب .

ولم نكن يومها واثقين أنه الشعب الذى يقصد به هذه المقولة .

ثم أعد جيشا كثيفا من المخبرين والجواسيس يكتبون التقارير ويلفقون التحريات ويضعونها بين يد كبيرهم ، ثم يجلسون ويحددون من هم أعداء الشعب .

وجاء علينا وقت كتبت فيه أسماء بعضنا،ونحن الذين قمنا بإنجاح الانقلاب،نعم لقد قيدوا بعض أسمائنا فى قوائم أعداء الشعب .

ثم اختلطت علينا الأمور،ولم نعد نفهم ماذا يجرى على وجه التحديد .

ولكن فهمنا أخيرا أن كلمة الشعب تعنى الرئيس جمال عبد الناصر ، وليس لها معنى غير ذلك ، وظل الأمر هكذا طول الوقت .

وسكت الرجل خجلا مما سرده ، قد أصابه حرج بالغ جعل الكلمات تتعثر فى

فمه ، وهو يستلهم المنطق فلايساعده ، وهو الذى عاش حياته كركن من أركان النظام المستبد،الذى عاث فسادا باسم الحرية والاشتراكية والوحدة،وشعارات أخرى لأول لها ولا آخر ، فى كنف طاغية شرير لم يعدم من يؤلف له الكلمات وينظم له الأناشيد فيلحنها الملحنون ، وتعزف بها الجوقات ، وينشدها التلاميذ بالمدارس فى طابور الصباح .

وصارت الشعارات طقسا من الطقوس على الكهنة أن يؤدوها فى قدس الفساد حيث الوثن العظيم الذى لايجرؤ مخلوق أن يشير ناحيته بيده علامة الرفض والاعتراض .

كل الجرائم بعلم عبد الناصر

وقلت مترددا أخشى ألا يجيب أو أن يكذب علىَّ :

ــ يقولون إن الجرائم كانت ترتكب دون علمه .

وخرج الرجل عن شروده وقال :

ــ دون علم من ؟

ــ دون علم الرئيس عبد الناصر .

وابتسم الرجل واتسعت ابتسامته،ثم ضحك ساخرا وارتفعت ضحكته . وتأملته وهو يضحك ، وصوت ضحكته يطن فى أذنى فأرتاب فى سلامة عقله ، وأشك فى قدرته على التركيز .

وتوقف عن الضحك فجأة ، وكست وجهه ملامح صارمة،لم يستطع أن يخفيها وتوهجت فى عينيه كراهية وحقد وقال :

ــ كل الجرائم التى ارتكبت فى سجون مصر ومعتقلاتها تمت بأمر من عبد الناصر ، وبعلمنا جميعا ، وهذه أمور يعرفها كل من كان يعمل بالقرب منه ، وكنا نخشى أن يصيب الدور واحدا منا ، فيجد نفسه فى هذا الأتون حيث لن يرحمه أحد ، وقد كانت تأتينا أخبار التعذيب كل يوم .

وتفرست فى الرجل وطرأ على خاطرى سؤال :

ــ هل سمعت عبد الناصر بنفسك وهو يأمر بارتكاب الجرائم ؟

وعاد الرجل يضحك من جديد وقال من بين ضحكاته :

ــ نعم بطبيعة الحال ، سمعته كثيرا .

ــ هل تذكر واحدة منها ؟

وسكت واكتسى محياه جد وقال :

ــ لعله لم يمر عليه يوم واحد منذ قامت الثورة دون أن يأمر بارتكاب جريمة ما ضد واحد أو اثنين أو أكثر .. ولن أنسى يوم كان يلقى أوامره إلى أحمد أنور قائد البوليس الحربى ، وإن لم تخنى الذاكرة فقد كان ذلك فى يناير عام ١٩٥٤ ، وكان الضحية هو أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة .

وقال له عبد الناصر أمامى :

ــ عايزك « تطرشه الدم » خلى العساكر تضربه بالجزم ، بعد ماتشبعه أنت ضرب بإيديك . ومتنساش عمر التلمسانى وعبد القادر عودة .

وقد كان فقد ضرب أحمد حسين فى هذا اليوم ضربا مبرحا حتى فقد النطق ، فى مبنى البوليس الحربى بباب الحديد ، حيث مكان عمارة رمسيس الآن ، وفى نفس الوقت ضرب زميله عمر التلمسانى فى مبنى السجن الحربى حتى فقد النطق هو الآخر ، تسألنى هل سمعت عبد الناصر وهو يأمر بارتكاب الجرائم ؟ لقد كان هو الذى يرتكبها ، كل الجرائم .

وعاد يضحك من جديد فى مرارة بالغة .

ــ أنا لاأبرىء نفسى ، لقد كنت شريكا له فى كل مافعل ، وكنا جميعا كذلك ، كلنا بلا استثناء ، لقد شاركنا وسمعنا وأمرنا وفعلنا كل شىء معه ، هل كنا مخدوعين ؟ أظن ذلك ، تصورنا أننا نقيم بناء جديدا ، وأننا نزيل من طريقنا المعوقات ، ولم نعرف أننا قد أزلنا مصر نفسها إلا بعد فوات الوقت . وهاهى ذى النتيجة أمامى وأمامك وأمام الجميع .

ومرت لحظة صمت قطعتها بقولى :

ــ وكيف تقبل أحمد أنور هذا الأمر ؟ هل أبدى حماسا ؟ هل تردد قليلا ؟ هل اعترض ؟ هل تذكر بالضبط ماحدث ؟

وشرد الرجل قليلا وقال :

ــ نعم أذكر بالضبط ما حدث لأنها واقعة لاتنسى ، ولعلهما – يقصد أحمد حسين وعمر التلمسانى– أول زعيمين يضربان فى مصر بأمر من الحاكم .

لقد دهل البعض ، وأبدى البعض الآخر حماسة وإعجابا،وأشاد بشجاعة عبد الناصر . وكان أحمد أنور يردد بصره بين هؤلاء وهؤلاء ، ثم غلبت عليه نزعته

القاسية ، فقد كان معروفا بيننا بأنه غليظ القلب لايرحم ، واستفاق على زمجرة عبد الناصر وهو يحثه لتنفيذ الأمر ، وأسقط فى أيدينا وسكتنا ، وظننت يومها أن الكون سوف ينهار ، فهذا شيء جديد لم يحدث من قبل،ولم نسمع به قط ، ولكن شيئا لم يحدث ومرَّ اليوم بسلام .

وتكررت أوامر ضرب الزعماء والكبراء بالأحذية ، وصاروا يقومون بها بأمر وبدون أمر ، حتى حدثت محنة الإخوان المسلمين المروعة ، التى فاقت فى بشاعتها كل ماحدث فى التاريخ القريب والبعيد من مصائب وكوارث أصابت شعبا أو جماعة . ورأيى أن مانحن فيه الآن مما نعرف هو عقاب صارم من الله سبحانه وتعالى بسبب من قتل فى التعذيب . أو شنق ظلما ، أو سجن وهو برىء ، وقد تم هذا ونحن مشاركون ، وكل الناس يضحكون ويطبلون ويزمرون .

— متى أدركت أن الإخوان مظلومون ؟

— طول الوقت ، من اللحظة الأولى التى بدأ فيها الصدام بيننا وبينهم .

ولكن غطى هذا الإحساس شعور بالكبرياء الزائف والخوف من المجهول . بالإضافة الى ماكان ينفثه الزعيم فى روعنا من عظمة كاذبة،ومن أننا رُسُل الهداية للمصريين .

عبد الناصر يفكر فى القضاء على الإخوان من قبل الثورة

— ومتى بدأ الصدام بينكم وبين الإخوان ؟

— هل تريد الحقيقة ؟

— نعم .

— لقد بدأ الصدام منذ اللحظات الأولى من صباح ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ أى بعد ساعات قليلة من قيام الثورة .

وامتلأت نفسى دهشة وتعجبا من هذا الكلام وقلت له :

— هذا كلام جديد وغريب،وأسمعه للمرة الأولى .

— هذه هى الحقيقة . بدأ الصدام مع الإخوان فى صباح ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وتأكديوم ٢٦ من الشهر نفسه ، أى بعد طرد الملك ، تأكد عندما عرفنا أننا قد جلسنا جميعا على كرسى فاروق .

— هل قال عبد الناصر كلاما يفيد هذا ؟

— بالتأكيد .

— ماذا قال ؟

ــ كنت أهنئه بطرد الملك ، وهو أمر لم نكن نظن أنه يسير بمثل هذه السهولة ، وقلت له إننا قد تخلصنا من كل القوى المناوئة لنا ، وأن سبيلنا إلى الإصلاح صار واضحا ونستطيع فعل مانريد .

ــ ولكن عبد الناصر نظر إلى نظرة غامضة وقال :

ــ لقد تخلصنا من أضعف أعدئنا ، خلف الملك طابور من الأعداء يجب أن نتخلص منهم .

ــ وسكت الرجل قليلا كأنه يستعيد الماضى والأحداث ثم قال :

ــ كنا جميعا نظن أن الحائل دون الإصلاح هو الملك وحاشيته وبعض المتفعين ، ولكن عبد الناصر وحده هو الذى كان يعلم أن كل من فى مصر هم أعداؤه ، وقال هذا بالحرف الواحد .

ــ ماذا قال :

ــ أمامنا معركة شرسة حتى نطلق أيدينا ، لقد بدأنا بالملك وسوف ننتهى بالإخوان المسلمين .

ويقول الرجل :

ــ ولاأنسى الدهشة التى تملكتنى يومها ، وقلت لعبد الناصر إن الإخوان هم حلفاؤنا ، وهم الذين يعلمون بالثورة ، وهم الذين ساعدونا عليها ، ونحن منهم وهم منا ، وقواتهم تحرس المنشآت العامة ، وتقف فى طريق السويس الآن لمنع أى تدخل إنجليزى .

وصرت أتابعه باهتمام شديد وهو يقول :

ــ قال عبد الناصر إن علينا القضاء على كل القوى الموجودة بمصر حتى نستطيع تحقيق أهدافنا ، وأهم هذه القوى على الإطلاق هم الإخوان ، لأنهم لديهم مايقولونه للناس ، لديهم برنامج واضح المعالم مستمد من الإسلام ، وعندهم قواعد شعبية ، ولهم أتباعهم فى كل مكان من أرض مصر ، ولهم أيضا أعضاء فى كافة البلاد العربية ، ولديهم مشروع متكامل للتوحيد ومقبول أيضا لدى الناس ، وفى اليوم الذى نقضى فيه عليهم سوف نبدأ قوتنا الحقيقية ، وقبل هذا علينا بالصبر والانتظار وتهيئة المناخ .

وكنت أستمع إلى الرجل فى ذهول شديد وقلت :

ــ متى كان هذا الحديث ؟

ــ فى صباح ٢٧ يوليو عام ١٩٥٢ ، اليوم الذى تلا طرد الملك .

ــ علمى أن عبد الناصر كان من الإخوان ، وكان يرتب معهم .

— هذا صحيح،ولكنها قصة أخرى سوف نتكلم فيها إن أردت .

الجيش هو العدو الذى تبقى

— أظن أنه كان ينتمى للجيش ، وأظن أنه كان انتماءه الوحيد .
وسالت المرارة من بين شفتيه وهو يقول :
— اكتشف عبد الناصر بعد قضائه على الإخوان أن عدوا عظيما قد تكون فى غفلة منه ، أعظم من الملك وأقوى من الإخوان ، وكان عليه أن يدبر للقضاء عليه،وسألته بحذر :
— الشعب ؟
— لم يعد هناك شعب بعد الاستفتاء الذى حدث عام ١٩٥٦ .
— من ذلك العدو الذى تكون ؟
— الجيش .
وقالها فى برودة كأنها حد السيف ، وصرت أتأمله وأنا فى عجب مما يقول ، وكان ينظر إلى مصمما متحديا كل فكرة قد أعارضه بها ، وقلت له :
— هل تقصد الجيش المصرى ؟
— نعم . صار الجيش هو عدوه الوحيد ، وفشلت كل محاولاته فى التخلص من عبد الحكيم عامر ، فقرر أن يحطم الجيش ، ومن ثم يتخلص من عبد الحكيم عامر ، وصار يتحين الفرص ويرسم الخطط حتى كانت مأساة يونيو ١٩٦٧ .
ولم أتقبل هذا الكلام على علاته،وقلت له :
— لقد مات عبد الناصر فى يونيو ١٩٦٧ . وأعلنت وفاته رسميا يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، لأظنه يقضى على الجيش ويقتل نفسه معه .
— هذا ماحدث للأسف
— يصعب على تصور هذا .
وأشاح بوجهه مستهينا وهو يغمغم :
— كل إنسان حُر فى تصوره .
وعدت أقول له فى إلحاح :
— عبد الناصر هو الذى دبر للهزيمة فى ٥ يونيو ؟ .
— وقال بحزم وحسم :
— نعم عبد الناصر هو الذى صنع هزيمة يونيو .
وعدت أتلطف إليه وأحاول أن أفهم :
— تقصد أنه بنظامه الفاسد الذى صنعه هو الذى أدى إلى الهزيمة ؟

ـ كلا . لقد صنع الهزيمة ودبَّر لها عامدا وبوعى ، للقضاء على عبد الحكيم عامر وعلى الجيش .

ـ هل هذا معقول ؟

ـ هذا ماحدث .

ـ أكرر أننى لاأصدق .

عبد الناصر يفكر فى قتل محمد نجيب

ـ هذا شأنك أن تصدق أو لاتصدق ، ولكن لو اقتربت من شخصية عبد الناصر وتفهمتها لصدقت ، لو رأيته قبل الثورة وبعدها لعرفت ولما تعجبت ، الذى منعه من قتل محمد نجيب هو خوف الإدانة ، وأن أصبع الاتهام سوف تشير إليه ، ورغم هذا كان يدبر لقتله ، وأعلن ذلك أمام الجميع وأذكر يوم أن قال :

ـ اليوم هو ٢٣ فبراير ، وبعد شهر بالضبط لن يكون هناك مايسمى محمد نجيب .

ـ وطلب منا أن نكون فرقا من القتلة للتخلص من الإخوان المسلمين .

كل هذا معقول ، أن يقتل الإخوان المسلمين أو محمد نجيب ، ولكن عبد الحكيم عامر صديق العمر ، هذا شىء صعب .

ـ لقد شغل عبد الناصر الجيش فى حرب اليمن ، وانتهت حرب اليمن ، وتكونت طبقة من الأسياد حول عبد الحكيم عامر ، وصارت هذه الطبقة تنظر إلى عبد الناصر على أنه مغتصب لعرش المشير ، الذى ينبغى أن يجلس مكان الرئيس ، وصاروا يتبادلون هذا الكلام فى مجالسهم ، ولاشك أن شيئا من هذا قد وصل إلى مسامعه ، وهو حذر بطبعه ، متآمر بالسليقة ، وليس بالذى ينتظر حتى يخلعوه .

هزيمة الجيش تقضى على عبد الحكيم عامر

كان الجيش هو القوة التى بقيت تناوئه بعد القضاء على الجميع !

وكان عبد الحكيم عامر ومن معه هم قيادة هذا الجيش ، ولن يتسنى التخلص منهم إلا بهزيمة الجيش هزيمة ساحقة ، يضع فيها أنفه وأنف المشير فى الرغام ، وكان من السهل تحقيق ذلك مع طغمة من محدثى النعمة قد ملكوا الرقاب ، وتزوجوا الفنانات وأسكنوهن القصور ، فهم ليسوا بالذين يتفهمون جيدا ماذا يدور من حولهم ، ومن السهل ضربهم والقضاء عليهم ، وهذا شىء يسير على رجل عاش حياته متآمراً .

وصرت أتأمل فى كلامه وأفكر ، هل يمكن أن يكون هذا معقولاً ؟

وقلت له :

ـــ هذه أمور تحتاج إلى إثبات ، أين الأدلة والقرائن ؟

وابتسم الرجل ساخرا وهو يقول :

ـــ لو رأينا إنسانا يقتل آخر ، فهل يحتاج الشهود أن يقدموا دليلا على مارأوه ؟ لأظن ، الشاهد لايحتاج إلى دليل ، بل هو يقول مارأى .

ويفسر الآخرون شهادته كيفما شاءوا . الجرائم والوقائع تفرض نفسها على الوجود ، ولايختلف أحد فى تفسيرها .

ـــ تقول إنه قد قضى على الجيش ؟

ـــ أقول إنه قد قضى على الجيش وعلى كرامة الوطن ، وصنع من إسرائيل دولة عظمى فى المنطقة ، ليتخلص من صفيه وخليله المشير عبد الحكيم عامر .

ـــ صعب أن أتخيل زعيما يضحى ببلده من أجل الحفاظ على كرسيه ، أو التخلص من أحد ممن يظن فيهم الخوف عليه .

منطق الجبارين والطغاة

واعتدل الرجل فى جلسته وقال :

ـــ يظهر فى التاريخ أنماط من الناس تقودهم المقادير إلى الصدارة فى بلادهم ، وهؤلاء الناس تختلط الأمور فى رءوسهم فيرون الباطل حقا ، والحق باطلا ، فهم يحكمون ويظنون أنهم رسل العناية الإلهية ، وأنهم الوطن ، والوطن هم ، ومن يتطاول عليهم فكأنه قد خان الوطن ، وتتضخم ذواتهم فى نظرهم حتى لايعودوا يرون فى الكون سواها ، ولعل هذا بعض ألوهية فرعون ومن سار على نهجه من الجبارين والطغاة ، فالدولة والوطن شيء صغير بجانب ذاته ، وهو يقضى على شعبه من أجل بقائه ، فهو المهم والأهم ، أما البلاد والعباد فيمكن أن نأتى بغيرها ، كل شيء يمكن أن يعوض إلا الزعيم الملهم الذى إذا غاب فكأن الشمس قد غابت ولف الناس ليل سرمدى لانهايةله ، وهذا يفسر مايفعله الجبارون .

كل ماعداهم باطل ، وهم يبيحون لأنفسهم فعل أى شيء ماداموا على الكرسى قعودا .

هذا هو منطق الجبارين والطغاة ، فلا تستغرب أن يفكر عبد الناصر فى القضاء على الجيش المصرى ليتخلص من زمرة لايريدها أو تنافسه أو يخشى شرها .

الزعيم هو الدولة والوطن ، والذى يخونه يخون الدولة والوطن ، وهو منطق قد تغلب وساد عبر التاريخ كله .

ــ وكيف له أن يتحكم فى شعب وهو فرد ؟ وأنى له السيطرة على كل ماحوله ومعه من قوى غاشمة حتى تأتمر بأمره وتنفذ له ما يريد ؟

ــ هناك عوامل ينبغي توافرها ، اقتصاد قوى ، سلع موجودة بالأسواق لايجد المواطن فيها أزمة كبيرة ، حلم كبير يبشر به الطاغية ، مهابة يحصل عليها من سلاطة اللسان وتهديد القوى التى تحكم العالم ، وضيق عاناه الناس فهم يحلمون بمستقبل أفضل ، وإعلام موجه يعرف ماذا يقدمه للشعب ، وفرق للأمن قد فقدت استقلالها ورؤيتها ، وكل منهم ليس غير « ترس » صغير فى آلة ضخمة لايملك غير الدوران ، عندما يضغط الزعيم على الزر الموضوع أمامه .

أما الطاغية نفسه فهو متشكك فى كل من حوله ، ينتظر رصاصة تصيبه من أقرب المقربين إليه ، ينام وتحت وسادته مسدس قد حشاه بالرصاص ، وهكذا كان يبيت عبد الناصر ، ومن بعده كان يفعل السادات ، فهو غادر ولا ينتظر غير الغدر من الآخرين ، لاينام الليل إلا بالمهدئات والحبوب ، وأى صوت يفاجئه يمتلىء رهبة وخوفا منه . وهذا هو الحال مع كل أتباعه .

وهو عندما يسلب الناس أموالهم يحولهم الى قابضى مرتبات ، من ينقطع عنه راتبه يموت هو وأولاده من الجوع أو يسجد للصنم ، وهو مضطر لفعل هذا فى النهاية ، فهو يؤمم الأموال والشركات ليس من أجل العدل ، ولكن من أجل القضاء على أية قوة قد تعترضه يوما أو تفكر فى ذلك .

وهو فى بطشه وقوته لايعرف أبا أو أخا أو زميلا أو رفيق سلاح .

كان من بعض من يعمل لهم عبد الناصر كل حساب الأخوان جمال سالم وصلاح سالم ، وذلك لجرءتهما ووقاحتهما ولفهمهما لطبيعة عبد الناصر .

وكيف انتهى جمــال ســالـم ؟

مات وهو يتجرع غصص العذاب فى المستشفى ، وزاره عبد الناصر فى أواخر أيامه ، وكان الألم يفتك به ، وفشلت جميع المسكنات ، فكان يضرب رأسه فى الحائط حتى يشجب دما لعله يستريح بلا فائدة .

ألم قاتل ممض أعيا الأطباء تخفيفه عنه ، فبطنوا جدر الغرفة التى يبيت فيها بالمطاط حتى لاتؤذى رأسه حين يضربه فى الحائط .

وزاره جمال عبد الناصر تحت ضغط من زملائه،وحتى تحسن صورته أمام الناس ، وانحنى جمال سالم عندما هم عبد الناصر بالمغادرة ، وتمسك به جمال سالم واحتضن

ساقه ، وعبد الناصر يدفعه عنه حتى وصل بفمه الى حذاء عبد الناصر وقبله متوسلا أن يبقى ، فقد صار الزعيم هو الذى يملك مقدرات كل شيء ، ويملك أيضا أن يشفيه مما هو به ، ورفسه عبد الناصر بقدمه وهو يغمغم :

ــ ماذا أفعل لهذا المعتوه ؟

وخرج عبد الناصر من غرفة جمال سالم،وتركه ينتحب باكيا من الذل والألم .

ثم مات موتة الكلاب ، يعوى ويصرخ دون أن يستطيع أحد له شيئا . هو انتقام الدنيا تمهيدا للحساب فى الآخرة عند البعث .

ولم يره عبد الناصر بعد ذلك .

وكانت جنازته أضحوكة مصر ..

ووضعت جثته على عربة مدفع ، وقد غطيت بعلم جديد لمصر لايدرى أحد ترتيب ألوانه حتى الآن ، فهو قطعة من القماش قد اختلط فيها السواد بالحمرة وبينهما شيء أبيض ، ولايعلق فى ذهن أحد ترتيب هذه الألوان،رغم تطاول السنين ومرورها .

سبعة من المشيعين ، وخمسون ألفا من المباحث والمخبرين .

وذهب وحيدا فريدا حيث الحساب الدقيق ، وكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكل ماقاله فى مضابط محكمة الشعب مكتوب .

قطعوا أمعاءه قبل أن يموت ، استأصلوا ورما من رأسه بعد أن حطموا جمجمته ، نشروا عظام أضلعه لتضخم كليته .

لم ينطق بالشهادة عندما جاءه الموت ، بل كان يعوى ويرتفع بنباحه من الالم والندم حتى سمعه كل من بالمستشفى .

وهذه هى إحدى نهايات الظالمين ، ولله صور شتى فى عقابهم قبل أن يفدوا اليه ، ليعتبر الناس ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وأن الظلم لمحة من الزمن ، تتبخر مع شروق الشمس وغروبها ، حتى تأتى إلى نهايتها وتصير ذكرى يمقتها الناس ويسبوا صاحبها ويلعنوه مادام اسمه يذكر ويتردد ، أو كلما ذكر وتردد .

وكان هذا الجمال سالم فى الأمس القريب يملأ الدنيا،ويشغل الناس فى كل مايأتيه من أعمال ، يأمر فيسجن من يريد ، وينظر فيقتل من يشاء ، بغض النظر عما فعله هؤلاء الضحايا من أعمال .

وصلاح سالم هو الآخر صورة من الانتقام الإلهى البالغ .

يمضى زمن يسير فيتحول عنه السلطان والهيلمان ، ويذهب فيقترض من هنا وهناك ، ويأتى خبره إلى الزعيم فيأمر مدير بنك من البنوك،فيقدم له سلفة يصلح بها من أحواله ، ويستنيم المسكين للمال الحرام الذى حصل عليه ، ويعكف على الخمر ينسى فيها أحزانه ومذلته ، فينطلق لسانه ويتطاول على الرئيس ، ويذهب خبره الى الرئيس ، فيأمر أعوانه فيطالبونه بالسلف والقروض التى بنى بها قصرا وملأه بالرياش ، ثم يهددونه بتوقيع الحجز عليه،وبيع هذه الممتلكات وضياع النعيم المقيم الذى عاشه ، وتضيق الدنيا به فيذهب صاغراً ذليلاً ، ويقبل حذاء الزعيم فى جمع من الفراعين الصغار .

هذا هو تاريخ مصر الحديث،وهذا ماجرى لرفاق الزعيم الذين شاركوه فى سرقة مصر، وإلحاق الذل والهوان بشعب مسكين قد أحيط به ، ولم يعد يملك من أمر نفسه شيئاً .

ثم يموت بالطريقة التى مات بها أخوه،ويطويه النسيان بعد أن تجرع من نفس الكأس التى سقى بها كثيرا من المواطنين الأبرياء .

وأظنك تعرف ماحدث لى ، ولاداعى لذكره من جديد حتى لايعرفنى من يقرأ .

وتأملته قليلا وقلت له بعد قليل من التردد :

ــ أنا أقول إنه رجل متحمس قد أخطأ الطريق إلى إصلاح مصر ، أراد الاستقلال ودعا الى مجتمع جديد ولم تكن ملكاته تسمح له بمثل تنفيذ هذا المشروع ، اتخذ الديكتاتورية والطغيان سبيلا إلى الحكم والغلبة،فهزمه منطق الطاغية الذى يعيش فى داخله ، كان يرى أن رأيه هو الصواب وأن رأى غيره فساد وخطأ ، استعان بمن يثق فيهم ، دون الأخذ فى الاعتبار مايعرفون ومالايعرفون .

فأهلك الحرث والنسل ولكن دون قصد ، كان يريد الخير ولم يعرف الطريق إليه ، هذا هو اجتهادى فى الزعيم الذى هلك .

وضحك الرجل ضحكة عالية مدوية ثم قال :

ــ هذه سطحية فى تناول الأمور . الطاغية طاغية . الظالم ظالم . ويستوى عمله ونتائجه ، وليس هناك ديكتاتور حسن النية وآخر سيئها . كل منهم يعمل أعمالا تؤدى إلى الخراب ، خراب المنشآت والنفوس . يترك الطاغية بلده بعد أن يقضى على كل شيء فيه . وهو يتركه بعد أن يفرغ مجتمعه من الرجال ، وهذا ما فعله عبد الناصر ، كل من تبقى فى مصر بعد ذهابه لايصلحون لعمل سياسى أو

اجتماعى ،مازال صوت السياط فى آذانهم،ومازالت لسعاته على أجسادهم،وعلاماته لاتذهب أبدا حتى يموتوا . يحتاج إصلاح ماأفسده عبد الناصر إلى ثلاثة أجيال ، ويحتاج أيضا إلى ذهاب هذه الحكومة بكل مافيها من عوامل الفساد والانحلال . قد تغيرت البنية الأخلاقية للمجتمع المصرى ، وتغيير ذلك يحتاج إلى أجيال تتعاقب ، أو ثورة وليست انقلابا ومن ثم نبدأ من جديد ، وظنى أن هذا أمر مستحيل .

الرئيس يضرب الوزراء

وقلت له بصوت خفيض :

ــ كأنه مثل فرعون الذى ذكره القرآن .

وانبرى محتجا معترضا :

ــ كلا ياسيدى .. لاوجه للمقارنة على الإطلاق .

ــ هل كان فرعون أطغى وأكبر ؟

ــ كلا .. الفرق بينهما كبير ، فرعون الذى ذكره القرآن الكريم كان جباراً ولكنه كان مهذباً ، وكان يقبل المناقشة ، هل رأيت أو سمعت أن فرعون كان يضرب وزراءه ؟

وأبديت اهتماما شديدا وقلت له :

ــ ماذا تعنى ؟ هل كان عبد الناصر يضرب وزراءه ؟

ــ هناك حادثة رأيتها بنفسى .

وامتلأت دهشة وعجبا :

ــ وكيف كان ذلك ؟

وبدأ الرجل يروى القصة وأنا أستمع إليه فى انتباه شديد وقال :

ــ لم يستخدم عبد الناصر حقه الدستورى فى ضرب القوات الانفصالية التى أعلنت استقلال سوريا عن دولة الوحدة عام ١٩٦١ ، هذا دون الدخول فى تفاصيل القصة من أن سوء إدارة الحكم هو السبب فى حدوث هذاالانفصال ، وأنه كان عليه أن يمنعه والحق معه والقانون الدولى فى صفه ، وتخيل أنت أن محافظ الإسكندرية مثلا يفكر فى الاستقلال بالمدينة وإعلان جمهورية بها ، هل يعتب عليك أحد لو أرسلت إليه قوات الأمن المركزى تدكه دكا ؟ ومابالك لو كانت هذه القوات تذهب لأهون من هذا السبب ؟

والطاغية جبان لايحسن المناورة ، ولايقوى على الحرب ، ومن ثم استسلم وترك الانفصاليين يفعلون مايشاءون .

انتهت دولة الوحدة وظل اسم مصر الجمهورية العربية المتحدة لسنين عديدة ، وظل الناس والدولة تحتفل بعيد الوحدة يوم ٢٢ فبراير من كل عام ، ولا أدرى هل مايزالون يحتفلون به أم لا ، وقاطعته قائلا :

ــ تحدثت أنه قد ضرب وزيرا .

وقال لى :

ــ هذه مقدمة لابد منها .

واستمعت اليه من جديد :

ــ أصيب عبد الناصر فى مقتل بعد انفصال سوريا ، وعرف العالم كله إلا مصر أنه السبب الرئيسى فيما حدث .

وكعادته أراد أن يفرغ غضبه فى مصر والمصريين فهم من يقدر عليهم .

وأصدر قانون العزل السياسى ، وهو باختصار حرمان كل من شارك فى الحياة السياسية قبل الثورة من ممارسة حقوقه السياسية بعد صدور هذا القانون .

رغم أن هذه الحقوق السياسية شكلية إلا أنه حرمهم من ممارستها ، منعهم من حق التصفيق له فى الاتحاد الاشتراكى ولم يستثن أحدا من ذلك .

وكانت تهمة هؤلاء أنهم قد اشتركوا فى إفساد الحياة السياسية قبل الثورة .

بمعنى أنه مثلا كل من كان عضوا فى مجلس النواب أو مجلس الشيوخ ينطبق عليه قانون العزل السياسى ، هكذا !

ثم غادر القاهرة إلى برج العرب حيث يستريح من جراء ماحدث ، وترك زكريا محيى الدين مسئولا عن البلاد والعباد .

وكان وزير العدل آنذاك المرحوم فتحى الشرقاوى .

وذهبت إليه مجموعة من المحامين منهم المرحوم على الخشخانى وطلبوا منه استثناءهم من قرار العزل السياسى،لأنهم لم يفسدوا الحياة السياسية قبل الثورة ، وأنه من السهل تبين هذا ومعرفته ، وصار أخذ ورد بينهم . ورفعوا الأمر إلى زكريا محيى الدين الذى قال إن هذه من الأمور التى لايمكنه البت فيها ، واقترح أن يعد مشروع قانون باستثناء هؤلاء المحامين ، وكان قد تأكد من أحقيتهم فى ذلك .

وقال إن هذا المشروع يوضع فى « البوستة » على مكتب الرئيس ليطلع عليه بنفسه ، ويبدى رأيه فيه منفردا .

وكان من عادة عبد الناصر ألا يُسْتعجل فى أمر قد عرض عليه .

يوضع البريدعلى مكتبه ويخرج من عنده فى الوقت الذى يريد .

وهكذا مرّت الشهور بعد عودة عبد الناصر من برج العرب دون أن يجرؤ أحد على سؤاله .

ومشروع القانون على مكتبه لم يوقع عليه ولم يُبْدِ فيه رأيا .

ومرة دخل عيه فتحى الشرقاوى .

وتلطف معه الرئيس وسأله عن أهله وعن أحواله .

وتشجع فتحي الشرقاوى .

وكنت هناك مصادفة !

وسأله وزير العدل عن ذلك المشروع بقانون باستثناء على الخشخانى وآخرين من قانون العزل السياسى .

ولن أنسى ماحدث حتى أموت .

قام عبد الناصر من كرسى مكتبه متجهما رغم ابتسامته الصفراء ، واقترب من فتحى الشرقاوى وقال له :

ــ بتدافع عن الرجعيين ياابن ...

ووصف أم معالى الوزير بصفة يعاقب عليها القانون أفراد الشعب العاديين لو قالوها بعضهم لبعض .

وصار يصفعه على وجهه ويلكمه فى صدره ، ويضربه بقدمه فى مؤخرته ، ويسبه سبا مقذعاً .

وقلت له مذهولا :

ــ وماذا فعلت ؟

وقال لى :

ــ لم أفعل شيئا . لقد تجمدت من الرعب .

ــ وماذا فعل الوزير ؟

ــ كان يقف أحد السعاة الذين يقدمون القهوة لعبد الناصر ، وكان أثيرا لديه مقربا منه ، فأخذ بذراع الوزير يخرجه من مكتب الرئيس وهو يوبخه ويقول له : وزير عدل إيه وانت بتتدخل فى أشياء ليست من اختصاصك .

ثم طرده من الوزارة فى أول تعديل جاء بعد ذلك !

وزير العدل المصرى ضربه الرئيس بالشلوت،وصفعه على وجهه،ثم أشبعه ضربا وسبا . وتم هذا أمامى .

وصرت أتأمل فى حديث محدثى مذهولا متعجبا ، فهو أسلوب للحكم لايتناسب مع العصر الحديث بكافة المعايير .

فأنا أفهم أن يأخذونا نحن المواطنين العاديين ويقوموا على اعتقالنا وعلى تعذيبنا ، ويحتجزونا سنوات طويلة ، أما أن يقوم الزعيم الملهم بنفسه بضرب الوزراء على هذا النحو الغريب الفريد ،فهو أمر يستعصى على التصديق ، ويتم ذلك أمام شخصية هامة أخرى مسئولة ، وهو مايفسر كل فساد وخسارة قد تم حدوثها فى هذه الأيام الغريبة .

فقد كان يكفيه عدم الموافقة على المشروع وإعلان ذلك وإبداء مساوئه إن أراد ، بمعنى أن يناقش الأمر مع الوزير ، أما أن يضربه بالحذاء ويسب آباءه وأمهاته فهو بذلك يمنعه ويمنع غيره من تقديم أى اقتراح للإصلاح .

ولعل فى هذه القصة تتمثل « فلسفة الثورة » الحقيقية !

وهى الضرب ، والضرب الحقيقى وليس المعنوى ، وقتل أى توثب أو شعور بالكرامة فى نفس كل من يتصل بالزعيم ، سواء كان هذا الاتصال مباشرا مثل كبار المسئولين والرفاق الذين قاموا معه بالهجمة على مصر فى صباح ٢٣ يوليو عام١٩٥٢ أو غير مباشر مثل أولئك الذين خالفوه فى الأفكار من مختلف الاتجاهات الوطنية كالإخوان المسلمين والشيوعيين ، وأصحاب الاتجاهات الوطنية الأخرى .

وكانت آخرة خدمة الغُزْ علقة دائما كما يقولون !

الصاوى أحمد الصاوى الأسطى المحترم نقيب العمال ، أخذ ألفين من الجنيهات رشوة ، قدمها له إبراهيم الطحاوى ، ونشر صورة الشيك أبو الخير نجيب رئيس تحرير جريدة الجمهور المصرى فى أيام الثورة الأولى،واستطاع أن يحرك الدهماء والغوغاء ، وعمال السكك الحديدية فى إضراب كبير،احتجاجاً على الحرية والديموقراطية وعلى إجراء الانتخابات

واستجاب القتلة واللصوص لرغبة الدهماء الذين حركوهم بالفلوس ، وأعلنوا إلغاء الحرية والديموقراطية،واستمرار الثورة تقبض بيد من حديد،وتجعل أعزة الناس أذلة . وتفسد وتخرب فى كل أرض مصر .

وتصادف أن أعلن عن اجتماع لمجلس الدولة يرأسه الدكتور عبد الرزاق

السنهورى ، ومن سخرية القدر أنه كان اجتماعا عاديا لبحث الترقيات والعلاوات والتعيينات .

وذهب حسين عرفة رئيس البوليس الحربى وكبير البلطجية آنذاك،وفتح باب مجلس الدولة الذى أغلق بالجنازير عندما أحاطت قوات الدهماء به ، ودخلوا وضربوا السادة المستشارين بالأحذية وهم يهتفون يسقط« العلم والمتعلمين » .. تسقط الحرية والديموقراطية .

هكــذا !!

ونقل السنهورى إلى المستشفى مغشيا عليه .

وبدأ فى مصر عهد جديد،هو عهد ضرب الكبراء والوزراء وأهل الرأى بالأحذية على رءوسهم من أجل التقدم والازدهار .

وخيم الظلام على ربوع مصر .

ومازلنا نعيش فيه .

الشعب المصري نمرود ويجب إذلاله

وعدت إلى محدثى،وكان من الطغاة الصغار الذين ساعدوا الزعيم ، وارتكبوا فى سبيله الجرائم التى يندى لها الجبين ، ثم أحس بالتوبة والندم بعد أن أوشك العمر على الانتهاء وقال :

ــ قد سألتنى عما إذا كان عبد الناصر يعلم عن جرائم التعذيب التى ارتكبت ، وقد عرفت الحقيقة ، لقد كان هو يمارسها بنفسه .

وقد بدأت هذه الجرائم مع الشهور الأولى للثورة .

بدأت بالقتل عبر محاكمات صورية مضحكة استهدفت أول مااستهدفت العمال المساكين بكفر الدوار .

شغب مثلما مايحدث فى أى زمان ومكان .

ضرب البوليس النار فى المليان على غير العادة .

أصر الزعيم الملهم ــ ولم يكن فى ذلك الوقت ملهما بعد ــ على إجراء المحاكمات فى مكان الشغب بكفر الدوار .

وذهب أحد زبانية الثورة وكان اسمه عبد المنعم أمين ، وترأس ماأسموه محكمة آنذاك ، واتفق الزعيم مع عبد المنعم أمين أن يقدموا قربانا للاستبداد ، وكان عليه أن يحكم بالإعدام على رجلين ، أى رجلين من العمال .

وكانت الضحيتان هما البقرى وخميس .

عاملين يتيمين فى المدينة .

محاكمة هزلية مرتجلة ، رئيس المحكمة جاهل حانق غير مؤهل .

جرت المحاكمة فى ساحة بلا أوراق ، وبلا معنى .

ليس هناك اتهام محدد ..

حتى شهود الزور لم يتمكنوا من العثور عليهم !

والبقرى يصرخ بين الوحوش :

ـــ أنا مظلوم ياسعادة البيه ، وحياة « الختمة » مظلوم ..

وكان خميس ينظر فى ذهول إلى من حوله ، وهو لايدرك حقيقة مايدور .

وتبادلت المحكمة الأنخاب والكلام .

ليست هناك وقائع محددة .

ولكن هناك أنياب مكشرة ، وأظافر مشرعة ، ومشانق قد نصبت ولابد من تقديم قربان ليتعظ الأفندية فى القاهرة ، وليعلموا أنما هو زعيم واحد ، وأن عهداً جديداً قد بدأ .

وحتى تكتمل الملهاة قال رئيس المحكمة :

ـــ لابد من محام ليدافع عن المتهمين .

وضحك الموجودون ، فقد ظنوا أن رئيس المحكمة يتلطف ويداعبهم .

ولكنه قال :

ـــ أناأتكلم جد . ألا يوجد محام هنا ؟

وزاد ضحك الموجودين .

بطبيعة الحال لايوجد محام ، وهى محكمة هزلية شكلية ، والمطلوب هو قتل اثنين من المساكين .

وعاد عبد المنعم أمين يقول :

ـــ نريد محاميا . لابد من محام يدافع عن المتهمين .

وتلفت الناس من حولهم هازئين ساخرين يتبادلون الابتسامات ، وهم لايصدقون أن الرجل جاد فى كلامه .

وقام أحد الصحفيين وقال :

ـــ أنا حاصل على ليسانس حقوق .

وقال له عبد المنعم أمين :

ـــ وماذا تفعل هنا ؟

ـــ أنا أغطى حوادث المحكمة للجريدة .

ـــ وحاصل على ليسانس حقوق تبقى محامى . هيا قل لك كلمتين .. ولكن إياك وكلام المحامين الفارغ .. التأجيل للاطلاع .. ومناقشة شهود الإثبات .. وسماع شهود النفى .. الأمر كما ترى ليس هناك ماتطلع عليه ، ولايوجد شهود للإثبات أو النفى . ويجب أن ننتهى من هذه المحاكمة الآن .

ووقف الصحفى الشاب الحاصل على ليسانس الحقوق ، والذى لم يقف أبداً أمام محكمة فى حياته ، وفعل مثلما أمره عبد المنعم أمين ، وقال كلمتين ليس لهما معنى ، بين إعجاب رئيس المحكمة واستحسانه .

وتم شنق البقرى وخميس .

وقلت له :

ـــ لعل هذه الحادثة لادخل للزعيم الملهم بها .

وابتسم الرجل فى مرارة وقال :

ـــ لقد كنت أعيش الأحداث أيامها ساعة بساعة ، وقد قتل البقرى وخميس إرضاء للسفارة الأمريكية التى لم تتدخل تدخلاً سافراً ، بل فهموا أن هذا التصرف يرضيها منعاً لحدوث شغب شيوعى فى زعمهم .

وكنت أعارض معارضة شكلية لأسمع منه أكثر .

المخابرات نشأت على تلفيق القضايا

وقال :

ـــ فى أول أيام الانقلاب وقبل أن يتحول إلى ثورة ، وكنا نطلق أيامها عليه اسم « الحركة المباركة » صنع عبد الناصر جهازاً هزيلا للمخابرات ، وكان يقوم عليه أحمد أنور مدير البوليس الحربى ، وحسين عرفة أول رئيس للمباحث الجنائية العسكرية .

وكان جهازا ساذجا غير مدرب ، لايفهم عمل المخابرات،ولايدرك مهمتها ، وليست بأيديهم أدوات لهذا . وكل مايعرفونه أنهم مسئولون عن جهاز المخابرات ، أو يقومون على إنشائه . وكان عليهم أن يتفوقوا على القسم المخصوص أو البوليس السياسى آنذاك ، فقد كان مجال عملهم الرئيسى هو الجيش ، والبحث بين ضباطه وجنوده عن أعداء الزعيم للتنكيل بهم . ثم اتسع نشاطهم فشمل الشعب كله بعد ذلك .

ولم يكونوا فاهمين أو مدركين ، وهم ضباط صغار غير مثقفين ، ونصيبهم من التعليم ضئيل ، وكل ماعندهم مجرد معلومات عامة عن أعمال التخابر ، وهذه المعلومات مصدرها « روايات الجيب » التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت ، والذى كان يترجمها الى العربية عمر عبد العزيز أمين .

فماذا فعل أحمد أنور وصاحبه ؟

صاروا يدسون الضباط من عملائهم لزملائهم فيغرونهم بالخروج على الزعيم ، ويذكرون لهم ما يغيظهم ، ويحرضونهم فإن أبدوا تعاطفا أو موافقة قبضوا عليهم وصنعوا لهم قضية .

بدأ جهاز مخابرات الثورة هكذا واستمر على هذا الحال بعد أن تطور .

وأساس القضايا السياسية هو التلفيق فى المقام الأول ، وعلى ذلك يمكنك تصور ماذا حدث فى تلك السنين السوداء التى مرت ..

وقلت له متعجبا :

ــ قضايا ملفقة للضباط ؟

ــ نعم وأشهر هذه القضايا البكباشى حسنى الدمنهورى .

وهذا البكباشى تم تعذيبه وضربه بمعرفة صلاح سالم وزكريا محيى الدين .

ثم ضرب أمام الزعيم بمبنى قيادة مجلس الثورة .

وحوكم أمام المجلس الذى يرأسه عبد الناصر من الساعة السادسة صباحا ، وانتهت المحاكمة فى الساعة التاسعة صباحا ، وحكم عليه فيها بالإعدام ، ووضع القيد فى يديه ورجليه ، والقى فى عربة ، ووضع فى السجن الحربى تمهيداً للتنفيذ وثار الجيش وانتفض سلاح الفرسان ، وكان من حسن السياسة أن يخفف الحكم إلى المؤبد .

لقد بدأ التعذيب فى مصر بتعذيب الضباط والجنود ، تأكيدا للحكمة الشهيرة « من أعان ظالماً سلط عليه » .

فإن كانوا قد قاموا بتعذيب زملائهم من الضباط والجنود الذين قاموا معهم بالانقلاب .. فهل تراهم يتورعون عن تعذيب المدنيين الذين يرونهم دونهم ، مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة .

وقلت له مستسلما :

ــ معك الحق .

وينبرى صاحبنا مسترسلاً :

ـــ وتسمع فى هذا المجال قصصا وأحاديث لولا أننى عشتها وعاينتها بنفسى لما صدقتها ، لغرابتها وبعدها عن المنطق السليم .

الضابط حسين حمودة ، أحد الذين قاموا ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

كان يجلس على مقهى بميدان الأوبرا هو وصديقه الدكتور محمد حسين غراب ، ثم قاما منصرفين إلى منازليهما

وركبا سيارة الدكتور غراب فى طريق العودة .

ولمح حسين حمودة واحدا من زملائه الضباط يسير على الرصيف ، فطلب من الدكتور غراب الوقوف ، وياليته مافعل ، وسأل زميله إن كان فى طريقه إلى البيت فيمكنهما توصيله .

وفى الطريق صار هذا الضابط يتحدث عن ديكتاتورية جمال عبد الناصر . وأنه ينبغى على الضباط الأحرار أن يعملوا على إيقاف هذا الفساد .

وصار حسين حمودة والدكتور غراب يطيبان خاطره ويقولان له إن المسألة ليست إلى هذا الحد من السوء ، ولعل بعض الأخطاء تكون مقبولة فى ظل تغيير دولة أو مجتمع .

وجاءت المحطة التى نزل بها هذا الضابط وانصرف ، وعاد حسين حمودة وزميله الدكتور غراب إلى أحاديثهما العادية حتى انصرفا إلى بيتيهما .

ولم يكن حسين حمودة واشيا أو خائنا ، وكلمة من صديق غاضب لاتستدعى التبليغ ، بل عليه نسيانها كما يفعل أى رجل شريف ، وليس هناك من خطر يترتب عليها ، وهذه أحاديث يتردد مثلها الكثير فى هذه الأزمنة .

وكان صاحبنا الضابط ممن جندهم أحمد أنور للسير فى الطرقات،يصنعون القضايا الملفقة لزملائهم،فتزداد أهمية الجهاز فى عين الزعيم .

وفوجىء حسين حمودة بالبوليس الحربى يأخذه مخفورا إلى مكتب عبد الحكيم عامر زميله ، وهناك فوجىء بعبد الناصر يجلس على مكتب عبد الحكيم .

وسأله عبد الناصر إن كان قد التقى بالضابط عبد الواحد سبل .

وأجاب حسين حمودة أنه يلتقى به كثيرا ، ولم ينتبه إلى الحديث الذى دار فى السيارة وماينبغى له الحديث فيه ، فهى أحاديث كانت منتشرة بين الضباط فى هذه الأوقات .

وأكتشف حسين حمودة أن معلومات عبد الناصر عن القصة مختلفة تماما عما دار من حديث فى السيارة ، وأنه ـــ أى حسين حمودة ـــ قد طلب من سبل التعاون فى عمل انقلاب .

وانبرى حسين حمودة ينفى هذا بحماسة وصدق ، فى الوقت الذى كان عبد الناصر يضغط على الجرس فيدخل ضابطان من البوليس الحربى فيأخذانه إلى حيث لايعلم أحد .

وكان هذا يحدث كل يوم .

رجل ألقت المقادير فى طريقه بدولة ، وأراد أن يأخذها خالصة له ، واستعان على ذلك بمن يساعده على الرئاسة ومن يمكنه منها ، وفعل فى سبيل ذلك كل مانهى الله عنه ، وارتكب مايترفع عنه الفضلاء والشرفاء ، وقتل وسرق وزوَّر وكذب وضرب ، ولكن الله انتقم منه وجعله عبرة لمن خلفه .

وقلت له مبتسماً حذراً :

ـــ ويسألونك عن حادث المنشية .

وقال منطلقاً :

ـــ حادث المنشية من الحوادث العجيبة التى لم يكشف سرها بعد . ولكنه يسير مع منهج عبد الناصر فى التآمر . وهو بالتأكيد ملفق ومصنوع للتخلص من الإخوان المسلمين ومن محمد نجيب .

واعترضته قائلا :

ـــ كل هذه المدة ولم يعترف أحد أنه شارك فى تدبير هذا الحادث ؟

ـــ يوم ١٩ مارس ١٩٥٤ انفجرت أربع قنابل فى أنحاء القاهرة ، ولم يعرف يومها من الذى فجرها ، ثم اعترف عبد الناصر أمامنا بعد ذلك أنه الذى قام بتفجير هذه القنابل لإثارة الذعر والقلاقل . وحتى يومنا هذا لم نعرف على وجه التحديد من قام بتنفيذ ذلك لحساب عبد الناصر .

هذا هو منهجه: لم يكن يثق بأحد ، وله أعوان مختلفون . ولايعرف أحد عن الآخر شيئا ، وكان حريصا على ذلك ، حتى يتنافسوا فى إرضائه ، وفى تنفيذ مايريد .

وإن كان تفجير القنابل أمرا غامضا فحادث المنشية أقل غموضا منه .
وأصابع الاتهام تشير الى البعض .
وأحكى لك قصة :

كانت العلاقات بالغة السوء بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر كما يعرف الجميع ، ولعلك عرفت كيف أخذه حسن التهامى وكمال رفعت إلى صحراء مصر الجديدة وأوسعوه ضرباً ، ولم يحترموا منصبه كرئيس لجمهورية مصر .
وترتفع ضحكة الرجل مجلجلة وقلت له :
ـــ مالذى يضحكك ؟
وقال وهو يغالب الضحك :
ـــ إن كانوا قد ضربوا رئيس الجمهورية وهو لايزال رئيسا للجمهورية فهل يتورعون عن ضرب وتعذيب بعض المعتقلين العاديين ؟
ووجدته منطقا صحيحا وقلت له :
ـــ كلامك معقول .

التخلص من الإخوان بقتل محمد نجيب

واستطرد قائلا :
ـــ قبل حادث المنشية بأيام ذهب عبد الناصر إلى بيت محمد نجيب ، وتودد إليه وتصالح معه بين دهشة محمد نجيب لهذا التحول المفاجىء فى العلاقة بينهما ، وقال له عبد الناصر إن هناك اجتماعا فى المنشية يوم ٢٦ اكتوبر، ويود لو يذهب محمد نجيب إلى هذا الحفل ويخطب فى الناس لتأكيد معانى الإخاء والوحدة بينهما ، وتفاءل محمد نجيب خيرا ، ووعد بالذهاب فى الموعد إلى الإسكندرية .

ويتدخل القدر ويصاب الرئيس محمد نجيب بالإنفلونزا فى نفس اليوم ، وترتفع درجة حرارته ، ويذعر عبد الناصر ، ويزوره أكثر من مرة فى اليوم ، وأحس محمد نجيب بالخوف .
وشعر بغريزته أن هناك مايدبر له .
وزاد مرضه وازداد تشبثه بالفراش ، وفى اليوم الذى سبق احتفال المنشية قال لعبد الناصر :
ـــ يبدو أننى لن أستطيع الذهاب إلى الإسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر .
وحاول عبد الناصر أن يثنيه عن عزمه فلم يفلح .

ولما يئس عبد الناصر من ذهابه تجهم وجهه وبدا الغضب عليه وغادر غرفة نوم الرئيس وهو ينهره بفظاظة وقسوة وقال له :

ــ عنك ماجيت .

وعندما سمع محمد نجيب الخبر من الإذاعة يوم ٢٦ أكتوبر وأن عبد الناصر قد نجا من محاولة الاغتيال أدرك إصراره على الذهاب لإلقاء خطاب هناك .

كانت الخطة واضحة المعالم فى ذهن محمد نجيب .

وكان المقصود هو إطلاق رصاص حقيقى عليه .

يتخلص عبد الناصر من محمد نجيب ، ويقبض على الإخوان المسلمين .

خطة قد رسمها أحد رجال الجستابو الألمان الذين عرضوا خدماتهم علينا فى سنوات الثورة الأولى .

وقلت له :

ــ هل هذا هو رأيك ؟

وقال لى :

ــ هذا رأى الرئيس محمد نجيب .

وتعجبت :

ــ هل يفكر عبد الناصر فى قتل محمد نجيب ؟

ــ لقد قال هذا مرة فى صراحة كاملة أمام مجلس قيادة الثورة .

القضاء على مقومات الأمة المادية والمعنوية

وقلت له :

ــ يبدو أن الناس ينظرون إلى الحكام نظرة مثالية خيالية بعيدة عن الواقع .

ــ هذا صحيح .

ــ يستحيل على الإنسان العادى أن يتصور هذا الضرب من السلوك .

ــ ربما لاتجد هذا السلوك العدوانى فى تصرفات الإنسان العادى . الحاكم فى بلادنا يفكر دائما فى الجريمة ويفعلها . يقتل ويضع وزر هذا على واحد من أتباعه ، فالعظماء لايقتلون . أو تغلف الجريمة بستار كاذب من مصلحة المجتمع والبلاد .

وقلت له :

ــ هذه طبيعة الأشياء،فالذى يقبض عليه بتهمة عمل انقلاب أو ثورة هو فى نظر الدولة والناس متآمر وإرهابى ومجرم ويحكم عليه بالإعدام .

ولكن لو نجح فهو المنقذ من الضلال ، وهو البطل العظيم ومخلص البلاد ، وهو الزعيم الملهم ، وتضاف إلى اسمه كل صفات الربوبية والعياذ بالله .

واعتدل فى جلسته وقال :

ـــ خذ مثلا عبد الناصر .

ـــ ماذا عنه ؟

ـــ حتى مات والناس تهتف باسمه . وهو لم يفعل خيرا على الإطلاق .

وقلت له :

ـــ لعل فى هذا بعض المبالغة .

ـــ أنا لاأقول كلاما إنشائيا ، بل أقرر واقعا تعيشه بلادنا ، لاأحد يُدرك حجم الخراب الذى أصاب هذه البلاد من فعل عبد الناصر . سوف أذكر لك شيئين ولن أزيد عليهما .

ـــ وماهما ؟

ـــ الأول مادى ، هل تعرف عدد الطائرات التى نسفتها إسرائيل فى حرب عام ١٩٦٧ ؟ عددها ستعشرة وأربعمائة طائرة ، ثمن الواحدة بأسعار ذلك الزمن خمسة عشر مليونا من الدولارات ، هل تعرف كم دبابة فقدناها فى تلك الحرب ؟ ألف ومائة دبابة . ولايحضرنى ثمن الواحدة منها الآن .

وهالنى الرقم الذى ذكره،وصرت أتأمله وهو يتحدث فى انفعال شديد :

ـــ هذا شىء مادى ملموس ، والأرقام التى ذكرتها لك بجانبها أرقام أخرى كثيرة للخسارة المادية التى لحقت بمصر ، أرقام لاتقبل التأويل والتفسير ، نتيجة الفساد وسوء الإدارة والتوجه المريض .

ـــ قلت إنك سوف تذكر شيئا معنويا .

ـــ سوف أذكر لك شيئا واحدا ، وفكر أنت فيه وحدك .

ـــ وماهو ؟

ـــ عندما هزمت مصر هزيمة منكرة فى منتصف نهار ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وأعلن ذلك على الملأ يوم ٩ يونيو عام ١٩٦٧ فى خطاب التنحى الذى قرأه عبد الناصر فى التليفزيون . ماذا حدث ؟

ـــ خرجت المظاهرات من كل بلاد مصر تطالب عبد الناصر بعدم التنحى ، ورقص أعضاء مجلس الأمة عندما وافق الزعيم على الاستمرار فى حكم مصر حتى يزيل آثار العدوان حسب تعبيره آنذاك .

ـــ أنت قد قلتها بنفسك .

ـــ لست أفهم ! أين الخسارة المعنوية هنا ؟

وتكلم الرجل بمرارة :

ــ ألا ترى أى فساد لحق بمصر والمصريين عندما يصفقون ويهتفون ويتمسكون بالذى خرب البلد ، ويرقص ممثلوهم عندما يوافق على حكمهم أكثر ، ألا ترى أنه قد أفسد نفوس الناس وعقولهم حتى إنهم لم يعودوا يفعلون الصواب ، اختل فى داخلهم ميزان الحق . تحولت الأمة إلى قطيع من نعاج بفعل القسوة والجبروت والاستبداد . هل تريد تخيل ماحدث ؟ لو رأيت رجلاً قد تزوج فتاة من قرية فى ريف مصر ، وأساء الرجل معاملتها ، ثم جاءها بمن هتك عرضها ، ثم قطعها بالفأس أمام أهلها ، ثم وجدت أمها وخالتها وعمتها يزغردن ، ويأتى أهلها من الرجال فيقسمون على هذا المجرم أن يتزوج شقيقتها فماذا تحكم على هؤلاء الناس ؟ لاشك أنهم ليسوا فى حالتهم الطبيعية ، لايمكن أن يكونوا أسوياء ، وهذا مافعله عبد الناصر بالمصريين أفقدهم القدرة على التمييز ، وجردهم من الكرامة . بعد أن غرس الذل فى نفوسهم .

وشعرت بمرارة وغصة وأنا أقول له :

ــ وماذا يجدى هذا الآن ؟

ــ ربما لو فهم الناس فإنهم يخفضون سنوات الضياع القادمة .

ــ وماذا تعنى بسنوات الضياع القادمة ؟

تغيرت آفاق مصر والعرب

ــ سنوات الطغيان التى حكمها عبد الناصر تضع بصماتها على مصر والعرب والمسلمين لقرن من الزمان . لقد أفسد جيلين أو ثلاثة ، وبناء الإنسان وإعادة تكوين النفسية يحتاج إلى مناخ يختلف عما تركه ، فالذين حكموا بعده ساروا على نهجه ولكن بدرجة أخف من الطغيان ، وهى نفس المدرسة . وآفاق العرب قد تغيرت بعد هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، فقد تحولت إسرائيل إلى دولة قوية قادرة مسيطرة تفرض سلطانها ونفوذها على كل بلاد المنطقة . والويل كل الويل لمن يعارضها .

كان العرب يتكلمون قبل عام ١٩٥٢ عن قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ بكثير من التأفف والغضب ، واليهود يتوسلون إليهم أن يقبلوا ، ويوسطون الدول والرؤساء واليوم ماذا يقول العرب ؟

لقد ضاعت غزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان .

اليوم نريد حماية جنوب لبنان من الاجتياح الإسرائيلى .
من يضمن أن اليهود لايغيرون على سيناء والدلتا المصرية ؟
هل ترى الأردن بعيداً عن أطماع اليهود ؟
على العرب اليوم أن يقاتلوا دفاعاً عن غرفات نومهم .
وهذا مافعله عبد الناصر بهم .

ونظرت إليه فى مرارة وغضب بعد أن سكت وقلت له :

– لقد كنت أحد الذين عاونوه على مافعل .

– هذا صحيح .

– ومن أعان ظالماً سلط عليه .

– لقد سلطه الله علىَّ وعلى غيرى .

– داعبتكم أحلام الحكم بعده ، وإذا بالكرة تجرى بعيدا عنكم ، ويتلقفها أحد المتفرجين ويعض عليها بالنواجذ . لقد كنت طاغية أنت الآخر .

– صدقت ولكنى طاغية صغير .

– قد نسينا حادث المنشية .

– هذا حادث لاينسى ، فقد ترتبت عليه أكبر عملية بطش قد حدثت بمصر فى العصر الحديث . وأدى إلى القضاء على قوة الإخوان المسلمين إلى حين ، الأمر الذى أزاح كل القوى من أمام وجه عبد الناصر .

– هل عندك معلومات تؤكد أنه حادث مفتعل ؟

– عندى علم يقينى بمنهج عبد الناصر وطريقته فى التصرف .

– وهل هذا يكفى للحكم على هذا الموضوع ؟

– يكفى بالنسبة لى على الأقل ، ويكفى أيضا لمن هم مثلى ، الذين عاشوا الأحداث وعرفوا كيف كانت تدار الأمور . وكما قلت لك قضية القنابل التى انفجرت يوم ١٩ مارس عام ١٩٥٤ قد تركتنا نقيم الدنيا ونقعدها بحثا عن الذين قاموا بالتفجير ، وبعد حين قال لنا إنه الذى قام بهذا ، وهو الذى دفع فريق العمل لتنفيذ هذا ، وحتى يومنا هذا لم يعرف أحد من قام بهذه العملية على وجه التحديد .

– المفروض أن يتحدث بها أحد الذين قاموا بالتفجير .

– لاياصديقى . هذا ضد طبيعة الأشياء .

– لماذا ؟

ـ هذه قنابل قد انفجرت وأصابت أناسا أبرياء ، فهل تتصور أن يأتى واحد من الناس ، وهو بالتأكيد فى مكانة مرموقة الآن ، ثم يعترف أنه كان مجرما أو سفاحا أو إرهابيا ؟ لا أظن ..

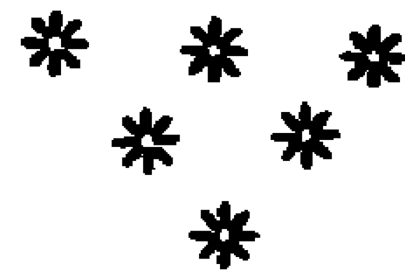
الذين قاموا بهذا العمل إما هم الآن من كبار رجال الأعمال الناجحين فى مصر والعالم ، أو بقية ممن لهم ظل من نفوذ فى هذه البلاد ، والأولى فى نظرى أرجح .

ـ قد اعترف حسن التهامى أنه كان مع عبد الناصر يوم ذهب لاغتيال حسين سرى عامر .

ـ ذلك أنها تضفى عليه هالة من بطولة ، وقد حكى القصة على أساس أنه يجيد الرماية ، وتعمد نجاته من الاغتيال ، وأن الغرض ـ فى نفس حسن التهامى ـ هو إرهاب حسين سرى عامر وليس قتله .

ـ وحادث المنشية ؟

ـ هذا حديث طويل !



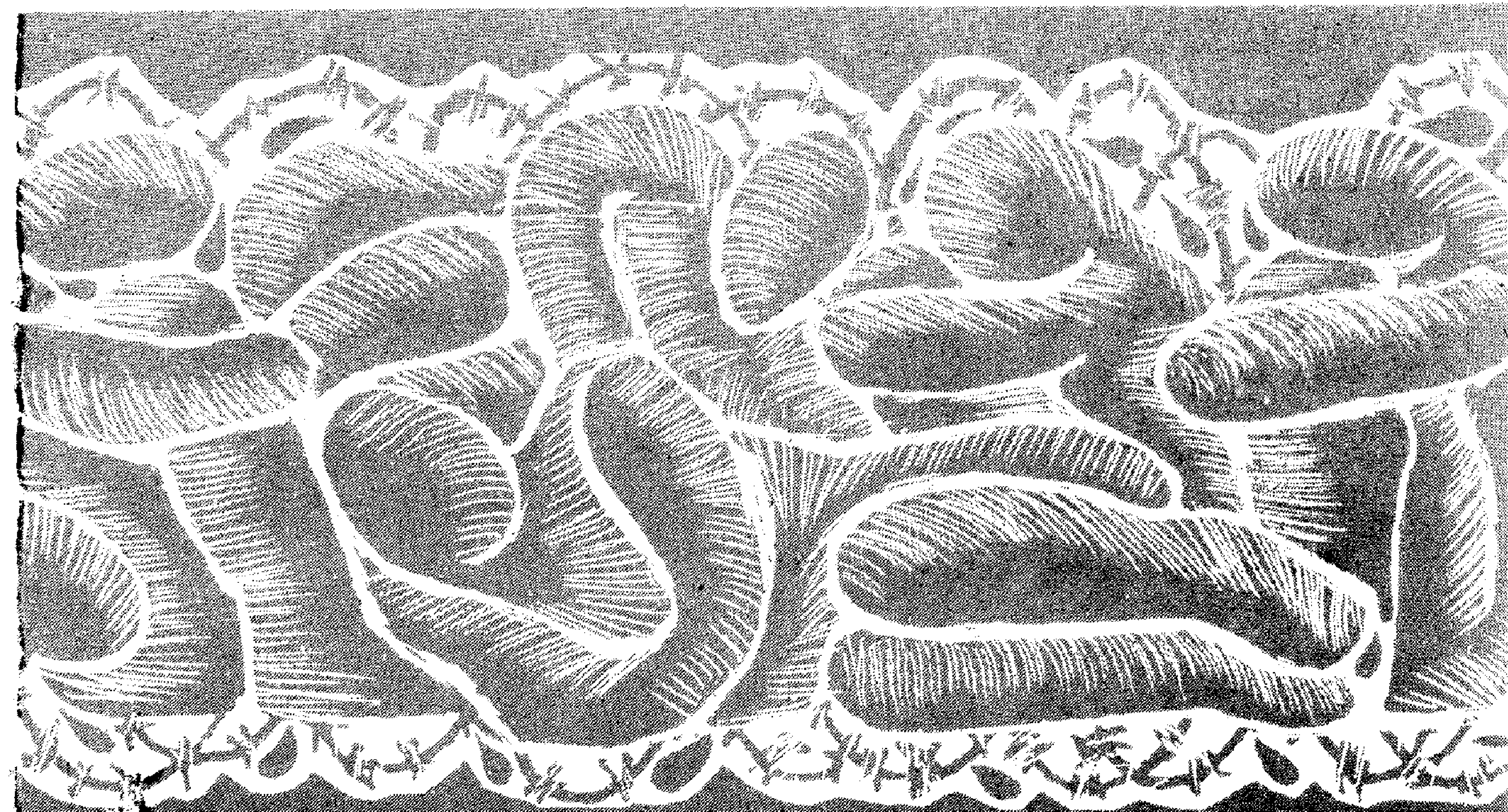
الفصل السابع

"بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا" !

محاولة اغتيال عبد الناصر في المنشية

﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون . قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . ﴾

يوسف ٨١ ــ ٨٣



الضباط الأحرار تسمية إخوانية

* لابد من مقدمة مختصرة للموضوع .

كان جمال عبد الناصر أحد الضباط الذين جندهم الصاغ محمود لبيب للعمل فى التنظيم السرى للاخوان المسلمين .

وقد بايع على السمع والطاعة هو وآخرون من الضباط منهم كمال الدين حسين وخالد محيى الدين فى ذلك المنزل بحى الصليبية عام ١٩٤٤ .

وكانت فكرة الصاغ محمود لبيب أن يطلق اسم الضباط الأحرار على تنظيم الإخوان المسلمين فى الجيش ، وهذا من باب التمويه وخداع البوليس السياسى .

وكان من يعرف سر هذا التنظيم تفصيلا الصاغ محمود لبيب والشيخ حسن البنا ، نظراً لخطورة الأمر ، والحيطة فى عدم إفشاء أسراره .

فأسماء جميع الضباط المشتركين فى تنظيم الإخوان بالجيش الذى أطلق عليه اسم الضباط الأحرار فى حوزة الصاغ محمود لبيب،وكذلك أموال الاشتراكات الشهرية المحصلة منهم .

واستشهد حسن البنا ، وسلم الصاغ محمود لبيب قائمة بأسماء هؤلاء الضباط إلى جمال عبد الناصر عندما زاره الأخير وهو على فراش الموت ، وقد حضر هذه الزيارة حسين حمودة أحد أعضاء التنظيم .

وكان محمود لبيب قد انتحى بعبد الناصر عندما سلمه هذه الأشياء .

وقد سأل حسين حمودة جمال عبد الناصر عما أخذ من محمود لبيب فأخبره أنها ورقة بها الأشياء التى يريد شراءها .

وبعد أن أقعد محمود لبيب المرض ثم الموت كان عبد الناصر هو الذى يعرف أسماء الضباط ، ومن ثم أعاد تشكيل التنظيم من جديد ، وأسرف فى شكلية منع أى اشتباه فى الصلة بين التنظيم والإخوان حتى انتهت الصلة بينهما بالفعل .

واستطاع إقناع ضباط الإخوان مثل كمال الدين حسين بأهمية تكريس هذا الانفصال عن الإخوان لدواعى الأمن .

وسارت الأمور على هذا المنوال حتى صار التنظيم شيئا آخر له صلة غير واضحة المعالم مع الإخوان .

وانضم إلى التنظيم ضباط آخرون باسم تحقيق الأمانى الوطنية والقضاء على فساد الملكية فى مصر ، وصار كل ضابط جديد لايعرف الصلة العضوية بالإخوان لأنها كانت قد انتهت بالفعل فى رأس عبد الناصر .

ثم عاود عبد الناصر الاتصال بالإخوان بعد المحنة التى مرت بهم فى عهدى النقراشى وابراهيم عبد الهادى ، وقد تم ذلك عبر صلاح سالم الذى أجرى اتصالا بالأستاذ صلاح شادى مسئول الإخوان فى البوليس .

وزاد الاتصال عندما تهيأت الظروف لعمل الانقلاب،وأصبح الجو يسمح بهذا . وكانت العهود والمواثيق وقراءة الفاتحة بين عبد الناصر وصلاح شادى على تحقيق الأمانى الإسلامية للأمة .

وقام الإخوان بدورهم فى ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وبعد ذلك حتى نجح الانقلاب .

وربما كان عبد الناصر يطمع فى زعامة الإخوان المسلمين بعد نجاح الانقلاب ، وربما كان يفكر فى أن تكون الجماعة هى الهيئة الشعبية التى يحكم بها ، فيضع فى يده الجيش وفى يده الأخرى يضع الشعب ممثلا فى جماعة الإخوان .

ولعل الذى حال دون تحقيق ذلك أمران .

عبد الناصر والإخوان

كانت طبيعة عبد الناصر تنفر من الدين بشكل عام ، ولم يكن مسلما ملتزما بشكل خاص ، وكان يعيب على الإخوان النظام التعبدى والتربوى الذى كان متبعا فى تشكيلات الأسر . وكان لايرى فائدة المأثورات فى الصباح وبعد العصر . وقد صرح بهذا لكثير من المسئولين عنه ، قبل تكريس انفصال تنظيمه عن الإخوان .

والأمر الثانى الذى حال دون تحقيق هذه الفكرة ـــ أن يتزعم عبد الناصر الجماعة ـــ هو وجود شخصيات قوية محنكة على رأس هذه الجماعة،ممثلة فى رجال الصف الأول والثانى والثالث ، ناهيك عن شخصية حسن الهضيبى الصلبة العنيدة ذات المراس الشديد ، بالإضافة الى صغر سنه هو شخصياً .

وربما أدرك عبد الناصر صعوبة هذا قبل الانقلاب ، ولكنه تأكد من ذلك مع الأيام الأولى منه . أو كان يقدر لهذا من أول يوم .

ـــ وعندما التقى بالمرشد العام المرحوم حسن الهضيبى يوم ٢٨ يوليو عام ١٩٥٢ قال له :

ـــ احنا لم نتفق على شيء ، وهؤلاء هم أمامك اسألهم .

وعلّق المرحوم الهضيبى بعد المقابلة التى تمت :

ـــ ليس فى هذا الرجل خير يرتجى .

وتوالت الأحداث .

مجموعة من الضباط شكلت مايسمى مجلس قيادة الثورة .
وصار هذا المجلس أعلى سلطة فى البلاد .
وكانوا ضباطا على درجة متوسطة من التعليم ، وثقافة بسيطة محدودة ، مع انعدام الخبرة،ووهج السيطرة على مقدرات البلاد .

وصار هذا المجلس ينعقد دون جدول أعمال ، فجدول أعماله كل مافى مصر من مشاكل الحكم والسياسة والاقتصاد .
وكان البناء الأخلاقى لهؤلاء الضباط ضعيفا .
فمن الوهلة الأولى بدءوا فى السلب والنهب ، كل على قدره وطاقته .
ومن الوهلة الأولى كانت العلاقات غير الشرعية مع بعض السيدات .
ونشأت علاقات بين بعض السادة الضباط وبعض الفنانات ، ويرجع فى هذا إلى « قطار الرحمة » وماجرى فيه .

وتطورت العلاقات حتى وصلت إلى بعض الأميرات ، ويُرْجَعْ فى هذا إلى صلاح سالم والأميرة فايزة شقيقة الملك فاروق !
وكثرت جلسات الميسر والخمر،وارتادها السادة الجدد .

كل هذا أدى إلى تعميق الخلاف بين الضباط والإخوان .

قوم يريدون الدنيا والبغى فى الأرض بغير حق .

وقوم يبتغون الآخرة .

هذه هى قصة الضباط والإخوان فى تركيز شديد .

وقدتناول هذا التاريخ ظنا ويقينا عشرات الكتاب،وليس فى سرد تفصيله جديد يضاف إلى ماتمت كتابته .

اكتشف الضباط أنهم يحكمون مصر ، وأنهم استطاعوا القضاء على كافة القوى التى تقف فى سبيل سيطرتهم وغلبتهم .

وانهار المجتمع المصرى أمام وطأة الجيش الذى كان يسحق بلا تمييز .

وكان الأمل الأخير للمصريين هم الإخوان المسلمين .

ووقف الإخوان وحدهم أمام الضباط اعتباراً من آخر مارس عام ١٩٥٤ .

الصراع بين الضباط والإخوان

وكان الإخوان يريدون تهيئة الشعب للحكم بالإسلام ، ومن ثم يريدون خلق المناخ المناسب لازدياد أنصارهم،وتقبلهم لهذه الفكرة .

لم يكونوا يفكرون فى حكم البلاد فى هذه الآونة ، وكان غاية مايريدون فى هذه الظروف حسب تصريحات زعمائهم حكومة رشيدة عادلة ، تعطى مناخاً من الأمان والعدل والحرية ، يسمح لهم بانتشار أفكارهم ، مع تحقيق الأمانى القومية والوطنية .

وكان قطار الضباط يسير مسرعا إلى الديكتاتورية واستبداد الفرد،وتسلط عبد الناصر على الحكم ، عبر مناخ من فساد جديد لاقبل للناس به .

ولاشك فى أن هذه الفترة من تاريخ مصر معتمة وغامضة،وغير واضحة المعالم .

فقد أشار عبد الناصر على الضباط فى أزمة مارس أن يُكوِّن كل واحد منهم فريقا من القتلة للتخلص من أعدائهم ، وكان الإخوان هم المعنيين بهذا . وكان هناك من مجلس الثورة من يبلغ هذا إلى الإخوان .

واختفى المرشد العام منعاً لفتنة قد تحدث لو تم اغتياله بمعرفة الضباط . وذلك إذا علمنا أن القوة الشعبية المنظمة الوحيدة والمسلحة أيضا هم الإخوان المسلمون .

وكانت لهم شوكة وسطوة ونفوذ ، من كثرة الأتباع وانتشارهم عبر البلاد .

وعندما أوشك الصدام أن يقع بين الضباط والإخوان كانت رؤية الطرف الآخر مختلفة . فالضباط لهم هدف واحد هو القضاء على أية قوة أمامهم ، والتمكين لعبد الناصر الذى أقنعهم أنه يمثلهم ، وأن النفوذ هو نفوذهم ، وأن الجيش هو الذى سوف يحكم مصر ، وأن المغنم ليس هناك فى البلاد من يستحقه سواهم ، وليس من هو أهل له غيرهم .

أما الإخوان فكان منهم من يظن أن عبد الناصر منهم ، وأنها خلافات حول بعض وجهات النظر ، ولم تتضح الصورة لهذا الفريق إلا بعد سنين .

فقد كان عبد الناصر من الإخوان ، وهذا اقتناع بعض الزعماء منهم ، لأنه واقع يعرفونه ، وعندما انفصل عنهم لم يخطرهم بهذا رسميا ، وماينبغى له أن يفعل ، فظل هذا الفريق يتعامل معه على هذه الصفة ، فى حماسة شديدة وإخلاص بالغ .

دهم قطار الضباط جماعة الإخوان ، وهى فرق مختلفة قد تباينت فى نظرتها .

حاول يوسف صديق أن ينبه فريقا من الإخوان إلى خطر عبد الناصر فما كان من هذا الفريق إلا أن أسرع بتبليغ عبد الناصر بمكيدة ذلك الشيوعى الدخيل ، الذى يريد أن يوقع بين المسلمين فى زعمهم .

وكانت نفس القصة قد حدثت مع محمد نجيب ولكن بصورة مختلفة ، فقد أراد خالد محيى الدين وثروت عكاشة أن يعاوناه فى القضاء على عبد الناصر وخطره ،

وظن الرجل الطيب أنها مكيدة يدبرها له الضباط ، وأنهم يريدون إثبات التآمر عليه ، وذهب واشتكى لعبد الناصر هذه الخدع التى لاتنطلى إلا على السذج والبلهاء .

وسمع عبد الناصر ولم يعقب ، وأسرها فى نفسه الى حين .

وهى فترة يصعب فيها تفهم الاتجاهات الصحيحة ، وتحديد معالم أية ظاهرة موجودة .

ألغى الدستور ، وتغلبت الدهماء ، ونادوا بمجلس الثورة يحكم ، ولاتجرى الانتخابات كما كان متفقا عليه .

وكان تقدير الإخوان لمحمد نجيب مبالغاً فيه ، فرغم أنه رئيس الجمهورية الشرعى المحبوب من الشعب إلا أنه لم تكن وراءه قوة من جيش تحميه ، فقد انقطعت صلته بالجيش بعد قرار تعيين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للجيش المصرى ومنحه رتبة لواء محطمين بذلك كل الأعراف والقواعد العسكرية المعمول بها فى مصر والعالم حسب معطيات العصر الحديث .

ولم تكن وراءه تنظيمات شعبية لها تغلغلها ووزنها ، اللهم إلا عواطف الشعب المصرى المسكين ، الذى لايملك لنفسه ولا له شيئاً .

وبقية من جماعة الإخوان المسلمين الذين توحدوا — فى رؤيتهم للخطر الداهم — خلف المرشد العام .

وكانت الخطة تقضى باستنفار الشعب فى مظاهرة لدعم محمد نجيب عندما يصدر من القرارات مايمكن أن يضع الأمور فى نصابها .

ولعله لم يكن هناك اتفاق حول هذا الشأن ، وربما لم تكن المسألة تعدو مجرد تصورات مبهمة حول تفاهم لم يُتفق بشأنه ، أو تسليم بما ينبغى أن يكون .

وكان الضباط أكثر نشاطا من الإخوان ، ولم يكونوا ملتزمين بشىء فى حركتهم للقضاء على أعدائهم المسالمين رغم تسلحهم وقوتهم .

أجهزة الأمن على علم بما يدور فى داخل الإخوان

وطرحت أفكار للاغتيال والتخلص من الضباط ، واستنكرها ونهى عنها المرشد العام بحزم وبشدة .

وتضاربت الأقوال واختلفت حول طبيعة ماحدث فى تلك الآونة .

فهناك من قال إن القوة الحقيقية كانت فى يد محمد نجيب ، وإنه لايزال يسيطر على الدولة من خلال شعبيته الكاسحة . وإن الزمام فى يده ، وإن شاء قام بالتغيير المطلوب والعودة بالبلاد إلى الحياة الطبيعية من خلال برلمان أو هيئة تأسيسية منتخبة ،

وإذا أراد الضباط الحكم فعليهم خلع الملابس الكاكية تماما،وأن يدخلوا الانتخابات من خلال حزب سياسى .

وقال أهل العلم إن الضباط لن يخلعوا ملابسهم الكاكية إلا بعد التمكن الكامل من حكم البلاد بطرق أخرى يدبرون لها غير الانتخابات . وإن محمد نجيب لم يعد بالقوة القديمة ، وإن الضباط قد انتبهوا إليه ، فهم يحيطون به،ويعملون على إبطال مفعوله إن فكر فى تصرف إيجابى ضدهم .

وأثناء هذا كله كانت الأمور فى أخذ ورد بين الإخوان بأجنحتهم المختلفة .

وكان المسلمون الصابرون حول المرشد العام يرقبون الأحداث كغيرهم فى ترقب وانتظار مشوب بالتردد وعدم المعرفة بالبروجرام الذى يمكن أن تقدمه الحكومة .

وكان البوليس السياسى قد تقدم الى الحكومة الجديدة — حكومة الضباط — وبعد ساعة واحدة من قيام الانقلاب-بعرض خدماته عليها .

فقد كان من الخطة اعتقال كبار الضباط فى الجيش المصرى ، وكذلك مدير الأمن العام ومساعديه ، وإيداعهم معتقل الكلية الحربية حتى ينجح الانقلاب .

وأخبر عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية والذى أودع المعتقل أن لديه أوراقاً هامة ينبغى للقائمين على الانقلاب الاطلاع عليها .

ولم يكن عنده أية معلومات عنهم ، حتى أسماؤهم لم يكن يعرفها . كل ماكان يعيه أنهم السادة الجدد وعليه أن يتقرب منهم .

وبالفعل اصطحب مجموعة من الضباط إلى وزارة الداخلية،حيث فتحت بعض الخزائن ، وأخرجت منها أوراق سرية سلمت للقائمين على الانقلاب .

وفرض البوليس السياسى نفسه على الضباط منذ الساعة الأولى من فجر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

لم يتم الإفراج عنهم ساعتها ، ولكن تأكدت فكرة الاستعانة بهم .

وتطورت هذه الفكرة مع سير الأحداث وتأكدت .

وكانت صفوف الإخوان مخترقة من جانب الحكومة .

وتم هذا الاختراق على مستويين .

فقد اخترقت من جانب أجهزة الأمن الممثلة فى القلم المخصوص أو البوليس السياسى الذى تغير اسمه إلى المباحث العامة ، والبوليس الحربى الذى اجتهد فى تشكيل جهاز للمخابرات خاص بالحكومة منذ اليوم الأول للانقلاب .

واخترقت الجماعة من قبل أحد أفرادها السابقين ، عبد الناصر شخصياً ، فقد كان عضواً عاملاً،وله علاقاته الوطيدة بزعماء الجماعة،وكثير من أعضاء الهيئة التأسيسية ، وقد كانوا يرونه واحدا منهم ــ أتكلم عن بعضهم ــ وأن الخلاف القائم ماهو إلا خلاف بين فريق واحد حول الوسائل ، أما الغاية فواحدة هى غاية الإخوان المسلمين .

فكان عبد الناصر على علم بما يدور فى صفوف الإخوان ، وكانت تصل إليه أخبار الاجتماعات ومايقال فيها ، ويعرف كافة وجهات النظر المختلفة .

ومن الجانب الآخر لايعلم الإخوان شيئا عما يجرى فى مجلس قيادة الثورة إلا أقل القليل ، وهذا القليل يصل عبر قنوات مختلفة،بعد أن يعتوره شىء من التعديل والتبديل .

ولم تكن مواجهة متكافئة بأى حال .

فجانب فى وحدة كاملة ويعرف مايريد .

والجانب الآخر ليس لديه هذا التصور الشامل ، وهناك كان خلاف شديد بين أعضائه فيما يريد .

وكان المرشد العام قد عمل على تصفية الجهاز القديم ، وإنشاء نظام جديد لأسباب يطول شرحها قد تناولها الكتاب فى مواضع أخرى .

وقام النظام الجديد باختيار أعضائه بسرعة ، وربما بشىء من عدم الدقة التى كانت أهم علامات النظام القديم .

وكان النظام الجديد سريا بطبيعة الحال أو هكذا ينبغى أن يكون .

ومع هذه السرية ذهب أحد الإخوان الذين ينتمون إلى النظام القديم،والمفروض أنه لايعلم شيئا عن طبيعة مايدور فى النظام الجديد ، والتقى بالشيخ محمد فرغلى أحد عُمُد هذا النظام وسأله :

ــ هل صحيح أنكم كونتم هيكلاً إدارياً جديدا للنظام ؟

وقال له الشيخ فرغلى :

ــ مالذى تريد قوله بالضبط ؟

ورد عليه الأخ بما يفيد معرفته بالكامل بأسماء رؤساء المناطق وكافة الأعضاء المهمين فى النظام الجديد .

واصفر وجه الشيخ محمد فرغلى رحمه الله وسأل هذا الأخ :

ــ كل ماقلته صحيح ، فمن أين أتتك هذه المعلومات ؟

ورد عليه :

ــ عرفتها من أحمد صالح داود .

وهذا الاسم لمن لايعرفه هو أحد أركان المباحث العامة فى ذلك الوقت .

كان كل شيء عن الإخوان مكشوفا أمام الحكومة والمباحث العامة .

مكشوفا ومفهوما لدرجة أنهم ــ أى الحكومة والمباحث العامة ــ يستطيعون التدبير وعمل المؤامرات .

وهم يريدون التدريب أيضا ، فلماذا لايكون هذا مجالهم لتدريب رجالهم ؟

المرحوم السيد فايز !

كلف بالإعداد للنظام الجديد ، وهذا يتناقض مع عبد الرحمن السندى . فإن أرسلت اليه شحنة ناسفة ومات فسوف يتهم الأخير بتدبير هذا .

وقد كان وإستشهد المرحوم السيد فايز من عبوة ناسفة ذهب بها شخص مجهول إلى بيته ، على أنها علبة من الحلوى ، واتهم أحد الإخوان بذلك ، وعذب حتى الموت للاعتراف الكاذب بلا فائدة .

والجريمة التى يموت فاعلها ولايظهر إلى الأبد هى جريمة حكومية على أغلب الأحوال . وهو منهج قد أقره عبد الناصر فى اجتماعات مجلس الثورة ، عندما صنع الانفجارات وعندما قال لهم إنه سوف يقتل محمد نجيب فى خلال شهر ينتهى يوم ٢٣ مارس عام ١٩٥٤ .

وعندما طلب منهم تكوين فريق من القتلة للتخلص من أعدائهم .

فاصطناع حادث يبرر للناس البطش بالإخوان المسلمين أمر يتناسب مع عقلية عبد الناصر وطبيعته ومنهجه فى التفكير .

ولنتناول حادث المنشية بشى من التحقيق والتأمل .

حسن الهضيبى وحادث المنشية

هناك شخصيات رئيسية لها علاقة وثيقة بحادث محاولة اغتيال عبد الناصر فى المنشية .

المرشد العام للإخوان المسلمين المرحوم حسن الهضيبى .

وهذا الرجل كان يعمل فى سلك القضاء قبل اختياره مرشداً عاماً للإخوان ، وهو لايوافق على ارتكاب أية جريمة ، ومن رأيه أن لاضرورة للنظام الخاص السرى الذى كان عند الإخوان .

وعندما وافق على عمل نظام جديد كان ذلك بغرض تصفية النظام القديم وإلغاء السرية فى عمل الجماعة ، وكان يطمع فى أن يعطى الجماعة أو أن يضفى عليها ثوباً قانونيا لايتناقض مع المجتمع فى شكله وجهاده ، ورأى أن جماعة الإخوان عليها أن تبلغ دعوة الإسلام إلى الناس فى بساطة ووضوح ، وأن العمل السرى لا ضرورة له فى هذه الآونة .

وإن كانت الجماعة قد أضطرت فى الماضى إلى القيام ببعض الأعمال الجهادية ضد الإنجليز وضد الحكومات التى انتهت فليس لهذا من ضرورة الآن .

وقد عبر عن رأيه هذا فى مرات عديدة ، وقال لجمال عبد الناصر إن رأيت أنه لاوسيلة للاتفاق مع الإخوان فأخبرنى وأنا أسلم لك مفاتيح المركز العام بدلا من فتنة تكون بين الناس القاعد فيها خير من الماشى .

وأثبتت التحقيقات التى جرت على كافة المستويات أنه لم يأمر بمثل هذا العمل ولم يدع إلى اغتيال أى فرد من أعضاء الحكومة ، وأمر بالكف عنهم مهما بلغت درجة إجرامهم .

لم تثبت التحقيقات أنه قد أمر بترتيب اغتيال جمال عبد الناصر .

وأثبتت التحقيقات أنه قد نهى عن هذا عندما سمع بعض الشباب المتحمس ينادى بالدخول فى حرب سافرة مع الحكومة .

استطاع عبد الناصر أن يخدع حسن الهضيبى مستغلا فى ذلك دينه وتقواه .

مثلما فعل معاوية مع على رضى الله عنه أيام الفتنة .

سئل كل من كان معه أو حوله فأثبتوا هذه الحقيقة رغم ضراوة التحقيق وشدته وخلوه من كل معانى الإنسانية .

والدفاع عن حسن الهضيبى الذى كان يدرك تلفيق هذا الحادث فى دولة صار دستورها الإجرام والتصفية الجسدية لكل من يعارضها لم يجد دفاعا ــ عن حسن الهضيبى ــ يقوله إلا أنه ليس مسئولا عن تصرفات لم يأمر بها .

وكان الدفاع آنذاك يستطيع إثبات التلفيق ، ولكن وسط هذه الوحشية والضراوة فإن للنفوس طاقة لاتقدر على تجاوزها .

كان الدفاع ممثلا فى الأستاذ سامى مازن المحامى .
وقد قال عبارة فى مرافعته دفع ثمنها غاليا بعد ذلك .

فقد قال: مامدى مسئولية الرئيس جمال عبد الناصر عن جريمة قد ارتكبها أحد أعضاء الحرس الوطنى الذى يرأسه دون علمه ؟

ولم يجبه أحد ، ثم دفع الثمن غالياً بعد ذلك .

كان البطش والإرهاب والتعذيب وإهدار آدمية المتهمين وحرمانهم من أبسط الحقوق ، يجعل من يتصدى للدفاع فى مثل هذه القضايا بطلا من الأبطال يستحق كل احترام وتقدير .

ونتذكر المرحوم حمادة الناحل المحامى المتطوع عن محمود عبد اللطيف المتهم بمحاولة اغتيال الرئيس ، وكان يستطيع أن يناقش الوقائع ويبطل كل شىء ، ابتداء من شكل المحكمة،إلى طبيعة الإجراءات إلى مناقشة الأدلة وكلها ضعيف متهالك ، ولكنه لم يستطع ، فللشجاعة حدود ، وبعد أن توعده رئيس المحكمة .. جمال سالم .. ذلك الكوميدى الجزار ، .. لم يستطع المحامى غير الدفع بجنون المتهم وعدم مسئوليته عما فعل ، وطلب عرضه على الأطباء .

ورفضت المحكمة لأنه ليس لديها الوقت لمثل هذه الأمور .

ثم ننظر إلى السلسلة التى يمكن أن تأتى منها التعليمات .

محمد فرغلى .. عبد القادر عودة .. يوسف طلعت .. إبراهيم الطيب وغيرهم من جميع الأسماء اللامعة .

أثبتت التحقيقات عدم صلتهم بمحاولة الاغتيال ، وعدم علمهم بها ، وينحصر العلم فى شخصين ، وتدور القضية من ألفها إلى يائها حول رجلين ، وتنقطع كل صلة بغيرهما فى هذه القصة .

هنداوى دوير .

محمود عبد اللطيف .

كل مادار حول حادث الاغتيال قد تم بين هذين الرجلين .

كل مانسخ حول المؤامرة من أقوالهما ومن اعترافاتهما .

وهى أقوال واعترافات لم تصل إلى أبعد منهما،رغم ماكررناه ومايعرفه الكافة من ضراوة التحقيق ووحشيته .

وقد سلم الاثنان من هذا ، فلم يثبت أن أحدهما قد عذب أو ضرب ، اللهم إلا تلك « العلقة » الغوغائية التى حصل عليها المرحوم محمود عبد اللطيف لحظة الحادث ، فقد جاءت صوره فى اليوم التالى والدماء تسيل من أنفه ووجهه الذى تورم من شدة الضرب واللكم فى دولة قد ساد فيها الرعاع والسفلة والقتلة المأجورون .

كانت فكرة الإخوان مظاهرة شعبية ضخمة لتأييد محمد نجيب إن استطاع الوقوف أمام طغمة الضباط فى سبيل الحياة النيابية السليمة وكرامة شعب مصر .

وكانوا يعدون العدة للتظاهر لتأييده إن فعل هذا .

وكانوا مترددين فى رد الاعتداء إن وقع عليهم .

وكانت أرجح الآراء عندهم هى الاستسلام للمقادير والشهادة ، بدلا من فتنة تأكل الأخضر واليابس ، ويحترق الوطن بنارها .

ونعود إلى القصة كما روتها التحقيقات ، وكما أثبتتها المضابط الرسمية .

محضر
الجلسة الأولى لمحكمة الشعب

المنعقدة علنا فى الساعة العاشرة صباحا بمقر قيادة الثورة فى الجزيرة ، يوم الثلاثاء ٩ نوفمبر ١٩٥٤ الموافق ١٣ ربيع الأول من سنة ١٣٧٤ هـ .

المؤلفة وفقا للأمر الصادر من مجلس قيادة الثورة بتاريخ أول نوفمبر عام ١٩٥٤ الموافق ٥ ربيع الأول عام ١٣٧٤ هـ . بناء على المادة السابعة من الدستور المؤقت(١) .

والمشكلة برئاسة قائد الجناح جمال مصطفى سالم عضو مجلس قيادة الثورة ، وعضوية القائمقام أنور السادات والبكباشى (ا . ح) حسين الشافعى عضوى مجلس قيادة الثورة .

وبحضور البكباشى محمد التابعى المدعى ، والأستاذ مصطفى الهلباوى رئيس نيابة أمن الدولة ، عضوى مكتب التحقيق والادعاء .

---

(١) بعد ثلاثة أيام من وقوع الحادث فقد وقع الحادث يوم ٢٦ أكتوبر مساء بمعنى أنه لم تكن هناك تحقيقات جدية فقد انشغلوا بتهنئة الرئيس من نجاته فى اليومين اللذين لحقا الحادث .

وتولى تسجيل المحاكمات بالاختزال الأستاذان طلعت الصبان وممدوح توفيق ، مندوبا مصلحة الاستعلامات .

قدمت القضية رقم (١) لسنة ١٩٥٤ (محكمة الشعب) المتهم فيها محمود عبد اللطيف محمد .

ودخل جمال سالم كالوحش الكاسر، ومن خلفه أنور السادات وحسين الشافعى الذى كان يصفه عبد الناصر بأنه البكباشي « مؤخرة » وينطق الكلمة العامية التى تشير إلى هذا . وكان يصف عضو اليمين بأنه البكباشي « صح » كناية عن أنه لم يعترض على حرف واحد يقوله الطاغية فى أى وقت ، وهو يوافقه دائما على طول الخط .

محمود عبد اللطيف يقول أنا مذنب

وأخذ جمال سالم شكل الأسد وهو يدير نظرة بعظمة بين الموجودين ثم يعلن :

جمال سالم : فتحت الجلسة .. أولى جلسات محكمة الشعب .. الادعاء .. المتهم موجود ؟

ويقوم البكباشي محمد التابعى — المدعى ـ وهو يقول مسرعا ولا أدرى لماذا كان خائفا :

البكباشي التابعى : المتهم موجود والقضية جاهزة .

ويكمل جمال سالم :

جمال سالم : لمحاكمة محمود عبد اللطيف محمد .

ويقف المتهم فى القفص ويقول بصوت جهير :

محمود عبد اللطيف : أفندم .

ويرنو إليه جمال سالم بنظرة فاترة ساخرة ثم يقول :

جمال سالم : بالادعاءين الآتيين :

« أتى أفعالا ضد نظام الحكم الحاضر ، وضد سلامة الوطن فى الداخل والخارج وذلك لأنه فى يوم ٢٦ اكتوبر من سنة ١٩٥٤ م وماقبله بمدينتى القاهرة والإسكندرية :

أولا : اشترك مع آخرين فى تنفيذ اتفاق جنائى الغرض منه إحداث فتنة دامية لقلب نظام الحكم ، وذلك بإنشاء نظام خاص سرى مسلح للقيام باغتيالات واسعة النطاق ، وارتكاب عمليات تدمير بالغة الخطورة ، وتخريب شامل فى جميع أنحاء البلاد ، تمهيدا لاستيلاء الجماعة التى ينتمى إليها على مقاعد الحكم بالقوة .

ثانيا : شرع فى قتل البكباشى أركان حرب جمال عبد الناصر رئيس الحكومة تنفيذا للاتفاق الجنائى المشار إليه فى الادعاء الأول » .
(المادتان ٢ ، ٣ من أمر مجلس قيادة الثورة الصادر فى أول نوفمبر عام ١٩٥٤ بشأن تشكيل المحكمة وإجراءاتها)
وخيم على قاعة المحكمة صمت بالغ ، وجمال سالم ينظر إلى محمود عبد اللطيف ساخرا والرجل قد ملأ القلق نفسه وبدا ذلك على وجهه ، ثم قطع الصمت صوت جمال سالم يخاطبه :
جمال سالم : مذنب أو غير مذنب ؟
وراح الرجل ــ محمود عبد اللطيف ــ ينظر إليه وإلى الموجودين بنظرات زائغة .
محمود عبد اللطيف : ....
جمال سالم : سمعت الكلام اللى اتقال ؟
محمود عبد اللطيف : أيوه .
جمال سالم : فاهم الادعاء المقام عليك ؟
محمود عبد اللطيف : أيوه .
جمال سالم : مذنب أو غير مذنب ؟
ثم ينقر جمال سالم بقلم رصاص على المنصة وهو ينظر ناحية المتهم ساخرا وكأنه يستحثه على الإجابة ، ويقلب محمود عبد اللطيف وجهه فى الحاضرين ثم يستقر ناحية جمال سالم ويجيب :
محمود عبد الطيف : مذنب .
ويبتسم جمال سالم ويعيد عليه السؤال :
جمال سالم : مذنب ؟
محمود عبد اللطيف : أيوه .

الادعاء يقترح إصدار الأحكام قبل المحاكمة

وتحدث ضجة خفيفة ويقلب الجميع بصره هنا وهناك ، وتتهامس هيئة المحكمة ، ويتبادل جمال سالم النظر مع البكباشى محمد التابعى ــ المدعى ــ الذى يسرع ويقول :
البكباشى التابعى : المتهم لما أعلن بالادعاء المقام عليه سألناه إذا كان عنده محامى ، فقال إنه مفيش محامى .. وأمر تشكيل المحكمة لايحتم وجود محامى .. والقضية جاهزة والشهود مستعدين وموجودين .

وحدثت ضجة خفيفة للمرة الثانية ، رغم أن كل الموجودين من صنائع الحكومة أو المخبرين ، ولعلهم قد أحسوا ببعض الخجل عندما سمعوا المدعى يقول هذا الكلام الذى يتنافى مع شرف مهنته ومع أبسط حقوق الإنسان ، وربما لأن هناك أبعادا للقضية يعرفها الرجل ، ومن ثم فلا ضرورة للتمسك بمثل هذه الشكليات .. محام .. مرافعة .. شهود .. هيئة المحكمة لاتعرف شيئا عن القانون .. ليست هناك مواد محددة للعقوبة .. شيء أقرب إلى المهرجان منه إلى المحكمة . أو هو مسرح تؤدى عليه تمثيلية رديئة النص والإخراج ، ولم تتوافر لها أية عوامل للنجاح .

عاد جمال سالم ينظر ناحية المتهم ، ومن الواضح أنه أشترك فى جزء من هذه التمثيلية لم يعلن عنه . اشترك فيه مجبرا أو راضيا طائعا :

جمـــال ســـالم : مش عايز حد يدافع عنك ؟

وتردد المتهم قليلا ثم قال :

محمود عبد اللطيف : عاوز :

وازدادت ابتسامة جمال سالم الساخرة وهو يقول :

جمـــال ســـالم : عاوز مين ؟

محمود عبد اللطيف : المحامى محمود سليمان غنام .

جمـــال ســـالم : وإذا كان محمود سليمان غنام مايرضاش ؟

محمود عبد اللطيف : يبقى فتحى سلامة

جمـــال ســـالم : إذا كان فتحى سلامة مايرضاش ؟

محمود عبد اللطيف : يبقى مكرم عبيد .

جمـــال ســـالم : وإذا كان مكرم عبيد مايرضاش ؟

واحتار محمود عبد اللطيف قليلا كأنما لايدرى ماهى الإجابة التى تحوز القبول ولكنه تغلب على حيرته وقال :

محمود عبد اللطيف : يبقى أى واحد تختاره المحكمة .

جمال سالم يصر على وجود محامى للمتهم

والتفت جمال سالم ناحية زميله البكباشى محمد التابعى – المدعى – وقال :

جمـــال ســـالم : اتصل بالمحامين دول بالترتيب على حسب طلب المتهم .. اللى يرضى منهم يدافع عنه يجى .. وإذا ماكانش ولا واحد منهم يرضى يجى علشان يدافع عنه ، يبقى ينتدب أى واحد تانى .

البكباشي التابعي : حاضر ياافندم .
جمال سالم : إذن تؤجل الجلسة ثمانية وأربعين ساعة على أن تعود إلى الانعقاد فى الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس ١٥ ربيع الأول عام ١٣٧٤ هـ الموافق ١١ نوفمبر عام ١٩٥٤ .
(رفعت الجلسة فى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة صباحا) .

وانعقدت محكمة الشعب مرة ثانية بنفس التشكيل وزاد عليها إبراهيم فكرى أحمد فودة كمندوب لمصلحة الاستعلامات وذلك بتاريخ الثلاثاء ١١ نوفمبر عام ١٩٥٤ فى الساعة العاشرة والدقيقة العشرين صباحا بنفس المقر وهو مقر مجلس قيادة الثورة بالجزيرة .

وهذا اليوم يوافق بالتاريخ العربى ١٥ ربيع الأول عام ١٣٧٤ هـ .

وأعلن جمال سالم كالأسد الهصور :

ــ فتحت الجلسة .. المتهم موجود ؟

وقام المدعى مستخذيا وقال :

ــ المتهم موجود .

وتفرس جمال سالم فى الموجودين الخائفين جميعا وقال :

ــ جاهز ؟

وارتبك المدعى قليلا وقال :

ــ جاهزين .

وبطريقة المعلمين التفت جمال سالم ناحية المتهم وقال :

ــ سمعت الادعاء اللى عليك ؟

وأجاب المتهم محمود عبد اللطيف بهدوء :

ــ أيوه ..

وعاد جمال سالم كالأسد مرة أخرى :

ــ وقلت إنك مذنب ؟

وأجاب محمود عبد اللطيف بنفس الهدوء :

ــ أيوه .

وانتفخ جمال سالم كالديك الرومى وقال للمتهم :

ــ إيه أقوالك ؟

ونظر المتهم محمود عبد اللطيف نظرة باهتة لامعنى لها ولم يرد ، بينما واصل جمال سالم كلامه له :

ــ السيد حمادة الناحل رايح يترافع عنك .

ثم التفت جمال سالم ناحية المحامى حمادة الناحل وقال وفى صوته رنة تهديد ووعيد وهو يقلب النظر بين المتهم والمحامى :

ــ وأحب بالمناسبة دى أقول إن المحكمة تشكر السيد حمادة الناحل لتطوعه بالدفاع عنك .

ولم يقف حمادة الناحل عند رنة الوعيد التى وضحت فى طريقة جمال سالم فى الحديث ، وفى ابتسامة شجاعة قال :

ــ وأنا بدورى أشكر المحكمة على هذه الثقة وأدعو الله أن يمنحنى القدرة على أداء دورى ويوفقنى فى مهمتى .

جمال سالم قاضى للمرة الأولى

وساد القاعة صمت ، ويبدو أن جمال سالم لم يكن منتبها إلى ماسبق أن لقنوه من طريقة سير الاجراءات .

وتبادل ممثلا الادعاء نظرات قلقة خوفا من فشل المسرحية ولكنهما سرعان ماعاودهما الاطمئنان عندما تذكرا أن نجاح المسرحية لايتوقف على جودة النص وحسن الأداء ، ولكنه يتوقف أولا وأخيرا على خوف المشاهدين .

وبتكاسل قال جمال سالم للمتهم :

ــ اتفضل قول أقوالك للمحكمة .

ــ وتبادل ممثلا الادعاء نظرات القلق من جديد ولمحهما جمال سالم وكأنما قد تذكر بقية من نص ردىء لمؤلف مغمور لم يكتب للمسرح من قبل .

واختفى ارتباك جمال سالم وجهله تحت سطوة البدلة الكاكية التى يرتديها ، وقال مخاطبا محمود عبد اللطيف :

ــ تحب تتكلم أنت أو السيد المحامى يتكلم عنك ؟

وأجاب محمود عبد اللطيف فى استسلام :

ــ السيد المحامى .

ونظر جمال سالم إلى حمادة الناحل بوجه قاس آمر .

وأخفى المحامى ابتسامة ساخرة كادت تخرج من بين شفتيه وهو يرى قاضيا لايدرى من أجلسه على هذه المنصة .

يرى قاضيا قد أغلق أذنيه وعينيه عن الحق ولم يعد يملؤه غير الباطل وحكم قد قضى به فى نفسه وسوف ينطق به فى يوم قريب ، وكل ما يتم الآن ماهو إلا هراء فى هراء .

سخر المحامى فى نفسه وهو يرى الممثل لايكلف خاطره ان يقوم بدور القاضى بشىء قليل من الاجتهاد والإتقان .

هناك اجراءات ينبغى أن تتم حتى عند التمثيل .

وقال المحامى منبها القاضى الكاذب :

ــ افتكر نؤخر مناقشته ــ يقصد المتهم ــ ونسمع أقوال الشهود أولا .

وشعر جمال سالم بالحرج وسارع رئيس النيابة الذى ترك ضميره فى البيت قبل أن يأتى إلى هذه القاعة ، ويقول البعض إنه لم يترك شيئا هناك ، وكثير من الشهود يؤكدون أنه لم يكن فى حيازته يوما ، أو فقده فى صباح ذلك اليوم من ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

قال رئيس النيابة باستهانة شديدة :

ــ المتهم قال فى التحقيق كل حاجة .

هكذا ! !

إذن فمامعنى كل مايدور إن كان المتهم قد قال كل حاجة فى التحقيق ؟

وقال جمال سالم :

ــ بس يقول إيه أقواله قدامنا .

ونظر المحامى ناحية رئيس النيابة ولم يستطع أن يمنع المرارة التى اختلطت بكلماته :

ــ مافيش مانع يقول ، وبرضه نناقشه تانى .

وكأنما أراد رئيس النيابة أن ينتهى كل شىء فى هذه الجلسة ، ولعل الحق كان معه فكل شىء مرسوم ومفهوم والحكم معروف فقال باصرار :

ــ المتهم قال كل حاجة فى التحقيق ، واعترف بارتكاب الحادث وقال عن المحرضين له وعن طريقة التدبير وكل التفصيلات .

سماع أقوال محمود عبد اللطيف

وأدرك حمادة الناحل أنه لافائدة ، وتعجب ممايحدث وعرف أنه ليست هناك ثمة محاكمة وهم بالجلوس ، وفاجأه صوت جمال سالم يخاطب المتهم محمود عبد اللطيف :

ــ قول أقوالك .

وأحتار محمود عبد اللطيف قليلا ولكنه ربما تذكر ماينبغى عليه قوله فقال :

ـــ من مدة وأنا فى الإخوان .. من سنة ١٩٤٢ .. ومن مدة ٤ شهور بس انضممت للمنظمة السرية .. ودى مكونة من ثلاثة أشخاص .. محمود عبد اللطيف وهنداوى دوير وسعد حجاج .

وسكت المتهم ويبدو أن داخله يضطرم بذكريات ما حدث له فى الأمس القريب قبل أن يمسكوا به ، وقبل أن يذهب إلى ميدان المنشية مع مجهولين ، وقبل أن يضرب ضربا مبرحا فى الميدان ، وقبل مادار معه بقصر عابدين فى الليالى التى سبقت المحاكمة ، ويبدو أنه شعر ساعتها بالضياع وأنه يهوى فى بئر لاقرار لها ، ويبدو أنه أدرك فى هذه اللحظة أن كل مادار واتفق عليه كان سرابا ووهما .

ويبدو أن جمال سالم قد شعر بما يضطرم فى نفس محمود عبد اللطيف ، فنظر اليه مشجعا،وحدثه بلهجة مطمئنة فلابد للعرض أن يستمر حتى الستار الأخير .

ومن ثم تعزف الجوقة السلام الجمهورى لأول رئيس جمهورية مصرى من أصل مصرى منذ أيام سيدنا مينا (نارمر) محطم الوجهين .

وقال جمال سالم للمتهم :

ـــ علِّى صوتك شوية يامحمود ، واتكلم على مهلك ، وخليك هادى . وهز له رأسه مشجعا كأنما يقول له :

ـــ لاتخف كل مااتفقنا عليه يكون ، وستخرج من هذه المحنة مثل الشعرة من العجين ، ولكن لابد من الالتزام يالنص .

وفهم محمود عبد اللطيف واطمأن قليلا وارتفع صوته :

ـــ أنا فى الاخوان من ١٩٤٣ ـــ هنا غير التاريخ وربما بسبب الاضطراب ـــ ومالنضمتش للهيئة السرية .. الخلية السرية إلا من مدة أربعة شهور بس .. والخلية السرية مكونة من هنداوى دوير ومحمود عبد اللطيف وسعد حجاج .

وفى الأربعة شهور كنا نجتمع كل أسبوع من نصف ساعة إلى ساعة فى بيت هنداوى دوير كل يوم اثنين . وكان اجتماعنا لحفظ القرآن ودراسة السيرة والجهاد فى سبيل الله .

وسكت محمود عبد اللطيف ويبدو أنه قد وصل بحديثه إلى حاجز الصدق .

وتبادل جمال سالم مع أنور السادات وحسين الشافعى النظرات ثم نظر إليه كالصقر وقد أمتلأ وجهه بالشر .

وأدرك محمود عبد اللطيف معنى النظرة فاخترق الحاجز،وواصل حديثه الذى اختلط فيه الحق بالباطل والواقع بالخيال،فقد كان لابد من اكتمال المكتوب مع الفارق الكبير فى التشبيه .

وقال محمود عبد اللطيف :

ـــ وقبل الحادث بأسبوع واحد كان هنداوى دوير قال لنا على حكاية الاتفاقية ، وإن الرئيس جمال عبد الناصر وقع الاتفاقية ، وإن الاتفاقية دى غلط وخيانة فى حق البلد .

وسكت محمود عبد اللطيف مرة أخرى واشرأبت إليه الأنظار ، وحمادة الناحل ينظر إليه متعجبا . وجمال سالم ينظر إليه متحفزا .

وهز الادعاء رأسه متململا .

وبدا فى هذه اللحظة أن هذا هو كل شيء . ولكن التفاتة من محمود عبد اللطيف إلى المحكمة جعلته يواصل حديثه :

ـــ واتفقنا احنا الثلاثة إن اللى تتاح له فرصة ينفذ الاغتيال .

هذه هى اعترافات محمود عبد اللطيف أمام المحكمة !!

كل من فى القاعة صامت لايتكلم،فمثل هذا النوع من الحديث لايصلح له غير الصمت فقد تفسده الأسئلة ، وهى لم يأت دورها بعد على أى حال .

واستمر محمود عبد اللطيف :

ـــ وبعدين هنداوى دوير جاب لى المسدس قبل الحادث بيومين ،وقال لى المسدس بتاع سعد حجاج مجاش فنفذ أنت الخطة .

هكذا الكلام منقول بالحرف الواحد من المضبطة الرسمية دون تدخل ولو بحرف واحد من جانبى .

ونواصل ..

ـــ وبعدين قبل الحادث بيومين قرأت أن الرئيس حيروح الإسكندرية لحضور المهرجانات الشعبية فرحت لهنداوى الساعة العاشرة والنصف بالليل ، وقلتله اللى قريته فى الجريدة فقال مفيش مانع على بركة الله .

« مانتقله هو من المضبطة الرسمية لمحكمة الشعب ، ورغم أنها نصوص لاتقف أمام النقد الحديث إلا أننا لانملك سوى الاستشهاد بها على مابها من ضعف وريبة » .

قبل الحادث بيومين هنداوى جاب المسدس .

وقبل الحادث بيومين قرأ محمود عبد اللطيف بسفر جمال عبد الناصر إلى الإسكندرية .

وهذه الاعترافات كلها فى فقرة واحدة رغم ما فيها من عدم الاتساق والاضطراب . ويبدو أنه النص الذى لايقبل المناقشة ، ويبدو أيضا أنه ليس من حق الدفاع التعليق عليه . فهى أمور كانت تلفها الأسرار والأستار ، والله وحده الذى يعلم ما تخفى الضمائر .

ونستكمل أقوال محمود عبد اللطيف أمام المحكمة :

ـــ وفت على سعد حجاج الصبح وقلت له بالأمر فأبدى تأسفه اللى محضرش السلاح بتاعه علشان يجى معايا .

ماهى الخطة على وجه اليقين ؟

لم يذكر أحد شيئا عنها فى هذه الملهاة .

أنا أطلقت الرصاص على عبد الناصر

واستمر محمود عبد اللطيف يقول :

ـــ وتوكلنا وسافرت على الإسكندرية فى قطر تسعة ونصف اللى يوصل واحدة تقريبا ، وبعد كده رحت محرم بك واتمشيت شوية ودخلت مطعم واتغديت ، وبعدين رحت لوكاندة دار السعادة ، وأخذت حجرة خاصة وغيرت ملابسى . وفى الساعة أربعة وربع نزلت على ميدان المحطة وجدت جماعة متظاهرين رايحين المنشية فمشيت وراهم ، وبعدما وصلت الميدان وقفت ، ولما جه الرئيس وهو بيتكلم كلمته أطلقت عليه طلقات من المسدس .

مازلنا نستمع إلى اعترافات أو أقوال المتهم محمود عبد اللطيف :

ـــ بعد كده الناس قبضوا علىَّ ورحت البوليس الحربى فى الإسكندرية .

وقلت الأقوال بتاعتى أمام النائب العام وهو اللى كتب المحضر .

كان النائب العام فى انتظار محمود عبد اللطيف فى مبنى البوليس الحربى حتى يكتب المحضر بعد أن يسمع أقواله . أو هكذا يبدو الأمر .

استجواب المعتقل

هذه الأقوال التى قالها محمود عبد اللطيف فى مستهل المحاكمة ..

وبعد أن قالها كان هناك صمت قطعة جمال سالم موجها كلامه إلى رئيس النيابة ، ويبدو أن الكل قد نسى ما ينبغى عليهم فعله :

– عايز تسأله ؟

وانتبه المدعى إلى سؤال رئيس المحكمة وقال :

– أيوه ؟

والتفت المدعى ناحية محمود عبد اللطيف ، ويبدو أن الأخير كان متوتراً مضطربا لايعرف إلى أى حد يلتزمون معه وإلى أى مدى يذهبون .

وقال المدعى يسأل محمود عبد اللطيف :
ـــ الشعبة بتاعتك فين ؟
وتعجب محمود عبد اللطيف من السؤال ولكنه أجاب :
ـــ فى امبابة .
وينظر المدعى فى الأوراق ثم يوجه سؤالا إلى المتهم :
ـــ بتقول إنكم كنتم بتجتمعوا فى الشعبة وتذاكروا القرآن والسيرة والجهاد فى سبيل الإسلام ..
وينظر جمال سالم متحفزا ناحية المدعى الذى يسأل المتهم :
ـــ إيه المقصود بالجهاد فى سبيل الإسلام ؟
ويرد عليه محمود عبد اللطيف :
ـــ المقصود به محاربة أعداء الإسلام والحرية .
ـــ مين دول ؟
وينظر المتهم ناحية جمال سالم الذى يتفحصه تفحص الذئب ، ويجيب محمود عبد اللطيف قائلا :
ـــ كنا بنفسرهم إنهم الإنجليز واليهود ومن يقف فى سبيل الدعوة الإسلامية ، وبعدين جت حكاية الاتفاقية ، وقبل الحادث بأسبوع واحد اجتمعنا واتكلمنا فيها احنا الثلاثة ، وأقرينا إن الاتفاقية فيها خيانة للبلاد ، وانها بخست حق البلاد ، وادت الإنجليز كل الحقوق فى البلد ، وعلى هذا الاساس بنينا حكمنا .
وعندما نتأمل فى سؤال المدعى وإجابة المتهم نجد الربط بينهما ضعيفا جدا،وكأنه قد لقن إجابة فى « بروفة » على عجل وهو لايستطيع استيعاب كل ما ينبغى عليه قوله ، ولايخفى وعى المتهم بكل مايدور فى البلاد من مشكلات ، مع إدراكه وحسه السياسى الناضج .
ويسأله المدعى :
ـــ أنت قريت الاتفاقية ؟
قريت .. وقريت بعض الملاحق .
ويعود المدعى سائلا :
ـــ فهمتها ؟

رأى محمود عبد اللطيف فى اتفاقية الجلاء

ويبدأ محمود عبد اللطيف يتكلم على سجيته :
ـــ اللى أنا فهمته منها إنها ادت الإنجليز كل الحقوق ، وقريت فى الجرائد أنها استبدلت

بالخمسمائة مليون جنيه الديون بتوع مصر مبلغ ٣٢ مليون جنيه ثمن أسلاك وكابلات فى القنال .

وتبادل كل من فى القاعة النظر تعجبا ودهشة لهذا السمكرى الذى يتكلم فى هذه الأمور الدقيقة التى ينبغى ألا تتاح لمثله معرفتها .

وتردد المدعى قليلا قبل أن يسأل المتهم :

ــ الاستبدال ده كان مذكور صراحة .

وكان المتهم قد نسى الزمان والمكان وصار يتحدث كأنها مناقشة فى صالون مقفل بعيدا عن أعين الرقباء والمخبرين وقال :

ــ كان فيه الملاحق وفسرتها جريدة الأخبار .. كانت قد كتبت استبدال الديون بين كل من مصر وبريطانيا باثنين وثلاثين مليون ثمن كابلات وبعض المنشآت فى القنال .

وتدخل جمال سالم كأنما يذكره بشىء قد سبق الاتفاق عليه :

ــ ولا كان فيه حاجة ثانية مزعلاك فى الاتفاقية ؟

وتذكر المتهم،ورغم تذكره انطلق على سجيته وقال :

ــ أيوه فيه حاجة ثانية ، وهى انه ماكانش ضرورى الاتفاقية لأن وجودهم فى مصر بعد سنة ١٩٥٦ حيبقى غير شرعى وحيطلعوا من نفسهم ، خصوصا وأن أساليب الحرب اتغيرت والنظم بتاعت الحرب ، دلوقت القوات بدل ماتكون مجموعة فى حتة واحدة تلقى عليهم قنبلة ذرية ، فهم كانوا حيفرقوا قواتهم خوفا من القنابل الذرية .

وهنا انفجر رئيس المحكمة جمال سالم غاضبا لهذا الوعى الذى ليس من المفروض أن يعبر عنه أمام الموجودين مخالفا بهذا ماكان متفقا عليه وقال له مزمجرا :

ــ يعنى أنت كان جنرال وتفهم فى الشئون العسكرية كويس !!

ونظر محمود عبد اللطيف حائرا إلى جمال سالم وإلى الدفاع وإلى النيابة ثم إلى النظارة الجبناء ، فهو يحاول أن يرضيهم ولكن يغلب عليه طبعه وسجيته ووعيه بمشكلات السياسة فى مصر حسب ماتعلم وتربى فى مدرسة الإخوان المسلمين .

ولايجد مايقوله فيصمت تماما .

وقام رئيس النيابة لينقذ الموقف :

ــ رأيك إيه لو ماتعملتش الاتفاقية ، كان الإنجليز حيخرجوا إزاى من القنال ؛ رأيك إيه كمواطن أو كأخ من الإخوان .

وتجاهل رئيس النيابة الذى تخلى عن ضميره كل العروض السابقة التى عرضتها بريطانيا

على مصر ، ورفضتها كل حكومات عهود ماقبل الثورة ، وكانوا لايحيدون عن مطلب واحد وهو الجلاء غير المشروط ، والذى أوشك أن يكون عام ١٩٥٦ . عندما وصل نشاط الفدائيين المسلمين والوطنيين إلى ذروته ، وأصبح لامفر من الجلاء،والبحث عن طريقة كريمة لتنفيذ هذا .

الجهاد هو الطريق إلى الجلاء

وتوقف هذا الجهاد بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢،وكل أصابع الاتهام تشير إلى جمال عبد الناصر ، وهو نفسه ألمح بهذا فى إحدى خطبه .

وتدخل المدعى ساخرا يسأل المتهم ليرضى « الديكة » الذين جلسوا على منصة القضاء خطأ وقال مكملا سؤال رئيس النيابة :

ـــ وبتدعو للجهاد .

وتكلم المتهم بثبات :

ـــ خروجهم يحتاج إلى جهاد ، والجهاد جربناه قبل كده فى كتائب الجامعة . ولما راحت القنال كان الانجليز منزعجين من الكتائب لغاية ماصرّحوا فى بعض الكتب وقالوا انهم مستعدين للجلاء بشرط توقف حرب العصابات .

الوعى السياسى للمتهم

وعاد الذهول يلف المحكمة من جديد ، فالمتهم الذى لم يلق حظا كبيرا من التعليم يشير بحجة ومنطق إلى خيانة الحكومة فى هذه الاتفاقية التى أبرمتها مع قوات الاحتلال الذى أوشك أن يغادر مصر دون أية تنازلات ، وقد أثبتت الوثائق الإنجليزية والأمريكية هذه الحقائق عندما نشرت بعد ذلك .

وأراد رئيس النيابة أن يحرج المتهم الذى خرج عن النص ، وأن يظهر جهله وضحالته أمام الموجودين ، وأن يغير الموضوع أيضا فقال :

ـــ انت قلت إنك قريت معاهدة ١٩٣٦ . تقدر تقول لنا إيه هى ؟

وكأن المتهم قد استسخف السؤال فأجاب بتثاقل :

ـــ هى كانت جعلت للإنجليز كل حق فى البلد انهم يستعملوا كل حاجة بالثمن ، مثل السكك الحديدية والتموين ، وأى حاجة فى المطارات والمواصلات .. كل ده بالفلوس،من أجل ذلك كانت الديون التى على بريطانيا لمصر ترتبت من أجور المواصلات والسكك الحديدية .

وأسقط فى يد رئيس النيابة وعاد يسأل المتهم :

ـــ رأيك إن معاهدة ١٩٣٦ أحسن أو الاتفاقية أحسن ؟

وألقمه محمود عبد اللطيف حجرا عندما أجاب :
ــ معاهدة ١٩٣٦ انتهت طبعا .
وظهر لكل من يسمع ويشهد أن السمكرى أكثر وعيا وعلما بالسياسة ومشكلات مصر من كل الموجودين .
وهنا انفجر جمال سالم الذى انتبه إلى هذا وزمجر قائلا :
ــ افتكر بلاش مناقشة المعاهدات . احنا مابناقش عبد الحميد بدوى وبنأخذ رأيه فى الموضوع .
[عبد الحميد بدوى أحد كبار القانونيين الدوليين المصريين آنذاك]
وكعادة جمال سالم كانت جملته التى نطقها بمثابة وقفة أسكتت الجميع .
وفكر رئيس النيابة قليلا ثم وجه سؤاله إلى المتهم :
ــ انت دراستك إيه ؟
ــ أنا درست الابتدائية أربع سنين فى القسم الليلى ورسبت فيها،وكنت دارس قبل كده أولى .

فكرة النظام الخاص فى رأى محمود عبد اللطيف

وقال رئيس النيابة موجها سؤاله للمتهم :
ــ فهمت إيه الفكرة من النظام السرى ؟
ــ الفكرة هى الجهاد فى سبيل الله ودراسة القرآن والسيرة .. ده كل اللى فهمته .
ـ الغرض منه إيه ؟
ـ الغرض منه محاربة أعداء الاسلام وأعداء الدعوة .
المدعى : مين أعداء الدعوة الإسلامية ؟
ورد عليه محمود عبد اللطيف ببساطة كأنه شىء معروف .
ــ أعداء الدعوة الاسلامية .
وأعاد عليه المدعى السؤال بإلحاح :
ــ مين ؟
وأجاب محمود عبد اللطيف :
ــ اللى يقف فى طريق الدعوة الإسلامية .
وصار المدعى يقلب فى الأوراق أمامه وكأنه لايدرى ماذا يقول ، ومن فى القاعة صامت يترقب مايسفر عنه كلام المدعى الذى قال :
ـ انت قلت إن قبل الحادث بيومين هنداوى جابلك مسدس ؟ منين جابه ؟

ونظر المتهم شاردا ثم فاجأته نظرة جمال سالم القاسية فقال :
ـــ ماقالش منين جابه .. هو قال لى استعد وماقالش منين جابه .
ـــ ماداكش طلقات ؟
وأجاب محمود عبد اللطيف :
ـــ ١٥ طلقة .
ـــ ماقالش منين جابه ؟
ـــ لأ ماقالش .
ـــ ماداكش فلوس ؟
ـــ ادانى اثنين جنيه علشان أصرف منها .

ويجب أن ننتبه جيدا إلى هذه الأقوال لأنه سيأتى مايعارضها تماما عندما نسير فى قراءة المحاكمة وتحليل واقعة ضرب عبد الناصر بالرصاص فى المنشية .
أدوار قد وزعت ويقوم الممثلون بأدائها بصعوبة بالغة ، وهناك منهم من لا يلتزم بالنص ، ويثور جمال سالم،وتتناثر الشتائم من فمه بلا حساب أو نظام .
والقراءة فى محكمة الشعب ممتعة ومثيرة لما فيها من تضارب وتناقض وخروج على أبسط قواعد الأعراف القانونية والأخلاقية ، وقد لايستطيع الإنسان أن يمسك نفسه من الاسترسال فيها ، ولكن لابد لنا من التوقف ولو قليلا لتحليل ماحدث وماقالوه وارتجلوه فى تلك الأيام الصعبة من تاريخ مصر والمسلمين .
أمامنا المتهم محمود عبد اللطيف يعمل سمكريا ، اشترك فى عمليات ضد اليهود فى فلسطين ، وضد الإنجليز فى القنال .
عضو فى جماعة الإخوان المسلمين ، يدين بالسمع والطاعة لولى الأمر من الجماعة ، على درجة كبيرة من الوعى السياسى ، وعلى إدراك بطبيعة الأزمة والخلاف بين الإخوان والضباط .
ولكن هل أطلق الرصاص على جمال عبد الناصر فى المنشية ؟
هذا هو السؤال الصعب ، والإجابة عليه تحتاج إلى تمعن ونظر فى كل ماقدم لنا حول هذا الحادث من الجهات الرسمية ، وأقوال الشهود والادعاء والدفاع،وتعليقات رئيس المحكمة ، وتوجيهه لمسار الدعوى .
لانريد أن نمضى كثيرا فى أسئلة المدعى العام ورئيس النيابة ، فأكثرها لاقيمة لها ولامعنى أكثر من أنهم يحاولون النيل من أعضاء الجماعة،ومن الأهداف العامة لها ،

وإظهارهم أمام الشعب بأنهم أصحاب سلطة ، وفى سبيل ذلك يفعلون ما يخطر على بالهم . ورغم أن هذا هو غرضهم إلا أن المدقق فى الأقوال يتبين عكس هذا تماما ، وسوف نتناول هذه المقولات ونرى دلالتها فى حينها .

ومحمود عبد اللطيف عضو فى مجموعة من مجموعات النظام الخاص للإخوان يرأسها هنداوى دوير ويشاركهما سعد حجاج .

وكانت سياسة النظام الخاص للإخوان فى هذه الفترة هى الترقب والاستعداد لمواجهة أى موقف قد تتخذه الحكومة حيالهم .

ومن ثم كان التسليح ، وكانت محاولات التدريب ومراقبة الجو بشكل عام . وكان هناك من يذهب للمؤتمرات التى تعقدها الحكومة لتأييد نفسها لينظر مدى كثافة الحراسة وانتشارها ، وكان يستحيل على من يذهب أن يدخل إلى هذه المؤتمرات .

والدليل على هذه الاستحالة تلك الفقرة من الجلسة الثانية من المحكمة :

المدعى: اتفقتم على مين يقتل الرئيس جمال عبد الناصر ؟

المتهم : هنداوى قال كل اللى تتاح له الفرصة منا احنا الثلاثة .

المدعى: هل سبق حد حاول ؟

المتهم : المحاولة اللى قمت بها كانت محاولة استطلاع بس ماكانش معايا مسدس .

المدعى: إمتى وظروفها إيه ؟

المتهم : محاولة الاستطلاع كانت فى مؤتمر الموظفين .

المدعى: اشرحها للمحكمة .

المتهم : فى مؤتمر الموظفين قبل الحادث بيومين رحت عند إشارة المرور ، وشفت الرئيس، ومادخلتش جوه ، لأن الحراس مانعين الدخول .

مؤتمرات لايدخلها مواطن عادى غير مسلح،ولايستطيع لأن الحراس يمنعون الدخول إلا لفئة محددة من الناس يعرفونها ويعلمونها ، فكيف بمؤتمر مثل مؤتمر المنشية يوم ٢٦ اكتوبر عام ١٩٥٤ قد ملىء بعمال مديرية التحرير وموظفيها وبرجال الحرس الوطنى .

هل يمكن أن يدخله نفس الشخص وفى حيازته مسدس ويجلس فى الصفوف الأولى ويخرج المسدس ويطلق النار على الرئيس عبد الناصر ؟

هذا مانحاول الإجابة عليه .

رأى للدفـاع

خلال المناقشات التى جرت بين رئيس المحكمة جمال سالم والمتهم محمود عبد اللطيف ، وبين المدعى والمتهم استطاع المحامى حمادة الناحل أن يستنتج أنه أمام قضية غامضة التركيب ، وأن هناك أشياء كثيرة قد حذفت من النص المعروض ، وأن هناك اتفاقا ما بالسير فى المناقشة إلى وجهات محددة ومنع تشعبها إلى مالا ينبغى .

وقال حمادة الناحل :

ـــ لو سمح لى سيادة الرئيس ـــ رئيس المحكمة ـــ بكلمة .

ورد جمال سالم :

ـــ أيوه اتفضل .

الدفـاع : خلال هذه المناقشة آمنت بأننى إلى جوار شخص غير عادى .. غير طبيعى .. كنت قد فكرت فى هذا قبل أن ألقاه ، وبعد أن لقيته مرة ومرة ، وبعد أن سمعته الآن آمنت بأن هذه المهمة العصيبة التى ألقيت على كاهلى إنما هى مهمة الدفاع عن شخص مجنون .. لاأريد أن أفرغ عن هذا الجنون وعدم المسئولية ، ولكننى أستهدف أولا وقبل كل شيء التدليل على أنه لايوجد مصرى عاقل .. مصرى يسير كما يسير الأقوياء . مصرى طبيعى ، يقدم على الاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر .

لم يدخل هذا الكلام عقل الدفاع ، وليست ميسرة له طرق الحصول على أية معلومات ، وكل شيء منضبط ويسير بنظام ، ويواصل كلامه :

الدفاع : لاأريد أن أعطل الدعوى بل نمضى فى سماع الشهود ، ولكننى أطلب بعد سماع الشهود اليوم إحالته إلى الطبيب الشرعى ، علشان يقعد معاه ساعتين ويدينا تقرير عنه يجينا يوم السبت الصبح .. وده ماأظنش إنه حيكون موضوع جدل بيننا وبين الادعاء لأنه لاصلة له بتعطيل الدعوى . ونحن هنا قد جئنا لا لنتحدث فى الصغائر ، وإنما لنشترك جميعا محكمة وادعاء ودفاعا فى رفع خطر عن بلادنا ، ولذلك أرجو أن تقدروا هذا الطلب وتفصلوا فيه .

لا يجوز أن يتصل مخلوق بالمتهم

وكان المحامى يتوسل إلى المحكمة بطريقة بليغة قد أثرت فى الحاضرين ،كما وضح هذا فى الوجوه المتوثبة التى تنتظر إجابته إلى طلبه .

وبدا القلق على وجوه أعضاء المحكمة ، ورئيسها المقدام الذى لايرتبك ولايتلعثم نظر ناحية النيابة ، وهم جميعا حريصون على أن يظل المتهم بين المحكمة ومعتقل التعذيب سواء فى السجن الحربى أو فى قصر عابدين حيث البوليس الحربى ، وهى الأماكن الآمنة فى نظرهم ، وليس من المناسب أن يذهب المتهم إلى جهة مدنية ، والأدهى من ذلك أن يقابل طبيبا !

وما يدرينا ماذا يدور بينه وبين هذا الطبيب !
صحيح أنه يمكننا الذهاب بالمتهم إلى أى مكان ومعه صول ، وهذا الصول يستطيع بما أوتى من صلاحيات أن يجعل وزير الصحة بنفسه ينتفض هلعا،ومن ثم فلايكتب فى تقريره إلا مايريده هذا الصول الذى يمثل السلطة فى مصر .
ولكن لماذا كل وجع الدماغ هذا؟ لايجب المغامرة بخروج المتهم إلى أية جهة كانت ، ولايسمح لمخلوق بلقائه .
مايدرينا ماذا يمكن أن يقول !

ويخبط جمال سالم بقلم رصاص فى يده على المنصة،مستنفرا الادعاء الذى يفهم الإشارة فينتفض واقفا ويقول :
وكيل النائب العام : الادعاء يعترض على هذا الطلب .
ويبتسم جمال سالم مستريحا ويستند إلى الوراء ، وهم بوضع حذائه على المنصة ، ولكنه تنبه فاعتدل فى جلسته،وهو يواصل سماع الادعاء وهو يخطب مجلجلا فى حماسة :
وكيل النائب العام : وقد تكلم المتهم طويلا فى التحقيقات كما تكلم اليوم أمام حضراتكم ، واعترف تفصيليا بأنه ارتكب الحادث ، وبيت النية منذ أسبوع كامل على ارتكاب الحادث .
وانبرى يتكلم ويتكلم ، وثار ثورة عارمة فى آخر كلمته وهو يقول :
وكيل النائب العام : وإنما لعل الدفاع يريد مع هذا ويستهدف من وراء ذلك أن يطلب استعمال الرأفة مع المتهم .. ولكن أن يقول عنه إنه مجنون فلايقبل عقل سماع هذا إطلاقا .

عرضه المتهم على الطب الشرعى ليس يؤثر

ويبدو على الدفاع أنه لم ييأس بعد فهو يقلب النظر بين الموجودين ، وبكلمة هادئة يحاول إقناع المحكمة بضرورة عرضه على الطبيب الشرعى ، ويلمح لهم من طرف

خفى أن هذا لن يؤثر على شيء ، وكأنه قد كون فى رأسه نظرية ما عما يدور فى هذه الصالة العجيبة .

وكان كلام الدفاع منطقيا ومعقولا ، فهو يطلب عرض المتهم على الطب الشرعى ، ويتم ذلك فى وقت قريب ، وليس أثناء نظر الجلسات ، ولكن بعد الانتهاء منها ، وبين أنها قضية غير عادية،وينبغى أن تأخذ حقها ولو من الناحية الشكلية التى أهدرت مع قرار تشكيل المحكمة .

وتداول جمال سالم مع السادات وحسين الشافعى عضوى اليمين واليسار،وانتهى بأن نظر فى تبجح وقال :

جمال سالم : المحكمة معترضة على إحالة المتهم على الطبيب الشرعى .

وللقارىء الكريم أن يفكر ويتأمل لماذا الاعتراض !

رأى هنداوى دوير فى الصراع بين الإخوان والحكومة

بعد رفض المحكمة لطلب الدفاع بعرض المتهم على الطبيب الشرعى تم استدعاء هنداوى دوير كشاهد بين استياء الدفاع الشديد ، وقد قابلته المحكمة بالترحاب وألانت له القول وعرضت عليه الشرب ، وطلبت منه أن يتكلم بهدوء وعلى راحته ، فهى فى قرارتها مطمئنة إلى كل مايمكن له أن يقول .

ويبدو أن هناك اتفاقا مسبقا دقيقا حول كل حرف قاله هنداوى دوير ، ولكننا لو أخضعنا كلامه ــ كلام هنداوى دوير ــ أو شهادته لمقاييس النقد فسوف تتضح لنا حقائق هذا الاتفاق . وسوف نفعل هذا ، ولكن بعد استعراض كلامه أمام جمال سالم ومحكمة الشعب .

وبعد أن حلف هنداوى دوير اليمين قال له جمال سالم :

ــ إيه اللى تعرفه عن موضوع التهمة بتاعت محمود عبد اللطيف فى تعديه على الرئيس جمال عبد الناصر ؟

وتحفز المتهم وبدا عليه كأنه يسترجع ماينبغى عليه قوله :

ــ أيوه ياافندم .

وتحدث إليه جمال سالم فى لهجة رقيقة وهو يهدئه :

ــ نرجوك أن تكون هادئا ، وإذا كنت عايز كوباية ميه نجيبلك كوباية ميه . وأشار جمال سالم بيده ، فأسرع من يلبى طلب الرئيس .

والملاحظ أن هنداوى دوير قد ازداد توترا وعصبية،وتمتم قائلا :
ــ تسمح لى اتكلم فى الموضوع على طول .
وقال له جمال سالم مطمئنا وهو يحاول أن يبعث الهدوء فى نفسه :
ــ اتكلم زى ماانت عايز .. اتكلم على راحتك .
وبدأ هنداوى دوير يتكلم بطريقة آلية كأنـه يقرأ نصاً محفوظاً :
ــ فى الأشهر الأخيرة .. من خمس شهور أو أربع شهور أو بعد مارس بالتحديد انقسم أعضاء الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين إلى ثلاثة أقسام :

أحدها وعلى رأسها بعض الإخوان زى الأستاذ البهى الخولى يؤيد الثورة . ويرى ضرورة ان الإخوان يقوموا بتأييد الثورة .
وفريق آخر وقف موقف حياد أو على الأقل موقف مائع .. ماقدرش يحدد موقفه بالضبط وماأرادش إنه يغضب دول ولادول . وكان على رأس هذا الفريق الدكتور خميس حميدة اللى هو وكيل الإخوان .
والفريق الثالث كان يرى أن الثورة ماشية فى طريق يعارض الاتجاه الاسلامى .
وسكت هنداوى دوير قليلا مترددا ، ووجه له جمال سالم نظرة صارمة تطالبه بالاستمرار فازدرد ريقه وقال :
على أثر هذا الخلاف الشديد الهيئة التأسيسية كأعضاء فقدت احترامها فى نفوس الإخوان ، ومكتب الإرشاد لم يستطع أن يقوم بمهمته فى توجيه الإخوان ، وبذلك فقد احترامه فعلا فى نفوس الإخوان ، حتى أصبحت التعليمات التى تصدر منه لاتلقى تأييداً من الإخوان .
وكان لابد من تعديل الحال فرئى أن هذه الهيئة لاتمثل الإخوان ، ومادامت لها صفة من صفات الأبدية وهى التعيين مدى الحياة ، فلابد من تغيرها إلى وضع آخر يستقيم مع الأمور . فرئى تعديل القانون ، وفعلا عدل القانون فى هذه الفترة إزاء هذا الاضطراب الشديد .. سيطر على الدعوة بعض أفراد غير رسميين ، يعنى أفراد ماهمش الصفة الرسمية زى إبراهيم الطيب .
الأستاذ إبراهيم الطيب المحامى .
ووجدنا أن الأجهزة الإدارية فى الإخوان المسلمين أصبحت كلها معطلة ماعدا الجهاز الخاص ، الجهاز السرى فى الإخوان المسلمين .
وسكت هنداوى وهو ينظر يمنة .. ويسرة .. والكل يستحثه للنطق فأكمل :

— كان الجهاز السرى يسيطر على الموقف،ويصدر تعليماته إلى الإخوان . على أثر هذا بدأت التعليمات تيجى تلقائيا من المسئول . وكانت فى هذه الفترة من الأستاذ ابراهيم الطيب المحامى المسئول عن النظام السرى فى القاهرة .
وأنا فى امبابة كنت رئيس المنطقة ، وكنت طول عمرى فى المنطقة رئيس الجهاز السرى .
هذا هو تصور هنداوى دوير عن الوضع والخلاف بين الحكومة و الإخوان .

ووجهة النظر هذه لم تتكون أثناء مثوله للتحقيق ، ولكنها تكونت أثناء جريان الحوادث ووقوعها بالتأكيد .
وواضح من كلامه أنه لم يكن راضيا عما كان يدور فى ساحة الإخوان بغض النظر عما إذا كان ماحدث قد تم رغما عنهم،أم بمحض إرادتهم واختيارهم .
ولكن هكذا كانت وجهة نظر هنداوى دوير وهى تساند الضباط أكثر مما هى منسقة وملتحمة مع وجهة نظر الإخوان .
ولسنا بصدد مناقشة ماإذا كان الحق معه أم لا ، ولكن حسبنا التأمل فى الوقائع وما فيها من دلالات ، وما خلف السطور من حوادث وإشارات .
فقصة محاولة اغتيال عبد الناصر عام ١٩٥٤ وإلصاق هذه التهمة بالإخوان المسلمين هى قصة الجريمة الكاملة التى تمت فى العصر الحديث .
ورغم هذا فقد ترك الجانى خلفه الكثير من الآثار التى تدل عليه،ولكن أين التحقيق وقد كادت الآثار أن تضيع تماما لتطاول السنين ، والمجرم هنا هو الدولة بكل مالديها من أجهزة وقوة وهيمنة على كل شىء . فقد حكمت بقسوة بالغة . وجعلت الحديد والنار شعارا لها ، فإن تأخر كشف جريمتها فليس هذا بالعجيب أو المستغرب .

أقوال هنداوى دوير عن الحادث

واستمر هنداوى دوير فى الكلام أمام محكمة الشعب ، وجمال سالم ينظر إليه كالذئب يرهبه ويرغبه حتى لايخرج عن اتفاق سابق قد غاب شهوده .
وقال هنداوى :
— وفى أثناء المعاهدة أو بعد الاتفاق المبدئى اللى وقع بالحروف الأولى ، قامت الخلافات حول ما إذا كانت هذه المعاهدة صالحة أو ضارة ، وبدأ تشحن نفوس

الإخوان بأنها ضارة ، وصدر قرار مكتب الإرشاد اللى وجه إلى السيد الرئيس بخصوص رأى الإخوان فى المعاهدة ، واللى قيل فيه إن ده مجرد نصيحة ، وإنه غير ملزم للحكومة ، وإن من واجبنا أن نوجه أى حاجة للحكومة باعتبارنا من الشعب . وتطورت الأمور بعد هذا ياسيدى إلى أن بدأت المنشورات تنزل ، وكانت تيجى للإخوان علشان يقرءوها وعلشان ينزلوها ويوزعوها للناس ، الاستاذ إبراهيم الطيب كان بيقول إن الخطة اللى اتخذها النظام السرى هى تعبئة نفوس الإخوان من الوجهة الشعبية ، وتعبئة نفوس الناس ضد المعاهدة .

وعلى هذا الأساس نزلت جملة منشورات باعتبار أن الاتجاه هو تبصير الناس كما يقول الأستاذ إبراهيم الطيب — على أساس أن المعاهدة ضارة .

فى الفترة دى ياسيدى شحنت نفوس الإخوان شحنا شديدا ضد المعاهدة ، وكان على اثر هذا إن الاخوان طبيعى كانوا متضايقين من المعاهدة ضيقا شديدا .

وكانوا يقولون : ما المصير ؟ إيه يعنى ؟ حنعمل إيه ؟

وبعدين بصينا وجدنا فجأة المنشورات انقطعت نهائيا فسألت إبراهيم :

انتم عبتونا وفرغتونا ليه ؟

فقال : إن الاتجاه مش حيكون شعبى ،بل احنا قررنا ان الاتجاه يكون اتجاها إرهابيا .

فقلت له : ياأستاذ إبراهيم إن الاتجاه الإرهابى ده لن يؤدى إلى نتيجة،وذكرته بما تحمله الإخوان أيام فاروق ، وقلت له إن احنا والبلد مش حنجنى من هذا الطريق شيء ، فقال لى إن هناك خطة كاملة واحنا حانفذها . طيب ياسيدى أقف هنا عند هذا القدر من كلام هنداوى دوير لأسجل ملحوظة .

هنداوى دوير من أشد الإخوان تحمسا لمقاومة الحكومة فى ذلك الوقت بالقوة وكان ينادى بضرورة اغتيال عبد الناصر وكافة رجال الثورة ، وأن الذى يخرج على النظام الخاص « يُخْلَى سبيله » وهذا من قانون النظام الاساسى،وكان العقلاء يردونه فى هذا ، وقد شهد بذلك من عرفه وتعامل معه ، وكان متهورا جريئا ، واختير من ضمن حرس بيت المرشد العام فى منيل الروضة لجرأته وشجاعته وكان يرى اللين مع الحكومة ضعفا ، وأن عبد الناصر كان عضوا فى النظام الخاص ونقض بيعته،ومن ثم فلابد أن يخلى سبيله ، ومعناه الموت .

وأعود إلى أقوال هنداوى :

— قبل الحادث بحوالى خمستاشر يوم أو أكثر قليلا جانى وقال لى إن خطتنا هى أن النظام قرر أن يعتدى أولا على الرئيس جمال عبد الناصر وبعد كده يتخلص —

بتحدد اللفظ – يتخلص من الضباط الأحرار بأى صورة سواء بالاعتقال أو بالخطف أو بالقتل .

فقلت له يعنى إنتم حققتم المسائل دى اسلاميا فقال لى آه .. ولعل حضراتكم تعرفون أن النظم السرية دى .. المسائل اللى تتناقش فيها بشكل أوسع . وفعلا قال لى إنه انتخب محمود عبد اللطيف ليقوم بإطلاق الطلقات وهى الاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر .

وجاب لى المسدس اللى شفته فى القضية ، وبعدين أنا اديت المسدس على طول لمحمود عبد اللطيف . وقلت لابراهيم الطيب ، إيه الخطة ياسيد إبراهيم ؟ ، فقال لى : إن الرجل الصعيدى يتتبع خصمه سنة كاملة لغاية مايتخلص منه .. فالخطة إن محمود يعتمد على مجهوده الشخصى فى تتبع الرئيس جمال عبد الناصر .

وفعلا قلت لمحمود هذا وقد سلمته المسدس وسلمته الطلقات .

وفى هذه الأثناء ــ وأنا أقولها ياسيدى الرئيس لوجه الحق ولوجه الله ــ زارنى الأستاذ محمود الحواتكى والأستاذ عبد الفتاح القرشى فى البيت يمكن الساعة تسعة وقالوا لى إن احنا بلغنا أن النظام– قالوا لى كده ودى كلمة تطلق على النظام السرى قالوا لى إن النظام قرر أن يتجه اتجاها ارهابيا وان الحوانكى علم أن الأستاذ المرشد غير موافق على هذا الاتجاه وإنه قال لى بالتحديد اننى برىء من دم جمال عبد الناصر إذا قتل .

ونقف قليلا مع الشاهد الوحيد .. شاهد الإثبات الوحيد الذى لم يقاطعه جمال سالم ، بل ترك له الفرصة كاملة للحديث رغم اضطراب الوقائع التى يسردها وتضاربها أحيانا ، شاهد الإثبات الوحيد الذى عومل أحسن معاملة فى قاعة المحكمة وسمح له بالشرب ، وهو شىء لو تعلمون عظيم .

كلام واضح وصريح رغم الخلفيات التى نعرفها والتى لانعرفها حول شهادتـه المرشد برىء من دم جمال عبد الناصر إن قتل ، وهو أعلى سلطة فى الجماعة ، وسمح لهنداوى بالحديث بغض النظر عما يقول من كلام متناقض ، والمهم أنه أعطى مسدسا أخذه من إبراهيم الطيب وسلمه لمحمود عبد اللطيف وقال له : اتصرف ، ثم عاد يسأل إبراهيم الطيب عن الخطة !

ولعل هذا من أسباب سحب مضابط محكمة الشعب من الأسواق بعد ذلك ، فقراءتها تبين التآمر وتحدد أبعاده بوضوح شديد جدا .

ونعود إلى شهادة هنداوى دوير :

قلت له مين اللى قال هذا الكلام ؟ فقال لى : قاله شخص لست فى حل من ذكر اسمه .

وقد سبق أن قلت هذا الكلام فى التحقيق .

وبعدين سألت نفسى : احنا رايحين فين ؟

ثم قابلت محمود بعدها على طول ــ يقصد محمود عبد اللطيف ــ وقلت له أوقف كل حاجة . وهو موجود أمامكم واسألوه،وأعتقد أنه صادق وحيقول الحق،وبعدين جانى زارنى إبراهيم الطيب ، وهو كان بيزورنى فى هذه الفترة كل يوم باعتبار إن دى خطوة أولى ، وإن دى هى اللى حتمشى فى هذا الطريق .

جانى ابراهيم ثانى يوم فقلت له على حكاية الأستاذ الحواتكى والأستاذ القرشى .. وبهذه المناسبة مكانش الأستاذ إبراهيم الطيب يعرفنى بمكانه أبدا ..

فقال لى أن هذا الكلام غلط ، وإن الناس دول متصلين بالمفصولين وبالأستاذ البهى الخولى وإنهم عاوزين يعطلوا شغلنا .

فقلت له يعنى الأمر صادر من المرشد،فقال لى أيوه .

فقلت لمحمود امش فى طريقك .

قبل الحادث بثلاثة أو أربعة أيام كان الاستاذ إبراهيم بيتفق معى ..

فقال لى حاجيب عدة حاجات لتكون بمثابة العمل الأول اللى تبدأ بعده الخطة ، وهى مدفعين،على أساس إنهم يقوا كمين يوجه ضد ركب جمال عبد الناصر،وجاب لى لغم على شكل حزام ، وشرح لى طريقة عمله ، وقال إن محمود يقى يتحزم به ، وجاب لى طبنجة ثانية ، وقال لى إن محمود على النصيرى يأخذها ويقوم بدور محمود عبد اللطيف .. اللغم والمسدس جابهم لى يوم الثلاثاء محمود بعد ماأخذ المسدس نزل وراح مؤتمر الموظفين ولم يعمل حاجة .

وفى نفس اليوم الاثنين .. جانى يوم الاثنين بالليل الساعة حداشر ونص اتناشر ، وقال لى إنه مسافر إلى الإسكندرية .

« رغم كثرة الملحوظات على أقوال هنداوى وتضاربها فلا بأس من الإشارات الخفيفة بين الحين والآخر مثل يوم الثلاثاء ويوم الاثنين » .

واستمر هنداوى فى أقواله والقاعة يخيم عليها الصمت ، والقاضى جمال سالم يراقب وجوه المستمعين والحاضرين،ليرى أثر كلام الشاهد عليهم ، مثل أى مخرج

يقف من خلف ستار ليرى تأثير العرض على الناس وقال :
- فقلت له علشان إيه يا محمود ؟
فقال لى الرئيس مسافر النهارده إسكندرية .
فقلت افرض إن مافيش حاجة هناك ؟
فورا فى جرائد القاهرة وكان منشور فيها إن الرئيس مسافر اسكندرية .

وبدأ التململ يسرى بين الحاضرين للإطالة وعدم التركيز ، وانتبه رئيس المحكمة إلى هذا فصار ينقر بقلم رصاص فى يده على المنصة حسبما روى أحد شهود العيان فى ذلك اليوم وعاد الصمت .

وبدا شىء من الاضطراب على وجه هنداوى وهو يقلب بصره هنا وهناك وقال :
- أنا طبيعى الآن فى موقف الشاهد ومش عايز أبرىء نفسى باعتبار إن مكتب الادعاء قد أنهى الموضوع ، وإنما أقرر أننى قلت لمحمود مابلاش يا محمود هذا المشوار . فقال لى لازم أسافر .

وهنا اشرأب محمود عبد اللطيف بوجهه ناحية الشاهد لائما يريد أن يقول شيئا خارجا عن النص ولكنه لايستطيع ، فعين جمال سالم ترمقه متوعدة محذرة ساخرة فى الوقت نفسه ، وعن يمينه وعن شماله يجلس كل من أنور السادات وحسين الشافعى وهما أبلغ فى صمتهما من أسدى قصر النيل .

وعاد الرئيس — جمال سالم — إلى هنداوى مشجعا فقال :
— وإن كان هذا الكلام يغلظ العقاب على محمود ، أقرر أن محمود كان متحمسا لهذا العمل بالفعل . فقلت له طيب ياسيدى سافر .

واتسعت ابتسامة جمال سالم الساخرة لهذه الطقوس المتضاربة والتى على الجميع أن يصدقها ولا يعترض عليها ، وليس له دخل فى نقد النص من ناحية عدم الترابط والاتساق . وهى طقوس معروف مقدما النهاية التى تقضى إليها .

وقال هنداوى :
— وسافر فعلا — محمود عبد اللطيف — هو سافر يوم الثلاثاء ، والكلام ده كان يوم الاثنين بالليل الساعة اتناشر اللى هو بدأ يوم الثلاثاء
وبدا الإرهاق على الشاهد وهو يجهد ذهنه فى التركيز فلا يستطيع فيبدو كلامه غير مترابط ، وأحيانا غير مفهوم .

وبنظرة الصقر من جمال سالم أرغم هنداوى على الاستمرار :
— جانى الأستاذ ابراهيم الطيب يوم الثلاثاء وجاب لى اللغم والطبنجة ، وقال لى

ابقى اعرض أحدهما على نصيرى .. محمد على نصيرى رفض إنه يأخذ اللغم ، وأنا كنت أبديت اعتراضى على اللغم ، ولكن إبراهيم قال إن العسكريين قالوا إنه كويس كده ، وإن احنا مالناش أن نعترض على الناحية الفنية .

طيب ياسيدى يوم الثلاثاء الساعة اثنين ...

أولا أنا كنت فى المحكمة فى هذا اليوم لغاية الساعة واحدة ونص وكنت أترافع فى حداشر قضية ، وهذا ثابت فى محضر الجلسة كما هو ثابت فى التحقيقات التى أجراها رجال الإدارة . وبعدين روحت البيت الساعة اثنين اتغديت أنا وأولادى وخلصت غدا ..

الساعة اثنين ونصف جانى الأستاذ إبراهيم ومعاه اللغم والطبنجة .

ويظهر إن الأستاذ أبراهيم كان جاى فى السكة ووراه الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل ، لأنه جه بعده على طول ، فقال لى هات إبراهيم يتغدى عندى .

وبهذه المناسبة أقرر أن الأستاذ ابراهيم الطيب قال لى ماتقولش حاجة زى دى للأستاذ عبد العزيز كامل لأنه معارض فى هذا الاتجاه ويمكن أن يقنعك إنك تعدل عن تنفيذ الخطة .

وبعدين قعدت أنا وإبراهيم فى أودة المكتب ، وجبت له على صينية الشاى طبق خضار وشوية أرز ، وبدأ إبراهيم يتعدى .

وفعلا وحبه وجه عبد العزيز كامل وقال يجى إبراهيم،يتغدى معايا .

فقال إبراهيم أنا حاتغدى هنا .

فقال عبد العزيز ابعت حد للحاجة اللى هى الست الوالدة يجيب لنا شوية حاجات .

ودخلت أنا اللغم وكان ملفوف فى ورقة،وكذلك المسدس فى أوضة من أوض البيت .

وقعد إبراهيم وعبد العزيز يتغدوا ويتكلموا ييجى ساعة .

« ويلاحظ أن الدكتور عبد العزيز كامل كان يسكن فى نفس البناية اللى كان يسكنها هنداوى دوير ، وأنه فى طابق يقع تحت الطابق الخاص بهنداوى . »

ـــ وبعدين الأستاذ عبد العزيز كامل جاله واحد فلسطينى من الإخوان ، فتحت واحدة خدامة تقول له إن فيه واحد عايزه .

ونزل الأستاذ عبد العزيز كامل وبقيت أنا وإبراهيم وقعدنا لغاية الساعة خمسة ونصف ، وكان فيه ميعاد ان نصيرى حيجى فيه .

وعرضت عليه اللغم فقال لا ده ماينفعش .

وأخذ المسدس على أساس أنه يقوم بنفس المهمة الموكولة لمحمود عبد اللطيف . وعلى آثر ذلك انصرفنا .

انصرف إبراهيم وخرجت أنا ورحت لمكتبي وفضلت فيه لغاية الساعة تسعة ... وكنت قاعد مع الدكتور موريس إسكندر وهو جارى وصاحب الأجزخانة . وبعدين روحت البيت فعلمت فى الطريق ـــ وأنا كنت عارف إن محمود فى الإسكندرية ، وماكناش سمعنا الراديو لأن الحتة اللى احنا فيها مفيهاش راديوـ وأنا فى السكة عرفت ان محمود عبد اللطيف اعتدى على الرئيس .

« هذا جزء من كلام شاهد الإثبات الوحيد فى هذه القضية » .

واستمر هنداوى دوير يدلى بشهادته أمام محكمة الشعب التى أفسحت لها صدرها تماما ، وكان بحق نجم الشهود والمتهمين المدلل ، وقبلوا منه ولم يناقشوه رغم مافى كلامه من تعارض وتناقض قد أملاه اتفاق مسبق لم يستوعبه جيدا أو خوف عارم جعله لايهتم ولايدرى مايقول .

وقال هنداوى مستمرا :

ـــ ومن حمد الله إن الرئيس ماإعتديش عليه ونجى بحمد الله ، بعد كده أنا قدرت أنه سيقبض عليَّ ، فأخذت الست بتاعتى الساعة ٣٠ , ٩ ونزلنا بسرعة أخذنا قطر ١٥ ,١٠ من الجيزة وروحتها المنيا ودخلنا الساعة ٣٠ , ١ ، ورجعت صباحا فى قطر الساعة التاسعةونزلت إلى مركز امبابة ، وسلمت نفسى إلى البوليس ، وأنا جاى فى القطر قدرت عدة مسائل منها إن زعماء الاخوان منقسمين على أنفسهم وأن الدعوة فى هذه الفترة يسيطر عليها أناس غير مسئولين وغير معروفين للإخوان ، وأن الاتجاه الإرهابى اتجاه صورته الطبيعية الواضحة البسيطة إنه غير اسلامى ، أى القتل على هذه الصورة غير اسلامى ، قدرت هذا وقدرت أنه لو وقعت العمليات التى تحت يدى ففيها إرهاق للإخوان .

وإرهاق للبلاد وعلى الأمن ، وإذا كانت دى ماأصابتش يمكن حاجة ثانية تصيب ، وقررت لذلك أن أسلم نفسى للبوليس ، وأضع نفسى تحت تصرف المسئولين ، ولذلك قابلت الضابط وقلت له عايز أسلم نفسى للبوليس .

ده الحادث وأنا تحت تصرفكم فى أى أسئلة .

وخيم على القاعة صمت عميق .

وبدا كأن جمال سالم كان ينتظر منه أشياء أخرى عليه أن يذكرها فقال مشجعا :
جمال سالم : قول أى حاجة عايز تقولها ، إذا كان عندك حاجة ثانية عايز تقولها
ونظر إليه هنداوى مذعورا حائرا لايدرى ماذا يقول .
وحدجه جمال سالم بنظرة صارمة جعلته يتمتم من جديد :
– إبراهيم قال إن الخطة هى الاعتداء على الرئيس ، وبعد كده خطف أو الاعتداء على الضباط الأحرار .. فيه أظن ٤٥ واحد ، وكذلك مجلس أعضاء مجلس قيادة الثورة
وكرر جمال سالم على هنداوى دوير السؤال :
جمال سالم : ماعندكش حاجة ثانية عايز تقولها ؟
وكان ينظر له بصرامة وتوعد ، وبدا الارتباك على وجه هنداوى دوير وقال وصوته لايكاد يخرج من فمه :
هنداوى : لا .. إذا كان فيه أسئلة أنا مستعد للإجابة .
وكانت قد حدثت مشادة بين حمادة الناحل محامى المتهم محمود عبد اللطيف وبين هنداوى قبل سؤال جمال سالم الأخير ، وهى ليست مشادة بمعنى مشادة ، ولكن كانت تقريعاً وسبا ولوما من حمادة الناحل إلى رجل ضعيف مسكين أسير فى عرين الذئب لايملك من أمر نفسه شيئا ، بغض النظر عن دوره فى هذه المأساة .

هناك مانسيه هنداوى !

وبدا أن هناك أشياء كان على هنداوى أن يذكرها أمام المحكمة ويبدو أنه لفرط اضطرابه قد نسيها ، وهو الشاهد المدلل فى هذه المحكمة ، وينبغى أن يعامل هكذا حتى اللحظة الأخيرة ، ولابد أن تسير الأمور كما رسمت دون ضجيج أو شيء من البلبلة والتشكيك .
وارتفع صوت جمال سالم :
– ترفع الجلسة للاستراحة .
« رفعت الجلسة فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين » .
« أعيدت الجلسة فى الساعة الثانية عشرة ظهرا » .
والله وحده يعلم ماذا تم فى هذا الوقت الذى تجاوز النصف ساعة بخمس دقائق ، قد أخليت القاعة ، وسحب الشاهد إلى غرفة رئيس المحكمة ودار بينهما حوار لايعرفه أحد ، حتى أسدا قصر النيل لم يشهدا هذا اللقاء . ومن واقع ما حدث بعد تلك الجلسة يمكن لنا أن نتصور أن جمال سالم قد ذكر هنداوى بأشياء قد غفل عن

ذكرها رغم تكرار السؤال له إن كان هناك مايود قوله .
ويبدو أن الحديث الذى دار بين جمال سالم وهنداوى دوير كان مشجعا للأخير لأنه تكلم بشجاعة وهاجم حمادة الناحل فى أول الجلسة كما سنرى .
جمال سالم : أعيدت الجلسة .
ثم جلس كالأباطرة وبعد لحظات تذكر أن كل من بالقاعة لايزالون واقفين فأشار بيده فجلسوا كأن على رؤوسهم الطير .
وبدا هنداوى فى حالة معنوية جيدة بعد تلك الدقائق القليلة التى تمت فيها الاستراحة ، وظهر متوثبا يريد الكلام .
جمال سالم : الشاهد فيه حاجة تانية عايز يقولها ؟
وبدا على المدعى البكباشى محمد التابعى أنه لم يحضر المقابلة فقال :
المدعى : هو كان خلص كلامه .
ونظر جمال سالم ناحية المدعى مغتاظا ، ثم حول بصره ناحية هنداوى وبتلطف شديد لايخلو من وعيد قال :
جمال سالم : فيه حاجة تانية ؟
وقال هنداوى متسائلا كأنما ليتأكد مما ينبغى قوله :
هنداوى : بخصوص النظام السرى ؟
جمال سالم : هل لك أقوال تانية عايز تقولها من غير أسئلة ومن غير مانناقشك فى الموضوع .. فيه حاجة عايز تقولها ياهنداوى ؟
هنداوى : أيوه ياافندم ..
واشرأبت الأعناق تستمع إلى هنداوى دوير الذى أكمل :
ــ بس أنا لى شكوى صغيرة بخصوص اعتراض الأستاذ حمادة الناحل على أننى محام .
وكان هذا ماوصفه به حمادة الناحل قبل أن ترفع الجلسة .
ونظر جمال سالم ناحية هنداوى الثائر الغاضب مهدئا .
جمال سالم : خلاص ياهنداوى أنا رديت عليه .

رأى هنداوى فى النظام الخاص

وقال هنداوى فى شجاعة وبصوت عال موجها كلامه ناحية حمادة الناحل الذى كان ينظر ناحيته متعجبا مبهوتا :
ــ الإنسان لايصح أن يجهز على جريح ، ولم يكن يليق به أن يطعننى وأنا فى هذا الموقف ، وبينى وبينه خصومه لأنه يحضر ضدى فى قضايا خاصة .

وأنهى الموقف جمال سالم :

ــ خلاص ياهنداوى .

وهدأت نفس هنداوى والتفت ناحية جمال سالم وبدأ يقول :

ــ أيوه يافندم .. مسألة النظام السرى فى الإخوان المسلمين .. النظام السرى هذا ترك من أيام البنا الله يرحمه ، وأنشىء هذا النظام أصلا لمحاربة الإنجليز ولمحاربة الملك السابق ، وكان على رأسه الأستاذ البنا كمشرف مسئول باعتباره المرشد العام ، وكان يرأسه فى ذلك الوقت على ماوضح فى قضية سيارة الجيب ــ الاستاذ عبد الرحمن السندى-وقد اشترك هذا النظام فى حرب فلسطين والطلائع الأولى فى حرب فلسطين كانت من الإخوان ــ ومن النظام الخاص بالذات وكان يختار أفراده من المخلصين المؤمنين المضحين بأرواحهم وأموالهم فى سبيل الله وذلك لتحرير البلاد العربية والإسلامية من الاستعمار الاجنبى .

هذه هى فكرة النظام الخاص فى الأصل ، وأساس هذه الفكرة لاغبار عليه ، لأن المسلم يجب أن يجهز تجهيزا إسلاميا كاملا ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من لم يغز ولم تحدثه نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية . كما قال ارموا واركبوا ولئن ترمو خير من أن تركبوا .

بقى أن الدولة تحارب التسلح فكان لابد من التخفى .

ولقد اشترك هذا النظام فى حرب فلسطين وفى معركة القنال وعمر شاهين والمنيسى وغيرهما من الشهداء كانوا من أعضاء هذا النظام .

وبعد ماأنتقل البنا إلى رحمة الله كان عبد الرحمن السندى يرأس النظام وكان مكونا من عدة جماعات ، الجماعة مكونة من عدة أشخاص على رأسهم واحد ، والشعبة المهمة بها عدة جماعات ، وتتدرج على نظام هرمى يرأسه عبد الرحمن السندى .

ومعظم هذا النظام فى القاهرة ، وقد توجد مراكز أو مناطق إدارية تخلو من هذا النظام مثل أسوان ، وذلك لأنها بعيدة ولايتيسر لها فهم أغراضه .

ولما انتقل البنا إلى رحمة الله وجاء الأستاذ الهضيبى واختير مرشدا عاما ، وأحب أن أقرر هنا كيف اختير مرشدا عاما .

الهيئة التأسيسية

الأستاذ البنا ترك ١٠٠ شخص أو أكثر كلهم فى حجم بعض ولايدينون لأحد بالولاء والأستاذ البنا كان غاوى « باترينات » .

وهنا حدثت همهمات هنا وهناك ، وبدا الرضا على جمال سالم وقال :
جمال سالم : كان غاوى إيه ؟
هنداوى : « باترينات » .. يعنى يبقى المحل مثلا فى الظاهر والبترينة فى شارع فؤاد ومعنى ذلك أنه كان يضم إلى الجمعية التأسيسية أناسا لاصلة لهم بالإخوان المسلمين فمثلا جه واحد من النيابة خرج برشوة . بصينا لقيناه عضو فى الجمعية التأسيسية .

الواقع أن الشيخ البنا كان يضعهم جميعا فى الظل لأنه رجل عملاق فلما الأستاذ البنا أخذ بهذه الصورة — لم يكن للهيئة التأسيسية قوة إدارية أو أية صفة .

كانت تجتمع به ليقرر ما يشاء ، فلما مات برزت وأخذت طابع التوجيه ، وهم لايلتفون حول شخص منهم .

اختلفوا ولم يتفقوا على شخص منهم فرئى اختيار أحد الناس القريبين من الإخوان وله اتجاه إسلامى فرشح الهضيبى وانتخب انتخابا حرا على مانعلم .

وبدأ الصراع بين الهضيبى والسندى لأن الهضيبى أول ماجه أعلن أن هذا الاتجاه خطأ وأعلن أن قتل الخازندار قتل غير إسلامى ، وأن قاتله يدخل النار ، ولهذا بدأ الصراع بينهما ، وانتهى بفصل عبد الرحمن السندى وبعض زملائه من الإخوان المسلمين .

واستمرالحال على ماهو عليه . وقيل إنهم جابوا قيادة أخرى لهذا النظام .

وسارت الأمور إلى ما بعد الثورة بفترة كبيرة ، إلى أن فصل السندى وجاب الهضيبى قيادة جديدة للنظام ، وبدأت تتصل بالإخوان .

وبعدين هرب عبد المنعم عبد الرؤوف .

المحاكمة تزور الشاهد أثناء الاستراحة

ويخيل إلىّ أنه أثناء الاستراحة قد طلب جمال سالم إثارة عدة نقاط عند عودة الجلسة للانعقاد ، ولكن الوقت لم يكن يسمح بغير إثارة النقاط ويترك التفصيل لهنداوى ونحن نتخيل مثل هذا ، فقد مررت بتجارب متشابهة ، يعنى مثلا أثناء التحقيق الذى كان يجرى معى فى عام ١٩٦٥ كان يأتى فؤاد علام ويقترح أن أضع أحد الأسماء فى قائمة التنظيم المتهم بإنشائه ، فأقول له هذا يستحيل من الناحية الفنية لعدم وجود هذا الشخص بالقاهرة أثناء الفترة التى تتهموننا فيها بالنشاط فيفكر قليلا ويقول : عليك أن تضمه للتنظيم وتتصرف فى الناحية الفنية هذه .

ولذلك عندما قال هنداوى عبارة :
— وبعدين هرب عبد المنعم عبد الرؤف .

بدا الارتياح على وجه جمال سالم،فكل ماقاله هنداوى من قبل فى صالح الإخوان ويبين أن نشاطهم جهادى ، وأن النظام الخاص هدفه رسالى ، وهذا ماليس مطلوبا.
وسأل جمال سالم :
ــ مين ده ؟ يقصد عبد المنعم عبد الرءوف .
وقال هنداوى :
ــ ده ضابط فى الجيش كان بيحاكم وهرب،فرأت قيادة النظام السرى أنها تستعين بمعلوماته فى الناحية العسكرية ، وأنا شخصيا استضفته يومين أو ثلاثة ، جابهولى إبراهيم الطيب ، وقال لى ده ضيف سرى ، مايصحش حد يتصل به ، وفعلا قعد عندى يومين ثلاثة ، وكان إبراهيم بيجى يقعد معاه فترة طويلة ، وعلى أثر هذا طرأ تعديل جديد على النظام السرى ، ونظم الجهاز إلى جماعات ، كل جماعة من سبعة وكل أربع جماعات تكون فصيلة ، وهذه الفصيلة تسلح بالأسلحة ، مدافع وقنابل وطبنجات .. ده الترتيب اللى جه فى النظام السرى زى ماأدليت بأقوالى الأولى بمجرد تسليمى لنفسى فى البوليس .
وسكت هنداوى دوير ، والقاعة يلفها الصمت ، وأعضاء الادعاء يتلفتون إلى بعضهم ، وينظرون من طرف خفى إلى جمال سالم،فهو المايسترو الذى يقود هذه الجوقة ، وهم لايعرفون على وجه التحديد مايريد .
وصار هنداوى ينظر ناحية جمال سالم حائرا ، وصار الأخير يحدجه بنظرة قاسية مهددة مليئة بالوعيد والشر ، فازدرد ريقه وأكمل :
هنداوى : نرجع بقى للخطة العامة ..
واعتدل جمال سسالم وبدا علية الارتياح وواصل هنداوى :
ــ نرجع بقى للخطة العامة .. فى مسألة المعاهدة قيل بعد الاتفاقية إن الثورة تتجه بالبلاد بعيدا عن الإسلام ، ولابد إننا نجيب حكومة أخرى تتجه نحو الإسلام ولايحكم الإخوان لسببين : الأول ان بعض الاخوان مايمثلوش الإسلام والسبب الثانى إن البلاد غير مستعدة لتقبل النظم الإسلامية ككل لايتجزأ وهذا يحسن ان نسير بالتدريج حتى تستقر الصورة واضحة ، ولذلك أقول إنه لم يكن فى ذهن الإخوان أو المسئولين أن يحكموا .
وسكت هنداوى واعتدل له جمال سالم متوعدا فأكمل بسرعة :
هنداوى : وعلى هذا الأساس رتبت الخطة على أن يعتدى على الرئيس جمال عبد

الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة،والضباط الآخرين يعتقلون أو يخطفون أو شيء من هذا القبيل .
وإبراهيم الطيب قال إن فيه اتصال بالرئيس محمد نجيب،والاتفاق على أساس إنه يبقى يهدىء الناس والبلاد أثناء هذا الاضطراب .

محمد نجيب يتصل بالمرشد العام

وانبرى هنداوى دوير يتكلم دون مقاطعة من أحد سوى عين جمال سالم الراضية حينا والغاضبة حينا آخر وقال :
هنداوى : أنا سألت إبراهيم الطيب ، قلت له ياأستاذ إبراهيم انتم عاوزين تستغلوا الرئيس محمد نجيب فى فترة الاضطراب ده علشان يهدى الشعور العام ، و لا انتم واثقين إن فيه صلة ، قال فيه صلة ، فسألته إيه كنهها فقال ما يصحش إننا نكشف أوراقنا وبهذه المناسبة أذكر أنه ليلة ماجه المرشد من سوريا كنا فى البيت عنده فى الصالون ، وبعدين الساعة اتناشر ونصف .. واحدة تقريبا ضرب التليفون ولما سألناه مين ؟ قال ده الرئيس محمد نجيب بيسأل عن المرشد ، وعايز يكلمه ضرورى ، وقال لما يقوم من النوم قولوا له إن الرئيس نجيب سأل عليك وأنا أذكر المحادثة كما رواها ذلك الأخ .
ــ آلو .. مين ؟
ــ أنا الرئيس محمد نجيب .. الأستاذ الهضيبى موجود ؟ أنا عايز أكلمه .
ــ ده جه من الساعة تسعة ونام .
ــ أنا عاوز أكلمه ــ أنا سمعت إنه جه دلوقت وعايز أكلمه ضرورى .
ــ لأ ده جه من الساعة التاسعة،وراح المركز العام،والتقى بالإخوان وخطب فيهم ، وهو دلوقت نايم .
ــ طيب لما يقوم قولوا له إن الرئيس محمد نجيب سأل عنك .
ده فى ليلة ماجه المرشد من سوريا بالذات ، فلما يكون ده فى ذهنى ويقول إبراهيم الطيب إن فيه صلة .. معقول إنى أصدقه .. ده من حيث الخطة العامة يافندم .

حضرة صاحب الجلالة جمال سالم الأول

وسكت هنداوى دوير ، ويبدو أن جمال سالم قد وصل إلى مايريد وهو إثبات أن هناك صلة ما بين محمد نجيب وبين الإخوان ، وقد أقر بها أحد الشهود المهمين فى

هذه القضية ، بغض النظر عن صدق الرواية من كذبها ، أو أن الأمر لايعدو أن محمد نجيب كان يريد مجرد قول : حمد لله على السلامة لحسن الهضيبى .

ولكنها الفرصة الذهبية لوضع محمد نجيب فى المعتقل ثلاثين عاما ، وكان جمال سالم غارقا فى أفكاره ، فقد كان النزاع بينه هو شخصيا وبين جمال عبد الناصر على أشده ، وكان لحمقه يظن أن الصراع سوف ينتهى لصالحه ، ولكنه أطاح بمحمد نجيب لحساب جمال عبد الناصر ، وجلس هو شخصيا على المقهى بعد وقت يسير وتخلى عن سلطانه ، وشاهدوه يجلس فى مسجد السيدة نفيسة يبكى ويقرأ القرآن .

ولات حين مناص !

كانت هذه الأفكار تشغله عندما انتهى هنداوى من كلامه ، كان يفكر فى محمد نجيب مطرودا من مكتبه بعد أن يرجع إلى زملائه الأوغاد .

ولهذا اتسعت ابتسامته وهو ينظر ناحية البكباشى محمد التابعى المدعى الذى ينظر ناحيته وهو يرتعد فى انتظار اشارة واحدة وقال له :

جمال سالم : الادعاء عايز يناقشه ؟

ولم يكن جمال سالم يهتم بالمدعى الذى بدا عليه الارتباك ، وكان غارقا فى أحلامه الوردية فى التخلص من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وسائر هؤلاء الأوغاد الذين لايعرفون عظمة جمال سالم وقدراته،وأنه الذى طرد الملك وهو الذى مزق الإخوان ، وهو الأول والآخر فى حكومة من السفلة والرعاع ، وماهى الخطوة التالية فى القضاء على كل أعدائه .. ويجب ألا يطول الوقت ولأتزوج من الأميرة فايزة ، وربما هذا لايهم .. ولكن قد أفكر فى عودة الملكية إلى مصر ..

ماأحلى اللقب !

حضرة صاحب الجلالة جمال سالم الأول ملك مصر والسودان ..

وتذكر السودان والاتفاقات السرية فى فصله عن مصر ، وانتابته حالة من الاستياء .. ولكن لن يضر .. يكفى ملك مصر .. وأستطيع أن أجلس فى سميراميس وأقول ماقاله فرعون قبلى :

« أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى »

واستفاق على نعيق المدعى العام :

المدعى : أيوه .. انت قلت إن الخطة العامة هى قتل الرئيس جمال ثم تهدئة الحالة .. هل كان المقصود أن تقوم ثورة شعبية أو إيه دى ؟

عايزين تفسرها ؟

هنداوى ينظر ناحية جمال سالم الذى يومىء إليه أن يتكلم ، وهو يستحضر كلام المدعى السقيم ، والتفت ناحية أنور السادات الذى فاجأته نظرته فاضطرب وابتسم له جمال سالم ، ثم أعاد النظر إلى حسين الشافعى فاضطرب هو الآخر فابتسم له ، ورد حسين الشافعى الابتسامة بأخرى بلهاء من جانبه ، كان جمال سالم يحلم باليوم القريب الذى يقفون فيه أمام قاض آخر يحاكمهم من أجل خيانة الثورة ..
وانسابت نفسه بعيدا فوق مجلس قيادة الثورة وفوق مصر .
وقال هنداوى :
ـــ أيوه .. تفسيرها إن الاخوان كان مقصود أنهم يعملوا ثورة شعبية .
والتفت له جمال سالم مشجعا :
ـــ أيوه .
وقال هنداوى، وكان يشعر أنه يقول كلاما سخيفا مكرراً قاله ألف مرة :
ـــ وبعدين فى الأيام الأخيرة انتهوا إلى انهم يقوموا بعمليات إرهابية تنتهى باضطرابات فى البلاد يسيطر عليها الرئيس محمد نجيب وينتهى من أعضاء مجلس قيادة الثورة وتكون حكومة تنتهى بالبلاد إلى اتجاه إسلامى .. لعل ده واضح .
جمال سالم : إيه الخطة ؟
هنداوى : الاعتداء على الرئيس وأعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار، فيحدث اضطراب يسيطر عليه محمد نجيب .
وكان جمال سالم غارقا فى أحلامه الوردية فى السطوة والسلطة والجبروت والانتقام من زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة، وعلى الأخص ذلك الوغد جمال عبد الناصر الذى اكتسب شعبية هائلة بهذه المهزلة التى صنعوها له . وأراد أن يستمر فى أفكاره وحتى لايشغله أحد سأل :
جمال سالم : إزاى الخطة بتوضع ومنين تيجى ومين ينفذها ؟
هنداوى : الخطة بتوضع فى قيادة التنظيم السرى أولا . ولاأعرف منه إلا أشخاصا معدودين ، ويطلع عليها المرشد ، والمفروض أن يصادق عليها ، وأنا أعرف المسئول عن قيادة النظام السرى ، والمسئول يعرف الذى يليه ، وأنا أعرف إبراهيم الطيب ويوسف طلعت فى القسم المدنى ، وأعرف صلاح شادى وأنه مسئول عن الضباط فى الجيش والبوليس ، والخطة توضع فى القيادة ، وتعرض على المرشد العام ليقرها أو لايقرها ، فإن أقرها تنزل للإخوان لينفذوها .

* * *

الفصل الثامن

" وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى "

شهادة إبراهيم الطيب

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالى لاأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغنِ عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون . إنى إذاً لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون . بما غفرلى ربى وجعلنى من المكرمين . ﴾
يس : ٢٠ – ٢٧



إبراهيم الطيب كان هو الذى يأتى بالأوامر من يوسف طلعت إلى هنداوى ، ومن المفروض أنه الذى أمر هنداوى بتكليف محمود عبد اللطيف بالقيام بعملية اغتيال جمال عبد الناصر ، خلافا لأسلوب الإخوان فى معالجة هذه الأمور .

وقد اتهم بهذا وعذب عذابا شديدا ليعترف بهذا ولكنه لم يفعل ، وكان أحد الذين وقفوا بشجاعة أمام جمال سالم وعندما قال له الأخير :

– أنا مش عارف إيه اللى عملك محامى ؟

ورد عليه إبراهيم الطيب فى شجاعة :

– اللى عملنى محامى ليسانس الحقوق الذى حصلت عليه ، ولكن أنا الذى لاأعرف من الذى عملك قاضى .

وعاد يومها إلى السجن الحربى ، وضرب ضربا شديدا وكسرت ذراعه وتركت دون جبيرة أو علاج ، وكان يعلقها فى عنقه ، وأهملوه وتركوه على أساس أنه سوف يعدم ، فمن ثم ليست هناك ضرورة لعلاج مريض سوف يتم إعدامه بعد أسابيع فهو مضيعة للوقت والمال ، بغض النظر عن الجانب الإنسانى الذى أفل مع شروق شمس ٢٣ يوليو .

وكان إبراهيم الطيب رجلا عاقلا واعيا تحمل مسئولية النظام الخاص عن منطقة القاهرة ، وكان أحد صمامات الأمن لمنع أى شغب واضطراب ، وكان يريد أن تجتاز الجماعة تلك المحنة دون خسائر كثيرة ، واعتمد فى هذا على حسن تنفيذ التعليمات التى كانت تأتى إليه من يوسف طلعت الذى يمثل المرشد العام للإخوان .

وقد اتهم الرجل بأنه الذى سلم المسدس الذى تغير مرتين ، والذى زعموا أنه استخدم فى محاولة اغتيال الزعيم . ولم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق ورغم كل مالقيه من تعذيب يفوق الوصف إلا أنه تحدث بشجاعة وبين أن هذا محض اختلاق وضلال .

ولعلنا لو ألقينا نظرة على أقواله أثناء شهادته فى قضية محمود عبد اللطيف لتبينت لنا أمور كثيرة تساعدنا فى تفهم هذه القضية ، وتؤكد أن الموضوع محض اختلاق وأنها خداع فى خداع ، ومن ألاعيب المخابرات العالمية والخبراء فى التآمر وعلاج المشكلات الشعبية المستعصية ، بالإضافة إلى علم صناعة الزعيم فى البلاد المتخلفة .

وقد شهد فى قضية محمود عبد اللطيف الذى لم يتكلم فى هذه المحاكمة إلا كلمات قليلة عدد كبير من الشهود ، وكانوا جميعا يتكلمون فى موضوع آخر غير موضوع محاولة اغتيال عبد الناصر فى المنشية ، لأنهم لم يكونوا يُسألون عن هذا الحادث ، وربما كان جميعهم لم ير محمود عبد اللطيف من قبل ولا يعرفه .
ولكن محكمة الشعب لم تكن منعقدة بغرض محاكمة محمود عبد اللطيف لمحاولته اغتيال عبد الناصر فى المنشية كما أعلن عن ذلك . ولكنها عقدت بسبب آخر ولغرض مختلف ليس هنا موضع تفصيله .

واستمعت المحكمة وناقشت شهودا كثيرين لاعلاقة لهم بحادث المنشية من قريب أو بعيد ، وهكذا شاعت ، وعلى هذا سار السيناريو .

وبعد خمس جلسات ، وفى الجلسة الخامسة على وجه التحديد التى انعقدت علنا فى الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والخمسين مساء السبت ١٣ نوفمبر سنة ١٩٥٤ م الموافق ١٧ ربيع الأول ١٣٧٤ هـ والمؤلفة وفقا للأمر الصادر بتاريخ أول نوفمبر سنة ١٩٥٤

والمشكلة برئاسة ....

وعضوية كل من .....

وبحضور البكباشى ....

والأستاذ .....

وتسجيل المحاكمات بالاختزال ....

قدمت القضية رقم (١) لسنة ١٩٥٤ (محكمة الشعب) المتهم فيها محمود عبد اللطيف محمد .

(حضر المتهم)

واستمعت المحكمة إلى شهادة صلاح الدين أبو الخير ، ومن شهادته نتأكد أن لاعلاقة له من قريب أو بعيد بموضوع المحاكمة ، وهو محاولة محمود عبد اللطيف اغتيال عبد الناصر فى المنشية .

وقد سألته المحكمة سؤالا صريحا :

– هل تعرف محمود عبد اللطيف ؟

وكانت إجابته :

– لا

ثم كان الشاهد اللى بعده على حد تعبير جمال سالم ، ونودى على الشاهد عبد العزيز أحمد حسن ، وكان هو الآخر لا صلة له بالموضوع من قريب أو بعيد ، واستدعى فى نفس الجلسة للشهادة السيد حسين أبو سالم مأمور ضرائب فى المنصورة ، وهو أحد شهود الإثبات ضد محمود عبد اللطيف وهو لا يعرفه هو الآخر وليست له به أية صلة تنظيمية ، و الغرض من شهادته أمر آخر غير موضوع القضية المنظورة .

وقد سألته المحكمة سؤالا :

– تعرف محمود عبد اللطيف ؟

وأجاب الشاهد :

– لا

وعاد القاضى المهرج :

– بص له يمكن تكون قابلته ؟

وينظر الشاهد إلى محمود عبد اللطيف بإمعان ويعود إلى المحكمة :

– لا

ولم يستطيعوا سماع شهادة إبراهيم الطيب فى الجلسة الخامسة ، وأجل سماعه إلى الغد فقد تأخر الليل ، ووراء القاضى مهام كثيرة فى هذا الليل ، ولايجب أن ينقضى دون أن يقضيها ، ورفعت الجلسة .

* * *

وانعقدت الجلسة السادسة يوم الاثنين ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٤ .

بنفس التشكيل ، وتخلف الأستاذ رمسيس عبد الشهيد من مصلحة الاستعلامات ، وجاء بدلا منه الأستاذ رمسيس حنا ، وهى نفس القضية ونفس المتهم وشهود الإثبات يتحدثون ويسألون فى مواضيع أخرى غير ماهو منسوب للمتهم ، ولايستطيع أحد أن يدفع بهذا .

وكان جمال سالم قد اتفق فى آخر الجلسة الخامسة على سماع بقية شهادة الأستاذ عبد العزيز أحمد ، ولكن فى الجلسة السادسة بدأت بشخص آخر هو محمد عبد المعز محمد عبد الله ، ولا صلة له بالقضية المطروحة ولكن له صلة بموضوع المحاكمة .

وجاءوا بشاهد آخر هو إسماعيل عارف رزق . وهو أيضا لا صلة له بالموضوع ومن بعده الشاهد حلمى عبد السلام ، شاهد الإثبات ضد محمود عبد اللطيف ، ولم يسأل عن الحادث من قريب أو بعيد ، وجميعهم لايعرفون محمود عبد اللطيف وجميعا كانوا يسألون :

– هل تعرف محمود عبد اللطيف ؟

وتكون الإجابة دائما :

– لا .

* * *

ثم جاء إبراهيم الطيب .

حضر الشاهد .

مثل الادعاء البكباشى إبراهيم سامى جاد الحق والأستاذ عبد الرحمن صالح واشرأبت القاعة وهى ترى ذلك الشاب الممشوق الذى هدَّه التعذيب ولكنه لايزال يرفع رأسه عاليا . واجتاز الممر فى شجاعة ، ووقف أمام ذلك القاضى الشامت الجبان .

جمال سالم : اسمك إيه ؟

إبراهيم الطيب : إبراهيم الطيب .

جمال سالم : بتشتغل إيه ؟

إبراهيم الطيب : محام .

جمال سالم : عمرك كام سنة ؟

إبراهيم الطيب : ٣٢ سنة

جمال سالم : ده مصحف مش كده ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .

جمال سالم : قل والله العظيم أقول الحق ولا شىء غير الحق والله على ماأقول شهيد

(أقسم الشاهد اليمين)

ووقف إبراهيم الطيب بثبات وتحد أمام جمال سالم ، الذى تفرس فيه قليلا .

وكان جمال سالم وقحاً يعرف الجميع فيه هذه الصفة ، متبجحاً ليس بصاحب دين ولا خلق ، قد تجرد من الشهامة والمروءة ، ومات فى داخله الضمير .

ولكنه لم يتمالك نفسه لثبات إبراهيم الطيب ، وأراد أن يعطى نفسه فرصة ليجمع وقاحته وعدم مروءته ثم يناقشه ويسأله ، فالتفت إلى المدعى وقال :

جمال سالم : المدعى .

ولم يتوقع المدعى هو الآخر أن يبدأ استجواب الشاهد الشجاع فارتبك قليلا ، وصار يقلب فى أوراق أمامه ، ثم وجه لإبراهيم الطيب سؤال :

وكيل النائب العام : إنت عضو فى جماعة الإخوان ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .

وكيل النائب العام : من إمتى ؟

إبراهيم الطيب : من سنة ١٩٤٥ م

ولم يستجمع وكيل النائب العام نفسه بعد فى مواجهة هذا الشاهد القوى الذى يقف أمامهم ، ورغم كونه شاهدا إلا أنهم يعاملونه معاملة المتهم .

ومن ثم فقد سأله سؤالا آخر لا معنى له سوى اكتساب الوقت لاستيعابه .

وكيل النائب العام : وظللت عضوا فيها حتى الآن ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .

وكيل النائب العام : قل لنا مركزك فى جماعة الإخوان فى السنوات الأخيرة .

إبراهيم الطيب : فى السنوات الأخيرة كنت متصلا بالقسم القانونى بالمركز العام ، وبعدين عهد إلى بالإشراف على الجهاز الخاص فى القاهرة من ناحية التنظيم والتكوين .

وكيل النائب العام : متى عينت رئيسا للقسم الخاص فى القاهرة ؟

(وقال وكيل النائب العام القسم الخاص وصحته النظام الخاص)

إبراهيم الطيب فى حوالى فبراير سنة ١٩٥٤ .

وكيل النائب العام : هل كانت الرياسة المطلقة لك ؟

إبراهيم الطيب : لا .. كان هناك مجلس عال وقيادات أخرى ..

وكيل النائب العام : اشرح للمحكمة وفصل .

وكان الوضع فى المحكمة غريبا بعض الشيء ، فالشاهد يقف فى مواجهة القاضى ، وعن يمينه القفص ، وعن يساره منصة الادعاء . وعليه أن يسمع السؤال ثم يوجه الإجابة إلى رئيس المحكمة ، وليس مسموحا له أن يلتفت ناحية الادعاء ، أما المحاكم

الطبيعية العادية فالشاهد يوجه إجابته ناحية المحكمة ، وإن التفت شارحا ناحية الادعاء أو ناحية الدفاع فليس عليه من بأس ، ولكن فى محكمة الشعب ممنوع .

وقال إبراهيم الطيب :

– المجلس كان يختص بمسائل عامة فى التنظيم ، ويتكون من أفراد منهم الشيخ فرغلى والدكتور خميس حميدة ويوسف طلعت والأستاذ صلاح شادى ..

وكيل النائب العام : وبس ؟

إبراهيم الطيب : علمت أن الأستاذ عبد المنعم عبد الرءوف كان عن قسم الجيش .

وكيل النائب العام : والمجلس الأعلى كان له رئيس أولا ؟ ، وإذا كان له رئيس .. يبقى رئيسه مين ؟

إبراهيم الطيب : الرئيس الأعلى لاشك يكون المرشد .

وكيل النائب العام : أنت تخضع مباشرة للمجلس الأعلى ؟ أو أن لك رئيسا تتلقى منه أوامر المجلس أو أوامر المرشد ؟

إبراهيم الطيب : رئيسى المباشر هو يوسف طلعت عن القسم المدنى .

وبدا على وكيل النائب العام أنه لايعرف بالضبط كيف يوجه الأسئلة للشاهد الماثل أمامه على النحو الذى يريده جمال سالم ، وليس كما تعود فى عمله قبل الثورة المباركة ، فهو يستجوب الشاهد حسب خطة فى رأس مجنون ، وهو يخشى الخطأ فيطيح هذا المجنون برأسه ، فقد كانت قصص جنونه وتهوره تملأ أسماع الناس فى مصر آنذاك . وقالوا إنه ضرب سيد مرعى بالشلوت والله أعلم .

وقد فهم المدعى أن عليه أن يسأل الشاهد فى كل شيء إلا موضوع القضية الماثلة أمامهم ، بمعنى أن عليه أن يسأله كيفما أراد بعيدا عن موضوع الواقعة .

وقد ذكرنى هذا بأحد نواب مجلس الشعب من الجهلة الذين نص الدستور على ضرورة وجودهم تحت قبة البرلمان للتشريع ، وكان قد نجح مستقلا عن إحدى الدوائر ، وحدثت إعادة بينه وبين مرشح الحزب الوطنى الحاكم ، ووضح فى الأفق أنه سوف ينجح فى هذه الإعادة ، واستدعاه النبوى إسماعيل – وكان أيامها وزير الداخلية – وقال له اكتب تعهداً بأنك سوف تنضم إلى الحزب الوطنى وإلا فلن نسمح لك بالنجاح ، أنت تعرف إن عندنا كمبيوتر ونستطيع أن ننجح من نشاء وأن نسقط من نشاء ، وأعطاه مبلغا من المال ، وصار عضوا فى البرلمان . وقال لى :

جمعونا مرة وأخبرونا أننا أحرار فى الحديث فى أى شىء ماعدا السياسة .
إى والله هذا حدث !
وقال وكيل النائب العام :

– أنت فى منطقة القاهرة .. ودى منطقة كبيرة .. طبعا قسمتها إلى مناطق .. يتبعك فيها كام قسم ؟
ورد عليه إبراهيم الطيب فى ثقة :
– ١٠ أقسام .

وكان وكيل النائب العام يبدو متلعثما من استجواب هذا الشاهد ، وكأن فى داخله تخوفا من أن يفضح كل شىء وأن يظهر أمام الناس والصحفيين رداءة النص ومن ثم يمكن أن يقول شيئا غير مطلوب فى هذا المكان ، ولكن سرعان ماتذكر السجن الحربى وأنه يعذب كل ساعة تعذيبا وحشيا فاطمأن قليلا ، ولكن قلقه قد عاوده من جديد فالشاهد يتكلم بثقة تبعث على الخوف ، وتساءل وكيل النائب العام فى نفسه : ترى هل هناك ضرورة لجلب فرقة للتعذيب هنا فى المحكمة ؟ وتذكر أن هذه الفرقة موجودة بالفعل فى الغرف المجاورة ، وتساءل مرة أخرى : هل نضطر لاستخدامهم داخل القاعة ؟ وطرد هذا الهاجس من نفسه ، ودعا الله فى أعماقه أن تمر هذه المشكلة على خير ، فيشنق من يشنق ويسجن من يسجن ، وينجح فى أداء مهمته ويرقى .

وعاد يسأل مضطربا ، وبهذا شهد من كان فى القاعة :
– هذه الأقسام ... هل نظمت فيها الجهاز الخاص فى المناطق العشرة ؟
وكان إبراهيم الطيب ينظر فى عينى جمال سالم وهو يجيب على السؤال :
– كل هذه الأقسام منظم فيها الجهاز .
وزاد اضطراب وكيل النائب العام وهو يقول لإبراهيم الطيب :
– اشرح للمحكمة كل مايتعلق بالجهاز من ناحية الأقسام والعدد وطرق التموين والتجهيز والتسليح .

وكان إبراهيم الطيب يتحدث ببساطة وشجاعة ، وكانت آثار التعذيب واضحة عليه ويراها المحامون والصحفيون وكل النظارة الأوغاد وقال :

– أيوه .. رئيس المنطقة ويتبعه عدد من نواب الشعب .. وكل منطقة لها رئيس يبقوا عشرة .. يجتمعوا مع بعض .. ولهم ضابط اتصال بينهم وبين القاهرة .. وكل قائد منطقة له قائد فصيلة معه هو المختص بالمسائل الفنية أو العسكرية .. أما قائد المنطقة فيختص بالشئون الإدارية .

وكيل النائب العام بم تتكون الفصيلة ؟

إبراهيم الطيب : الفصيلة تتكون من أربع مجموعات كل مجموعة سبعة ، وقائد الفصيلة وقائد ثان أو وكيل له .. وفيه ضباط اتصال خاصين بالشئون الفنية ويتبعوا يوسف طلعت ، وضباط الاتصال الإداريين منهم محمد عبد المعز والأستاذ حسين شعبان .. أما ضباط الاتصال الفنيين فمنهم إسماعيل عارف ومهدى عاكف .. ودول يتبعوا يوسف طلعت لأنه مختص بالمسائل الفنية .

وكيل النائب العام : والتسليح ؟

إبراهيم الطيب : كان معهودا به لأشخاص متخصصين فى الناحية الفنية زى سيد الريس وفؤاد مكاوى .

وكيل النائب العام : تسليح الفصيلة إزاى ؟

إبراهيم الطيب : ما اعرفش لأن دى تفاصيل فنية متعلقة بالجهاز الفنى .

وهنا كان رئيس المحكمة قد استجمع نفسه ونظر إلى الشاهد ووجد أنه يمكن أن يتدخل فقال :

جمال سالم : من أين يستورد ؟

ورد عليه إبراهيم الطيب بثبات كعادته :

إبراهيم الطيب : ماعرفش ده مش من اختصاص القسم الفنى ، وأنا اختصاصى أنسب الأفراد لأنسب الجماعات .

وتشجع النائب العام لتدخل رئيس المحكمة وارتفع صوته وهو يسأل :

وكيل النائب العام : إيه اللى بتراعوه فى الاختيار ؟

إبراهيم الطيب : يراعى كثير من الاعتبارات الروحية والثقافية والبدنية وإلى جانب ذلك .. التدريب .

وكيل النائب العام : بتقول إن مسائل السلاح مختص بيها ناس تانيين وماتدخلش فيها .
إبراهيم الطيب : كل تدخل لى فى هذه الناحية كان بتكليف من يوسف طلعت لأكلف سيد الريس بجرد المخازن .
وكيل النائب العام : ماقدمش لك كشف بنتيجة الجرد ؟ .
إبراهيم الطيب : لأ .. ده من اختصاص يوسف طلعت .
وكيل النائب العام : لماذا كلفك أنت بأن تقول لسيد الريس إن يوسف طلعت يأمره بكذا ؟
إبراهيم الطيب : علشان أوصل سيد الريس بالإخوان فى المناطق .
وكان وكيل النائب العام يخشى الانزلاق فى الأسئلة فاستمر على هذا المنوال يناقش نقاطا ضعيفة وتافهة ولا دخل لها بالموضوع فقال :
وكيل النائب العام : المنطق يقول إنك اللى كلفته فمن المعقول أن يخبرك بالنتيجة ..
وهنا التفت إبراهيم الطيب ناحية وكيل النائب العام ولم يرد عليه ، وعاد يوجهه ناحية جمال سالم الذى بدا عليه الغيظ من غباء وكيل النائب العام ، وقال جمال سالم وهو لايستطيع إخفاء غيظه :
– مش شرط .. الشاهد بيقول إنه مسئول عن الجهاز الإدارى .. فالقسم الإدارى مهمته أن يصل الراجل الفنى بالمسئولين .. والنتيجة فنية مالوش دعوة بيها .
ثم حدجه بنظرة قاسية، بينما علق إبراهيم الطيب على هذا قائلا :
– أيوه ..
واضطرب وكيل النائب العام ، وعاد يقلب فى الأوراق أمامه ثم سأل :
وكيل النائب العام : كان هناك تدبير لإحداث حركة مسلحة ؟
واعتدل جمال سالم ليلقن هذا الحمار الذى ملأه غيظا درسا وقال :
جمال سالم : قبل كده فيه حاجة .. ماهو الغرض من إنشاء الجهاز السرى ؟
وجه هذا السؤال إلى إبراهيم الطيب ، وعاد ينظر لائما ساخرا ناحية وكيل النائب العام الذى لايفهم وظيفته .
وكان الضباط – ولايزالون – يظنون أنهم يفهمون فى كل شىء ، ويبدو أنهم كذلك يفهمون فى كل شىء عدا مهنتهم .
وقال إبراهيم الطيب : الغرض هو بعض المسائل الداخلية والخارجية .. وحماية الدعوة

الإسلامية فى الداخل والخارج .. فى الداخل باعتبار أن التدريب فرض عين على كل مسلم ... أما الناحية الخارجية فلأن بلاد المسلمين منكوبة بحكم المستعمر فى الشرق والغرب .. والإخوان يستعدون لتقديم الجنود إذا ما حصل أى حاجة .. فيقدمون رجالا مدربين مجهزين لتونس والجزائر أو فى مصر أو فى أى بلد آخر .

وانبهر كل من بالقاعة بذلك الشاب الصغير السن الذى يتكلم بهذه الثقة والشجاعة ويعرض مفاهيم جديدة على النظارة الجبناء دون خوف .

وتعلقت أنظارهم بالمايسترو جمال سالم ليروا ماذا يقول وكيف يرد على هذا الشاب الجرىء .. الشديد الجرأة رغم مابه من آثار تعذيب واضحة

وقال جمال سالم موجهاسؤاله لإبراهيم الطيب :

جمـــال ســـالـم : اشرح لنا الوضع إزاى يكون فى مصر .. كيف يؤدى النظام الغرض من تكوينه فى مصر ؟

إبراهيم الطيب : فيما يتعلق بمصر لاشك أنه إلى قبل الاتفاقية كان موجود فيه جنود احتلال .. قبل الحركة وبعد الحركة .. كانوا متحكمين فى أرزاق المصريين وفى جزء من بلادهم ..

وخاف جمال سالم من هذا الاستطراد – رغم عدم جدواه – على الخنازير التى حضرت ، كما خشى أن ينتقل كلامه إلى الشعب عبر الراديو والصحف ، ومن ثم فقد قاطعه قائلا :

جمال سـالم : مافيش داعى نشرح الكلام ده .. لأننا فاهمينه باعتبارنا مواطنين .. ماهو الداعى لسرية الجهاز مادامت الحكومة القائمة على البلاد تقاوم الإنجليز ؟

ونسى القاضى الكذاب أنهم ينسقون قبل الثورة وبعدها مع الإخوان فى مقاومة الإنجليز واشترك حسن التهامى وصلاح هدايت وكمال رفعت مع صلاح شادى فى موضوع تفجير سفينة – بواسطة لغم بحرى – فى قناة السويس كنوع من تنبيه العالم إلى قضية الاحتلال الانجليزى لمصر وأثره الضار على سير التجارة فى العالم ، وأنه لولا هذا النظام والإخوان لما قامت الثورة .. وقيل إن جمال عبد الناصر قد طلب من صلاح شادى أو من غيره أن يرسل له واحدا من الإخوان « ميت القلب » على حسب تعبير عبد الناصر ليقوم بمهمة خطيرة ضد الإنجليز ، وأرسل إليه محمود عبد اللطيف ، وقيل إن عبد الناصر كان يعرفه من أيام حرب فلسطين ، فقد كان

محمود عبد اللطيف من البارزين فى حرب العصابات هناك ، وقد أسر .

وعرض عليه عبد الناصر أن يعملوا على إلحاقه بالعمل فى « ميس » الضباط الإنجليز وأن يضع السم لكبار الضباط فى الطعام ، ورفض محمود عبد اللطيف لأن هذه الطريقة من وجهة نظره ليست من الإسلام . وأن المسلم يقاتل فيقتل أو يغلب ، أما الغدر والاغتيال فليس من شيم المسلمين .

وقال إبراهيم الطيب :

– لم يكن بالسرية المفهومة .. بدليل أن جميع المناطق فى القاهرة والأقاليم كان موجودا فيها .. والجميع يعلمون عنه ولم تكن له صفة السرية .

جمـــال ســـالم : انت مش مسميه النظام ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .. النظام بس .. ولكن لم نقل النظام السرى .

جمـــال ســـالم : أنت أقريت إن النظام مسلح ومنقسم إلى جماعات وفصائل ، وله ضباط اتصال ، وله تسليح وتدريب وبه فنيين للكشف على الأسلحة .. وبه قسم مدنى على رأسه يوسف طلعت .. فهل هناك مايستدعى وجود أسلحة .. أنت تعلم أن به أسلحة .. وقمت بتوصيل سيد الريس لجرد مخازن المناطق والكشف على الأسلحة .. وانت ماتعرفش نتيجة الكشف .. جهاز منظم فيه أسلحة وأنت محامى .. فهل قوانين البلاد تسمح بحمل السلاح ؟

إبراهيم الطيب : لاتسمح .

جمـــال ســـالم : كيف توجد مخازن أسلحة وتنظيم مسلح داخل البلاد بدون علم الحكومة ؟

هكذا قال جمـــال سالم ..

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه » ..

كانت هذه الأسلحة يسرقونها من الجيش ويعطونها إلى الإخوان ..

وكانوا يأخذون النقود من الإخوان ليشتروا الأسلحة .. ومن ضمن المشكلات التى كانت بين الإخوان وجمال عبد الناصر أثناء فترة الوفود التى تروح وتجىء بينهم اشتكى عبد الناصر للوفد ، وقال إن فلان يشيع عنى أننى أخذت ألفين وأربعمائة جنيه ثمن أسلحة قبل الثورة ولما قامت الثورة لم أسلم الأسلحة أو النقود .. وهذا غير صحيح ، فقد سلمت بعض هذه الأسلحة قبل الثورة ودفعنا جزءا من الثمن

لأمناء المخازن فى الجيش كالعادة .. والمبلغ الذى تبقى قد تم تسليمه إلى الأخ فلان .. وحكاية الأسلحة التى كانت فى بيت جمال عبد الناصر وغيره من الضباط يوم حريق القاهرة وكيف استنجد بمنير دله وصلاح شادى وحسن عشماوى لنقلها إلى عزبة الأخير خوفا من التفتيش ، وقام هو بإعداد المخزن بنفسه ــ حكاية معروفة ، ثم يأتى ويقول كشف مخازن سلاح عند الإخوان ، صحيح اللى اختشوا ماتوا !

وأجاب إبراهيم الطيب وفى صوته سخرية خفيفة :

ــ لاشك أنه فيما يتعلق بالسلاح فوضعه معارض للقانون .

جمـــال ســـالم : وهل ده يبقى سرى ولاعلنى ؟

إبراهيم الطيب : التشكيل علنى والسلاح سرى .

جمـــال ســـالم : لماذا كونت هذا النظام من قائد الفصيلة وقائد ثان للفصيلة ، فرئاسة للمنطقة ، فرئاسة للقاهرة بمجلس أعلى .. ومالداعى إلى تكوين الجماعة من سبعة لابد أنه لهذا ارتباط بالتكوين والتسليح ؟

إبراهيم الطيب : أنا مهمتى كانت فيما يتعلق بالتكوين والتنظيم ماليش علاقة بالتسليح .

واعتدل جمال سالم وبدأ ينتعش ، وشرع فى السخرية من الشاهد :

ــ إذا طلبت منك إنك تجيب لى واحد اكريه للقتل ماهى مسئوليتك ؟

إبراهيم الطيب : لأأوافق .

جمـــال ســـالم : وإذا وافقت ؟

إبراهيم الطيب : غلط .

جمـــال ســـالم : ماهى مسئوليتك فى القانون ؟

إبراهيم الطيب : يعتبر فاعل أصلى ..

ونظر جمال سالم إليه ورفع صوته عاليا :

ــ كيف تسمح لنفسك إذن بتنظيم نظام وتسليح بواسطة غيرك وأنت رجل تزاول مهنة المحاماة فى البلاد ؟

ورد إبراهيم الطيب بصوت أشد صلابة من نغمته السابقة وقال :

ــ الذى فهمته أن النظام قد يُسْتفاد به فى سائر الأقطار العربية والإسلامية الأخرى .. ولاشك أن البلاد محتاجة لرجال مسلحين مدربين .

ونظر إليه جمـــال ســـالم بنظرة ثعبانية وقال بنعومة :

– قلنا إن التنظيم ينافى قوانين البلاد .

ورد عليه إبراهيم الطيب بشجاعة واستهانة :

– أنا مهمتى التشكيل بس لأكثر ..

وبمزيد من النعومة قال جمـــال ســالم :

– انتهينا إلى أنك بهذا تعتبر فاعلا ..

إبراهيم الطيب : أيوه ..

وارتفع صوت جمـــال ســالم كأنه يستجلب التصفيق :

– وقارنا بين هذا وبين حكاية الراجل اللى اكريه .. وقلت إنك تبقى فاعل لأنك قمت بعمل تنظيمى مرتبط بعمل تسليح غير مسموح به فى القوانين الموجودة فى الدولة وأنت محام ومهنتك متصلة بالقوانين ..

إبراهيم الطيب : صح .

وابتسم جمـــال ســالم منتصرا وقال :

– قول لنا بقى الغرض الشرعى .

وابتسم إبراهيم الطيب واثقا وقال :

– لم أفهم أنه لغرض غير شرعى .

وانبهر الموجودون بهذه الثقة والشجاعة والثبات ، وهم يرون شابا قد بدت عليه آثار الإرهاق الشديد ، وعلامات التعذيب تملأ وجهه ، وبادية فى أجزاء من جسده ، وقد قدم لأداء شهادة ، فالمفروض أنه شاهد إثبات ضد محمود عبد اللطيف ، ورغم هذا يناقش كمتهم مع عدم توافر أية ضمانة آدمية له .

وقد أذيع كل هذا فى الراديو وكتب فى الصحف ، ثم جمعوه فى كتاب وزعوه وسحبوه بعد حين . والناس فى بلادى نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

وقال جمـــال ســالم له بنبرة من يشكك الناس فى أن كلام إبراهيم الطيب متناقض :

– قلت إن الغرض هو حماية الدعوة فى مصر وغير مصر .

إبراهيم الطيب : أيوه .

جمـــال ســالم : قول لنا حماية الدعوة فى مصر يكون إزاى ؟

ولعل جمال سالم قد لمح النظرة الساخرة التى لمعت فى عينى إبراهيم الطيب ، فقد كان يقف أمامه مباشرة وقال له :

– فيه جنود احتلال .

وهاج جمال سالم وماج وكأنه وجدها فرصة ، فهو يتكلم أمام شعب ضعيف الذاكرة ، ينسى الأشياء القريبة جدا ، وربما يتذكر أشياء بعيدة .

وقال جمال سالم هائجا :

– جنود الاحتلال الحكومة تحاربهم علانية ، وفيه جيش بتصرف عليه الحكومة ملايين .. وعنده طيارات ومدافع ٦ بوصة ودبابات .. فهل التنظيم بتاعك قوته كقوة الجيش ؟ .. إذا كنت مخلصا حقيقة وعاوز تساهم .. ساهم بنفسك وباب التطوع مفتوح فى القوات المسلحة .

هكذا تكلم جمـــال ســـالم !!

ونسى أنه فى حكومة قد جاءت نتيجة إنقلاب عسكرى ، وليست لديها أية شرعية تحت كافة القوانين والأعراف المعمول بها فى العالم أجمع .. ونسى أن هذا الذى يقف أمامه شاهدا أو متهما أو الاثنين معا كان أحد الذين ساعدوه ليجلس على كرسى الحكم أملا فيهم .. فجلس ليحاكمهم .. ونسى أنهم – الضباط – كانوا حتى الأمس القريب جدا بعد الانقلاب يتعاونون مع الإخوان من أجل إقلاق الإنجليز فى القناة .

نسى أو تجاهل كل هذه الأمور .. تجاهل أنهم اختطفوا الحكم اختطافاً .. وكل المبادىء التى أعلنوها عملوا على تحطيمها والقضاء عليها .

إقامة حياة ديمقراطية سليمة !

عجبى !!

لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث يضرب الكبراء والوزراء وعامة الناس ضربا جماعيا دون أى اعتبار لأى شيء .. ودون خوف من ذيوع هذا فى كافة أنحاء العالم .

صار جمـــال ســـالم يتكلم وقد ظن أن وضعه قد صار شرعيا .. وأنه حاكم حقيقى لمصر .. قد انتخبه الناس .. ولو بالتزوير .. تلك الأداة التى فاقوا بها كل من سبقهم ..

ورحم الله يحيى إبراهيم باشا الذى لم يزور الانتخابات فى تاريخ مصر الحديث ، وفقد دائرته أمام منافسه وهو رئيس الحكومة آنذاك .. أيام زمان !! ورحم الله الإنجليز الذين سمحوا لعرابى أن يأتى بمحامين من فرنسا للدفاع عنه .. وكذلك كرومر وكافة الطغاة الذين كنا نلعنهم ونحن صغار ، فلما كبرنا وجدنا من هم أكثر منهم ضراوة ووحشية .

جيل من الحكام اعتمد على « النهش » ، سياسة « كلبية » ليس للعدل والرحمة والحرية فيها نصيب .

(الحرية كل الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب)

هذا هو الشعار الذى ألقوه علينا بعد حين ..

واختلف المفكرون فى تفسير كلمة الشعب .. وذهبوا فى تفسيرها مناهج شتى . ثم انتهوا إلى أنها كانت تعنى « الملهم » ومن معه ، فهم الشعب وهم الوطن ومن خلال أشخاصهم تتحدد المفاهيم ، وهم الذين يقولون من الوطنى ومن الخائن ، ومن خلال رضاهم وسخطهم عن الناس يتميزون فيرتفعون أو ينخفضون .

واستمع إبراهيم الطيب إلى خطبة جمـــال ســالم ..

وكذلك استمع إليها من فى القاعة ، وتلقاها الناس بخوف ، أما إبراهيم الطيب فقد اخترق حاجز الخوف ، ولم يعد يشغل فكره بهذه الألاعيب والشعارات الجوفاء ولكن كان عليه أن يستمر معه فى ذلك الحوار السقيم لإثبات مالا يفهمه أحد ، وهو الذى قد جاء ليدلى بشهادة ، وهو هو يناقش مناقشة المتهمين .

وقال إبراهيم الطيب بهدوء :

– ده صح .. وفيما يتعلق بهذا التشكيل لم يكن يقصد به أى وضع غير شرعى .

وفى إصرار وحماقة قال جمـــال ســالم مخاطبا إبراهيم الطيب :

جمـــال ســالم : بين لى النقطة اللى باسألك عليها .. الدفاع عن الدعوة بتقول بمقاومة الإنجليز .. ومقاومة الإنجليز ليه ماتكونش علنية .. فيه قوات مسلحة موجودة فى البلاد مهمتها هذه المقاومة .. فماالذى يدعوك لكى تقيم قوات مسلحة بشكل صغير لتقاوم الإنجليز ؟ ولاتطرق باب التطوع فى القوات المسلحة الكبيرة وهو مفتوح ؟

إبراهيم الطيب : فيما يتعلق بالتطوع الإخوان اشتركوا فى التطوع وتقدموا لسائر منظمات الحرس الوطنى ..

جمـــال ســالم : إذن ما الداعى إلى إقامة النظام والإبقاء عليه بعد وجود الحرس الوطنى ؟

إبراهيم الطيب : علمنا أن الحكومة كانت تشجع التسليح للمقاومة فى القنال .

جمـــال ســالم : علمت من مين ؟

إبراهيم الطيب : علمت من يوسف طلعت .
جمـــال ســالم : ألم تعلم بما طلبته الحكومة من المرشد فى مايو ؟
إبراهيم الطيب : معرفش .
وزمجر جمـــال ســالم وانطلق صوته عاليا يهزأ من الشاهد وقال :
جمـــال ســالم : إيه اللى ماتعرفوش ؟ . هو أنا لسه قلت حاجة علشان تقول معرفش ؟
إبراهيم الطيب : معرفش الحكومة قالت للمرشد إيه ..
وبمزيد من المغالطة والصفاقة قال جمال سالم :
جمـــال ســالم : إذا كان أنا لسه مذكرتش الواقعة منين بتقول إنك متعرفهاش ؟
وفى هدوء وبساطة قال إبراهيم الطيب :
– أنا أقول إننى لاأعلم أن الحكومة طلبت فى مايو من المرشد شيئاً .
جمـــال ســالم : ألم يقل لك يوسف طلعت إن الحكومة فى مايو سنة ١٩٥٣ طلبت من المرشد العام ثلاث مسائل ؟
إبراهيم الطيب : لا .. إيه همه ؟
وتكلم جمـــال ســالم كأنما يخاطب الرأى العام كله وليس لمناقشة الشاهد :
– طلبت الحكومة من المرشد ثلاث مسائل .. الأولى عدم التدخل فى القوات المسلحة بضم أفراد منها إلى جماعة الإخوان المسلمين فى تشكيلات حتى لا تتكون فى داخل القوات المسلحة قوتان يكون المصير النهائى بتاعها حرب أهلية بين أفراد القوات المسلحة .
المسألة الثانية : نفس الطلب بالنسبة لقوات الأمن .
ثالثا : حل الجهاز وتسليم جميع الأسلحة بتاعته لسبب .. ماهو السبب ؟ السبب هو إن السرية معناها أن هناك سياسة أخرى غير العلانية تبطنها الجماعة .. فإذا كان عندكم سياسة تانية غير العلنية قول لنا إيه هى لأنه مافيش سرية فى الدين ولا الدعوة .
إبراهيم الطيب : لم أبلغ بهذا .
جمـــال ســالم : أمال بلغت بإيه ؟
إبراهيم الطيب : يوسف طلعت قال إن الحكومة تشجع الفدائيين فى القنال .
جمـــال ســالم : ناقشته فى كلامه ؟
إبراهيم الطيب : لا .

جمـال سـالم : لم لم تناقشه ؟
إبراهيم الطيب : قال لى معلومات أكيدة .
جمـال سـالم : إيه وجه التأكيد فيها ؟ .. أقسم ؟
إبراهيم الطيب : ذكر لى وقائع متأكد منها ..
جمـال سـالم : ماهى الوقائع دى ؟
إبراهيم الطيب : هو قال إن الحكومة الحاضرة يسرت للفدائيين الحصول على الأسلحة لمهاجمة الإنجليز .. حتى يشعروا بحق أنهم فى وطن لا يستطيع أهله أن يصبروا على وجود متطفلين فيه أو مستعمرين له .

جمـال سـالم : عظيم .. وإذا كانت الحكومة بتجيب متطوعين سرا وتعد لهم الخطط وتمدهم بالأسلحة .. فما هو الداعى لوجود الجهاز السرى و وماذا يعمل فى القاهرة ؟

قال هذا جمال سالم وهو يكابر ويكذب على الناس !

والقاضى الكاذب أكثر شرا من القاضى الظالم ، وكان الاثنين معا .

كانت الحكومة تنسق مع الإخوان بعد الانقلاب مباشرة لإقلاق الإنجليز تمهيدا لمفاوضات الجلاء .. لم تكن توجد فى مصر جهة شعبية يمكنها القيام بهذا الأمر غير الإخوان ، وضباط الحركة الذين كانوا أعضاء فيها يعلمون ذلك .

والجهاز السرى كما سماه جمال سالم هو الذى حقق الحماية الداخلية لمصر أثناء عملية الانقلاب العسكرى .

وتأخرت الثورة يوما حتى يوافق المرشد العام .

وسألت واحداً ممن كانت له صلة أيامها بالمرشد العام ، ومن الذين كانوا يعرفون هذا السر عن سبب تأخر موافقة المرشد يوما فقال لى :

ـ كان يدرس الخطط ؟

ـ أية خطط ؟ هل هى خطط تحركات الجيش للتحكم فى القاهرة ؟ الاستيلاء على مبنى قيادة الجيش والإذاعة مثلا ؟

وقال لى محدثى :

ـ لا .. كان يدرس ماهو مطلوب من الإخوان لحماية المنشآت العامة والسفارات والوقوف فى طريق السويس لعرقلة تقدم الإنجليز فى حالة حدوث ذلك . وكان يستفسر من الإخوان عن الإمكانات المتاحة ، ومدى احتمالات النجاح .

ولما تأكد من وجود كل هذا وافق .. وأيقن أن الجيش سوف يخرج لأهداف محددة وفق خطة هو يعرفها تاركا وراءه جبهة عارية من الدفاع وعلى الإخوان أن يقوموا بهذا الواجب .. ومن المناقشات والمعلومات التى قدمت عرف أن هذا فى استطاعتهم .

فرئيس المحكمة الموقرة – محكمة الشعب – يتحدث عن أشياء يعلمها جيداً

وقال إبراهيم الطيب ردا على كلام جمـــال ســـالم :

– علمت أن فيه اجتماع حضره الصاغ كمال الدين حسين وآخرون من ضباط الجيش ، واجتمعوا والإخوان .. وأنهم تداولوا فى كيفية الاستعداد لمقاومة الإنجليز والتسليح والتدريب .

وهذا الكلام صحيح ، وقد حضر هذا الاجتماع عدد آخر ، وكانت هذه هى الخطة التى سوف يواجهون بها الإنجليز ، وقد ذكر ذلك كمال الدين حسين وآخرون فيما بعد .

ولم يكن أمام الضباط غير هذا .

ورغم ذلك قال جمـــال ســـالم للشاهد الذى يناقش مناقشة المتهمين :

جمـــال ســـالم : يوسف طلعت ذكر لك الكلام ده ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .

جمـــال ســـالم : ماهو الدليل على صحة كلامه ؟

وفى هدوء وسكينة بدأ إبراهيم الطيب يشرح :

إبراهيم الطيب : نفس كلامه والوقائع التى ذكرها ....

وقاطعه جمال سالم بسرعة :

جمـــال ســـالم : لماذا لم تعبىء العشر فصائل للكفاح ؟

إبراهيم الطيب : حصل .

جمـــال ســـالم : حصل إيه ؟

إبراهيم الطيب : الصاغ كمال الدين حسين على وجه الدقة قال ...

وانفجر جمال سالم مقاطعا :

جمـــال ســـالم : بعلمك أو بسمعك؟وإذا كان سمعت تقول مين اللى قال لك .

وفى هدوء لم يؤثر عليه هياج رئيس المحكمة قال إبراهيم الطيب :

– ذكر لى الدكتور حسين كمال الدين وكان رئيس مكتب إدارى القاهرة

أن بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وبعض ضباط الجيش طلبوا من الإخوان أن يجهزوا بعض الإخوان لإقلاق راحة الإنجليز فى القنال .. وفعلا أعدت بعض هذه القوات وكانت على وشك الرحيل ومعرفش السر فى عدم ذهابها .
وقبل أن يستمر فى سرد مادار نتذكر واقعة !
تلك التى قالت إن جمال عبد الناصر قد طلب أن يقدم له رجل جرىء من الإخوان ليذهب إلى القنال ، ويلتحق بالجيش الإنجليزى بعد تيسير ذلك له ، ويضع السم لكبار الضباط الإنجليز وكان ذلك الشخص محمود عبد اللطيف الذى اعتذر وقال إن القتل بهذه الطريقة لايناسبه وأنه يفضل المواجهة .
وكانت القاعة فى المناقشات الهامة التى تضيف معلومات جديدة تزداد انتباها وقال جمال سالم :
– جميل .. إذا كانت الحكومة بتجيب السلاح علشان تقلقوا الإنجليز فى القنال فما هو الداعى إلى أن تجندوا الإخوان وتسلحوهم فى السر ؟ .
ابراهيم الطيب : ما كانش فيه سر احنا كنا بنعمل على المكشوف ..
جمال سالم : والسلاح ؟
ابراهيم الطيب : لاأعرف عنه شيئا .
والتفت جمال سالم ناحية الذى يكتب بالاختزال ، وقال له فى صوت جهير :
– طيب السكرتير المختزل يبقى يقرأ له أقواله فى الحتة دى الخاصة بالأسلحة .
وأسرع السكرتير ينفذ ما طلبه منه جمال سالم ، بينما وجه الأخير كلامه لإبراهيم الطيب ، ريثما حتى يأتى السكرتير بما طلب وسأل :
– من هم رؤساء الفصائل ؟
ابراهيم الطيب : الأستاذ عبد العزيز أحمد وكمال السنانيرى والفيومى وهنداوى دوير ومحمد شديد ومحمد عبد اللطيف وسيد أبو سالم ..
وهنا طلب الأستاذ ممدوح توفيق مندوب مصلحة الاستعلامات والذى يقوم بالاختزال بمحكمة الشعب أن يتكلم رافعا يده فأذن له جمال سالم فقال :
– لقد قال مايأتى عندما سئل عن الأسلحة وكونها مخالفة للقوانين :
« إن التشكيل كان علنى ولكن الأسلحة سرى . »
والتفت جمال سالم إلى إبراهيم الطيب :
– اتكلم .

وكل هذا الجو الإرهابى المشحون لم يؤثر فى نفسية إبراهيم الطيب الذى بدا هادئا مطمئنا يتكلم فى ثقة ، فقد ترك وراءه فى السجن الحربى الفزع الأكبر والهول الأعظم ، ورغم ذلك لم يؤثر فيه ذلك رغم إصاباته الشديدة .

ويقول من حضر المحكمة إن محمود عبد اللطيف المتهم بمحاولة اغتيال الزعيم كان ينصت وينظر بإعجاب لايستطيع إخفاءه إلى رئيسه القديم وهو يتحدث .

وقال إبراهيم الطيب :

إبراهيم الطيب : ذكرت أنه فيما يتعلق بمسائل السلاح ذكر لى يوسف طلعت أن الحكومة كانت تشجعه .. ومشروعية جمع السلاح أو عدم المشروعية أتت من الطريقة التى حددتها لحضراتكم .. من أن بعض حضرات أعضاء الحكومة .. وأذكر منهم الصاغ كمال الدين حسين طلب تجهيز بعض الإخوان .. وأن الحكومة تشجع الفدائيين .. وطلبت تسليح بعضهم ..

وكان إبراهيم الطيب يتكلم بلهجة الواثق .

وكان حديثه شجاعا يبين لمن يسمع أن الأمور كانت بين الإخوان و الحكومة إلى الحد الواضح الذى كان . يعرفون أن هناك أسلحة واشتركوا فى إحضارها .. ويطلبون تجهيز مجموعات للذهاب إلى القنال استمرارا لأعمال الفدائيين التى كانت عقب إلغاء معاهدة سنة١٩٣٦ .. وأن الإخوان هى الجهة الوحيدة المؤهلة لهذا الدور .. وفكرة نزع سلاح الجيش نشأت بعد نجاح الانقلاب مباشرة .. فليس من المعقول أن يرسلوا كتائب من الجيش بأسلحتها لمقاومة الإنجليز ..وكان هذا ممكنا .. ولكن من يضمن لنا أن هذه الكتائب لاتعود وتستولى على الحكم وتقتل الضباط الأحرار .. فى وقت ندم فيه كل الضباط على عدم قيامهم بانقلاب بعد أن رأوا كم كان سهلا وبسيطا .. ولم يكونوا يعرفون أن هناك قوى شعبية قد اشتركت فى الاعداد له وتنفيذه .. فتفاوض الحكومة مع الإخوان لإقلاق الانجليز أمر وارد وقد حدث .. وقد توقف تنفيذ هذا – بعد عدة عمليات محدودة – عندما أكد لهم الأمريكان أنهم سوف يجلون عن مصر .

وفى بجاحة وكذب قال جمال سالم :

– أرجو من الشاهد إذا تكلم على لسان واحد يقول أنا سمعت ومايقررش الأمور بالشكل ده .. لأن كمال الدين حسين مارحش وماقلش ..

وقلب جمال سالم وجهه فى الموجودين على جبنهم ونفاقهم فعرف فى وجوههم

نظرة التكذيب .. والتفت إلى إبراهيم الطيب فرأى السخرية والمرارة تكاد تخرج من عينيه . لهذا أكمل كلامه :

– واللى حصل إن كمال الدين حسين جوله (أى أتوا إليه) الإخوان فى أوائل سنة ١٩٥٣ وطلبوا أن يعاونوا فى العمل بأن ينضموا إلى المخابرات الحربية كقيادة منفصلة ، مش علشان السلاح ورفض طلبهم ..

وبدا على من فى القاعة عدم التصديق ، ولكن كل واحد حاول أن يخفى تكذيبه هذا .. وكيل النائب العام يقلب فى الأوراق .. الصحفيون يكتبون .. المحامون يتشاغلون .. بينما كان ينظر محمود عبد اللطيف متعجبا من هذا الوضع الغريب معجبا برئيسه القديم الذى بدت السخرية واضحة على وجهه .. مخابرات حربية إيه ؟ كلام ناس ليسوا فى وعيهم .

واستمر جمال سالم وارتفع صوته ليؤثر تأثيراً مضادا على أية نتيجة تكون قد حدثت بكلامه فوجه حديثه لإبراهيم الطيب :

– فا للى قال لك الكلام يوسف طلعت يبقى إيه ؟

ولم يرد عليه إبراهيم الطيب

وأكمل جمال سالم :

– يوسف طلعت غلط .. وانت كنت مسحوب من دقنك .

إبراهيم الطيب : اللى قال الكلام ده يوسف طلعت وحسين كمال الدين رئيس مكتب إدارى القاهرة .

جمال سالم : أيوه قول مين علشان نبقى نواجهك بيهم .. وبعدين ؟

إبراهيم الطيب : بناء على هذا أعيد هنا التنظيم السرى .

وحدثت همهمة وغمغمة فى القاعة للمرة الأولى ..

كانوا من قبل يضحكون منافقين جمال سالم على نكتة سخيفة ..

كانوا يجيبون على سؤال جماعى يوجه لهم من المحكمة من باب التهريج .

أما الهمهمة والغمغمة فهى للمرة الأولى .

وبدا وكأن إبراهيم الطيب قد ألقم جمال سالم حجراً .. وهو سرعان مايستعيد توازنه فهو الذى يمسك بالدفة وهو فى مركز القوة ، ولكنه نظر يستغيث بوكيل النائب العام ، الذى تدخل مسرعا :

وكيل النائب العام : متى أعيد تنظيم الجهاز ؟

إبراهيم الطيب : أعيد تنظيمه على أساس .
وقاطعه وكيل النائب العام :
– أنا سألتك إمتى؟وعاوز الإجابة على سؤالى .
إبراهيم الطيب : فى حوالى شهر فبراير .
وكان جمال سالم قد استعاد توازنه فسأل :
– وقبل كده ؟
إبراهيم الطيب : كان منظم ولكن أعيد تنظيمه .
جمـــال ســـالم : مين كان رئيسه ؟
إبراهيم الطيب : عبد الرحمن السندى وبعدين يوسف طلعت .
جمـــال ســـالم : كيف أعيد تنظيمه فى أواخر فبراير ١٩٥٤ مع أنكم فى المعتقلات ولم تخرجوا إلا فى أواخر مارس ؟
وفكر إبراهيم الطيب قليلا وقال :
– أنا متأسف لأن ده غلط .. صحيح كنا وقتها فى المعتقلات .. حصل إعادة تنظيم الجهاز على أساس قواد الفصائل .
جمـــال ســـالم : يبقى إمتى ؟
إبراهيم الطيب : بعد أواخر مارس .
جمـــال ســـالم : يطلع إيه يعنى ؟
إبراهيم الطيب : أوائل إبريل .
جمـــال ســـالم : أيوه كده علشان يبقى الكلام متفق مع كلام الشهود .
وهكذا ضاعت معالم قصة الاتفاق على تجهيز بعض الإخوان لإرسالهم إلى القناة لمحاربة الانجليز ، ولكن المدعى بعد أن قلب بعض الاوراق أمامه سأل :
– حسب أقوالك أمام المحكمة تقول إن صلتك بهذا الجهاز بعد آخر مارس .. فى أبريل .. وأنت تتكلم أمام المحكمة عن حوادث حصلت فى مايو سنة ١٩٥٣ فمن أين علمت بها ؟
إبراهيم الطيب : قال لى يوسف طلعت عليها .
المـــدعـــى : بمناسبة إيه ؟
إبراهيم الطيب : بمناسبة التشكيل والتسليح .
المـــدعـــى : وأنت ناقشته فيها ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .
وتدخل هنا جمال سالم فسأل إبراهيم الطيب :
جمـــال ســـالم : إمتى ؟
إبراهيم الطيب : يناير سنة ١٩٥٤ قبل الحل .
وبدأ الملل يتسرب إلى نفوس جميع من بالقاعة .. المحكمة .. الادعاء .. الدفاع .. النظارة .. الشهود .. المتهم الوحيد .. الحرس .. الجميع ..

* * *

وأراد المدعى أن يخلق جواً من الإثارة لمتابعة التمثيلية فى تشوق فقال :

المـدعـى : ظهر من التحقيقات أمامنا .. والتحقيقات الابتدائية .. أن هناك علاقة أو اتصالا بين اللواء محمد نجيب والإخوان فمتى بدأت هذه العلاقة ومع من ؟
وهكذا صور الوضع للجهلة والمنافقين !

محمد نجيب رئيس جمهورية مصر يحرم اتصاله بالإخوان
والإخوان لاينبغى أن يتعاونوا أو يتصلوا برئيس الجمهورية .
محمد نجيب قائد الحركة فلولاه ما قامت .. كان أحد العوامل الرئيسية .
وأين الشرعية والدستور ؟ صحيح قد ظهر بعض الفلاسفة بعد ذلك يتحدثون عن الشرعية الثورية .. بمعنى أن أى مغتصب يحقق نجاحا فقد اكتسب الشرعية .. وأطنب هؤلاء الفلاسفة وأفهمونا أن الشرعية هى الجلوس على الكرسى بأية طريقة ، وهذا فكر قديم لم يأتوا فيه بجديد ، وقال به بعض الفقهاء « وإن غلب عليها بالسيف » ولكن أن يصير التنسيق والتعاون مع رئيس الجمهورية الموجود جريمة ؟
فهذا هو حكم العصابات ومنطق القتلة واللصوص الذين ظهروا فى العصر الحديث .
وحكموا بلداً مثل مصر .
وقد تكرر شيء شبيه بهذا فى مايو سنة ١٩٧١ أثناء حكم السادات ، فعندما خرجت عليه الدولة كلها بجميع أجهزتها .. المخابرات .. المباحث .. الاتحاد الاشتراكى .. الإعلام .. الجيش .. إلخ ... إلخ .. تغلب عليهم ووضعهم فى السجون . فلو حدث العكس وتغلبوا هم عليه وطردوه لحاكموا كل من كان يتعاون معه أو يتصل به .

فالشرعية هنا لاتستمد من دين أو شريعة أو انتخاب حر مباشر أو مؤسسات صحيحة أو دستور قويم أو أى شيء مما جرى عليه العرف فى العالم ، ولكن الشرعية فى مصر تستمد من القوة والبطش ، وكلما كان البطش شديدا كانت الشرعية أكثر

منطقاً ورسوخاً ويتقبلها الناس ، ويسرف الكتاب فى تناولها كتابة وشرحا وتحليلا ، وبغض النظر عن مجافاة هذا للواقع والمنطق وليس هناك من حرج أن يتصل محمد نجيب بالشعب كله لأنه رئيس جمهورية مصر . ولاجريمة فيمن يتصل به ، أو هكذا ينبغى أن يكون . ولكنها سياسة البطش ، وقد بطشوا بالجميع و لم يبق غير الإخوان ومحمد نجيب

أحمد أنور يضرب محمد نجيب

ويبدو أن محمد نجيب أول رئيس جمهورية قد ضرب كثيرا فى مصر ! وهذا لعمرى أمر عجيب .

فقد روى لى المهندس حلمى عبد المجيد :

– عندما تم اعتقالى فى اوائل أبريل سنة ١٩٥٤ وأودعت سجن الأجانب ، ودخلت المعتقل ومعى حقيبتى .. حاولت أن أضفى جوا من المرح للتخفيف على من قابلنى من المعتقلين فإذا بى أُقابل بوجوم شديد .

وقال لى واحد من المعتقلين ممن أعرفهم لا داعى لهذا المرح الزائد .

وسألته :

– لماذا ؟

– منذ قليل ضرب الأستاذ عبد القادر عودة والأستاذ أحمد حسين .

وامتلأت عجبا – حلمى عبد المجيد – وسألته :

– من ضربهما ؟

– أحمد أنور قائد البوليس الحربى .

– كيف تم ذلك ؟

– أخرجهما من الصف واحدا بعد الآخر وصفعهما على وجهيهما وسبهما سباً قبيحا ..

– وماذا فعلا ؟

– رد أحمد حسين السباب بسباب أقذع منه . وسكت عبد القادر عودة ولم يرد .

ويقول حلمي عبد المجيد :

– وأدركت أن مصر قد دخلت عهدا جديدا سوف يستخدم فيه الضرب على أوسع نطاق .. وأن تاريخ مصر يتغير تغيرا كبيرا قد بدأت بوادره ..

وعلم المهندس حلمي عبد المجيد أن أحمد أنور سوف يجتمع بالمعتقلين فى المساء .

وانتظروه ..

وجاء على قدر .. وجلس وسطهم يتحدث من أنفه ..

وقال لهم أحمد أنور :

– المشكلة بيننا وبين حسن الهضيبى .. وده راجل مش كويس ، وعاوز يبوظ الجماعة ، ولازم تشيلوه علشان نسيبكم .. فاهمين ..

وتبادل الجالسون النظرات ، وفى نفوسهم هاجس وخاطر أن يسحب واحدا منهم ويصفعه على وجهه وهم من كبار القوم .. وإن فعل بهم هذا .. فماذا ينبغى أن يكون ردهم عليه .. ؟

ورد عليه الدكتور محمد فريد من الشرقية وعضو الهيئة التأسيسية لجماعة الإخوان :

– أنت تقول كلاماً عن المرشد العام للإخوان .. وهو ليس بعيدا عنك .. فأرسل من يأتى به من السجن الحربى وقل أمامه هذا الكلام .. ودعنا نسمع رده عليه .. فإن لم يستطع الرد ، فنحن معكم ولن نخالفكم فى شيء .

وأدرك أحمد أنور أن هذا الأسلوب لن يجدى فتكلم فى موضوع آخر وقال :

– طيب محمد نجيب .. أنتم مالكم كده متحمسين لمحمد نجيب ؟

ومن بين دهشة القوم صار يقول :

– محمد نجيب ابن .... وابن ... وابن ....

وصار يسبه سبا قبيحاً .

وتشجع أحد الحاضرين وقال :

– على أى حال هو لايزال رئيس جمهورية مصر .

وقال أحمد أنور :

– انتم عارفين رجع ازاى بعد ما استقال ؟

واحد :

– قامت المظاهرات من أجل عودته .. وسلاح الفرسان .. وقصص كثيرة ..

وابتسم أحمد أنور ابتسامة المجرمين القتلة القادرين وقال :

– رغم كل هذا كان يرفض العودة .. وأخذته إلى مكان مهجور وقدمت له ورقة يعلن فيها الموافقة على سحب استقالته والعودة إلى رئاسة الجمهورية .. ورفض ابن العاهرة – هكذا قال – وأنا أحايله علشان مايحصلش حاجة .. ولكنه أصر على الرفض .. عندها قلت لنفسى – الكلام لأحمد أنور – مبدهاش ..

وانقطعت الأنفاس وأشرأبت الوجوه فهم يشهدون ميلاداً جديداً لميثاق مستحدث لحقوق الإنسان فى مصر .. والكل سواسية كأسنان المشط .. رئيس الجمهورية وأى موظف صغير .

« وسأل سائل بعذاب واقع » :

– وماذا فعلت ؟

وانطلقت ضحكة أحمد أنور مجلجلة فى أنحاء سجن الأجانب ..

وسجن الأجانب هذا قد أزيل وقامت مكانه محطة البنزين الواقعة خلف عمارة رمسيس بالقرب من ميدان باب الحديد .

وانبرى أحمد أنور يقول للمعتقلين :

– ماذا فعلت ؟ وضبته .. أعطيته علقة لم يأخذ مثلها من قبل .. كان يتوسل إلَّى ويبكى وأنا أضربه ويقول لى سأوقع على القرار .. وأنا كنت شحنت ولم أعد فى وعيى .. وبعدين الضباط اللى معايا خافوا لأموته من الضرب فمنعونى حتى لاتحدث مشكلة ..

وخيم الصمت على من يسمع !

واستمر أحمد أنور يحكى مزهوا بنفسه مالا يستطيع أحد أن يفعله فى التاريخ القديم أو الحديث .. لقد ضرب رئيس الجمهورية ورمز مصر ..

وقال :

– لم أتركه حتى سف التراب من الأرض .. ورجعناه البيت علشان يغير البدلة بتاعته اللى اتوسخت ومزقت .. وكنت نزعت الرتب من فوق كتفيه وألقيت بها فى الطريق والدنيا ظلام ولم نعثر عليها بعد ضربه ..

ورجع رئيس جمهورية ...

والحاجة اللى تضحك – لأدرى تضحك من – إنه تانى يوم كان رايح مسافر السودان .. وكنا فى وداعه .. وضُرب سلام رئيس الجمهورية ورفع العلم .. والدنيا كلها هايصة .. واقترب مني ومد يده يسلم علىَّ فنظرت فى عينيه رافضا .. راجل وسخ ابن عاهرة وفاهم نفسه رئيس جمهورية صحيح .. وأرخى يده .. وحاول أن يصافح الضباط الآخرين الذين شهدوا « العلقة » فنظرت إليهم ونظرت إليه محذراً .. فانصرف دون سلام أو كلام .. على كل حال إحنا بنرتب لخلعه .. وسوف يكون .. وعاوزينكم معانا فى المسألة دى ..

وعلم المعتقلون الذين سمعوا القصة أنها « الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » !

عودة إلى شهادة إبراهيم الطيب

وقال إبراهيم الطيب مجيبا على سؤال المدعى عن علاقة الإخوان بمحمد نجيب فقال :

– أما فيما يتعلق بتحديد موعد هذا التفاهم أو هذا الاتصال فلا أعلم على وجه الدقة .. وكل الذى أعلمه أن يوسف طلعت باعتباره الرجل المسئول قرَّر لى أن هناك اتصالا قائما بين محمد نجيب والإخوان .

وانبرى جمال سالم يسأل :

– مَنْ مِن الإخوان ؟

إبراهيم الطيب : لم يحدد لى .

جمــال سـالم : وتعتقد مين ؟

إبراهيم الطيب : أعتقد اللجنة العليا للنظام .

جمــال سـالم : المكونة من مين ؟

إبراهيم الطيب : المرشد وفرغلى والأشخاص الآخرين اللى ذكرتهم .. وأعتقد أن الاتصال كان يتم مباشرة أو بطريق غير مباشر عن طريق أفراد يكلفوا بهذا .

جمــال سالـم : زى مين ؟ يوسف طلعت مقالكش ؟

إبراهيم الطيب : لا ..

جمـال سالم : يظهر أنه أمر سر .

ويبلغ العجب منتهاه !!

يأتى إبراهيم لسؤاله كشاهد اثبات ضد محمود عبد اللطيف وإذا به يستجوب كمتهم - وهو هنا شاهد ومتهم فى موضع آخر - وليس كشاهد وتتحول الشهادة إلى محاكمة له ولرئيس الجمهورية الذى لايزال رئيسا للجمهورية فى مكتبه يمارس وظيفته أثناء هذا الاستجواب العجيب الذى تنقله كل وسائل الإعلام فى ذلك الحين .

وقال إبراهيم الطيب ردا على سؤال جمال سالم :
إبراهيم الطيب : هذا الرجل مؤتمن - يقصد يوسف طلعت - وأنا أسمع كلامه على هذا الأساس .
وبسخرية قال جمال سالم :
- هو اللى كان مؤتمنك ؟
إبراهيم الطيب : لم أناقشه فى الموضوع الذى ذكره لى .
جمال سالم : وكان الاتصال على أساس إيه ؟
إبراهيم الطيب : على أساس العودة بالبلاد إلى الحياة الطبيعية .. وعلى أساس ضرورة إيجاد برلمان منتخب انتخابا شعبيا وبعيد عن المؤثرات الحزبية والشوائب الحزبية التى كانت تتصل بالبرلمانات السابقة .. ومن ناحية أخرى إطلاق الحريات بكافة أنواعها وخصوصا حرية الصحافة وإبداء الرأى ، والناحية الثالثة كان الهدف الإفراج عن المعتقلين ، وأن البلاد يكون فيها حالة أو نوع من أنواع الهدوء والتفاهم بين الرؤساء - هكذا قال - الموجودين والشعب الموجود .
ولايزال هذا هو مطلب الشعب حتى عام ١٩٨٩ !!
وسيظل مطلبا بعيد التحقيق حتى تنتهى آثار ثورة ٢٣ يوليو تماما .

الإخوان يساندون الانقلاب

وتجاهل جمال سالم هذا الكلام وسأل إبراهيم الطيب متهكما :
جمال سالم : كيف كان اتصال الإخوان بقادة الثورة عند بدء الثورة باعتبارك شخصا مهما ؟
إبراهيم الطيب : لم تكن هذه المسألة من اختصاصى .. ولا أحب أن أسأل فى مسائل تعتبر سياسة عليا بالنسبة لى .
جمال سالم : تعرف إن كان فيه اتصالا ؟

إبراهيم الطيب : يوسف طلعت قال لى إن هناك اتصال .
جمـال سـالم : مع من ؟
إبراهيم الطيب : مع محمد نجيب والإخوان .
وبجاحة فائقة قال جمال سالم يسأل إبراهيم الطيب :
– مجلس قيادة الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . كان هناك اتصال بينه وبين الإخوان المسلمين أم لا ؟
إبراهيم الطيب : الذى علمته من يوسف طلعت والدكتور حسين كمال الدين أن هناك اتصالا وأداة الاتصال كان الدكتور حسين كمال الدين وصلاح شادى وآخرون لم يحددهم لى .
جمـال سـالم : جميل .. وكانوا يتصلوا بقيادة الثورة علشان إيه ؟
إبراهيم الطيب : للتعاون بين جماعة الإخوان وقواتها الشعبية وبين مجلس قيادة الثورة فى ذلك الوقت باعتبار أن الإخوان منتشرون فى كل جهة من جهات القطر .. وعلمت أنهم كانوا يحرسوا الكنائس ومنتشرين فى الشوارع ويقدموا مساعداتهم لمجلس قيادة الثورة حتى يكون الشعب كله مؤيداً لمجلس القيادة ويكون المجلس صفا واحدا ضد المستعمر واحد

الإخوان يطالبون بالحرية وحكم الإسلام

وتجاهل جمال سالم هذا الكلام على أهمية ذكره علانية أمام الرأى العام .
وعاد يسأل إبراهيم الطيب :
جمـال سـالم : باعتبارك فى الصف الثانى من الإخوان المسلمين ..
وقاطعه إبراهيم الطيب قائلا :
إبراهيم الطيب : الثالث .
جمـال سـالم : ألا تعلم السياسة العامة للجماعة بالنسبة للثورة ؟
إبراهيم الطيب : اللى فهمته من الإخوان المسلمين أن هذه السياسة تتلخص فى ضرورة التعاون التام والتآزر مع رجال الحكم .
جمـال سـالم : ده كلام عام .. قل لنا فى أى اتجاه يكون التعاون ؟
إبراهيم الطيب : فى كل شيء بدون أى تفصيل أو تقييد .

واستاء جمـال سـالم من إجابة إبراهيم الطيب وقال ليشكك الرأى العام .
- بدون أى طلبات ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .. وكل مافهمته أن الطلب الوحيد الذى طلب من مجلس قيادة الثورة هو أن ينحو بقدر الامكان النحو الإسلامي الذى يرضى عنه الشعب المسلم .
جمـال سـالم : مكانش برلمانات وحريات ؟
إبراهيم الطيب : المفهوم أن مجلس قيادة الثورة بدأ العهد بما أعلنه الجيش يحمى الدستور لذلك الجميع كان يترقب وجود حياة برلمانية يسندها الشعب ويشرف عليها مجلس قيادة الثورة .

وتذكرت تلك الأيام السوداء البعيدة فى مطلع الثورة !!
كانوا يملئون الشوارع بلوحات تمثل جنديا شاكى السلاح وخلفه كتاب مكتوب عليه « الدستور » وتحت هذه اللوحة كتبت عبارة « الجيش يحمى الدستور » وملئوا الشوارع والميادين بها فى طول البلاد وعرضها . ولما قرروا إعلان الغاء الحرية والدستور والديمقراطية قاموا بنزع هذه اللافتات أو طمسها بمادة سوداء أو زرقاء .
ثم ألغوا الدستور والحرية وتتابع المسلسل ولم ينته بعد .
وقال جمـال سـالم وهو يتمطى سائلا الشاهد الذى وجد نفسه متهما ، وكأنهم قد نسوا الهدف الأساسى من استدعائه :

جمـال سـالم : ألم يقل لك يوسف طلعت أن لجنة الاتصال بقيادة الثورة ذهبت بعد الثورة مباشرة وقعدت حوالى يوليو ومايقرب من أواخر أغسطس وهى تذهب يوميا إلى كوبرى القبة فى القيادة . وتلح فى طلب يتعلق بسياسة الإخوان ؟
إبراهيم الطيب : لا أعلم ..
واندفع جمـال سالم مهاجما بشراسة :
- كيف تكون فى الصف الثالث ؟
ثم استدرك وقال شيئا آخر فى شكل تساؤل :
- يمكن سياسة الإخوان توجه فى القيادة العليا بدون أخذ الرأى ؟
وقال إبراهيم الطيب فى ثبات :
إبراهيم الطيب : مع الهيئة التأسيسية لأنها مكونة من مكتب إرشاد .
جمـال سـالم : تمثل إيه الهيئة التأسيسية ؟

إبراهيم الطيب : مجموع الإخوان .
وسأل جمال سالم ساخرا :
– وكل واحد غيرهم محظور عليه الكلام ؟
إبراهيم الطيب : لما يكون فيه كلام سرى .
جمـال سـالم : هل تعتبر الكلام اللى قاله لك سرى ؟

وقبل أن يجيب إبراهيم الطيب توجه جمـال سـالم إلى جمهور الجالسين فى القاعة ، وإلى كل الناس عبر وسائل الإعلام المتاحة آنذاك من صحافة ووكالات أنباء وإذاعة ، وللأسف لم يكن التليفزيون موجوداً وقتها ، وبلهجة سوقية نابية لاتليق بنائب لرئيس الوزراء رفع صوته عاليا :

جمـال سـالم : يامواطنين .. لجنة الإخوان قعدت من ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى مايقرب من أواخر اغسطس سنة ١٩٥٢ تطالب بشىء واحد . هو أن يكون الحكم عسكرى مطلق بدون دستور وبدون برلمان لمدة لاتقل عن عشر سنوات[١] وكانت الحكاية إننا مختلفين معاهم لأننا معتقدين تمام الاعتقاد من يوم ٢٤ يوليو إننا نسلم البلاد للبرلمان . وكنا نظن أن فيه بقية باقية من الوفد بعد أن يطهر نفسه ..

لذلك طلبنا من الأحزاب تطهير نفسها[٢]وطلبنا من على ماهر أن يصدر بيانا بهذا الشأن . وأصدر بيانه فى سبتمبر وكانت الأزمة الحادة اللى بيننا وبينه . واللى بناء عليه استقال فى ٧ سبتمبر . هذه الأزمة حدثت لاننا اتفقنا معه أن يصدر بيانا بأن الانتخابات ستكون فى أوائل سنة ١٩٥٣ . وطلع البيان يومها بالليل وأذيع الساعة ١١ فى الراديو . ولم يتعرض فيه للانتخابات التى ستتم فى فبراير سنة ١٩٥٣ وعليه اجتمع مجلس قيادة الثورة وأصدر بيانا الساعة ٢ صباحا بضرورة إجراء الإنتخابات فى فبراير سنة ١٩٥٣ .

وسكت جمال سالم وصار ينظر فى وجوه الناس منتصرا ..
ولو قرأ الناس الغيب وعلموا أن هذه الانتخابات التى تحدثوا عنها لم تحدث بعد ذلك لافى فبراير ولا فى ديسمبر ، وأننا بعد كل هذه العقود ننتظرها لضحكوا !

(١) تعيش البلاد المصرية منذ أن قامت الثورة بدون دستور وبدون برلمان وبدون حرية وقد مضى على الثورة حتى هذا اليوم سبعة وثلاثون عاما .

(٢) خدعه أملاها سليمان حافظ ووافقت عليها الأحزاب فتخلصت من كفاءاتها وظهروا أمام الضباط أنهم تجمعات ضعيفة ، ولو رفضوا هذه الفكرة لتغير تاريخ البلاد (المؤلف)

كانوا أيامها يخافون من الشعب والناس ويريدون خداعهم حتى تاريخ قريب يحددونه وهو شهر فبراير سنة ١٩٥٣ ، ومن ثم تهدأ القوى السياسية ولا تتوثب واختلف الناس بشأن على ماهر فبعضهم يقول إنه كان يريد الانفراد بالحكم من خلال هؤلاء الضباط الصغار ، فهو لم يحدد أجل الانتخابات .

والبعض الآخر يقول أنه كان بعيد النظر وكان يفهم إلى أين تسير السياسة بعد أن جلس مكان فاروق هؤلاء الطغمة من الأشرار وتذكر كلمة الملك له عندما قابله :

– لشد ما يحزننى أن تحكم مصر شرذمة من الضباط .

لهذا كان على ماهر حريصا على أن ينبه الشعب والأحزاب إلى ماينتظرهم ولكن رسالته هذه لم تصل إلى أحد ...

ثم التفت جمال سالم إلى إبراهيم الطيب وقال له :

– كنت فين سيادتك باعتبارك محاميا ومن الصف الثالث من الإخوان المسلمين حتى لاتعر ف إطلاقا أى شيء من سياسة الإخوان العامة اللى قعدت تطلب وتلح حتى بعد إصدار قرار آخر على أن الحكم يكون عسكريا على الأقل عشر سنين ؟

إبراهيم الطيب : هذا لم يصل إلى علمى .

ولعل إبراهيم الطيب رحمه الله كان فى هذه اللحظة التى مثل فيها أمام هذه المحكمة الغريبة حيث يجلس هذا الأراجوز الجاهل فى مجلس القاضى ، وهو يقف أمامه متهما فى موضع الشهادة ، وشاهدا أثناء الاتهام ، ولايوجد عرف يحكم اللعبة ، وغاب القانون .. أى قانون ! ومجتمع قد استطاعوا أن يخيفوه وأن يحولوه إلى جمهور أبله يتسلى بالضحايا وهم يعذبون ويموتون ، وضاعت النخوة والمروءة من بينهم ، فليس فيهم من يرفع صوته فى شجاعة ويقول : كفوا عن هذا الهراء الذى لامعنى له .. وكفاكم عبثا بمقدرات البلاد والعباد .

لعل إبراهيم الطيب تذكر فى موقفه هذا الانقلاب العسكرى وكيف قام ، وموقف الإخوان منه مساندة وتأسيسا وشرطا للنجاح ، وأنهم عندما كانوا يعرضون عليهم وجهة نظرهم ، فهى وجهة نظر الشريك ، وطلبات الذى لولاه لما نجح الانقلاب ، ولم تكن طلبات الإخوان بالنحو الكاذب الذى عرضه جمال سالم . بل كانت الطلبات التى أقسموا على تنفيذها قبل يوم ٢٣ يوليو .

كان عقدا واتفاقا نفذ فيه الإخوان الجانب الذى يخصهم ، وهم يطالبون بتنفيذ الجانب الذى عليهم ، ولكن لم يكن اتفاقا مكتوبا ! حتى لو كان كذلك فما هى أهميته عند أناس يضربون رئيس جمهوريتهم ويمرغونه ببذلته العسكرية فى التراب .

وأدرك إبراهيم الطيب أن ليل الظلمة يغشى سماء مصر ولزمن لايعرفه إلا الله سبحانه وتعالى .. والنواميس تعمل عملها والافلاك تدور .

واستفاق على نباح جمال سالم يصرخ فيه :

– واحد فى الصف الثالث .. هل هذا حكم برلمانى سليم فى جماعة الإخوان ؟ لما يكون واحد من الصف الثالث فى جماعة تأسيسية تمثل البرلمان ترسم سياسة دون أن تأخذ رأيك ؟

إبراهيم الطيب : هذه المسائل تدار فى الهيئة التأسيسية وأنا مش عضو فيها ..

والتفت جمال سالم إلى من فى القاعة وصرخ يقول :

جمال سالم : ده حكمه إيه ؟ جمعية الإخوان المسلمين فى كل أعمالها سرية فيما عدا مايتعلق بأمتها مع الدولة الأجنبية .

وفى شجاعة فائقة قال له إبراهيم الطيب وقد ارتفع صوته قليلا :

إبراهيم الطيب : جائز إن المسائل اللى فيها مسائل مجلس لايصح أن تنشر وأنا أعرفها ..

وهدأ جمال سالم قليلا وقال :

– كيف تعلل ذلك ؟

إبراهيم الطيب : باعتبارى فردا فى القاهرة .

وباستهانة وسخرية قال جمال سالم :

– أنت فرد فى القاهرة ؟

– أيوه أمال .

جمال سالم : انت فى الصف الثالث مسئول عن الجهاز السرى وتنظيماته ؟

إبراهيم الطيب : المسائل دى كانت تسلمنى العملية .

جمال سالم : ألم يحكيها لك يوسف طلعت ؟

إبراهيم الطيب : فى هذه الاثناء كنت مجرد عضو فى القسم القانونى بالمركز العام للإخوان المسلمين .

ورفع صوته وسمع من يقف خارج المحكمة :
جمـال سـالم : جمعية الإخوان المسلمين لاترجع لمستشارها القانونى فى هذه المسائل ؟
إبراهيم الطيب : لاشك .. الأستاذ عودة كان اختصاصيا فى المسائل القضائية واللوائح ولكن هذه مسائل عليا يختص بها غيرى .

الإخوان المسلمون والوصاية على الثورة

واعتدل جمـال سالم فى جلسته وأخذ شكل الذئب وهو يجادل أعزل قد جرده من سلاحه وسامه الخسف والعذاب دون إحساس بالمروءة والشرف .
وقاعة محكمة الشعب قد ملئت بالصحفيين المرتزقة ورجال البوليس الحربى وبعض رجال المباحث العامة ورجال النيابة العسكرية والنيابة العامة ولايوجد مواطن واحد .

ويصول جمال سالم ويجول ولا منازل يقف أمامه فليست هناك من فرص قد تكون متكافئة لمثل هذا النزال .

ولانزال نستمع إلى شهادة إبراهيم الطيب رحمه الله ضد محمود عبد اللطيف ونظر جمال سالم ثم عبس وبسر وقال لابراهيم الطيب :
جمـال سـالم : لماذا لاتسمح لنفسك أن تعارض أو تناقش السياسة العليا للإخوان المسلمين . وتسمح أن تناقش سياسة الـ ٢٢ مليون ؟
إبراهيم الطيب : هذه المسائل لم تعرض علىَّ .
جمـال سـالم : كيف تسمح لنفسك ؟ هل الحكومة عرضت عليك ؟
إبراهيم الطيب : لا .
جمـال سـالم : إذن لماذا تساعد على حملة الدعاية التى قامت بها جمعية الإخوان ضد الاتفاقية ، وهى سياسة عليا فى الدولة ولم تعرض عليك ؟
إبراهيم الطيب : الذى أعلمه أن مكتب الإرشاد تقدم ببيان قانونى إلى الرئيس جمال عبد الناصر يذكر فيه انتقادات قانونية للاتفاقية .
جمـال سـالم : كيف تحل لجمعية الإخوان مالاتحله لنفسك ؟
إبراهيم الطيب : هذه المسألة تتصل فعلا .. وكل مواطن له حرية التعبير .

جمـال سـالم : هل عرضت الاتفاقية على الإخوان ؟
إبراهيم الطيب : عرضت على الشعب فى الجرائد .؟
جمـال سـالم : هل عرضت على الجمعية كجمعية ؟
إبراهيم الطيب : لم أعلم أن هذا حصل .
جمـال سـالم : كم جمعية توجد فى القطر المصرى ؟
إبراهيم الطيب : مافيش ..
جمـال سـالم : والشبان المسلمين ؟
إبراهيم الطيب : غير سياسية .
جمـال سـالم : والإخوان ؟
إبراهيم الطيب : سياسية .
جمـال سـالم : مع إنها منحلة !! ليه الحكومة تحل الأحزاب وتبقى على جمعية الإخوان المسلمين مع إنها سياسية وحزبية ؟
إبراهيم الطيب : هذا سر لا أعلمه .

ولم يستطع إبراهيم الطيب أن يخفى بسمة ساخرة رآها من كان قريبا منه ، بينما حدجه جمال سالم بنظرة صارمة مليئة بالعدوان وأراد أن ينال منه وقال له ساخرا :
جمـال سـالم : المسائل دى كلها أسرار على الصف الثالث فما بالك بالصف الرابع والخامس لغاية محمود عبد اللطيف !!
وأشار ناحية محمود عبد اللطيف فى ازدراء واحتقار .
وفى جرأة وثبات قال إبراهيم الطيب :
– أنا أقرر ماأعلمه .

وانتبه إليه أعضاء النيابة وبدت على وجوههم أمارات الإعجاب وسرعان ماأخفوها تحت نظرة متجهمة صارمة ، وراحوا يقلبون فى الأوراق متشاغلين والله أعلم بما فى قلوبهم .
وانقلب القاضى ينظر إلى المتهم الشاهد ، أو الشاهد الذى جاء يشهد فصار متهماً :
جمـال سـالم : الصف الثالث لماذا لايعلم هذه المسائل ؟ إذن فهى محصورة فى

الصف الأول على الأقل أو الصف الأول والثانى على الأكثر .. يعنى المسائل ماشية بطريق غير ..

وصار يهز جمال سالم يديه بحركات سوقية مبتذلة فقال إبراهيم الطيب :

- الذى نفهمه أن هذه مسائل دقيقة بعض الدقة ولا شك يجب أن يهيىء لها الجو اللى يعتبر فى أضيق نطاق لكى يمكن بحثها بحثا مستفيضا وليس بشكل جمهورى .

جمال سالم : وليس هناك قطعا داع لتهيئة الجو للحكومة لبحث موضوع يخص ٢٢ مليون بحثا هادئا .. الإخوان يمثلون البرلمان !!

إبراهيم الطيب : هم جزء من الشعب .

جمال سالم :يمثلوا قد إيه ؟

إبراهيم الطيب : بالتفصيل مااعرفش .

جمال سالم : قولها بالتقريب .

إبراهيم الطيب : لأأعرف .

جمال سالم : ١٥ مليون ؟

إبراهيم الطيب : ماتجيش ..

جمال سالم : ١٤,٥ حوالى كده ؟

ونظر إليه إبراهيم الطيب ثابتا ولم يرد عليه .. وصار كل من جمال سالم وإبراهيم الطيب يحدق فى الآخر ولا يتكلمان ..

ويلف القاعة صمت ..

وقطع المدعى هذا الصمت موجها الحديث لابراهيم الطيب .

المدعى : كنا وقفنا عند الاتصال .. قل لنا الخطة الى كنتم عايزين تنفذوها .

إبراهيم الطيب : الخطة كانت على أساس أن النظام مقصود به ..

وقاطعه المدعى بسرعة ..

المدعى : أنا أقول تنفيذ الخطة .. القصد اتكلمنا فيه كثير .

إبراهيم الطيب : فيما يتعلق بالتنفيذ لم نتعد مرحلة الاعداد ..

* * *

وكان هنا يتكلم بلهجة المحامى ولغته على اعتبار أنها محكمة وأن الاعترافات الجبرية يمكن أن تؤدى فى النهاية إلى أن هناك إعدادا لشىء ما لم يتم تنفيذه .. واضعاً

فى اعتباره أن حكاية محمود عبد اللطيف هذه مؤلفة من ألفها إلى يائها .. فليكن الأمر كما تشاء المحكمة الظالمة .. وليكن أننا أعددنا العدة لشىء ما .. ولكننا لم نفعله ..هذا بالتأكيد سوف يخفف من وقع العقوبة على المظلومين المعذبين فى المعتقل ..ولعله كان يفكر فى هؤلاء الذين ساعدوهم ومكنوا لهم فى الأرض ثم نكصوا وغيروا ثم بدلوا نعمة الله كفرا .. وهاهم يتآمرون عليهم ليبيدوهم ويفنوهم عن آخرهم .. ولكنه كان على يقين من الله أن العاقبة للمتقين ..

كان ابراهيم الطيب فى تلك الأثناء واثقا من الشهادة وأنها خاتمة المطاف وإن هى إلا إيام حتى يرد الحوض ويشرب من كأس يقدمها له رسول الله ﷺ . وكان يشعر بالعطش الشديد رغم برودة الجو ، ولكنه لم يطلب من أحد أن يسقيه .. فقد وجد أن ألم العطش هو أقل ما يلقاه فى هذه الأيام .

كان كل من حوله فى القاعة وحوش كاسرة تريد أن تلغ من دمه ولكنه لم يشعر نحوها بالبغض أو الحقد ، فقد كانت نفسه هادئة رغم شعوره بحرارة عداوتهم الساخنة ، وكان كل ما يوده ويطلبه أن تنتهى هذه الملهاة وبسرعة فمصيره يراه بوضوح فى رؤى الليل ،وأثناء تعذيب النهار الوحشى ، والشهداء الذين يتساقطون كل يوم ، ثم ذلك الذئب الأغبر الجالس فى مقعد القاضى ، فياليته لم يكن قاضيا ، وياليتها كانت القاضية

* * *

وأفاق إبراهيم الطيب من تأملاته على صوت المدعى كعواء ذئب ضال :

– اشرح للمحكمة الخطوات .

وتذكر إبراهيم الطيب أنه كان يسأله عن الخطة فأجاب :

إبراهيم الطيب : الذى حدث أننا أخذنا فى دور الاعداد والتكوين بعد مارس ١٩٥٤ وظلّ هذا الاعداد من الناحية التنفيذية ، ومن ناحية تجميع الأفراد واعدادهم الاعداد الثقافى والروحى ومن ناحية أخرى ..

وهنا قاطعه جمال سالم ككلب مسعور كاسر وارتفع عواؤه :

جمـال سالـم : الثقافى يدخل فيه المنشورات من الجهاز الإدارى ؟

وفى هدوء شديد قال إبراهيم الطيب :

– دى مسائل دعاية

وكما يتشاجر الباعة الجائلون فى سوق الخميس عند المطرية قال رئيس المحكمة :

– ثقافة .. وتعليم .. ووعى .. وإدراك .. وناحية ادارية تتبع الجهاز الادارى قل لنا إيه المنشورات اللى كانت توزعها الأقسام .
إبراهيم الطيب : مخصص لها مركز دعاية فى المركز العام .
جمـال سالـم : وتوزع عن طريق مين ؟
إبراهيم الطيب : وتوزع عن طريق رؤساء المناطق ..

وكان جمال سالم قد نطق السؤال بطريقة خاصة ، وأجابه إبراهيم الطيب بنفس الطريقة مما أثار انتباه الجميع فقد شعروا أن الشاهد لايعمل حسابا بالفعل لهذا القاضى المزيف .
جمـال سالـم : مين يوزعها للمناطق ؟
إبراهيم الطيب : توزع بواحد من أمرين .. إما عن طريق رئيس الجهاز الخاص أو رئيس مكتب ادارى القاهرة .
جمـال سالـم : والضباط الاداريين كانوا علشان إيه ؟
إبراهيم الطيب : لتوصيل هذه المنشورات من رئيس مكتب إدارى القاهرة لرؤساء المناطق مباشرة .
جمـال سالـم : زى مين ؟
إبراهيم الطيب : محمد عبد المعز وحسين شعبان .
جمـال سالـم : ظاهر من أقوالك أن محمد عبد المعز وحسين شعبان ضباط اتصال اداريين يعملوا بينك وبين المناطق .
إبراهيم الطيب : وفى نفس الوقت كان يحدث ان رئيس ادارى القاهرة إذا أراد الاتصال برؤساء المناطق له الحرية فى ذلك .. فكان يعطى ما يريده إلى رؤساء المناطق مباشرة .

وكان الكلام يدور فى حلقة مفرغة ورغم هذا فلابد أن يستمر فهذه هى إدارة أصحاب الملابس الكاكية الجالسين فى القاعة وفى اماكن أخرى غير ظاهرة .
جمـال سالـم : ماذا تستنتج من عدم علنية سياسة الإخوان المسلمين فى أوائل الثورة وتصميمها عليه واخفائها وانكارها حتى عن الصف الثالث والله أعلم يمكن الصف الثانى .. لسه مانعرفش ؟

* * *

ولعل إبراهيم الطيب عند ذلك السؤال قد عاد بالذاكرة إلى ذلك اليوم الأسود

من شهر يوليو عندما حدث الانقلاب ، وكيف كان الجميع حريصا على عدم إذاعة صلة الضباط بالإخوان خوفا من الأمريكان والغرب بصفة عامة .. صحيح أن مخابراتهم تعرف طبيعة هذه الصلة ، ولكن الاعلان عنها قد يؤثر بالتأكيد تأثيرا ضاراً على سير هذه الحركة .. اقتنع الإخوان بهذا فكانوا لا يشيرون إلى هذا الدور إلا فى أضيق الحدود حرصا على سلامة الحكومة الجديدة .. أما عن عبد الناصر فكان يكرس عدم إظهار هذا الدور لذلك السبب الظاهر أما فى الباطن فكان حريصا على موت هذه الصلة رويدا مع الأيام .

مثله فى هذا مثل رجل عليه دين لآخر واتفقا على أن يظل هذا الدين سراً وشك البعض فى الأمر وسئل الدائن فأكد أن الرجل ليس مدينا له ..وإن ظل الاثنان يؤكدان هذا فى كل مناسبة ، وجاء وقت وقال صاحب الدين إن لى دينا عند فلان ، فبالتأكيد سوف يذكرون له أنه انكر هذا يوما .. هكذا كانت اللعبة من ناحية عبد الناصر لتكريس الانفصال حتى لا يطالبه أحد بالدين فى يوم من الأيام .

ومن ناحية الإخوان كانوا حريصين على هذه الحكومة فلا يضربها الغرب والامريكان على وجه التخصيص .

* * *

ولم يعد هناك معنى أمام ابراهيم الطيب أن يقول مثل هذا الكلام .

ولكنه قال :

إبراهيم الطيب : الذى أعلمه أن المرشد حسن الهضيبى كان قد تقدم ببيان إلى السيد الرئيس وإلى حضرات أعضاء مجلس القيادة وذكر فيما أعتقد مطالب أو مسائل للتناصح وذكر ..

وقاطعه جمال سالم :

– فسّر لنا يا ناصح تبقى إيه ؟

إبراهيم الطيب : باعتبار أن الإخوان لايدخرون وسعا فى أن يعاضدوا ويساندوا مجلس القيادة .

جمال سالم : اذكر بعض الاقتراحات .

إبراهيم الطيب : لا أذكرها بالتحديد .

جمال سالم : المعنى العام .

إبراهيم الطيب : انها ترى أو تجمع على مصالح البلاد .

جمـال سـالم : والثورة مش عايزة مصالح البلاد ؟
وامتلأ إبراهيم الطيب ازدراء واستياء ولكنه تمالك نفسه و لم يكن أمامه غير هذا ، وكان يمكنه أن يقص عليه القصة كما يعرفها جمال سالم وكيف بدأت وها هم يشهدون نهايتها ويخبره بدور الإخوان فى نجاح هذه الثورة ، وهو أمر يعرفه جمال سالم ، والماثلان عن اليمين والشمال وكثير ممن حضروا المحاكمة الهزلية .
إبراهيم الطيب : لا .. علشان المجموعات الشعبية تؤازر وتساند مجلس القيادة .
وعلى طريقة الباعة الجائلين قال جمال سالم :
– يعنى أنتم موكلين عن الشعب ؟
إبراهيم الطيب : لا ..
وقالها له باردة بينما صار جمال سالم يهز رأسه يمنة ويسرة كالأراجوز متحديا وساخرا :
– لهم قوة ؟
– المهم التنظيم لا أكثر .
– أحسن من القوات المسلحة ؟
– تنظيمات شعبية .
وقال جمال سالم ساخرا :
– والقوات المسلحة مستوردة من باريس ؟
ورغم سخافة النكتة فقد ضحك كل من بالقاعة ، بينما أحس جمال سالم بالرضى الكامل عن نفسه وازداد إعجابا بها ، ونظر إلى الرجلين عن يمينه ويساره فوجدهما قد ازدادا خوفا منه ، ولكنهما شاركا من بالقاعة الضحك عندما نظر إليهما .
وعاد ينظر إلى إبراهيم الطيب الذى قال :
– لا .. هى من الشعب .. ولكن التنظيم كان على أساس الاعداد .. وهذا يقتضى كثير من المسائل .
وهنا بدا الارهاق واضحا على وجه إبراهيم الطيب الذى يقف بينما هؤلاء الأوغاد ينعمون بالجلوس .

وعاد الحوار سخيفا لايفضى إلى شىء ، ولكنه الاحساس بالغلبة والقوة وليس فى القاعة رجل واحد يرده .
جمـال سـالم : ماوجهة الخلاف لما تتقدموا بهذه النصيحة ؟ لماذا اختلفوا ؟
سؤال غامض من الصعب فهمه ، ومن الأصعب الاستفسار عن معناه .

إبراهيم الطيب : أنا اتكلم عن المسائل اللى علمتها .. وهى تقديم هذا البيان .
ووضع جمال سالم كوعه على المنصة ومال بكل جسمه ناحية إبراهيم الطيب وقال :
– إنت قلت إن البيان عبارة عن تقديم إيه ؟
إبراهيم الطيب : بعض النصائح إلى مجلس القيادة .
جمال سالم : ليه ؟
إبراهيم الطيب : مسائل تتصل بمصلحة البلاد كمجموع .
جمال سالم : وكيفية ذلك ؟
إبراهيم الطيب : الاتصال المستمر الدائم بين الإخوان وأعضاء مجلس القيادة لتنفيذ هذه الخطوات .

جمال سالم : ماهى الخطوات ؟
إبراهيم الطيب : دى مسائل كان يحددها أعضاء مجلس القيادة مع الإخوان .
وفرد جمال سالم جسمه كالديك وصار يصرخ بأعلى صوته فى القاعة حتى أصاب الجميع بالذعر عدا إبراهيم الطيب :
جمال سالم : اشراك .. جماعة الإخوان تريد اشراك وفرض وصايتها !! .. علشان خاطر كده كانت تطلب فى يوليو ٥٢ وفى أغسطس ٥٢ أن القيادة تفضل حاكمه البلد عشر سنين على الأقل وتطالب سراً فى الوقت نفسه إن القيادة تكون تحت وصايتها تقوم يبقى الحكم فى ايدهم من تحت ستار ، ولما القيادة عارضت ذلك حدث خلاف .

وعلشان يلفوا (هذه كلمة شعبية) من هذا ويأخذوا الجولة يطبع إبراهيم الطيب المنشورات .. وتحض على إيه ؟ كما قرر إبراهيم الطيب أمام حضراتكم جميعا .. دى محكمة الشعب .. انتم الحكم فى محكمة الشعب مش احنا كما قررت هنا .. ينادى بإيه ؟ .. بالحريات ... بالانتخابات .. بانعقاد البرلمان ثم يلتفت ناحية إبراهيم الطيب بعد أن حمّل الشعب المصرى المسكين الذى لاذنب له جريمة شنق الإخوان ، فقد قال لهم أنتم الحكام وأنتم الذين تصدرون الحكم فى هذه القضية وهكذا قرر كما قال .
والتفت إلى إبراهيم الطيب واكمل صراخه :
– فى حين إن الثورة على عهدها اللى اختلفتم عليه .. انها تحدد فترة انتقال علشان تعمل انتخابات وبرلمانات فى يناير ستة وخمسين ، لماذا لم تنتظر إلى يناير

سنة ١٩٥٦ بدل ما تعمل جهاز سرى[1] ؟ ولماذا تقاوم اتفاقية ؟ . وانتم الهيئة الوحيدة التى قاومتها ، وكل بقية الهيئات[2] بتوع ال ٢٢ مليون متعلمين وغير متعلمين معرفوش يقروها ؟ ملهمش رأى ؟
إبراهيم الطيب : اللى أعرفه أن الإخوان قاموا بتقديم البيان الخاص بنقد الاتفاقية وكان موجها بالذات للرئيس جمال عبد الناصر بس .

الإخوان ومحمد نجيب

وانتقل جمال سالم إلى نقطة أخرى كان يسعى إليها وهى محمد نجيب ناسيا أنه رئيس الجمهورية ولكنه يتكلم عنه كمتآمر أو مواطن عادى وليس مسئولا ، وناسيا أيضا مسألة محاولة اغتيال عبد الناصر فى المنشية موضوع المحاكمة ، وقد جاء إبراهيم الطيب ليكون شاهد إثبات فى القضية .

جمال سالم : متى كان الاتصال الذى وقع أو تم بين رجال جمعية الإخوان على المستوى العالى قوى والرئيس السابق محمد نجيب ؟

إبراهيم الطيب : تحديد الوقت لم أعلمه بالتقريب .

جمال سالم : زى فبراير بالضبط !

قالها فى سخرية واستهزاء من إبراهيم

ورد إبراهيم الطيب :

– ولكن يوسف طلعت قرر أن هناك اتصالا وتفاهما بين الإخوان ومحمد نجيب .

جمال سالم : امتى ؟

إبراهيم الطيب : بعد مارس .

* * *

---

(١) مازلنا نعيش فترة الانتقال هذه ويبدو أنه كان على إبراهيم الطيب أن ينتظر حتى سنة ١٩٨٩ على الأقل وليس سنة ١٩٥٦ حسب نصيحة جمال سالم . فهم أقالوا على ماهر لأنه لم يذكر فى بيانه أن فبراير سنة ١٩٥٣ هو تاريخ الانتخابات وكانوا فى أول الثورة يخافون من الشعب ، ثم رحلوا الموضوع إلى يناير سنة ١٩٥٦ ، ثم ألغوه بعد ذلك إلى الأبد

(٢) لم تكن هناك هيئات فى مصر فى هذا التاريخ بعد إلغاء الاحزاب (المؤلف)

لم يستطع جمال سالم للحظة واحدة طيلة أيام هذه المحكمة – التى ستظل وصمة عار فى جبين مصر كلها – أن يتقمص شخصية القاضى أو يحاول ذلك . بل كان طيلة الوقت سوقيا مبتذلا ينطق بأى لفظ يخطر بباله ، يتصرف كالباعة الجائلين ، ويتكلم كالبلطجية والخطافين مستهينا بمصر كلها ومن فيها ، راضيا أن يجعل من شعبه محل هزء وسخرية العالم أجمع .

وفرش جمال سالم الملاية ! !

جمال سالم : فرصة .. مكسب بسيط .. نضحك على عقل الناس زى ما ضحكنا على عقل الغلابة المساكين بالحريات .. الهط .. ماذا كان المأرب والغرض من هذه المنشورات ؟ وماذا تنتظر أن توجد بين صفوف الشعب ؟ كنت تنتظر إية باعتبارك محامى وراجل من الصف الثالث ؟ كان فيه هتلر .. وهيس ..وجورنج .. اتكم ياجورنج ..

ويضحك كل الخنازير الموجودين بالقاعة .

وأجاب إبراهيم الطيب بعد أن انتهى الضحك ، وبعد أن نظر جمال سالم يمنيا ويسارا إلى زميلين ليرى وقع هذا عليهما ، واربد وجهه عندما رآهما لا يضحكان ، لهذا سارعا بالضحك وأضمر فى نفسه أن يعاقبهما فى الوقت المناسب ، والتفت إلى إبراهيم الطيب الذى قال :

– كنت مجرد فرد فى الهيئة .

جمال سالم : قل لنا ماذا كنت تتوقع أن يتم فى هذه البلاد بمثل هذه الحملات اللى هى مخالفة للمطالبات السرية اللى كنتم بتطالبوا بيها ؟

ورغم الارهاق الشديد والألم البالغ اللذين كان يعانى منهما إبراهيم الطيب إلا أنه مضى مع هذه المهاترات يجيب عليها محاولا التركيز .

إبراهيم الطيب : الذى أعلمه أن الإخوان لم يكونوا سريين فى التعبير عن آرائهم ، ولكنهم تقدموا بمذكرة مسهبة إلى السيد الرئيس وذكروا اعتراضاتهم على الاتفاقية .

جمال سالم : ولما يكون فيه بينك وبين الرئيس موضوع تقوم تقدمه فى منشورات ؟

* * *

إبراهيم الطيب : أنا أتكلم عن المسائل العلنية اللى حصلت .. مش المنشورات .

جمال سالم : أنا أتكلم عن الخطاب الذى أرسل إلى رئيس الحكومة .. وفى نفس الوقت ارسل منه منشورات .. وفى نفس الوقت وقبل أن يصل للرئيس وصل إلى السفارات الأجنبية .. وفى الوقت نفسه وصل إلى جميع الجرائد المحلية والأجنبية وجميع مراسلى الصحف . لما أريد أرسل لواحد تناصح واتكلم معاه فى مسائل تخص مصالح البلاد العليا .. حريات البلاد .. أقوم أبعث منها نسخ لكل الناس .. يعنى قصدى منها إيه ؟

وهنا برزت شخصية إبراهيم الطيب المحامى فقال :

- أنا قلت إن الدعاية كان مخصص لها مكان فى المركز العام .

جمال سالم : وباعتبارك إنك مسئول عن الإخوان المسلمين تعتبر نتيجتها إيه ؟

إبراهيم الطيب : المسائل دى مش من اختصاصى .. مش عايز أحكم عليها ..

جمال سالم : كمواطن تعتقد تكون إيه ؟

إبراهيم الطيب : اعتقد إذا كان الكلام اللى فيها سليم ومطابق للواقع يبقى صح .. وإذا كان غلط لا شك غلط

ويستنطقه جمال سالم بسماجة وإلحاح :

- يوجد إيه ؟
- لخبطة
- واللخبطة تنتج إيه ؟
- لا شك غلط كبير
- إيه نتيجته ؟ لما البنى آدمين مخهم يتلخبط .. يتحدوا ولاّ ينقسموا ؟
- ينقسموا .
- فإذا انقسموا إلى فريقين ماذا يتم ؟
- يصح إن .....
- يصح إيه ؟
- يقفوا أمام بعض .
- ولما يقفوا أمام بعض يعملوا إيه ؟ يسملوا على بعض ؟
- يحدث ارتطام .
- ارتطام إزاى ؟
- إذا كان فيه قوات تقف ضد بعض حيكون حزازات .

– ونتيجة الحزازات التى يمكن تحصل ؟
– انقسامات وحزازات .
– ودى توجد إيه ؟
– ضغائن فى النفوس .
ودى توجد إيه ؟
– ....
– انت راجل صاحب دعوة .. انت بتعلم الناس الدعوة الإسلامية .. لازم تكون راجل فلسفى .. لابد تنزل لأعماق الإسلام ..
– ....
– توجد إيه دى ؟
– تعمل انقسامات فى الأمة .
– ولما تتولد يجرى إيه ؟
– يحدث ارتطام .. ترتطم أجزاء الأمة ببعضها ..
– ولما يحدث ارتطام ؟
– يحصل فرقة .
– والفرقة توجد إيه ؟
– ده كل اللى يحصل .
– فريق منهم مسلح يحصل إيه ؟
– يضربوا بعض .
– ومابالك إذا كان هناك أجنبى راسخ على قلب هذا البلد .. إيه اللى يحصل فيه ؟
– يتدخل الأجنبى .

* * *

هكذا جرى الاستجواب بهذه السوقية والابتذال والبعد عن الأدب مع الاستخفاف بعقل كل من يسمع ويرى ، مع عدم الأخذ فى الاعتبار أية نواحى انسانية تتعلق بهذا الشاهد الذين يضربونه بالسياط ليل نهار .. يجلدونه قبل أن يذهب إلى المحكمة ليكون مؤدبا أمام القاضى الزائف .. ويجلدونه عندما يعود جزاء لجرأته ..

وكان يمكن أن يتم كل هذا بطريقة أقل وحشية ، وفيها أيضا احترام لعقول أولئك الجبناء الذين يسمعون ويرون ، ويضحكون ولايبكون وهم سامدون ، وكان ماحدث فى محكمة الشعب مقدمة طبيعية لما نعيشه الآن !

الإخوان والإنجليز

ويستمر جمال سالم فى مناقشة شاهد الاثبات ضد محمود عبد اللطيف المرحوم الأستاذ إبراهيم الطيب ، وحتى الآن لم يتكلم القاضى فى الموضوع وهو إطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر فى المنشية فيما زعموا .

ويمضى جمال سالم فى الاستجواب :

جمال سالم : كيف تسمح لنفسك أن تشترك فى جماعة تكون هذه هى سياستها باعتبارك مواطن درست فى الحقوق والبلد صرفت عليك ؟

إبراهيم الطيب : الإخوان من أول لحظة كانوا يعدونا لهذا الموقف .

جمال سالم : كيف يعدوكم لهذا الموقف ؟

إبراهيم الطيب : كانوا يتوقعون أن القوات الإنجليزية تتدخل فى أى وقت إذا لم يحصل اتفاق بينهم .. ولذلك كانوا من أول الأمر ..

* * *

وهنا دخل إبراهيم الطيب فى منطقة لا يحب جمال سالم له أن يدخلها فربما يفشى بعض الأسرار ، وكيف أن الإخوان كانوا قد أخذوا على عاتقهم مسألة الإنجليز وتعهدوا بمقاومتهم وإجراء حرب العصابات معهم ، وكانوا يرابضون على طريق القاهرة السويس فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لعرقلة أى تقدم إلى القاهرة ، وكانوا قد أعدوا بعض الفرق لتخوض حرباً شعبية معهم وقد تم ذلك بالتفاهم والتنبيه مع حكومة الانقلاب بمعرفة جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين .

ثم موضوع الحوار الذى دار مع ايفانز المستشار الشرق للسفارة البريطانية ، وأهميته فى تقوية الجانب المصرى فى مفاوضات الجلاء وكيف تم هذا بمعرفة كل من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر . والذى كانت نتيجته مثل تلك الأسلحة التى كانت مخبأة فى بيت عبد الناصر ، ثم نقلها الإخوان فى سياراتهم يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ خوفا من التفتيش بمعرفة منير دلة وحسن عشماوى إلى عزبة الأخير فى الشرقية . واشترك جمال عبد الناصر بنفسه فى إعداد مخزن جيد لها لا يسمح بفسادها ، وعندما قامت الثورة وسألوه أخذ هذه الأسلحة قال لهم دعوها يمكن يُنْتَفَع بها يوما ما . وفهم يومها الإخوان أنه يقصدهم أما هو فقد كان يقصد نفسه ، فبعد الحل الأول فى يناير سنة ١٩٥٤ نزلت الصحف تعلن عن ضبط أسلحة ضخمة للإخوان المسلمين . وهكذا انتفع بها .

ولما كان الجمهور ضعيفا ومستذلا ومطيعا قاطع جمال سالم الشاهد :
جمال سالم : ولذلك الهضيبى تقابل مع ايفانز .
إبراهيم الطيب : عملت أن هذه المقابلة ...
وقاطعه جمال سالم صارخا قبل أن يكمل كلامه .
جمال سالم : أنت لا تعلم شيئا إلا من يوسف طلعت .. فعلمت من مين ؟

وابتسم إبراهيم الطيب ساخرا بين نظرات الاعجاب التى لم تستطع الخنازير أن تخفيها وأجاب :
إبراهيم الطيب : من الدكتور حسين كال الدين .
جمال سالم : أنا غلطان ..
إبراهيم الطيب : قال لى إن هذه المقابلة لم تكن بناء على طلب الإخوان بل بناء على طلب المستر ايفانز ، وتفاصيلها تدور حول:هل من الممكن الوصول إلى حل سليم يرضى البلد وترضى الحكومة والأوضاع الشعبية أولا ؟

جمال سالم : واحنا تعلمنا وحضرتك متعلم حقوق .. ومعاك ليسانس حقوق .. وتعرف وتفهم قضايا .. وتمحصها وتحسن فيها .. تعلمنا من وسائل الانجليز المستعمرين ٧٢ سنة .. هذا غير الذى قرأناه عن الهند .. ما هى وسائل الانجليز ؟
ويبدو أن إبراهيم الطيب قد شرد نتيجة الارهاق وذلك الحديث الذى لا طائل من ورائه فانتبه إلى السؤال فجأة فقال :
إبراهيم الطيب : أيوه ..
جمال سالم : إيه هى ؟
إبراهيم الطيب : اللف والدوران .
جمال سالم : وإيجاد ..
وسكت جمال سالم كأنه يعلم طفل صغير فيتركه يكمل ، واستجاب له إبراهيم الطيب فلم يكن أمامه غير هذا فأكمل :
إبراهيم الطيب : الفرقة .
وعاد جمال سالم إلى الطريقة المملة السمجة بغض النظر عن أى شىء .
– يبقى لما طلبوا الهضيبى عشان يعملوا إيه ؟
– أيوه .

ـ بتعمل إيه ؟
ـ مااعرفش ..
ـ علشان يصالحونا على بعض ؟
ـ لا .
ـ طلبونا علشان إيه وفيه وفد رسمى يتفاوض ؟
ـ قال الدكتور حسين كمال الدين إن المرشد استأذن .
وتجاهل جمال سالم هذه العبارة واكمل :
ـ ماذا يكون مأرب الانجليز ؟
ـ انقسام بلا شك .
ـ كيف يسمح المرشد حسن الهضيبى والإسلام يحض على الاتحاد أن يقابل الانجليز من غير رأى الحكومة ؟
ـ الذى علمته أنه أخبر ...
وصرخ جمال سالم :
ـ علمت من مين ؟ من حسين كمال الدين أو يوسف طلعت ؟
وفى هدوء وثبات قال إبراهيم :
إبراهيم الطيب : من حسين كمال الدين ومن المرشد نفسه .
وهنا هاج وماج القاضى قليل الحياء وصار كالمجنون وهو يردد كلاما غير مترابط :
جمــال سالــم : يكونش حسين كمال الدين ربنا بتاعك والا تعتقد فى المسيحية God The Son God The Father .. يكونش الاله الرب هو الابن والرب هو الأب .. يكونش الاله الاكبر والاله الأصغر .. كلام يوسف طلعت وكلام المحترم التانى حسين كمال الدين لا ينقضا اطلاقا ؟ ولايناقشا عقلا ولا دينا أى شىء اطلاقا أمام كلام الحكومة ؟ ويقام سراً .. وعلى طول تعمل جهاز سرى وأسلحة ونعمل منشورات وندس .. ليه ؟
إبراهيم الطيب وهو متماسك ولا يزال على هدوئه رغم كونه فى مستشفى للمجانين وليس أمام محكمة أقل ما يجب أن تتصف به هو الوقار :
ـ الذى ذكره لى المرشد نفسه فى هذا الاجتماع أنه كان يعلم حقيقة نوايا الانجليز .. ولذلك كان الاستعداد قائم ...
وقاطعة جمال سالم صارخا :
ـ عاوز يحطهم تحت وصايته ؟

إبراهيم الطيب : كان مقتنع كما فهمت بأن الانجليز مراوغون ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يؤمن جانبهم

وهنا قال جمال سالم كلاما فارغا كاذبا غير صحيح وهو فى غاية الهياج متجاهلا كل شيء ، زاعما أن ما يقوله قد نشر فى الجرائد . الأمر الذى لم يحدث !!
جمـال سالـم : أعلن المرشد العام فى تقرير منه وأعلن على صفحات الجرائد أنه قد تكلم مع الانجليز واتفق معهم أو قبل أن يتفق معهم على أنهم يخرجون من القتال ..ويعقد اتفاق سرى ما بينه وبين الانجليز علشان يعطى حق للانجليز لاحتلال جميع هذا القطر فى أى وقت .. مضللا بذلك الـ ٢٢ مليون ويعمل فى الخفاء كما يعمل الجهاز السرى الذى يأتمر بأمره ورشده .. مش كده .. رد يامحامى .. رد ياقانونى ..

وكان الصمت والذهول يلفان القاعة ، وبدا على إبراهيم الطيب القلق .. لقد جن القاضى فماذا يفعل .. قد تطورت حالته .. وها هو ذا يهذى .. ماذا يقول له وكيف يرد عليه ؟ ... فلم يكن هناك شيء من هذا على الاطلاق .. لا نشر فى جرائد ولا فى كتب .. وبأى صفة يعقد المرشد العام اتفاقية مع الانجليز وهو ليس حاكما ؟ وتمالك إبراهيم الطيب نفسه بصعوبة وقال :
– هذه مسائل .. لم أفهم هذا المعنى .

واستمر جمال سالم فى هياجه حتى خافه كل من فى القاعة ، وكانت يدا رمسيس أفندى كاتب الاختزال ترتعدان من الذعر وهو يسجل وقائع هذه الجلسة الغريبة !!
جمـال سالـم : رد ياللى بتشتغل فى مكتب عوده ... رد ياللى بتترافع أمام المحاكم بالاسلام .. رد ياراجل ياللى قائم بدعوة الإسلام .. رد ياللى بتعلم محمود عبد اللطيف الإسلام ..
ووقف ابراهيم الطيب صامتا لايدرى بماذا يرد على هذا المجنون .
جمـال سالـم : اتكلم ..
إبراهيم الطيب : ده اللى فهمته ياسعادة الرئيس من الكلام الذى قيل لى .. سعادة الرئيس ! !
وقعت الكلمة فى سمع جمال سالم فكان لها جرس جميل وغريب ..

سعادة الرئيس ! !
ما أحلاها من كلمة .. متى يتحقق هذا ؟ الصبر قليلا .. سوف أفرغ من الإخوان ثم أبحث كيف أنتهى من أولئك الأغبياء .. ولكن لابد أن أبدأ بصاحب هذا « المولد » جمال عبد الناصر ، الذى اقيم له فى غفلة من الزمن .
وهدأ جمال سالم تماما عندما سمع هذه الكلمة وكان لها مفعول السحر .. سعادة الرئيس !!

الاقتراب قليلا من الحادثة

أدرك إبراهيم الطيب رحمه الله بذكائه تأثير كلمة الرئيس على جمال سالم ولهذا استخدامها كثيرا بقية الجلسة عساها تهدىء ذلك المجنون الذى يحلم بالرئاسة وهو لا يعرف انه لن ينالها أبدا .
وغير جمال سالم الموضوع بعد أن هدأ تماما وسأل إبراهيم الطيب :
– لماذا اختبأت عندما ضرب محمود عبد اللطيف جمال عبد الناصر وكل ما قيل على لسانك من كلام ؟
وكالعادة لا يعطى فرصة للشاهد المتهم أن يقول كلاما مفيدا .. فقد بدأ ابراهيم الطيب الكلام فقال :
– انا اختبأت يوم تحديد اقامة عبد القادر عودة ..
وسرعان ما قاطعه :
– ومالك وماله ؟
– زميلى فى المكتب .
– يمكن موضوعه لايخصك ..
– بحسب علمى ..
– مش جايز فيه حاجة مش بحسب علمك ؟
– يصح .. لكن مادام عبد القادر عودة محددة اقامته ، ومهدد باعتقاله فى أى وقت .. ما قدرتش أنتظر ..
وانكمش جمال سالم إلى الوراء قليلا وهو يقلد الدلالات فى الأحياء الشعبية :
– بتستخبى ... خايف من إيه ؟
– من الاغتيال .. مش عاوز اعتقل .
– وهل يعتقلوك إذا كنت ما عملتش حاجة ؟

– أنا اعتقلت كثيرا .. والإخوان بيختبئوا ..
– ولما يعتقلوا .. بيطلعوا تانى ؟

وكانت طريقته فى نطق الجملة الأخيرة مبتذلة لدرجة أن إبراهيم الطيب سكت تماما ووقف ينظر إليه .

وهاج جمال سالم صارخا عندما وجده صامتا :

– رد على الكلام المظبوط .. اتكلم .

– كنت خايف من الاعتقال .

– ليه تخاف .. اللى على رأسه بطحة يحس بيها . وانت ايه البطحة اللى على راسك وخايف منها ؟

إبراهيم الطيب : علشان الأستاذ عبد القادر عودة حددت اقامته .

جمال سالم : ما هى الخطة أو التنظيمات التى وضعت فى المكتب واصدرت إلى الجهاز السرى ؟

إبراهيم الطيب : الخطة أبلغها لى يوسف طلعت .

جمال سالم : اذكر الخطة بالتفصيل .

إبراهيم الطيب : كان على أساس الاتصال والتفاهم القائم بين الإخوان من ناحية وبين اللواء محمد نجيب من ناحية أخرى .. واللواء محمد نجيب معه كثير من وحدات الجيش مؤيدة لرأيه .

جمال سالم : كيف علمت أن كثير من وحدات الجيش مؤيدة لرأية ؟

إبراهيم الطيب : هذا الذى ذكره لى يوسف طلعت .

جمال سالم : هل لم تسأله عن توكيد هذه الواقعة ؟

إبراهيم الطيب : مفيش دليل مادى عليها ..

جمال سالم : انت مش عاوز تناقش يوسف طلعت ؟

إبراهيم الطيب : أنا ناقشته

جمال سالم : وبعدين ؟

إبراهيم الطيب : هو قال إن معاه قوات موالية كثيرة وله مطالب تقدم بها على أساس اطلاق الحريات وإيجاد برلمان منتخب .

ولو ظل ابراهيم الطيب رحمه الله حيا حتى اليوم لعلم أن نفس المطلب لا يزال قائما فى نفوس الناس ووجدانهم .

اطلاق الحريات
ايجاد برلمان منتخب !
وإن عجز الناس عن الحصول على هذين المطلبين فسوف يأتى يوما من ينتزعهما انتزاعا ..
واغتاظ جمال سالم وقال :
– بالذمة والشرف .. محمد نجيب طالب باطلاق الحريات ؟ والجمعية التأسيسية طالب بيها يوم إيه ؟ طالب بيها يوم ٢٢ فبراير أو ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٤ ؟ أو طالب بيها يوم أن وقف بميدان الجمهورية فى الشرقة .. وكان بجانبه عبد القادر عوده .. وكان فى صبيحة يوم ٢٨ فبراير وقال للناس الواقفين دون الرجوع إلى مجلس قيادة الثورة : أنا أجيب لكم الجمعية التأسيسية .. هل ذكر هذا الكلام يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٤ أو قبل أن يذكرها بعد عودته فى صبيحة ٢٨ فبراير ؟
إبراهيم الطيب : لا .. من ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٤ .
ووقف جمال سالم على المنصة كالمجنون وهو يصيح :
– انت قلت لا ؟
(ثم وجه سيادته الكلام إلى مندوبى مصلحة الاستعلامات المكلفين بتسجيل المحاكمات)
– أكتب لا بالحرف الكبير وحط تحتها خطين .
ثم عاد الوغد إلى المرحوم إبراهيم الطيب :
– أنا ممثل الشعب وأحس بالذى أحس به قبل ٢٣ يوليو فما يهمنيش إن رقبتى تقطع ولاأخاف وأهرب وأخش جوه الحجر .. بماذا تعلل هذا ؟
إبراهيم الطيب : التعليل والأسباب التفصيلية لست على علم بها .

وانتابت جمال سالم حالة جديدة فقد أخذسمت الفيلسوف ، وربما أحس بهذا فى أعماقه ، وشرد بنظرته وأسند ذقنه إلى يده واتكأ على المنصة ، وحاول أن يغير من صوته وأن يبدو حكيما فى طريقة ادائه وقال سائلا إبراهيم :
– بماذا تعلل هذا باعتبارك محاميا تحلل الأشياء حسب منطوقها وتوجد المفارقات أو الاتفاقات أو الحلقات المتصلة أو المنفصلة بين منطق الحاجات التى وكلت فيها من أصحاب القضايا ؟
وتبادل من فى القاعة النظرات ! !

وصعب على أحد أن يفهم هذه العبارات ! !
ويقينى أن المرحوم ابراهيم الطيب لم يفهمها هو الآخر لأنه قال :
– أنا كنت فى هذه الأثناء معتقل .

واعتبرها جمال سالم اجابة على سؤاله الفلسفى ، وأراد أن يرى الناس شيئا من عبقريته وقوة ذاكرته فقال له :
– خرجت فى فبراير وانت ساكن فى الجيزة فى مصر .
وسكت فى انتظار أن يكمل ابراهيم حديثه وكان ذكيا رحمه الله فقال :
– بعد خروجى علمت أن اللواء محمد نجيب طالب بهذه المطالب .. وأن هناك اتصال وتفاهم بينه وبين الإخوان لاقرار هذه المطالب بس .

واختلط القاضى بالمهرج فى نفس جمال سالم وقال بتؤدة وهو يشعر أنه أعظم من انجبته البشرية وأن هذا ليس مكانه ، بل مكانه هناك بدل ذلك الزنيم أبو منقار الذى تأمَّر عليه فى غفلة من الزمن :
– المنطق بتاعك مبنى على الآتى : تصدق محمد نجيب عشان قال الحريات ..وتصدق الإخوان عشان قالوا الحريات .. ولكن ما هو الشىء المادى أو المعنوى الموجود بينك وبين مجلس قيادة الثورة .. أو الدلائل التى تأخذها عليهم حتى لا تصدقهم وتصدق محمد نجيب ورياسة الإخوان ؟ ليه تصدق دول .. وليه تكذب دول ؟ هل هو حسب الهوى ؟ أو حسب ما يقع فى نفسك ؟ والا إيه الدليل ؟

وشعر بالغبطة والسرور بعد أن قال هذه العبارات وتأكد لديه أنه مبعوث العناية الالهية لانقاذ مصر والعرب ، ورجع بكرسيه إلى الوراء قليلا وهويحلق فوق قصر عابدين والنيل والوجهين البحرى والقبلى ، وحانت منه التفاته إلى صاحبيه فشعر بقرف شديد ، فصرف نظره إلى الضحية يستمع لما يمكن أن يقوله ..

وشعر ابراهيم أن صاحبنا يحلق فوق العالم فقال له :
– أنا قلت لسيادة الرئيس من قبل إن هذه المسألة كانت متروكة ليبحث فيها الإخوان اللى هم فى المجلس الأعلى للإخوان واحنا كانت تجيلنا المسائل مدورسة ومنتهية .
جمال سالم : أو تنفذوا المسائل التى انتهى فيها إلى قرار دون اعلامكم هذا القراروانما الخطة ساعة التنفيذ .. يعنى ديكتاتورية .
إبراهيم الطيب : كان يبحث معاها الهيئة التأسيسية ..

جمـال سالـم : يعنى ديكتاتورية الهيئة التأسيسية كما كانت قبل ٢٣ يوليو .. ديكتاتورية البرلمانات الوفدية والسعدية والدستورية .. وديكتاتورية برلمانات السراى .. مش كان فيه ديكتاتورية البرلمان(١) .

وتردد ابراهيم الطيب قليلا ولكنه وقال :

– كان فيه ديكتاتورية مفيش شك .

– وهل تريد برلمان كبرلمانات قبل ٢٣ يوليو ؟

– لا .

– ليه ؟

– لذلك الإخوان اشترطوا ألا تشوب الانتخابات الشوائب السابقة .

– من يضمن هذا ؟ وماهى طريقة التنفيذ ؟

– هذه مسائل ياسيدى الرئيس أنا لم أبحثها .

– عندما تطالب بأمور وتعلنها على الملأ لابد أن تعرف وتعلم كيفية تنفيذها .. إيه الخطوات التى حطيتها فى دماغك لوجود برلمان ؟

– أنا فعلا لم أتناول هذه المسائل بالتفصيل .

– وليه تأخذها على عاتقك لتعلنها على الملأ لتشكيكها ؟

– تبحث فى الجمعية التأسيسية .

– المجلس الأعلى ديكتاتورى ماشى على طريقة البرلمانات الأولى اللى مش راضى عنها .. ولا واضع خطة أمامك .. بيجى برلمان كويس إزاى ؟ ده انت مش عارف تعدل نظامك .

– كنت سأعدل نظامى .

– امتى ؟

– فى الجمعية التأسيسية كانت تعدل علشان يكون لمجموعات الإخوان فى المناطق الرقابة التامة والاشراف على الهيئة التأسيسية .

جمـال سالـم : وفى الوقت نفسه يكون هناك نظام سرى ؟ هل تناول تعديل هذا القانون تعديل الهيئة العليا لادارة النظام السرى ؟

---

(١) ديكتاتورية البرلمان التى رأيتها فى حياتى – لو صحت هذه العبارة – هى ديكتاتورية برلمان رفعت المحجوب ومعاه الخمسين فى المائة (المؤلف) .

إبراهيم الطيب : نُص فيه على كثير من الأقسام وأنا قلت على كل الأوضاع .
جمـال سالـم : وهل نصت هذه القوانين فى تعديلاتها على الهيئة العليا للنظام السرى المكونة من فرغلى وخميس وطلعت وشادى وعبد المنعم عبد الرءوف برياسة الهضيبى .. هل نصت على ماهى سلطة تنظيم هذه الرياسة بالنسبة للجهاز السرى هل مكتوبة فى القانون .
إبراهيم الطيب : ذكرت مكتب الارشاد .
جمـال سالـم : هل هناك مواد تنص على تنظيم رياسة الجهاز السرى ؟
إبراهيم الطيب : مش موجودة .
جمـال سالـم : اذن لا زالت هذه السرية موجودة بعد تعديل القانون علشان تستعملوها للضحك على عقول الناس .
إبراهيم الطيب : الذى أذكره ياسيدى الرئيس .
جمـال سالـم : قل لى يا سيدى الفاضل هل دى هى الحريات ؟
وكان قد قال هذه العبارة كقطار مندفع قد مات سائقه .
إبراهيم الطيب : القانون ....
وقاطعه جمال سالم وهو يقول له متميزا من الغيظ :
– كم كنت أتمنى أن أقابلك وأنا فى غير هذا المكان .. لم كنت أتمنى أن ألقاك فى غير هذا المكان حتى لا يؤخذ علّى بالشبهة أن اكون متحاملا عليك أو استغل سلطتى .. واقسم بربى أنى برىء من هذا ..
هكذا كان يكلمه وهو شاهد :
فماذا سيفعل به عندما يمثل أمامه متهما فى يوم قريب .

وكان كاذبا ومجرما فقد كان يذهب إليه ليجلده بنفسه فى السجن الحربى أو كانوا يأتون به إليه فى مجلس قيادة الثورة المباركة جدا ليجلده ويعذبه أمام بقية أعضاء المجلس الموقرين .. ثم يقسم كذبا وهو يعلم أن فى القاعة عددا ليس بالقليل يعرف أنه كاذب .
وتجاهل إبراهيم الطيب كل هذا وقال :
– المفهوم ان مكتب الارشاد له السلطة التامة والهيمنة التامة على كل شئون الدعوة .
– مين ؟

– مكتب الارشاد الذى ينتخب من الهيئة التأسيسية حسب التعديل ..

– فيه اختصاصات لمكتب الارشاد أو سلطات له تخول لبعض الناس إقامةأجهزة سرية مسلحة تتبع الجماعة ؟

– لأ ما فيش كلام زى ده .

– مسئولية مين اقامة هذا الجهاز السرى ؟

– مكتب الارشاد لأنه إذا لم يوافق على هذا فهو عالم بوجوده .

– لماذا أخذ بعض المسؤلين أمثال حسن الهضيبى أنه ينشىء باسم الجماعة سراً جهازاً سريا على النظام العسكرى مسلح بأسلحة طويلة المرمى ، قتالة ، فتاكة ، أتوماتيكية ، وكذا متفجرة سرا

– على العموم ...

– تحت مسئولية مين ؟

– النظام كان قائم قبل وجود الهضيبى .

– وهل الاستمرار فى الخطأ يعفى المستمر فى الخطأ ؟

– لأ .. ما يعفهوش .

وجلجل صوت جمال سالم يريد أن يسمع العالم :

– تحت مسئولية من أخذ الهضيبى أو قام يحمل مسئولية تنظيم والاستمرار فى تنظيم وتسليح الجهاز السرى باسم جماعة الإخوان المسلمين سرا ؟ .. أمام من يسأل ؟ واستمد سلطة من مين ؟ نهش الحته دى منين ؟

– هو أدرى منى بالرد على هذا .

– من تعتقد وأنت فى الصف الثالث المسئول عن وجود دولة داخل الدولة ؟

– ماعرفش .

– دول جماعة الإخوان المسلمين ولها برلمان ولك أن تدلى بصوتك .. قل لنا نظام البرلمان المطبق فى الإخوان .

– هو أقدر منى على أن يرد على السؤال ..

– ماتعرفش ؟

– أيوه .

وعاد جمال سالم وارتدى ثوب باعة « الكرشة » عند مذبح زينهم ورفع صوته فقد جاءته الحالة :

– هل هذا هو مستوى الصف الثالث من جمعية الإخوان المسلمين التى تريد فرض الوصاية على الحكومة ؟ وفى الوقت الذى لم تقبل فيه الحكومة فرض هذه الوصاية عليها ولم تقبل التحكم بتاع أنه لازم يكون فيه حكم عسكرى لمدة عشر سنوات تندار وتبين للناس لونا آخر .. هل تعرف إن صاحب الوجهين منافق .. وجمعية الإخوان منافقة ونفاقها فى هذا هى انهادارت وشها للشعب تطالب بالبرلمان والحريات .. تستنتج من كده إيه ؟

وفى شجاعة وحزم رد عليه ابراهيم الطيب :

– أنا يا سيدى الرئيس ماحبش أتكلم فى كلام زى ده .

ووقف جمال سالم على المنصة « يردح » للمرحوم ابراهيم الطيب :

– عاوزك ترد على السؤال .. أنت مجبر بحكم القانون أن ترد على أى سؤال فى أى ناحية من النواحى باعتبارك قانونى وتعرف أمر تشكيل المحكمة ، وهذا الأمر يختلف عن أى أمر شكلت به أى محكمة .

– معلوماتى فى هذا قاصرة .

– قل لى إيه فى تفنينك .

– أعتقد ولاشك فيه كثير من الأعضاء يؤازرون الهضيبى فى هذا الموضوع ومن المسئولين الذين يكتسبوا ثقة الإخوان فى الشعب والمناطق .

– ماذا كان موقفك ؟ وأنت لماذا لم تستقل من الإخوان وأنت تعمل شيء ضد القانون وغير ما يبطن الهضيبى ؟ فممن يأخذ مسئولية أو يستمد هذه السلطة فى أن يقيم نظام مسلح ؟ هل هذا هو نظام البرلمان بتاع الجماعة ؟

– أذكر لحضراتكم فى هذا أنى علمت من الإخوان المتصلين به أن هذا الوضع المقصود به مصلحة البلاد .

– انهى وضع ؟

– هذا التنظيم .

جمال سالم : إزاى وكيف ؟

ابراهيم الطيب : كما ذكرت لسيادتكم أن حضرات أعضاء مجلس القيادة كانوا يشجعون تسيير الفدائيين فى هذا الوضع لذلك .

وهمّ جمال سالم برأسه وبإشارة واضحة من يده لمن فى القاعة أن يحدثوا ضجة ، واستجابوا فى سرعة البرق وصارت ضجة وهمهمات من كل ناحية .

تقول : إيه الكلام ده ؟ لا .. لا .. مش معقول !!

ويعود إليه جمال سالم راضيا :

– سمعت الناس اللى فى الجلسة قالوا لك إيه ؟

– أيوه .

– سمعت الشعب قال لك إيه ؟ رأى من محكمة الشعب .

وبدا التأثر على وجه إبراهيم الطيب وظهرت المرارة فى عينيه ولكنه لايزال قويا متماسكا .. لابد أنهم يشعرون بالتعب بعد حين .

وقال له جمال سالم موبخا :

– التزم الحق .. وإذا كنت كذوبا فكن ذكوراً .

– أنا أقرر اللى اعتقده .

* * *

كان الحوار يدور بين جمال سالم وبين المرحوم الشهيد إبراهيم الطيب والكل صامت يضحك عندما يشير له المخرج ، يحدث همهمة وضجة مثلما نفعل فى تمثيليات الإذاعة فهناك مايسمى بالمجاميع نأتى بهم لمثل هذه الأشياء ، وليس للحوار معنى ، والذى يقرؤه بإمعان يزداد يقينا أن حادث المنشية مدبر ومفتعل ، فما نراه ليس بمحاكمة ، ولانعرف أين يقف إبراهيم الطيب ؟ هل يقف بين المتهمين أو فى صفوف الشهود أو هو يعامل معاملة الصنفين فى آن واحد ، وذلك القاضى الذى ذهب عقله وهو يعبث بمصر وتاريخها من خلال هذه المأساة التى نراها ماثلة لانعرف أين ينتهى حقها ليبدأ باطلها ، أو متى ينهب الباطل ليظهر الحق .. وماهو المطلوب على وجه التحديد وإلى أية غاية تفضى هذه الأسئلة التى لاتمنح الفرصة لمن تلقى عليه ليستكمل إجابتها ، رغم جهده وحرصه وشجاعته فهو يريد أن يرضيهم ويريحهم حتى ينتهوا وينتهى ولكن جهوده تذهب سدى ، ولكنه يقف موقفا فريدا هو غاية الاستشهاد البليغ المؤثر أو الاستعداد له .

من الذى يحاكم فى محكمة الشعب ؟

وجلسات محكمة الشعب طويلة ومملة وقد ملئت بالهراء الكثير ، وقد حذف منها

الكثير أيضا ، وبعد طرحها فى الأسواق علموا أنها تسىء إليهم إساءة بالغة فسحبوها وأخفوها ، رغم ما حذف منها ، وقد تعمدت نقل شهادة إبراهيم الطيب رحمه الله لأهمية شخصيته وأهمية شهادته ، فمن خلال الحوار العجيب نستطيع أن نفهم طبيعة هذه الشخصية ، وهو المتهم بالتحريض على اغتيال عبد الناصر .

ومن ثم كان نقل ماتبقى من شهادته ضد محمود عبد اللطيف نراه مهما ويستحق النظر فهو يساعدنا على تصور منهج أولئك الحاكمين الذين بادو وصاروا أحاديث و لم يعودوا يخيفون أحداً . ومن فهم المنهج نعرف أو يمكننا الحكم على مايمكن أن يفعلوه وما لايمكن .

والنظر والتأمل فى هذا الحوار الطويل يفيد بالتأكيد فهو يقودنا إلى الجزم بعدم جدية الاتهام الذى اندثر عبر سنوات طويلة .

ونحن لانزال فى نفس الجلسة و لم ترفع للاستراحة ، ولايزال فى القاعة الشهيد ابراهيم الطيب صاحب الذكرى العطرة الطيبة يقف أمام جمال سالم لايذكره أحد الآن إلا ويضحك ملء شدقيه للموقف الكوميدى الذى وقفه قاضيا يوما ، وصدّق نفسه بينما ضحك عليه الناس جميعا ، حتى زملاؤه سمعت بعضهم يتندر عليه . ولكن حسب قانون مصر الخالد فموعد محاسبة المجرم بعد انتهاء عهده .

وهذه النهاية تعنى الموت دائما وعندما تمنح الإنسان الفرصة كاملة للنظر والنقد والتحليل وإعطاء الحكم .

* * *

وسارع جمال سالم سائلا :

– سؤال آخر . قلت لك إن جمعية الإخوان نافقت لأنها فى وجه منها ديكتاتورية .. وفى داخليتها لاتتبع نصوص القوانين الموجودة عندها ، ولا تنص فى هذه القوانين عما هو موجود تحت يدها .. وبالوجه الآخر تلتفت إلى الشعب وتنادى بحريات وانتخابات حرة وبرلمانات فى الوقت اللى هى مش واضعة أسس لهذه البرلمانات بل الأسس التى وضعتها ضد ماتنادى به .. ماهو المقصود من هذا وكيف تحلل هذا ؟

ابراهيم الطيب : لا أحلل أى وضع يمتهن كرامة أو حرية الشعب بأى حال من الأحوال وإنما نحن باستمرار نجهز أنفسنا لأى وضع سليم ونظيف .. واحنا لاشك ..

وقاطعه جمال سالم فقد كادت القاعة أن ترتفع منها صيحات الاستحسان لهذه الشجاعة المنقطعة النظير ..

جمـال سـالم : نرجع تانى لقصة نظيف وإزاى البرلمان بيجى ؟

إبراهيم الطيب : مااعرفش وأنا ماكنتش مسئول .

وأراد جمال سالم أن يذهب أثر اعجاب الناس بابراهيم الطيب فأخذ مجلس الفيلسوف وقال له :

– تعرف أنا أحب أقول لك إيه ؟ الجماعة ماعرفتش تأخذ الثورة تحت وصايتها .. وتقوم تدهول الشعب بالحريات يمكن تفلس .. وتيجى وزارة برياسة محمد نجيب وتكون حكومة صورية وتبقى تحت جناحها .. وتشغلها عشرة سنوات بأصابعها كما تطلب .. وزى ماقرر شاهد إننا مش عايزين الحكم الآن إنما قدام .. طمعانين فى الحكم ليه ؟ عاوزين من الحكم إيه ؟

زى ماكان فؤاد سراج الدين وزى الحكومات الأخرى ؟ اللى كانت تيجى وخلت الناس مليانين سل ومليانين فقر وعيا وهم[1] .. مافيش داعى للكلام .. قول ياسيدى .. كمل لنا الخطة .. وإذا ماكنتش تفتكر نقراها لك .

وقال جمال سالم الجملة الأخيرة بلهجة فيها وعيد وتهديد ، يعنى لاتغير أقوالك .

وأدرك إبراهيم الطيب – رحمه الله – أن عليه أن يلتزم بالنص المكتوب فى محضر الأقوال الذى لايدرى إلا الله وحده كيف كتب وكيف وقع عليه ، وإن خرج عن النص فليس فى غير المواقف النفسية وهى الشجاعة والثبات وعدم الخوف والاستعداد للشهادة .

وهذه كانت حال المرحوم الشهيد إبراهيم الطيب عندما كان شاهدا ومتهما .

وقال إبراهيم الطيب :

– كانت الخطة على أساس أن القوات الموالية للرئيس محمد نجيب مع القوات الشعبية ، الاثنان يقومان معاً بعد المطالبة بهذه المطالب .. فإذا قامت هذه الحركة

---

(١) ليت جمال سالم يطلع من الجحيم ليرى ماذا فعل بمصر هو ورفاقه الأحرار ويعرف أنهم أصابوا بمرض عضال لاشفاء منه هو السرطان (المؤلف)

وحصلت اعتداءات عليها فإن هذه القوات ترد على هذا الاعتداء بكافة السبل .

– إزاى ؟

– كالاغتيالات .

– اغتيالات مين ؟

– المعارضين .

– مين ؟

– من أعضاء مجلس القيادة .

– اتكلم بالاسماء .

– ذُكر منهم الرئيس جمال عبد الناصر ، وذكر منهم أسماء أخرى واستثنوا من المجلس ..

– قول أسماء .. انت ماتعرفش التانيين .. هم أحسن من جمال ؟

وابتسم إبراهيم الطيب متحديا وقال :

– اللى علمته اغتيال المجلس كله إذا حصل اعتداء أو ضرب .

– الكل ؟

– ماعدا أفراد معينين للرد على الحركة .

– حركة إيه ؟

– حركة نجيب بالاتفاق مع الإخوان أو بمؤازرتهم .

– يعنى الإخوان عاوزين يعملوا حركة انقلاب مسلح ؟

– كان المقصود الحركة المسلحة تأتى من الجيش .

– يعنى تقوم بانقلاب مسلح بما عندها من الأسلحة ؟

– بالاتفاق مع الجيش[1] .

---

(١) ثبت بعد هذه السنين الطويلة التى انقضت على تلك الحوادث بعد الإطلاع على كافة المذكرات أنه لم يكن هناك ثمة تعاون أو اتفاق أو خطة أو حتى كلام بين محمد نجيب والإخوان الذين كانوا يعيشون على أمل أن تتحرك بعض قوى الجيش لتخليص مصر من ديكتاتورية جمال عبد الناصر ، وحسب المثل ما بين ديكتاتورية وديكتاتورية يأتى الفرج. (المؤلف)

جمـال ســالم : يقوموا يعضدوا الجيش إذا اعتدى عليه حد .. وقبل مايعضدوا الجيش بأفراد الجهاز السرى يقوم الإخوان بتذبيح وتقتيل المعارضين ، وعلى رأس المعارضين جمال عبد الناصر ويليه أعضاء مجلس قيادة الثورة ويليهم ..

وقاطعه إبراهيم الطيب فى بساطة :

– بس .

– من باب العلم .

– بس كده ..

– خسارة والله .

وبسماحة توجه إلى النظارة والحاضرين وقال لهم :

– تصوروا كلكم كنتم حتقعدوا محدش كان حيغتالكم .

وسكت جمال سالم منهكا بينما وقف أمامه إبراهيم الطيب يخفى تعبه تحت ستار التحمل والشجاعة الحقيقية .

ثم أشار جمال سالم بيده إلى المدعى الذى لم يرع اعتبارا لوظيفته فقام على عجل يسأل الشاهد أو المتهم ، فقد صارت القاعة كمسرح بريخت .

المـدعـــى : أنت كنت مودى حزام الديناميت لهنداوى ؟

إبراهيم الطيب : كان المقصود بيه حصول مثل هذا الاعتداء وفيه ناس معارضين ومؤيدين ، فإذا أمكن الحزام يستعمل ...

المـــدعـــى : ضد مين ؟

وشعر إبراهيم الطيب أنهم أسخف مما كان يقدر ولكنه مضطر للاجابة

– ضد أعضاء مجلس القيادة .

– يعمل إيه ؟

– ده حزام متفجر .

وقالها إبراهيم فى سخرية واضحة .

وقال المدعى مستفسراً :

– يلبسه الشخص ؟

وأكمل له إبراهيم الطيب :

– للتفجير ..

المـدعـى : أنت قلت أنكم كنتم محددين أشخاص معينين فى وسط الهيصة يتقدم

الشخص الذى يلبس هذا الحزام - كما قلت فى أقوالك - إلى أحد هذين الشخصين من أعضاء مجلس قيادة الثورة فينفجروا هم الاثنين .
وكأنما قد ساء جمال سالم أن يدخل فى الاستجواب شخص غيره فى هذه النقاط الهامة ، والتى كان ينبغى أن يبدؤا بها ، وربما قد التقط أنفاسه أو استراح .
فتدخل سائلا إبراهيم الطيب :
- اديته لمين الحزام ؟
إبراهيم الطيب : لهنداوى .
جمال سالم : قائد الفصيلة بتاع إمبابة ؟
إبراهيم الطيب : أيوه ..
جمال سالم : أنت ذكرت إنك ماتعرفش قواد الفصائل .
إبراهيم الطيب : هو كان ماسك الفصائل .
جمال سالم : أنت قلت إن ملكش دعوة بالأسلحة .. وماشفتش الحزام امال الحزام ده يطلع إيه ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .. أعطاه لى يوسف طلعت .
جمال سالم : انت كذبت كلامك .. لأنك قلت إن مالكش دعوة بالأسلحة .. وفى هذه الخصوصية قلت إنك رحت لهنداوى دوير وطلبت منه إيه ؟
إبراهيم الطيب : ذكرت له أن هذا الحزام مقصود به استعماله أثناء حصول الاعتداء على القوات أو الحركة بعد حدوثها .
جمال سالم : ماذا طلبت منه ؟
إبراهيم الطيب : يتصرف لأنه قائد الفصيلة .
جمال سالم : يتصرف فى أنهى حدود ؟
إبراهيم الطيب : فى حدود الخطة الموجودة .
جمال سالم : هل اديته الخطة ؟
إبراهيم الطيب : الخطة اللى قلتها بالتفصيل .. وهى إذا قامت القوات الموالية للرئيس نجيب مع قوات الإخوان .. وحصل اعتداء عليها فيرد على هذا الاعتداء
جمال سالم : بالقوات التابعة لمحمد نجيب فى هذه الحالة .. وقلت لهنداوى يعمل إيه بالحزام ؟
إبراهيم الطيب : يدى الحزام للشخص الذى يثق فيه ليقوم بتفجير هذا الحزام .
جمال سالم : فين ؟

إبراهيم الطيب : ضد الأشخاص أو الشخص من أعضاء مجلس القيادة الذين كانوا يتعرضوا لهذه الحركة .

ويتدخل المدعى فهو يلمح أمارات التعب على القاضى الفيلسوف .

المــدعــى : لقد حددت له الأشخاص .

إبراهيم الطيب : هو كان الكلام بصفة عامة .. إنما حصل تحديد على أساس إنه الرئيس جمال .

جمــال ســالم : امتى ؟

إبراهيم الطيب : نعم يافندم ..

جمــال ســالم : امتى حصل هذا التحديد ؟

إبراهيم الطيب : فى أثناء شرح الخطة .

جمــال ســالم : فى يوم إيه ؟

إبراهيم الطيب : مش متذكر بالضبط .

وكان جمال سالم قد استجم قليلا فى الدقائق التى مضت ، واستعاد نزعته العدوانية ، وانفجر كالعادة فى إبراهيم الطيب .

جمــال ســالم : دى مسألة زى قزقزة اللب .. كل يوم بتاخد أحزمة وبتدى أوامر .. يعنى المسألة زى قزقزة اللب .. لدرجة إنك أخذت الحزام وفيه مفجرات .. وقلت لواحد إنه يكلف واحد علشان يلبسه ويعبط الرئيس جمال عبد الناصر ويفجره .. الحاجات دى متذكرش وقتها .. وتمام زى قزقزة اللب .. لأنك بتستعملها باستمرار .

وهكذا تحول الشاهد إلى متهم ..

وحكم عليه وأدين ..

ولم يعط أية فرصة للرد أو الشرح ..

وحاول أن يرد ولكنه شجب ..

إبراهيم الطيب : لأ .. أبدا .. دى أول مرة فى الحقيقة إ ...

وأسرع جمال سالم يرد عليه ويصادر على إجابته ، وهو لم يزل شاهدا بعد !

جمــال ســالم : إذا كنت راجل زى مابتقول فى الصف الثالث ، وتعرف الدعوة .. وبتدعو للدعوة الإسلامية وتعاليم الدعوة الإسلامية .. وتثق فى الدعوة الإسلامية ..

وفى تعمق مفهوم الدعوة الإسلامية كان ضميرك ساعة ماتيجى تنام يؤنبك .. وكانت دماغك تلف وتدور وتشوف هيصة وزمبليطة وتتجنن .. ده إذا كان عندك ضمير .

ونظر إليه إبراهيم الطيب راضيا مستسلما فلم يكن يملك من أمر نفسه شيئا ، وليس عنده مايرد به على هذا المجنون الذى تحول صارخا إلى من فى القاعة :

جمال سالم : إذا كان الكلام ده غلط ياإخوانى والله أنا أحب إن محكمة الشعب تعرف رأيكم .. وتقولوا إن الكلام ده غلط .. بمنتهى الحرية والصراحة .

هكذا !!

وحدثت ضجة وهمهمات !

وأشار جمال سالم إلى أحد المخبرين الجالسين فوقف وقال :

المخبر : الشعب يطلب تفجير اللغم فيه .

وأراد وكيل النائب العام أن يعمل على الحفاظ ماأمكن على شكل الإجراءات .. فوجه كلامه لإبراهيم الطيب :

وكيل النائب العام : انت اديته الحزام وحددت له الشخص ؟

ونظر إليه إبراهيم الطيب قليلا وهم بالرد فلحقه سؤال جمال سالم موجها إلى وكيل النائب العام :

– فى أثناء الكلام ده أنت حددت له الشخص إنه الرئيس جمال عبد الناصر .

وكيل النائب العام : وآخر ؟

جمال سالم : مين ؟

وكيل النائب العام : سيادة البكباشى زكريا محيى الدين .

وضحك كل المخبرين بالقاعة فقد كان زكريا محيى الدين هو وزير الداخلية .

وتدخل رئيس النيابة لينال حظا من الأضواء التى تومض مع عدسات المصورين :

– وقال فى أقواله إذا فشل فى الوصول إلى الرئيس جمال عبد الناصر فيعمل عمله برضه مع السيد وزير الداخلية .

جمال سالم : وبعدين ؟

وانتبه إبراهيم الطيب إلى أن جمال سالم ينظر إليه .. ولكن ماذا يقول ؟ وأكمل جمال سالم كلامه :

– وبعدين قامت الإخوان بثورة شعبية وبمظاهرات إخوانية .. وبعدين الشعب عارضهاأو قوات القيادة عارضتها .. راحت قايمة قوات محمد نجيب تضرب فيهم ..

ده يغتال ده ..وده يغتال ده .. وانهزمت الحكومة وانتصر الإخوان .
ونظر إلى إبراهيم الطيب ينتظر إجابته على هذا الهواء .
إبراهيم الطيب : ياافندم ..
وسكت لأنه احتار .. ما الذى يمكن أن يقوله ..
وبإصرار وإلحاح قال جمال سالم له سائلا :
- ماهو الترتيب الذى سيعمل لإدارة دفة البلاد ؟
وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ! !
وقال إبراهيم الطيب :
- دى مسألة فعلا كانت من اختصاص المجلس العالى أو مكتب الإرشاد .
- ألا تهمك فى شىء ؟ فى كثير أو قليل مثل هذه المسألة ؟
- لا شك تهمنى ولكن كل واحد بيلزم مكانه المخصص له .
- إلى أن تتم العملية ؟
- أيوه .
- وبعد أن تتم العملية ؟
ولا يستطيع إبراهيم الطيب أن يجاريه بالمنطق والحوار ، فهو كالحاوى الذى يقف فى سوق من أسواق الأرياف يسأل ويرد على نفسه ، وهو سيد الموقف فى السوق .
جمال سالم : يخرج يوسف طلعت بالجهاز بتاعه ويعمل انقلاب ضد حسن الهضيبى .. ويقلب حسن الهضيبى .. ويجى يوسف طلعت .. يطلع إبراهيم الطيب ويعمل جهاز سرى يقلب بيه يوسف طلعت .. وبعدين يجى إبراهيم الطيب ، ثم ركز جمال سالم نظره فى وجه إبراهيم الطيب الذى صار ينظر إليه ثابتا ولكن لا يرد عليه ، فليس هناك ما يمكن الرد به ..
ويستمر جمال سالم فى مونولوجه :
- يعنى يبقى فيه جيشين فى بلد واحد .. جيش أحرار وجيش إخوان .. ده الوضع اللى فى دماغكم ..
وقالها على شكل قرار وليس سؤالا .
وابراهيم الطيب مستمر فى صمته الهادىء الرزين متأملا هذه الملهاة صابرا عليها .
وكيل النائب العام : اشرح للمحكمة كيف طبع ووزع المنشور الذى صور من الإخوان باسم ...

وقاطعه جمال سالم مغتاظا موجها لإبراهيم الطيب :

– *يابختك بهدوئك وتقلك وبتتكلم على حزام متفجر .. رايح تلقى أوامر لواحد* علشان يغتال جمال عبد الناصر أو زكريا محيى الدين .. ومظاهـرات شعبية ..وانقلابات منتظرين فيها حرب أهلية وواقف هادى ..

وكان إبراهيم الطيب رحمه الله يتمتم فى نفسه « بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون »

واستفاق على صوت الضحكات العالية فى المحكمة وهو لا يعرف سببها ثم نظر فوجد جمال سالم ينظر إليه منتصرا متشفيا قادراً أو هكذا يظن .

جمـال سالم : قائد متين ..

إبراهيم الطيب : احتراما للمحكمة .

ولمح جمال سالم سخريته فى عبارته ونظرته فقال :

– احتراما للمحكمة ؟

– أيوه .

– أهلا وسهلا .. ياسيدى تشكر .. على العين والراس احترامك ده للمحكمة ، وتتعالى الضحكات فى الصالة وكان العرض رخيصا مبتذلا بكافة المعايير ..

منشور محمد نجيب يوزعه الإخوان

وبعد أن انتهت النكت والقفشات وهدأ القاضى واستراح ، قام وكيل النائب العام ليسأل :

– اشرح للمحكمة كيف طبع ووزع المنشور الذى صدر من الإخوان المسلمين باسم اللواء محمد نجيب .. اشرحها من الأول .. احكيها من الأول .. كل هذه الساعات وابراهيم الطيب يقف ثابتا على قدميه رغم ما يعانى وهم يتناوبون عليه فى الأسئلة والإرهاق .. هذا يسخر ما شاء الله له أن يسخر ثم يستريح ويقوم غيره .. على النحو الذى يحدث فى السجن الحربى تماما ..ففرقة تقوم للضرب وعندما تتعب تسلم لأخرى .. والضحية صامدة .. أو لا تتحمل وتموت .

وقال إبراهيم الطيب :

– فى يوم من الأيام رأيت مع الأستاذ عبد القادر عودة ورقة مكتوبة بالرصاص مسودة و بدون توقيع ، وبخط يخالف خط الأستاذ عبد القادر .. وقد طلب منى

الأستاذ عبد القادر إنه .. هل أعلم بوجود أحد يستطيع أن يطبع هذا الكلام والا ما فيش ..فأنا لاحظت ان هذا الكلام فيه نقد وارد باسم الرئيس محمد نجيب للاتفاقية التي عقدت .. وكان الأستاذ عبد القادر .. كان مشتركا فى اللجنة القانونية التى كانت فى المركز العام ، والتى على أثرها صدر بيان من الإخوان ..وسلم إلى الرئيس البكباشى جمال عبد الناصر .. فأنا ذكرت له إنه فيه بعض إخوان يستطيعوا أن يقوموا بطبع هذا الكلام .. وفعلا أخذنا هذه الورقة ..وقمنا بطبعها .. ووزعت على رؤساء المناطق فقاموا بتوزيعها .

* * *

وقبل أن نمضى بعيدا فى هذا الاستجواب نقف وقفة !

فهذا رئيس الجمهورية يريد أن يقول رأيه فى أمر سياسى بالغ الخطورة ، وهو اتفاق جلاء الانجليز عن مصر فماذا يفعل

لايملك إلا أن يكتب منشورا ويبحث عمن يوزعه بعد أن يطبعه !

ولك أن تتخيل أيها القارىء العزيز كيف كانت تسير الأمور فى مصر المحروسة ..

رئيس الجمهورية يعرف خطأ الاتفاقية ، ويعرف أن صدق أخذ شروطا خيرا من هذه فى تفاوضه مع الإنجليز .. ولكن الحرية أسقطته ..

لم يكن لرئيس الجمهورية حق النقد فما بالك ببقية المواطنين من الدهماء !

ألا تتخيل معى أيها القارىء العزيز أنه قد حاول أن يبين وجهة نظره للضباط الصغار الذين صارت بأيدهم مقاليد الأمور ؟ وأنهم رفضوا الاستماع إليه .. فهم يفكرون فى نصر رخيص حتى يقال إنهم أخرجوا الإنجليز من مصر ، وبغض النظر عن التفاصيل وعن الأرباح والخسائر والانتقاص من الاستقلال ، فهم سوف يكممون الأفواه ، ولن يفتح واحد فمه بكلمة ..

والعبرة واضحة فى رئيس الجمهورية الذى يوزع منشورات يقول فيها رأيه ..

ويسأل وكيل النائب العام :

– كيف طبعت ؟

إبراهيم الطيب : طبعا فى جهاز طباعة ..

وكيل النائب العام : جهاز الطباعة ده إيه ؟

إبراهيم الطيب : ماكينة رونيو كانت موجودة فى حوزة الأستاذ محمد عبد العزيز نصار .
وكيل النائب العام : كيف وزع المنشور ؟
إبراهيم الطيب : وزع عن طريق رؤساء المناطق على جميع الإخوان فى الشعب

ويعود الحوار فى لكاعة وعدم تركيز بعد هذا الإجهاد الذى لحق بكل من فى القاعة .

وكيل النائب العام : يعنى انتم اللى طبعتوها ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
وكيل النائب العام : طبعتوها فين ؟
إبراهيم الطيب : فى ماكنية محمد عبد العزيز نصار .
وتدخل هنا البطل المغوار جمال سالم وبصوت كعواء الذئب :
— فين ؟
إبراهيم الطيب : احنا حددنا المكان وأرشدنا عنه .
جمال سالم : فى أى حته ؟
إبراهيم الطيب : حددناه فى مكان فى مصر الجديدة .
جمال سالم : شارع إيه ؟
إبراهيم الطيب : الشارع مش متذكر اسمه .
جمال سالم : تعرف اسم صاحب البيت ؟
إبراهيم الطيب : اسمه الأستاذ محمد أحمد عبد الرحمن .
جمال سالم : بيشتغل إيه ؟
إبراهيم الطيب : ده قومسيونجى .
جمال سالم : والآلة دى موجودة فى بيته ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمال سالم : جنسها إيه ؟
إبراهيم الطيب : جستنر .
جمال سالم : وبعدين ؟
إبراهيم الطيب : وبعدين طبعوها ووزعوها على رؤساء المناطق بواسطة الإخوان .

وكان الاستجواب يدور بطريقة ليس فيها تركيز ..
فعندما يطرأ موضوع يناقشونه بطريقة سقيمة لا معنى لها .
وهى جلسة مفتوحة ..
قد استوى فيها المتهمون والشهود .
ووقف الدفاع والادعاء على منصة واحدة .
كلامهما واحد بلهجات مختلفة .
موضوع محاولة محمود عبد اللطيف لاغتيال عبد الناصر المزعوم جانبى وغير أساسى ، وأخذ من الاستجواب الذى ملأ عدة الآف من الصفحات القدر اليسير .
رغم أنه الموضوع الرئيسى !
ورغم أن المحكمة قد عقدت لمحاكمته !
وهو المتهم الأول !
وكل هذا المهرجان من أجل إقناع الرأى العام بأنه قد فعلها .
ولم يقتنع الرأى العام حتى الآن !
نص ردىء وممثلون هواة ، ومخرج لم يتمكن من أدواته .
وكانت المحاكمة مهرجانا سخيفا ..
وانبرى وكيل النائب العام :
- المنشورات كانت بتطلع من عندكم إزاى ؟
إبراهيم الطيب : فيه لجنة اسمها لجنة الدعاية فى المركز العام كانت تؤلف المنشورات ثم تسلك أحد أمرين : إما أن تطبعها فى جهاز الطباعة الخاص بالنظام الخاص .. أو يكلف بها أفراد آخرون لتطبع فى مطابع عامة .
وكيل النائب العام : مين اللى كان بيفبركها ؟
- كان فيه لجنة برئاسة السيد قطب .
وكيل النائب العام : وظيفته إيه ؟
إبراهيم الطيب : كان مدير تعليم .
ويحاول وكيل النائب العام أن يقلد جمال سالم فى السخرية من الشاهد فجاء هذا التقليد سمجا ممجوجا لحظه كل من فى القاعة .
فهناك فرق دائما بين الأصل وبين التقليد .. انت تضحك عندما ترى نجيب الريحانى

يمثل وتراه فى مواقف كوميدية ، ولكنك قد تصدم لو رأيت أحدا يقلده ، ولن يأتيك نفس الإحساس أبدا ..

وقال وكيل النائب العام ساخرا :

– كان بيفبرك المنشورات دى ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .

عودة إلى منشور الرئيس نجيب

وكيل النائب العام : وصلت ازاى المسودة اللى انت قلت لنا عليها .. اللى هى أصل المنشور بتاع محمد نجيب .. وصلت إزاى لعبد القادر عودة ؟

إبراهيم الطيب : ما قاليش بالضبط .. إنما علمت انه كان عن طريق شخص مجهول بالنسبة لى .. لا أعرفه ..

وتدخل جمال سالم فقد أخذ راحته بعض الوقت :

– مجهول بالنسبة لك ؟

واستسخف إبراهيم الطيب السؤال .. ولكن كم من سؤال سخيف أجاب عليه ؟

إبراهيم الطيب : يعنى لا أعرفه .. الورقة كانت مكتوبة على أساس انها لمراسل من مراسلى الجرائد لما ييجى يسأل واحد .

وكيل النائب العام : وليه وصلت لعبد القادر عودة بالذات ؟

إبراهيم الطيب : ما اعرفش ..

جمال سالم : ما هى النقاط اللى فى المنشور ده ؟

إبراهيم الطيب : نقد للاتفاقية .

جمال سالم : ما هى هذه النقاط التى تنقد هذه الاتفاقية ؟

ولأول مرة ينظر إبراهيم الطيب ناحية جمال سالم باستياء وغضب وقرف ولم يرد عليه ..

وتجاهل جمال سالم هذه النظر وقال له :

– عدّدها واذكرها .. انت موافق عليها لأنك بتعتقد أو بتقول على الأقل إنك تعتقد إنها سياسة صح .. وأن النقط التى اثيرت ضد الاتفاقية صح .. وفى الوقت نفسه أخذت المنشور اللى بخط الرئيس السابق للجمهورية محمد نجيب .. أخذت الكلام ده ورحت على مطبعة فى مصر الجديدة وطبعته وفرقته على رؤساء المناطق ..

والنقط اللى فيه .. افتكر إنك ما تقدرش تواجه الناس وتقول أنا ما أعرفهاش ..

إبراهيم الطيب : مش متذكر بالضبط .

وهاج جمال سالم ووقف على المنصة كالأراجوز وبأعلى صوته :

– ماباقولش صمها وحفظها لى زى القرآن .. قل فقط ما هى النقاط .. النقطةالفلانية .. والنقطة الفلانية .. ياللا ..

وأخذ إبراهيم الطيب نفسا عميقا ، وبدا مطمئنا رغم الإرهاب والإرهاق وقال :

– كانت تنصب بالذات حول التحالف مع تركيا .. واعتبار الاعتداء على تركيا يبيح للقوات الإنجليزية إنها تدخل الأراضى المصرية وتستغل الموانىء والمطارات[1] وما شاكل ذلك .. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى على ما أتذكر كان موضوع خطر الحرب .. كان أيضا مما أثارته هذه الورقة وتكلمت عنه بإسهاب .. وقالت إن خطر الحرب يعتبر موجود من الآن ، وعلى هذا الأساس تبقى القوات الإنجليزية مش حتطلع من مصر خالص .. لأن خطر الحرب موجود .. ويبقى الإنجليز ما يطلعوش .

جمال سالم : متى وصلت هذه الورقة ليدك لطبعها ؟

إبراهيم الطيب : بعد مارس سنة ١٩٥٤ .

جمال سالم : امتى بالضبط ؟

إبراهيم الطيب : بعد توقيع الاتفاقية .

جمال سالم : النهائى أو بالأحرف الأولى ؟

إبراهيم الطيب : لا .. قبل توقيع الاتفاقية النهائى .

نقد اتفاقية الجلاء

جمال سالم : كيف تهاجم اتفاقية لم يتم التعاقد عليها ؟

إبراهيم الطيب : هى كان فيها نقد للاتفاقية ..

جمال سالم : بالنسبة للنقاط الأولى ؟

إبراهيم الطيب : أيوه ..

جمال سالم : دى ما فيهاش خطر الحرب ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .

---

(١) الله يرحمك ياابراهيم ياطيب لقد استغلت أمريكا مطارات مصر فى إرسال قوات إلى إيران لإنقاذ الرهائن بدون معاهدات أيام السادات (للمؤلف)

جمـال سـالم : إزاى تسمح لنفسك إنك تروح تطبع منشور ، وتبعته للناس ، فيه كلام لم يأت ذكره بالنسبة للنقاط الأولى للاتفاقية ومضاه الطرفان بالأحرف الأولى ؟

إبراهيم الطيب : اللى أنا ..

وقبل أن يكمل قاطعه جمال سالم صارخا :

– أنت قررت الآن إن هذا المنشور فيه مهاجمة علشان خطر الحرب ، وإن النقاط الأساسية فى الاتفاقية الممضاة بالأحرف الأولى مكانش فيها خطر الحرب .

إبراهيم الطيب : سبب هذا إن عبد القادر عودة باعتباره رجل ثقة ، وسبق أن اشترك فى اللجنة القانونية الخاصة بنقد الاتفاقية .

جمـال سـالم : نقد الاتفاقية .. ؟

وقال إبراهيم الطيب مصححا لكلام سقيم لا يسمن و لا يغنى من جوع :

– مشروع الاتفاقية .

– مع مين ؟ مع الحكومة ؟

– لا .. ده كان نقد المشروع اللى نشر فى الجرائد .

– كان فيه لجنة اتصال ؟

– كان فيه لجنة قانونية .

– واللجنة دى كانت بتشتغل مع مين ؟

– اللجنة دى اجتمعت لبحث مشروع الاتفاقية .

– مع مين ؟

– بحثت النصوص .. قدمت الاعتراضات على الأسس الموجودة .

وبدا جمال سالم مثيرا للقرف والملل وهو يتكلم فى أمور لا معنى لها ولا دخل فى تفاصيلها بحادث المنشية ، وقد ابتعدنا كثيرا عنه .

وقال جمال سالم :

– الأسس اللى ما فيهاش خطر الحرب .. ده ماله باللجنة القانونية وماله بالكلام اللى احنا بنقوله .. وهو ان نقطة خطر الحرب كانت موجودة فى هذا المنشور ، فى حين إن الاتفاقية وأسس الاتفاقية الممضاة بالحروف الأولى ، وهى سابقة لهذا المنشور لم يأت فيها ذكر خطر الحرب .. قلت الأستاذ عودة .. ماله الأستاذ عودة ؟

إبراهيم الطيب : هو باعتباره رجل قانونى قال لى كده .. فأنا أخذت بكلامه ..
وهاج جمال سالم وقام يرقص على المنصة ويرتفع صراخه وهو يحدث المتفرجين :
– كلامه قضية مسلمة ! هذه هى الديكتاتورية يا حضرات المحترمين .. هذه هى الديكتاتورية أيها المواطنون .. محامى بيدافع عن قضاياكم أمام المحاكم ..وعودة يقول له حاجة غلط زى الشمس بتطلع من الغرب يقوم يصدقه ..لأن عودة من جمعية الإخوان المسلمين .

وضجت القاعة بالضحك لنكتة غير مفهومة من النص المكتوب ، ولكن بعض شهود العيان قال إن جمال سالم كان يأتى بحركات كوميدية تثير الضحك .

واستمر جمال سالم :
– ماتقدرش ترفض له أمر .. عبد القادر عودة .. حتى ولامرة ؟
وفى ثبات وشجاعة رد عليه إبراهيم الطيب :
– أعتقد أن رأيه كان سليماً .
وكفت القاعة عن بقايا الضحك المتناثر هنا وهناك ، وساد الصمت احتراما لهذا الشاب الغريب الذى يقف بين فكى الأسد ولم يفقد هدوءه واتزانه ..
ودهش أيضا جمال سالم ، وشعر أنه لا يخيفه فسأله :
– حتى لو قال للناس الشمس بتطلع من الغرب .. تقول أيوه ؟
ولم يفقد إبراهيم الطيب اتزانه وقال :
– أعتقد أن هذه النقطة موجودة .
– هل قرأتها ؟
– لا .. ما اقدرش أقول إنى قرأتها .
وذهل جمال سالم من إجابة إبراهيم الطيب وقال :
– سمعت كلام عودة .. حضرتك محامى ولم تقرأ الاتفاقية .. وتأخذ كلامه قضية مسلمة بدون الرجوع إلى الأصل ..
وبدت الحيرة على وجه جمال سالم الذى امتلأ بالغيظ ، فهو يريد إذلال المشاهد ولكنه لايستطيع ، يريد أن ينال منه فلا يقدر .. يأتيه عن يمينه وعن شماله فلا ينفذ إليه واربدّ وجهه وأكمل حديثه :
– والله أنا أعتقد .. أنا سأترك رأى المحاماه فيها لأهل المحاماه .. وسأترك رأى

المواطنين فيك للمواطنين .. وسأترك رأى المسلمين فيك -كمسلم - للمسلمين وقل لى بقية شهادتك من فضلك .

وظل إبراهيم الطيب صامتا ! !

أى شهادة تلك التى يطلب منه أن يكملها ؟

لم يأتوا به للشهادة .. لقد جاءوا به للهزء والسخرية ..

وواضح أنه قد انتصر عليهم بثباته وشجاعته وعدم تخاذله .

انتصر عليهم لأنه عرف أن النتيجة هى رضوان الله بالشهادة ..

عرف مكرهم ، وبطل فى نفسه سحرهم ، وقدر عليهم ، واستقام الحق فى وجدانه ..

لم يكن عند إبراهيم الطيب ما يقوله فى هذا المهرجان غير الإجابة على أسئلتهم . مهما كانت مملة وممجوجة وسخيفة ، فهو بين أيدى الأبالسة يسلكون به فى سراديب الشيطان ، وعما قريب ينتهى كل شىء .

وأنقذ الموقف من هذا الصمت أن جمال سالم انتبه للمدعى وقال :

- يتفضل السيد المدعى .

عبد المنعم عبد الرءوف

رئيس النيابة : انت تعرف عبد المنعم عبد الرءوف ؟

إبراهيم الطيب : أيوه ياافندم ..

رئيس النيابة : تعرفه من امتى ؟

إبراهيم الطيب : قابلته فى المركز العام .

رئيس النيابة : امتى ؟

إبراهيم الطيب : فى أثناء . أيام حركة الجيش .. يعنى فى يوليو سنة ١٩٥٢

رئيس النيابة : فى مبدأ الثورة يعنى ؟

وتأمل ياقارئ العزيز سخافة السؤال وسماجته !! لأ .. فى آخر الثورة !!

ونظر إليه إبراهيم الطيب والمرارة تملأ حلقه ، ولكن ليس أمامه غير أن يجيب .

- أيوه .. وعلمت أنه قبض عليه .. وأنه كان معتقلا ، وبعد ماهرب من السجن قابلته فى المركز العام .

وأراد إبراهيم الطيب أن يوفر عليه الأسئلة ولكن لافائدة ..

رئيس النيابة : إزاى ؟
إبراهيم الطيب : يختبيء فيه .. فأنا فعلا وديته لمكان فى شبرا عند واحد اسمه أحمد عيد .
رئيس النيابة : عارف الشارع كان شارع إيه ؟
إبراهيم الطيب : مش متذكر الشارع .. وإنما فى شبرا بس .. استقر عنده مسافة طويلة ، وبعدين راح امبابة عند هنداوى دوير .. وكان راح عند مصطفى الوردانى فى امبابة أيضا .. وكان بيعيش معاهم ..
رئيس النيابة : مش أنت اللى نقلته ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .. وبعدين كان موجود فى معسكر كرداسة وهرب .
رئيس النيابة بيعمل إيه ؟
إبراهيم الطيب : بيدرب الإخوان .
رئيس النيابة : بيدربهم على إيه ؟
إبراهيم الطيب : على التكتيك .
رئيس النيابة : كل الإخوان و لا الجهاز الخاص ؟
إبراهيم الطيب : لا .. رؤساء الفصائل

* * *

وكان قد بلغ التعب منتهاه بالسادة الأماجد أعضاء النيابة والمحكمة وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف عصرا .. ولاشك أن الطباخين قد أعدوا لهم الطعام فى بيوتهم العامرة .. ولابد لهم أن يصلوا قبل أن يبرد فهم يحبون الطعام الساخن .. والحساء فى هذا اليوم الشديد البرد سوف يزيل هذا التوتر .. أما جمال سالم فقد جاء موعد احتسائه الخمر ، فقد سمعنا أنه يتناوله بعد الظهر وفى الليل أفلا تعقلون ؟ ولابد من رفع الجلسة ليرتاح النبلاء ويذهب العبيد إلى السجن الحربى أو ينتظرون فى زنزانة قريبة ملحقة بالمكان .. وفى العادة قد يطلب المدعى رفع الجلسة ، ولكن فى المحاكم من هذا النوع فإن رئيسها هو الذى يرفع ويخفض ، وليس لأحد أن يطلب شيئا فى حضرته .
ولابد من نهاية درامية لهذه الجلسة ..

والتفت جمال سالم ناحية المتهم محمود عبد الطيف وقال له مشيرا إلى إبراهيم :

– أهو ده رئيس هنداوى اللى إداله الطبنجة علشان يضرب بيها جمال عبد الناصر .. أهو ده رئيس هنداوى .. بينكر إنه قال لهنداوى إنك تروح علشان تقتل جمال عبد الناصر .. سامع رئيسك ؟ .. سامع رئيس رئيسك ؟

وحاول محمود عبد اللطيف أن يقول شيئا ووقف قائلا :

محمود عبد اللطيف : أنا طبيعى ..

ولكن جمال سالم لم يمنحه الفرصة ، واستمر صارخا هادرا لينزل الستار على آخر جملة :

جمال سالم : سامع يامحمود ياعبد اللطيف .. لما تمشى وراء أهل السوء يحصل لك إيه .. واحد يقول لك اقتل واحد .. تقول إيه .. اقعد ياغلبان ويجلس المتهم محمود عبد اللطيف .

ويجول جمال سالم بنظره فى الموجودين ثم يقول :

– ترفع الجلسة الآن على أن تعود إلى الانعقاد فى الساعة السادسة من مساء اليوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، ويستدعى هنداوى دوير لهذه الجلسة .

* * *

إبراهيم الطيب ينكر أنه أعطى هنداوى دوير طبنجة أو أمره بقتل الرئيس !! هذا ماقاله جمال سالم فى آخر الجلسة ، وواضح أن هذا كان فى التحقيقات لأنهم لم يتطرقوا إلى هذا الموضوع فى هذه الجلسة التى انتهت .

إبراهيم الطيب لم يعط هنداوى دوير مسدسا ، ولم يأمره بقتل أحد إبراهيم الطيب هو حلقة فى السلسلة الذهبية .. سلسلة الأوامر من المرشد العام حتى تصل إلى محمود عبد اللطيف .. لم يأمر بشىء من هذا ..

وقيل إنه ظل يضرب ضربا شديدا قبل انعقاد الجلسة فى المساء .. واشترك فى ضربه جمال سالم والسيد حسين الشافعى الذى لايزال حيا حتى كتابة هذه السطور ..

* * *
* *
*

الفصل التاسع

"فأي الفريقين أحق بالأمن"..؟!

الشهيد في مواجهة الجلاد

﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون . ﴾

الأنعام : ٩٣ ـ ٩٤

أى الفريقين أحق بالأمن ؟

« المواجهة بين الطيب وهنداوى »
تمهيد .
هل حادثة المنشية هى التى غيرت تاريخ الإخوان ؟ أوهى التى أحدثت فيه نتوءا ؟ أم أن الأمر كان أبعد عمقا من هذا ؟ وأن مطلع النصف الثانى من القرن العشرين كان علامة فى تاريخ الإخوان ؟ علامة من علامات التغير والنضج وتصحيح المسار .. اقتناعى الشخصى أن الحادث مدبر ومفتعل ، وهذا قد تأتى من القراءة حول الواقعة ، وسماع الشهود من كافة الأطراف ، ومعايشة الظروف التى ظهرت فيها هذه الحادثة فجأة . وقراءة التاريخ بشكل عام ، والإحاطة بالظروف والملابسات السياسية والمخابراتية العالمية التى واكبت العالم منذ مطلع القرن العشرين ، واستوت عند منتصفه .

وتبرئة الإخوان من حادث الاعتداء على جمال عبد الناصر فى المنشية لاتعنى أكثر من فهم التاريخ والتدقيق فيه لنفهم الظواهر التى تحيط بنا .
فقد يأتى مؤرخ ويلوم الإخوان المسلمين لأنهم تقاعسوا فى التخلص من جمال عبد الناصر ، وقد يقول إنها نقطة سوداء فى تاريخهم أنهم لم يقتلوه ، بينما قتلوا من هو أقل منه شراً وأذى للمسلمين مثل النقراشى باشا .
وقد نتفق مع هذا المؤرخ وقد نختلف معه ، ولكننا بصدد تحقيق الواقعة وإلقاء مزيد من الضوء عليها ، لنفهم الماضى ، ففهم الماضى عدة للمستقبل ، وهو يعطينا القدرة على تصور الحاضر .
ونحن أمام جريمة من الجرائم التى يترك فيها الجانى خلفه دليلا عليها . لأنها من جرائم ترتكبها الدول بكل ما عندها من إمكانيات ، أو يرتكبها رئيس الدولة نفسه أو كبير لجهاز عظيم ، مثل هؤلاء المجرمين لايتركون فى العادة خلفهم بصمات تدل عليهم ، وهم أذكى وأقدر من هذا .
وعندما يتقدم الزمن نقترب أكثر من الدليل . حتى يأتى اليوم الذى نجد فيه القضية وقد فتح ملفها وعرفت كل تفاصيلها وقائع ، وليس استنتاجا وقرينة .
وأعظم المجرمين وأقواهم وأقساهم هو الدولة .. أية دولة ! !

لأنها تضع فى حساباتها عند ارتكاب الجريمة كل العوامل المحتملة إلا عاملا واحدا هو العامل الإلهى ، الذى لايستطيع أحد أن يتحكم فيه .
وهل إعدام هنداوى دوير ومحمود عبد اللطيف يخفى الأدلة ؟ لاأظن .
وشهادة المرحوم إبراهيم الطيب تلقى مزيدا من الضوء على هذا الحادث ، ولأهميتها ولغرابتها فنحن نوردها هنا بالتفصيل ، لما لها من دلالات تبين فلسفة النظام بشكل عام ، وكيف انعدمت الحرية وفقدت مع قيام الثورة ، وكيف ضاعت حقوق الإنسان فى مصر بطريقة ربطت ذلك ربطا عضويا بنظام ثورة ٢٣ يوليو مهما أُدخل عليه من تعديلات .
فالأمور تسير بنفس الطريقة والمنهج والأسلوب ، بتعديلات طفيفة لاتمنح حقا لأحد ولا تعطى أية فرصة لحرية الاختيار والتعبير ، مما يؤدى إلى كارثة على وشك الوقوع فقد تزايد الشعور الإسلامى والحاجة لتنمية الوعى الدينى ، ويقابله من الجانب الآخر القمع الشرس ، وعدم الفهم للمعادلات الصعبة التى تحكم الحياة . ولايريد أحد من الحكام أن يتجاوب مع ما حدث فى مصر والعالم من متغيرات . وسيظلون على هذا حتى تقرع القارعة أبوابهم .
وما أدراك ما القارعة .

إبراهيم الطيب ينفى أنه أمر بقتل الرئيس

أعيدت الجلسة فى الساعة السابعة من مساء ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٤
استجوب الشاهد فى الجلسة الماضية فى أشياء كثيرة ، وليس منها حادث المنشية ، الذى هو مربط الفرس كما يقولون .
بدأ وكيل النائب العام السؤال :
– انت ما اتصلتش بهنداوى قبل وقوع حادث الرئيس جمال عبد الناصر ؟
إبراهيم الطيب : اتصلت به كما سبق أن اتصلت بجميع رؤساء المناطق .
وكان يبدو للنظارة أن المرحوم إبراهيم الطيب قد ضرب ضربا مبرحا قبل انعقاد الجلسة ، وكان ظاهرا على وجهه وهيئته ، وقد سمعت ممن حضروا فى هذا اليوم أن ذلك الضرب قد تم بمعرفة جمال سالم والحاج حسين الشافعى .
وكيل النائب العام : وآخر مقابلة كانت معاك له .. كانت إمتى قبل الحادث ؟

إبراهيم الطيب : لعلها قبل الحادث بيومين .
وكيل النائب العام : اديته الحزام إمتى ؟
إبراهيم الطيب : قبل الحادث بيومين .
وكيل النائب العام : كنت معاه يوم الحادث .
إبراهيم الطيب : لايا افندم .
وكيل النائب العام : متأكد انك مارحتش فى امبابة يوم الحادث ؟
إبراهيم الطيب : لا .
وكيل النائب العام : ما حصلش بينك وبينه كلام بشأن خطة اغتيال الرئيس جمال ؟
إبراهيم الطيب : اللى حصل هو الكلام فى الخطة التى عرضتها .. وتتلخص فى أن الاغتيالات لايمكن أن تبدأ فيها إلا إذا حصل اعتداء على الحركة الشعبية .
وكيل النائب العام : سؤال محدد .. هل تحدثت مع هنداوى بشأن الاعتداء على الرئيس جمال ؟
إبراهيم الطيب : لا .. لم أتحدث معه فى هذه الجلسة .
وكيل النائب العام : فى أى جلسة تحدثت معه ؟
إبراهيم الطيب : فى أثناء عرض الخطة العامة .
وكيل النائب العام : قلت له إيه ؟
إبراهيم الطيب : أنا قلت إن هذا الاعتداء لايجوز أن يتم إلا إذا حصل اعتداء على الحركة التى قد تقوم .
وكيل النائب العام : يعنى تحدثت معه ؟
ابراهيم الطيب : أيوه يا افندم .. فى أثناء عرض الخطة .
وكيل النائب العام : يعنى ألم تحدد وقتا أو أشخاصا أو ميعاداً ؟
ابراهيم الطيب : لا .
وكيل النائب العام : هل اديت له سلاح أو مسدس على وجه التحديد ؟
إبراهيم الطيب : لا .
وكيل النائب العام : ما كلفتوش هو أو غيره بأنه يقوم بارتكاب هذا الحادث ؟
إبراهيم الطيب : لاياافندم .
وكيل النائب العام : إطلاقا .
إبراهيم الطيب : إطلاقا .

وكيل النائب العام : ألتمس من عدالة المحكمة مناقشة الواقعة التى شرحها هنداوى دوير ... إذا تكرمت المحكمة تستدعى هنداوى دوير .
وبدا إبراهيم الطيب قويا رغم التعذيب البعيد والقريب ، فهو لايزال متماسكا يثير الإعجاب والاحترام ، وليس هناك ما يدعو إلى الكذب والاختلاق ، فقد أنطق السوط الجميع ، وإن كان لابد من أن يلفقوا فليفعلوا ما يشاءون.
وتجاهل جمال سالم طلب وكيل النائب العام ، وتوجه بالكلام إلى إبراهيم الطيب .

المظاهرة المسلحة

توجه جمال سالم بخطاب إبراهيم الطيب :
– قررت أن هناك فيه خطة .. والخطة دى حاتقوم بمظاهرات شعبية مسلحة .
– أيوه .
– والمظاهرات الشعبية المسلحة دى تبدأ باغتيالات .. بتاعت رئيس الحكومة ومجلس الثورة وبعض الناس من الضباط .. طبعا متصور إن مافيش ناس حتسكت .. يعنى فيه ناس حاترفع صوتها ومعاها سلاحها .. ما هو الموقف عندما يقوم فريقان فى بلد مسلحان يضربوا فى بعض .. ويغتال رئيس الحكومة ..ويغتال عدد من الضباط .. ويجتاح القطر الرعب والفزع .. وليس هناك أى دفاع عن منطقة القاهرة ولامداخلها .. وهناك قوات بريطانية مستعمرة فى منطقة القنال .. ما هو الاستعداد الذى اتخذتموه لمجابهة الإنجليز إذا ما فكروا أن يدخلوا القاهرة ؟
هذا السؤال يجيب عليه الشاهد ربما للمرة الرابعة ! !

كل هيئة المحكمة : القاضى والجلادون والشاويشية قد شعروا بالتعب والإرهاق .. وبدت عليهم المعاناة ، على العكس من إبراهيم الطيب ، فرغم كل شىء فلايزال ناضرا قويا رغم ما مر به طوال النهار .
وبدأ يجيب على سؤال المحكمة :
– أولا فيما يتعلق ببدء الحركة فقد كان المفهوم أن القوات التى ستشترك فيها قوات ذات أغلبية عددية ، وقد سبق أو هناك سابقة فى حوادث ٢٥ مارس .. وما سبقها بأن سيادة الرئيس جمال لما وجد اتجاه معين كان بيسلم بيه .

(يقصد الشاهد أن الرئيس جمال بيخاف ما يختشيش شأنه شأن الآخرين يعنى سرعان ما يتراجع لو خرجت له المظاهرات المليونية !)
فكان برضه مفهوم لدى الناس اللى بينفذوا أو الذين يعدوا هذا الإعداد .. جائز اننا نحصل على المطالب التى تقوم بها الحركة بدون أى إراقة دماء أو معارضة من المعارضات .
جمال سالم : إذا كان اغتيال جمال عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة .. مين اللى يسكت الناس بتوع جمال ورجال جمال عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة ...
مين اللى يسكت الناس ؟
ويلاحظ هنا أن جمال سالم تجاهل ما قاله إبراهيم الطيب وكأنه لم يسمعه ..
كل واحد يتكلم فى واد يختلف عن الآخر .
أما الإجابة التى لم يقلها إبراهيم الطيب رحمه الله فهى إذا اغتيل جمال عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة فجميع الشعب كان سيقول يومها فى ستين داهية .. ولايعرف أحدٌ لهم رجالا فى ذلك الوقت إلا قليلا من المرتزقة سوف يلزمون الصمت .
وهز إبراهيم الطيب رأسه وقال :
– ذكرت إن السيد جمال عبد الناصر كان عُلم أنه له سابقة فى هذا .. لوحصل شىء يكون طبيعى سيادة رئيس الجمهورية موجود .. وجايز جداً أن يحصل تفاهم بين الرئيس نجيب والرئيس جمال .
جمال سالم : إزاى الرئيس نجيب يتفاهم مع الرئيس جمال المغتال ؟
إبراهيم الطيب : أنا باتكلم قبل حصول أى اعتداء .. ومن المحتمل أن يتم تفاهم .
جمال سالم : وإذا لم يوافق ؟
إبراهيم الطيب : باعتبار إن هناك أغلبية عددية ومجموعات كبيرة مع الرئيس نجيب كان مفهوم أن المسألة لاشك فيها إن الحكم يكون فيها للأغلبية .
جمال سالم : واحنا قلنا إن الناس دول حايتحولوا على بعض ويتضاربوا .. الحرب الأهلية بتكون الغلبة فيها للفريق الأقوى والأكثر عدداً
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمال سالم : فى أثناء هذه المعركة .. ما هى الاستعدادات التى عملت لمجابهة تدخل قوات الإنجليز المسلحة الموجودة فى منطقة القنال ؟

وهكذا ينتقل جمال سالم من نقطة إلى نقطة دون تركيز ودون فهم ، ولا يوجد من يرده .. ويتكلم بغير منطق وكيفما يشاء .

الإخوان في مواجهة الإنجليز

ويرد عليه إبراهيم الطيب فيقول :

– أبلغنى يوسف طلعت أن هناك قوات موجودة فى إقليم الشرقية وشرق منطقة القنال ، وهى مستعدة للقيام بحرب عصابات ضد المستعمر فيما لو فكر أن يحتل جهات أخرى ..

– ما هى هذه القوات التى فى القنال وفى الشرقية ؟

– قوات فصائل الإخوان .

– يعنى فيه قوات فصائل للإخوان غير القاهرة فى القنال والشرقية ، وعندهم من الأسلحة ما يكفى لمقاومة تدخل الجيش البريطانى .

– لعرقلة ..

ويقاطعه جمال سالم كالعادة قبل أن يكمل :

– تدخل الجيش البريطانى .. لوعندكم القوة دى ما تستعملوهاش ليه فى القنال ؟

– الإخوان اشتركوا فى القنال قبل حرق القاهرة ..

– اشتركوا بكام فصيلة ؟

– علمت .

وهبّ فيه جمال سالم غاضبا :

– أنت كل حاجة علمتها .

– ده اللى خاص بالموضوع .. علمت من الناس المسئولين .

– ماذا قررت فى أقوالك فى التحقيق .. ما هى الخطة للدفاع لعرقلة الهجوم بتاع الإنجليز ؟

– القيام بحرب عصابات من شأنها أن تعرقل .

ويحاول جمال سالم أن يذكره بأقواله فى التحقيق :

– أيضا ..

– بنسف طرق المواصلات والمنشآت التى يحتلونها .

– وإيه كان ؟

– وبتقطيع خطوط إمداداتهم وتموينهم .
هذه هى خطة الإخوان منذ لحظة قيام ثورة يوليو ومن قبلها ، لعرقلة تقدم القوات الإنجليزية إلى القاهرة لأى سبب ، وهى تعد من مفاخرهم ومن إحساسهم بالواجب طوال الوقت .
ولكن لجمال سالم رأى آخر ..
فقد تحول إلى جمهور الحاضرين وبلهجة الباعة الجائلين الذين ينادون على البطاطا أو الطماطم صار يقول :
– شايفين ياحضرات .. بلدكم كانت حاتتنسف .. الطرق والكبارى والمنشآت .. هل يحلم المستعمر بأنه يوجد البلد فى حالة وهن وحالة ضعف ، وهل يحلم رجال إسرائيل بإيجاد مصر فى ضعف ووهن كالحالة التى كنتم ستوصلون إليها .. هل فكرتم فى هذا ؟
ولعل جمال سالم يطلع هو وزعيمه من الجحيم فيروا ماذا فعلوا بمصر والحالة التى أوصلوها إليها دون تدخل من الإخوان أو غيرهم !
وقال إبراهيم الطيب :
– لاشك إن الانجليز ..
وقاطعة جمال سالم كالعادة :
– اسمعنى .. إنتم تكلمتم كثيرا فى المؤتمرات بتاعتكم .. وهل علمت من التاريخ يا أستاذى الفاضل .. خريج كلية الحقوق إن الانجليز أول ما دخلوا البلاد مستعمرين .. أول ما قضوا قضوا على رجال الجيش لتضعف البلاد .. وأنتم قايمين علشان خاطر تضربوا الجيش فى بعض والأهالى فى بعضها .. وهناك مستعمر فى داخل البلاد .. وهناك من يتمنى الاستعمار قاعد على حدود البلاد .. الخطة انكم تنسفوا المنشآت والكبارى والطرق .. الخطة انكم تنسفوا مصر .. ماهو برنامجكم فى الحكم هل هو الهدم أو البناء .. وإذا كان برنامجكم الحكم .. فهل هو ده الحكم الإسلامى ؟
كلام غير مترابط لايقوله تلميذ فى الإعدادية ! !
هذا هو نموذج الحكام آنذاك ! !
رجال ثورة ٢٣ يوليو العظام ! !
وكان هذا هو نائب جمال عبد الناصر ..
وكان يحلم بأن يحكم مصر بعد التخلص من رئيسه وسائر الرفاق .
وماذا كان يمكن أن يحدث لنا لوحكمنا جمال سالم ؟

ظنى أنه لم يكن ليحدث لنا أسوأ مما حدث .
وربما كان الأمر سيكون مثيرا رغم ضراوته كما يحدث فى محكمة الشعب !
وقال إبراهيم الطيب مستنكرا :
- لأ مش معقول ..
- طيب قل لنا دى .. فسرها .. قول لنا الدرس بتاع الإنجليز .. وكيف تضمنوا عدم تحرك القوات الإنجليزية .. وأنتم نفسكم تخشوا تحركها ؟
- أيوه .
وتدخل فى الحوار السخيف الممجوج كالعادة ليوهم الغوغاء بكلام لا أصل له .
جمال سالم : والاماكنتوش فاهمين إن فيه تحركات يبقى استعدادكم كان ازاى ؟
هل كان بالجلجنايت والأستن والبرن .. وهل نضمن إن ده يوقف التحركات ؟
- كان المقصود به عرقلة القوات .
- أى قوات ؟

- القوات الإنجليزية .. كان المقصود عرقلة القوات الإنجليزية بنسف المنشآت .
- لكن القوات الإنجليزية ما تتحركش فى حالة نشوب معركة داخلية ؟
- يجوز أن تتقدم هذه القوات لأى أخطار ، وبمجرد ما قامت الثورة كان فيه تقدم لقوات الإنجليز .. ولذلك تقدم الإخوان ليكونوا تحت تصرف الثورة .
وتجاوز الشاهد الكريم الحوادث ليلة الثورة !
وماذا يمكن أن يقوله أمام هذا الوحش المفترس ؟
وحقائق الثورة ودور الإخوان يعرفه القاضى .

ولكن اختلاف الليل والنهار والعذاب البدنى الهائل ..
كل هذا جعل الشهيد إبراهيم الطيب يتنازل عن حقه فيما فعله ليلة ٢٣ يوليو !
وبدأ « الردح » « وفرش الملاية » وارتفع صوت المجنون يخاطب الدنيا :
- شايفين يا مواطنين .. القوات المسلحة بتاعتكم فين .. مش هى القوات المسلحة اللى القائد بتاعها عبد الحكيم عامر .. لامدافعها ورق والبنادق فيها حلاوة .. تعرف أول حاجة عملتها الثورة إيه يوم ٢٣ يوليو ؟
وتعرف ليه طردت الملك فاروق يوم ٢٦ يوليو وما طردتوش يوم ٢٣ يوليو .. قول لى يا مدبر مافكرتش فى السبب بعد الحوادث ما بقت تاريخ ؟

وقال إبراهيم الطيب فى هدوء :
– لم يبلغ إلى علمى شىء عن هذا .
– ألم تفكر وقد أصبح هذا جزءا من تاريخ هذا البلد ؟
وبدا على إبراهيم الطيب أنه يجاريه فى هذا « الاستهبال » وكنا كثيرا ما نفعل هذا فى المعتقل لطبيعة من نتعامل معهم ، فقد كنا نرى الحمار حمارا لاتخطئه العين ولكن قد نصفه بصفة أخرى ، وهذه هى طبيعة تلك الأماكن ...
وأبدى إبراهيم الطيب الاهتمام الشديد وهو يقول مفكرا :
– من ٢٣ يوليو إلى ٢٦ يوليو فعلا دى مسألة بعيدة عن ذهنى .
ثم التفت إليه فى حركة بارعة كأنه يستنجدبه أن يخبره بالمعلومات الثمينة عما جرى فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر ..
وكان جمال سالم يهز رأسه يمنة ويسرة معجبا بنفسه أيما إعجاب ، والكل قد حبس أنفاسه ينتظر الأسرار الخطيرة التى قد تنطق بها شفتا جمال سالم وهو يمعن فى إذلالهم ويهز رأسه وابتسامته تملأ وجهه ولا يريد أن يتكلم

وكانت مصر قد دخلت عصر الدولة (الحصاوية) !
وقال جمال سالم مخاطبا إبراهيم الطيب للتشويق ..
– كانت الحكاية دى فى القرن نهوه ؟
– القرن اللى نعيش فيه .
– العدد بتاع القرن ده إيه ؟
– العشرين ..
– الحمد لله .. ألا تذكر هذه الحادثة الكبيرة فى تاريخ البلاد ؟
– ما اعرفش .
– طيب أنا أقول لك ..
وسكت وحبس الناس أنفاسهم !
وقد قلد جمال سالم فى هذا حماران آخران جاءا من بعده .
واحد فى العراق اسمه المهداوى !
وآخر فى مصر اسمه الدجوى .
وقد ظنا أن طريقة سلفهما – لجهلهما – هى غاية المرام فى القضاء الحرام .
فكلا الحمارين استعمل هذه الطريقة فى المحاكمات التى أجرياها بعد .. وانتظر الناس

« النهيق » على أحر من الجمر وقال جمال سالم :
– السر فى التأخير .. السر هو إن الثورة جعلت شغلها الشاغل وضع الاستحكامات وجمع الأسلحة وجميع قواها لتكون خطا للدفاع عن الوادى ضد القوات الإنجليزية إذا ما تدخلت .. جميع الأسلحة اللى كانت موجودة فى القوات المسلحة .. حتى إن مدافع الآلايات شغلناها مدافع ميدان .
الكذاب ! !

هذا ما يدعى أنهم قد فعلوه من ٢٣ يوليو حتى ٢٦ يوليو ..
حتى يضمنوا عدم تدخل الإنجليز ! !
كان يكلم شعبا غافلا ساذجا من منطق القوة ، فلا يمكن لأحد أن يرد عليه ! !
وكانت معلوماته عن تلك الفترة لا تزيد عن معلومات إبراهيم الطيب ! ولكن كيف يرد عليه إبراهيم الطيب بعد العذاب الذى ذاقه فى الاستراحة ! وما فائدة الرد عليه ؟
ويستمر جمال سالم :
– كنت عايز أعرف حتوقفوها ازاى – يقصد القوات الإنجليزية – حتوقفوها بالجلجنايت والـ . ت .ن ت .. إزاى انتم عرضتم على الثورة انكم توقفوا الجيوش الإنجليزية .. وقلتم للضباط اتفضلوا واستريحوا واقعدوا فى بيوتكم انتم عملتم اللى عليكم يابتوع الثورة .. سلمونا بقى .. سلمونا الغنيمة .. سلمونا بقى ياسيد علشان نشغل المصاصة .. سلمونا بقى يا سيدى .. وإسرائيل مش عاملين لها اعتبار ولا فى الحسبان .. والقوات الإنجليزية ماهاش اعتبار ؟ حرب أهلية تحرقوا البلد وتنسفوا للنشآت ، وتنسفوا الطرق ، وتنسفوا الكبارى ، ومفكرتوش فى الأموال وأصحاب رءوس الأموال حيعملوا إيه فى رءوس أموالهم .. وحملة الأسهم والسندات وبورصة العقود وبورصة الأوراق المالية .. حيحصل فيها إيه .. والموانى والحركة التجارية .. يحصل فيها ايه .. ما فكرتوش فى تموين القاهرة .. وما فكرتوش فى البترول .. وحايجى منين علشان تصبحوا تلاقوا رغيف العيش .. ما هى الخطة التى وضعت .. أم لم يكن هذا فى الحسبان ؟.

ولما رآه إبراهيم الطيب يكابر ويكذب قال له فى جرأة :
– كانت فى الحسبان .
ويعود بسماجة وسخافة ليسأل نفس السؤال الذى يعرف إجابته :
– ماهى الترتيبات التى اتخذت لمواجهة القوات الإنجليزية باعتبار أنها قوات

موجودة ويجوز أن تدخل ..
– الفكرة تعجيز القوات بقدر إمكانياتنا .
– وإذا لم تتمكنوا بالأسلحة الفاسدة العاجزة والبنادق والبرن ؟
صحيح أسلحة يمكن تقتل وتغتال ولكن ما تنفعش فى الميدان . وهو يعلم علم اليقين أن الثورة لم تقم إلا بضمان من أمريكا وبريطانيا ولهذا تفصيل .
إبراهيم الطيب : كنا فاهمين باستمرار ان القوة الشعبية .
ويقاطعه كالعادة :
– مين اللى كان مفهمكم ؟ اتدور
ويستدير إبراهيم الطيب رحمه الله ليواجه الناس .
– لف كمان شوية .. الناس دول هم القوة الشعبية .. لو طلعت تعرف واحد أو اثنين يبقى كويس .. للأسف المكان ما يساعش أكثر من كده ..
احنا كنا حقنا عملناها فى ميدان الجمهورية ..
هذا أمر صعب !
أن تتم المحاكمة فى ميدان الجمهورية ..
فيحتاج الأمر ضرب المتهمين والشهود يوميا فى الاستراحة !
وليس مناسبا ضربهم فى ميدان عام .

النظام الخاص يقوم على تحرير البلاد الإسلامية

ويحاول إبراهيم الطيب أن يخاطب الرأى العام من هذا المكان الضيق على قدر مايستطيع فيقول :
– الفكرة ان كل رجل يسلح علشان كل إنسان يستطيع أن يتقدم للمعركة فى أى بلد من البلاد التى تريد التحرر من الاستعمار زى الجزائر وتونس .. ده بالضبط اللى كنا فاهمينه .
وبأستاذية كاذبة يرد عليه جمال سالم :
– وهل درستم تاريخ أو استعداد تلك الشعوب ؟ الجزائر مثلا فيها حركة قومية فهل عندها مصانع بتطلع لهم أسلحة وذخائر .. ولّا فيه إمدادات وتموينات بتيجى لهم من جهة أخرى ؟
– طبعا تموينات بسيطة .

– والغالبية ؟
– من الأعداء .
– يعنى (كلفتى) يسرق منه ويحاربه ..
– أيوه ..
– زى ما سرقتم من الإنجليز الأسلحة وجايين تحاربوا الحكومة ..
– أبدا ..
– إنت قررت فى آخر كلامك إن الجهاز السرى لجماعة الإخوان كان للدفاع عن الدعوة فى الجزائر أو تونس أو مصر .. فقلت لك اضرب لنا مثل عن كيفية الدفاع عن الدعوة فى مصر .. وتدرجنا إلى الكلام شوية .. واعترفت بأن الغرض هو القيام بحركة شعبية مسلحة ضد الحكومة تستهدف الاستيلاء على البلاد .. تقدر تقول لنا بقى ما هو التناقض بين الفكرتين بالنسبة للهدف الذى تكون منه هذا الجهاز المسلح .. هل الغرضين هما الهدف منه .. والا كان واحد يقال فى العلن وواحد يقال فى السر !
– الغرض كان مواجهة القوات الأجنبية التى تعتدى على أرض الوطن مفيش شك .
– وصلنا إلى ان فيه جيش فى البلاد بقيادتين مختلفتين .. جيش علنى ..وجيش سرى بقيادة المحامى إبراهيم الطيب ورئيسه يوسف طلعت .
– ده كله مجرد إعداد بس لقوة شعبية .

عبد القادر عودة لا يعرف

– شيء جميل .. فى منتهى الجمال .. ذكرت فى أقوالك إن لما كان الأستاذ عودة .. الأستاذ اللى بتشتغل معاه .. الأستاذ عودة المحامى ، لما كان بيكلمك كنت بتاخد كلامه ثقة ، فهل بادلته الثقة بالثقة ؟
– لاشك فى أن الثقة متبادلة .
– هل أطلعت عودة على الخطة بتاعت الجهاز السرى .. الخطة بتاعت الحركة الشعبية والاغتيالات لجمال وأعضاء قيادة الثورة وبعض الضباط وتعضيد محمد نجيب لهذه الحركة الشعبية المسلحة .. المكونة من شعبية الإخوان المسلمين .. هل أطلعته على ذلك ؟
– طبعا باعتباره ليس عضوا فى اللجنة العليا لم يكن يعرف بها وأنا لم أطلعه عليها .
– إذن الراجل كان بيبادلك ويحكى لك الأسرار .. وبتشتغل معاه ولا تبادله الثقة

وتخبى بعض الأسرار عنه فى نفسك ولا تعطيها له .. مع العلم بأنه من أعضاء مكتب الإرشاد .. ومسئول عن الإخوان المسلمين جميعا والأجهزة التى بها .. كيف لا تطلعه عليها ؟

وقال إبراهيم الطيب :

– لعل السبب فى ذلك أنه لم يكن تم انتخاب المكتب الجديد .. وإن دى مسألة مقررة فى اللجنة العليا .

– ولّا علشان تستعمله شوية وتغتاله راخر .. هل كان عودة يعلم بأن فيه نظام مسلح ؟

– ما افتكرش .

– كيف تفسر إذن قوله بأنه مستعد أن يخش واسطة خير بين الحكومة والإخوان على شرط أن تسلم الأسلحة بتاعت الجهاز السرى وأن يحل هذا الجهاز .. كيف يقرر هذا وأنت اللى بتشتغل معاه وموضع الثقة والسر بتاعه وما قلتش له على الجهاز إزاى يعرف وعرف منين ؟

– لازم اتصل فعلا ببعض أعضاء اللجنة العليا وعرف منهم .

وزاد غيظ جمال سالم وبلغ مداه وقال مخاطبا إبراهيم الطيب :

– وانتم الاتنين المسلمين .. المؤمنين اللى بتعملوا لدعوة الإسلام .. هو ينكر عليك .. وانت تنكر عليه .. فى إيه .. فى الحاجة اللى لا يقرها الدين .. انتم الاتنين تنافقوا بعض .

– دى مسألة اختصاص .

– وهل كان ده من اختصاص المحاماة إنك تنظم جهاز سرى فى القاهرة ؟

– لم يكن لى الأمر ..

– أمال أمرمين ؟

– اللجنة العليا .

– واللجنة أمرها مطاع عن الحكومة ؟

– لا .

– والحكومة مش قالت مفيش تنظيم سرى أو سلاح ؟

– أنا ذكرت التبرير .

وبلغ الغيظ بجمال سالم منتهاه :

– آه .. بس كفاية لحسن دى بقت حكاية قديمة ومملةقوى لحسن إذا طلبت منك تعيدها حدّ يدعى علينا .. مين اللى ابتدا بالعدوان والضرب .. هل تعتقد بأن الحكومة .. حكومة الثورة .. وأعضاء مجلس قيادة الثورة بجهاز المخابرات كله اللى لديها يقعدوا سنتين ونصف مش عارفين إمتى اتكون الجهاز ، وإمتى أعيد تنظيم الجهاز ، وامتى اتسلح ؟

–أعتقد إنهم يعرفوا

–طيب إيه اللى سكتها عليكم ؟

– ماعلمتش السبب إيه .

وعاد جمال سالم إلى حوارى « زينهم » ودرب « شكمبة » وبيع الكرشة عند المذبح ، وطريقة بعض الذين كانوا يعملون فى شارع كلوت بك فى ذلك الوقت .. بنفس الأسلوب موجها حديثه إلى إبراهيم الطيب :

– اصلنا خايفين منكم .. ياامى .. ومع هذا تروحوا وتضعوا خطة الانقلاب وقيام الشعب الإخوانى المسلح بمظاهرة مسلحة وتتصل بأحد رؤساء الفصائل .. هنداوى دوير .. وتقول له كلف واحد علشان يبدأ تنفيذ خطة الاغتيال فى الوقت الذى يراه .. ويعتمد على نفسه ..كلفت مين ؟

– ما كلفتوش لأننا لم ندخل فى أى دور تنفيذى .

ويهز رأسه يمنة ويسره كما قلنا من قبل ويقول :

–آه ..

بلهجة ممطوطة .. ثم يلتفت ناحية الادعاء :

– طيب هات لنا بقى هنداوى دوير .

ويسرعون فى تنفيذ طلبات ذلك المخلوق ..

ويتحول جمال سالم إلى إبراهيم الطيب مبكتا :

– نسف منشآت ومبانى وطرق وقتال داخلى كان ضد مين ..؟

– كان ضد القوات الأجنبية

– وخطة الاغتيالات لأعضاء مجلس قيادة الثورة .. ميتدئين بجمال عبد الناصر والضباط الأحرار .

– يقينا لأ ..

– أمال خطة الاغتيالات ليه والثورة المسلحة ليه ؟

ولو كان الإخوان قد قاموا باغتيال هؤلاء الناس فى ذلك الوقت وكان هذا ميسورا لأنقذوا عشرات الألوف من الجند الذين ماتوا بسبب هؤلاء الذين لم يتقدم أحد لقتلهم ، لأن القتل حرام ولابد أن يكون عن طريق ولى الأمر ..

محضر الشاهد هنداوى دوير

ونظر إليه جمال سالم طويلا مهددا منذرا .. بينما كان هنداوى يتحاشى النظر إلى إبراهيم الطيب .. وكان يبدو عليه الخجل والاضطراب .

وقال جمال سالم :

– ياهنداوى .. قررت فى أقوالك واعترافاتك بأن إبراهيم الطيب جالك وادالك أمر بخطة .. هذه الخطة تبدأ باغتيالات .. وادالك مسدس وكلفك بأنك تكلف محمود عبداللطيف علشان يقتل جمال عبد الناصر .. وادالك حزام .. وقال لك اديله الحزام علشان يبقى ينسفه ويتنسف معاه .. وجاب لك واحد تانى اسمه نصيرى .. وقال لك كلفه بنفس المأمورية .. وقل لهم يعتمدوا على أنفسهم فى تتبعه .. هذه الجزئية جت فى أقوالك واعترفت بها ولّا لأ ؟

وقال هنداوى وهو فى خزى :

– أيوه ..

– نحب نسمع منك تانى الحكاية دى بأقوالك وألفاظك .

هنداوى : حاضر ياافندم ..

وسكت برهة وعلى وجهه أمارات أسيفة ، بينما كان إبراهيم الطيب يقف شامخا هادئا .. وجلس محمود عبد اللطيف فى القفص كأنه فى غيبوبة ليست على وجهه أية انفعالات .

ونظر جمال سالم إلى هنداوى مستحثا ومحذرا .. فازدرد ريقه وقال :

هنداوى : السيد إبراهيم الطيب جالى قبل الحادث بعشرة خمستاشر يوم .. وكان وقتها بيتصل بى تقريبا كل يوم .. وقال لى الخطة التى يتبعها النظام السرى تبدأ أولا بالاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر وبالاعتداء على بعض حضرات أعضاء مجلس قيادة الثورة .. وبعض الضباط الأحرار بكشف عندهم .. ونظرا لأن منطقة امبابة مافيهاش حد قال لى ملكش دعوة بالحتة دى .. وبعد كده جه ينفذ العملية وجاب

طبنجة واداها لمحمود عبد اللطيف على أساس ان محمود يقوم بواجبه .. بمجهوده الشخصى .. وإن الواحد اللى له عدو يتتبعه لحد ماينتهى منه .. وجاب المسدس فسلمته لمحمود .

ويوم الحادث بالذات كان عندى اتنين ونصف واتغدى ، وأنا كنت اتغديت فى البيت ، وهو كان جه من غير غدا فجبت له غدا فى أودة المكتب .
وسلمنى حزام فيه لغم ، وشرح لى طريقة استعماله ، وقال لى لما يرجع يبقى برضه يستعمله ، وجالى نصيرى وجاب لى طبنجة وقال لى اديها لنصيرى ، واعرض عليه الحزام والطبنجة وحتى أنا أبديت اعتراضات على الحزام فكان رده انه قال أنا دلوقت عندى اجتماع . وبعدين حابقى آجى آخده . ولما عرضت الحزام على نصيرى رفض . وفضل الحزام عندى .
جمـال سـالم : إيه رأيك ياإبراهيم ؟
إبراهيم الطيب : الكلام لم يحدث على هذا الوجه .. أنا كلمته على أساس عرض خطة عامة ، وتفاصيل،على ألا يبدأ بأى عمل من الأعمال قبل تحرك قوات الجيش ضد القوات الشعبية .

جمـال سـالم : حصل والا محصلش ؟
إبراهيم الطيب : ما حصلش وأنا لم أسلم إليه إلا الحزام .
جمـال سـالم : ما سلمتوش الطبجة ؟
إبراهيم الطيب : لأ .
جمـال سـالم : ما سلمتوش نصيرى ؟
إبراهيم الطيب : أيوه ..
جمـال سـالم : ماحددتلوش محمود عبد اللطيف ليقوم بالحادث ؟
إبراهيم الطيب : لأ .

وكان هنداوى دوير مطرقا برأسه إلى الأرض بينما يحاول إبراهيم الطيب النظر إليه ورؤية وجهه ، وهى ملحوظة رآها من حضر هذه الجلسة .
جمـال سـالم : شايف ياهنداوى الرئيس بتاعك بيحاول نفى التهمة عنه ازاى .
ولم يرد عليه هنداوى دوير الذى كان لايزال مطرقا .

وقال جمال سالم مخاطبا هنداوى :

جمـال سـالم : قل لنا لما جالك محمود الحواتكى وكان معاه عبد الفتاح القرشى وقال لك إنه سمع إن هذه الخطة بتاعت الاغتيالات ، وقيام الجهاز السرى بحركة مسلحة ثورية ، وإحداث انقلاب فى البلاد قال لك أنا سمعت إن المرشد موافق عليها ، وبعدين لما جالك إبراهيم الطيب وحبيت تستفسر منه عن هذا الكلام .

ورفع هنداوى رأسه وتكلم بصوت خفيض :

هنداوى : بعدما جاءتنى التعليمات من إبراهيم الطيب . وأخذت منه الطبنجة قعدت فى ايدى ساعة والا ساعة وربع ، وسلمتها لمحمود عبد اللطيف على طول . وبعدين جانى الأستاذ الحواتكى فى زيارة عارضة ، وقعد ثلث أوربع ساعة ، وقال لى بلغنى أن الأستاذ المرشد غير موافق على هذا الاتجاه .

وقال لى حتى عبارة لازلت أذكرها . قال لى:لابد أن هناك هوى مطاع وشح متبع يعنى فيه ناس بيتمسكوا برأيهم وأنا حامرّ على رؤساء المناطق وأحاول وقف مثل هذه الإجراءات ، فى هذه الحالة أنا تذكرت محمود عبد اللطيف فقلت له أوقف وبطل .

جمـال سـالم : لقد قرر محمود هذا .

هنداوى دوير : وجانى إبراهيم تانى يوم مباشرة أو بعدها بيوم ، فقلت له يافلان الحواتكى قال كذا كذا فاحنا مش عاوزين ندخل فى هذا التيار ، فقال لى دول متصلين بالأستاذ البهى الخولى والجماعة المفصولين وعايزين يعطلوا شغلنا ، والأوامر دى صادرة من المرشد .

جمـال سـالم : مين ؟

هنداوى : حسن الهضيبى .

جمـال سـالم : الرئيس الأعلى ..

هنداوى : [مكملا] للإخوان المسلمين والنظام السرى .

إبراهيم الطيب : حصل فعلا .. ولكن بعد الاعتراض على الخطة ، والاستعدادات لم تكن تمت . ولم نعط أى أمر بالتنفيذ باعتبارها لم تتم ، والأجهزة غير مستعدة ، ولم يحصل أى تنفيذ حتى يتم الاستعداد كما سبق أن ذكرت .

وهذا يتفق مع ما قاله الحواتكى ، الكلام الذى قيل عن الهضيبى والذى قاله يوسف طلعت .

يوسف قال إن المرشد قال إن الإخوان مش مستعدين ، وفيه تنظيمات يحسن اننا ما نبدأش إلا بعد الانتهاء من الإعداد والتجهيز .
جمـال سـالم : والله .
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمـال سـالم : لا ياشيخ .
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمـال سـالم : يعنى كل الكلام اللى قلته من الصبح لغاية ثلاثة ونصف نعيده لك من تانى ..
الكلام الذى قاله من الصبح حتى ثلاثة ونصف لا علاقة له بالموضوع !
هنداوى : يوم الثلاث كان عندى ولما قلت له إن محمود عبد اللطيف سافر إلى الإسكندرية قال لى:ليه ؟
إبراهيم الطيب : احنا فوجئنا بهذا التكليف من الأستاذ هنداوى دوير ودهشنا له .
هنداوى : سبحان الله .
والتفت جمال سالم إلى إبراهيم الطيب :
– لذلك رحت هربان .
إبراهيم الطيب : أنا ماهربتش إلا بعد اعتقال الأستاذ عبد القادر عودة .
جمـال سـالم : وهربت ليه ؟ الظاهر ان له دخل كبير قوى فى الموضوع

تهديد ووعيد ظاهر للعيان ! !
يتحدث حديث الجلاد،ليست به لهجة القاضى .
يتوعده هو وعبد القادر عودة .
مهزلة صاخبة ضاعت فيها معالم الحق وبرز الباطل .
وعلى هذا الأساس كان يرد عليه إبراهيم الطيب .
إبراهيم الطيب : باعتبار إنه معايا فى المكتب أنا خشيت أن أعتقل .
جمـال سـالم : إيه رأيك فى الأقوال دى ياهنداوى ؟
وكان هنداوى دوير يبدو مضطربا لا يكاد ينظر ناحية إبراهيم الطيب ..
هل لأن إبراهيم الطيب أكثر ثباتا منه أمام الجلادين ؟
هل لأنه رآه وهو يضرب أثناء الاستراحة وهو رئيسه القديم ؟
هل لأنه عومل برفق ولم يفعلوا ذلك مع الطيب ؟

ورد هنداوى فى شىء من الحرج .
هنداوى : أنا قلت الحق ويؤسفنى أن ينكر جزءا من أقوالى .
جمـال سـالم : شفت الإسلام .
هنداوى : [فى صوت خفيض] إن الإسلام لا يجيز الكذب على أى حال .
جمـال سـالم : شفت دعوة الإخوان المسلمين .
هنداوى : أنا أتقدم برجاء .
ولم يهم به جمال سالم وبرجائه ، والتفت ناحية محمود عبد اللطيف وقال :
جمـال سـالم : قل لنا يامحمود إيه اللى حصل .
واتجهت الانظار ناحية محمود عبد اللطيف الصامت وقال :
محمود عبد اللطيف : اللى حصل إن هنداوى دوير قبل الحادث بأربعة أيام أو خمسة كان لسه ماادانيش الطبنجة .. قال لى أوقف يامحمود .. وأنا كنت باستطلع وقتها بس .. فوقفت وماطلعتش .. وبعدين بعدها قال لى امشى زى ما انت فى طريقك ..
جمـال سـالم : طريقك اللى هو إيه ؟
محمود عبد اللطيف : دراسة طريقة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر .. وقبل الحادث يوم الاثنين بالليل الساعة اتناشر ونصف رحت له البيت .. وأخبرته بالحكاية بتاعت جريدة القاهرة .. ولما قلت له كده .. تردد برهة بسيطة وقال لى طيب سافر الصبح .. مش عايز فلوس .. فقلت له عايز فلوس طبعا .. ادينى خمسة جنيه ..

جمـال سـالم : وأخذت الطبنجة من مين ؟
محمود عبد اللطيف : من هنداوى ياافندم .
جمـال سـالم : والرياسات اللى فوق هنداوى ؟
محمود عبد اللطيف : أنا اعرف إبراهيم الطيب .. مااعرفش غيره .
وكانت الطبنجة أمام جمال سالم على المنصة فأمسك بها .
جمـال سـالم : والطبنجة دى اللى أعطاها لك ؟
محمود عبد اللطيف : [من على بعد دون أن يتأملها] أيوه .
جمـال سـالم : [وهو يناولها لأحد الصولات] شوفها كده .. والا استنى لتكون مليانة .
ويتأكد جمال سالم أنها فارغة ، ويذهب الصول ناحية محمود عبد اللطيف وهى فى يده ، ويهز محمود عبد اللطيف رأسه موافقا دون أن يفحصها أو حتى ينظر إليها

بينما يداعب جمال سالم هنداوى دوير .
جمـال سـالم : تحب تلمسها تانى .
هنداوى : أرجو إن شاء الله متحصلش حاجة زى كده .
ويعود الصول بالطبنجة إلى جمال سالم الذى يوجه حديثه إلى إبراهيم الطيب وقد أمسك بالطبنجة كأنه يوشك أن يطلق منها الرصاص عليه .
جمـال سـالم : هى دى الطبنجة .
إبراهيم الطيب : أنا لم أسلمه هذه الطبنجة إطلاقا .
جمـال سـالم : [ساخرا] تشتريها بكام ؟
إبراهيم الطيب : أنا متأكد ياافندم من كلامى .
جمـال سـالم : إيه رأيك ياهنداوى .
هنداوى : والله الإنكار ده ملهوش داعى لأن الأمور لا تؤخذ بهذه الصورة ، وإذا كان الإنسان أخطأ يجب يتحمل نتيجة خطئه .

ويبدو أن جمال سالم لم يستطع المضى قدما فى الاستجواب عند هذه النقطة قبل أن يبدأ غيره بالسخين ، فهو أحد الذين يعرفون سر هذا الحادث الذى وقع فى المنشية ، ويعرف تلفيفه وترتيبه ، وربما شعر بالندم لنتيجته على شعبية عبد الناصر التى جاوزت عنان السماء . فقبل الحادث كان الناس لا يستلطفونه ، وإذا أراد الحديث إليهم صاحوا : نريد نجيب .. نريد نجيب .. وعندما كانوا يقاطعونه كان وجهه يزداد جهامة وقتامة فيباعد ما بينه وبين الناس . ولم يكن يفهم هذه الأشياء حتى شرحها له الخبراء من الأمريكان .

وبعد الحادث شق طريقه بين الناس بصعوبة بالغة ، فقد تعاطف الجميع معه ، وهذه هى نفسية الجماهير . وصار زعيما بحق . الكل يحاول أن يقبله ويحتضنه ويهتف باسمه .. ولمع بعد عودته من الإسكندرية .

ولعل جمال سالم كان يفكر فى كل هذه الأمور وهو جالس على منصة القضاء الزائف فى مبنى مجلس قيادة الثورة ، ولعله كان يرى أن الطريق صار صعبا فى القضاء على عبد الناصر ؛ وهو – جمال سالم – كان قاب قوسين أو أدنى من زعامة المجلس ، وأوشك أن يجرى انتخابات للرئاسة يفوز فيها ويصبح زعيما لمصر .. وكان يظن أن صلته الوطيدة بالأمريكان سوف تمكنه من ذلك .. ولم يكن يعرف أن لكل

حجمه عندهم .. وأنهم ليسوا على استعداد لبدء القصة من أولها ، ولعله لم يكن يعرف أن الأمريكان يرتبون لزعامة عبد الناصر المطلقة ، ويوحون إليه ويساعدونه فى التخلص من كل زملائه ، تمهيدا لتغيرات كبرى فى المنطقة العربية .

ولكنه لم ييأس فهو يرى نفسه أكبر وأعظم من عبد الناصر ، وهو يستطيع أن يواجه الجماهير وهو شديد الجرأة عليها ويضرب العظماء بالشلوت ، فهو مؤهل للزعامة أما عبد الناصر فقد كان يحمل بين جنبيه قلب فأر .

والملتقى معه قريب ، ولكن نفرغ من الإخوان أولا ..

وصار جمال سالم يراقب الحوار حينا ويشرد بفكره حينا آخر ..

حوار مع محمود عبد اللطيف

ووجه وكيل النائب العام سؤالا لمحمود عبد اللطيف فى حضور كل الأطراف .

– محمود عبد اللطيف .. مشفتش الطيب أثناء الاتفاق على محاولة الاغتيالات ؟

أجاب محمود عبد اللطيف فى صوت خفيض :

– أثناء الاتفاق مشفتهوش .

– وقبلها شفته ؟

– أيوه ياافندم .

– قبلها قد إيه ؟

– عشرة خمستاشر يوم .

– حدث بينك وبينه ولا هو اتكلم مع غيرك حديث وانت سمعته ؟

– حصل بينى وبينه حديث فى منزل هنداوى .. قعدنا شوية وبعدين هنداوى قال أخوك إبراهيم الطيب .. وعرفنى بيه وقال حيفوت عليك فى الدكان .

– وهل هو فات عليك ؟

– حاقول .. مع أنى لم أذكره فى التحقيق القديم لأنى ماكنتش أردت .

وهنا تحفز جمال سالم واعتدل فى جلسته وألقى إليه نظرة صارمة عبرت إليه عبر القاعة كأنها شهاب نار ، والتفت إليه كل من بالمكان وقال محمود عبد اللطيف :

– الحكاية إن علشان خاطر هنداوى يسلمنى أنا وسعد وحجاج لإبراهيم الطيب ،

إبراهيم الطيب قعد معنا فى بيت هنداوى .. وقعدنا نتكلم شوية فى حكاية الجهاد وماشابه ذلك.. وبعد كده إبراهيم الطيب قال حانوت عليك فى الدكان أنا عارفه .
وهو سبق إنى شفته جانى فى الدكان مرة .. بعد كده اتصل بى بعد يومين إبراهيم الطيب فى الدكان وقال حضَّر سعد النهارده الساعة ٦ .. هو كان اتصل بى قبل الظهر أو بعد صلاة الجمعة وقال لى عايزك انت وسعد حجاج اليوم الساعة ٦ .. بدءا من الساعة ٦ .. قلت له طيب .
سعد حجاج فى بشتيل وأنا فى امبابة .
بعدمـــا صليت الجمعة رحت لسعد حجاج الساعة اتنين فى البيت وأخبرته بالاجتماع قال لى طيب .. وجانى حوالى الساعة ستة وقعد عندى من الساعة ستة وصلينا المغرب وقعدنا لغاية سبعة إلا عشرة .. وجاء إبراهيم الطيب وقال احنا عاوزين نقعد فى حتة .
فيه مكان ؟ .. قلت له فى البيت فيه مكان .. قال نروح البيت .
مشينا احنا الثلاثة .. أنا وسعد حجاج وإبراهيم الطيب .
وقلت لهم عن إذنكم لما أوسع لكم السكة لأنى ما عنديش إلا أودة واحدة .
وقلت انحى الجماعة بتوعى عن الطريق .
طلعت فوق وفضيت السكة ونزلت لقيت الاتنين تلاتة .
استعجبت ده جه منين ؟! الطيب قال لى ده معانا مفيش حاجة .
قلت مادام مفيش حاجة خلاص وطلعت وقعدنا احنا الأربعة وعملنا تعارف .
أنا قلت أنا اسمى محمود عبد اللطيف وسعد حجاح وإبراهيم الطيب .
ولغاية الرابع إبراهيم الطيب قال ده تعرفوه بتوفيق .
وقال ده حيكون مندوب القيادة لكم واللى يقول لكم عليه تنفذوه .
قلنا حاضر مع السمع والطاعة .
وكان أى أمر أو أى حاجة نسمعها من الإخوان المسلمين نسمعها على إنها حاجة خاصة وطاعة الإخوان من طاعة الله .
دى اللى كنا باعتقادنا لها كنا ماشيين وراها نسلم بكل شىء .
وانتهى كلام محمود عبد اللطيف .
ونظر وكيل النائب العام ناحية جمال سالم فوجده ليست لديه رغبة للتعليق فاستمر .
وكيل النائب العام : حصل بينك وبين إبراهيم الطيب أكثر من مقابلة . وراح عندك البيت .

محمود عبد اللطيف : أيوه ياافندم .
وكيل النائب العام : إبراهيم الطيب أنكر انه راح عندك البيت .
واندفع إبراهيم الطيب مصححا :
— أنا قلت : أنا كنت بازور الإخوان فى بيتهم يا بيه .
واستفاق جمال سالم ليقول عبارة صارخة :
— الثورة ألغت كلمة بيه من الأول خالص .
وسكتت القاعة قليلا فى انتظار أن يستمر جمال سالم فى الزعيق ولكنه اعتمد رأسه بين يديه يفكر فى جمال عبد الناصر الذى يستمع الآن إلى ما يدور فى هذه القاعة من غرفة بأعلى هو وبعض الأوغاد مثل [redacted] .. وكانوا قد أعدوا دائرة لتوصل له كل مايدور من مناقشات ومحاورات .
يبدو أن لا فائدة فكل الأمور تسير لصالحه .. حتى الصنمان اللذان يجلسان عن يمين وشمال صارا يعاملانه معاملة خاصة تتسم بالتوقير الشديد والمبالغة فى الاحترام .
وهاجت الأفكار فى رأسه ساعتها .

وانتفض واقفا ..
ووقف كل من فى القاعة وظنوا أنه يرفع الجلسة .
ولكن جمال سالم تذكر الموقف الذى هو فيه فجلس وجلسوا .
وظن بعض من حضروا هذه الجلسة أنه قد قام ليضرب إبراهيم الطيب فقد كان يضربه بنفسه منذ ساعتين .. وهكذا حكى بعضهم ..
واستمرت إجراءات الاستجواب ..

بين هنداوى والطيب

وسأل وكيل النائب العام إبراهيم الطيب :
— مين قدم نصيرى لهنداوى ؟
— رئيس المنطقة بتاعته .
والتفت وكيل النائب العام إلى هنداوى :
— ياهنداوى .. مين قدمه لك ؟
هنداوى : إبراهيم الطيب هو اللى بعته .

وتدخل جمال سالم موجها حديثه لإبراهيم الطيب :
– انت اللى بعته ؟

إبراهيم الطيب : أنا لم أتصل به .. كنت عادة لأتصل برؤساء المناطق .
جمال سالم : انت رحت لمحمود فى البيت ؟
وتجاهل إبراهيم هذا السؤال أو لم ينتبه له وقال :
إبراهيم الطيب : التكليف يكون عن طريق رئيس المنطقة .
جمال سالم : انت قلت لرئيس المنطقة يكلف ؟
إبراهيم الطيب : هو أتى يا افندم .. ونصيرى طلب الانضمام .
وبسخرية وسوقية وابتذال قال جمال سالم :
– ليه ؟ بيحب هنداوى ؟
إبراهيم الطيب : كان مطلوب لاعتقاله فى الجامعة .
وكيل النائب العام : وإيه دخل بين السرايات وامبابة .
وتدخل جمال سالم وقال بلهجة من يعلم وكيل النائب العام ويفهمه :
– علشان يكون العمل بعيد عن المنطقة ..أنت عايز الشاهد ؟
وكانت اللهجة جافة فارتبك وكيل النائب العام وسكت الكل وقطع الصمت صوت هنداوى الذى لم يدعه أحد إلى الكلام :
– هو جاب لى الطبنجة الثانية واللغم والمدفعين على أنهم يشتركوا هو ومحمود .. وأنا أقول لله ياسيدى الرئيس إن سعد لم ينضم – يقصد سعد حجاج وبدت الحكاية مملة ، وبدا السأم على الجميع ، فالكل عليه أن يلف ويدور بعيدا عن واقعة الضرب نفسها ، فهم يقولون مايشاعون ولكنه بعد فترة يصير كلاما مكرراً ممجوجا . وهناك هدف إعلامى ساذج من وراء هذه المحاكمة . قام برسمه خبراء عالميون . وقام بتنفيذه هؤلاء الهواة فبدا العرض رديئا . وقطع الصمت قول جمال سالم :
– إية حكاية المدفعين .. جنسهم إيه ؟
هنداوى : ما اعرفش والله .. إبراهيم سلمهم لى على أساس إن محمود عبد اللطيف ونصيرى يعملوا كمين يراقبوا ركب الرئيس .
وكيل النائب العام : ينكر إبراهيم أنه كان أعطاك تعليمات ..
هنداوى : سبحان الله .

إبراهيم الطيب : أنا قلت تعليمات بس (والحقيقة لم أفهم هذه العبارة ..ا.ر.)
جمال سالم : هو أعطاك تعليمات الخطة لاغتيال الرئيس جمال وأعضاء رجال الثورة والضباط وسألته عن اللى فى منطقته .
وكان نصف الكلام موجها إلى هنداوى والنصف الثانى إلى إبراهيم الطيب .
وسارع هنداوى بالكلام :
- هو متأكد إن مافيش فى امبابة يا أفندم .
وتوجه جمال سالم إلى إبراهيم الطيب وسأله :
- تعرف يحيى سعيد ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمال سالم : بيشتغل إيه ؟
إبراهيم الطيب : أظن فى مصلحة التنظيم .
جمال سالم : الشغلة الأساسية .
إبراهيم الطيب : فى مخابرات إمبابة .
جمال سالم : كان رئيس جماعة المخابرات ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .. كان هنداوى مرشحه .
جمال سالم : والتقيت به ؟
إبراهيم الطيب : أيوه ..
جمال سالم : فين ؟
إبراهيم الطيب : شفته فى شارع العباسية .
جمال سالم : فى الشارع فقط ؟
إبراهيم الطيب : كان فيه لقاء .
جمال سالم : فى الشارع على التلتوار ؟
إبراهيم الطيب : لا ..فى مسجد .
جمال سالم : كان فيه اجتماع ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمال سالم : كان على أساس إيه ؟
إبراهيم الطيب : كان يتصل يبعض الإخوان اللى بيشتغلوا فى قسم المخابرات .
جمال سالم : هو قال انه قابلك فى بيت كان فيه عبد المنعم عبد الرعوف وكان بيشرح

تكتيك بعيدان السجاير . (يقصد عيدان الكبريت ا . ر.)
إبراهيم الطيب : لا ياافندم أبدا ..
وحدجه جمال سالم بنظرة قاسية متوعدة والتفت ناحية (النياباتية) وقال
الادعاء عايز هنداوى ؟
وكيل النائب العام : لا .
والتفت جمال سالم : المرافعة عايزاه ؟
الدفاع : لأ ياافندم .
جمال سالم : متشكرين يا هنداوى اتفضل .
هنداوى : لى رجاء ألتمسه من المحكمة .
جمال سالم : مش وقت الالتماسات دلوقت .
وخرج هنداوى من القاعة فقد كان مطلوبا بحساب ، ويتكلم بحساب وتحت السيطرة الكاملة ، وهذا ما لاحظه الذين حضروا المحاكمة ، وهذا ما يتضح من مضبطة المحكمة التى بين أيدينا ، فكلامه فى حدود لا ينبغى أن يتخطاها ، ولا أدرى كيف استطاعوا رسم هذا بشكل دقيق على نحو ما .

الإخوان والحكومة الإسلامية

ويعود جمال سالم لتكراره الممجوج موجها حديثه لابراهيم الطيب ، ويبدو أن جمال سالم لم يع الدرس الإعلامى الذى لقنه واعتمد على كفاءته فى ظنه فجاء أداؤه سخيفا يثير الضحك ، ولكن كلٌ يضحك فى أعماقه أو عندما ينقلب إلى أهله ويحكى لهم وقائع ما جرى فى هذه الأيام العصيبة لغيرهم .
وكأنى قردان صار جمال سالم يهز رأسه وهو يخاطب الشهيد إبراهيم الطيب :
ـ لما كنت تغتال الحكومة الموجودة والإخوان المسلمين هم اللى يتغلّبوا .. ما نوع الحكومة التى ستقام فى البلد ؟ .. وما هى الخطة ؟
إبراهيم الطيب يرد بهدوء :
ـ فهمت من الإخوان المسلمين .
يقاطعه جمال سالم سريعا .
ـ من مين ؟
ـ فضيلة الشيخ فرغلى ويوسف طلعت .. إن الإخوان ليس من أغراضهم الحكم بأى حال .

وازداد هز جمال سالم لرأسه وهو يقول منغما كلامه غير آبه بالموجودين أو احترام المحكمة المفترض :

– وازاى الحكومة اللى كانت حتيجى ؟

وبشجاعة ووضوح قال إبراهيم الطيب :

– دى كان يتولاها طبعا الرئيس محمد نجيب نفسه .

وكاد جمال سالم ينشق من الغيظ ، ورغم كل مافعله مع إبراهيم الطيب فلم ينفذ إلى روحه وكبريائه أبدا .. أهانه وضربه وعذبه بلا فائدة .

جمال سالم : وما هى الخطة اللى تمليها على هذه الحكومة للسير عليها ؟

إبراهيم الطيب : لا توجد خطة مطلقا ..

جمال سالم : ما الفرق بين الحكومة التى يتولاها محمد نجيب والحكومة الحاضرة ما دام ليس هناك خطة ؟

إبراهيم الطيب : اللى قيل إن اللواء محمد نجيب كان يريد أن يحقق المطالب اللى شرحتها من قبل .

جمال سالم : ديكتاتورية الإخوان المسلمين ؟

إبراهيم الطيب : الهدف اللى سيادتك أشرت إليه فى الخطاب بتاعه .

جمال سالم : نفس الخطة موجودة فى الديكتاتورية المستترة للإخوان المسلمين فى الجهاز السرى .

إبراهيم الطيب : لم أفهم إطلاقا أن من هدفهم الوصول إلى الحكم .

جمال سالم : أبدا ؟ و لا يجب وجود حكومة إسلامية ؟ و لا الحكم بالاسلام ؟

إبراهيم الطيب : لازم يكون فيه تفاهم بين الحكومة والإخوان لتحقيق حكومة إسلامية .

جمال سالم : ما هى الخطط والنقط التى تسير عليها الحكومة علشان تحقق حكم الإسلام ؟

إبراهيم الطيب : لم تكن محددة

جمال سالم : ويحصل عليها الخلاف بعد قيام الحكومة ؟

إبراهيم الطيب : لم أعلم بوجود اختلاف أو احتمال وجود خلاف ..

جمال سالم : محمد نجيب يخضع لأى تصرف تقولوه له ؟

إبراهيم الطيب : لا أعلم ولم يصل إلى علمى أى شىء يتعلق بهذا الاحتمال .

جمـال سـالم : معناه انكم واثقين إن محمد نجيب على رأس الحكومة سوف يطيع كل ما يطلب من الحكومة لتحقيق حكومة إسلامية ؟

إبراهيم الطيب : ما اقدرش أقطع بهذا .

وحبست القاعة أنفاسها إعجابا بإبراهيم الطيب بينما الغيظ قد بلغ مداه بجمال سالم ، وقيل إن عبد الناصر الذى كان يستمع هو وزكريا محيى الدين فى غرفة أخرى لتفاصيل ما يدور عبر الميكروفونات قال : « الواد ده لازم يموت » وانفجر جمال سالم فى إبراهيم الطيب .

– امال تقدر تقطع بإيه ؟ تقدر تقطع بأنك تعرف هنداوى ؟

ولم يرد عليه إبراهيم وصار جمال سالم يحدق فيه قليلا ، ثم التفت ناحية الدفاع :

– اتفضل يا سيدى الدفاع .

مكتب الإرشاد والنظام الخاص

قال الدفاع بتؤدة موجها سؤاله لإبراهيم الطيب :

الدفاع : ذكرت بصدد تعرفك على محمود عبد اللطيف روايتين إحداهما صحيحة على لسانك والثانية على لسان محمود عبد اللطيف .. أيهما صحيحة ؟

إبراهيم الطيب : الروايتان صحيحتان وأنا مقرهاتين الروايتين .. وسبق أنى زرت كثير من الإخوان فى منازلهم وتحدثت معهم فى شئون عامة كما ذكر محمود عبد اللطيف

الدفاع : قلت إن الجهاز السرى خاضع لمجلس أعلى سميت أعضاءه . هل هذا الجهاز الأعلى خاضع لتوجيه معين أم مستقل فى توجيهه ؟

إبراهيم الطيب : لا أعتقد أنه يخضع لأى توجيه آخر .

الدفاع : بعبارة أصرح ...

وهنا تدخل جمال سالم :

– وكيف كان ذلك ؟

إبراهيم الطيب : باعتبار أنه المهيمن ليس هناك سلطة أخرى .

جمـال سـالم : ولا مكتب الإرشاد ؟

إبراهيم الطيب : مكتب الارشاد لم يكن يتعرض لمثل هذه المسائل لأنها كانت تفهم على أساس المعمول به من أيام الشيخ حسن البنا . فكان ليس له أن يتدخل فى المسائل التى تعتبر مش من اختصاصه .

جمـال سـالم : ولو ان هذا الجهاز السرى جزء من جماعة الإخوان ؟
إبراهيم الطيب : أيوه صح .
جمـال سـالم : وكان برياسة حسن البنا ؟
إبراهيم الطيب : وظل برياسته وبعدين الأستاذ الهضيبى .
جمـال سـالم : أمره هو النافذ ؟
إبراهيم الطيب : مع أعضاء اللجنة .
جمـال سـالم : اللجنة الخماسية واللى يمكن تكون سداسية ؟
إبراهيم الطيب : جايز قوى .
جمـال سـالم : بانضمام عبد المنعم عبد الرءوف تبقى سداسية ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمـال سـالم : دول مستقلين تمام الاستقلال عن مكتب الإرشاد ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمـال سـالم : كيف يكون ذلك مع أنه جزء من جماعة الإخوان ؟
إبراهيم الطيب : مكتب الإرشاد لم يكن يعلم تفاصيل هذا الجهاز من أيام حسن البنا .
جمـال سـالم : هل هذا هو النظام الإسلامى الذى تريد تنفيذه فى البلاد ؟
إبراهيم الطيب : لذلك رئى أنه يجب أن يتم تعديل القانون لكى يكون الإرشاد هوالمهيمن على كل شىء .
جمـال سـالم : وهل عدل هذا القانون ؟
إبراهيم الطيب : عدل ولكن لم ينفذ ..
جمـال سـالم : موقوف .. هل هذا التعديل فيه نص كما قلنا فى الصباح.. مادة تنص على أن مكتب الإرشاد له الإشراف على الجهاز السرى .
إبراهيم الطيب : بهذه الألفاظ لا .
جمـال سـالم : أمال بأى ألفاظ ؟
إبراهيم الطيب : حسب الواقع مكتب الإرشاد لا ..
جمـال سـالم : [مقاطعا] الواقع أن المرشد متصل بالجهاز السرى ٢٤ قيراط .. إزاى احكم الواقع من غير النص ؟
إبراهيم الطيب : لو حصل تعديل القانون .

جمـال سـالم : ومكنتوش ناويين تعدلوا القانون ؟

إبراهيم الطيب : اتعدل ولكن لم ينفذ .

جمـال سـالم : هل نص فى القانون بعد التعديل أن يكون لمكتب الإرشاد الإشراف على الجهاز السرى ؟

إبراهيم الطيب : مذكور فى القانون ان هناك قسم الرياضة والتدريب العسكرى وده يطلق على النظام فيما يتعلق بالتعبير عنه فى الأوراق .

جمال سالم : (ساخرا) لما تحب تشنكل واحد وتدخله الجنة تقول له تعالى فى التدريب العسكرى والرياضة ؟ لغاية ما يدخل الشبكة وان جه يطلع ... فايز ؟[1]

إبراهيم الطيب : أنا أعتقد أنه اعتدى عليه من خارج جماعة الإخوان .

جمال سالم : ماتكونش الحكومة ؟

إبراهيم الطيب : مااقدرش اتكلم عن الاحتمال ده .

جمـال سـالم : يعنى بعيد عن مخك ؟

إبراهيم الطيب : إن بعض الظن إثم .

ويهز جمال سالم رأسه وينظر إلى إبراهيم الطيب الذى يطيل النظر إليه هو الآخر فقد كان كل منهما يفهم الآخر ، وهما الاثنان يعرفان كيف تدور هذه اللعبة ويشير جمال سالم بيده للدفاع فيقوم ليتكلم :

الدفاع : هل تعتبر الجهاز السرى جزء مهم من الإخوان أم أنه نظام عارض .؟

إبراهيم الطيب : أحب أن أقرر أن الجهاز السرى ليس سريا بالمعنى الذى ذكرته حضرتك ولكنه موجود فى جميع المناطق الخاصة بالإخوان .

وتبدو العصبية على المحامى وتظهر علامات الغضب على وجهه ويقول :

الدفاع : هل هذا الجهاز تعتبره أيا كان سرى أو غير سرى .. الجهاز اللى كنت عارفه وأنا عارفه .. هل هذا الجهاز جزء مهم من رسالة الإخوان ولا عمل عارض ؟

إبراهيم الطيب : جزء من عمل الإخوان وأساس أن يقوم الإخوان بالإعداد والتجهيز والتنظيم والتدريب .

---

(١) يقصد بهذا المرحوم السيد فايز عبد المطلب أحد أعضاء النظام الخاص ، والذى اغتيل من خلال عبوة ناسفة على شكل علبة حلوى تركها له مجهول فى بيته يوم ١٢ نوفمبر سنه ١٩٥٣ واتهم النظام الخاص القديم فى اغتياله وقد حُقق فى هذا الموضوع وقيدت القضية ضد مجهول ، والأرجح عندى أن الفاعل فى هذه الجريمة هو جمال عبد الناصر من قرائن كثيرة . (المؤلف) .

الدفاع : وأعلى هيئة تشرف على الإخوان هى إيه ؟
إبراهيم الطيب : [مستاء] سبق ذكرت هذا ..
جمـال سـالم : [غاضبا] قوله تانى وثالث ورابع وخامس وسادس ..
إبراهيم الطيب : [هادئا] مكتب الإرشاد .
الدفاع : هل من المنطق ؟ ومن حقى أن أطالبك بالمنطق أن يستبعد أضخم جهاز فى الإخوان – كما قررت – عن رقابة أعلى هيئة فى الاخوان .
إبراهيم الطيب : الواقع أن أعضاء اللجنة العليا ينتدبون من مكتب الإرشاد ولكن فى نطاق ضيق .
جمـال سـالم : [متدخلا] من ينتدبهم ؟
إبراهيم الطيب : المرشد .
الدفاع : بموافقة مكتب الإرشاد ؟
إبراهيم الطيب : لا .. بموافقة الأعضاء المكتسبين ثقة إخوانهم .
الدفاع : هل أعضاء مجلس الإرشاد يعرفون نشاط أضخم وأكبر جهاز أم أنهم جهلة به ؟
جمـال سـالم : [مستخفا دمه وساخرا] هم عارفين انه تدريب عسكرى ورياضة ونط حبل
الدفاع : هل حدث أن اختلف أعضاء مجلس الإرشاد مرة حول ضرورة أو عدم ضرورة وجود هذا الجهاز ؟
إبراهيم الطيب : لم يبلغ إلى علمى شىء من هذا .
الدفاع : يعنى تعرف أن أعضاء مجلس الإرشاد لم يختلفوا حول ضرورة أو عدم ضرورة الجهاز ؟ حقيقة متفق عليها ؟
إبراهيم الطيب : لاأعلم بهذا .
الدفاع : [متوجها إلى جمال سالم] من باب المعرفة لو سمح الرئيس [يهز جمال سالم رأسه موافقا] كيف يتأتى لهذا الجهاز أداء دوره فى حماية الإسلام فى مراكش وتونس والجزائر ؟ . وما الطريقة العملية لذلك ؟

ويبدو أن أحد الجالسين الذين أصابهم الملل من المخبرين كان يريد أن يصرخ بأعلى صوته لهم : يا خلق يا هوه .. القضية هى محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى المنشية ، ولكن خاف من جمال سالم فسكت وظل يستمع .

وقال إبراهيم الطيب الذى كان بطل هذا اليوم بحق :

إبراهيم الطيب : اللى حصل قبل هذا كان فى حرب فلسطين .. تقدم كثير من المتطوعين من الإخوان ودخلوا البلاد بمساعدة الحكومة اللى كانت قائمة حينئذ .

جمال سالم : [بسماجة] أى بلاد ؟

إبراهيم الطيب : [هادئا] فلسطين .

الدفاع : أنا أقصد الجزائر وتونس لأن الحكومة نفسها حاربت فى فلسطين .. إيه الوسائل العملية ؟

وهنا قاطعه جمال سالم وشخط فيه قائلا :

جمال سالم : إنت طول الوقت تتكلم عن الإخوان والحكومة .. ضرتين راسهم براس بعض .. قد بعض .. تتكلم عن إيه ؟ إنجلترا وأمريكا ؟ ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ؟ إيه ؟ حكومة داخل حكومة ؟

وخيم الصمت قليلا حتى هدأ جمال سالم ، وهو يهدأ بسرعة شأنه شأن الحمقى والمغفلين ، فقد قرأت كتابا تحت هذا العنوان « أخبار الحمقى والمغفلين » ومعظم النماذج التى ساقها مؤلف الكتاب شديدة الشبه بصاحبنا "جمال سالم وولده رئيس وصاحب محكمة الشعب لتفصيل الأحكام للقضايا المفبركة".

وكان إبراهيم الطيب رحمه الله قد ازداد بهذا المخلوق خبرة وصاربه عليما ، لهذا استمر فى الكلام بعد هذه السكتة :

إبراهيم الطيب : الحكومة اللى تتقدم لمساعدة الجزائر قد تحدث أزمات دبلوماسية مع بلاد أخرى .

جمال سالم : [ساخرا] آه .. ده المكتب القانونى .

إبراهيم الطيب : دى مسائل مقررة ومفهومة .

جمال سالم : من قررها ؟

إبراهيم الطيب : [وهو يخفى سخريته] أنا فهمت ذلك .

جمال سالم : من مين ؟

إبراهيم الطيب : [مبتسما لأول مرة] من اللجنة العليا .

ولم يفهم النكتة جمال سالم وقال :
جمـال سـالم : الحكومة بتاعتك اللجنة العليا ؟ .. تأخذ منها قراراتك وتصرفاتك وتشريعاتك ؟ . ماتترافعش فى المحاكم مع موكليك بالقانون اللى واضعاه اللجنة العليا ؟
وأخبرنى أحد الذين شهدوا هذا اليوم أن إبراهيم الطيب رغم ما كان فيه من إرهاق وألم من التعذيب كاد ينفجر ضاحكا من جهل القاضى ، ورفع يده إلى فمه يتظاهر بأنه يحك ذقنه ليخفى ضحكات كادت تجلجل فى القاعة .. ثم تظاهر بالجد مرة أخرى وقال :
إبراهيم الطيب : اللى أعلمه أنه فى كثير من الحالات يستحيل على الحكومة أن تقوم بعمل لمساعدة أى بلد من البلاد الإسلامية .
جمـال سـالم : [فى حماقة] من اللى يرى ذلك ؟ الدولة اللى ترى .. لما أنت ترى لوحدك تنك ماشى تروح تتطوع .. تأخذ فيزا وباسبورت وتسافر .. صح ..؟
إبراهيم الطيب : [وهو يكتم الضحك] مضبوط .. كلام سيادتك صح .
وقد لاحظ الدفاع حمق المحكمة وجهل القاضى وثقافة المتهم الشاهد ، فحياه بإيماءة من عينيه معجبا به وهو يسأله :
الدفاع : الوسيلة العملية اللى يؤدى بها هذا الجهاز دوره لحماية مراكش والجزائر هى إيه ؟
إبراهيم الطيب : تروح الأفراد المستعدة لهذا .
وأشار إبراهيم الطيب للدفاع برأسه ناحية جمال سالم ، يعنى هذا هو رأى المحكمة كما رأيت بنفسك وسمعت ، وتجاهل الدفاع الإشارة خوفا من المحكمة .
الدفاع : هل يمكن ترحيلهم عن طريق غير الحكومة ؟

إبراهيم الطيب : لازم موافقتها
الدفاع : إذا رأت الحكومة .. هل هى أقدر أم الإخوان ؟
إبراهيم الطيب : ذكرت أنها لا تستطيع لما قد يحدث من أزمات دبلوماسية .
جمـال سـالم : وإذا منعت الحكومة من إرسالها ؟ جيش الإخوان يقوم .
إبراهيم الطيب : [وهو يغالب الضحك] أبدا ..
وكان كحوار الطرشان .. جلسة للحوار يرأسها أحمق !

* * *

لولا الهلافيت لما نجح الانقلاب

وكان جمال سالم كالراديو الخربان الذى اختلطت موجاته فبينما تسمع لندن إذا بك تجد محطة مونت كارلو قد دخلت فالبرنامج الثانى .. هنا دمشق .. بغداد .. جميع المحطات تمر عليك دون أن تمسك بالمؤشر أو تقترب منه .

وكانت هذه المحاكمات تذاع فى الراديو مساء كل يوم ، وكنا أيامها فى المدرسة الثانوية بشبين القناطر ، فعندما نلتقى فى الصباح ، نتذاكر وقائع جلسة الأمس ونضحك عليها رغم عظم المأساة التى كانت تدخل فيها مصر وقطار الثورة يمر عليها ويحولها إلى أشلاء ، وكان بعض المدرسين يستخدم ألفاظ جمال سالم من باب التفكه والتنكيت ، ويقول لنا : ما سمعتوش محكمة الشعب امبارح ؟
وكانت أنجح البرامج التى تقدم فى الإذاعة المصرية فى ذلك الوقت هى : ساعة لقلبك وبابا شارو وصورة حية من محكمة الشعب .

وكان الناس جميعا يستمعون إلى الراديو عندما يذيع تلك الصورة الحية من محكمة الشعب ، فقد كان معظم المصريين فى ذلك الوقت على صلة ما وثيقة بالإخوان .
ثم أخذ الناس الجانب الفكاهى للموضوع كعادة المصريين عندما يرتطمون بمأساة .

* * *

وفجأة اعتدل جمال سالم وألقى هذا المونولوج مخاطبا إبراهيم الطيب :
جمـال سـالم : فاكر الجيش بتاع زمان .. اللى كانوا يقولوا عليه عساكر وحرامية ؟
وينظر إليه إبراهيم الطيب صامتا لايرد ، وكذلك يفعل الدفاع و(النياباتيه) والمخبرون وسائر من فى القاعة .
ويستمر جمال سالم سياسيا ضليعا فاهما حكيما كأحد فلاسفة اليونان :
ـ أحب للتاريخ أقول إذا كنتم فاكرين ان الجيش فيه ضباط أحرار ١٦٠ فقط تبقوا غلطانين كل ضابط يشتغل فى الجيش سواء كان لواء أو ملازم أو صول أو عسكرى كلهم أحرار .
والضباط الأحرار والناس الأحرار لهم قيادة واحدة مش قيادتين .
وقيادة زى ما واحد من المواطنين بيقول قيادة علنية وهى مجلس قيادة الثورة

وميشتغلوش فى الخفاء أبدا[1] وميحلفوش يمين كذب[2] وميختفوش تحت ستار أرق رسالة هى الدين الإسلامى[3] . يقوم يتستر من تحته ويعمل جهاز دهليزى مسلح ، هو ده الفرق .. علشان محفظتوش الدين الإسلامى مظبوط ومعرفتوش تطبقوا الدين الإسلامى مظبوط .. ومعرفتوش تدخلوا فيه وتعرفوا الدرجات والخطوات اللى يجب أن تتبعوها مش فى الشكل ولكن فى الباطن والمعنى ..

والثورة لم تغش أحد زى محمود عبد اللطيف .. مغشتش واحد زى نصيرى . ماتخبيش على الناس وتقول لهم نوديكم قسم التدريب العسكرى والألعاب وبعدين تدخلهم فى الجهاز السرى واللى يطلع منه .. زى فايز[4].

الثورة لما قامت عملت حساب العيش بتاع الناس وعملت حساب المواصلات بتاعتهم .. وعملت حساب انها تحافظ على أموالهم ومنشآتهم وكباريهم مش تنسفها . أحب أعرف إزاى .. ومش عايز أعرف منك .. ومش عايز اسمع منك حاجة . كل واحد يحكم .. أيها منهم إسلامى أكثر .. مش عايز أعرف منك حاجة .. ده بس يمكن تفتح لك نقط .. يمكن تروح متعرفش تنام زى احنا مابنعرفش ننام علشان شوية هلافيت زيكم ..

وأحس بالغبطة والرضا عن نفسه بعد هذه الخطبة .

ونسى أن الثورة قامت بمعرفة الإخوان وبمساندتهم .

ونسى أن هؤلاء الهلافيت كانوا يحرسون المنشآت يوم الثورة .

ووقف الهلافيت على طريق السويس القاهرة لاحتمال تحرك الإنجليز ..

باختصار نسى دور من وصفهم بالهلافيت فى نجاح الانقلاب .

وهدأ كعادته وترك الدفاع يسأل :

– هل من مصلحة مصر – كمواطن – أن تحارب فى كل ميادين الأرض .. فى الجزائر وتونس ومراكش وإندونيسيا ؟

---

(١) لو كان تنظيم الضباط الأحرار علنيا لما نجح الانقلاب . (المؤلف) .

(٢) أقسم جمال عبد الناصر وغيره من قادة الثورة على تطبيق الشريعة الإسلامية (المؤلف) .

(٣) كان عدد من أعضاء مجلس الثورة منهم جمال عبد الناصر أعضاء فى الجهاز السرى (للؤلف) .

(٤) هذا من الأدلة القوية على أن جمال عبد الناصر هو الذى رتب اغتيال المرحوم السيد فايز وإلا كانوا أمسكوا بقتلته أثناء ذلك التعذيب الوحشى الذى أجروه فى تلك الأيام وكون جمال سالم يذكره عدة مرات ولا يحققون فى مقتله أكبر دليل على أنهم الذين قاموا به (المؤلف) .

إبراهيم الطيب : لاشك أنه من واجبها .
وهاج جمال سالم مرة ثانية .
جمال سالم : بس مش بفوضى زى اللى عايزين تعملوها مع الحكومة .. [بسخرية] يجب أولا أن يكون فيه فوضى طبعا .. يستعد هذا النظام .. ثم ثالثا تستعمله فى الداخل .. المنطق بيقول كده .. معلمكش منطق ؟ ما امتحنوكش منطق ! .

أمال أخدت شهادتك على إيه ؟ أخذت ليسانس الحقوق على إيه ؟
ورغم الموقف وقسوته فقد كان إبراهيم الطيب رحمه الله يغالب الضحك !

تحرير العالم الإسلامى لا يتجزأ

وهدأ جمال سالم وبدأ الدفاع مرة أخرى :
الدفاع : وقت قيام الجهاز وهذه مهمته أن يحارب فى كل بقاع الأرض .. فهل كانت حررت أرض الوطن من المستعمر .
إبراهيم الطيب : الإخوان بذلوا كثيرا .
الدفاع : أنا لا أسأل عن البذل .. وإنما هل الإنجليز خرجوا من مصر ؟
إبراهيم الطيب : لا .
الدفاع : هل ترى من الممكن أو من ناحية المنطق أن تحرر مصر بقاع الأرض من مستعمريها قبل أن تحرر نفسها ؟
إبراهيم الطيب : لأ طبعا .
الدفاع : إذن فيم يكون قيمة الجهاز ؟
وتدخل جمال سالم وقد أعجبه السؤال السقيم الذى سأله الدفاع فقال ساخرا :
– يمكن ماسمعتش بيان المرشد ولّا إبراهيم الطيب ولّا حسين كمال الدين .
وقال إبراهيم الطيب :
– مع وجود القوات الإنجليزية اشترك الإخوان فى فلسطين وهى غير مصرية .
الدفاع : وعلى هذا النحو تحاربوا فى تونس والجزائر وترجعوا بنفس النتيجة .؟
إبراهيم الطيب : ما هى نفس النتيجة ؟
الدفاع : أنا أسالك عنها ؟

إبراهيم الطيب : الذى أعلمه أن الإخوان يجب أن يقوموا بالواجب الذى عليهم لا أكثر
وعاود القاعة إعجابها بإبراهيم الطيب الذى لم يفارقها بين غيظ جمال سالم لسداد إبراهيم الطيب فى إجاباته فانبرى ساخرا مستهزئا :
جمـال سـالم : الواجب اللى عليهم إحداث ثورة شعبية إخوانية ضد الحكومة الموجودة باغتيال رئيس الحكومة وباغتيال أعضاء مجلس قيادة الثورة واغتيال بعض الضباط وإيقاع حرب أهلية بين فريقين مسلحين .
ثم التفت ناحية إبراهيم الطيب وقال :

– شفت المنطق ماشى ازاى .. ماشى صح ١٠٠٪ عشرة على عشرة .. روح ناجح . والدفاع والنيابة والقاضى فى مثل هذ النوع من المحاكم شىء واحد ، ويتكلمون بلغة واحدة ، تعرفهم بسيماهم وبلحن القول ، ولا تميزهم إلا بأصواتهم إن كنت تعرفهم .
وقال الدفاع سائلا إبراهيم الطيب :
– هل من الدين أو من الوطنية أن يتطوع صاحب القوة للدفاع عن الغير بينما هو فى حاجة إلى الدفاع عن نفسه .
وبالتأكيد فإن إبراهيم الطيب أكبر من كل من فى القاعة فقال :
– يحدث هذا فى كثير من الحالات .
ورغم أن الدفاع محام له سابقة فى عالم المحاماة فإنه أخذ أسلوب جمال سالم وأراد أن يقلده فقال ساخرا :
– يحدث هذا فى كثير من الحالات ؟ أى أن يتقدم الفرد بطعامه للغير بينما هو جائع ؟ ألم تسمع الحديث الذى يقول ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ؟
إبراهيم الطيب : الإخوان اشتركوا فى حرب فلسطين .
الدفاع : كان هذا دفاع عن مصر لأن إسرائيل تطمع فيها فيبقى هذا دفاع عن مصر .

إبراهيم الطيب : الدفاع عن أى بلد من البلاد الإسلامية ..
جمال سالم : [مقاطعا] بلاش فلسفة فى المسائل العسكرية ..
إبراهيم الطيب : أنا مستعد اسكت .
وفى لحظة كانت القاعة فى درب « شكمبة » وتحت الربع والعطوف وانفجر القاضى

جمال سالم : نعم يا اخويا ؟ مستعد إيه ! ! انت بتتجنى علّى .. احنا أولاد بلد يا روحى .. والمحكمة اسمها محكمة الشعب .. وأظن اسمها دلّ عليها .. وثبت للناس انها شعبية .

إبراهيم الطيب : هذا المعنى لايتطرق إلى ذهنى .

جمال سالم : كلنا متربيين فى الحسينية وباب الشعرية ودرب الحجر .. والناس كلها عارفة كده .. واحنا لم نتربى فى قصور علشان مانفهمش الحركات .. رد على السؤال الذى يقوله لك الدفاع والتزم حدوده ..

إبراهيم الطيب : أيوه ..

جمال سالم : انت شاهد .. فاهم ولا لأ .. تؤدى شهادة وتقول الجواب على أد السؤال .. انت هنا مش محامى .

إبراهيم الطيب : صح ..

والتفت إبراهيم الطيب ناحية الدفاع وقال :

– اتفضل يا افندم ..

جمال سالم : اقعد ساكت وأنا اللى أقول اتفضل [متوجها للدفاع] اتفضل .

الدفاع : هل سمعت ؟

جمال سالم : [مقاطعا فى ثورة] ده النظام .

وسكتت القاعة للحظة وعندما بدا على القاضى الهدوء قال الدفاع :

– هل سمعت ان الأستاذ الهضيبى لما دعى للقتال قال إنه يبقى قوته لاستعمالها فى الخارج .. هل سمعت أم لا ؟

إبراهيم الطيب : سمعت أنه قال إننا كنا نحارب فى القنال سنحارب فى تونس والخارج .

الدفاع : هل تعتقد كمحامى أن الهيئة التى تصل إلى الحكم عن طريق الإرهاب تتخلى عن الإرهاب بعد وصولها إلى الحكم ؟

إبراهيم الطيب : لاأعلم فى أى مرحلة من المراحل إن الإخوان كان من أهدافهم الوصول الى الحكم ..

جمال سالم : [وقد بدا عليه الكسل] إنما تريدون وضع الحكومة تحت الوصاية .

الدفاع : أنا أسألك عن قاعدة منطقية .. رد عليها .. هل تعتقد أن الهيئة التى تصل إلى الحكم عن طريق الإرهاب .. هل تتخلى عن الإرهاب عندما تصل إلى الحكم ؟

إبراهيم الطيب : ما اعتقدش .

الدفاع : أى أن الهيئة التى شعارها الإرهاب يبقى شعارها الإرهاب .
وفسر الماء بعد الجهد بالماء !
وقال إبراهيم الطيب وهو يخفى ابتسامته :
ـ لاشك فى هذا ..
الدفاع : هل تحب لمصر أن تركع تحت أقدام الإرهاب أيا كان مصدره ؟
إبراهيم الطيب : لاشك .. لا ..
وتحول الدفاع إلى جمال سالم آخر مع ملاحظة أنه يناقش شاهدا ، ولكن فى هذه القاعة الغريبة قد اختلط الحق بالباطل والشهود بالمتهمين ، وكل من يقف للمناقشة متهم ، وكل من يسأل مدع أو جلاد . ولا أحد يعرف موضوع المناقشة ، واختفت القضية الحقيقية تحت ركام التضليل والزيف والجنون .
وكأنهم جميعا كانوا يعرفون حكاية محمود عبد اللطيف وأنه لاعلاقة له بحادث المنشية ، وأن مدبرها والجانى فيها هو ذلك الذى يجلس فى غرفة أعلى ، ليستمع مع زكريا محيى الدين ، وأنه لم يتخلص بها من الإخوان ومحمد نجيب فقط بل زاد عليهم ثالث كان يخشاه ولايزال ولكن أمره سهل بعد أن ننتهى من هذا المهرجان .. ذلك الثالثا هو جمال سالم الذى حُرق على المستوى الشعبى بمحكمة الشعب .

إرهاب الحكومة يقتل العزة والكرامة

وقال الدفاع :
ـ هل تعتقد أن الإرهاب يفقد المواطنين شجاعتهم وعزيمتهم ؟
إبراهيم الطيب : مستحيل .
ـ هل تعتقد أن الإرهاب من شأنه إذا دام يفقد المواطنين شجاعتهم وعزتهم ؟
إبراهيم الطيب : مستحيل .
ـ هل تعرف أن الشجاعة ممارسة أو لا ؟
إبراهيم الطيب : لاشك أنها ممارسة .
ـ وهل تعرف أن مما يزيد فى الإنسان الشجاعة أن يمارسها أو لا ؟
إبراهيم الطيب : لاشك أن الممارسة توجد هذه الصفة .
ويبدو أن الدفاع كان يريد أن يصل إلى نقطة ما فى ذهنه بتوالى هذه الأسئلة ..

نقطة لا دخل لها بالقضية المعروضة بالتأكيد .. ولكن كان هناك سياق تمضى فيه أسئلته ، وقد قطعها عليه جمال سالم حيث تدخل فى الأسئلة فى واد مختلف .

ولاشك أن أكثر الذين تكلموا فى محكمة الشعب هو قاضيها جمال سالم .. فقد كان يستعمل النيابة والدفاع والشهود والمتهمين كمادة يتكلم بها أو عليها .. والمفروض أنه يستمع فقط لما يدور ولا يتدخل إلا بحساب ليستوعب الموضوع .. ولكن فى حالتنا هذه قد استوعب الموضوع من قبل إنشاء المحكمة فلا حاجة به إلى الإنصات ، وقد جاء الكلام .. وكان شوقه إليه عارما بلا تبصر أو روية

وسرعان ما وجه سؤالا للشاهد المتهم الشهيد إبراهيم الطيب :

جمال سالم : إذن لماذا تستعملون الإرهاب مع أعضاء الجهاز السرى بعد دخولهم فيه فى الإخوان المسلمين ؟

إبراهيم الطيب : ما اعرفش ؟

وكانت هذه هى أسهل إجابة عنده ، ولا يوجد لها بديل لأسئلة القاضى .

مخابرات الإخوان

جمال سالم : أنت مسئول عن قسم القاهرة ؟

إبراهيم الطيب : أيوه ..

جمال سالم : ومسئول عن الجهاز الإدارى له ومخابراته ؟

إبراهيم الطيب : المخابرات قسم قائم بذاته .

جمال سالم : تبع من ؟

إبراهيم الطيب : تبع الأستاذ صلاح عبد المعطى .. وهو كان ماسكها لآخر لحظة .

جمال سالم : ودى تبقى تبع أى قيادة ؟

إبراهيم الطيب : تبع الأستاذ يوسف طلعت .

وهاج جمال سالم لغير سبب واضح كعادته ، فأفكاره هى التى تغضبه وقال ثائرا :

– تبع النظام الماشى فى الجهاز السرى مش غصب عنك .. وبقول لك سواء تعرفها أولا تعرفها-إن فيه حاجه اسمها سياسة عليا .

هكذا قال جمال سالم : والله وحده يعلم معنى هذه العبارة ومدلولها .

ورد إبراهيم الطيب هادئا :

– يصح ..

وفى عصبية أخرج جمال سالم من أمامه بعض الأوراق وصار يقرأ :
جمـال سـالم : زار كل من ..
وسكت والتفت إلى من فى القاعة كأنه عرض مسرحى وقال :
– اسمحوا لى ما اقراش الاسم لمصلحة التحقيق .
وسمحوا له واستمر فى القراءة :
– فلان وفلان منزل فلان يوم كذا الموافق كذا الساعة كذا ويوم كذا الموافق كذا ..
وشهد كل من فلان من المنطقة الفلانية وفلان من المنطقة الفلانية مجتمعين مع فلان فى منزل فلان حتى الساعة كذا .
ثانيا – وبدأ النشاط يدب وتعقد عدة اجتماعات بين أعضاء النظام بالمنطقة كذا ولما علمنا ..
وتوقف عن القراءة وعاد إلى الجمهور وقال :
– ده اللى كاتبه جهاز المخابرات .
ثم واصل القراءة .
– ولما علمنا ان هذا النشاط بعلم المسئولين فى الإخوان قسم الجهاز السرى[1] رفعت الرقابة .

هذا تقرير قدمه أحد أعضاء مخابرات الجهاز السرى ومعناه أن هناك رقابة على الجهاز السرى علشان خاطر الارهاب ، فلما يجتمعوا أو يعملوا فتنة داخل هذا الجهاز المسلح .. فايز ..
والتفت القاضى ناحية الشاهد الذى أنهك تعبا :
– تحب اقرا لك كمان حتة من تقرير الإرهاب ؟ وتحت يدى صورة زنكوغرافية له .. كاتب التقرير يتكلم عن عضو تانى فى داخل الجهاز السرى ، أى سرى السرى أى الرقابة فى المخابرات التى تراقب الجهاز السرى .. لأنه لوحظ على واحد حاجات .
وعاد جمال سالم يقرأ :
– « إذا لزم الأمر فإننى على استعداد كامل لتقديم تقرير واف عن الأخ فلان لأن حالته النفسية غير عادية » .

---

(١) لم يستخدم الإخوان كلمة الجهاز السرى بل النظام الخاص والتسمية الأولى حكومية (المؤلف) .

يعنى بيشوف حالته النفسية غير عادية فيكتب تقرير ويوريه للرئاسة فيه إرهاب أكثر من هذا عشان تذل أعناق الرجال ؟

الدفاع : إذا كانت ممارسة الصفة سبيل إلى إيجاد ...

وقاطعه جمال سالم محدثا إبراهيم الطيب الذى بلغ به التعب منتهاه فهو يجفف عرقه :

– ماتمسحش عرقك .. لسه بدرى أوى

الدفـاع : إذا كانت ممارسة الصفة سبيلا إلى إيجادها أو تقويتها ألا تعتبر ممارسة الإرهاب ضد المواطنين على هذا النحو خيانة ؟

إبراهيم الطيب : ممارسة الإرهاب ضد المواطنين خيانة لا شك فى هذا .

الدفاع : هل تعتقد أن مقتل الخازندار الشهيد بحق من شأنه أن يعرض – كمحام – رسالة القضاء وهى رسالة مقدسة للمؤثرات أم لا ؟

إبراهيم الطيب : لا شك فى هذا ، وأنا مقتنع بهذا .

جمـال سـالم : ما هى طبيعة الأجهزة السرية المسلحة .. هل طبيعتها إرهابية أو تديلك هدوء وطمأنينة ؟

إبراهيم الطيب : المفروض أن يكون فيه الهدوء والطمأنينة .

وضحك الخنازير !

جمـال سـالم : سمعتم منطق الصف الثالث من جمعية الإخوان المسلمين الذين يدعون دعوة الدين ؟ وسمعتم المنطق الذى كانوا يحكمون به البلاد شفتم الديمقراطية البرلمانية والانتخابات والحرية .. شفتم الأسماء الرنانة اللى بيضحكوا بها على ١٩ مليون واحد ساكنين فى الطوب النى ويشربوا ميه عكرة . الأجهزة السرية تدينا هدوء وطمأنينة إذن لماذا لم تتبع الدول تنظيم جيوشها وتسليحها فى السر طالما إن السر يجيب طمأنينة أكثر ؟

ورد عليه إبراهيم الطيب :

– لا أقصد أن السر يأتى بطمأنينة .. إنما أقصد أن الإخوان فى تشكيلاتهم يقصدون إلى هذا المعنى .

جمـال سـالم : ده شىء جميل .. حدوتة جديدة .

إبراهيم الطيب : هذا الذى وقع فى ذهنى .

جمـال سـالم : شىء جميل جدا .. شىء فى منتهى الجمال .

الدفاع : انت قلت إن القتل من شأنه أن يؤثر على رسالة القضاء فما قيمة دولة

يختل فيها ميزان القضاء وإذا فرض واختل ..
وقاطعه جمال سالم :
- لا داعى لهذا السؤال ..

* * *

لا أحد يعرف موضوع القضية المنظورة إلا إذا قرأ فى الديباجة أنها قضية محاولة اغتيال جمال عبد الناصر فى المنشية والمتهم فيها محمود عبد اللطيف محمد . الكل يتكلم ويسأل فى أى شىء عدا النقطة موضوع القضية ، فإن وقعت فى يديك أيها القارىء العزيز هذه المضابط التى تم سحبها من السوق وإعدامها لأنها تشير بأصبع الاتهام إلى الضباط أنهم الذين دبروا كل شىء ، فإن قدر لك الاطلاع عليها فلن تستطيع أن تستنتج ما القصة على وجه التحديد ومن يحاكم وما هو الموضوع .
هو الدفاع يحاسب الشاهد على قتل الخازندار الذى صدر ضد قاتليه حكم من القضاء قبل الثورة ، ثم أفرج عن المتهمين بعد قيام الانقلاب .

وكان عبد الناصر قد قال لعبد الرحمن السندى بعد قتل الخازندار إنها ضربة معلم ، وهنأه على ذلك وطلب منه أو رجاه مزيدامن مثل هذه الضربات الموجعة للخونة وعملاء الإنجليز .
فى الوقت الذى غضب فيه حسن البنا وطلب من ثلاثة من كبار الإخوان أن يحكموا بينه وبين عبد الرحمن السندى فى هذه الواقعة .

د . حسين كمال الدين .
د . عبد العزيز كامل .
م . حلمى عبد المجيد .
جمعهم حسن البنا وأحضر عبد الرحمن السندى وسأله أمامهم :
- لماذا قتلت الخازندار ؟
وقال السندى :
- أنت الذى أمرت بهذا .
- أنا يا عبد الرحمن ؟
- نعم أنت .

– قلت لو كان ربنا يريحنا من العالم دى .

وقال حسن البنا غاضبا :

– وهل تعنى هذه الكلمة الأمر بقتله ؟

– هذا ما فهمت .

وقال حسن البنا :

– أنا برىء من قتل الخازندار .

وكان الخازندار قاضيا يرى شرعية الوجود الإنجليزى فى مصر ويحكم بالعقوبات المغلظة على كل من يعرض عليه ممن يقاومون الاحتلال ، بينما يحكم فى قضايا القتل وهتك العرض بأخف العقوبات .

واختلفت وجهات النظر فى قتله . البعض يرى أنه خائن ويجب أن يطارد الخونة فى كل موقع فى القضاء وغيره ، وهو ما شجع جمال عبد الناصر وحسن التهامى على التربص بحسين سرى عامر باشا وأطلقا الرصاص عليه ، ونجا من القتل ، وبات جمال عبد الناصر ليلتها يرتعد من الخوف ويدخن السجائر ويقول : ليته لا يموت كما روى فى كتاب فلسفة الثورة الذى ألفه له محمد حسنين هيكل كما سمعنا ، وكان مقرراً علينا فى المدارس . وكانوا قد طبعوا منه عدة ملايين من النسخ ساهمت فى تشكيل المبلغ الكلى لديون مصر ، ثم ألقى فى الزبالة بعد ذلك ، ولا توجد منه نسخة واحدة فى غير المتاحف .

وكان البعض الآخر لايرى قتله ، وأنه ليس هناك سند شرعى يبرر ذلك .

وحجة من قتلوه أقوى بغض النظر عن التفلت التنظيمىوأن هذا تم بطريقة فردية ، ولم يؤخذ رأى مرشد الإخوان فى ذلك .

فإن كانت القوى الوطنية والإسلامية فى مصر فى ذلك الوقت قد اعتمدت فكرة تصفية الخونة وعملاء الإنجليز للضغط على من مثلهم فى التخلى عن هذه العمالة ، والضغط أيضا على الإنجليز فى قبول الجلاء عن مصر ، فمن هنا تقوى وجهة نظر من يرون مبدأ تصفية الخونة .. على أى حال ذلك تاريخ قد انقضى .

* * *

ونعود إلى "محكمة الشعب لصاحبها جمال سالم وولده".

فما إن سمع سؤال الدفاع حتى اعترض ..

ورد الدفاع قائلا :
– وأنا متنازل عنه وأنا كنت أناقشه كمحامى .. وهل تعتبر أن ..
وقاطعة جمال سالم ثانية :
– الفكرة أننا مش عاوزين نخش فى قضايا قديمة واللى توفى الله يرحمه وانكتم الدفاع وصار يسأل أسئلة هى إلى الجبر وحساب المثلثات أقرب وقال :
– هل تعتبر تنظيم آلات الشر تساوى الشر ؟ دى عموميات .
إبراهيم الطيب : لاشك .
الدفاع : هل كان دورك قائم على تنظيم وتشكيل الجهاز السرى أو الخاص ؟
إبراهيم الطيب : أيوه يا افندم .
الدفاع : كيف كان يتأتى إيجاد حياة دستورية بعيدة عن المؤثرات الحزبية لأنك قلت اننا عاوزين حياة دستورية بعيدة عن المؤثرات الحزبية .. وما هى الطريقة لتكوين حياة دستورية بعيدة عن المؤثرات الحزبية ؟
إبراهيم الطيب : المسألة دى لم أدرسها وإنما تبحث عن طريق الحكومة التى تقوم بعد ذلك .
الدفاع : تعمل إيه ؟
إبراهيم الطيب : قلت إن هذه المسألة متروكة للحكومة .
ووقف جمال سالم على المنصة بين انبهار أنفاس من يشهدون حتى إن الدفاع قد ازداد ارتباكه ، وصار جمال سالم يمثل بيده أنه يزمر ويقول :
– توت حاوى .. تضرب زر .. يطلع برلمان حر .. مائة فى المائة .. مافيش حاجة أبدا .. ياعينى ياولاه . (يقصد يا أولاد)
وتلفت (النياباتية) خائفين وعكف (الدفاعاتية) واجمين على الأوراق ..
وكان محمود عبد اللطيف ينظر مشدوها . وإبراهيم الطيب يغالب الضحك .
وقال الدفاع :
– ما هى الوسائل ؟
وسكت إبراهيم الطيب للحظة حتى يزدرد ضحكة ثم تصنع الجد وقال :
– لم نفكر فى الوسيلة إطلاقا .
وقد أراد بهذا أن يقفل باب المناقشة فى هذا الموضوع الذى لا يفيد ، وهنا أشار جمال سالم بيده إلى الدفاع أن تقدم إلىَّ .

واقترب منه الدفاع خائفا وجلا لايدرى ماذا يريد منه أوما يفعل به .
وعندما اقترب منه قال له بصوت سمعه الجميع بلهجة المعلم الذى يعطى درسا .
جمال سالم : سوف لايفكرون فى الوسيلة لانه سوف لايعلنها .. والحكومة اللى رايحة تيجى حتكون تحت الوصاية وهى التى تعلنها وهو يعمل فى الخفاء ..
ويبقى الجيش الأساسى جيش الجهاز السرى .
وأراد الدفاع أن يبتعد عن مرمى يد جمال سالم أو فمه حتى يصفعه أو يبصق فى وجهه فهو لايضمن ردود أفعاله،فقال وهو يبتعد :
الدفاع : أنا مكنتش فاهم المسألة على النحو ده ..
وأشارله جمال سالم ثانية فجاءه يرتعد ، فقال له :
- أرجو أن تذكرنا بهذه المسألة مرة أخرى بعد أن ننتهى .
وهز الدفاع رأسه موافقا وابتعد عن مرمى الضرب والبصق .
الدفاع : هل كان فى نية الإخوان أن يرشحوا رجالهم لهذه الانتخابات البعيدة عن المؤثرات الحزبية .
إبراهيم الطيب : المسألة أنا لم أعلم بها ولا يوجد قرار حاسم فيها أستطيع أن أقرره ..
الدفاع : تقديرك الشخصى إيه ؟
إبراهيم الطيب : رأيى إن الإخوان ينأوا بأنفسهم عن كل مناصب الحكومة .
الدفاع : وهل العضوية فى المجالس النيابية من المناصب الحكومية ؟
إبراهيم الطيب : لاتعتبر من المناصب الحكومية وإنما هو اشتراك فى الحكم عن طريق السلطة التشريعية .
الدفاع : ومين ينتخب أعضاء فى المجلس وبذلك يكون بعيدا عن المؤثرات الحزبية الماضية ؟
إبراهيم الطيب : الشعب هو الذى ينتخب .

ونود أن نذكر هنا حتى لا ننسى أن إبراهيم الطيب قد جاء ليشهد أنه قد أمر هنداوى دوير بتكليف محمود عبد اللطيف بضرب جمال عبد الناصر بالرصاص،وهذا موضوع وقوفه أمام المحكمة لهذه الشهادة . ثم له موقف آخر يحاكم فيه على اعتبار أنه حرض على محاولة قتل لم تتم إن صحت التهمة ، وليلاحظ القارىء العزيز أن الكلام يدور فى ناحية بعيدة تماما عن موضوع شهادته . وهى من الملاحظات الجديرة بالتأمل

لما يكون خلفها من أبعاد كثيرة قد تؤدى إلى نتائج محددة عن طبيعة هذه المحكمة وأهدافها رغم جنون رئيسها ..

فالقضية الرئيسية التى ينبغى أن تدور حولها المناقشات لم يعد لها وجود غير سؤال أو سؤالين لايتسمان بالجدية ، ومحام شجاع وقف موقف الشاهد والمتهم ولم يتردد فى إنكار أنه قد أمر أو عرف شيئا عن محاولة الاغتيال المزعومة رغم التعذيب الشديد الذى تعرض له أثناء التحقيق وأثناء المحاكمة وبين الجلسات .

وشهود الإثبات أو النفى الحقيقيون لم يستدعوا ولم يمثلوا أمام المحكمة .

فقد قبض ليلة الحادث على محمود عبد اللطيف وعلى آخرين كانوا بجواره وأسماؤهم :

محمد عامر حماد رئيس قسم بإحدى شركات الغزل « الشركة المتحدة للغزل فى الإسكندرية » محمد إبراهيم دردير ويعمل بالميناء عاملا ووجدت معه سبع طلقات .

الحسينى السيد عرام ويعمل فى مخازن المنطقة التعليمية بدمنهور .

وهذا ما نشرته الأخبار فى عددها الصادر صباح ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٤ وقد اختفى هؤلاء جميعا ولم يظهر لهم أثر لا فى التحقيقات ولا فى المحكمة .

وأين شهادة الذين قبضوا على محمود عبد اللطيف ومحضر التحريات والضبط الذى من المفروض أن يكون البوليس قد قام به ؟

قد اختفى كل هؤلاء بعد الإعلان عنهم ، واختفى المسدس الذى أعلن عنه ، ثم ظهر بعد ذلك بأسبوع .

وهانحن وأمامنا الشهيد إبراهيم الطيب ليشهد بأنه أمر بقتل الزعيم وليس من المهم أن يعترف بهذا ، فنحن نحاكم الإخوان المسلمين بتهمة أنهم أقوى جهة شعبية فى مصر . ولا نحاكمهم بمعنى المحاكمة ، ولكن هى الطقوس الأخيرة لإسدال الستار على كل القوى المناوئة لعبد الناصر .

القضية المعروضة هى القضاء على الإخوان

لاتزال الجلسة مستمرة ! !

وقام جمال سالم يخطب فى الموجودين ..

جمال سالم : زى ما الإخوان بينتخبوا الجمعية التأسيسية والجمعية التأسيسية تنتخب

مكتب الإرشاد ومكتب الإرشاد واخد الجهاز السرى .. والمرشد واخد أقوى ناحية فى الإخوان المسلمين ديكتاتورية تحت أمره .. هذه هى الديمقراطية فى جمعية الإخوان .. وفى داخلية قوانينها .. وعشان كده عاوزة تعمل فى البلد أحسن ديمقراطية .. ماخلصتوناش ليه من الغلب ده اللى احنا فيه ؟

ماسمعتوش كلام سيد الريس ليه علشان تخلصونا وكنا متنا واستريحنا ...

وكان اللى لهم عمر يشوفوا ويتفرجوا .. ليه ما سمعتوش كلام سيد الريس ؟ سيد الريس قال لك فى جوابه مش وقته نخش معركة . وبعت له مع حسين شعبان إنك موافق على الخطة . وهو قالك إنه مش موافق على الخطة الكبيرة لأن فيه شك إننا نخسر المعركة زى ما خسرتوها .. هذه هى الحقيقة الواقعة انكم خسرتوها .. وابتدأتم أول طلقة فى المعركة وفشلت المعركة ونفذت الخطة وفشلت .. هو كان أحكم منكم .. شفت لو كنتم شطار كنتم عملتم سيد الريس قائد النظام السرى .. كان باللعبكة والضحك على دقون ١٩ مليون مش عارفين راسهم من رجليهم ..

(ولم يكمل فهذا هو رأى الضباط فى الشعب المصرى « مش عارفين راسهم من رجليهم »ولذلك توقف عن إتمام هذه العبارة وأنا شخصيا أتفق معه .. وبعد أن صاروا خمسين مليونا ظنوا أن رءوسهم فى أقدامهم والعكس) والدعوة الإسلامية ما بتعلمش حد لانكم انتم لا تعرفوها . وبالجهاز السرى كنت تقدر تعمل انقلاب مفاجىء .. إنما ربك بالمرصاد عشان استغليتم الدين فى أحقر الأغراض وبأحقر الوسائل واتجرتم فيه اتجار رخيص .. وربنا قال إن آياتى لايتجر بها اتجار رخيص .. ولاتستعملوا آية منفصلة عن هذا الكتاب .. وكل آية فيه ككل .. إنما أنتم علمتموهم الآيات الأولى من سورة آل عمران وهى آيات الجهاد .. وفهمتموهم إن الجهاد يكون بقتل جمال عبد الناصر .. وبقتل بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة .. ليه ؟ علشان أنتم لاتحكمون بالإسلام .. وعشان سايبين الخمارات .. واحنا مالنا ومال الخمارات ؟

هل نحن جبناك يا إبراهيم وقلنا لك اشرب خمرة غصب عنك ؟

هل الإسلام يقول لك لما تلاقى واحد يشرب خمرة تقطع رقبته ؟

وإذا كان قال لك كده اقرا لنا السورة اللى فيها كده ..

وفى هذه اللحظة كان جمال عبد الناصر يفرك يديه سروراً .

لقد تخلص بالفعل من جمال سالم ... لأن أثر هذا الكلام كان سلبيا جدا على الناس بالنسبة له وقد أظهر سطحيته وتفاهته وجنونه .. فهو لم يعد منافسا له بعد ..

وكان عبد الناصر يستمع عبر الدائرة الميكرفونية وحده فقد ذهب السيد زكريا محيى الدين فى هذه اللحظة إلى دورة المياه فى أول الخطبة ..

وقال لعبد الناصر : سوف يخطب نصف ساعة وسأعود بعد دقيقة .

وفى القاعة كان جمال سالم قد وصل إلى قمة الرضا عن نفسه ثم التفت إلى الدفاع وقال له :

- اتفضل .

عدد الإخوان نصف مليون على الأقل

وانبرى الدفاع يسأل إبراهيم الطيب :

- هل الإخوان حزبا أم لا ؟

- ليسوا حزبا .

- أمال إيه ؟

- هيئة إسلامية عامة تعمل للإسلام عامة .

- لاصلة لها بالسياسة الوطنية ؟

- السياسة الإسلامية .

وتدخل « سبْع البرُمبة » وسأل :

جمال سالم : ما هى السياسة الإسلامية ؟

إبراهيم الطيب : هى تحرير جميع البلدان الإسلامية من المستعمر .

جمال سالم : وما هى السياسة الوطنية ؟

إبراهيم الطيب : نفس السياسة .

جمال سالم : إذن ليه بتنفى إن للإخوان صلة بالسياسة الوطنية ؟

إبراهيم الطيب : السياسة الوطنية جزء من السياسة الإسلامية .

جمال سالم : إذن السياسة تختلف فى كل دولة حسب طابعها الداخلى .

إبراهيم الطيب : نعم .

جمال سالم : أيوه .. أيوه .. علمنا مبادىء جديدة ياسقراط ! ياريته كان عايش علشان يلطم على المنطق الذى وصل إليه .

وابتسم « الدفاعاتية والنياباتية » يحيون رئيس المحكمة على دعاباته اللطيفة .

وانتظر الدفاع حتى ارتاحت نفسه إلى التحية ، ثم واصل سؤال إبراهيم الطيب :

الدفاع : قلت إن سياسة الإخوان كان تستهدف التعاون المطلق مع حكومة الثورة ومن ضمن الحاجات المتفق عليها عودة الحياة النيابية أولا .

إبراهيم الطيب : مش متأكد من ناحية التحديد .

ويقول جمال سالم للدفاع :

– الحرية يعرفوها بالكلام والتشهير وبالزعم .. انما بالعمل لأ .

ويبتسم له الدفاع ، ثم يواصل سؤال إبراهيم الطيب :

الدفاع : هل الاتفاقية وثيقة سياسية أم قانونية ؟

إبراهيم الطيب : فيها الناحيتين .

ونهر جمال سالم الجميع :

– مش عاوزين نتعرض للسياسة بتاعت الدولة .

الدفاع : ما هو المدى العددى الذى حددتموه للإعداد لكى يبدأ دور التنفيذ ، لأنكم قلتم لازم لكى يبدأ فى دور التنفيذ أن يكون العدد خالص .

إبراهيم الطيب : ثلاثة أرباع الإخوان منضمون فى هذه التشكيلات ، وقائمون بتدريباتهم .

الدفاع : ماعدد الإخوان فى تقديرك ؟

إبراهيم الطيب : يصل إلى ...

جمال سالم : الصبح قال يصل إلى ١٤,٥ مليون تقريبا .

ولو رجعنا إلى جلسة الصباح من هذه المضبطة التى نشروها لا نجد فيها هذا !

الدفاع : هل أنت مؤمّن على هذا الرأى ؟

إبراهيم الطيب : لأ ياافندم ما اقدرش أقول هذا .

جمال سالم : إذن قلت لى تقريبا ليه !

ولم يرد عليه إبراهيم الطيب !

الدفاع : على وجه التقريب .

إبراهيم الطيب : نصف مليون أخ من القطر المصرى على وجه التقريب على الأقل .

جمال سالم : نصف مليون أمام ٢٢,٥ مليون دى نسبتها كام ؟

٢ ٪ وشوية .. تفرض رأيها على الدولة بجهاز وإرهاب .

٢ ٪ يفرضوا رأيهم بمسدساتهم على ٩٨ ٪ هل هذا مبدأ الديمقراطية والحرية ؟

إبراهيم الطيب : طبعا لأ .
جمـال سـالم : هل هذا هو مبدأ البرلمانية .. ده مبدأ الانتخابات . ؟. إنما لا عجب فى ذلك إذا كان هذا المبدأ اللى ماشية عليه جمعية الإخوان المسلمين .
وهنا انتابت الشهيد إبراهيم الطيب نوبة سعال فقال له جمال سالم :
– لا بأس عليك .. عندك برد .. اقفل صدرك أحسن تاخد هوا فى زورك .. اقفل الياقة إذا حبيت .
ولم يفعل إبراهيم الطيب ولم يهتم به .
فقال جمال سالم :
– عاوز تسيبها مفتوحة ؟ وأنا مالى .. أنا بانصحك ..
الدفاع : يعنى انت عاوز ثلاثة أرباع النصف مليون يبقى كام ؟
إبراهيم الطيب : عدد لايقل عن عشرة آلاف شخص .
الدفاع : انت قلت ثلاثة أرباع النصف مليون .. وإنما تكتفى بعشرة آلاف واحد ؟
إبراهيم الطيب : نعم ..
الدفاع : كم منهم تم إعداده فعلا ؟
إبراهيم الطيب : ماكانش وصل إلى العشرة آلاف واحد .
الدفاع : يعنى ثلاثة آلاف إرهابى ؟
ولم يرد عليه إبراهيم الطيب !
واندفع قائد الجناح الأحمق يعيد كلاما قاله قبل ذلك أكثر من مرة :
– وعلشان كده سيد الريس قال لك لو دخلنا معركة يمكن نخسرها ؟ وبلغك عن طريق الأخ حسين شعبان هذا السؤال اللى بعته مع حسين شعبان لأنه ضابط اتصال .. والسؤال الذى بلغه إبراهيم الطيب وأرسل مع حسين شعبان يسأل فيه سيد الريس .. هل أنت مستعد لتنفيذ غير ماأرسل . (وما أرسله كان من أجل تأجيل تنفيذ الخطة) أى أن غير ما أرسله هو التنفيذ السريع . (ونعتذر للقارىء العزيز لركاكة الأسلوب فهذا ما وجدناه فى المضبطة) .. الطرق التحتانية .. الدهليزية .. اللف والدوران .. مش يقول له على التنفيذ إنما باعت له يقول له إنه موافق على غير ما أرسل .. ولما ترجع إلى ما أرسل تجده التأجيل فيكون غرضه التنفيذ ..
ورغم سقم الكلام وركاكته فقد ابتسموا له على بلاغته تحية وإعجابا !

الدفاع : فهمنا الحاجة العادية .. وهى إعداد عشرة آلاف شخص .. فما هى الحالة العامة التى تقدم بها للخروج من دور الإعداد إلى دور التنفيذ ؟
إبراهيم الطيب : مش فاهم .. تسمح تحدد السؤال .
الدفاع : ما هو السبب لإعداد عشرة آلاف شخص .. السبب المباشر اللى تطلع بمناسبته إيه ؟
إبراهيم الطيب : هذه المسألة كان لسه لم يبت فيها .
الدفاع : كان لم يبت فيها .. يعنى كان العدد عشرة آلاف ؟
إبراهيم الطيب : كان لم يبت فيها بعد .
الدفاع : وهو كذلك .
يتدخل جمال سالم لينهر الدفاع ويعلمه الكلام :
– والله ياسيدى الدفاع .. يصح نختصر فى المسائل دى .. ونقتصر على الوقائع الخاصة بقضية محمود عبد اللطيف ..
أخيرا انتبه جمال سالم إلى أن هناك ما يسمى قضية محمود عبد اللطيف !
الدفاع : وهو كذلك بس عاوز أعرف الهيئات اللى لها حق التناصح على الثورة إيه غير الإخوان ؟
واربدَّ جمال سالم ووجه سؤالا فى غضب إلى الدفاع :
– أنت من الإخوان ؟
وأجفل الدفاع عندما رأى الشر فى عينى جمال سالم وأسرع :
– لأ مش قصدى ..
وضجت القاعة بالضحك ! !
وبدت أساريرجمال سالم تنفرج رويدا رويدا كأى أبله ، ثم ضحك هو الآخر .. وشعر بالرضا التام عن نفسه فهو نجم الصالة لا منازع .. آسف نجم القاعة .. قاعة المحكمة .. التى لم تشهد محاكمة ولم تمر بها العدالة ، وخلت من كل المبادىء والقيم والأخلاق . قد جلس على المنصة فيها سكير جاءوا به من بار لسوء خلقه وهو بطبعه يميل إلى العدوان وجعلوه من الضباط الأحرار ، على حد تعبير كمال الدين حسين .. ولله فى خلقه شئون .
وبدأ جمال سالم يخطب :
احنا كلنا إخوان .. وإذا ما كناش بنحس إننا إخوان مكانش الواحد يتضايق يا

طيب .. إحنا جينا وانت نايم فى البيت (الكذاب) علشان نحررك من الظلم والفساد اللى كان متفشى فى البلاد (رحم الله أيام هذا الظلم وذلك الفساد فما وصلنا إليه أعظم من أن يوصف بهاتين الكلمتين) .. من النهب اللى كانت بتتنهبه البلاد والاستبداد اللى كانوا بيستبدوه بالناس (آه لو رأى الناس الغيب وما حدث من هؤلاء الأوغاد بعد ذلك) طردنا لكم ملك .. كنتم مسميينه ملك كريم . (عبد المنعم عبد الرءوف هو الذى اقترح خلع الملك يوم الثورة بين ذهول عبد الناصر والضباط) أنتم والمرشد بتاعكم .. ملك كريم .. زيارة كريمة للملك كريم .. ملك كان بيقتلكم فى ضوء النهار .. كان بيغتالكم فى ضوء النهار .. وجينا أنقذناكم من حكومات كانت تتجر فيكم باسم الدستور والبرلمان والانتخابات والحريات (الحمد لله لم يعد فى مصر شيء من هذه الاسماء الأربعة والناس نسيت) وباسم القنال ..

طبيعى خايفين ليطلعوا الإنجليز بسرعة .. وإذا طلعوا تبقى البلد حرة تقول لها حرية إيه .. ما تعرفش تضحك عليها .. الحق يا واد .. سارع ضد الزمن .. قبل الإنجليز ما يطلعوا والبلد مستعمرة ، واضحك عليهم وقول لهم حريات .. شفتم المبادىء اللى بتغرى ؟ حريات إيه ؟ يا شيخ !

ورفع يده جمال سالم يحيى الناس كأى مهرج يلعب فى سيرك وقد أجاد فصفق له الناس .

الدفاع عن محمود عبد اللطيف

وبعد أن انتهت موجة الضحك ، وفرغ جمال سالم من تحية الموجودين أشار بيده بكبرياء إلى المحامى حمادة الناحل ليتكلم .

الدفاع : بمناسبة مناط الدفاع عن محمود عبد اللطيف أريد أن أقول كلمة لمحكمة الشعب ..إن حدود دفاعى .. بل دفاعى الوحيد هو أنه أداة صغيرة فى جهاز بشع .. وكلما ازداد الجهاز بشاعة وكلما ازداد بيان المدى الذى يعمل فيه هذا الجهاز .. وكلما ازداد تضليله وبرزت أساليبه بدت هذه الإدارة هينة ولا تستحق النظر إليها .. كلما بدت هذه الإدارة تافهة لاتستاهل الوقوف عندها .

لعلنى سمعت هنا يا حضرات قضاة الشعب – لعلنى سمعت هنا أن لدينا الكثيرين مع الأسف الشديد الممض – من أمثال محمود عبد اللطيف ، الذين لم ينالوا قسطا

من تعليم ، والذين لم ينالوا قسطا من إرشاد ، والذين لم ينالوا قسطا من سعادة ، استغل فيهم البؤس ، استغل فيهم هذا الجهل ، من الذى استغل هذا ؟ وما قدرته وما مداه ومؤهلاته ؟ هذا دفاعى إليكم ..

إننى أعتبر أن كل تقصير فى إبراز هذا إنما هو تقصير فى الأمانة التى وكلتموها إلىّ وقبلت أداءها ..

محمود عبد اللطيف من هو فى هذا الجهاز ؟ ومن هو محمود عبد اللطيف أمام حسن الهضيبى المستشار السابق ؟ ومن هو محمود عبد اللطيف بين يدى إبراهيم الطيب المحامى ؟ ومن هو محمود عبد اللطيف بين يدى هنداوى القادر الواسع الحيلة ؟ ومن هو محمود عبد اللطيف بين يدى هؤلاء الأبالسة ، وبأى سلاح يغتالون محمود عبد اللطيف ؟

محمود عبد اللطيف ضحية هذا الجهاز شأن عشرات الألوف الذين كانوا على استعداد لو سلط عليهم هذا الجهاز أن يفقدوا دينهم ووطنيتهم طواعية لهذا الجهاز .

وإذا لم يجتث هذا الجهاز فسيبقى أمثال محمود عبد اللطيف مستعدين كل الاستعداد . فإنهم سيجدون كلمة القرآن .. كلمة القرآن تمسخ .. أقدس الكلمات التى عرفتها البشرية منذ آدم حتى اليوم .. هذه الكلمات المقدسة الكريمة تمسخ لكى تنطلق بها النار إلى صدور المحررين .. لكى تركع مصر بعد ذلك ولا يدرى إلى أى مدى .. إلى قرن أم قرنين أم خمسة قرون أم دهر من زمان لكى تقوم من ركعتها إلا الله .. بعد أن تسلط عليها الفساد ..

أرجو أن يكون مفهوما هذا لأنه مناط دفاعى .. لاتندهشوا إذن ياحضرات القضاة .. إذا ما اضطررت أن أسأل حول مدى الجهاز .. مدى بشاعته وأساليبه فى هذا التأثير ..

لأن هذا هو دفاعى ! !

وفهم جمال سالم أن الدفاع معاهم وفاهم اللعبة فانبسط وقال :

– ليس لدينا مانع من السؤال .

وتحول الدفاع إلى إبراهيم الطيب يسأله بعد أن أعلن خطته فى دفاعه عن محمود عبد اللطيف – قد سلم بالاتهام .. لم يسأل عن الإجراءات .. لم يطلب سماع الشهود من الشرطة ومن الذين كانوا فى المنشية .. لم يناقش محضر الواقعة الذى حرر بعد الحادث ..

أعلن للمحكمة أن دفاعه سيكون منصبا على شتم الإخوان المسلمين ولعنهم .. والجهاز السرى ، وأن محمود عبد اللطيف هو عبارة عن ترس صغير فى آلة ضخمة وأنه يستحق الإعدام ، وسوف يقول هذا كله ما عدا العبارة الأخيرة ، وهويعلم أنهم سوف يعدمونه ، وهو يعلم أن القضية كلها تلفيق فى تلفيق ، وهو يعلم أن الذى يجلس على المنصة ليس بقاض ولن يكون . وهو يعلم أن هذه التهم لو صحت فلا ينبغى للخصم أن يكون قاضيا .. وهو يعلم .. وهو يعلم .. ولكنه يعلم أنها فرصته للشهرة فى عالم جديد قد تخللته سراديب الشيطان ، وهو يريد أن يجد لنفسه مكانا فيه .

الدفاع : هل سياسة الإخوان المسلمين إعداد أعضائهم إعدادا جهاديا ؟

إبراهيم الطيب : نعم .

الدفاع : أريد مثلا من التاريخ لرأى أعد عشرة آلاف من المسلمين بالديناميت والمسدسات للدفاع عن ذاته ضد رأى آخر لنفس المواطنين .. فهمت ؟

أريد مثلا من التاريخ لجماعة من أبناء البلد الواحد يستعينوا بعشرة آلاف واحد علشان يفرضوا أنفسهم على باق الآراء الأخرى .

إبراهيم الطيب : لاأعلم شيئا عن هذا !

الدفاع : فى أى بلد من بلاد العالم ؟

إبراهيم الطيب : لم أسمع به .

الدفـــــاع : بما فيه الدولة الإسلامية .

إبراهيم الطيب : أيوه ..

وقام الدفاع بتمثيلية رخيصة بأن تقدم من إبراهيم الطيب متوسلا :

الدفـــــاع : ساعدنى اعمل معروف .

ونظر إليه إبراهيم الطيب دهشاً متسائلا .

الدفـــــاع : ما هى جريمة محمود عبد اللطيف فى نظرك كزميل لمحمود عبد اللطيف فى الجهاز السرى أو الجهاز الخاص .. أنا أحب أجاملك فى هذا الموقف .

وصار إبراهيم الطيب-رحمه الله-ينظر فى دهشة إلى الدفاع بينما شحن الجو بالإثارة وانبسط جمال سالم وصار يهز رأسه ويلتفت إلى المخلوقين عن يمين وشمال من أعضاء المحكمة ، مثله فى ذلك مثل الذى ينظر إلى شىء يعرض فيلتفت إلى من معه استحسانا .

وتجلى الدفاع عندما رأى إعجاب جمال سالم به ، واقترب أكثر من إبراهيم الطيب .

الدفـــــاع : ما هى جريمة محمود عبد اللطيف فى نظرك ؟

وامتلأ إبراهيم الطيب دهشة وقال :

ـوالله دى مسألة يعنى ..

الدفـــــاع : انت محامى .. ماتقدرش تقول إيه جريمته فى نظرك ؟

إبراهيم الطيب : اعتقادى لاشك إن فيه تأثير عليه فقام بما قام ..

والتفت ناحية محمود عبد اللطيف الذى لم يتحمل نظراته ، فأطرق برأسه فى القفص

الدفاع : فقام بما قام .

وأكمل إبراهيم الطيب وهو ينظر ناحية محمود عبد اللطيف :

ـ وكان التأثير بشكل قوى ..

ـ بشكل قوى ؟

ـ أيوه .

ـ ما هو عقاب محمود عبد اللطيف بوصفك رجلا قانونيا ؟

وتعجب إبراهيم الطيب من هذا الدفاع العجيب وقال :

ـ هو فاعل أصيل .

ـ ولكن تقديرك للظرف اللى جرفه .. هل تدخل هذا الظرف فى حسابك ؟

ـلاشك .

ـ هل من شأن الأجهزة السرية أن يحتفظ صغارها بإرادته كما يحددها القانون ؟

ـ الذى أعلمه فى هذا أن كل فرد لايقوم بعمل إلا إذا كان طبعا متحمس له وعارف تفاصيله ومقدر نتائجه .

ـ هل استغل فى ذلك جهله ؟

ـ لا ياافندم .. استغل فى ذلك تشبعه بالعمل الذى سيقوم به .

ـ هل كان محمود عبد اللطيف أكثر منك تشبعا بمبادىء الإخوان ؟

ـ أنا شخصيا لم أتبين إلا أنه شخص طبيعى ..

ـ هل كنت تقدم على ما أقدم عليه ؟

وبحسم وقطع وعيناه تلمعان قال إبراهيم الطيب والظن أنه كان يعرف سر هذه الحادثة المفتعله :

- لا ..

- إذن استغل فيه ظرف خاص .

والتفت إبراهيم الطيب ناحية محمود عبد اللطيف وتأمله لبرهة ثم عاد للدفـــاع :

- أعتقد هذا .

- تعتقد ذلك ؟ هل استغلال البساطة والجهل صغار ممن يبذله ولّا لأ ؟

- لا شك فى هذا .

- وممن ينتفع به ؟

- لاشك فى هذا .

وأوجس جمال سالم فى نفسه خيفة من طريقة استجواب الشاهد ، وطريقة الشاهد فى الإجابة وإمعان النظر إلى المتهم ، وطريقته فى نطق الجمل والكلمات فتدخل بطريقته المعهودة .

جمـــال سـالم : طبيعى لما يكون متحمس للعمل المتحمس له يكون صادر بأوامر من رياسة عليا فى الجهاز .

وفى رأيى أن هذه الجملة فى حد ذاتها دليل من أدلة افتعال الحادثة ! !

وأجاب إبراهيم الطيب :

-فى بعض الأحيان قد يكون الشخص متحمسا من تلقاء نفسه من غير صدور أوامر له .. وفعلا كنا نلقى بعض الإخوان متحمسين ولا يرضون أن يتقبلوا أوضاع الجماعة .

جمـــال سـالم : ولذلك عملتم الجهاز الإرهابى على الجهاز السرى علشان ماحدش يدخل فيه ويعرف يخرج منه .

وهكذا سار جمال سالم بالاستجواب سيرا آخر مختلفا .

وأجابه إبراهيم الطيب :

-طلعوا كتير ..

جمـــال سـالم : طلعوا لما جيتم تطلعوا السندى .. وبذلك طرد السندى .. وبعدين راح جايب سياسة جديدة .. علشان كده المرشد قال .. لاسرية فى الدين وغير الجهاز وجاب إبراهيم الطيب ويوسف طلعت .. وخرج عبد الرحمن السندى بالجهاز

بتاعه .. وجه إبراهيم الطيب ورئيسه يوسف طلعت بجهازه .
وتشاغل جمال سالم بملل ، وترك الدفاع يواصل استجوابه .
الدفاع : ما هو تقديرك لخطر الجهاز السرى بعد أن بان على النحو الذى لم تكن تعرفه قبل أن يبين ؟
ونظرا إبراهيم الطيب ناحية الدفاع ساخرا من هذا الحديث الغريب فقد نسى الدفاع أنه يخاطب أحد قادة هذا الجهاز .
وقال إبراهيم الطيب :
ـ لا شك أن اندفاع الأفراد بدون ما يكونوا ملتزمين بالخطط الموجودة المتفق عليها من الرياسات .. دى مسائل خطيرة .. تحدث ولا شك بلبلة .. وتحدث اضطرابا .. وتحدث يعنى مسائل لامصلحة لأحد فيها ..
الدفـــــاع : يعنى لو نجح الحادث تحدث بلبلة ؟
إبراهيم الطيب : أنا أتكلم كلام عام ..
الدفـــــاع : إزاى ؟

زلت لسان

وتدخل جمال سالم
ـ أنت قررت خطة ، ووصلت هذه الخطة لرؤساء المناطق .. ومن هؤلاء الرؤساء هنداوى دوير .. وصلت الخطة .. وضعت فى المكتب الأعلى .. اللى هى اللجنة العليا بموافقة رئيسها حسن الهضيبى .. رحت بلغت هذه التعليمات .. ما ارتآه محمود عبد اللطيف هو الجزء الأول من هذه الخطة ..
ولنتأمل العبارة الأخيرة فى كلام جمال سالم ولنضع تحتها خطا .
« ماارتآه محمود عبد اللطيف هو الجزء الأول من هذه الخطة » وهذه هى زلة اللسان ، وقد تكررت كثيرا فى كلام جمال سالم ، ولكن هذه العبارة السابقة أكثر وضوحا ..
ليست هناك أوامر من قيادة الإخوان باغتيال جمال عبد الناصر .
وأسرع الدفاع المتعاون مع المحكمة ليساعده :
الدفاع : ده تسميه بلبلة ..

وأدرك جمال سالم الخطأ الذى وقع فيه فاندفع يتحدث بصوت عال :
– كيف تفسر ان توارد الخواطر بتاع محمود عبد اللطيف .. فكّر فى فكرة وطلع ينفذها تقوم تطلع مطابقة لتفكير المكتب الأعلى المكون من فرغلى .. خميس ..طلعت .. شادى .. برياسة حسن الهضيبى .. هذه الأمخاخ قعدت تمحص وتضع خطة .. الجزء الأول خطر مصادفة فى نفس الوقت .. بنفس الطريقة .. وبنفس التفكير لمحمود عبد اللطيف .
والذى ثبت مع التاريخ والتحقيقات وانقضاء الزمن أنه لم يكن هناك أية خطة غير المظاهرة المسلحة لتأييد محمد نجيب لو أعلن الحريات ورفض الديكتاتورية ، ورفع شعار الديموقراطية ودعا إلى الانتخابات .. وغير هذا لم تكن هناك خطة .. وهذا كلام كل من وقف أمام محكمة الشعب بعد التعذيب البالغ الذى وقع عليه بما فيهم المرشد العام .
وقال إبراهيم الطيب :
– قلت فى هذا إن الخطة ..
وقاطعه جمال سالم :
–يبقى المعقول إن الخطة راحت الرياسة ورئيسها بلغها بتكليف .. ومحمود عبد اللطيف قام بتنفيذها .. فشلت الأولانية .. كر الخيط زى البلوفر .
لا فيه أولانية ولا تانية ! ويا قلبى لا تحزن .. على طريقة جمال سالم ! !
وقال إبراهيم الطيب .
– ما كانش من مقتضى الخطة .
وقاطعه جمال سالم :
–دى كتبت أربع مرات والناس حايسمعوها ويقروها .. نقولها تانى ونكتبها لخامس مرة .. الناس يدعوا علينا بعدين ..
وضحك الخنازير ، وضجت القاعة بالضحك وهم لا يدرون الشر القادم بعد مهزلة جمال سالم هذه الذى لم يسمح لغيره بالكلام فى هذه المحاكمة الهزلية .
وسكت إبراهيم الطيب رحمه الله ، فقد كان يعرف آخرتها ..
وسأله الدفاع :
–الجهاز السرى .. هل بان لك أنه يحمل خطراً على الوطن ؟
والتفت إبراهيم الطيب بطريقة غير شعورية ناحية محمود عبد اللطيف الذى أطرق

برأسه إلى الأرض .. ثم ناحية جمال سالم الجالس على المنصة وقال :
إبراهيم الطيب : على هذا النحو يعتبر انه فيه خطر على الجماعة وعلى الوطن .
وقال هذه العبارة بلهجة ذات مغزى قد فهمها كل من يعرف بتلفيق الحادث .
الدفاع : هل كان يتأتى لحكومة دستورية تطبق القوانين العادية لا الاستثنائية أن تقمع هذا الشر وتحمى الوطن منه ؟
ولم يرد عليه إبراهيم الطيب فقد بدا عليه أن صبره يوشك أن ينفد ، وأعاد الدفاع الكلام معه مرة أخرى بطريقة مختلفة .
الدفاع : بان لك خطره .. هل كان يتأتى لحكومة دستورية .. القوانين العادية تحكمها أن تقمع هذا الخطر بديناميته .. بحاله ؟
إبراهيم الطيب : لا أعتقد أن هناك مانعا .
الدفاع : هل من أجل تفادى هذه الحالة طالبتم بإعادة الحياة الدستورية لأن الانقلاب فى ظل الدستور أسهل منه فى الحالة التى لا يكون فيها دستور ؟
وأجاب إبراهيم الطيب ساخرا :
ـ أى .. حانقلوا سيحدث ؟
ولم يفهم الدفاع فقال :
ـ هه ؟
وانتبه إبراهيم الطيب وتذكر أين هو فقال :
ـ أى حالة لو سمحت ؟
ـ هل من أجل هذا الانقلاب الذى بدأ .. كان فى نيتكم أن تطالبوا بدستور ؟ هل الانقلاب فى حالة وجود دستور أهون وأسهل من الحالة التى لا يوجد فيها دستور ؟

ضباط الثورة عملاء لأمريكا

ووقف جمال سالم « يردح » :
ـ ماكانش بيطالب بدستور كما قال وقرر إن الرئيس محمد نجيب عندما كان يعضد هذا الانقلاب الإخوانى بجزء من القوات التى أفهمهم أنها تحت سيطرته ، وكان ذلك فى أبريل أو آخر مارس .. وكان طبعا معروف لدى الجميع ما هى حوادث مصر

وما هى الأدوار التى مرت بها البلاد من فبراير لمارس لأبريل ..
كان معروف ..
قال لك نجيب محمد نجيب .. ونقول للناس علشان يهديهم حانجيب لكم حريات .
حانجيب لكم برلمان وإنما ما قالش حنعمل ..
خطوات التنفيذ لم توضع .. بل وضعت الإعلانات .
وضعت المانشيتات اللى حاتنشر فى الجرائد ..
وضعت الألفاظ اللى حيحلى بيها الكلام ..
كل ده على ورق إنما تنفيذ الخطة ..
بتعمل إيه فى البلد ؟
تمشى إزاى ؟
تتحكم إزاى ؟
تاكل إزاى ؟
تشرب إزاى ؟
تدافع عن نفسها إزاى ؟
طبعا مش ضرورى لأن الكلام ده تبلبعه تانى يوم .
والجهاز الإرهابى موجود .
جهاز إرهابى بعشرة آلاف والجيش يبقى مائة .
يبقى الجيش الحقيقى هو الجهاز الإرهابى ..
مين اللى يفتح بقه فى البلد ؟
مين الست اللى كانت حتقدر تخرج فى الشارع ..
ومين الست اللى كانت حتقدر تروح الجامعة وتتعلم علشان تطلع تشتغل وتساعد أهلها .. ومش عيب إنها تساعد أهلها لأننا كلنا بنساعد أهالينا ..
وأشار إلى إبراهيم الطيب رحمه الله بحركة بذيئة بيده .
وضحكت الخنازير ! !
وقال الدفاع ، ولو كان يحترم الثوب الذى يرتديه لا نسحب من القاعة :
الدفاع : سؤال أخير .. هل كان من قبيل المصادفة وحدها أن تكتشف وزارة الداخلية مؤامرة صهيونية هدفها الفوضى والحيلولة بين مصر وبين كمال الاتفاقية فى نفس الوقت الذى يبين فيه أن هناك جهازا سريا للإخوان هدفه الانقلاب عن طريق

الفوضى أو الفوضى عن طريق الانقلاب ؟
إبراهيم الطيب : أنا طبعا لم يصل إلى علمي شيء بالنسبة للمؤامرة الصهيونية .
الدفاع : ده نشرته الجرايد .
جمـال سـالم : باعتباره محامي فى مكتب عبد القادر عودة ما يصحش انه يقرأ حاجة عن الصهيونية .. لو قرأها فى الجرنال يقول أستغفر الله العظيم .
وضجت القاعة بالضحك .. كأنك تجلس فى « غرزة » وليس محكمة !
إبراهيم الطيب : أنا مدى معلوماتى إن الإخوان كانوا بيقفوا مواقف باستمرار .
الدفاع : أنا لا أسألك عن الإخوان .. دى مصادفة والا لها أصل ؟
ونظر إبراهيم الطيب ناحية حمادة الناحل وفى عينيه كل أنواع الازدراء الصامت ثم قال :

- لا أعتقد أن الإخوان أداة للصهيونية .
- لا تعتقد أن الإخوان أداة للصهيونية ؟
- لا .
- ولو من غير اتفاق ؟
- لا .
- أنا لا أقول إن هناك اتفاق ..

والحكمة المشهورة تقول « من كثر كلامه كثر خطؤه » وهذه تنطبق بالضبط على جمـال سـالم فعلى حين أن المفروض فيه الصمت ووزن الكلام الذى يقال أمامه مادام قد جلس على منصة القضاء ، ولو من باب التمثيل لإيهام الناس أنه قاض حقيقى ، إلاأنه لم يدع فرصة للكلام إلا وانتهزها ، وهو يسكت النائب العام والمحامى والمتهم والشاهد ليتكلم هو .
وهذه عجيبة من العجائب ..
فقد كانت زلاته كثيرة .. ومن خلالها يستبين أن الإخوان لا دخل لهم بحادث المنشية . ومن خلالها نفهم أنه وزملاءه عملاء للأمريكان .

ومن هذه المنصة التى جلس عليها قاضيا سقط إلى المجهول بعدها ، وهكذا رسم له جمال عبد الناصر .. فقد جعل الناس يمقتونه لموقفه فى هذاه المحاكمة الهزلية ،

وكان من السهل خلعه بعد ذلك . وكان هو الذى يمنى نفسه بالجلوس مكان عبد الناصر .

وكان جمال سالم كما هو معروف من النوع العصابى المصاب بما يسمى بالأفكار التسلطية . فهو يجلس مع الناس ويتحدث إليهم ، ثم فجأة يتكلم فى موضوع لا علاقة له بما يقولون .. ثم يستمر الحديث ويقطعه هو ثانية إلى نفس الموضوع .. وينسى أنه قد تكلم فيه من قبل أكثر من عشر مرات .

هكذا كانت شخصية جمال سالم المريضة التى وضعت فى تلك الحقبة من الزمن للتنكيل بالإخوان المسلمين .

واندفع جمال سالم :

– ولما يجوا الضباط ويوجدوا حرب أهلية ويخربوا الطرق والمواصلات ويخربوا المنشآت والناس متلاقيش تاكل ونعمل زى البلاد اللى حصل فيها كده .. اللى كانت تاخد تموينها من روسيا أقدر اعرف انك ماكنتش بتشتغل لحساب إسرائيل ؟ .. أقدر افهم انك كنت بتشتغل لحساب روسيا ؟

لأن كل البلاد اللى عملت كده كانت بتشتغل لحساب روسيا ، وكانت بتجيلها إمداداتها من روسيا .

كانت تجيلها الذخائر والعتاد والملابس من روسيا .. والأدوية والأكل وجميع المعدات الخاصة بطرق المواصلات والسكان .. ياكانت تجيلهم من أمريكا .. فأى الطرفين كنت تعمل له .. روسيا ولاَّ أمريكا طالما استبعدنا إسرائيل ؟

إبراهيم الطيب : [بعد أن نظر إليه طويلا] لا هذا ولا ذاك .

جمال سالم : يبقى ماذا يكون حكمك على انسان يفعل فعلة وهو لا يعلم مداها ؟

الدفاع : [مكملا] ونتائجها ..

إبراهيم الطيب : السؤال تانى لو سمحت سيادتك لأنى مش سامع .

جمال سالم : من الساعة عشرة الصبح لغاية دلوقتى .. المرة الوحيدة اللى ماسمعتنيش فيها ..

وأشار إبراهيم الطيب ناحية الدفاع وقال :

–الأستاذ أصله ..

جمال سالم :وغلوش عليك يعنى ؟

إبراهيم الطيب : أيوه .
جمـال سـالم : [شاخطا فى الدفاع] من فضلك سيبه .
الدفاع : [مستخذيا] وهو كذلك ..
جمـال سـالم : [مستأسدا] أنا بقول لك .. ماحكمك على إنسان يأتى بمثل هذه الفعلة .. ولا يجعل فى حسبانه ما سوف يتعرض له من نتائج ؟
إبراهيم الطيب : يبقى تفكيره ناقص .
جمـال سـالم : تفكيره ناقص ؟ يعنى تفكير القيادة اللى وضعت الخطة دى كان تفكيرها ناقص ؟
إبراهيم الطيب : لاشك أنه ناقص .
جمـال سـالم : لاشك أنه ناقص ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمـال سـالم : كفاية .
وجاء الدفاع يهز ذنبه وقال :
ـ بماذا تعلل استنكار العالم الإنسانى كله لأعمال الإخوان فيما عدا راديو إسرائيل فقد أقرها ودافع عنها ؟ (شوف الكذب !)

أما جمال سالم فكان فى أفكاره الخاصة والتفت ناحية كاتب الجلسة وقال :
ـحط خط تحت ناقص من فضلك .
إبراهيم الطيب : [يجيب على الدفاع] ما سمعتوش وماسمعتش صدى الجرائد بره .
الدفاع : ما سمعتوش صدى الجرايد بره ؟
إبراهيم الطيب : أيوه .
جمـال سـالم : كوبرى ؟
الدفـــاع : وإذا كنت أنا بانقل لك هذا الخبر .. هل تصدقنى ؟
جمـال سـالم : ليه هو انت من الإخوان (ضحك) هو لا يصدق إلا اثنين .. يوسف طلعت وحسين كمال الدين .. أستغفر الله العظيم ..أنا قلت اثنين وهم ثلاثة .. هم ثلاثة .. وعودة .. والرد على ذلك إنه كان حيعمل لهم كوبرى ينطوا عليه ..
وطريقة كلام جمال سالم نصفها غير مفهوم لأنه يعبر عن هواجس داخلية وخاصة جدا ، وتشغله وحده .
إبراهيم الطيب : لم يبلغنى شىء .

الدفاع : أنا باديك هذا الخبر .. كل الجرايد استنكرت هذه الحوادث وقالت عنها إنها حوادث جهنمية .

إبراهيم الطيب : لاشك أننا نستنكر هذا الحادث .

الدفـــاع : باقول لك .. بماذا تعلل إن إسرائيل وحدها هى التى دافعت عن هذه الأعمال وأقرتها ؟

وهنا استفاق جمال سالم لجملة سابقة قالها إبراهيم الطيب .

جمـــال ســالم : لو سمحت .. مين اللى يستنكر الحادث ؟ .. أنت تستنكره ؟

وفى شجاعة بالغة قال إبراهيم الطيب وعيناه فى عينى جمال سالم :

– أيوه .. لاشك فى ذلك .

ونسى جمال سالم نفسه كالعادة ، وقال ما يدين ويؤكد افتعال الحادث :

– فى حين انه موجود فى الخطة بتاعتكم.اغتيال جمال عبد الناصر .. وان ما كانش جمال عبد الناصر يبقى زكريا محيى الدين .. وإحداث حرب أهلية .. الكلام ده أنت قلتهوقررته هنا .. وبعدين تستنكر الخطة بتاعت القيادة بتاعتك ؟

إبراهيم الطيب : أنا أستنكر الحادث كما وقع .

جمـــال ســالم : آه .. صعب عليك جمال عبد الناصر .. ولّا مكسوف من نفسك وانت راجل من الصف الثالث لأن طلع تفكيركم باين بالشكل الوقح ده ، والانهيار اللى انهارتوه يامؤمنين (من التعذيب ياجيمى !) .. ياأصحاب الدعوة ياأصحاب تقوية النفوس .. ياأصحاب تقوية الأخلاق دعائم الآدمية .. مش انت اللى قلت على الخطة دى .. اغتيال جمال عبد الناصر ؟ .. قلتها وبلغتها بصفتك قائد منطقة القاهرة لهنداوى دوير ؟

إبراهيم الطيب : أيوه فى حالة وجود اعتداءات .

جمـــال ســالم : الادعاء .. فيه أسئلة ؟

وكيل النائب العام : كفاية .

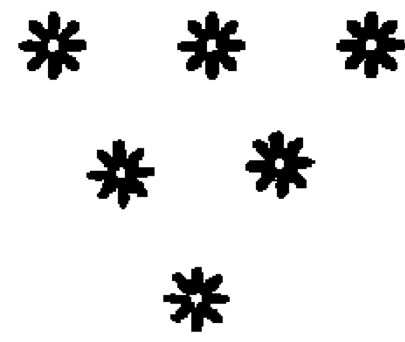
جمـــال ســالم : إكراما للتاريخ علشان خاطر اللى ما سمعش اسمك فى الأول يسمعه فى الآخر .. اسمك إيه ؟

إبراهيم الطيب : إبراهيم الطيب .

وكان طيبا طاهرا رحمه الله .

جمـــال ســالم : بتشتغل إيه ؟

إبراهيم الطيب : محامى .
جمـال سـالم : سنك كام سنة ؟
إبراهيم الطيب : ٣٢ سنة .
جمـال سـالم : طيب اتفضل .. مع السلامة ..
(وعلى أثر ذلك انتهت شهادة الشاهد)
اتفرجوا ياإخوان .. اتفرجوا يامواطنين .. اتفرجوا عليه وهو خارج .
وخرج الشهيد إبراهيم الطيب فى خطوات واثقة ورأسه عالية والخنازير تبصبص له بعيونها«عن اليمين وعن الشمال عزين».
وانتهت شهادته العجيبة فى هذه القضية العجيبة .
ورفعت الجلسة .



الفصل العاشر

" لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك "

لم أحاول قتل الزعيم

وإن الذى بينى وبين بنى أبى
وبين بنى عمى مختلف جدا .
إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم
وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد الدفين عليهم
فليس كريم القوم من يحمل الحقدا

(شاعر جاهلى)



ليلة التنفيذ

* عرف أن حكم الاعدام سوف ينفذ فيه صباح الغد .

وكانت ليلة شاتية شديدة البرودة من ليالى شهر ديسمبر عام ١٩٥٤ ، وعلى وجه التحديد يوم ١٥ منه ، وكان أذان العشاء يأتى إليه من بعيد ، فابتهجت نفسه وسر قلبه ، وظن أنها الشهادة فى سبيل الله تأتيه على قدر من الله ، بغض النظر عن الظروف والمسببات التى أدت إلى ذلك .

وكانوا قبل ذلك بأسبوع وعلى وجه التحديد يوم ٨ من نفس الشهر قد علقوا على أعواد المشانق كلا من :

الأستاذ عبد القادر عودة .

الشيخ محمد فرغلى

الأخ يوسف طلعت

الأستاذ إبراهيم الطيب .

الأستاذ هنداوى دوير .

الأخ محمود عبد اللطيف .

فالموت حق لاريب فيه ، وهو آت لا محالة ، والاستعداد للقاء الله أولى واستقر عزمه ألا ينام هذه الليلة ، وهو يبدأ بالصلاة ثم يقضى وقته فى الاستغفار والتسبيح حتى يأتى الموعد ، وهو فى العادة بعد صلاة الفجر بقليل . وصلى ليلتها العشاء وقرأ فيها سورة البقرة كاملة .

وأطل عليه ضابطان على صبرى .. جمال سالم .. نظرا إليه قليلا ثم انصرفا .

وعندما أتم صلاته وسلَّم منها فتح الباب ودخلا إليه مرة ثانية .

ووقف صاحبنا انتباها ، فهذه هى العادة فى السجن الحربى عندما يدخل أى مخلوق يرتدى ملابس كاكية فعلى من بالزنزانة أن يقف انتباها ، وإن كان يصلى فعليه أن يخرج من الصلاة ، هكذا كانت التعليمات والتقاليد المتبعة ، والويل كل الويل لمن يخالفها أو يخرج عنها فجزاؤه الضرب بالسياط ضربا شديدا موجعا مبرحا .

وصاحبنا لم يخرج من صلاته ، فهو لايخاف جلاديه ، لأنه ضرب ضربا يكفى لقتل عشرة ، وهو يقضى الوقت فى « الشفخانة » ولا يقيم بها إلا المشرفون على الموت من شدة العذاب ، وهو لايخشاهم فقد حكموا عليه بالإعدام وحددوا له موعدا هو الصبح القريب . ومن ثم فليست هناك ضرورة للخروج من الصلاة ، فقد ذهب

الخوف وجاء الأمن ، مع تلك البشرى التى وصلته بتنفيذ حكم الإعدام مع الصبح .
كان هذا الرجل هو سعد حجاج المتهم الثالث بمحاولة اغتيال الرئيس عبد الناصر . أو هكذا زعموا ..

وقف جمال سالم وقفة مستهينة ساخرة بينما تحدث إليه على صبرى :

– ماذا كنت تفعل ؟
– أصلى .
– لمن ؟
– لله .
– أين هو ؟
– لايحده المكان ولا الزمان .
– لو كان موجودا لأنقذك من الإعدام ..
– أستغفر الله العظيم .

الرزق والأجل بيد الله

– هل تعرف أن الحكم سينفذ فى الصباح ؟
– سمعت بهذا .

واربد وجه على صبرى وهو يقول :

– كأنك لاتخشى الموت ؟

ورد عليه سعد حجاج فى هدوء وطمأنينة :

– الموت حق ، ولكن من يدريك أننى أموت غدا كما تقول ؟
– الحكم الذى تم التصديق عليه .
– اسمع ياسيادة الضابط .. شيئان لايملكهما أحد إلا الله سبحانه وتعالى:الأجل والرزق .. وأنتم تملكون كل ما عدا هذا : التعذيب .. الضرب .. الاعتقال ، وهذا أيضا يأتى بقدر الله .

وتبادل على صبرى وجمال سالم النظرات ، وأشار له الأخير بيده إشارة تفيد أنه مجنون مختل ولا داعى للإطالة معه .

ولم ينطق جمال سالم بكلمة واحدة ، فهذا المتهم كان من المفروض أن يمثل أمامه للمحاكمة ، ولكن حدث تعديل وأجل النظر فى قضيته إلى الدائرة الثانية حتى يشفى من جراحه البشعة ، وكانت الصحافة تتابع محكمة جمال سالم ، أما محكمة صلاح

حتاتة فكانت مقامة فى مسرح قديم مهجور أقامه الإنجليز لجنودهم عندما كانوا يحتلون مصر قبل ضباط الثورة ، وكانت محكمة شبه سرية فلا تتابعها الصحافة،وممنوع على مندوبى وكالات الأنباء الذهاب إليها ، ويفعل فيها مايفعل فى السجن الحربى ، فيجوز ضرب المتهم أمام القاضى ، أو يأمر هو بضربه ، بين ضحك السادة وكلاء النيابة والمحامين ومندوبى مصلحة الاستعلامات ، وكان كل شيء جائزا أمام هذه المحكمة ، كل شيء على إطلاقه ودون تحديد أو موانع .

وعندما كثر العدد جعلوا الصولات ينظرون فى القضايا ، ولما تعب الصولات صاروا يرصون المتهمين صفوفا ويقولون هذا الصف عشر سنوات ، وذلك خمس عشرة سنة ، والويل كل الويل لمن يحاول أن يقفز من فئة الخمس عشرة إلى فئة العشر سنوات .

واستفاق سعد حجاج على صوت على صبرى :

– فيم تفكر ؟

– فى لقاء الله .

ثم تركاه وانصرفا

معسكر الإنجليز فى بشتيل

كان صبيا صغير السن يعيش فى قرية بشتيل مركز إمبابة ، لم يتجاوز عمره الأربعة عشر عاما .

وهى قرية من قرى الريف المصرى بخصائصه المعروفة ، حيث تتميز العائلات ويعرف الناس بعضهم بعضا ، وهم يعيشون على الفطرة ، ويتمسكون بتقاليد الريف المعروفة من الشهامة والنخوة وحب الخير والميل إلى التعاون والمواساة فى المصائب والأحزان .

وفى العادة يقل أهل الشر فى قرى الريف ، وهم معروفون يعرفون بسيماهم ، ويكثر أهل الخير بوجه عام ، وهذه من خصائص الريف عادة فى كل بلاد الدنيا . وكانت القرية المصرية ولاتزال هى المكان الخصب الذى ينبت فيه الإسلام .

وكان على مقربة من قرية بشتيل حيث كان يعيش صاحبنا سعد حجاج معسكر للإنجليز ، وقد انتشرت معسكرات الإنجليز فى القطر المصرى ، حيث كانت الحرب

العالمية على أشدها ، واشتد عداء الشعب المصرى لهم ، وكانوا ينظرون لروميل المنتصر المتقدم نحو الإسكندرية على أنه المخلص لهم مما هم فيه من عنت وذل .

وكان سعد حجاج كغيره مسلما متوثبا ، يشعر بوطأة الاحتلال الإنجليزى ويتمنى لو يفعل شيئا رغم سنه المبكرة وإمكاناته الضعيفة ، وشاب صغير فى قرية متطرفة عن العمران ماذا يمكنه أن يفعل غير الحقد والغضب والترقب .

وكان كعادته يخرج من بيته لصلاة الفجر ، ثم يأخذ طريقه عبر الدروب والسكك حتى يصل إلى مقربة من معسكر الإنجليز فيرقبهم عن بعد ، وينتظر حتى نوبة الاستيقاظ فيغلى صدره كالمرجل ، وتمتلىء نفسه وروحه بمشاعر متباينة ، ثم يعود حزينا إلى داره يفكر فى كيفية الخلاص من هؤلاء الكفرة الملاعين .

وكان هذا الأمر يلح عليه فى صحوه ، ويؤرقه بالليل ، ويشغل باله فى النهار . وكان مرأى الإنجليز أمامه يؤكد له أنه مستذل ومستهان ومستضعف ، ويتجسد فى خاطره هوان المسلمين على العالم ، فهو يسمع أنهم يحتلون معظم بلاد المسلمين .

وأحس بوجدانه أن سبب هذا الذل والبلاء هو ضياع معنى الدين من نفوس المسلمين ، لهذا فقد كان حريصا على الصلاة جماعة فى المسجد ، ويحضر درس الشيخ كل ليلة بين المغرب والعشاء ، وأدى كل هذا إلى عميق الإحساس بالدين لدى صاحبنا الصغير .

الاعتداء على فتاة

وكان من عادة الإنجليز أن يخرجوا من معسكرهم القائم بين أشجار الليمون للسهر عند بعض من ييسرون لهم شرب الخمر من غير المسلمين ، أو لتدخين الحشيش ، أو للعبث مع من يسمح لهم بذلك ، ثم تطاولوا مرة وكانوا عائدين من إحدى هذه السهرات ، جند من الإنجليز قد لعبت برءوسهم الخمر وأفسد تقديرهم الحشيش ، وأمسكوا بفتاة جميلة كانت على حمار ذاهبة إلى الحقل ، وجروها إلى المعسكر واعتدوا عليها .

وهاج كبراء القرية وماجوا ، ولكنهم لم يستطيعوا شيئا ، وماذا يمكنهم أن يفعلوا تجاه المعسكر الإنجليزى ؟ لاشىء فى قدرتهم وطاقتهم ، فالأمر أكبر منهم .

ولكنّ سعدا جمع إليه مجموعة من الصبية الأشداء الأقوياء بلغ عددهم ثمانية . واتفقوا على الانتقام .

الانتقام من الإنجليز

وكانت الضحية الأولى جنديا أمسكوا به ، فالعسكر الإنجليز لم يشعروا أنهم قد فعلوا شيئا منكرا يهز شيئا فى تصور هؤلاء المساكين من أهل القرية ، فقد صاروا يروحون ويجيئون كيفما شاءوا ، والقرية تغلى من الحقد والغضب .
واختفى هذا الجندى !

لم يستخدموا غير أيديهم فى قتله ، فقد خنقوه وألقوا به فى ساقية مهجورة .
ثم الثانى فالثالث فالرابع ، وهؤلاء أغرقوهم فى ترعة « الزمر » وقامت القيامة وجرى البحث فى كل مكان ، وجاءت الشرطة والكلاب البوليسية ولا حس ولا خبر .
وأحس سعد بالراحة والهدوء إلى حد ما ، فقد انتقم لشرف قريته على نحو ما ، وكان حريصا أن يكون الضحايا أولئك الجند الذين خطفوا الفتاة وأخذوها سراً إلى المعسكر .

وبعد أيام طفت الجثث فى الساقية وفى الترعة .
واقتيد الناس من المشتبه فيهم إلى مركز إمبابة للتحقيق .
التحقيق على الطريقة الإنجليزية .. يعنى بلا جلد ولا تعذيب .
وقبض على سعد وعلى أقرانه ، والكل أنكر التهمة ، وعاد الجميع إلى منازلهم .
وحرمت قيادة المعسكر على الجنود النزول إلى القرية إلا جماعات وللضرورة القصوى . ثم اضطروا أخيرا لتغيير مكانه والانتقال إلى مكان آخر بعيد عن العمران .

إنجليزى مسلم !

ومرَّ سعد مرة فوجد جنديا إنجليزيا يصلى تحت شجرة !
ووقف مشدوها حتى انتهى ذلك الجندى من صلاته ، وفوجىء به يخرج من جيبه مصحفا ويقرأ فيه ، واقترب منه على حذر وقال :
– السلام عليكم .
ورد عليه الجندى الإنجليزى :
– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
ووقف سعد محدقا لبرهة مشدوها وقال :
– إنجليزى ويقرأ القرآن ! إن هذا لشىء عجاب !

ـ بل هو عربى مسلم يقرأ القرآن .
ـ وكيف كان ذلك ؟
وقال له الجندى :
ـ يأخي .. أنا من سوريا وقد جندت قسرا فى الجيش الإنجليزى .
ـ لاحول ولا قوة إلا بالله !
وصار الجندى يفتش فى جيوبه ويخرج له بعض الأوراق والصور :
ـ اسمى محمد رشاد وهذه هى « الهوية » الخاصة بى ، وهذه صور أولادى .
ودعاه سعد لتناول الطعام ، وفى الطريق رآه زملاؤه الذين شاركوه فى قتل من قتلوا من الإنجليز ، فصاح بهم واحد محذرا وقد ظن أن سعداً قد جاءهم بضحية جديدة :
ـ خلّى بالك ياسعد عايزين نقتله بعيد أحسن المرة دى حنتمسك .
وذعر الجندى السورى قليلا ثم ابتسم :
ـ هو انتم اللى عملتوها ؟
وذعر رفاق سعد وهموا بالفرار فاستوقفهم سعد :
ـ هذا أخونا من سوريا .. مسلم مثلنا ولكنه جند رغم إرادته ، وساعدهم هذا الأخ السورى فى سرقة أسلحة كثيرة من مخازن المعسكر ، وذلك قبل أن ينقلوه إلى مكان آخر .
ثم تعاونوا جميعا رغم سنهم الصغيرة فى تهريب محمد رشاد إلى بلده .

الطريق إلى الإخوان

وفى يوم من الأيام فى عام ١٩٤٨ نزل سعد ورفاقه للنزهة واللهو فى القاهرة وألقى بهم الطريق إلى حى بولاق حيث كان حسن البنا يلقى خطابا بمناسبة الهجرة ، وصوب سعد ورفاقه إلى السرادق لأن صوت الخطيب قد جذبهم إليه بصوته الرخيم المؤثر الذى يصل إلى القلب بسرعة ، وسرعان ماأخذوا مكانا قريبا يستمعون إليه ، وقد نسى سعد ما جاء من أجله من لهو ونزهة .
وقال سعد :
ـ كأن حسن البنا رضى الله عنه يحدثنى أنا شخصيا عما فى نفسى ، وكل كلمة قالها مست قلبي وفكرى ، كان يتكلم عن الجهاد فى سبيل الله ودور الشباب فى هذا ، ويضرب الأمثلة بأسامة بن زيد وغيره من الشباب الذين أقاموا بناء الدين .

وانتهى خطاب حسن البنا بعد أن غير نفس صاحبنا هذا ، وجعله يسأل عن هذا الرجل وماذا يفعل ؟ وما هو الطريق إليه ؟

وذهب إلى المركز العام وجاء مكانه بجوار المرحوم المهندس حسنين الفيومى ، واختصارا للقول فقد انضم لأسرة من أسر الإخوان ، وسلك طريقهم منذ ذلك الحين .

ومن الطبيعى لشاب مثله قد أحس وطأة العار من جند الاحتلال وهم كانوا بالأمس القريب يسيرون فى طرقات قريته وفى أيديهم البنادق فى آخرها الحراب تلمع فى الشمس ، ثم انتقم منهم بعد أن لوثوا شرف قريته ، أن يبادر بالانضمام إلى النظام الخاص للإخوان المسلمين فهو مؤهل تماما لهذا .

وقد دعاه إلى الانضمام بعد التجارب والاختبار المرحوم هنداوى دوير عام ١٩٥٠

شعبة للإخوان فى بشتيل

وكان سعد وآخرون قد أقاموا شعبة الإخوان بقرية بشتيل من قبل ، وصار له نشاط بارز ، فهو يقضى معظم وقته فى خدمة الدعوة والجماعة على فقره وقلة موارده ، وربما ذهب على دراجة ليأتى بشاب صغير متحدث لبق اسمه صلاح أبو إسماعيل ليلقى كلمة فى الشباب ، وكان يقطع على هذه الدراجة ما يقرب من ثلاثين كيلو مترا ليأتى به ، ثم يعيده مرة أخرى .

استطاع أن يصنع شعبة نشطة فى القرية ، وامتد نشاطه إلى المركز ، ثم إلى النظام الخاص كما ذكرنا .

وكان فى أثناء هذا كله يقوم على افتتاح الشعب الإخوانية فى القرى المجاورة ويقوم على تنظيمها وبناء هيكلها الإدارى ، ويستجلب لها الزائرين من كل مكان يستطيعه ليتحدثوا ويتكلموا ويزيدوا من جذوة الإيمان فى نفوس الشباب والشيوخ .

لم يشترك فى الأعمال التى قام بها النظام قبل الثورة ، فلم يطلب منه ذلك . ولكنه درب تدريبا جيدا على الرماية وحرب العصابات .

وأسأله عن هنداوى دوير فيقول :

ـ كان شديد الحماسة للإسلام صاحب دين،اشترك فى كثير من الأعمال الفدائية ،وله خبرة واسعة بالأعمال السرية وحرب العصابات ، اشترك فى عمليات

كثيرة ضد الإنجليز فى القتال أثناء الحرب العالمية وبعد ذلك . وهو من العناصر المجاهدة التى لاأستطيع أن أقول ضده شيئا فى دينه وخلقه وأمانته وحرصه .

القبض على سعد حجاج

أطلق الرصاص على عبد الناصر فى المنشية مساء يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤ . تم القبض على سعد حجاج فى منتصف هذه الليلة .

طرق عنيف على الباب ثم اقتحامه قبل الفتح أو أثناءه ، وانتشرت قوة كبيرة داخل الشقة ، وكان قائد القوة حسن أبو باشا الذى صار رئيسا للمباحث ثم وزيرا للداخلية فيما بعد ، وأطلق عليه الرصاص بسبب قيامه بتعذيب المعتقلين من الإخوان المسلمين وغيرهم خلال ثلاثة عقود من الزمن ، ونجا من محاولة الاغتيال وكان معه ضابط صغير اسمه حسن طلعت قدر له أن يكون رئيسا لمباحث أمن الدولة فيما بعد ، وله دور كبير فى التعذيب والاعتقال والتشريد ، ثم طرده السادات بعد أن سجنه بضع شهور .

وسأل حسن أبو باشا :

– أنت سعد حجاج ؟

– أيوه أنا ؟

– تعرف عبد العزيز شميس ؟

– أيوه .

– تعرف هنداوى دوير ؟

أيوه .

– تعرف محمود عبد اللطيف ؟

–أيوه .

– تعرف عصفور البحيرى ؟

– أيوه .

– تعرف ...

وقاطعه سعد حجاج قائلا :

– إن كنت تنوى أن تسألنى عن الإخوان فأنا أعرف جميع الإخوان فى المنطقة لأننى من جماعة الإخوان . أعرفهم واحدا واحدا .

ونظر إليه حسن أبو باشا ساخرا وقال له :

– إذن مبروك عليك حبل المشنقة .

وكان هذا الحوار يدور فى الصالة وزوجة سعد حجاج تستمع ، وهنا صاحت فى حسن أبو باشا :

– حبل مشنقة !! ربنا ينتقم منكم ياظلمة يافجرة ..

وكان أولاد سعد الصغار يقفون لا يفهمون شيئا .. محمد وعبد الفتاح وعزيزة ولكنهم يعرفون أن سحابة سوداء قد تخللت البيت كما يحدث فى قصص الجن والعفاريت .

ونظر حسن أبو باشا يمنة ويسرة فرأى أدوات « نقاشة » كانت لنقاش يعمل فى البيت ، وتركها ليأتى إليها مع الصباح فيزاول ما بدأ فيه .

وقال حسن أبو باشا :

– هل تزين البيت ابتهاجا باغتيال الرئيس ؟

ورد عليه سعد ساخرا :

– إن كانت كل الأدلة على هذا النحو فإن شاء الله براءة . أنا لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع بالمرة .

ورد عليه حسن أبو باشا فى حزم :

– إن شاء الله إعدام .

– يفعل الله مايشاء .

– أين كنت هذا النهار ؟ احكى لى من أول اليوم إلى آخره .

كان هذا يدور فى الصالة أمام الأسرة والقوة الضاربة التى احتلت البيت وشيخ الخفر وشيخ البلد وبعض الخفراء وبعض الجيران وجمع من الناس .

أين كان سعد أثناء تمثيلية المنشية ؟

وقص عليه سعد حجاج :

– ذهبت إلى العمل فى الصباح الباكر كالعادة فى الترسانة البحرية ، وأثناء العمل عرفت أن زميلا لنا قد توفى ، فاتفقنا أن نذهب إليه بعد الانتهاء من العمل . وعدنا بعد صلاة المغرب ، ومررت على محل عبد العزيز شميس وكان المغرب أوشك

أن يفوتنى فوقفت أصلى ، وأثناء ذلك جاء هنداوى دوير وقال :

– لماذا لاتصلى فى المسجد ؟

وقلت له :

– خشيت من ضياع الوقت .

ثم تكلمنا فى بعض الأمور العامة وانصرفنا حتى شرفتم .

وقد تم هذا التحقيق أمام كل هؤلاء .

وقال حسن أبو باشا ساخرا :

ومحمود عبد اللطيف ألم يكن معكم ؟

ورد عليه سعد حجاج :

– أنا قابلت محمود عبد اللطيف فى الصباح المبكر .

– فين ؟

– أمام بيته .

– لماذا ؟

– كان طلب منى بعض الأشياء مما يوجد فى الريف .

– مثل ماذا ؟

– ذهبت إليه ببعض « الأذرة » الخضراء للشواء ولبن وقشطة ، فقد كان ينوى الذهاب هذا النهار إلى طنطا ليعمل فى مصنع صابون يملكه أولاد عمه .

– لماذا ؟

– المباحث تضيق عليه الخناق فهى تراقبه ليل نهار ، وهناك من المخبرين من يقف أمام دكانه وبيته بطريقة جعلت زبائنه يخافون منه ، وصاروا يتجنبونه ، وهكذا وجد أن سبل المعيشة فى مصر صارت ضيقة ، وعندما عرض عليه أبناء عمه هذا العمل وافق ، وأخبرنى هذا الصباح أنه ينوى السفر فى قطار الساعة الثامنة إلى طنطا فقلت له : ربنا يوفقك ويقدر لك الخير فى أى مكان تعمل فيه .

امرأة تحاول خداعه

واقتادوا سعد حجاج إلى سجن مصر الذى رفض استقباله !

كان النظام لايزال على نحو ما ، ولم يكن قد خلع خلعاً وحلت مكانه الفوضى !

فذهبوا به إلى قسم الخليفة ، وهناك ألقوا به فى غرفة مظلمة .

وفتحت هذه الغرفة بعد قليل ، وألقوا فيها بامرأة لم يتبين وجهها ، وقالت له :

– أنا امرأة محمود عبد اللطيف .

وكان يعرف امرأة محمود ، ويستطيع أن يميز صوتها ، ولم تكن كذلك ، وقال لها :

– وماذا تريدين ؟

وقالت المرأة فى التياع :

– أخبرهم بكل شىء لأنهم سوف يقتلوننى .

– أخبرهم بماذا ؟

– إزاى كنتم ناويين تقتلوا عبد الناصر .. والاتفاق اللى بينكم وحياة أبوك أحسن دول ناويين يموتونى .

وقام إليها سعد مخوفا لها بينما ارتفعت صرخات المرأة فى الليل :

– أنا اللى ناوى أقتلك وأخلص عليكى .

وأخرجها المخبرون الذين كانوا يقفون على باب الغرفة بسرعة ، وأغلقوا الباب وظل صاحبنا غارقا فى أفكاره لايفهم شيئا .

بداية العذاب

وفى الصباح أخذوه إلى نقطة من النقاط التابعة للبوليس ، ولم تكن كلمة الشرطة قد ظهرت بعد إلا فى كتب اللغة العربية ، ووكلوه إلى عدد من الجند فى أيديهم البنادق فى آخرها الحراب . وقالوا لهم :

– يظل واقفا هكذا .. إن حاول النوم فانخزوه بحرابكم حتى الموت .

وكان الجند والشاويشية ينظرون إليه فى إشفاق لأن أحدا لايفهم شيئا ، وبعد عدة ساعات أخذوه إلى وزارة الداخلية حيث وجد صلاح الدسوقى الششتاوى ، ونظر إليه ساخرا هو الآخر وألقى أمره بصوت كالرعد :

– اذهبوا إلى مبنى البوليس الحربى وسوف ألحق بكم .

وأسرعوا به إلى هناك ، وصاحبنا لايفهم شيئا ، ولا يدرى طبيعة المسألة ، وكانت الأخبار تتردد هنا وهناك أن محمود عبد اللطيف حاول اغتيال عبد الناصر ولم يستطع ، وسعد يحاول أن يجمع تفكيره فلا يستطيع ، كيف يكون ذلك ؟ الله وحده أعلم ، لو كانت هناك فكرة ما لتنفيذ شىء من هذا لكان هو أول العارفين والمشاركين ، فكيف يتم هذا دون علمه ؟ وهل هو معقول ؟ ومن كان مع محمود فى المنشية ؟ وطرد كل هذه الأفكار ، وعاد صامتا كما كان ، وعقله لايقبل شيئا مما يتردد أمامه من أقوال الجند والشاويشية والمخبرين . وحتى يهدأ قال لنفسه لعله محمود عبد اللطيف آخر غير ذلك الذى أعرفه . والمسألة مجرد تشابه أسماء ليس إلا ، وسوف

يأتون بمحمود عبد اللطيف من طنطا ، ويعرفون أنه برىء من هذه الحادثة ، وتنتهى القصة إن شاء الله على خير .

شاهد ملك

وفى مبنى البوليس الحربى أدخلوه حجرة بها مكتب يتوسطه صلاح الدسوقى ، وفى ناحية منه كان يجلس محمد عبد الرحمن نصير وكيل أحمد أنور قائد البوليس الحربى وحارس عبد الناصر وخادمه .

ودخل سعد وتلطف صلاح الدسوقى معه فى الحديث :

– احنا عاوزين نعملك « شاهد ملك » .

– إزاى ؟

– تخبرنا بكل التفاصيل فتحصل على البراءة وتنجو .

وقبل أن يرد سعد عليه قال له صلاح الدسوقى وهو يعبث فى بعض أوراق أمامه على المكتب :

– انت بتشتغل إيه ؟

وقبل أن يرد سعد سارع صلاح الدسوقى :

– لا .. لا .. هذه وظيفة لا تليق بك .. أنا عندى وظيفة أحسن كتير .. سيكون لك دور عظيم فى بناء المجتمع الجديد .. نحن نصنع مجتمعا يكون مثلك فيه سيدا .. وسوف تأتيك الثروة .. ويسمع الناس لكلامك ، ويصير نفوذك عظيما وكبيرا .. سوف يتغير كل شىء .. المهم أن تكلمنا بالتفصيل عن الطريقة التى رتبتموها لاغتيال عبد الناصر .. وليكن فى علمك أن عندى كل المعلومات .. ولكنى أعجبت بك ، وأريد أن أخرجك من هذه القضية وأجعلك شاهد ملك .

ابدأ بالحديث عن هنداوى ، وعن محمود عبد اللطيف ثم ننتقل إلى المؤامرة .

وتكلم سعد مخلصا:

– فى الحقيقة لا يوجد مؤامرة على الإطلاق .

– دعنا لا نسبق الأحداث فلنتكلم أولا عن هنداوى وعن محمود عبد اللطيف .

وتكلم صاحبنا ماشاء الله له أن يتكلم عن هنداوى وعن محمود عبد اللطيف . وكان صلاح الدسوقى ينظر إليه ساخرا وهو يتحدث ، وصاحبنا يتكلم على سجيته فلم تكن هناك ثمة مؤامرة لاغتيال الزعيم وهو يجيبه فى حدود مايعرفه .

وقال صلاح الدسوقى والشيطان يطل من عينيه :

– هل هذا كل ما عندك ؟

وتحير سعد حجاج ، وكان على يقين من أن الأمور لن تسير على هذا النحو الهادىء ، فهناك ثمة برنامج سوف يكون ، ولكنه قال :

– أنا على استعداد للإجابة على كافة الأسئلة .

مناورات الشيطان

وقال صلاح الدسوقى :

– قال هنداوى دوير فى اعترافاته إنه قد كلفك أنت ومحمود عبد اللطيف باغتيال الرئيس جمال عبد الناصر وإنك كنت معه فى الإسكندرية واشتركت فى الضرب .

(وكان هذا التحقيق نهار ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وقد تم الحادث فى المساء السابق وسلم هنداوى دوير نفسه إلى البوليس فى مركز امبابة حتى الساعة الحادية عشرة صباحا ، ومكث هناك مدة ثم أدخلوه سراديب الشيطان ، بمعنى أن صلاح الدسوقى قد بدأ التحقيق مع سعد حجاج فى نفس الوقت الذى سلّم فيه هنداوى نفسه ، وهو لم يلق به بعد ، أو أحد من السادة المحققين حتى لحظات أو ساعات استجواب سعد) وبدا على سعد حجاج الذهول من هذا الكلام وقال :

– غير صحيح ، وقد شرحت لسيادتك تفاصيل مامرّ بى منذ أن استيقظت من النوم لصلاة الفجر ، وكيف مررت على محمود عبد اللطيف لأعطيه الذرة والحليب كزيارة لأهله فى طنطا ، فقد كان ينوى العمل فى مصنعهم كما أخبرنا ، ورويت لسيادتك كيف ذهبت إلى العمل ومكثت هناك حتى الساعة الثالثة عصرا ورآنى عدد كبير ممن أعمل معهم ، ثم ذهبنا إلى شبرا الخيمة لتقديم واجب العزاء فى زميل لنا ، وعدت وجلست قليلا عند عبد العزيز شميس ، وجاء هنداوى كما ذكرت ، ولم يكن واحد فينا يعرف شيئا عن الحادث . وشرحت لسيادتك كيف ذهبت إلى البيت وكيف قبضوا علىَّ ، وأرجو أن تواجهونى بهنداوى .

وبنظرة ثعبانية حدجه بها صلاح الدسوقى قال :

– يعنى إحنا بنكدب عليك ياسعد ؟

- ياافندم واجهونى بمحمود عبد اللطيف وهنداوى .

وهنا دخل مايسمى بالسيد على صبرى ، ولم يكن أيامها قد حمل اللقب بعد ، وكانوا مستمرين فى الحوار ، ولم يقيموا اعتبارا لذلك الوافد الجديد الصامت الذى يرقب الموقف دون تدخل .

وقال صلاح الدسوقى :

- بيقولوا عليك ياسعد إنك بتعرف « مصارعة »

- هذا صحيح يا افندم .

- طيب ياللا اخلع ملابسك .

وبدأ سعد حجاج يتوتر ، وقال لصلاح الدسوقى :

- ليه ياافندم .

- سوف نلعب سويا « مصارعة »

وبطبيعة الحال لم يكن أمام سعد اختيار .

وخلع ملابسه ووقف أمامهم عاريا !!

العذاب الأكبر

وصاروا ينظرون إليه هادئين كحكماء الإغريق القدامى ، وليس على وجوههم أى تعبير ، وصاحبنا لايعرف ماذا ينوون .

ثم مد صلاح الدسوقى يده فى ملل وضغط على زر الجرس وهو يقول :

- توكلنا على الله .

وفى لحظة أو أقل دخل ثمانية من رجال الجيش المصرى الباسل فى مواجهة المصريين وهم ممن يعملون فى البوليس الحربى ، وعلى وجوههم غبرة ترهقها قترة ، وفى أيديهم سياط كأذناب البقر حسب الحديث الذى روى عن رسول الله ﷺ عليه وسلم .

وصاروا يضربونه بالسياط على جسمه ومن كل ناحية بتشكيل أربعات . يعنى أربعة يضربون وفى تناسق وتناغم بحيث يتم وضع أربع سياط على جسده فى الثانية الواحدة ، ثم يدخل الأربعة الآخرون عندما تتعب المجموعة الأولى وهكذا .

وتحول صاحبنا إلى كتلة من اللحم الأحمر الممتزج بالدماء التى تناثرت هنا وهناك ، وصار وهجا أحمر أليما لايعرف أين هو ولامن هؤلاء والموضوع الذى يدور .

وألقوا به فى غيابة إحدى الغرف ، وقذفوا فوقه بملابسه .

وساعده بعض الشياطين الطيبين فى ارتدائها على دمائه وجرحه الكبير الذى شمل جسده كله ، فقد مزقت السياط كل جلده .

وراح فى غيبوبة النوم أو الإغماء ، واختلط الماضى والحاضر والمستقبل فى إحساسه البالغ بالألم ، وكأنه قد انفصل عن الزمن .

ثم عاودوا الأمر معه مرة ومرة ، ولم يسعفه الموت ولم ينقذه مما هو فيه . واشترك مايسمى بالسيد على صبرى فى سؤاله وتعذيبه ، وهو لايقول غير مايعرف ، « قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا » .

التوقيع على اعترافات لم يقرأها

وعندما فقدوا الأمل فيه جاءوا به من الغرفة معصوب العينين ، وفى صالة واسعة من صالات قصر عابدين ، وقد عرف صاحبنا أنها واسعة من رجع صدى السوط والصوت فيهاوقال له صلاح الدسوقى وهو يضع فوهة مسدس فى أعلى صدغه :

– سوف نكشف العصابة عن عينيك ، ولو نظرت يمنة أو يسرة قتلتك .

– سوف تجد على المنضدة أوراقا . وقع فى آخرها أن هذه هى أقوالك .

– دون أن أقراها ؟

– نعم دون أن تقرأها ياابن الكلب .

– ولماذا لم نفعل هذا من أول جلسة ؟

ونزل على جسده سوط جلجل فى المكان كهزيم الرعد ، وأضاء عينيه رغم العصابة كشهاب الليل وجاءه صوت صلاح الدسوقى :

– نحن لانسأل عما نفعل ياابن الكلب يا ... يا ... يا ...

– خلاص يافندم سوف أوقع على ماتريدون .

ورفعوا العصابة للحظات ووقع بعد أن لمح شرفة فيها بعض الكبراء لم يتبين منهم غير مايسمى بالسيد على صبرى لصغر المساحة الزمنية .

لابد من عرضك على الطبيب الشرعى

وذهبوا به إلى النائب العام ليدلى بأقواله أمامه وكان حينذاك حافظ سابق ، وقد هال الرجل منظر سعد بدمائه وجروحه وسأله :

– من فعل بك هذا ؟

وأجابه سعد حجاج جادا :

– وقعت على السلم .

وبدت الدهشة على وجه حافظ سابق وكأنه لايصدق :

– إلى هذا الحد ؟!

– أنت ترى بنفسك .
وأمسك النائب العام بمحاضر التحقيق بيده وقال :
– وهذه الأقوال التى وقعت عليها ؟
– لاأعرف عنها شيئا . وقد تم التوقيع والمسدس على رأسى .
– لم تقرأها ؟
– ماذا ستفعل ؟
– الطبيب الشرعى لإثبات الحالة .
– وبعد الطبيب الشرعى ؟
– لست أدرى .. ولكن لايمكننى أن أرى متهما وقد فعلوا به هذا كله ولا أفعل شيئا ... لابد من عرضك على الطبيب الشرعى .

إلغاء القوانين والإجراءات وضياع حقوق المتهم

كان ذلك عام سنة ١٩٥٤ ، والمجتمع لايزال على أخلاقه وقيمه القديمة لم يتلوث بعد . فهناك عرف عام يستنكر الجريمة وتعذيب المتهمين ، وهذه حالات يرونها للمرة الأولى فى حياتهم ، فقد كانت للمتهم حقوق كاملة أيام الملك ، وعندما كانوا يريدون الانتقاص من هذه الحقوق كان ذلك يتم ذلك خفية ودون علم أحد ، وليس بهذا القدر البشع . و لم يكن المجتمع والحكومة قد وصلا إلى ذلك الدرك البعيد من الإجرام الذى نراه اليوم .

صعق الطبيب الشرعى عندما رأى المتهم على هذه الحالة من التعذيب ! أرسل يأتيه بملابس من بيته هو ، أقصد بيت الطبيب .
استدعى فريقا من الممرضين ، وصاروا يعالجون رفع الملابس التى التصقت بالجلد فى عناية فائقة ماأمكنهم رغم آلام صاحبنا الكبيرة .

التقط له صورة لايدرى أحد مامصيرها .
فتح الباب ودخل صلاح الدسوقى ومعه مرافق .
وانتفض صاحبنا سعد فزعا وهدأ الطبيب الذى يرقب مشهدا لم يره من قبل

فى حياته المهنية ... وقال صلاح الدسوقى :

– إيه ده .. إنتم بتعالجوه .. إحنا عاوزينكم تموتوه ..

وفى أدب شديد قال الطبيب :

– لو سمحت تغادر الغرفة من أجل أن ننتهى من عملنا .

وجزّ صلاح الدسوقى على أسنانه وغادر الغرفة .

وأسرع الطبيب يعمل مايمكن لسعد حجاج وقال له :

– سوف أكتب تقريراً بما رأيته متضمنا رأيى .

– يعنى سوف تثبت التعذيب ؟

– أثبت التعذيب ؟

هكذا قال الطبيب ساخرا ثم أكمل :

– هذا ليس تعذيبا .. هذا شىء لم أر مثله فى حياتى ... ولا أتصور حدوثه فى التاريخ القديم أو الحديث .

– يعنى فيه أمل ؟

وبدا على الطبيب عدم الفهم وقال :

– أمل فى إيه ؟

وقال سعد حجاج :

– الأمل فى وجه الله إن شاء الله .. يعنى الرئيس لو عرف بهذا التعذيب البشع ألا يأمر بوقفه .

ويبدو أن الطبيب قد بدأ يفهم جمال عبد الناصر فهز رأسه ولم يرد .

وفى الممر ساق الجند سعد حجاج فى طريقه ، وتوقفوا عند باب غرفة كان يتكلم فيها صلاح الدسوقى بالتليفون ، وكان ذلك فى مبنى الطب الشرعى .

وسمع سعد الحوار التالى :

صلاح الدسوقى : ياسيادة الريس لن نصل إلى مانريد بهذه الطريقة .. نائب عام ... وطبيب شرعى .. لن نصل إلى الذى نريده .. لأ ياسيادة الريس .. أنا مش عاوز حاجة .. كل مافى الأمر نوقف الإجراءات العقيمة دى .

وسكت صلاح الدسوقى قليلا يستمع إلى محدثه فى الطرف الآخر من التليفون وبدا عليه الاهتمام والانشراح ، وأشرق وجهه وهو يقول :

– تمام يافندم .. وهو ده الكلام .. مضبوط يافندم .. فى السجن الحربى نعمل اللى إحنا عايزينه .. الناس لسه مافهمتش الثورة .. لسه عايشين فى أوهام العهد البائد .. على كل حال بكرة يفهموا كل حاجة .. ويبدو أن محدثه فى الناحية الأخرى قد قال شيئا جعله يضحك بجنون .

ثم ختم المحادثة :

– ربنا يحرسك ويحميك ياافندم علشان خاطر مصر .

ووضع السماعة وقام إلى سعد حجاج .. وشمله بنظرة مرحة مليئة بالحقد والمرارة ، وقال للضابط الذى يرأس ثلة الجنود :

– على السجن الحربى .

محمود عبد اللطيف لم يفعلها

وفى الطريق إلى السجن الحربى المأوى الجديد صار سعد يفكر فيما يمكن أن يكون . وكيف جرت كل تلك الأساطير الغريبة والحوادث العجيبة ، ويجهد ذهنه فى تفسير ماسمع بلا فائدة ، فكل ماسمعه غامض وغريب ، وهو أيضا يستعصى على الفهم . وما هى طبيعة قصة المنشية هذه ؟ ومالذى حدث على وجه اليقين ؟

لايمكن أن يضرب محمود عبد اللطيف جمال عبد الناصر فى المنشية طبقا للمعلومات المتوافرة ، لو كان محمود عبد اللطيف هو الذى ضرب جمال عبد الناصر لكان هو نفسه – سعد حجاج – قد ضرب معه لطبيعة التركيبة الإخوانية من حيث كونهم أعضاء فى النظام .

وعندما اجتاز بوابة السجن تلك البوابة السوداء الشهيرة وجد مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، حيث تسطع الشمس فى جوف الليل ، ويظلم النهار ، ويمتلىء المكان بالقردة والخنازير والثعابين ، والكلاب تنبح والسياط تعوى ، والصراخ يملأ المكان ، وكل قليل من الوقت شخص يموت ، وكل قادة مصر وحكامها يمرون على المعذبين ويشتركون فى التعذيب ، وليس هناك ثمة قانون أو عرف أو بعض من أخلاق . فقد كان الضباط كالكلاب المسعورة قد أمسكوا بعظمة هى حكم هذا البلد المسكين ، وهم يقاتلون دون ذلك .

وبعد انقضاء خمسة وثلاثين عاما على هذه الأحداث جلسنا نشرب الشاى فى ليلة شبيهة بتلك التى أخبروه فيها أن التنفيذ يكون مع الصبح . ومرت تلك السنين كلها وهو حى يرزق مدّ الله فى عمره .

وكان الجو دافئا يختلف عن برودة الزنازين حيث لادفء ولا غطاء .

وسألته :

– ماهى علاقتك بهنداوى دوير ؟

وقال :

– كان صديقى وأخى فى الله وهو رئيس المنطقة ورئيس المجموعة المكونة منى ومنه ومن محمود عبد اللطيف ، وكان ساخطا على رجال الثورة لأنه كان يرى أن هؤلاء الناس قد بايعوا على السمع والطاعة وأقسموا على المصحف أن يقيموا شرع الله عندما يتمكنون من الحكم ، ولما نجحوا تخلوا وبدءوا فى تصفية الإخوان .

وكان الزائر لنا هو المرحوم إبراهيم الطيب

– وما معنى الزائر ؟

– هو المسئول عنا من النظام الخاص فيأتى إلينا كل أسبوع أو أسبوعين يبلغنا الأوامر والتعليمات والتوجيهات .

وسألته :

– هل كانت هناك فكرة لاغتيال جمال عبد الناصر ؟

وفكر الرجل قليلا وقال :

– كان هناك كثير من المناقشات حول دور الإخوان فى الرد على الثورة عندما يحاول الضباط القضاء على الإخوان ، وكانت هناك بعض الأفكار تدور فى الأحاديث المختلفة بين الإخوان فى ضرورة المقاومة وعدم التسليم ببساطة ، وتطورت هذه الأفكار إلى ضرورة التخلص من هؤلاء الضباط وقتل واغتيال بعض منهم كنوع من الحماية . ولكن هذه الأفكار وهذه الأحاديث لاتمثل نظر قيادة الإخوان فى هذا الأمر ، ووجهة نظر قيادة الإخوان تمثل فى مجموعها رأى الجماعة ، فإن أخذنا بهذا فلم يكن عند الإخوان أدنى فكرة عن اغتيال عبد الناصر .

– وما قصة الحزام الناسف والمسدسات وسائر هذه الأشياء ؟

– الحزام الناسف كانت فكرة تستخدم عند الهجوم على الجماعة ، فلا بد من رد من جانبنا ، وكنت أنا المرشح لحمل هذا الحزام واحتضان عبد الناصر والموت

معه ، ولم يكن هذا كلاما رسميا بمعنى أنه لم يأت من قيادة الإخوان للتنفيذ ولكنها أفكار نتبادل الحديث فيها ، وقد رفضت هذه الفكرة .

– لماذا ؟

– لأننى كمسلم أقاتل وأقتل ، وموضوع الانتحار هذا لا أراه شرعيا .

– ماذا تعنى بأنها أحاديث ليست رسمية ؟

– يعنى أننا نتكلم فيها بين بعضنا وبعض كأفكار مطروحة للمناقشة .

– وماهى خطة الإخوان فى مقاومة طغيان الحكومة ؟

– كانت الخطة أن نقوم بمظاهرة يحميها بعض المسلحين للتعبير عن وجهة نظر الاخوان فى الحكم الاستبدادى الذى بدأ ، ثم يذهب كل واحد إلى بيته ونكون بهذا قد أعلنا وجهة نظرنا للعالم كله فى الثورة .

– هذا كل ماكان عندكم بالنسبة للصراع مع الثورة ؟

وتكلم الرجل فى حماسة :

– نعم .. كان هذا هو كل ماعندنا فى الصراع مع الثورة ، وهذه هى الأوامر التى جاءت إلينا من قيادتنا عبر المرحوم إبراهيم الطيب ، ونهى نهيا قاطعا عن أفكار القتل والاغتيال وقال إن هذه هى تعليمات المرشد العام ، وتجب علينا طاعته .

وقلت له :

– أخبرنى كيف يكون التسلسل القيادى ؟

– ماذا تعنى ؟

– كيف تصلك الأوامر فى النظام الخاص ؟

– أتسلم الأوامر من هنداوى دوير بصفته رئيس المجموعة .

– ومن أين تأتى الأوامر لهنداوى ؟

– من إبراهيم الطيب .. وإبراهيم الطيب يأخذها من يوسف طلعت الذى يتشاور بشأنها مع المرشد . وأية عملية أو أى إجراء لايتم إلا من خلال هذه السلسلة .

– تقصد أن اغتيال عبد الناصر لو تمت بشأنه تعليمات فلابد أن تكون صادرة من المرشد ؟

– بالضبط .. إن كانت هناك أوامر بهذا الخصوص فلابد أن تأتى من المرشد فهذا أمر لا جدال فيه ولانقاش .

وأكملنا احتساء الشاى فى تلك الليلة ، وكان معنا فى الجلسة الدكتور محمود الأنصارى الأمين العام المساعد لاتحاد البنوك الإسلامية ، وكذلك الحاج زكى النجار وكان من ضمن المسئولين عن جهاز الوحدات مع الأستاذ صلاح شادى .

وكنت تنظر إلى الأخ سعد حجاج فيسرك منظره بقامته الفارعة ، وأناقته فى ملبسه وشعره الذى ملأه البياض مع قوة يديه حين تصافحه ، وابتسامة مشرقة مليئة بالتفاؤل ، مع حضور البديهة والنكتة ، وتشعر عند جلوسك مع هؤلاء الثلاثة وتتأملهم واحدا بعد الآخر فتتأكد أن النظام القديم الذى كان للاخوان ـ النظام الخاص ـ كان حديدى التكوين ، فكل واحد من هؤلاء يتميز تميزا فريدا فى ناحية واحدة على الأقل ، وبشكل عام هم طراز فريد من الناس ، لديهم قدرات لم تتوافر لغيرهم .

وتجد الثلاثة قادرين على تحمل التبعات والنهوض بالواجبات .

يستطيعون كتمان الأسرار وحفظها .

النزاهة والتجرد إلى حد كبير .

ثم ترى ميزة أو تلمحها بعد لقاء واحد مع أى منهم . ميزة تبرز وتفرض نفسها وتلح على من أمامها فى تقبلها .

محمود الأنصارى　　الدهاء والقدرة على التنظيم .

زكى النجار　　نكران الذات والقدرة على التحمل .

سعد حجاج　　الشجاعة الفائقة والفدائية البالغة .

هؤلاء نموذج قد جمعنا بهم مجلس ، ولاشك أن إخوانهم كانوا على غرارهم .

لو أراد الهضيبى أن نقتل عبد الناصر لقتلناه

واستكملنا حديثنا ..

وسألت الأخ سعد حجاج :

ـ هل جاءتكم أوامر حسب التسلسل القيادى الذى ذكرته باغتيال جمال عبد الناصر عن طريق هنداوى أو إبراهيم أو أى طريق ؟

وابتسم الرجل وسكت فترة ليست قصيرة ونحن ننتظر إجابته .

وعدت ألح عليه :

ـ لم تخبرنى بالإجابة .

وقال سعد حجاج :

– لو جاءتنا أوامر بقتله لقتلناه وكنا نستطيع ذلك .

– كيف هذا ؟

وفى ابتسامة الواثق قال سعد :

– كانت عند الإخوان القدرة على قتل عبد الناصر فى أى وقت ، كان لدينا التنظيم الدقيق المسلح الواعى القادر على تنفيذ هذا . واسأل التاريخ القريب يخبرك . ليس هذا أسلوبنا على الإطلاق ، أن يذهب شخص وفى يده مسدس مداه ثمانية أمتار دون حماية ودون كمائن ودون رسم للخطة . وشخص غريب عن الإسكندرية لايعرف شيئا فيها . كان الأولى بأعضاء النظام فى الإسكندرية أن يقوموا باغتيال عبد الناصر لو تقرر قتله هناك . ومثل هذه العملية يشترك فيها مالايقل عن عشرين شخصا لضمان نجاحها نظرا للحراسة المشددة وغير ذلك .

وتعجبت من كلام صاحبنا !!

وتذكرت التاريخ الذى سبق الثورة .

وحادث مقتل النقراشى باشا على وجه التحديد !

وكيف تم تدريب الأفراد عليها تدريبا جيداً فائقا ؟

ثم كيف تم التنفيذ بنجاح شديد ؟

تقرر قتل النقراشى !

فرسمت الخطة بعناية ...

وأجريت عدة تجارب لكشف الثغرات ..

واختير الموعد المناسب جدا ..

وتم التنفيذ بكفاءة عالية ...

عمليات النظام على درجة عالية من الدقة والكفاءة

وليس من المعقول لهذا النظام الخاص بعد أن تطور أن يجرى عملية القتل بهذا القدر من السذاجة والبلاهة !

فقد مر هذا النظام بحرب فلسطين وحرب القنال ، واشترك فى الانقلاب ضد الملك فاروق ، وتطورت أساليبه ، وانضم إليه أشخاص جدد ، وازداد خبرة ووعيا ودراية بمثل هذا النشاط .

فحادث المنشية حادث مفتعل بالتأكيد ، وليس للإخوان صلة به على سبيل

القطع تحت أية معايير للنقد والتحليل ، ودراسة أسلوب الإخوان فى مثل هذا النوع من الحوادث يؤكد افتعاله من جانب مختلف تماما عن الإخوان ، حيث اختلاف الأسلوب ، واللامبالاة فى الشكل المعلن ، مما يرسخ مفهوم أن من قاموا به على يقين من الوصول إلى النتيجة التى صارت .

وسألته :

– وماهى آخر الأوامر التى وصلتكم كنظام خاص بالنسبة للصراع مع الثورة ؟

– غلق الشعب ، وأن يلزم كل واحد داره استعدادا لمظاهرة تعلن رأى الإخوان.

– ومسألة الاغتيالات ؟

– جاءت الأوامر من القيادة ، وأبلغها لنا المرحوم إبراهيم الطيب ، وكنت حاضرا مع هنداوى ومحمود عبد اللطيف .. أن القيادة قد بلغها أن بعض الإخوان يفكرون فى أعمال شغب واغتيالات ، وهذا ليس من سياسة الجماعة إطلاقا ، وعلى كل من يدين بالسمع والطاعة للمرشد أن يكف عن هذا الكلام ، وأنه – المرشد – برىء من أى دم يراق ولايرضى ولايقبل،ويرى أن هذا غير جائز شرعا .

وجلسنا صامتين لفترة نتأمل الكلام ..

كل الخطة مظاهرة سلمية

وسألته :

– هكذا قال المرشد ؟

– هذا مانقله إلينا إبراهيم الطيب،وأكاد أحفظ نفس كلماته .

– ومتى كان هذا بالنسبة ليوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ؟

وفكر سعد حجاج قليلا وقال :

– كان هذا قبل حادث المنشية بحوالى يومين تقريبا ، وكانوا قد جاءوا من قبل ذلك بالحزام الناسف للاستخدام عندما يتقرر ذلك ، ولما صدر لنا هذا التوجيه قمت بدفنه فى الأرض هو وغيره من بعض الأسلحة .

واعترضت :

– ولكنكم كنتم تنوون القيام بمظاهرة مسلحة .

وأصرَّ سعد حجاج على أنها مظاهرة سلمية مخالفا بذلك بعض الشهود الذين قالوا

إنها مسلحة ، والبعض الآخر الذى قال إنها سلمية يقوم على حراستها بعض المسلحين . المهم هذا ماقاله فى هذه الجزئية .
وأضاف سعد :

– فلو كانت هناك نية للشغب والاغتيالات ماقمت بإخفاء هذه الأسلحة وأنا أشهد بما رأيت وعلمت .

ويبدو أن هناك عناصر كانت تثير حماس الإخوان،وتشحنهم ضد الثورة،وتحرك مرارتهم وإحساسهم بالظلم،وتعبئهم بعيدا عن وجهة نظر القيادة وسياستها التى تمثلت فى توجيهات المرشد العام . وكان هذا يتم تمهيدا للبطش الشديد بهم ، فهذا السخط والغضب يظهران للناس والشعب ، وعندما تفتعل حادثة وتنسب إلى الإخوان فمن السهل أن يصدقها الناس .

والذى لاشك فيه أيضا أن الإخوان – البعض – كانوا يضغطون على القيادة الممثلة فى المرشد العام فى عمل شيء مالتخليص البلاد من الحكم العسكرى ، وعرضوا فى سبيل ذلك بعض الخطط والتصورات فى هذا الباب ، ثم نوقشت وصرف النظر عنها تماما بأوامر صريحة من المرشد العام . مثل فكرة اقتحام مجلس الوزراء أو مجلس قيادة الثورة بسرية من أعضاء النظام يرتدون ملابس البوليس الحربى ، ثم السماح لمحمد نجيب بممارسة عمله كرئيس حقيقى للجمهورية ، ولبعد نظر حسن الهضيبى لم يستسغ هذه الفكرة ، فقد تم تكريس الحكم العسكرى ، وأمريكا تقف خلفه من أجل المساندة والدعم . ولابد للجماعة أن تدخل فى طور الكمون لفترة من الوقت لايعلمها إلا الله .

هنداوى لم يسلم محمود عبد اللطيف أى مسدس !

كانت المجموعة التى اتهمت بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر يرأسها هنداوى دوير وتتكون من سعد حجاج ومحمود عبد اللطيف .

وكانت العلاقة بين سعد حجاج ومحمود عبد اللطيف أكثر من وثيقة فهما متقاربان فى السن،ويتزاوران ويعرف أحدهما الآخر معرفة جيدة ، ولم تكن علاقتهما على نفس الدرجة مع هنداوى دوير المحامى رئيس المجموعة .

وقلت لسعد حجاج :

– قال هنداوى دوير أمام محكمة الشعب أنه قد سلم محمود عبد اللطيف مسدسا ليقتل به جمال عبد الناصر .

– غير صحيح على الإطلاق .

– لماذا ؟

– لأنى أشهد أننى قد اشتريت مسدسين من أحد الفلاحين وأعطيت واحدا لمحمود ، واحتفظت بواحد لى ، وهذا أمر يعرفه هنداوى دوير ، فهو يعرف أن محمودا لديه مسدس ، فما الداعى أن يعطيه مسدسا آخر ؟

– ولماذا قال هنداوى دوير هذا ؟

– لست أدرى .. ويسأل فى هذا هنداوى دوير .

– هل عذبوه كما فعلوا معك ؟

– لست أدرى فأنا لم أره بعد القبض علينا .

المدعى العام يكذب

– قال المدعى فى القضية أنهم واجهوا المتهم محمود عبد اللطيف بك – سعد حجاج –

– لم يحدث على الإطلاق .. لم أواجه بأحد فى هذه القضية باستثناء الأخ محمد بسطويسى من إخوان المحلة الكبرى حيث ادعى أننى مكثت فى بيته ثلاثة أيام وأننى قد ذهبت إليه ومعى كمية من السلاح لهم هناك . وكنت قد التقيت مصادفة أثناء التعذيب بهذا الأخ وأنا لاأعرفه فى لحظة من لحظات الاستراحة حيث لايوجد أحد من الجلادين ، واقترب منى هذا الأخ وسألنى : مااسم الأخ ؟ وأجبته : مخيمر على مخيمر . وعاد يسأل : إنت من إخوان إيه ؟ وقلت له بزهق : أنا من المباحث . ونظر إلى هيئتى والتعذيب الذى لحقنى وتعجب وقال : ولماذا فعلوا بك هذا ؟ فقلت له : اسألهم . كل هذا وأنا لاأعرف اسمه ولا أريد أن أعرفه،فمعرفة الأسماء فى هذه الأماكن تضر ولا تنفع .

ثم استدعانى المحقق للعرض على محمد بسطويسى بناء على تعليمات زكريا محيى الدين كما علمت . وأجلسنى المحقق أمامه على الكرسى بجوار مكتب،واستدعى الأخ محمد بسطويسى وأنا جالس وسأله : أنت قلت إن سعد حجاج مكث فى بيتك ثلاثة أيام . وأجاب نعم ياافندم . واستمر المحقق يسأله : وقلت إيه،احضر أسلحة

قد أعطيت بيانا بها . وقال محمد بسطويسى : هذا صحيح يافندم .
وسأله المحقق : يعنى لو رأيت سعد حجاج تعرفه ؟ وأجاب : طبعا ياافندم . أول ماتقبضوا عليه واجهونى بيه .

وأشار المحقق ناحيتى وقال : أليس هذا هو سعد حجاج ؟

وقال الأخ محمد بسطويسى : لا .. ليس هو .. هذا مخيمر على .

واعتذر إلىَّ محمد بسطويسى على هذه الواقعة بعد ذلك ، وكان مضطرا إليها من شدة التعذيب . والمهم هذه هى المواجهة الوحيدة التى تمت بينى وبين أى مخلوق أثناء التحقيق،ولو قال المدعى ذلك فهو كاذب .

محمود عبد اللطيف يشير لى بيده أنه لا يعرف شيئا

سألته :

– وهل قابلت أو رأيت محمود عبد اللطيف بعد القبض عليك ؟

وقال سعد حجاج :

– كنت فى طريقى إلى « المكاتب » لاستلام طرد قد جاء باسمى من أبى . وهناك وعند الفسقية إن كنت تعرفها وجدت محمود عبد اللطيف يرتدى «روبا » وجالسا على كرسى فى الشمس ، وقررت أن أكلمه لأعرف هذه الأسرار التى تلف هذا الحادث ، ولكنى لم أتمكن من الحديث معه ، ولكنه رآنى ورأيته ، وأشار إلىَّ بيده بمايفيد أنه لايعرف شيئا عما يدور ، وأنه ليس له أية علاقة بالحادث الذى جرى ، هذا مافهمته من إشاراته . ثم فرق بيننا الحرس . وهذه هى المرة الوحيدة التى رأيته فيها ، وكان يبدو فى صحة وعافية ، وليست عليه أية آثار للتعذيب .

آخر لقاء بين سعد ومحمود قبل الحادث

وسألته :

– هل تذكر آخر مرة رأيت فيها محمود عبد اللطيف ؟

– نعم .

– كيف كان ذلك ؟

– على باب بيته يوم الحادث فى الصباح كما أخبرتك .. فقد ذهبت إليه لأعطيه بعض الأشياء من « الفلاحين » ومن الطبيعى أننى أمر من الشارع الذى يسكن فيه ، وأخبرنى أنه مسافر إلى طنطا هذا اليوم للعمل كما سبق أن أخبرنا . وكان معى خمسة جنيهات أعطيته نصفها وقلت له ربنا يوفقك يامحمود .

– وكيف كانت هيئته فى هذا اليوم ؟

– كان طبيعيا جدا ، ولاتبدو عليه أية علامات أو أمارات تنبىء عن خبره المشتهر فى المساء ، فلم تكن هيئته هيئة من ينوى إطلاق الرصاص على عبد الناصر فى الليل ، وصدقنى لو كان هناك شىء من هذا لأخبرنى ، فالصلة بينى وبينه قوية وعميقة . ثم انصرفت إلى عملى .

وسألته :

– وماهى آخر مرة قابلت فيها هنداوى قبل الحادث .

وقال سعد :

– فى نفس اليوم فى المساء ، وكنت قد عرفت أن أحدا الإخوان قد توفى من شبرا الخيمة واتفقنا أن نذهب إلى العزاء ، وبعد العمل ذهبنا إلى منزل أحد الإخوان وتناولنا طعام الغداء ، ثم ذهبنا لقضاء واجب العزاء ، ومررت على محل الأخ عبد العزيز شميس رحمه الله ، وأثناء صلاة المغرب جاء هنداوى كما سبق أن قلت .

– وهل كانت هيئته طبيعية وعادية ؟

– تماما .. وأوصانى بتنفيذ ماسبق من تعليمات ، وكانت هناك فئة تمر على الشعب تجمع توقيعات ضد المرشد ، وكانت التعليمات تقضى بأن يلزم كل واحد بيته ، وأنه لم تعد هناك شعبة ، ولاشىء بعد ذلك ، والسكون حتى تنتهى هذه الفتن .

وسألته :

– ومتى علمت بحادث محاولة اغتيال جمال عبد الناصر ؟

– فى نفس المكان .. فى محل عبد العزيز شميس وبعد الحديث الذى دار بينى وبين هنداوى .. فوجئنا بأحد الأشخاص قادما ويقول إن جمال عبد الناصر قد ضرب بالرصاص .. وصرنا ننظر إلى بعضنا فى دهشة ونحن لانصدق ، وكانت دهشة هنداوى مثل دهشتنا ، وقلنا لعله كلام مختلق لا أصل له ، وانصرفنا ، وبعد ذلك سمعت أن الراديو أذاع هذا الخبر . وذهبت إلى البيت وأنا فى دهشة من هذا ، وتخيلت أنه ربما خبر كاذب أو أنها تمثيلية الغرض منها ضرب الإخوان وإلصاق التهمة بهم .

ما هو دور محمود عبد اللطيف ؟

– ألم يخطر ببالك أن لمحمود عبد اللطيف صلة بهذا الحادث لحظتها ؟

- على الإطلاق .. لم يخطر لى هذا ببال أبدا .
- وماهو تصورك عن هذا الحادث ؟
- تصورى أن الحكومة هى التى صنعته ، واستغلوا محمود عبد اللطيف وأخذوه من محطة مصر إلى الإسكندرية ، وقام البعض بإطلاق الرصاص بطريقة خاصة ، ثم جاءوا بمحمود عبد اللطيف بعد إطلاق النار إلى ميدان المنشية ، ثم ضربوه وألصقوا التهمة به .
- ولماذا لم يقل هذا محمود عبد اللطيف فى المحكمة ؟
- لست أدرى ماذا فعلوا معه حتى يسكت أثناء المحكمة ، ولاأظن أنه قد قال هذا فى المحاكمة ، هو لم يتكلم حسبما سمعت ، غير أنه قال عندما سأله جمال سالم : هل أنت مذنب أم غير مذنب . فقال : مذنب .
- وهل كان محمود عبد اللطيف بالشخص الجبان ؟
- لا أظن .. كان رحمه الله شجاعا جريئا ، ولكنه لم يطلق النار على عبد الناصر .
- وهل سألت أحدا من الإخوان عن طبيعة هذا الحادث ؟
- أثناء وجودى بالسجن الحربى وكان هناك ضابط اسمه جمال القاضى يقوم على تعذيب الإخوان فى ذلك اليوم ، استطعت أن أسأل الحاج صالح أبو رقيق بصفته أحد كبار الإخوان .. وكان يومها صالح أبو رقيق حزينا وقال لى : والله ياأخ سعد أنا لاأعرف شيئا عن هذا الموضوع ولا أتصوره ، والموضوع عندكم ياإخوان امبابة حسبما نسمع والله أعلم .

وسألت أيضا الأخ عبد العزيز كامل الذى أخبرنى أنه لايعرف شيئا عن هذا الموضوع على الإطلاق ولا يتصوره أيضا ، وقال لى أيضا : هل جُن هنداوى ومحمود ؟

الحكم بالإعدام

قدم للمحاكمة أمام محكمة الشعب الدائرة الثانية برئاسة صلاح حتاتة ، واستغرقت محاكمته أكثر من ساعة قليلا . وعندما وقف المدعى يطالب برأسه احتج من داخل القفص :

- إيه ياأخينا .. هى راس « فجلة » ؟

وانتدبوا له محاميا لمزيد من إثبات التهمة ضده ، وحكموا عليه بالإعدام هو وأربعة معه السيد الريس ومحمد مهدى عاكف وعلى نويتو وصلاح عبد المعطى .

وتلقوا الحكم بهتاف الإخوان بعد سماعهم بالحكم ..

الله أكبر ولله الحمد ..

لا إله إلا الله محمد رسول الله .

عليها نحيا وعليها نموت وفى سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله .

الله غايتنا .

والرسول زعيمنا .

والقرآن دستورنا .

والجهاد سبيلنا

والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا .

وظلوا يرددون الهتاف طول الطريق من المحكمة إلى السجن ، حيث أودع كل واحد منهم زنزانة انفرادية ، واتفقوا عندما يأتون للتنفيذ ، أن يطرق أول واحد على الحائط ليشعر الآخرين فيستعدوا للقاء الله .

وكانوا قد جاءوا من المحكمة مع الآخرين الذين حكم عليهم بغير الإعدام .

وكانت أقل عقوبة فى ذلك اليوم هى عشر سنوات .

وفى السجن الحربى كان الاستقبال .

وكان التأديب على الهتاف فى قاعة المحكمة وأثناء الطريق .

ثم بدءوا يصنفون أصحاب الأحكام .

وكان هناك شاويش كريه اسمه ياسين وهو الذى يتولى هذا.

وبدأ بتحديد الذين حكم عليهم بالإعدام ونادى فيهم :

- اللى رقبة أمه حتطير بكره يجى الناحية دى .

وخرج الخمسة من الطابور ووقفوا متجاورين قبل أن يوزعوهم على الزنازين .

وذهبوا بهم إلى سجن ثلاثة بالسجن الحربى ، وفى هذا المساء قدموا لهم عشاء فاخراً يتكون من مكرونة وكفتة وكباب ، ومرّ عليهم ضابط وسألهم :

- هل لأحد منكم من طلبات فى حدود المعقول ؟

وقال له سعد :

– كان لى مصحف فى السجن الكبير أريده لأكتب عليه إهداء لابنى فيتذكرنى .

ورفض هذا الطلب ، ثم أخذوهم إلى الشفخانة وأخذوا ملابسهم كلها ، وسلموا لهم ملابس الإعدام ، ثم أودعوهم منفردين .

الأشغال الشاقة المؤبدة

وفى تلك الليلة التى عرف فيها أن حكم الإعدام سينفذ فى الصباح ، والتى زاره فيها على صبرى وجمال سالم حدث بعد أن انصرفا بمدة أن سمع جلبة فى خارج الزنزانة وفتح الباب وظن أنه التنفيذ . فوجد أن الذى يقف أمام الزنزانة هو محمد مهدى عاكف وفى يده علبة شيكولاته ، وقدم له واحدة منها ، وقال له : لقد جئت من المكاتب ، سمح لى أحمد أنور أن أتكلم مع والدتى ، وأرسلت إلىَّ علبة شيكولاته ، وأخبرتنى أنه قد تم تخفيف الحكم اللحظة إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، لظروف لايعلمها أحد .

وبعد ثلاثة أيام رحلوهم إلى سجن مصر ، وبعد ذلك إلى ليمان طرة .

وهناك بحث عنه حسن الهضيبى وسأله عن طبيعية هذا الحادث وماهى معلوماته عن ذلك ، وقص عليه أنه لايعلم شيئا ، وهو لايتخيل حدوثه على الإطلاق ، وأكد له حسن الهضيبى أنه لم يأمر بهذا ولايرضى به وأنها حكاية غريبة ، وسرها سوف تكشف عنه الأيام .

وقال له حسن الهضيبى يومها إنه كان لابد أن تنتهى المسألة على هذا الشكل وقد قام عليها جهاز قوى قادر ، ولكنه ليس أقوى ولا أقدر من الله .

* * *

ملاحظات حول حادث المنشية

لايوجد الدليل القاطع على أن الحادث قد دبره جمال عبد الناصر ، وقد يظهر هذا الدليل فى مستقبل الأيام ، وإنه من الصعب أن يأتى أحد الذين اشتركوا فى تدبيره ويعترف بهذا ، فهو يحمل نفسه جرم المئات الذين استشهدوا والآلاف الذين سجنوا وشردوا ، وإن كانت الدولة هى التى تصنع الجريمة فهى لاتكتشف إلا بعد زوال عهدها ، وهو يوشك أن يكون .

فعندما قتلت الحكومة حسن البنا لم يستطع أحد أن يقيم الدليل ، وقيد الحادث ضد مجهول ، فالدولة هى صانعة الجريمة وهى تستطيع أن تحمى نفسها ، ومن ثم لم تكتشف تفاصيل الحادث إلا بعد زوال العهد وإعادة التحقيق فى مقتل المرحوم حسن البنا ، واستطاع التحقيق أن يضع يده على الجناة والأداة وكافة ماتم من تفاصيل حول هذه الجريمة النكراء .

وهذا هو نفس الحال فى حادث محاولة اغتيال عبد الناصر فى المنشية .

فلايوجد حتى الآن دليل قطعى الدلالة على ارتكاب جمال عبد الناصر لهذه الجريمة ولكن توجد بعض القرائن والملاحظات والأسئلة .

١ ـــ عومل هنداوى دوير معاملة خاصة جدا فى السجن،وأثناء المحاكمة،وسمح له بشرب عشرة أكواب من الماء أثناء تحقيق النيابة .

٢ ـــ لم يثبت من التحقيق الذى جرى تحت التعذيب الشديد أن أحداً قد أمر هنداوى دوير بتدبير حادث الاغتيال .

٣ ـــ اعترف ابراهيم الطيب بكل شيء إلا المسدس الذى ادعى هنداوى أنه قد تسلمه منه ، وكان ابراهيم الطيب قد عذب عذابا شديدا وقيل إنه حمل مقتولا إلى منصة الاعدام .

٤ ـــ لم يتناول رئيس المحكمة واقعة إطلاق الرصاص فى التحقيق على الإطلاق،بل كان يحاكم الإخوا ن المسلمين ومبادئهم .

٥ ـــ يوم ٢٦ اكتوبر تم القبض على أربع أشخاص وظهر هذا فى صحف ٢٧ اكتوبر .

٦ – فى اليوم التالى اختفى الثلاثة الآخرون إلى الأبد ، وكان قد قبض عليهم مع محمود عبد اللطيف ولم يظهروا فى التحقيق إطلاقا .

٧ ــ المسدس الذى أعلن عنه يوم الحادث من نوع البرتا به مشط لايسمح بتساقط الأعيرة الفارغة منه بعد الإطلاق،وقيل إنه تم ضبطه مع المتهم،وأعلن أيضا أن هناك أعيرة نارية من عيار ٣٥, ٦ قد وجدت فارغة مكان الحادث .

٨ ــ اختفى المسدس الذى ضبط مع محمود عبد اللطيف ، وظهر مسدس آخر يوم ٢ نوفمبر بعد إعلان تشكيل المحكمة جاء به من يدعى خديوى آدم وقال إنه قد جاء على قدميه سيرا إلى القاهرة بعد أن عثر على المسدس فى مكان الحادث ، والسبب أنه ليس معه أجرة القطار فسار على قدميه وقدم له الزعيم مائتى جنيه هدية ، وجاء بالمصورين والمطبلين .

٩ ــ قال حسن التهامى إنهم قد جاءوا له بصديرى فولاذى ، وأسرعوا بإرساله إليه صبيحة الحادث،وضحك الزعيم وقال (ماخلاص الموضوع انتهى) .

١٠ ــ تم القبض على جميع الإخوان فى مصر الساعة الثامنة والنصف مساء الحادث بعد الإعلان عنه بنصف ساعة .

١١ ــ سلم هنداوى دوير نفسه صبيحة الحادث،والمفروض أنه الذى أمر باغتيال الزعيم ، ويصعب تفسير هذا إذا علمنا أنه شديد التحمس والاندفاع،وكان يعلن فى كل مكان أنه لابد من قتل عبد الناصر .

١٢ ــ غياب المعلومات عند الإخوان عن أعدائهم حكومة الثورة .

١٣ ــ توافر معلومات كاملة عند حكومة الثورة عن الإخوان .

١٤ ــ إشاعة أن المرشد معرض للاغتيال حتى يختفى فتزيد الفرقة بين فصائل الجماعة المختلفة أصلا .

١٥ ــ كل الأحاديث عن الاغتيالات والحزام الناسف وغيرها ثبت أمام المحكمة-غير الطبيعية الذى يقوم على رئاستها مجنون-أنها مجرد أحاديث وأفكار محل دردشة وألبست ثوبا قانونيا وصارت تهما .

١٦ ــ لم يعترف واحد فقط أن له أية علاقة بالحادث .

١٧ ــ انحصر الحادث فى شخصين هنداوى دوير ومحمود عبد اللطيف .

١٨ ــ صعوبة وصول محمود عبد اللطيف إلى الصف الثانى فى ميدان المنشية حيث تمتلىء جميع الصفوف بالمرتزقة والأفاكين وهذا تقليد يسير حتى الآن .

١٩ ــ لماذا لم يتقدم الى الشهادة الذين قاموا بالقبض على محمود عبد اللطيف ليلة الحادث ؟

٢٠ ـــ لماذا لم يظهر ذلك الذى صرخ بأعلى صوته وظهر صوته فى التسجيل « واحد تانى اللى ضرب » .

٢١ ـــ لماذا ظهرت بقعة حمراء على صدر عبد الناصر الزعيم عقب الحادث وقيل إن سببها قلم حبر أحمر ؟

٢٢ ـــ إن كانت المحاكمات بسبب محاولة اغتيال الزعيم لماذا ينحصر الموضوع فى هذه النقطة فقط ؟

٢٣ ـــ أين شهود الإثبات فى القضية ؟

٢٤ ـــ ماهى الصلة التى كانت بين محمود عبد اللطيف وهنداوى دوير من قبل قيام الثورة ؟ وهل صحيح أن صلاح شادى قد قدم أحدهما أو كليهما للزعيم الخالد قبل الثورة لعمل بعض عمليات فدائية فى القنال .

٢٥ ـــ لماذا لم يستخدم الإخوان أدواتهم المعروفة فى الاغتيال،والتى أثبتت فاعليتها فى حوادث سابقة مماثلة ؟

٢٦ ـــ لماذا تم عزل هنداوى دوير ومحمود عبد اللطيف تماما عن بقية المعتقلين فى السجن الحربى بحيث لايوجد شاهد واحد ادعى أنه رآهما أو تحدث إليهما أثناء التحقيق ونظر القضية ؟

٢٧ ـــ لماذا تم الإعدام فى خلال أيام قليلة من انتهاء النظر فى القضية ؟

٢٨ ـــ ماهى وجهة نظر السفارة الأمريكية آنذاك فى هذه القضية ؟

٢٩ ـــ ما هو دور المخابرات المصرية التى قام الأمريكان على تشكيلها فى ذلك العهد وما هو تقريرها عن الحادث قبل اختفائه ؟

٣٠ ـــ كان هنداوى دوير من المعينين لحراسة المرشد العام عند بيته فى منيل الروضة قبل اختفائه ، هل كان ذلك بعيدا عن أعين المباحث والمخابرات .

٣١ ـــ لماذا تم سحب كتاب محاضر محكمة الشعب من الأسواق بعد توزيعه على نطاق كبير .

٣٢ ـــ أين المحاضر الأصلية التى قامت بها جهات التحقيق هل هى موجودة ؟ أم اختفت كمحاضر محكمة الثورة التى حاكمت قضية انحراف المخابرات عام ١٩٦٨ ؟

٣٣ ـــ ماهى علاقة محمود عبد اللطيف بالنظام الخاص وبقسم الوحدات وإلى أين ينتمى ؟ أم تنقل بينهما ؟

٣٤ ـــ هل كان حادث محاولة اغتيال عبد الناصر فى المنشية فاصلا بين عهدين بمعنى

أنه قد دانت له مصر و لم تعد هناك أية قوة أمامه بعد التخلص من الإخوان المسلمين ومحمد نجيب فى آن واحد ؟

٣٥ ــ ماهو رأى حسن التهامى وزكريا محيى الدين ومجدى حسنين وإبراهيم الطحاوى حول الحادث ؟

٣٦ ــ هل احتفظت الدولة بالأحراز الخاصة بالجريمة علما بأنها محاولة اغتيال أعظم زعيم ظهر فى البلاد العربية أم اختفت هذه الأحراز مثل مجوهرات أسرة محمد على ؟

٣٧ ــ ماهى الأجزاء المطموسة فى الوثائق الأمريكية فى الجزء الخاص عن الحادث والتى ظهرت بعد ثلاثين عاما وقد حذفت منها صفحات كاملة بحجة حماية المعلومات والعملاء ؟

٣٨ ــ هل يعرف حسين الشافعى شيئا عن هذا الموضوع ؟ ومارأيه ؟ .

٣٩ ــ أين كان حسن طلعت وأحمد صالح داود ومحمد الجزار ليلة الحادث .

٤٠ ــ لماذا قام علوى حافظ بحرق المركز العام فى نفس الوقت الذى أطلق فيه الرصاص على الزعيم الخالد ؟ ومن أين جمع الغوغاء حيث أعلن عن الحادث فى الثامنة مساء وبدأ الحريق فى الثامنة والنصف ؟

٤١ ــ هل من المعقول أن تخلو التحقيقات التى تمت أمام المحكمة من أية أسئلة عن الحادث نفسه ؟ هناك رأى يقول إن الحادث هو تصرف فردى من هنداوى دوير ، وقام به وحده وتحمل مسئوليته دون الرجوع إلى أحد من المسئولين فى جماعة الإخوان .

وأنا أستبعد هذا الفرض لعدم معقوليته ، فلو كان الأمر كذلك لجرى التحقيق على نحو يختلف ولكان للمحاكمات شكل آخر .

وأنا أرجح أن هذه الواقعة قد تمت بالتفاهم بين هنداوى و أجهزة الدولة فى ذلك الوقت . والذى يمكن أن نبرئه من هذا التواطؤ هو محمود عبد اللطيف ، ولكن بنسبة ضئيلة جدا ، فليس بين أيدينا إثبات لما دار بينهما من أحاديث قبل الحادث .

وليس من السهل الجزم أن الحادث كان مدبرا من ألفه إلى يائه أم أن المقادير ألقت بهنداوى فى يدالمخابرات ثم رسم السيناريو بعد ذلك بعناية وإحكام ؟

أم أنه كان مزيجا من الاثنين معا ؟

ولكن المؤكد أنها حادثة ضخمة لم تأخذ أقل حظ من العناية فى التحقيق واستكمال شكل المحاكمة مما يؤكد أو يرجح أنها مدبرة ومعدة .

والمتتبع للحوادث من ٢٩ مارس عام ١٩٥٤ حتى ٢٦ أكتوبر عام ١٩٥٤ وهو تاريخ الحادث يتأكد من ذلك أو يغلب الظن .

ويوما ما سوف يفتح باب التحقيق باستفاضة حول هذا الموضوع شأنه شأن أى جريمة ارتكبتها دولة ما ثم بادت ، وجاءت دولة بعدها وفتحت ملف التحقيق وأظهرت كل ماكان مخفيا .

* * *

ولعلنا لاننسى أن الشخص الوحيد الذى مثل أمام محكمة الشعب وعومل معاملة جيدة غريبة هو هنداوى دوير وتلاه فى حسن المعاملة محمود عبد اللطيف بعد الاعتداء الوحشى عليه ليلة الحادث .

ولم ينج أحد من هزء وسخرية جمال سالم وإهانته حتى المرشد العام نفسه-على مكانته العظيمة فى نفوس المسلمين-لم يسلم من إهانة جمال سالم ، وسمعت أنه طلب منه المغفرة والصفح قبل أن يموت .

والآن يقف الظالم والمظلوم بين يدى العادل المنتقم .

* * *
* *
*

الفصل الحادى عشر

" وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون "

(حول ثورة ٢٣ يوليو)

كان عدد أعضاء مجلس قيادة الثورة تسعة ضباط فى مبدأ الأمر

تمهيد

لاشك أن تطور الحكم من أيام محمد على حتى أيام ما قبل الثورة كان يغرى الناس بالتغيير إلى الأحسن .

وقد فتح التطور شهية الجماهير إلى مزيد من الحرية ، ولم يكونوا يعلمون أنهم وصلوا لدرجة لن تسنح لهم بعد ذلك ، قبل قرن من قيام الثورة .

فقد نقلت وأيقظت مدافع نابليون الشرق الإسلامى من غيبوبة النوم إلى شمس الواقع ، فى زمن كانت فيه الخلافة العثمانية قد أخذت شمسها إلى المغيب .

وكان الغرب الذى يجهز على ما تبقى من روح الإسلام الخابية فى الآستانة يغذى الروح القومية فى العرب الجهلاء ، الذين سرعان ما قاموا يقلدون الأوروبيين فى نشاطهم القومى فى القرنين الثامن عشر و التاسع عشر ، وأنشئوا الجمعيات السرية والغرض منها التخلص من الخلافة والقضاء عليها بأمل ظهور الدولة القومية المستقلة عن سيادة الإسلام .

وكان يمكن أن تتجه همتهم إلى إصلاح الخلافة والبقاء على الترابط الإسلامى مع روح جديدة ورأس جديد يحكم هذا العالم ، وذلك ما كانت أوروبا تحول بين المسلمين وبين تحقيقه بإفساد عقولهم عبر التلاميذ ، والتقليد الأعمى ، والقفز مثل القردة فوق الأشجار . والتلويح لهم بالإبهار المادى والتقدم المدنى الذى يمكن أن يكونوا عليه لو تخلصوا من بقايا الإسلام .

وكانت الروح الإسلامية لم تمت فى نفوس طلائع من المسلمين العرب ، وكانت أشد ما تكون فى مصر ، رغم كثرة التلاميذ والمدربين الذين تعلموا فى أوروبا وجاءوا يبشرون بدين جديد هو الديمقراطية .

ورغم اختلاف الديمقراطية عن منهج الإسلام إلا أنها كانت مركبا مناسبا يمكن أن يصل بالطلائع الإسلامية إلى تطبيق الإسلام ، وتعويض الخسارة التى نجمت عن سقوط الخلافة العثمانية .

وزادت حدة الشعور الدينى فى مصر بعد سقوط الخلافة ، ووصلت أوجها فى السنوات التى سبقت قيام ثورة ٢٣ يوليو .

وصار تحقيق الحلم الإسلامى على مرمى قوس .

وكان هذا كله تحت عين وبصر الغرب الذى يرصد كل شىء .

* * *

كان الاحتلال الإنجليزى لمصر عام ١٨٨٢ نقطة انطلاق للعلمانية الحديثة فى مواجهة الإسلام الذى صار يفرض وجوده على المجتمع

فقد أستطاع الإنجليز أن يدعموا هذا الاتجاه دعما حقيقيا ، يتمثل فى دفع أصحابه من الذين تعلموا فى مدارسهم إلى الصدارة فى المجتمع ، ووضعهم فى المناصب والوظائف العليا .

وصاروا يطوقون المشايخ والعلماء فيبعدونهم عن أماكن التأثير والتأثر ، ويضفون عليهم شكلا يعزلهم عن المجتمع ، فيصعب عليهم قيادة الناس ، الأمر الذى يُصعِّب وجود قيادة دينية تقود الجماهير إلى تحقيق غايات إسلامية لاتزال راسخة فى الضمائر والنفوس .

وكان الاحتلال بقوته بمثابة تكريس للجهود التى بذلت من قبل .

جهود بذلها محمد على باشا عندما رأى أن لا أمل له فى ارتقاء كرسى الخلافة فشجع على البعثات والتعلم فى فرنسا وأوروبا ، موافقا على أقوال الخبراء الأجانب من ضرورة فصل الدين عن الدولة ، وبذا يتحقق الأمل أمام نظره فى الاستقلال عن الدولة العلية .فالتراث الإسلامى الذى تكون منذ قرون لايسمح له فى ذلك الوقت بتحقيق استقلال يكون له الصبغة الدينية فى عالم لاتزال الخلافة العثمانية تحكمه برمزها الذى تمثله .أما الاستقلال عن طريق فصل الدين عن الدولة فإمكانيته موجودة رغم صعوبته .

وسار محمد على شوطا طويلا فى هذا الطريق .

وبعد فترة جاء إسماعيل .

وكان مشروع الاستقلال عن الدولة العلية قد أخذ شوطا طويلا ، وقد تكونت الكوادر العلمانية التى تدافع عنه . من خلال وجهة نظرها التى تكونت عبر حملة « التغريب » التى أخذت سنين عديدة . وهى فى نفس الوقت تدافع عن مصالحها التى تكونت فى هذه الحقبة من الزمن .

ثم جاء جمال الدين الأفغانى على قدر .

ونادى بفكرة الجامعة الإسلامية ، وألقى بشعاراته التى نسيها المسلمون . وأكد أهمية

الاحتفاظ بالهوية الإسلامية وعدم طمسها ، ودعا إلى عودة المسلمين إلى ذواتهم . ولقيت دعوته نجاحا واسعا ، وتبعه تلاميذ كثيرون .
ثم جاء الاحتلال بعد أن تم طرد جمال الدين الأفغانى من مصر . وأخذت المقادير تلقى به من بلد إلى بلد مدافعا ومناديا بفكرة الجامعة الإسلامية حتى استقر به المقام فى الآستانة ، حيث استبقاه السلطان إلى أن مات فى ظروف غامضة ، ولا نبرىء اليهود من الجراحة التى أجريت فى فكه واستؤصلت أثناءها قطعة من لسانه ، فهم يمهدون لوطن قومى فى فلسطين ، وهو العقبة الكئود ، وهو الذى يشجع السلطان على عدم السماح بهذا .

وشجعت بريطانيا العظمى البعثات إلى إنجلترا لخلق جيل جديد يتربى على الثقافة الإنجليزية ، لطمس معالم الثقافة الفرنسية التى أخذت وضعها ومكانها أيام الخديوى إسماعيل .
ومع ذلك فقد تعاونت الثقافتان على خلق جيل جديد قد انقطعت جذوره بالإسلام إلى حد بعيد ، هذا إذا علمنا أن المسيطر فى الجانبين هم اليهود ، وأن لديهم مخططا يستهدف طمس الهوية الإسلامية فى منطقة قد استقر رأيهم على تكوين وطن قومى فيها .

وكان لابد من تشويه الرموز الإسلامية والتشكيك فى آفاقها وأهدافها ، مثل اتهام جمال الدين الأفغانى بالماسونية وذلك لتفريغ كافة ما يدعو إليه من محتواه . وإشاعة أنه يتعاطى الخمر وله بعض الصلات النسائية المشبوهة ، على عكس ما شهد به كل من رافقه وزامله وعايشه وتتلمذ عليه ، وبغض النظر عن نشاطه العظيم الذى شمل أقطار العالم من أجل إيجاد موضع لقدم لدولة إسلامية جديدة تخلف الدولة العلية العثمانية التى آذنت شمسها بالمغيب .

وكانت مصر هى الهدف الرئيسى فى هذه المخططات العلمانية الصهيونية المتناقضة مع الإسلام وأهدافه ، فمن خلالها يسهل السيطرة على عالم العرب والإسلام .
وكان الطرح العلمانى فيها هو الوقاية من الإسلام ، فى الوقت الذى يمهدون فيه لجمعية الاتحاد والترقى لتأخذ مكانها على منبر الإسلام فى تركيا .
وقد واكب هذا سيل من المهاجرين الشوام من المسيحيين واليهود ، ومعهم عادات

وتقاليد جديدة ، وآفاق غربية يطرحونها على مجتمع الذوات الذى بدأ ظهوره فى أواخر عهد إسماعيل ، وتكرس وصارت له بنية أساسية مع تأكد الاحتلال البريطانى .

وبدءوا يشجعون المرأة على الخروج من بيتها ، وظهرت مهنة « الحياكة » وتفصيل الملابس ، وكان القائمون عليها يعملون ضمن مخطط مرسوم .
فعند « الخياطة » الشامية بدأت عملية إفساد المرأة المصرية التى تربت على الإسلام ، وظهرت فكرة السفور وترك الحجاب .

ثم جاء قاسم أمين بكتابيه تحريرالمرأة والمرأة الجديدة وطبلوا وزمروا له ، وللإعلام وقع السحر فى النفوس ، وصارت أفكاره مثلا يحتذى ، ومن خلال تعرية المرأة تحت شعار تحريرها يمكن فصل الدين عن الدولة فى بلد كمصر إلى الأبد .
ومن ثم تنجو المصالح الغربية واليهودية ، وتتكرس تبعية الشرق للغرب إلى قرون لا يعلم مداها إلا الله .

وتكون جيل من تلاميذ الغرب قذ أخذوا أو أعطوهم مكان الصدارة فى مجتمع قد فقد هويته وغرق فى بحر الحيرة ، وبخاصة عندما سقطت الخلافة العثمانية ، وقد فقد علماء الأزهر حظوتهم ومكانتهم فى نفوس الجماهير ، وصار تبجيلهم أو إظهار احترامهم ما هو إلا كنوع من الاحتفاظ بتقليد قديم فى سبيله إلى التبدد أو الانتهاء مع الزمن القريب .

واستطاعوا – الغرب يقوده اليهود – أن يخلقوا فى مصر طبقة وضعوها فى أعلى مكان قد شوهت تشويها بشعا ، فهى لاتدين بالإسلام كنظام حياة ، وتدعو إلى الإصلاح من خلال أفكار ومبادىء مناهضة تماما للدين ، بل وتعلن فى بعض الأحيان أن الدين الإسلامى هو سبب تخلف هذه البلاد ، وأن الطريقة الوحيدة للنهوض هى طرحه جانبا والسير فى الطريق الذى سارت فيه أوروبا أيام عصر النهضة ، عندما فصلت الكنيسة عن الدولة ، وبغض النظر عن اختلاف طبيعة الكنيسة ومبادىء الدين الإسلامى .
وكأنما أرادوا أن يقولوا للمصريين ومن خلفهم المسلمين إن تخلفكم يساوى أربعمائة عام حيث بدأ عصر النهضة فى أوروبا ، وأرادوا أن يقولوا أيضا إن الخلافة العثمانية الإسلامية هى التى أودت بكم إلى الحال التى أنتم عليها الآن ، ومن ثم فلابد من

قطع الطريق من أوله ، وبيننا وبينكم أربعمائة عام من التقدم ، نكون نحن أوصياء عليكم ، وحسب اجتهادكم معنا قد ننجح وقد لاننجح ، و الأمر يتوقف عليكم وعلى قدراتكم على التقاط التمرينات وسرعة التدرب على لفظ الدين من نفوسكم وحياتكم .

ولم يتمكن هذا المد العلمانى الذى صنعه الغرب فى العاصمة القاهرة أن يصل إلى الريف المصرى ، لحصانته الطبيعية ضد الكفر بصوره المختلفة وأسمائه المتعددة . وكان الريف المصرى هو الحماية الحقيقية للمجتمع المصرى من ضياع كل معالم الإسلام فيه ، وظل يفرخ ويصدر رواد حركة التمسك بتعاليم الإسلام ، مع الأخذ بأسباب النهضة الحديثة من علوم وفنون أصلها إسلامى النشأة . وفى الربع الثانى من القرن العشرين اشتد الصراع بين المسلمين والعلمانيين ، وتطور هذا الصراع بظهور حركة الإخوان المسلمين فاستقطبت إليها كل العناصر الرافضة للكفر والعلمانية والتبعية للغرب واليهود .

وظهر نجاح التيار الدينى عندما أجبر قادة الفكر فى مصر - الذين تربوا على المدرسة الغربية صاحبة النزعة فى تكوين جيل جديد يتهيأ لعالم مختلف يصنعونه فى البلاد التى تهاوت مع سقوط الخلافة - على أن يتحولوا فى كتاباتهم إلى الإسلام .

وكانت ظاهرة تستحق التأمل والنظر والتفكير .

فقد عزفت معزوفة جديدة هى الإسلام .

واستمع الناس إليها فى شغف شديد ، فهى تتناسب مع مافى وجدانهم من أصالة الدين وعمق التراث المتوارث عبر أجيال طويلة .

وكتب محمد حسين هيكل حياة محمد كصدى لاتجاه القراء .

واضطر كاتب كبير مثل عباس العقاد أن يكتب عبقرياته الإسلامية عندما وجد قراءه وجمهوره ينفض عنه .

وكذلك فعل طه حسين وغيره ، حتى توفيق الحكيم استجاب لهذا المد الذى لايمكنه تجاهله ، فكتب مسرحية محمد« صلى الله عليه وسلم » .

وبدأت حركة التحرر الوطنى التى كان الإنجليز يشجعونها لتكريس انفصال أصحابها عن الإسلام ، مع غرس مفاهيم جديدة تحمل طابع الوطنية والقومية ، وكل الأفكار التى تركتها أوروبا منذ سنين . بدأت هذه الحركة تأخذ طابعا دينيا جهاديا يستمد

غذاءه وعطاءه من الإسلام ، وكانت المعركة على أشدها فى نهاية الربع الثانى من القرن العشرين بين المسلمين وبين العلمانيين وسائر القوى المعادية للإسلام .
وكان لابد من حسم الموقف أو علاج الأمر على صورة تحقق ما هو مطلوب ومرغوب .
وجمع السكارى والمخمورون مع المؤمنين المسلمين فى تنظيم تمت سرقته من جماعة الإخوان المسلمين هو تنظيم الضباط الأحرار .
وأحكمت الخطة لضرب الإسلام فى مقتل .

مقدمة قبل النتيجة

قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بمجموعة من الضباط ذوى النزعات المختلفة ، تسيطر عليهم مجموعة تنتمى إلى الإخوان المسلمين ، على رأسها جمال عبد الناصر . وكانت أحلام جمال عبد الناصر فى الحكم غامضة ولا يعرف الطريق إليها .
ولم يكن فى بال أحد منهم أن يمضوا طويلا فى طريق السيطرة والتمكن من مصر .
كانت غاية أحلامهم أن يوضعوا فى مصاف الأبطال الذين خلصوا البلاد من ملكية فاسدة ، وإقطاع كان قد بدأ طريقه إلى الظهور .
كان هذا غاية مايحملون به ويطمعون فيه !

ولم تكن لديهم خطة مدروسة أو جهة نظر محددة أو غير محددة ، وكل ماكانوا يفكرون فيه هو الانقلاب خشية الاعتقال والمحاكمة بعد أن عرف سرهم .

حتى الملك لم يكونوا يفكرون بشأنه حتى أشار عليهم الإخوان بخلعه وطرده .

والذى يقرأ الخطاب الذى وجهه محمد نجيب للملك يجده خطابا يمكن أن يوجه للحاكم فى أى وقت منذ قامت الثورة حتى الآن :
« من الفريق أركان حرب محمد نجيب باسم ضباط الجيش ورجاله إلى جلالة الملك فاروق الأول :

إنه نظراً لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب ، حتى أصبح كل

فرد من أفراده لايطمئن على حياته أو ماله أو كرامته ، ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك ، حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير ، ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين وماتبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة ، وماترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر ، مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة ، وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى وفجر من فجر ، وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

لذلك قد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ م والرابع من ذى القعدة سنة ١٣٧١ هـ) ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه والجيش يحمل جلالتكم كل مايترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج »

توقيع : فريق أركان حرب محمد نجيب

ونقلت هذا البيان لصلاحيته لكل زمان ومكان !!

* * *

وفوجىء الضباط بأن كل شيء على مايرام ، والقوة الأمريكية تبارك خطواتهم وكان مهندس القوانين الذى دفع بهذا القطار الجامح إلى أعلى مكان فى السلطة هو سليمان حافظ بقسم الرأى فى مجلس الدولة ، وكان لهذا المجلس فى ذلك الزمن شأن عظيم . فهو قدس الأقداس فى عالم القوانين والدستور ولايجوز ، دخوله لغير كهنته وسدنته .

ومازال سليمان حافظ يفتل لهم بالذروة والغارب كما يقول العرب حتى أدخل العسكر إلى قدس الأقداس وضربوا رئيسه بالحذاء .

وقد يلحظ القارىء العزيز أننى أستخدم كلمة « الحذاء » كثيراً ، والسبب فى هذا أنه منذ قامت الثورة كان « الحذاء » أكثر الأدوات استخداما فى الإقناع وتمرير القوانين والقرارات .

وكان مفعوله سحريا عجيبا ويأتى دائما بنتيجة حاسمة !!
ولايزال !
وتشكل نظام وصاية مؤقت من الأمير محمد عبد المنعم رئيسا ، وعضوية بهى الدين بركات باشا والقائمقام رشاد مهنا الذى عين وزيرا للمواصلات لمدة يوم واحد حتى يتلاءم هذا مع الدستور ، الذى كان لايزال محترما وله اعتباره .
ويحكى لى القائمقام رشاد مهنا فيقول :
– الشعب المصرى قد تعود عبادة الفرعون ، وإن لم يجده فإنه يخلقه ، ولو حكمه قرد فهو مقدس وإله عندهم . ولاأدرى من أين جاءته هذه الصفة الخبيثة . وكيف تسنى لمجموعة من الضباط غير المتعلمين أن يتحكموا فى كل شىء بمصر حتى كبار الساسة والمفكرين ؟ لقد كنا يوم قامت الثورة ضعافا نخاف من كل شىء ونعمل حسابا لكل مخلوق ، ولكن .. أحكى لك قصة ..
عندما عينونى وزيراً للمواصلات حتى يمكن لى أن أكون عضوا فى مجلس الوصاية المؤقت على الملك أحمد فؤاد الثانى حسب نص الدستور بأن يكون عضو المجلس وزيرا على الأقل ، وعينت وحضرت اجتماع مجلس الوزراء مرة واحدة . ودخلت المجلس وأنا مضطرب وقلق ، فسوف أجلس مع أساطين السياسة والحكم الذين لم أحلم يوما بأن ألتقى بهم ، فمابالك أن أكون زميلا لهم ؟

وكنت العسكرى الوحيد فى هذا المجلس ، وعينت للسبب الذى ذكرت ولم يكن كثير من الوزراء يعرف هذا ، ولكنهم تصوروا أن السيد الجديد يزحف إلى السلطة .

وفوجئت بالمجلس الذى كان قد أخذ مكانه على منضدة الاجتماع ، وكنت قد تأخرت قليلا ، فوجئت بأعضائه يقفون احتراما ، ولم يجلس واحد منهم حتى جلست وأنا فى حالة من الدهشة وعدم التصديق ، وتصورت أن شيئا قد حدث قبل أن آتى وجلست أتفرج على باشوات مصر وحكامها العظام ، وأنقل عينى من هذا إلى ذلك ، وكلها أسماء لمعت فى سماء مصر ، ووجدتهم هم أيضا يتفرجون علىّ كأنى مخلوق غريب قد جاء من كوكب آخر .

وبدأ الاجتماع ، ووجدت الوزراء يسألوننى الرأى فى مشاكل تتصل بوزاراتهم .

فى الزراعة والصناعة والاقتصاد وكل شىء ، وأنا أكاد لاأقول كلمة واحدة ولا أعرف ماأقول . فثقافتى بجانب هؤلاء بسيطة جدا جدا . أنا حاصل على الشهادة التوجيهية ، ودراستى فى الجيش شىء لا معنى له وخصوصا إذا كان الأمر له صلة بالحكم والسياسة .

وانتهى الاجتماع وخرجت .

و فوجئت بالوزراء يتراجعون ويفسحون لى مكانا للخروج أولا .

وكان الصحفيون !

وكما قلت لك قد عينت وزيرا للمواصلات ، وكان هذا موضوع الأسئلة ..

وليست الأسئلة بالصورة التقليدية ، ولكن فيها إقرار بأننى عبقرى الزمان الذى جئت وفى رأسى فكرة لحل كل أزمات المواصلات وسوف يتم هذا قبل غروب شمس هذا اليوم .

وتعجبت وظننتهم أول الأمر يسخرون منى ، ولكنى وجدتهم جادين .

فقلت لهم :

– ياجماعة أحب أن أخبركم بشىء .

وأرهفت الآذان وسنت الأقلام ومندوبو الإذاعة يزاحمون بما فى أيديهم من ميكروفونات لتسجيل التصريح الخطير الذى سأنطق به . وساد الصمت ، وارتبكت وزاد من ارتباكى أننى وجدت الوزراء الذين لحقوا بى كانوا هم أيضا ينتظرون تصريحى الخطير وقلت :

– يا جماعة أنا كل علاقاتى بالمواصلات أننى أستعمل القطار عند ذهابى إلى الإسكندرية .

وارتفعت صيحات الاستحسان بين دهشتى ، فقد تصوروا أن الكلام فيه نوع من الألغاز والتورية ، وماقصدت شيئا من هذا قط .

وفاجأنى سؤال من صحفى كبير :

– والتليفونات يا معالى الباشا ؟

وقلت له :

– ماذا عنها ؟

فأشار بيده إشارة الفاهم الواثق العالم ببواطن الأمور يعنى إيه خطتك ؟

وقلت له :

– صلتى بالتليفون هى نفسى صلتى بالقطار .
والكل يكتب بحماسة شديدة وعلامات الاهتمام بادية على وجوه الصحفيين والوزراء أيضا ، ولعلهم كانوا يبحثون خلف الكلمات ، وليس وراءها غير جهل حقيقى بموضوع المواصلات وكل مايتعلق به ، وتشجع واحد وسأل :
– ماذا تعنى يامعالى الباشا ؟
– أعنى أننى أتحدث فى التليفون كلما اقتضى الأمر ذلك .
وتعالى التهليل والاستحسان .
ألا يصلح أن يكون هذا مشهدا فكاهيا فى مسلسل تليفزيونى ؟
وهذا التعليق من عندى .
أما رشاد مهنا فيكمل :
– وخرجت من مجلس الوزراء ولم أعد إليه بعد ذلك أبدا .
وقد صدق رشاد مهنا : الشعب هو الذى يصنع الفرعون !
والشعب أيضا هو الذى يقدر على إنزال الفرعون من فوق عرشه !
وهذا دور يشارك فيه الصغير والكبير على حد سواء فى الأولى أو الآخرة ، وللآخرة خير لك من الأولى .

* * *

كان اتفاق الإخوان مع جمال عبد الناصر هلاميا غير محدد بأشياء قاطعة مبينة اللهم إلا الأمانى الشفوية والتعهدات بالحكم بما أنزل الله وقراءة الفاتحة .
وبعد نجاح الحركة وجد أن الأمر أكبر من أن ينساق فيه وراء الإخوان بشكل تام ولكن لابأس من أن يجتاز بهم بعض الحواجز وقد فعل .

جاءوا بعلى ماهر رئيسا للوزراء ، طردوا به الملك ، تجاهلوه وأصدروا تصريحات تخالف رأى الحكومة مثل تحديد موعد انتخابات مجلس النواب فى فبراير ، ثم اعتقال عدد من السياسيين دون الرجوع إليه وهكذا .
وكان مجلس قيادة الثورة يجتمع دون جدول أعمال !
فكل شىء فى مصر ينظرون فيه ويصدرون قرارات دون دراسة أو تمحيص
وكان أمامهم نظام حكم ديمقراطى متكامل ومقدس فى نظر الجميع ، والدستور على مافيه من عيوب وثغرات لا يمكن لأحد أن يمسه أو يقترب منه .

ولكن بدأت حبات العقد تنفرط واحدة بعد الأخرى .
وبدأ الجيش يتغلغل فى كافة الحياة المدنية فى مصر ، وظهر مندوب القيادة فى ملابسه الكاكية فى كل موقع من مواقع العمل .

واستقال على ماهر ، وشكلت وزارة برئاسة محمد نجيب أول عسكرى جاء إلى هذا المنصب بعد محمود سامى البارودى فى العصر الحديث .
وخرج على ماهر آخر حاكم مدنى فى مصر فى العصر الحديث .
وسكت الإخوان حتى تنتهى معركة الضباط مع الأحزاب التى انتهت بعد مناورات سريعة ، وأعلن حل الأحزاب .

وأخذ محمد نجيب شعبية هائلة ، فابتلع الناس كل مايحدث من تجاوزات .

ولم يكن يوجد فى مصر قوة مؤهلة للحكم باستثناء الإخوان المسلمين الذين قامت الثورة بهم ومن أهم أهدافها القضاء عليهم ولو لم يعلن ذلك صراحة .
وكان لابد لها من القضاء عليهم ، وأجّلت ذلك إلى حين .

نتيجة بعد المقدمة

فى الوقت الذى كان فيه المجاهدون من الإخوان فى سجون مصر المختلفة يعذبون ويفتنون ، بعضهم يكسر الحجارة فى محاجر « طرة » حتى يكاد يسقط موتا من الإرهاق والتعب والمرض ، وبعضهم ضرب ضربا جماعيا بالرصاص لمجرد المطالبة ببعض الحقوق المشروعة لأى سجين ، ومن ترك وبه نفس من حياة أكمل الجند عليه بالهراوات حتى فاضت روحه ، ودفن دون أن يشيع .

وفى الوقت نفسه كان اليهود يدرسون الخطط والمسالك ، ويرسمون الخرائط ويجمعون كل مايمكنهم من معلومات حتى يقدروا على المصريين فى حرب قادمة سوف تهيىء لها قيادة فاسدة حمقاء شريرة ، وهم على يقين من أن هذا سوف يكون ، مما يرونه من علامات .
كان جنرالات الثورة يتحكمون فى البلاد أولئك الذين ارتدوا أردية ليست لهم ، فما أسهل أن تطلب من حائك أن يصنع لك بدلة لواء أو مشير ، وإذا كنت تأمن

الحساب فما من بأس عليك فى ارتدائها ، وماعليك من بأس أيضا فى أن تندمج فى الدور وأن تكون قائدا أعلى للقوات المسلحة فى بلد كمصر ، إن ساعدتك الظروف فلا يحتاج المنصب إلى خبرة أو علم .

ومن يحاسبك لو جئت بمجموعة من الصولات والمهرجين وجعلتهم قادة ألوية فى جيش أنت تعرف سلفا أنه لن يحارب ، أو أن هناك اتفاقا بأنه لن يحارب !

وكنت قد ذكرت فى البوابة السوداء أنه قد استدعانى شمس بدران بليل ، ثم سمعته يناقش واحداً اسمه عبد المنعم أبو زيد ، ويخبره أن هناك مجلسا عسكريا سيعقد له فى الغد ، وعليه ألا ينكر شيئا مما قاله فى التحقيق ، ولم أكن أفهم يومها طبيعة القصة .

وكانت هذه القضية التى أتت إلى السجن الحربى بعد الانتهاء من التحقيق معنا هناك عام ١٩٦٥ كانوا يسمونها قضية الفساد فى مكتب سيادة المشير .
ودارت الأيام دورتها .

وعرفت أن الرائد عبد المنعم أبو زيد كان صولا ويعمل سائقا للمشير وإن كان المشير نفسه كان رائدا ، فما عيب « أبو زيد » أن يترك رتبته الصغيرة ويصير رائدا أو مقدما ؟

وقد كنت أظن أن هذه الرتب التى تعلق على الأكتاف شيء يصنع فى مكان خاص كدار « سك النقود » مثلا ، وأنه ليس من السهل العثور عليها ، ثم عرفت مصادفة أنها تباع فى محل بالعباسية ،وأن فى مكنة أى مواطن أن يشترى مايشاء منها ، ويمكن له أن يتمتع فى ارتدائها – إن كانت هناك متعة – وهو يستطيع أن يعلق أية رتبة يشاء . ولكن لايخرج بها إلى الشارع فالقانون يمنع ذلك .

أما هؤلاء فلأنهم كانوا يملكون البلد والقانون ، فهم يشترون هذه الرتب من ذلك المحل الصغير بالعباسية ويرتدون « البذلات » وعليها مايشاءون من رتب صغرت أم كبرت ، وكانوا فى أغلب الأحيان لايدفعون ثمنها لصاحب المحل .
ولكن لابد من استئذان سيادة المشير ، وهو لايمانع .

ذلك المشير الذى مادخل حربا وانتصر فيها قط ، وكانت ثقافته السياسية من

ممثلة ما ليست معها الشهادة الابتدائية ، وكان يبهره كلامها ، ويقول لمن حوله من الديكة والطواويس والقوادين :

– دى على درجة عالية من الثقافة !

والمسكين لايدرى أنه هو شخصيا على درجة عالية من الجهل !

عبد المنعم أبو زيد هذا الذى رأيته فى ليلة باردة من ليالى شتاء سنة ١٩٦٦ كانت تهمته حسبما فهمنا بعد ذلك بسنين طويلة أنه سرق صورة لبرلنتى عبد الحميد مع سيده المشير ، وقد قامت بسرقة هذه الصورة السيدة الفاضلة زوجته الراقصة السابقة سهير فخرى ، وقيل إنهم سوف يبيعونها فى إيطاليا بمليون دولار !

وصارت قضية صنعتها أوهام الحشيش ، وصورت فيها الأفلام الجنسية ، وحشدت الأجهزة كل إمكانياتها للبحث عن ذلك الذى سرب خبر زواج سيادة المشير من السيدة الجليلة برلنتى ، وأنها حامل فى شهرها السادس ، ووصل الأمر إلى شعراوى جمعة الذى كلف حسن طلعت شخصيا بالتحرى . والمباحث من جهة ، والمخابرات من جهة أخرى .

ورفع الأمر إلى « الملهم » الذى حفظ التحقيق لا أدرى لماذا ؟
والصورة لاتساوى مليون مليم !
فما وجه الأهمية فيها ؟

كل الدنيا فى ذلك الوقت تعرف أن المشير عبد الحكيم عامر يشرب الحشيش ويأتى كل المنكرات ، ويفهم فى كل شىء إلا الجيش والعسكرية !

وأن قيادة الجيش المصرى قد وقفت عند رتبة « صاغ » ، وماينبغى لأحد مهما علا أن يتجاوز هذه الرتبة علما أو فناً ، بل عليه أن ينحدر حتى لايغضب سيد الجيش ، وعليه أن يزداد خبرة بمحلات شارع الهرم ، وأن يكون على دراية بآخر « صنف » نزل إلى حى « الباطنية » وهذا هو سبيل الترقى الوحيد .

رهان على امرأة

كانت تلك الليلة من ليالى الشتاء شديدة البرد عظيمة الريح ، والنداء فيها معناه الموت تحت عويل السياط ونباح الكلاب ، فمعظم من دعى بليل فى تلك الأيام لم يعد ثانية ، وظلت رفاته حتى اليوم فى تلك الأرض الممتدة بين السجن الحربى

وبين « المنصة » وسمعت ذلك الحوار الذى دار بين شمس بدران وبين عبد المنعم أبو زيد ، ولم يخطر ببالى السبب الحقيقى لمحاكمة هذا الضابط وإيداعه السجن ، وتمر السنون وأعرف أن السبب هو صورة سرقتها سيدة جليلة لسيدة جليلة أخرى ، بعد قصة عجيبة مليئة بالمغامرات .

كل رجال مصر يتنافسون فى غرام الممثلات والراقصات .

ويتراهنون !!

رئيس المخابرات : هذه تذهب مع أى واحد لقاء مبلغ من المال .

قائـد الجيـش : لاتقل هذا الكلام دى أشرف واحدة فى مصر كلها .

رئيس المخابرات : تراهنى ياافندم ؟

قائـد الجيـش : موافق . حتعرف إزاى .

رئيس المخابرات : هذا عملى ياافندم وأتقنه جيدا .

ويخشى قائد الجيش ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة أن ينجح صلاح نصر ويكسب الرهان ، فيستدعى زهرة أخت سيدة نساء العالمين ، ويحذرها أن أختها سوف تختبر اختباراً صعبا ، [redacted] لايجعلها فى موضع أشرف واحدة فى مصر .

[redacted]

ورغم التحذير فقد صورت والضابط الهمام يفتح لها سوستة الفستان ، ثم تذكرت فتمنعت ، وسرقت أختها ثلاثمائة وستين جنيها مصريا ، فى وقت كان الجنيه يساوى جنديا من الذين ماتوا على رمال سيناء من الجوع والعطش وهم يفرون أمام اليهود من هول مالاقوه ، فرادى ليس لهم قائد أو نصير .

وتزوجت برلنتى عبد الحميد من المشير وكان هذا من الأسرار التى أثبتت التحقيقات أن أحدا لايعرفها من رجال الدولة ، ولكننا كنا نعرف هذه القصة أثناء اعتقالنا فى عام سنة ١٩٦٥ ونسمع المخبرين وهم يتندرون بها .

ولما انتشرت الإشاعة بين عدد محدود تمت عمليات القبض والإحضار وعمل الكمائن وإجراء عمليات « السيطرة » والضرب بالسياط لمعرفة من الذى سرَّب خبر الزواج .

والذى سرَّب خبر زواج المشير من السيدة برلنتى عبد الحميد هى السيدة برلنتى نفسها ، لأنها صاحبة المصلحة فى إشاعة مثل هذا الخبر ، فهى حريصة أن يهابها كل

رجال مصر ونسائها ، وكيف لا يهابونها بعد سماع مثل هذا الخبر فى بلد قد سيطر عليه قانون الغابة .

وفى حفل عيد ميلاد بعش الزوجية السعيد على ترعة المريوطية حيث كانت نهاية المشير الدرامية ، ولا أحد يعرف هل قتله « الملهم » أم قتله « شماشرجيته » ظنا منهم أن هذه النهاية تريح جميع الأطراف .

وقد حضر هذا الحفل البهيج وزراء وكبراء وقوادون وفنانون وفنانات ، وكان هناك السيد الوزير رئيس المخابرات الذى خسر الرهان .

وكان المصورون . وعددهم معروف . وعدد الأفلام التى معهم عهدة ، وكل لقطة تسجل وتحصى فى سجل ولايجوز تسريب صورة واحدة لأهمية المجتمعين ، وأن حفلا مثل هذا يعتبر من أسرار الدولة العليا .

وكان زوج السيدة الجليلة الراقصة التى اتهمت بسرقة صورة المشير مع برلنتى فى مهمة عشاء مع أحد عملاء المشير من العرب ، فظنوا أو أشاعوا أنه قد اتفق معه على تهريب الصورة فى نفس الليلة .

وظهرت الصورة بعد ذلك فى دولاب فى بيت السيدة برلنتى عبد الحميد بعد القبض عليها فيما جرى من أحداث بعد مقتل المشير أو انتحاره .

الديمقراطية بعد الهزيمة

هذا هو حال الدولة المصرية فى عصر الظلام !

كل الأجهزة تسخر لمعرفة أبعاد العلاقات الآثمة ، وفى سبيل ذلك تصرف الأموال ويبذل الضباط جهدهم .

وهذا أمر طبيعى ونتيجة منطقية لدولة قد فقدت الهدف ، وليس أمام القائمين عليها غير حماية « الملهم » والمشير وهم فى حماية الله ، ولا أحد يمتد لهم بسوء ، فقد ضرب الشعب ضربا مبرحا ، بحيث يستعصى على أحد أن يتآمر أو يفكر فى الخلاص من هذا الكابوس ، إلا قلة ممن عصم الله .

وكان من الطبيعي أن ينشغل الحكام بملذاتهم وشهواتهم وكيد بعضهم لبعض والرهان على النساء . ثم التجاوز إلى الشذوذ فالجنون ، والبحث عن شيء فاجر غامض يفعلونه ، ويسخرون كل مالديهم من قدرة لهذا ، وليس هذا تجنيا ، ولكن هذا هو نشاط الإدارة المصرية فى تلك الآونة .

والأفلام الجنسية تصور خلسة للكبراء والعظماء ، والفنانين والفنانات ، ومن يقع فى طريقهم ، والأشد والأنكى عرضها فى الأسواق العالمية للبيع ، ولا أدرى هل تم هذا أم لا؟. فالظن أنها سوف تكون رديئة الصنع كسائر ماينتجون ويصنعون !

وتعذيب المؤمنين الصابرين وإيداعهم بالسجون ، والعمل على القضاء على الإسلام .
الفساد بكل مافى الكلمة من معان متدنية فى درك بعيد القرار !

وعلى شفيق يدور على المواخير والبارات ليل نهار ، بعد أن كلّ من تعذيب الإخوان وضربهم ، ثم يشرح الله صدره ويتزوج من السيدة الجليلة مها صبرى .

وصلاح نصر كان يمتلك نساء الأمة كلها ، وكل شيء ملك يمينه سداح مداح .
وهم ظلمة فجرة قادرون يعلمون مايفعلون ، ويعرفون أن هذا كله على حساب الشعب المسكين ، ولايعنيهم مصيره فى قليل أو كثير ، ويقولون فى مجالسهم هو شعب لايسير إلا بضرب الحذاء .
ويتمسحون به عندما تعوزهم الحاجة !

فالمشير الأحمق نائب السلطنة فى دمشق جاءته الأخبار أن انقلابا يدبر ، وأعطوه الأوراق بكافة التفاصيل ، وكانت السحب الزرقاء تلف عقله ووجدانه ، وذهب منتشيا ضاحكا مسطولا لايكاد يصدق ، أو يظن أن الصفيح الأصفر اللامع الذى يضعه على كتفيه سوف يفزع المتآمرين ، وأعادوه على الطائرة بعد أن جردوه من ملابسه وحلقوا شاربه .
وهنا تذكر الشعب !

تذكره عندما وجدها « الملهم » فرصة للتخلص منه ، فكتب له خطابا يستقيل فيه من منصبه ، وسبَّب الاستقالة بنزعة « الملهم » الديكتاتورية الاستبدادية ، وأنه

بعد عشر سنوات من الثورة المباركة لابد وأن يأخذ الشعب حريته التى سلبت . وكتب له النص أحد الذين ألبسهم أردية اللواءات والفرقاء وتسببوا بحماقتهم فى قتل عشرات الألوف .. وعلم « الملهم » أنه يضيع لامحالة ، فاسترضاه وقبل رأسه ، وطلب منه مجرد الانتظار حتى ينبت شاربه ويعود كما كان .

وجاء كبير القوادين للصول المشير بامرأة ذكية ذات جمال ، لأن حالته النفسية سيئة

والإخوان المسلمون فى سجن « جناح » بالواحات فى جدل مقيم وهم عظيم .. هل نحن جماعة من المسلمين أم جماعة المسلمين ؟

وفريد شنيش يجلد ويضرب الصالحين الأتقياء فى سجن قنا !

وبرلنتى عبد الحميد تخدع المشير الجاهل بكلمات غامضة تعلمتها من الشيوعيين .

رصيد أسرة محمد على

بلد قد سلك به الشيطان كل سراديبه فهو ينزف دما وقيحا ، وليس هناك من أمل فى إنقاذ حتى يأخذ الزمن دورته .

كانت سياسة الحكم تقوم على التمكين للملهم فى الأرض ، البحث عمن يناوئه والقبض على من يشتم منهم رائحة التذمر أو العداء ، وسحقهم سحقا أدبيا وماديا فلا تقوم لهم قائمة ، ويصيرون عبرة لمن أراد الاعتبار !

عندما تكون هذه هى سياسة حكومة قد تمكنت وتربعت ولا أمل يرجى فى تغييرها فينعدم التفكير فى أى إصلاح ، حتى العقلية نفسها تصبح غير مهيأة لهذه المعانى ، وينتقل هذا التصور من أعلى إلى أسفل حتى يكون الأمر فلسفة ونظاما وتوجهاً وهذه الدولة التى نشأت بعد انقلاب سنة ١٩٥٢ تعيش حتى الآن على الرصيد الذى تركته أسرة محمد على ، على كل مافى هذه الأسرة من عيوب ومثالب وماعليها من تحفظات ، وقد أوشك هذا الرصيد أن ينضب ، ومعه نضوبه سوف ينهار كل شىء على رءوسنا .

* * *

الكل يخدع الكل

تقرر فجأة فى أحد الأعوام أن يذهب السيد على صبرى رئيس الوزراء آنذاك لزيارة مزارع للأرز فى منطقة قريبة من كفر الشيخ . ولم يكن الأرز قد زرع لسبب لا أعرفه الآن ، إما لأنه لم يكن من المقرر زراعة أرز ، أو كان مقرراً ولكن لسياسة التسيب والإهمال التى شملت كل مرافق الدولة لم يتم هذا !

واجتمع وزير الزراعة بكبار مساعديه ، ليس لبحث سبب عدم زراعة الأرز ، ولكن ماذا سوف يرى السيد على صبرى عندما يذهب إلى هناك ويكتشف عدم وجود أرز ؟

وبعد عدة ساعات من اجتماع موسع اقترح أحد الخبراء زراعة نبات ضار أسمه « الدينيبة » وقال إنها « تَخْضَر » ويظهر أثرها بعد عدة أيام ، وهى شديدة الشبه بالأرز !

ولم يعلموا أنهم لو عرضوا على السيد على صبرى شجر جوافة وقالوا له أرز لما وجد غرابة فى هذا ، فذهنه مشغول فى أمور أكثر خطراً من الزراعة والصناعة فى مصر ، وقامت الدنيا وقعدت وزرعت عدة آلاف من الأفدنة (دينيبة) ، وذهب السيد على صبرى ، وصار يستمع إلى شرح الخبراء وكيف أن هذا أرز نادر ويزرع لأول مرة فى مصر ، وهو نتيجة أبحاث قسم الإرشاد الزراعى فى الوزارة ، وأنه سوف يحقق كذا ، وفى عام .. سوف يكون المحصول .. وعندما يستخدم .. سوف يصير .. وهكذا فى دوامة من الكلمات المتقاطعة غير المفهومة وسيادة رئيس الوزراء سعيد بالشرح ، وأمر بصرف المكافآت !

أهل الثقة وأهل الخبرة

وكان قد جمعنى لقاء فى الستينيات مع الدكتور محمد عبد العزيز نصر وكان يرأس مجلس إدارة هيئة لاأذكر اسمها الآن ، وكانت بحى الدقى إن لم تخنّى الذاكرة وسألنى الرجل :

ـ لماذا لاتعجبكم الثورة ؟

وقلت له :

– هذا حديث طويل ، يكفى أنها تسير بالبلاد إلى كارثة حقيقة نتيجة حكم الفرد وتسلطه ، وشرحت له فى استفاضة وجهة نظرى ، وحدثته عن أهل الثقة وأهل الخبرة ، وكانت تلك المقولة هى الشائعة فى هذه الأيام ، وقلت له إن هذا الشعار لا يصلح فى إدارة الدول وسياستها ، والثقة والخبرة لا دخل لهما عندما يحكم الشعب عن طريق ممثلين حقيقيين له .

وشرد الرجل ببصره ، وكانت له لحية صغيرة عند ذقنه وأمسك بها وقال :

– معك الحق كل الحق . هذا أسلوب ضار فى حكم البلاد ، فقد يكون من أهل الثقة عدد كبير من « الحمير » يفسدون كل شيء . وهذا مايحدث فى هذه الأيام !

وبدا عليه أنه يريد أن يحكى قصته ولكنه متردد .

وقلت له مشجعا :

– هناك ماتود قوله .

واعتدل فى جلسته وقال :

– هذا صحيح .. لقد مررت بهذه التجربة شخصيا .

– كيف ؟

– عندما فكروا فى عمل مصنع الحديد والصلب ، ذلك القائم فى حلوان ، طلبوا من كل من يعرفون أن يقدم مشروعا . وتقدمت بمشروع ضمن من تقدموا ، وكان من الذين تقدموا شركات عالمية عريقة فى صناعة الصلب فى العالم ، وعدد من أهل هذا العلم من المصريين ، ولاشك أن عدداً من غير أهل الخبرة بهذا المجال قد تقدموا بمشاريعهم أيضا .

ورفضت كافة المشروعات التى قدمت ، وقبل مشروع قدمه الضابط المهندس محمود يونس ، وهو من غير أهل الخبرة بهذا المجال .

ونفذ مشروع الحديد والصلب الذى قدمه محمود يونس ، ويبدو أنه لم يكلف خاطره بالاستعانة ببعض أهل الرأى والخبرة فى هذا المجال ، وربما قال لنفسه هى نفقات لا ضرورة لها ، والحى أبقى بالجديد من الميت .

وأقيم المصنع ، وبعد شهور حدث تصدع فى « البواتق » الخاصة بالصهر .

وأرسلوا رسلهم إلى كافة مصانع الحديد والصلب فى العالم يطلبون العون والخبرة .

وجاءهم رد من أهم هذه الشركات يقول :
إن الحالة التى وصفت فى الأوراق والصور التى أرسلت لايمكن أن تحدث بعد أن يعمل المصنع بعدة شهور !
وهذه الحالة على وجه التحديد - رغم تحفظنا على سرعة ظهورها - هناك أستاذ رسالته تدور حولها وكيفية تجنبها وعلاجها واسمه د . محمد عبد العزيز نصر أستاذ كرسى المعادن بجامعة الإسكندرية ، ونحن نستدعيه فى هذه الحالات ...

وامتلأت دهشة وأنا أقول له :

- سيادتك ؟

- نعم .

- وماذا فعلت ؟

وابتسم الرجل ثم علت ضحكته ولم يرد :
هذا المصنع الذى أقيم للحديد والصلب بحلوان بجوار القاهرة لم يكن هذا مكانه المناسب ، بل مكانه هو أسوان حيث يؤتى بالمادة الخام للصناعة ، وليس من المعقول أن تنقل جبلا عبر ألف كيلو متر ، ولكن المعقول أن يقام المصنع حيث يوجد هذا الجبل .

وقالوا إنه بنى فى حلوان واختير المكان لسببين :
الأساسى منهما أن يكون قريبا من منازل الذين أقاموه فى القاهرة ، وهم لايستطيعون ترك العاصمة والإقامة فى آخر بلد عند خط الحدود مع السودان ، حيث الحرارة الشديدة .
والسبب الثانى وهو ماأقنعوا به « الملهم » أنه ينبغى أن نحيط القاهرة بحزام من المصانع حيث التجمعات العمالية التى قد نحتاجها فى المظاهرات إذا حدث انقلاب .

وكانت حجة بالغة تتفق مع ماألهم به الزعيم الخالد !
واسألوا الآن عن مصير هذا المصنع الذى أقامه أهل الثقة وكيف موله الشعب المصرى الذى كان يظن خيرا فى ذلك الوقت ، بأصحاب البدلات الكاكية ، ويراهم مثله مطحونين يريدون الخبز .
السهم يربح فى العام ثلاثة قروش أو أربعة أو شيئا من هذا لا أذكره بالضبط

* * *

صار شعار الحكم فى مصر هو الإرهاب ، وفهم هذا كل من يقوم بدور فى الإدارة صغر أو كبر . على كل واحد أن يحفظ لسانه ويلزم بيته ، وإن سمع شيئا كتب عنه تقريرا وأرسله لمن فوقه ، ونظير ذلك فله أن يسرق إن استطاع وأن يفعل مايشاء مادام بعيدا عن السياسة ، ومادام ليس له دور غير التصفيق والموافقة .

وكان هذا مهما بالدرجة الأولى فى الجيش .
فالجيش المصرى بعد قيام الثورة توقفت قيادته عند رتبة « صاغ » وهى مايقولون عنها « رائد » فى هذه الأيام .

وأذكر أنه فى الأيام الأولى للثورة منعوا كل من هو فوق رتبة بكباشى من الذهاب إلى الجيش وسرحوهم بعد أيام .
ولم يكن مع رجال الثورة فوق رتبة بكباشى غير أحمد شوقى القائمقام ، ومحمد رشاد مهنا وأنور السادات .

وهؤلاء تمت السيطرة عليهم بطريقة أو بأخرى !
أحمد شوقى حوكم وطرد .

ورشاد مهنا قتلته الوصاية على العرش .
وأنور السادات كان ثعلبا ففهم الموقف ، فكان عندما يلتقى بالملهم يبدؤه بالتحية العسكرية رغم أنه أعلى رتبة ، مخالفا بذلك كافة الأعراف التى قامت عليها الجيوش فى العالم كله .

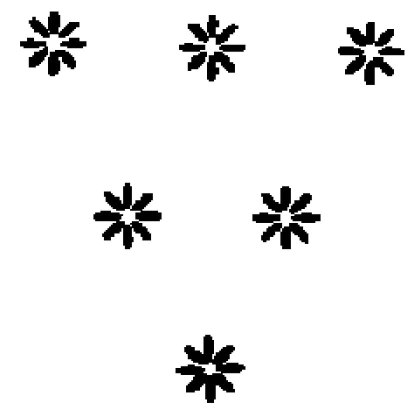
ولذلك بقى حتى صار رئيسا للجمهورية ، ثم لعن « أبو الملهم » ألف مرة بعد ذلك ، واتهمه بأنه الذى سرق الثورة منه .
فتوقف الجيش عند رتبة « الصاغ » من حيث المضمون والثقافة العسكرية والخبرة ، لأنها الرتبة التى ليس لأحد أن يجتازها .

وأذكر أيضا أنهم تركوا بعض الرتب الأكبر تعمل فى الجيش مثل واحد اسمه

محمد إبراهيم ، أخذ رتبة فريق وفريق أول بعد ذلك ، ولكنه سمح لعقله العسكرى أن يتدنى إلى منزلة أقل من رتبة « الصاغ » وهى رتبة قائده الأعلى.

تغيرت أهداف الناس وتبدلت مفاهيمهم الأخلاقية ، وربوا نشئا على الخوف والجبن والبعد عن الحياة العامة وعن الاهتمام بالقضايا الوطنية والقومية .

وتغيرت كل أهداف المجتمع ، وتبدلت كل أنماط السلوك .



الفصل الثانى عشر

"ومكروا مكرهم وعند الله مكرهم"!

الحكومة ليست فى خدمة الشعب

﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾

إبراهيم : ٤٦-٤٧

صارت الحكومة المصرية بعد هزيمتها فى اليمن أضحوكة المثقفين ، وموضوعا لنكات أهل الشارع وسخريتهم ، وبدأت عوامل التذمر فى كل مكان ، لما كان من ارتفاع الأسعار نتيجة الإنفاق الأحمق على « التجريدة » اليمنية التى أشارت كافة التقارير أنها قد منيت بفشل ، ورغم ذلك ظلوا على إصرارهم فى خداع الناس . وقد كان من شأن الحكومة الرشيدة أن تلجأ إلى الشعب فى كل مشكلة كبيرة تواجهها !

تلجأ إليه لتصب جام غضبها عليه ، وتنتقم من كرامتها الجريحة !

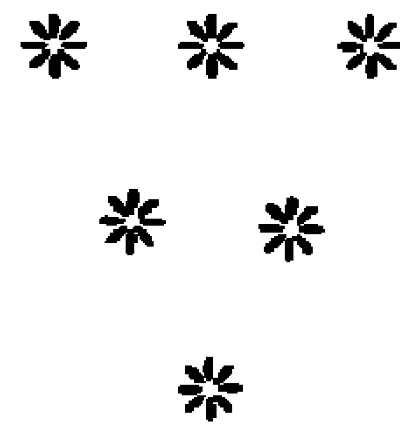
وهى تخشى دائما من الجماهير فتعمل على شغلها دائما وتأديبها طول الوقت .
وقد بدأت سياسة القمع للناس من أيام الثورة الأولى ، واستطاعت أن تقضى على كل القوى المناوئة ، ومن ثم فلم يعد أمامها غير أفراد معدودين يجمعونهم بين الحين والأخر ، ويضعونهم فى المعتقل ، ويؤدبونهم ثم يطلقونهم ، بعد أن يأخذوا رهائن غيرهم . ليظل الناس على وعى دائما من خشية السلطان ونقمته .
وعندما يزيد التذمر بين الناس يصير هذا الضرب من القمع « الفردانى » لايفيد ولا بد من ضربات قوية للشعب الغافل ، حتى يزداد حرصه على طاعة الحكومة وسماع كلامها والتسبيح بحمد الزعيم الملهم .

وأعظم إنجاز قام به الملهم فى مصر بعد أن استقر به المقام وتخلص من جميع من ساعدوه واشتم منهم رائحة المنافسة والمقاومة ، هو أجهزة الأمن القادرة المتنوعة التى تحصى كل شىء فلا يتحرك ساكن دون أن يعلموا . وبطبيعة الحال كانوا يقدمون الضحايا بين الحين والآخر ليثبتوا ولاءهم وأهميتهم .

فمن كل القطاعات كان هناك معذبون ومعتقلون ولكن بأعداد ليست بالتى تفى بالحاجة . الحاجة لتأكيد النفوذ والأهمية والسلطان ، وصرف الأموال بلا حساب لسادة أوغاد قد أمنوا العقاب .

وكانت هذه الأجهزة المتعددة منشغلة بهذا الأمر أكثر من انشغالها بأى أمر آخر .
وإن شئت فقل هو انشغالها الوحيد . فهى لا تهتم بأى شىء مما تهتم به أجهزة الأمن كالعادة فى سائر بلاد الدنيا من حفاظ على الدولة والنظام بشكل جدى يضمن الاستمرار فى إطار من الشرعية وتحكم القانون .

وكانت غاية اهتماماتها مأساوية من جانب وفكاهية من كل جانب. فهذه الأجهزة يتجسس بعضها على بعض، ويحرص كل جهاز أن يثبت للملهم أن الجهاز الآخر خائب ولايعمل، وإنهم هم حماة العرش ولولاهم لضاع كل شيء. وكانوا يتفقون أحيانا فيما بين بعضهم إذا كان الهدف واحدا والفريسة محددة، وكان من المصلحة العامة – مصلحة الأجهزة – أن يتخلصوا منها، عندها فقط يكون اتحادهم وتذهب التقارير إلى الملهم متفقة على الضحية فيبطش به.
وقد وجدوا جميعا أن من مصلحتهم ضرب الإخوان، واستجابوا للشرارة التى أطلقها شمس بدران بجهاز المباحث الجنائية العسكرية، ثم تكاتف الجميع فى نكبهم.



مذكرة مرفوعة للسيد رئيس الجمهورية لبرنامج القضاء على جماعة الإخوان المنحلة *

بناء على الأمر الصادر من السيد رئيس الجمهورية بتشكيل لجنة عليا لدراسة واستعراض الوسائل التى استعملت والنتائج التى تم الوصول إليها بخصوص مكافحة جماعة الإخوان المنحلة (تم هذا بعد نكبة الإخوان فى سنة ١٩٦٥) ولوضع برنامج لأفضل الطرق التى يجب استخدامها فى أقسام مكافحة الإخوان بالمخابرات العامة ومباحث أمن الدولة والمباحث الجنائية العسكرية وكافة الأجهزة المعنية لتحقيق هدفين أساسيين :

١ ــ إجراء غسيل مخ للإخوان .

٢ ــ منع أفكارهم من الانتقال إلى غيرهم .

وقد اجتمعت اللجنة المشكلة من كل من السادة :

١ ــ السيد على صبرى	سيادة رئيس مجلس الوزراء .
٢ ــ السيد صلاح نصر	رئيس المخابرات .
٣ ــ السيد اللواء سعد زغلول عبد الكريم	قائد المباحث الجنائية العسكرية .
٤ ــ السيد اللواء حسن طلعت	مدير مباحث أمن الدولة .
٥ ــ السيد العقيد شمس بدران	مدير مكتب سيادة المشير .

وذلك فى مبنى المخابرات العامة بكوبرى القبة ، وعقدت عشرة اجتماعات متتالية . وبعد دراسة كافة التقارير والبيانات والإحصاءات المقدمة أمكن تلخيص المعلومات التى توافرت لدى اللجنة على النحو الآتى :

١ ــ تبين أن تدريس التاريخ الإسلامى فى المدارس للنشء بحالته القديمة يربط الدين بالسياسة فى عقول كثير من التلاميذ منذ الصغر ، الأمر الذى يساعد على ظهور معتنقى الأفكار الإخوانية .

(*) للأسف كنت قد حصلت على صورة ضوئية من هذه المذكرة فى السبعينيات وعليها التوقيعات لأعضاء اللجنة المشكلة ، ولكن فقدت هذه الصورة ، واكتشفت بعد ذلك أن هذه الوثيقة طبعت أكثر من مرة فى أماكن مختلفة (المؤلف)

٢ _ صعوبة واستحالة التمييز بين أصحاب الميول والنزعات الدينية وبين معتنقى الأفكار الإخوانية ، وسهولة تحول الفئة الأولى إلى الثانية وبتطرف أكبر ، وبشكل مفاجىء ليس له مقدمات معروفة .

٣ _ غالبية أفراد جماعة الإخوان المنحلة تربوا تربية خاصة وعاشوا على وهم الطهارة ، ولم يمارسوا الحياة الاجتماعية الحديثة . ويمكن اعتبارهم من هذه الناحية « أفراد خام »

٤ _ اغلب أفراد جماعة الإخوان المنحلة أصحاب طاقات فكرية وقدرات تحمل ومثابرة كبيرة على العمل وبذل الطاقة ، وقد أدى ذلك إلى تقدم دائم وملموس فى تفوقهم فى المجالات العلمية والعملية التى يعيشون فيها ، وفى مستواهم العلمى والفكرى والاجتماعى بالنسبة لأندادهم رغم أن جزءاً كبيرا من وقتهم قد خصصوه لنشاطهم الخاص ونشر دعوتهم المشئومة .

٥ _ هناك انعكاسات إيجابية سريعة تظهر عند تحرك كل منهم للعمل فى المحيط الذى يقتنع به ويتواءم معه .

٦ _ تداخلهم بعضهم مع بعض ودوام اتصالهم الفردى وتزاورهم ، وحرصهم على التعارف بين بعضهم وبعض يؤدى إلى ترابط وثقة كل منهم فى الآخر ثقة كبيرة .

٧ _ هناك توافق وتقارب فكرى وسلوكى يجمع بينهم ولو لم تكن هناك صلة واضحة بينهم ، ويظهر هذا فى أى مكان يلتقون فيه دون سابق معرفة .

٨ _ رغم كل المحاولات التى بذلت منذ عام ١٩٤٦ م لإفهام الجميع بأنهم يتسترون خلف الدين لتحقيق أهداف سياسية إلا أن احتكاكهم الفردى بالشعب يؤدى إلى زوال هذه الفكرة رغم بقائها بالنسبة لبعض زعمائهم .

٩ _ تزعمهم لحرب العصابات فى فلسطين سنة ١٩٤٨ والقنال سنة ١٩٥١ رسَّب فى أفكار الناس صورهم كأصحاب بطولات وطنية عملية وليست دعائية فقط . ومما يحسن صورتهم أمام المجتمع أن الأطماع الإسرائيلية والاستعمارية والشيوعية فى المنطقة لاتخفى أهدافها فى القضاء عليهم .

١٠_ نفورهم من كل من يعادى فكرتهم جعلهم لايرتبطون بأى سياسة خارجية سواء عربية أو شيوعية أو استعمارية ، وهذا يوحى لمن ينظر لماضيهم بأنهم ليسوا عملاء .

من كل ما تقدم ترى اللجنة أن الأسلوب الأمثل فى مكافحة الإخوان يجب أن يشمل بندين أساسيين متداخلين وهما :

١ ـ العمل على محو فكرة ارتباط السياسة بالدين الإسلامى بكافة الوسائل .

٢ ـ إبادة تدريجية بطيئة مادية ومعنوية وفكرية للجيل القائم فعلا والموجود من معتنقى الفكرة ومن أعضاء هذه الجماعة .

ويمكن تلخيص أسس الأسلوب الذى يجب استخدامه لبلوغ هذين الهدفين فى الآتى :

أولا : سياسة وقائية عامة

١ ـ تغيير مناهج تدريس التاريخ الإسلامى والدين فى المدارس وربطها بالمعتقدات الاشتراكية كأوضاع اجتماعية واقتصادية وليست سياسية .
مع إبراز مفاسد الخلافة وبخاصة زمن العثمانيين ، وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة وإقصائها عن السياسة .

٢ ـ التحرى الدقيق عن رسائل وكتب ونشرات ومقالات الإخوان فى كل مكان ثم مصادرتها وإعدامها . والعمل على تشجيع عدم نشر الكتب الإسلامية بوجه عام وبشكل تدريجى غير مفتعل .

٣ ـ يحرم بتاتا قبول ذوى الإخوان وأقربائهم حتى الدرجة الثالثة من القرابة فى الانخراط فى السلك العسكرى أو البوليسى أو السياسى ، مع سرعة عزل الموجودين من هؤلاء الأقرباء من هذه الأماكن ، أو نقلهم إلى أماكن أخرى عند ثبوت ولائهم .

٤ ـ مضاعفة الجهود المبذولة فى سياسة العمل الدائم على فقدان الثقة بينهم وتحطيم وحدتهم بشتى الوسائل ، وبخاصة عن طريق إكراه بعضهم على كتابة تقارير ضد زملائهم بخطهم ، ثم مواجهة الآخرين بها ، مع العمل على منع كل من الطرفين من لقاء الآخر أطول فترة ممكنة لتزيد شقة انعدام الثقة بينهم .

٥ ـ وبعد دراسة عميقة متأنية لموضوع المتدينين من غير الإخوان وهم الذين يمثلون الاحتياطى لهم وجد أن هناك حتمية طبيعية عملية لالتقاء الصنفين فى المدى

الطويل .. ووجد أن الأفضل أن يبدأ بتوحيد معاملتهم معاملة الإخوان قبل أن يفاجئونا كما حدث باتحادهم معهم علينا .

ومع افتراض احتمال كبير لوجود أبرياء كثيرين منهم إلا أن التضحية بهم خير من التضحية بالثورة فى يوم ما على أيديهم .

ولصعوبة واستحالة التمييز بين الإخوان والمتدينين بوجه عام فلابد من وضع الجميع ضمن فئة واحدة ومراعاة مايلى معهم :

١ ـ تضييق فرص الظهور والعمل بشكل عام أمام المتدينين فى المجالات المختلفة ، وعلى الأخص العلمية والعملية .

٢ ـ التضييق والمحاسبة بشدة وباستمرار على أى لقاء فردى أو زيارات أو اجتماعات من أى نوع تحدث بينهم ، والنظر بعدم الرضا إلى مثل هذا .

٣ ـ عزل المتدينين عموما عن أى تنظيم أو اتحاد شعبى أو حكومى أو اجتماعى أو طلابى أو عمالى أو إعلامى .

٤ ـ التوقف عن السياسة السابقة فى السماح لأى متدين بالسفر إلى الخارج للدراسة أو العمل ، حيث فشلت هذه السياسة فى تطوير معتقداتهم وسلوكهم ، وعدد بسيط منهم هو الذى تجاوب مع الحياة الأوروبية فى البلاد التى سافروا إليها .
أما غالبيتهم فإن من هبط منهم فى مكان بدأ ينظم فيه الاتصالات والصلوات الجماعية أو المحاضرات لنشر أفكارهم .

٥ ـ التوقف عن سياسة استعمال المتدينين فى حرب الشيوعيين واستعمال الشيوعيين فى حربهم بغرض القضاء على الفئتين ، حيث ثبت تفوق المتدينين فى هذا المجال ، ولذلك يجب أن تمنح الفرصة للشيوعيين لحربهم وحرب أفكارهم ومعتقداتهم مع منع المتدينين منعا باتاً من التواجد فى الأماكن الإعلامية .

٦ ـ تشويش الفكرة الموجودة عن الإخوان فى حرب فلسطين والقنال ، وتكرار النشر بالتلميح والتصريح عن اتصال الإنجليز بالهضيبى وقيادة الإخوان حتى يمكن غرس فكرة أنهم عملاء للاستعمار فى الأذهان .

٧ ـ الاستمرار فى سياسة محاولة الإيقاع بين الإخوان المقيمين فى الخارج وبين الحكومات العربية المختلفة ، وخاصة فى الدول الرجعية الإسلامية المرتبطة بالغرب وذلك بأن يروج عنهم فى تلك الدول أنهم عناصر مخربة ومعادية لهم وأنهم يضرون بمصالحها ، وبهذا يسهل محاصرتهم فى الخارج أيضا .

ثانيا : سياسة استئصال الموجود منهم الآن

بالنسبة للإخوان الذين اعتقلوا أو سجنوا فى أى عهد من العهود يعتبرون جميعا قد تمكنت منهم الفكرة كما يتمكن السرطان من الجسم ولايرجى شفاؤه ، ولذا تجرى عملية استئصالهم كالآتى :

المرحلة الأولى

إدخالهم فى سلسلة متصلة من المتاعب تبدأ بالاستيلاء أو وضع الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم ويتبع ذلك اعتقالهم . وأثناء الاعتقال يستعمل معهم أشد أنواع الإهانة والعنف والتعذيب على مستوى فردى ودورى حتى يصيب الدور الجميع ثم يعاد وهكذا ، وفى نفس الوقت لايتوقف التكدير على المستوى الجماعى بل يكون ملازما للتأديب الفردى .

وهذه المرحلة إذا ما نفذت بدقة ستؤدى إلى مايأتى :

بالنسبة للمعتقلين : اهتزاز المثل والأفكار فى عقولهم ، وانتشارالاضطرابات العصبية والنفسية والأمراض والعاهات فيهم .

بالنسبة لنسائهم : سواء كن زوجات أو أخوات أو بنات فسوف يتحررن ويتمردن بغياب عائلهن . وحاجتهن المادية قد تؤدى إلى انزلاقهن . ويجب تشجيعهن على ذلك بطريقة أو بأخرى .

بالنسبة للأولاد : سوف تضطر العائلات لغياب العائل وحاجتهم المادية إلى توقيف الأبناء عن الدراسة وتوجيههم للحرف والمهن ، وبذلك يخلو جيل الموجهين المتعلم القادم ممن فى نفوسهم حقد أو ثأر أو آثار من أفكار آبائهم .

المرحلة الثانية

إعدام كل من ينظر إليه بينهم كداعية ومن تظهر عليه الصلابة ، سواء داخل السجون أو المعتقلات أو بالمحاكمات ، ثم الإفراج عن الباقى على دفعات ، مع عمل الدعاية

اللازمة لانتشار أنباء العفو عنهم ، حتى يكون ذلك سلاحا يمكن إستعماله ضدهم من جديد فى حالة الرغبة فى اعتقالهم حيث يتهمون بأى تدبير ويوصفون حين ذلك بالجحود المتكرر لفضل العفو عنهم .
وهذه المرحلة إن أحسن تنفيذها باشتراكها مع المرحلة السابقة ستكون النتائج كما يلى :

١ ـ يخرج المعفو عنه إلى الحياة ، فإن كان طالبا فقد تأخر عن أقرانه ويمكن أن يفصل من دراسته ويحرم من متابعة تعليمه .
٢ ـ إن كان موظفا أو عاملا فقد تقدم زملاؤه وترقوا وهو قابع مكانه . ويمكن أيضا أن يحرم من العودة إلى وظيفته أو عمله .
٣ ـ إن كان تاجرا فقد أفلست تجارته ، ويمكن أن يحرم من مزاولة تجارته .
٤ ـ إن كان مزارعا فلن يجد أرضا يزرعها ، حيث وضعت تحت الحراسة أو صدر بها قرار استيلاء .

وسوف تشترك جميع الفئات المعفو عنها فى الآتى :
١ ـ الضعف الجسمانى والصحى ، والسعى المستمر خلف العلاج ، والشعور المستمر بالضعف المانع من أية مقاومة .
٢ ـ الشعور العميق بالنكبات التى جرتها عليهم دعوة الإخوان،وكراهية الفكرة والنقمة عليها .
٣ ـ عدم الثقة التى ستتولد فى كل منهم عن الآخر ، وهى نقطة هامة لها أهميتها فى انعزالهم عن المجتمع وانطوائهم على أنفسهم .
٤ ـ خروجهم بعائلاتهم من مستوى اجتماعى إلى مستوى أقل نتيجة لعوامل الإفقار التى أحيطت بهم .
٥ ـ تمرد نسائهم وثورتهن على تقاليدهم ، وفى هذا تحقيق الإذلال الفكرى والمعنوى للكل ، لاختلاف السلوك بين البيت والخارج .
٦ ـ كثرة الديون عليهم نتيجة لتوقف إيراداتهم واستمرار مصروفات عائلاتهم .

النتائج الإيجابية لهذه السياسة

١ ـ الضباط والجنود الذين يقومون على تنفيذ هذه السياسة سواء من رجال الجيش

أو البوليس سوف يعتبرون فئه جديدة ، قد ارتبط مصيرها بمصير هذا الحكم ليحميه من أى عمل انتقامى فى المستقبل .

٢ ـ إثارة الرعب لكل من تسول له نفسه القيام بمعارضة فكرية للنظام .

٣ ـ وجود الشعور الدائم بأن المخابرات تشعر بكل صغيرة وكبيرة ، وأن المعارضين لن يتستروا ، وسيكون مصيرهم أسوأ مصير .

٤ ـ تلاشى فكرة ارتباط الدين بالسياسة تدريجيا .

والأمر مفوض لسيادتكم .

توقيعات .

على صبرى　　　صلاح نصر　　　لواء سعد زغلول عبد الكريم

لواء حسن طلعت　　　العقيد شمس بدران

ماذا بقى منهم للتاريخ

١ ـ الذى رفعت إليه المذكرة «الزعيم الملهم» قد حدث له ماحدث ، ولم يترك الحياة حتى جعل إسرائيل أقوى دولة فى المنطقة ، وجعل مصر تقع فى ذيل قائمة الدول العربية بعد جيبوتى . ثم طردت من جامعة الدول العربية . والحديث عنه يطول .

٢ ـ السيد على صبرى بعد أن أوشك أن يكون رئيسا للجمهورية بعد موت الزعيم الملهم وقع مع الثعبان الأرقم أنور السادات الذى لدغه لدغة أودعته حيث كنا نقيم عشر سنوات ، وهو فى بيته الآن يلعب الكوتشينه ويشرب السجائر وينظر من النافذة،ويبصر موكب الرئيس حسنى مبارك وأحشاؤه تغلى من الحقد والحسد،وما زلنا ننتظر موته حتى كتابة هذه السطور .

٣ ـ صلاح نصر حوكم فى محكمة الثورة التى شكلت برئاسة حسين الشافعى ، وظهر من المحاكمات أنه قد حول مصر إلى دار كبيرة للدعارة وأنه كان أكبر قواد على مستوى القمة .. كما ظهرت عمليات الكنترول التى كان يقوم بها السيد الوزير صفوت الشريف . وظهر للعالم أجمع أن ميزانية مصر كانت تصرف على تصوير الفنانات فى أوضاع مخلة بالآداب ، وأنه فكر فى التجارة بهذه الأفلام الجنسية فبدأ حياته ثائرا وانتهى فنانا ثم حوكم وسجن . ووقف

مرة فى شرفة مستشفى القوات الجوية يصرخ فى الناس أنه صلاح نصر ، وكان المارة ينظرون إليه بإشفاق وسخرية ثم ينصرفون ، ثم دخل عليه حرسه وضربوه ضربا شديدا وأعيد إلى السجن . ثم مات ولم يشعر بموته أحد ، وذاق من كأس المهانة والمرارة التى سقى منها الجميع . وقد ألفت الكتب عن فساده .

٤ ـ سعد زغلول عبد الكريم . أهين وزال عنه الصولجان والهيلمان ، وبعد أن كان يفعل مايشاء باسم المباحث الجنائية العسكرية صدر أمر ولى النعم فعين فى وظيفة دون مقامه رئيسا لسلاح الحدود ، وفى اليوم الأول لاستلامه العمل دخل مكتب رئاسة السلاح بعد أن أذلوه وألبسوه بدلة اللواء التى لم يعد يرتديها بعد أن ارتفع مقامه ، ووقف فى وسط الحجرة ، وكانت مرآة أمامه فرأى الرتب على كتفيه فأدرك أى هوان صار إليه . وخلع الكاب ووضعه على المكتب ثم سقط ميتا من هول ماحدث له !

٥ ـ اللواء حسن طلعت طرده السادات ووضعه فى السجن قليلا ثم خرج منه ، وسمعنا أنه صار يرتدى الجلباب الأبيض ويذهب إلى المساجد ، وعلى الأخص مسجد السيدة نفيسة ، وصار يهرب من لقائه مرءوسوه لكثرة طلباته بعد أن كانت نظرته أمرا ، ورغبته شيئا واجب التحقيق . ومازلنا ننتظر موته حتى كتابة هذه السطور .

٦ ـ شمس بدران الذى كان يضع ساقا فوق ساق ، ويجعل الحذاء فى وجه محدثه ولو كان برتبة لواء ، وشمس كما تعلمون عقيد ، رأيته فى السجن يلبس الخيش ثم خرج وغادر البلاد ، وسمح له بذلك لأمور لانعرفها ، وقيل إن فيلما كان له قد قام بإخراجه السيد الوزير صفوت الشريف أيام كان يعمل بالإخراج السينمائى ، ولكن لمصلحة البلاد العليا لم يذكر شىء عن هذا الفيلم ، وقيل إنه فوجىء وذهل عندما علم بقصة هذا الفيلم ، ثم سافر إلى لندن وقيل إنه صار مليونيرا ، وعلمت بعد ذلك أنه يعيش على الإعانات فى شقة بسيطة فى لندن . ومازلنا ننتظر موته حتى كتابة هذه السطور .

* * *

ملاحظات حول المذكرة التى رفعت يومًا
للزعيم الملهم للقضاء على الإخوان

واضح من صيغة المذكرة وأن من يجتمع لفحص حالة الإخوان ممن يتسنمون أعلى المناصب فى البلاد ، وأنهم يجتمعون لهذا الغرض عشرة اجتماعات ، ويراجعون التقارير والإحصاءات ، ويدققون فى البيانات،أن آخر ماكان يفكر فيه هؤلاء الناس هو مصلحة مصر وحسن إدارتها .

فإن نظرت إلى المناصب العليا التى اجتمعت تجدهم كما هو مبين :

١ – رئيس الوزراء .
٢ – رئيس المخابـرات
٣ – قائد المباحث العسكرية .
٤ – رئيس مباحث أمن الدولة .
٥ – شمس بدران « وهو اسم ومنصب فى آن واحد »

كل قيادة مصر تقريبا !

والبلاد على شفا حرب مع إسرائيل كما يقولون !

والجيش المصرى قد أذّل اليمنيين ، واليمنيون قد ضربوه بالأحذية فى تلك الجبال الجرداء الشاهقة التى لم يرها المصريون من قبل ولا فى منامهم .

يجتمعون للقضاء على الإخوان وتشريد أسرهم ، وتجويع بناتهم ، وسلب الدين والكرامة من أبنائهم ، بينما هم لايقدرون على انسحاب كريم أو غير كريم من جبال اليمن .

وهنا لايملك الإنسان ألا يعقد مقارنة بين قوات الإنجليز التى احتلت مصر أكثر من سبعين عاما فلم تفعل فى تاريخها هذا كله مافعلته القوات المصرية بشعبها المسكين وجيرانه العرب .

استطاعوا إرهاب مواطنيهم ، وتخاذلوا وفروا أمام أعدائهم وهم قليل بكافة المعايير الخاضعة للعلم والإحصاء

وليس لمتتبع التاريخ وقارئه أن يجد هذا النمط العجيب من الحكام .

دولة تسخر كل قواها وطاقتها من أجل القضاء على جماعة من الجماعات يمثلون قطاعا كبيرا من الشعب ، وكان «الزعيم الملهم» نفسه قد استغل عضويته بهذه الجماعة مطية كى يصل من خلالها إلى الحكم وقد فعل .

ولا أدرى هل كان السيد على صبرى رائد الاشتراكية التى توفيت فى عز شبابها بمصر – إلا قليلا – يجد الوقت ليقضيه فى اجتماعات ليبحث كيفية القضاء على أفراد جماعة ، ويفكر والعصابة التى جلس إليها فى كيفية تزييف التاريخ وطمس معالم الدين ، وإعداد الخطط لفصل الدين عن السياسية وتغيير مناهج تدريس التاريخ الإسلامى .

تغيير مناهج الدين وتدريسه، ومناهج التاريخ الإسلامى وتدريسه !

وهذ أمر لم يفعله « كرومر » المعتمد البريطانى وخبيره « دنلوب »

والسبب فى ذلك أن الأخيرين كانا أصحاب دين مهما ملأهم التعصب والرغبة فى القضاء على الإسلام، وتحويل كل المسلمين فى مصر إلى المسيحية .

ولكنهم استخدموا عامل الترغيب ، وتركوا الجماعات التبشيرية تعمل عملها وساعدوا، ولم يمثلوا ضغطا على المصريين فى ترك الاسلام .

تماما مثلما فعل الفاتحون المسلمون عندما فتحوا مصر وطردوا منها من كان فيها من البيزنطيين ، تركوا الناس على دينهم ولم يرغموا واحدا على ترك دينه ، والدليل على هذا « نيافة الأنبا شنودة » الموجود الآن ، والذى يفعل ما يشاء ويقول ما يريد ، ويطلب ويطلب ولا يفتح مسئول واحد فمه بكلمة يرد فيها على طلباته ، والله أعلم بما يدور فى الخفاء .

كان أولى برئيس الوزراء – إن كان حقا رئيسا للوزراء – أن يهتم بمشكلات جسيمة تمر بها مصر ، وأن يفكر مع « الملهم » فى سحب القوات من اليمن ، وأن يتركوا الشعوب فى حالها ، بدلا من انشغاله فى كيفية تشريد مواطنيه وتجويعهم وهم عدد كبير غير قليل .

وتحضرنى قصة حكاها أحد المطلعين على الأمور ، تقول إنه فى أوائل أيام الثورة عندما كان السيد على صبرى وزيرا لشئون رئاسة الجمهورية..نشرت مجلة « النيوزويك » صورته على الغلاف ، وفى داخلها كتبت كلمة عنه ، قالت فيها إنه الرجل القوى فى مصر .

ورأى ذلك أحد « الخباصين » وذهب وأخبر « الملهم »

وفى الصباح التالى جاء مايسمى بالسيد على صبرى كعادته إلى مكتبه فوجد صولاً من سلاح الطيران يقف أمام باب المكتب المقفول وقال :

- مافيش شغل النهاردة .

ورد عليه السيد على صبرى مدهوشا :

- لماذا ؟

وقال الصول :

- سيادتك فى أجازة .

وقال السيد على صبرى :

- إذن آخذ بعض الأوراق الهامة التى ينبغى النظر فيها .

وهم بدخول المكتب فمنعه الصول :

- ممنوع ياافندم .

وخرج السيد على صبرى من مبنى الرئاسة - قصر القبة مقر الملك فاروق - وصار يبحث عن سيارته فلم يجدها .

واقتربت منه سيارة فاخرة من سيارات الرئاسة ووقفت بجواره ، ونزل السائق وفتح له الباب ، بينما نزل المرافق وتقدم منه بأدب :

- اتفضل يافندم ... أجازة سعيدة إن شاء الله .

وركب مايسمى بالسيد على صبرى صامتا .

وغادرت السيارة قصر القبة .

وقال على صبرى متوجسا :

- الأجازة فين ؟

ورد عليه المرافق فى تلطف وظرف :

- فى بورسعيد ياافندم .

واسترخى مايسمى بالسيد على صبرى مضطربا فى مقعده ولكنه اعتدل :

- طيب نمر على البيت أحضر حقيبة .

ورد المرافق المدرب على هذه الأشياء :

- قد عملنا ترتيب كل شيء ياافندم .

وفى دهشة قال على صبرى :
ـ أحضرتم حقيبة ملابسى ؟
ـ بعد خروجك بدقيقة واحدة .
وأخذت السيارة طريق بورسعيد ، وعلى صبرى يسأل والمرافق المهذب لايرد عليه بكلمة واحدة ، حتى يئس فآثر الصمت .

وهناك أنزلوه فى مكان من الأماكن التى كانت قصرا لباشا ثم سرقوه ، وأدخلوه غرفة بها تليفون لايعمل ، ونافذتها لاتطل على شىء ، وأعطوه الحقيبة ، وواحد يقف على باب الغرفة يمنعه من الخروج ، فالطعام يدخل إليه فى مواعيده ، وملحق بالغرفة دورة مياه ، فما ضرورة خروجه إذن ؟

والرجل يسأل عن سبب هذا فلا يسمع إجابة ، يطلب الإذن فى مقابلة «الملهم»، فيقولون له إن شاء الله ، وعندما أوشك على الانهيار أخذوه إلى القاهرة ليقابل"الملهم".

وجلس فى الصالون ينتظر مقابلة"الملهم"لمدة أربع وعشرين ساعة ، ثم جاءه أحد العاملين بالرئاسة وقال له :

ـ"الملهم"يقول إن أعصابك تعبانة وتحتاج إلى راحة أسبوع آخر .
وخرجوا به ، وسأل مرافقه ليخفى اضطرابه :
ـ إلى بورسعيد ؟
ورد عليه المرافق بأدب وبرود :
ـ سوف نعرف المكان عندما نذهب .
وأخذوه إلى الإسكندرية !
وبعد أسبوع بدت عليه أمارات الانهيار مرة أخرى ، وعادوا به إلى رئاسة الجمهورية ، فالصالون ، فأربعاً وعشرين ساعة ، فظهر"الملهم"ومعه مجموعة من الصحفيين المصريين والأجانب ، ومنهم الذى كتب المقال فى النيوزويك .

ورأى السيد على صبرى «الملهم» فأسرع إليه وانحنى على قدميه يقبل حذاءه وسخر منه «الملهم» قائلا :
ـ أمّال بيقولوا عليك الرجل القوى .
وهكذا يصنع رجال الرئيس .. كل رجال الرئيس ...

بالطبع المقصود بالرئيس هنا هو الرئيس جمال عبد الناصر .
أما رجال الرئيس السادات فكانوا يصنعون بطريقة أخرى .

أما الرئيس حسنى مبارك فلم يصنع أحدا ، فقد التف حوله وسار فى ركابه من تمت صناعته من قبل ، وهذا قد يفسر الكثير مما غمض على الناس .

على أى حال ليس موضوعنا هو عهد حسنى مبارك آخر حكام ثورة ٢٣ يوليو فهذا سيتم بالتفصيل فى زمن لاحق قريب إن شاء الله .

فقاعدة التاريخ الذهبية فى مصر الحديثة والقديمة هو التأريخ لمن ماتوا !
ولايجوز الكلام عن ملك أو رئيس أو زعيم إلا إذا حمل لقب « الراحل » بجوار اسمه !!
نعم « الراحل » وليس « السابق » !

ولايوجد فى تاريخنا الحديث رئيس حمل هذا اللقب « السابق » !

فمحمد نجيب – رغم أنه كان أول رئيس جمهورية لمصر الحديثة – قد تم سحب هذا اللقب منه تماما كأن لم يكن ، ولم يذكر إلا يوم نعيه فى الجريدة ، فهو لقب محرم على الاحياء ، ولايلحق بأى اسم ، وظنى أنه لن يلحق بأى اسم حتى يقضى الله أمرا .

وهذا أمر لو تعلمون عظيم !
ونعود إلى ماكنا فيه من هم مقيم .
كل قادة مصر يجتمعون للقضاء على ظاهرة التدين فى مصر ، والتدين على الطريقة الإسلامية على وجه التحديد !
ماذا يمكن أن نقوله تعليقا على هذا ؟

ربما نحن عقلاء نستطيع أن نفلسف الأمور ، ونفهم طبيعة المستبد .
ولكن .. لو جاء من وصفهم بالكفر وحرب الإسلام فهل نستطيع أن نرد عليه ؟
لو جاء من تمرد وأطلق الرصاص وفجّر الديناميت ألم يقدم له هؤلاء الحكام المبرر لهذا أمام أنفسهم على الأقل ؟

* * *

ونعود إلى الدولة وانشغالها بمايفيد أو مالا يفيد :
ها نحن أمام لجنة قد شكلت بأمر عال صادر من «الملهم».
رئيسها على صبرى .

وصعب على القلم أن يكتب عنه وصعب عليه أن يتركه أيضا .
فقد كان هو همزة الوصل بين الضباط و الأمريكان ، ليس كما قالوا للبلهاء إنه كان يعرف الملحق الجوى العسكرى الأمريكى فذهب إليه صبيحة الثورة ليقول له :
ـ أنا السيد على صبرى ، ولاتخافوا من شيء ، سوف نحميكم .
هذا مارردده بعض الكتاب الذين يفترضون فينا السذاجة وهم كذلك .
فالمسألة أبعد من هذا .. لقد كان هو المكلف بالتفاهم بين الضباط و الأمريكان .

بمعنى أنه لابد من شخص مايقوم بهذا الدور ، وهو دور شبيه بدور ساعى البريد إلى حد كبير ، فهو يذهب إلى الضباط ويقول لهم الأمريكان يريدون كذا وكذا على وجه التحديد ، ومن المؤكد أنه يتلقى هذا من موظف صغير ، وليس من الملحق الجوى أو السفير ، وقد يتطور دوره قليلا ويتطوع فيعلق على ماتم للأمريكان :

قد تم إنجاز هذا ولكن كانت هناك بعض الصعوبات ، أو يقدم بعض الاقتراحات فى حدود مايعلم أنهم يرضون عنه ويسير مع سياستهم ومايريدون .

وقد نافسه فى سنين الثورة الأولى بعض ضباط الصف الأول أشهرهم عبد المنعم أمين الذى اجتهد فخرج عن النص فضاع فى بخار التاريخ ، ثم جمال سالم الذى اجتهد أن يأخذ مكان«الملهم»من الأمريكان ، ولكنه لم ينجح فى ذلك لأن الأمريكان كانوا قد مضوا قدما فى طريق صناعة الزعيم ، وهو ما يستلزم وقتا وجهدا ومالا ، وهم « براجماتيون » يفكرون فى مصالحهم أولا وثانيا وثالثا ولا مكان للمجاملات عندهم .
وغاية ما يمكن أن يقدموه لجمال سالم هو كأس من « الويسكى » الذى يفضله ليحتسيه مع سعادة السفير كنخب القضاء على الإخوان المسلمين مثلا .
ولا يمضون معه فى اللعبة أكثر من هذا فهناك زعيم قد بدءوا فى صنعه بالفعل ، وصارت خطتهم وأفكارهم واقعا لايجوز التراجع عنه مجاملة لمخلوق أيا كان .

ولهذا كنت ترى السيد على صبرى يعذب الناس بوحشية فى السجن الحربى وفى مبنى البوليس الحربى وفى كل مكان حدث فيه تحقيق مع الإخوان ، من أجل أن يكون تقريره أكثر حركة وحيوية ، فلا يقول فيه قالت التقارير كذا وكذا ، بل يضيف إليها:وكنت أنا فى المكان أعذب وأقتل بيدى فاطمئنوا .

وكان جمال سالم يحكم بالإعدام ، حَكم على ستة بنفسه وأمر رؤساء الدوائر الأخرى بالحكم ، فحكم بالإعدام على أكثر من أربعين شخصا !!

وقد خاف الضباط من غضبة الشعب ، ومن أنهم لم يتمكنوا من القبض على كافة الإخوان فى مصر ، ولايعرفون على وجه التحديد حجم الأسلحة المخبأة ومع من ؟ ومتى تستخدم ؟ حتى إن جمال عبد الناصر كان يقول بعصبية عندما علم أن رجال النظام الخاص قد تم القبض عليهم :

– وأين المليون شخص الذين كانوا يقولون الله أكبر ولله الحمد فى ميدان عابدين ؟ لقد رأيتهم وسمعتهم بنفسى ..

ولايجيبه غير رجع الصدى ، فقد فعلت أجهزة الأمن غاية جهدها وساعدهم فى هذا خبراء من بريطانيا وأمريكا وألمانيا . وقد قيل إن صاحب حادثة المنشية أحد ضباط الجستابو الذين استعان بهم الضباط فى مطلع الثورة لترتيب القمع وتنظيمه. خاف الضباط من إعدام الإخوان ، واعترض معترض ، وصارت همهمات مضمونها أنه يكفى الحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ونعذبهم مادمنا نحكم ونتمتع بملك مصر .

وقام جمال سالم وقال لمجلس قيادة الثورة :

– أنا أحكم بالإعدام وأنتم تخففون الأحكام ؟

وأخرج مسدسه وتوجه إلى جمال عبد الناصر وهو يهزه فى يده مجنونا :

– وقع بالتصديق ياابن .... وإلا أطلقت عليك الرصاص .

وضحك جمال عبد الناصر ، ووقع مصدقا على أحكام الإعدام الأولى ، وهو يحاول التخفيف من غضبة جمال سالم .

وقام زملاؤه يأخذون منه المسدس فى رفق وهو يستشيط غضبا ، وبينما يجذبونه بعيدا عن «الملهم» – ولم يكن قد صار ملهما بعد – التقط دواة من الحبر

وقذف بها فى وجه جمال عبد الناصر ، ووصف السيدة الجليلة والدته بألفاظ لم يغفرها له الزعيم بعدها أبدا .

أما السيد على صبرى فقد تدرج فى السلم حتى صار رئيسا للوزراء ، وهاهو يرأس لجنة مكافحة النشاط الدينى فى مصر .

ولننظر إلى النشاط الدينى الإسلامى فى مصر اليوم لنعرف نتائج أعمال لجنته ! إن الظاهرة التى تعيشها مصر اليوم من فورة إسلامية منها المعتدل والهائج والمتطرف والضار والمفيد والواعى وغير ذلك . هى إحدى نتائج أعمال هذه اللجنة الموقرة .

انتشار الإخوان فى العالم الإسلامى والثراء المادى

والمفهوم أن رئيس الوزراء يرأس الوزراء ويدير البلاد،وله سياسة يعلنها على الناس ويدافع ، عنها ولو واجهته فى سبيل ذلك عقبات فهو يستقيل إن لم يستطع أن يذلل هذه العقبات . أما أن يرضى بأن يكون رئيس السقاة أو الطباخين فهو ما لاينسجم مع أصحاب الكرامة والمروءة والشرف .

صارت الإدارة الحكومية تدور بقوة الدفع التى أسسها محمد على ومن بعده إسماعيل ، واهتم الحكام الجدد بالسلب والنهب والغنائم والتمكين للملهم فى الأرض . ومنذ أن قامت الثورة لم تعد مهمة رئيس الوزراء هى السياسة وتنفيذ خطط الإصلاح والتنمية بقدر ماهى أساسية فى قهر الشعب والقضاء على رجولته ، والنظر يمينا ويسارا بحثا عمن يبيعون له العمالة دون أن يعرف الطرف الآخر . ويخطب على صبرى فى المعهد الاشتراكى لتخريج المخبرين وكتبة التقارير ليس إلى أجهزة الأمن ولكن له من خلال التنظيم الطليعى فيقول :

– لابد لنا من أن نغير نمط سلوكنا وأن تتسم أخلاقنا بالاشتراكية .

ثم يركب سيارته التى يعادل ثمنها ثمن جميع الكوادر المخابراتية التى جمعوها من كافة أنحاء القطر . مهندسين وأطباء ومحاسبين ومعلمين .

يعلمونهم التصفيق حسب إشارة الدليل الذى يستخدم النظارة ليعلمهم النغمة المطلوبة ، ويحقق التناغم المطلوب بين القاعدة العريضة والقيادة الملهمة الرشيدة ، وسائر ماكانوا يقدمونه لنا من كلام .

ويضبط السيد على صبرى وهو يهرب من الجمارك إحدى عشرة سيارة نقل بأشياء ومعدات جاءت معه من الخارج ، ويطرد من الحكم .

وهو لم يضبط ، فهو يفعل هذا طول الوقت ، وكل من معه من الاشتراكيين الكبار يفعلون هذا ، ولكن شاعت إرادة الملهم بطرده ومأأسهل السبب .
ويومها يقف كبير المطبلين والمزمرين ويقول فى صدر صحيفة الأهرام إن أحد موظفى مكتب السيد على صبرى هو الذى فعل هذا ، ونظرا لدقة الموقف فقد وضع السيد على صبرى استقالته بين يدى «الملهم»!
ولم يأت خبر بعد ذلك هل قَبِلها ؟ أم رفضها ؟
المهم أن من يسمى بالسيد على صبرى اختفى حينا ليس قليلا من الوقت .
ثم عاد بعد ذلك .

وليس أمام « الملهم » خيار ، فهو يتعامل مع مجموعة لاتتغير ولايعرف غيرها ، وطبيعة نظامه يفرض عليه هذا فهو يبعد واحدا ويضع غيره ثم العكس ولا تخرج هذه الحركة عن هؤلاء الأربعين الذين يعرفون سر المغارة .
وجاء « الملهم الثانى » بثمانين ، وكانت حركته أكثر حرية .

أما « الملهم الأخير » فلا يعرف غير أربعة ، ولاينبغى الكلام عنهم قبل الأربعين !
والكلام عن الوزراء ورئيس الوزراء يطول ، فهم فعلوا كل شيء غير ماهو منوط بهم وهو حكم البلاد وتعميرها .

وكانت مهمتهم باختصار السرقة والنهب والتمكين للملهم فى الأرض .
وأحاديثهم كثيرة ومشتهرة وتكتب فيها الكتب .
وكان «الملهم » يتعامل مع الوزراء مباشرة إذا أراد ، متجاهلا رئيسهم ، ومرة قال له أحد الوزراء ولعله لم يكن يعى اللعبة جيدا على أثر توجيه ما :
– ولكن السيد على صبرى يقول :
ولم يتركه «الملهم» يكمل عبارته بل قاطعه------
– إيه على صبرى ده ؟ ده باشكاتب عندى .. ده مخزنجى .. ياللا امش اعمل اللى قلتلك عليه .

وانصرف الوزير يهز ذنبه اضطرابا .
هذه هى لعبة السياسة والحكم فى مصر الثورة .
ومن لايصدق فلينظر إلى البلاد اليوم وما آل إليه أمرها .

ومن اللجنة كان رئيس المخابرات صلاح نصر ، وهذا له فصل خاص لأهميته وتفرده فى بلاد العالم الثالث والرابع والخامس .

ومنها سعد زغلول عبد الكريم رئيس المباحث الجنائية العسكرية .

والمباحث الجنائية العسكرية جهاز عجيب غريب لامثيل له فى أى مكان من بلاد الدنيا لغرابته وصلاحياته التى لاحدود لها .

وهى فكرة نبتت فى رأس شمس بدران أحد أعضاء اللجنة التى شكلت للقضاء على دين الإسلام فى مصر . وتشكلت فى أول الستينيات ، عندما همس بها فى أذن المشير وهما يدخنان الحشيش كما قالوا والعهدة على الراوى .

لقد وجد شمس بدران أن بالبلد المخابرات العامة ، والمخابرات الحربية ومخابرات رئاسة الجمهورية ومباحث أمن الدولة ، ووزعت الغنائم والسلطة على أجهزة كثيرة ، فلماذا لا يكون له هو الآخر جهاز مثل هؤلاء ؟

وقد كان .. أخذ الإذن من المشير وكان لايرفض له طلبا ، ولايدرى ماذا يفعل على وجه التحديد ، وكانت المباحث الجنائية العسكرية .

وكل الأجهزة التى ذكرت غيرها كانت لها مهام محددة ، صحيح أنها كلها تصب فى المحافظة على « الملهم » من المؤامرات الوهمية ، ولكن كان لكل منها عمل ما يعملونه أو يتظاهرون بعمله .

إلا المباحث الجنائية العسكرية .

وقد حكم شمس بدران مصر من خلال هذا الجهاز العجيب الذى لم يخلق مثله فى البلاد .

وانطلقت « المباحث الجنائية العسكرية » تعبث فى الأرض فسادا ، وتفعل ما تشاء ولامعقب لحكمها .

المخابرات العامة لها مقرها فى كوبرى القبة حيث يعذبون الناس .

مباحث أمن الدولة اتخذت لها مقرا مختارا هو سجن القلعة .

واختار شمس بدران السجن الحربى مقرا للمباحث الجنائية العسكرية حيث التعذيب بضراوة لمجرد شهوة التعذيب .

وتدخلوا فى كل شيء ، وصارت صلاحياتهم لايعرفها أحد لأنها غير مكتوبة أو محددة بقرار ، فيكفى أن يريد شمس أو سعد شيئا فيكون .

وكانت لهم فى عهدهم الذهبى قضايا مشهورة فهم مثلا يقبضون على موظفى هيئة النقل العام ويعذبونهم بحجة عدم انتظام العمل .

ويقبضون على بعض التجار لأسباب تموينية .

وعلى بعض المديرين فى المصالح الحكومية بحجة أن هناك مختلسا صغيرا سرق خمسين جنيها .

وأذكر واحدا اسمه « زكريا بهنس » وكان يعمل مديرا فى الهيئة العامة لتنمية الصادرات ، وكان لى بعض الأصدقاء هناك ، وكنت أتردد عليهم بين الحين والآخر للزيارة ، ومرة أخبرونى أن « زكريا بهنس » قد أطلق على نفسه الرصاص .

– لماذا ؟
– أحد الموظفين تحت إدارته اختلس مبلغا فقبضوا عليه .
– من الذى قبض عليه ؟
– المباحث الجنائية العسكرية .
– وما المباحث الجنائية العسكرية ؟

وكانت النظرات حائرة لاتجيب فقد كانت وليدا جديدا ، ولكنه ولد عملاقا فى تسلطه وتجبره ، وقد رأيت ذلك بنفسى أثناء استضافتهم لى .

– وكيف أطلق النار على نفسه ؟
– أخذوه وعذبوه عذابا شديدا وهو مدير عام ولايعرف تفصيل هذه الاختلاسات ، ثم أطلقوا سراحه بعد أن وعد بإجراء تحقيق وضبط المختلس ورد الأموال .

وجاء مضطربا بالأمس القريب وسلم الزميل رمزى محمود المبلغ الذى اختلس من شخص لم يعرف ، ثم دخل مكتبه وأطلق النار على نفسه .

– ومادام قد ردَّ المبلغ فلماذا قتل نفسه ؟

وقال لى واحد من الجالسين :

- أنا آخر من رأيته قبل الحادث ، أخبرنى أنه أهين إهانة لم يتصور أنها تمر عليه فى حياته كلها .

ويمضى هذا الصديق فيقول :

- وبعد الحادث بدقائق وقبل أن ينقل من الهيئة جاء ضابط المباحث الجنائية العسكرية وسأل عنه وعرف ماحدث .

وقلت له بلهفة :

- وماذا قال ؟

وأخبرنى هذا الصديق قائلا :

قلب الضابط وجهه احتقارا فى الواقفين ، وكانت جثة زكريا خارجة على نقالة فى هذه اللحظة بمعرفة رجال الإسعاف وقال .. حمار .. لقد جئت لأخبره أننا قد أغلقنا الملف وحفظنا التحقيق .

وتقدم رمزى محمود وسلمه النقود التى أعطاها له زكريا بهنس قبل أن يقتل نفسه ، ووضعها الضابط فى جيبه وانصرف .

وسألت :

- كم كان المبلغ ؟

- ألفين من الجنيهات .

- وهل كتب بها إيصالا أو دونها فى ....

وضحك الجالسون رغم حزنهم على صديقهم الذى انتحر .

كان شمس بدران يريد أن يصنع لنفسه جهازا قويا كبيرا يحكم به مصر وكان له ماأراد . وكان يدربهم على العمليات الصغيرة فى كافة أجهزة الدولة ابتداء من الجيش وانتهاء إلى وزارة التموين .

وكان صلاح نصر يكرهه كراهية عمياء ، فقد كان يتميز عنه بجهاز مخابراته ، كان الاثنان خادمين عند المشير ، وهاهو ذا شمس يصنع جهازا يفوق جهاز المخابرات ويتغلب عليه .

وكان شمس بدران يمهد لوضع هذا الجهاز الجديد فى تجربة كبيرة يثبت بها وجوده ويبرز أهميته لدى « الملهم » والمشير ، ومن ثم فلا يتسنى لأحد من بعد أن يدق له إسفينا

وكانت التجربة الكبيرة المثيرة التى دفع بها شمس بدران جهاز المباحث الجنائية العسكرية للتفوق والامتياز هى تجربة الإخوان المسلمين ونكبتهم عام ١٩٦٥ .

اشترك الجميع فى وزرهم ، ولكن الوزر الأكبر يقع على عاتق الجهاز الجديد الذى ولد عملاقا .

وتأكدت شرعية المباحث الجنائية العسكرية بعد تجربة الإخوان .
ثم أرسلوهم إلى حرب الإقطاع والإقطاعيين .

وكما يفعل أصحاب العصور الوسطى ذهبوا إلى قرية وألبسوا كبيرها ملابس النساء وزفوه فى طرقاتها وأرغموا الناس على ضربه وإهانته وهذا الكبير يصيح كل خطوات بأعلى صوته .

ـ أنا مرة ... أنا ... أنا ...
والضباط العظام على الخيل يضحكون ويتغامرون .
ورحم الله « كرومر » فلم يفعلها فى دنشواى .

وكان فى اللجنة حسن طلعت مدير مباحث أمن الدولة فى ذلك الوقت وهو أقلهم شأنا وقيمة وربما كان يكتب محضر الاجتماع أو يأمر لهم بالشاى والقهوة ، فهو – بعيدا عن لاظوغلى وبين هؤلاء الجبابرة الذئاب – ليس سوى فأر صغير .

والمواطن المصرى المسكين موضوع الاجتماعات العشرة صار حاله أكثر بؤسا ، فقديما كانت هناك جهة واحدة تقبض عليه إن خرج عن القانون أو اشتبه فى ذلك وكان اسمها البوليس ، أما اليوم فصارت الجهات التى لها حق القبض عليه دون سبب كثيرة ومتنوعة ، ولم يكن المواطنون أيامها يعرفون أسماء كل هذه الجهات .

وكنت فى تلك الأيام أعمل فى وزارة الزراعة ، وجمعتنى جلسة مع أحد العمد المساكين الجهلة ، وكان يتعامل معى فى ارتياب وحيطة ، ولما اطمأن إلىّ سألته عن

سبب هذا الخوف منى فقال هامسا رغم عدم وجود أحد :

ـ ظننتك من الذين يقبضون على الناس .

ـ أنت تعلم أننى أعمل فى الوحدة الزراعية .

وضحك العمدة ضحكة الواثق الخبير وقال :

ـ لقد أعطت حكومة الثورة الحق لكل وزارة بالقبض على أى مواطن . ألم تسمع عن مباحث التموين ؟

ـ بلى ولكن الأمر يختلف مع وزارة الزراعة .

ونظر إلىّ بإشفاق وقال :

ـ أنت غلبان .. فى هذه الأيام خذ حذرك من أى إنسان .

* * *

وكان من الطبيعى أن يختفى أحد المواطنين فترة من الوقت ثم يعود ولا يتكلم عن طبيعة المكان الذى كان فيه ، ولم يكن أحد يسأله عنه .

فكل المواطنين متهمون بتهم لايعرفونها . وهم يخالفون قوانين لم يعلنوا بها ، وعليهم إثبات ولائهم كل لحظة ، والدين أمر كريه لاتقبله أمريكا ولاترضى عنه روسيا .

والناس فى حيرة لايعرفون ماذا يفعلون ، فهم يصفقون ويطبلون ويزمرون ورغم هذا يقبض عليهم ويضربون ويهانون .

وهم حتى اليوم يعملون هذا ولكن بصورة مختلفة ، رغم أنهم قد أباحوا حرية النباح وهو أمر خطير لايفهم أحد مغبته ، ولكن نبأه يأتى بعد حين ، فعندما يتكلم الإنسان بما يشاء ، ويحرم تماما ممايريد ، يحدث هذا تراكما كثيفاً ينذر بتغيير النظام ونزول الستار بنهاية مأساوية دموية مؤثرة ، وهو المتوقع فى حين قريب . والظن أنه ليس جهلا أو تخبطاً من الذين يقومون على تنفيذ هذا ، بل هدف واضح المعالم لمن صنعه ، يصلون إليه فى أجل هم بالغوه .

أما رئيس المخابرات صلاح نصر فحديثه يطول .

وقد تضافرت كل هذه الأجهزة عن عمد وسبق إصرار وترصد على تسليم مصر عارية مكشوفة قد نزعت عنها ملابسها الداخلية على رمال سيناء المحرقة فى يونيو عام ١٩٦٧ .

الفصل الثالث عشر

" ما أغنى عنّى ماليهْ .. هلك عنّى سلطانيه "

حكاية صلاح نصر

﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه .ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولايحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون . ﴾

الحاقة : ٢٥ – ٣٧



من أقوال اعتماد خورشيد

كنا نسمع الكثير عما يفعله سادة البلد وكيف استباحوا كل شيء وملكوا كل شيء ولا معقب لحكمهم إذا حكموا ، ولايوجد من يحاسبهم إذا صرفوا .

كانت كل العمليات المتعلقة بالمخابرات سرية وحساباتها أيضا سرية ، وقد حكيت فى « البوابة السوداء » ماقصه علينا محمود نصر شقيق صلاح نصر ، وكيف كانوا يذهبون إلى أوروبا لصرف مئات الألوف من الدولارات لشراء مايشاءون .
هو قال مليون دولار فى « السفرية » !
ويتم الصرف تحت حساب عملية لها اسم كودى لايجوز أن يطلع أحد على حساباتها ، لأهميتها وخطورتها ، ولضمان السرية .
وسلام عليك أيها الجهاز المركزى للمحاسبات !

وأذكر أننى سمعت مرة سيادة العقيد شمس يتحدث مع شخص آخر لا أعرفه ، وكانا يتمشيان بجوار الفسقية الشهيرة فى السجن الحربى ، وكان الوقت شتاء ، وعويل السياط والكلاب يأتيان من الخلفية فيضفيان جواً رومانسيا على الحديث .
ويبدو أنه ـ أى شمس بدران ـ كان يتحدث إلى أحد أصدقائه قد جاء إلى زيارته فى عرينه ، وكل ماأذكره أنه كان متأنقاً يرتدى ملابس فاخرة ويبدو ودوداً لطيفا رغم مايرى ويسمع .
وكان الوقت ظهراً والعقيد شمس يعرض عليه أن يصحبه الليلة للعشاء .
وأين يكون هذا العشاء ؟
فى مطعم مكسيم الشهير بباريس !
وقال له شمس :
ـ سوف نتعشى،وأنا حجزت بعد العشاء فى « المولان روج » ونسهر سهرة ظريفة ، وسنأتى غدا قبل الظهر علشان أولاد الكلب دول .
وأشار ناحيتنا !

وكان الحديث غريباً عجيبا لايكاد يصدق .
واعتذر ذلك الرجل ، فهو مرتبط هذه الليلة على العشاء ، ولعله كان عشاء فى لندن أو روما أو أية عاصمة أوروبية أخرى .
يخرجون بالطائرة من مطار ألماظة الحربى أو أى مطار يعجبهم،فهم أصحاب البلد .

ومعهم قواد يحمل النقود ويشرف على أن تتم السهرة فى جو بديع لطيف ، بعيداً عن التحقيق مع أولاد الكلاب - كما سمانا - وعن صراخهم وعن عويلهم ، والموتى الذين يتساقطون بين الحين والآخر .

وسيادة العقيد أعصابه متعبة ويريد أن يروّح قليلا عن نفسه .
ولتحيا الاشتراكية ، ولتبق حقوق العمال والفلاحين مقدسة إلى الأبد . وصار شمس بدران يلح على صديقنا هذا فى الذهاب معه إلى باريس للعشاء وهو يعتذر ويقول :
- إنت عارف ياشمس أنا ماتأخرش عنك ، ولكن سامحنى أنا مرتبط .
وكنت أسمع الحديث وكأنه فصل من المسرح العبثى لبريخت .
هل هذا معقول أو جائز ؟
لقد كانت سياسة الدولة هكذا !

هؤلاء هم حرس النظام ولايسأل عنهم أحد ، ولايراقبهم مخلوق ، وليس هناك من يناقشهم الحساب ، وهم فجرة فسقة لادين لهم ، ظلمة يأكلون المال الحرام من كد الفلاح المسكين ، والمواطن الذى يقف ساعات طويلة فى ذلك الوقت حتى يأخذ كيلو من الأرز .

ومرت الأيام وخرجت من المعتقل ، وأنعم الله علىَّ وذهبت إلى باريس لأول مرة فى زيارة عمل ، ودعتنى الشركة المضيفة إلى العشاء فى مطعم « مكسيم » .
وتذكرت الآية الكريمة ﴿ **وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** ﴾

واعتذرت عن الذهاب إلى هذا المطعم ، ورجوت أن يكون العشاء فى مكان آخر، وأجابونى إلى طلبى مشكورين .

وأثناء العشاء فى أحد المطاعم الفاخرة فى غابة بولونيا حيث يقوم على الخدمة جيش من البارونات وأصحاب الألقاب الرفيعة أو هكذا تظنهم من فرط أدبهم وأناقتهم وفخامة المكان وروعته ، صرت أتحسس الكلام سائلا عن تكلفة الوجبة فى مطعم مكسيم ، وفهمت أنها تساوى عشرة أضعاف مثيلتها فى هذا القصر الذى نتناول فيه عشاءنا !
وازداد يقينى وإيمانى بالله سبحانه وتعالى وعدالته .

وفهمت لماذا مثّل الله سبحانه وتعالى بهؤلاء هذا التمثيل البشع ، وكيف جعلهم عبرة لمن شاء أن يعتبر .

وأعود إلى « الفسقية » فى فناء السجن الحربى أمام المكاتب .

وشمس بدران يلح على زائره وهو يعتذر .

وجاء من يقول للعقيد :

– احنا جاهزين ياافندم .

وقال شمس :

– طيب .. الواد ... (وذكر اسما لاأذكره الآن) لسه مااعترفش ؟

– لسه ياافندم .

– قول لحسن خليل إنى عاوز آجى بكره ألاقيه ميت .

وكأنما تذكر شيئا !

– آه .. دا حسن خليل جاى معانا .. طيب مش مشكلة بكره يعدلها ربنا .

نعم .. هكذا ! بكره يعدلها ربنا !

هو مسرح اللا معقول لبريخت ، وكانت موضته فى تلك الأيام .

كل حارس من حرس النظام يفعل مايشاء فى موقعه ، ويسخر كل الإمكانات التى تركتها أسرة محمد على لتحقيق مآربه ولذاته وشهواته ، وليذهب الشعب بعد ذلك إلى الجحيم .

ليس عندنا مانفعله لهم أكثر من هذا !!

هذه الأشياء قد عاينتها بنفسى وسمعتها بأذنى،لهذا لاأتعجب من تلك الوقائع التى أقرأها فى التحقيقات التى أجريت حول انحراف صلاح نصر ومن معه من الرجال العظام ، ومنهم من يجلس على كراسى الحكم الآن .

فهم ذرية بعضها من بعض ، وهذا ما أنبتته الشجرة الخبيثة ، ولم يبق لها غير أن تجتث من فوق الأرض فمالها من قرار .

وفى أقوال اعتماد خورشيد[1] الكثير والكثير الذى حذفناه لأنه تجاوز حد

(١) تم حذف الأقوال والتحقيقات التى تمت معها ومع السيد الوزير صفوت الشريف بمعرفة محكمة الثورة حول عمليات الدعارة الوطنية لصدور قانون سرى يمنع هذا .

البذاءة ومالاينبغى أن يقرأه أحد ، ولهذا قد حذفت منه الكثير لبشاعته وأثره الضار على أخلاق الشباب والشيوخ أيضا .

وفى أقوالها تجد نفسك تنساب مبهورا مسحورا غير مصدق فى سراديب الشيطان .

حكاية صلاح نصر والمخابرات

المخابرات فى كل بلاد العالم لها عمل محدود معروف وتقوم بخدمة جليلة لبلدها ، وتظهر نتائج هذه الخدمات - وقيمة هذه الجهود فى الحروب ، فهى تجمع المعلومات عن العدو وتقدمها للدولة ، حتى يتم التصرف بمقتضاها .

وهى تعمل أيضا على مكافحة نشاط تجسس الأعداء فى أرض الوطن وفق نظم متقنة وأساليب علمية وإتقان فى العمل وتفهم له أولا وأخيرا .

هذا ماهو قائم فى كل بلاد الدنيا إلا مصر .

فقد كانت المخابرات مهمتها الرئيسية هى السلطة ، والهيمنة على رئيس الدولة وخداعه وإفهامه أنه بدونهم يموت ولايستمر نظامه شهرا كاملا .

أما مسألة جمع المعلومات عن العدو وتقديم مايفيد لمن يهمهم الأمر فيعد من الأمور الثانوية تماما قد يأتى وقد لايأتى وإن أتى لايمكن الاستفادة منه لأن الدولة ليست مهيأة للحكم وحماية المجتمع ، بقدر ماهى مهيأة لخداع الحاكم وسلب أكبر قدر من الغنائم وضرب المواطنين والقضاء على الحركات الإصلاحية وإعدام أصحابها ، وتجريد الوطن من كل داعية أو صاحب رأى ، وهذا ليس كلاما إنشائيا يقال،ولكنه واقع عشناه تدعمه الحقائق والوقائع التى ظهرت أثناء محاكمة نصر فى قضية مايسمى بانحراف جهاز المخابرت .

وهذا الكلام مضحك ، لأن « الملهم » يعرف أن جهاز المخابرات منحرف ، فما معنى محاكمة رئيسه وأعضائه فجأة ؟

السبب فى هذا أن « الملهم » اكتشف أن ولاء رئيس المخابرات - صلاح نصر - ليس له ولكن للمشير الذى قضى عليه بالسم-كما قالوا-فى صيف سنة ١٩٦٧ بعد عار يونيو .

وأراد «الملهم» أن يؤدب أعداءه وأن يبدو طاهرا نقى الثوب ، وأن يعطى الأمل للناس فى أن الهزيمة لم تحدث بل هو النصر ، بدليل وجوده وأنه يحاكم المنحرفين أمثال صلاح نصر وصفوت الشريف وغيرهم من الذين أساءوا ، وأنه بعد التخلص من هؤلاء الأعداء سوف نصل إلى قلب إسرائيل ويعود الطبل والزمر من جديد .

لم يفعل جهاز المخابرات شيئا فى حربنا مع إسرائيل ، وهى القضية الرئيسية التى كان من المفروض أن ينشغل بها ، والدليل على ذلك أننا عندما ضربنا فى يونيو سنة ١٩٦٧ تبين لنا أنه ليست لدينا أدنى فكرة عن إسرائيل ، ولا توجد أية معلومات عن العدو .

أو فليتفضل من يخبرنى ماذا قدمت المخابرات العامة للدولة من معلومات مفيدة كانت لها قيمة فى حرب يونيو أو فى أى حرب أخرى ؟
ولعل قائلا يقول لى حكاية رأفت الهجان !
فأقول له وماذا فعل رأفت الهجان ؟ إن هو إلا عميل زرعته المخابرات المصرية فى إسرائيل ، وكان ذلك سهلا فى هذا الوقت ، وكان يكتب لهم بعض تعليقات الصحف الإسرائيلية وأخبارها ، وهو أمر يستطيعه أى إنسان من كشك صحف فى ميدان الجمهورية بباريس ، أو عند ماربل آرشى فى لندن .

واستمر على هذا الحال أقل من عام ، ثم صار مواطنا إسرائيليا عاديا ، ونسى كل شيء ، وعاد إلى مصر بعد الانفتاح وانتهاء حرب أكتوبر للتجارة والبترول .
ومن عنده كلام مفيد غير هذا فليتفضل مشكوراً لتنويرنا وتنوير الشعب .

أما الكلام المفيد عن مخابرات صلاح نصر فهو ضرب الحركات السياسية وعلى الأخص الإسلامية منها مثل الإخوان المسلمين ، وإنتاج الأفلام الجنسية للممثلات وكبار رجال الدولة ، وتعدى هذا إلى شخصيات عربية وغير عربية كبيرة جدا تصل إلى رءوس بعض الدول .

وهو أمر يحرمه الدين ويأباه الشرع ويؤذن بخراب العمران ..
وقد حدث للأسف فليس هناك خراب أكثر مما نعيش فيه الآن .

يقوم السيد الرئيس بافتتاح الكوبرى ويصوره التليفزيون ، وبعد أيام نجد

الكوبرى كأنه قد صنع من « عجين » ويغلق المرور ويعاد إصلاحه من جديد ليفتتحه الرئيس مرة أخرى فى العام الذى يليه .

ومثل بسيط .. سور حديقة الحيوانات الذى أقامه الخديو إسماعيل منذ أكثر من مائة عام ، هل تستطيع أية شركة أن تقوم على بنائه الآن بعد التقدم الهائل فى العلوم والتكنولوجيا ؟ الإجابة لا .

لأن الظلم والفساد يؤذنان بخراب العمران كما قال العلامة ابن خلدون . وهذا ماحدث .

والسبب فى ذلك هو النظام الذى وضعته الثورة ولازالت بقاياه حية،وهو نظام لايسمح بالتقدم والازدهار،بل هو يؤدى بالمجتمع إلى الخراب والموت ، ونحن نسير فى هذا الطريق مالم تتداركنا رحمة الله . لأننا كشعب لايمكن لنا أن نصنع شيئا . لماذا ؟ هذا سؤال شرحه يطول .

والغريب أن الذين يحكموننا الآن هم نفس الرجال الذين تتلمذوا على مدرسة « الملهم » سواء من المخابرات أو التنظيم الطليعى أو فلول الضباط الأحرار ، ولاتجد موقعا يخلو من واحد من هؤلاء .

ولن أتكلم كثيرا عن صلاح نصر وعهده وما فعل بمصر،ولكنى أسوق نماذج من التحقيقات[1] التى أجرتها محكمة الثورة التى شكلها « الملهم » فى عام ١٩٦٨ لمحاكمته ومن معه ، وكان يقوم بالتحقيق وكلاء النيابة ورؤساؤها الذين حققوا معنا فى قضية الإخوان المسلمين بالسجن الحربى ، وشتان مابين القضيتين !

ونموذجا من التحقيق المرفق مع السيد صفوت الشريف وزير الإعلام الحالى ، وكان الذى يحقق معه هو السيد عبد السلام حامد المدعى الاشتراكى الحالى .

ولم يكن يومها صفوت الشريف وزيرا ، بل كان عمله رئيس قسم المندوبين والتصوير الذى يحرمه الدين ويتنافى مع النظام العام والآداب ، وماكان له أن يكون وزيراً للإعلام ، ولكنه بلد قد ضاع فيه الأدب والاحتشام .

وماكان أيضا لعبد السلام حامد أن يكون مدعيا اشتراكيا،فقد كان يقوم

---

(١) صدر قانون سرى لحماية الوزراء والكبراء من نشر نشاطهم الوطنى أيام كانوا يقومون على الحراسة بطريقتهم،الأمر الذى حذفنا بسببه عدة فصول والكتاب ماثل للطبع « يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم »
(المؤلف)

بتعذيب الإخوان المسلمين فى السجن الحربى .

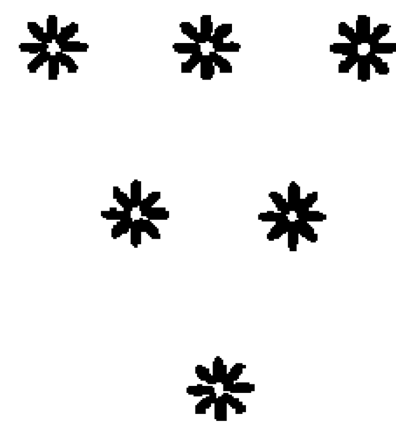
وكنت من الشهود على ذلك .

ولكن هل نتوقع من النظام أن يفعل الصواب ؟

لانتوقع هذا ..

فلو كانوا يسيرون على بصيرة ويتجنبون الخطأ لما كانت فى مصر مشكلة ، ولقدنا العرب والمسلمين ، ولكان رئيسنا هو رئيس العالم الإسلامى كله .

فهو نظام صنعته ظروف وعوامل صارت أكثر تركيباً وتعقيداً من أن يحلها الكلام ، ونحن نعيش سنوات التيه،ليس فى صحراء سيناء،ولكن فى سراديب الشيطان .



الفصل الرابع عشر

"أنَّى يُحيِى هذه الله بعد موتها" ؟

﴿ أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر ﴾

البقرة: ٢٥٩



﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر ﴾ البقرة:٢٥٩

عصر الاضمحلال

كانت ثورة ٢٣ يوليو حلم الجماهير قبل أن تقوم وقد أيدها الناس جميعا عندما قامت ، وكانوا يحلمون بمستقبل أفضل والنهوض بالبلاد إلى أعلى مقام ، وكانت لدى مصر والمصريين – ومازالت – المقومات لتحقيق هذا الهدف العظيم .

ثم أجهض هذا الحلم الجميل الذى كان بمثابة نقلة أو طفرة فى التطور .

أجهضه الصراع بين الثوار حول السلطة ، بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر الذى لم يدع وسيلة غير شريفة إلا اتخذها واعتمدها فى صراعه مع محمد نجيب .

وكذلك فعل مع الإخوان المسلمين !

وأدت هذه الممارسة إلى اعتماد الطرق غير الشريفة فى التعامل مع الخصوم ، كما كانت الخصومة هنا منشؤها خشية المناوءة والاستئثار بالسلطة .

فعندما ذاق عبد الناصر طعم السلطة وجلس على كرسى فاروق قدر فى نفسه أن يبقى عليه حتى يموت ، واستطاع ذلك .

وهذا هدف فى حد ذاته جعله نصب عينيه ولم يحد عنه مطلقا .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف لابد من اتباع الوسائل التى تحققه وتحافظ عليه .

وكل ما عدا ذلك يصير شيئا ثانويا لا أهمية له .

وهناك فرق كبير بين أن يكون هدف الحاكم هو النهوض ببلده ، وحفظ حقوق المواطنين وكرامتهم ، وإعطائهم أكبر قدر ممكن من الحرية ، وبين أن يكون هدفه هو البقاء على كرسى الحكم والقضاء على المعارضين ، فإن كان الأخير هو هدف الحاكم فسوف يكون ذلك بالتأكيد على حساب الأمة والشعب .

وبمقدار بقائه فى الحكم يكون تأخر بلده وتخلفها ، وضياع المعالم الرئيسية لشخصية المواطن ، ومن ثم لا يكون إلاأداة فاسدة متخلفة تضر ولاتنفع،وهذا ما حدث لمصر ..

جاء عبد الناصر وكان هدفه هو البقاء فى الحكم !

وورث من جاء بعده هذا الهدف !

وصار جهاز الدولة كله يدور حول هذه النقطة !
فأى قانون وأى تشريع لابد أن يكون له صلة ما بهذا الهدف .
ويصير النشاط الإنسانى كله داخل المجتمع والدولة مرتبطاً بهذه الغاية،ومع مرور السنين يفسد المجتمع فسادا يصعب معه الاصلاح ، بل ويستحيل .

وليس من الأهداف المشروعة أو المعقولة إبقاء حاكم فى الحكم ، بغض النظر عن أى شيء آخر ، ودون الأخذ فى الاعتبار مصلحة البلاد والمواطنين
فالحاكم يبقى مادام صالحا ، وبإرادة الناس الحقيقية وليست المزيفة .
وإن كان يريد البقاء بإرادته هو فعلى الدنيا السلام وبالناس المسرة .
وقد ذهب هذا العصر ، ولم يبق منه إلا دول قليلة وبعض المجتمعات المتخلفة ومنها مصر . مصر التى أعاد تشكيلها عبد الناصرعلى نمط مزر مهين .
وهى مصر التى يعيد تشكيلها التاريخ والإرادة المختنقة عبر برنامج عظيم من القهر والقمع والاستبداد والفساد .
والمؤكد أن عصر الاستبداد قد ولّى بالتأكيد ولو إلى حين ، والمستقبل لحرية الشعوب وإرادتها . وهى غالبة حسب القانون . قانون التاريخ والنواميس .

* * *

أول ما فعله عبد الناصر هو قتل إرادة الأمة ، فألغى رأيها وأخذ منها بالسوط توكيلا على بياض يفعل بها ما يشاء ، وقد حدد هدفه كما قلنا .
وكان لابد أن يكون زعيما .. هكذا شاء .. وهكذا شاء من ساعدوه .
والزعيم يخاطب الغوغاء ويقتل العقلاء ويسجنهم ، وهو يلقى للناس بشعارات زائفة ويعتمد على القوة والبطش والإعلام فى إقناع هذه الجماهير أن هذه الشعارات حقائق واقعية يعيشها الناس ، وهى ضرب من خيال ليس لها من الواقع نصيب .
والأمثلة كثيرة .
فقد تم تأميم قناة السويس دون مبرر قومى أو مالى أو سياسى ، وتكبدت مصر فى سبيل ذلك معظم الويلات التى جاءت بعده .
ولكن هذا القرار مع التصفيق الطويل وردود الأفعال العالمية أكد دور عبد الناصر كزعيم يقف للاستعمار بالمرصاد ، وقد ساعد فى تأكيد هذا المعنى عوامل غوغائية ليس للعلم فيها أدنى نصيب .

لا تؤمم قناة السويس

وقيل إنه سأل الدكتور الحفناوى صاحب فكرة تأميم القناة قبل ذلك بعشرات السنين .

وقال له:

– أنا قررت تأميم قناة السويس . ما هو رأيك ؟

– إن كنت قد قررت هذا فما أهمية رأيى ؟

وشرح الحفناوى ضرر هذا التأميم الآن – فى ذلك الوقت – وشرح له أنه عندما قال بهذا التأميم كان ذلك فى زمن مختلف ، ولكن هناك متغيرات على الساحة الدولية والسياسية لابد من أخذها فى الاعتبار ، وكان يرى أن هناك ضررا محققا من هذا التأميم ، وأن الفائدة منه منعدمة ولا وجود لها .

وصرفه عبد الناصر من حضرته متبرما ساخطا .

ولم يستشر شخصا واحدا .

وأخبر المجموعة التى ستقوم بالاستيلاء على مبنى الشركة صباح هذا القرار !

وكان قد تم إعلانه فى المساء يوم ٢٦ يوليو !

وأخبر عبد الحكيم عامر بالقصة فى القطار !

وقد أخبرنى الأستاذ حسن عباس زكى وزير الاقتصاد فى ذلك الوقت أن عبد الناصر قد جمع الوزارة بعد أن أعلن قرار التأميم على العالم كله ، ثم طلب من كل واحد أن يدلى برأيه فى هذا الموضوع ..

وكان أولى بطبيعة الحال أن يتم هذا الاجتماع لمناقشة هذا الموضوع قبل إعلانه ، ورآه عبد الناصر ساكتا لا يتكلم فقال له :

– ساكت ليه يا حسن ؟

– ليس هناك ما يقال يا سيادة الرئيس .

– إيه رأيك فى قرار التأميم ؟

وكان حسن عباس زكى يريد أن يقول له : كنت أود أن أسمع هذا السؤال قبل ذلك ، ولكنه لم يستطع فقال :

– الرأى يا سيادة الرئيس أنك مرهق ، وأنصح بأخذ حبة منومة ، وفى الغد نجلس ونناقش الآثار المترتبة على هذا القرار .

وقام عبد الناصر منهيا الاجتماع وهو يقول :
— هذا أحسن كلام سمعته بعد قرار التأميم .
وذهب إلى النوم .

مجانية التعليم

وهى من ضمن الخرافات التى لا يزال البعض يرددها حتى الآن .
فقد كان التعليم مجانيا قبل الثورة ، ثم صارت مصر أغلى بلد فى العالم من حيث إمكانية الحصول على شهادة جامعية .
أما التعليم فلا يوجد تعليم فى مصر الآن . الموجود هو جمع من حملة الشهادات ، ولا يخفى على عاقل الفرق بين الحصول على الشهادة وبين التعليم والتربية بالمفهوم الصحيح .
وصار هدف المواطنين أن يحصل أبناؤهم على شهادات جامعية .
وحالة المدارس والجامعات بلغت من السوء حداً لا درك بعده تنزل إليه . فالأعداد الغفيرة لا تجد لها مكانا فى المدرج وعلى الأخص فى السنوات الأولى من الكليات ، حيث تبلغ الأعداد عدة ألوف فى أماكن لاتستوعب غير مئات ينبغى أن يقل عددها عن عدد أصابع اليد الواحدة . بالإضافة إلى الإمكانات العملية التى لاتكفى لغير بضع عشرات من الطلاب .
وهذا خلق ما يسمى بالدروس الخصوصية و الدرس الخصوصى يصل ثمنه فى المادة الواحدة إلى عدة ألوف ، وهو ليس بغرض التعليم بقدر ما هو بغرض النجاح ، فقد بدأ تعليما ، ثم انتهى رشوة لبعض الأساتذه والمدرسين والمعيدين .
ومن يريد الشهادة عليه أن يدفع الرشوة ، وهى تصل إلى عدة آلاف من الجنيهات فى العام الواحد . وهل يمكن لأستاذ يأخذ رشوة من طالب أن يقوم على تربيته وغرس قيم الأخلاق فى نفسه ؟ لاأظن . وهل يمكن أن يقوم على تعليمه ؟ لاأظن أيضاً .
وقد أدى هذا إلى ضعف مستوى الأساتذه والمدرسين أنفسهم ، فهم فى حاجة إلى التربية والتعليم من جديد فى مكان غير مصر . وتجارة الكتب الرخيصة الشكل والمضمون يدخل الأستاذ إلى سوقها ، وينتهز الفرصة ليقدم كل عام كتابا جديدا على ورق رخيص بمادة قد تم ترجمتها عن الإنجليزية والفرنسية ، وربما يكون لهذه المادة صلة باللغة العربية والتاريخ الإسلامى ، فينقل الاسم العربى مترجما دون الاجتهاد

فى رده إلى أصله العربى . وتحت يدى نماذج كثيرة لكتب من هذا النوع .

ثم يتكلمون عن الجامعات الأهلية فيرفض المنتفعون بحجة الحفاظ على مكاسب ثورة ٢٣ يوليو ، وهى فى الحقيقة الحفاظ على ركائز حكم المنتفعين وسلطانهم ، فالشعب الجاهل أسلس قيادا من الشعب المتعلم كما قال عباس الأول .

أما المدارس الثانوية والإعدادية فحدث عنها ولا حرج ، حيث المدرس المنسحق المسكين الذى لايكاد يجد قوت يومه ، فهو يبحث عنه من خلال الدروس الخصوصية . ولو أرسل ولى الأمر – ولى أمر التلميذ – أولاده أو بناته ليتعلموا فى انجلترا لكان ذلك أوفر وأرخص له بكثير ، وسوف يتعلم أولاده بالتأكيد .

ثم تذهب إلى المدرسة – ومنها مايسمى بالنموذجية – فتجدها أشبه ما تكون بأتوبيس مزدحم قد اختنق فى سوق ماشية بقرية من قرى الريف المصرى .

هذا هو التعليم ومجانيته وسيلة للسيطرة على الشعب عبر سرداب جهنمى لايستطيع أحد الفكاك أو الخروج منه .

والكلام حول هذه النقطة يطول ويعرفه القاصى والدانى ، ويفهمه الحاكم والمحكوم وعلاج ذلك يرتبط بعلاج مشكلة مصر ككل ، وهى تتمثل فى إصرار الحاكم الذى تقع مصر المسكينة تحت قدميه على أن تظل تحت قدميه حتى يموت . وقد سبقه أساتذة ، ورسموا له الطريق ، وعلموه كيف يحافظ على مكاسب الثورة . المكاسب له هو !

فإن جاء الحاكم البشر فهو قادر على حل المشكلات . أما الحاكم الإله فلا فائدة ، فليس عنده إلا مقولة فرعون « ماأريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » .

ولا يغيب عن بال أحد أن فساد التربية والتعليم هو فساد الأصل والجذور ، ومن ثم فلا أمل فى إصلاح أو تغيير .

ورحم الله أياما كانت شهادات الجامعات المصرية فيها لها القيمة والاعتراف العالمى .

وأذكر أن أحد المستشرقين الإنجليز قد سألنى مرة :

– كم ثمن الليسانس والدكتوراه هذه الأيام فى مصر ؟

ولم أستطع الرد عليه من الخجل الشديد .

وزارة لهدم السد العالى

بنينا السد العالى فى دراما نعيش فيها الآن . وهو مشروع قد درسته الحكومات قبل

الثورة وأفادت الدراسات أنه غير مفيد ، وأن المفيد هو بناء سلسلة من القناطر والسدود على طول نهر النيل للآثار الجانبية التى يمكن أن تهدد البلاد على مدار السنين .

وقالوا أيام أقاموه إن كيلو الكهرباء سيكون بمليم ، وقد يوزعون الكهرباء مجانا على الناس .

ثم أخبرنى واحد من أهل الخبرة ممن أثق بهم أنه سيأتى الوقت الذى تنشىء فيه الحكومة وزارة لهدم السد العالى ، كما سبق أن أنشأت وزارة لبنائه ، ولا أدرى هل هذه الوزارة وزارة السد العالى لاتزال قائمة أم لا .. ففى عهد الثورة العجيب كم من وزارات نشأت وبادت كالحضارات القديمة .

وكان بناء السد العالى يبشر بعصر جديد من الكهرباء والتكنولوجيا وسائر ما أذاعوا به من خزعبلات وخرافات على الشعب المسكين الطيب . ولكننا اليوم نعيش ويلات مضحكة مبكية من همسات تدور فى الكواليس عن خطورة السد العالى فى تفاصيل طويلة ، ولكنهم يؤكدون أن السد العالى سوف يقضى على مصر المستقبل ، وأن لا خطر منه الآن على الأقل لمدة مائة سنة .

وكلمة سيقضى على مصر المستقبل ليست من باب المجاز ، ولكن أهل الخبرة والعلم يقولون إنها حقيقة فى تفصيل طويل . ولا يوجد مجال لشرح وجهة نظرهم وعرضها للناس .

فالقائمون على الأمر يمسكون البلد بيد من حديد ، ولا يسمحون بغير وجهة نظرهم أن تأخذ سبيلها إلى الانتشار .

فنحن نعيش فى بلد لانعرف فيه الحقائق ، ولا ينتشر فيه غير الأوهام والأباطيل والأكاذيب ، كالمريض الذى به داء عضال ويخدعه كل من حوله ولا يقدمون له العلاج ويقولون له طول الوقت أنت فى صحة جيدة ولا بأس عليك ، وإن قال لهم : البعض يرى أنى عليل يقولون له : هؤلاء هم الشامتون والحاقدون والمغرضون .

وإن قال: وأنا نفسى أشعر أننى لست فى حالة حسنة قالوا : أنت فى حالة حسنة ونحن نعرف ما بك وأنت لست مهيأ حتى للشعور والإحساس . وضاعت أحلام التكنولوجيا والتقدم العلمى والنظر إلى آفاق المستقبل ، وتوحش السمك فى بحيرة ناصر فصار كأفراس البحر ، ولايجد من ينقله إلى البلاد ، ونحن نعانى من نقص فى كل شىء .

حتى هذه الفائدة البسيطة لا نستطيع أن نحصل عليها لفساد يصعب التخلص منه قبل قرن من الزمن .
والذى يفتح فمه نلقمه حجرا .

موارد مصر لاحصر لها ، ولكن كيف ؟!

وحدثنى بعضهم عن شواطىء مصر وكيفية الحصول على كمية من السمك تكفى المصريين ويصدر ما يفيض عن الحاجة إلى بلاد كثيرة . ولكن الثورة صنعت شباكا من اللوائح والقوانين قد كبلت الشعب ومنعت النشاط وضمنت التخلف قرونا لو استمرت هذه الأحوال .
فقلت له : لماذا لا تقوم الدولة بعمل هذا وصيد السمك وبيعه وتصديره ؟
فقال لى : ليس فى إمكاناتهم المادية عمل هذا .
– إذن سيسمحون للشركات العالمية بالاصطياد من شواطئنا عبر اتفاقات وشروط .
فقال لى :
– هناك ما يسمى بمؤسسة الثروة المائية ، ولا يسمح لواحد – شخص واحد – أن يضع "سنارة" فى الماء دون إذن هذه المؤسسة ، وكل الأفراد الذين يصطادون للهواية يخالفون القانون . فإن جاءت شركة لتنفيذ هذا المشروع فعليها أن تدفع من الجزية والعمولات والرشاوى ما لايجعل للمشروع جدوى ومن ثم ينفضون أو يقومون بالصيد خفية دون علم هذه المؤسسة البلهاء ، التى لايدرى أحد ما طبيعة عملها على وجه التحديد مثلها مثل غيرها من المؤسسات العديدة التى ازدحمت بها مصر .

فكل إذن أو نشاط بمائة إذن وألف تصريح ، وكل هذا يدار للقائمين على العمل ولحسابهم ، والمجتمع لايستفيد شيئا ولا يزداد إلا تأخرا .
كان عبد الناصر حريصا على إفقار الجميع ، وأن يعيش الناس من مرتباتهم وحرّم عليهم أى نشاط ، والنشاط هو شرط التقدم . وكان يرى أن قوة المال تهدد سلطانه وتقوضه . بغض النظر عن فائدة هذا للمجتمع وازدهاره . ولم يكن أمام المسئول غير الفساد والسرقة والنهب لتحقيق مستوى من المعيشة يتناسب مع وظيفته ولا يحققه له مرتبه الصغير .

الزراعة والاستصلاح مستحيل

أما الزراعة والاستصلاح فحدث ولا حرج .
كانت مصر مزروعة قمحا من غرب النيل حتى ليبيا فى أرض لاتزال صالحة للزراعة وكانت تعتبر مخازن القمح الرئيسية للدولة الرومانية فى العصر القديم .
ومع توالى القرون بُوِّرت هذه الأرض ولم تعد تزرع .
واليوم من الممكن زراعتها وهذا سهل وبسيط . ويمكن أن تقوم به الشركات العالمية بشروط يتفق عليها ولن تأخذ شركة أرض مصر معها أبدا . وزراعتها خير من تركها بوراً فى بلاد تشكو من قلة الطعام ، وليس لديها الاكتفاء الذاتى منه . ولا أدرى أية شروط يضعها أحمق أو حمقى أو خائن أو خونة تملك أرضا بوراً صحراء منذ مئات السنين ، فليتملكها من يشاء ، وليورثها لأبنائه ، وليكن الشرط الوحيد لهذا هو الاستصلاح ولا شرط آخر .
واسألوا الذين جربوا الاستصلاح ، وكم دفعوا من الرشاوى ولأية جهات ، وفى النهاية لا يمتلك الأرض إلا بحكم من المحكمة إن استطاع أن يصل إلى هذه النقطة ، وهذا فى حدود عشرات الأفدنة ، ونحن نستطيع أن نستصلح ملايينها لو حسنت النية وحطمت قيود القوانين السفيهة المغرضة .
ويتردد فى الكواليس أن هذا مخطط أمريكى إسرائيلى لتحجيم الرقعة المنزرعة قمحا ، حتى تضمن أمريكا السيطرة على مقدرات الشعب المصرى . ونحن مضطرون لتصديق هذا الكلام ، لأن هذه هى السياسة التى تجرى وتدور ونشاهدها بأعيننا .
وإلا ما الذى يمنع الإدارة من إعطاء الشركات المحلية والعالمية حق الاستزراع والتملك وفق شروط ، وأن تملك شركة أجنبية حق الامتياز لمدة ٩٩ سنة وتزرع لنا قمحا نأكل منه ونصدره خير من أن تملكنا أمريكا وإسرائيل إلى الأبد . وقد أظهرت التحقيقات الأخيرة مع شركات توظيف الأموال، أن إحدى هذه الشركات-أو هذا ما نشرته الصحف ـ أن الشركة قد دفعت أكثر من مليون جنيه رشوة لصاحب وظيفة اسمها مستشار بوزارة الزراعة .. أو مستشار وزير الزراعة .. ولا يفوتنا أن نذكر اسمه هنا للتاريخ وهو السيد يوسف والى .. وهو لا علاقة له حتى كتابة هذه السطور بالتحقيقات ، ولم يثبت حتى الآن أن له صلة بهذا الموضوع من قريب ، ولكن الرشوة – أو هكذا قالوا – مع مستشاره حتى تتملك الشركة بضعة آلاف

من الأفدنة من صحراء مصر .. نعم من صحراء مصر للاستصلاح . ثم حالت النكبة التى نزلت بهذه الشركات دون إتمام ذلك .

شركات توظيف الأموال

وهذا يقودنا إلى الحديث عن شركات توظيف الأموال ، تلك الظاهرة الفريدة التى ظهرت فى مصر خلال العقد الأخير .

فهذه الشركات استطاعت أن تجذب مدخرات المصريين - جزءا منها - العاملين فى الخارج واستطاعت أن تستوعب ما بين عشرين وثلاثين مليارا من الدولارات الأمريكية للتوظيف والتشغيل فى مصر وخارجها .

وقد استطاعت هذه الشركات أن تقفز إلى هذه الأرقام فى سنوات قليلة أقل من أصابع اليد الواحدة .

وكانت معدلات جمع المدخرات فى زيادة ، وكان من المتوقع أن تصل هذه الأرقام المجموعة للتوظيف إلى ثلاثمائة مليار من الدولارات مع مطلع القرن الواحد والعشرين .

وقيل الكثير عن دواعى نكبة هذه الشركات ، وأغلبه هراء وغير ثابت ، فلم تكن عند الحكومة ولا غيرها أية معلومات صحيحة أو يقينية عن حجم هذه الشركات أو المشروعات التى تعمل بها . ولكن المؤكد أنها قد بدأت تزحف إلى أموال العرب وكان يمكن جمع مئات المليارات من الأموال المصرية والعربية .

ومن خلال هذه المليارات كان يمكن شراء التكنولوجيا والتصنيع الحديث لكل شىء، فبدلا من صناعة المراوح والغسالات كان يمكن صناعة السيارة والدبابة والصاروخ والمدفع ، وهذا مالاتريده إسرائيل وأمريكا والغرب بصفة عامة ، ومن خلال هذه الصيغة العبقرية التى أوجدها المصريون باسم الإسلام كان يمكن تحقق انفصال الشرق عن الغرب انفصالا يجعل الأول فى مقام الند مع الثانى ويتميز عنه بالإسلام .

وكان يمكن أيضا أن يتغير التاريخ من خلال هذه الصيغة السهلة البسيطة التى ساعد على وجودها الشعور العام بالإسلام ، كدين له وجود حقيقى فى نفوس الناس فى بلاد الشرق .

ولك أن تطلق الخيال وتترك عنانه فتتخيل أننا قد تخلصنا من القروض ، ولو كنا فى حاجة إليها فيمكن لهذه الشركات أن تدفعها ، ويمكن لها أن تشارك فى كل خطط

التنمية وبناء مصر الحديثة لو سمح لهم . بدلا من الاستنزاف الذى نعيشه كل يوم من خلال مشروعات فاشلة لا معنى لها مثل نفق المترو الذى استمر العمل به أكثر من عشر سنوات وماذا كانت النتيجة ؟ أربعة كيلو مترات تحت الأرض لاتسمن ولاتغنى من جوع ، ومليارات من الدولارات صارت دينا علينا للفرنسيين وغيرهم بالإضافة إلى أن ثلاثة أرباع القرض قد أخذته هذه الشركات على هيئة خدمات ومرتبات وأجور ، ولم يكن لنا رأى فيه ،فالله سبحانه يعلم - والشركات - ماهى العمولات التى دفعت ولمن .

ثم يزداد الدين على الشعب المصرى المسكين .

كان الخديو إسماعيل يستدين ويدفع عمولات ، ولكن لمشروعات هو يحددها ويجد أن بلاده فى حاجة إليها . أما اليوم فنحن نستدين وندفع عمولات ونأخذ عمولات لمشروعات تأتى لنا مدروسة مقترحة من الخارج ، وليس لنا رأى فى إتمامها أو التعديل فيها .. نحن مستنزفون مسروقون لأن القائمين على هذه الأشياء لا انتماء لهم ومصلحتهم الحقيقية فى الأرصدة والمبالغ المحولة لهم إلى الخارج ، كثمن لخيانتهم لبلادهم وأهلهم .

نحن نحاكم بنظام فريد

والسبب فى هذا هو غياب الرقابة وفساد الشعب ، وتكون جيل من المسئولين ليس لهم انتماء ، وقد أُكد عليهم عبر سنوات بعدم التدخل فى السياسة ، وعدم التدخل فى السياسة يعنى عدم التعرض لشخص الحاكم الذى يجلس على كرسى مصر مهما كانت صفته ومهما فعل .

ونحن نعيش نظاما عجيبا فريدا من نوعه فالأنظمة السياسية - حسب علمي-إما ملكية: ملك يملك ولا يحكم ، أو ملك يملك ويحكم ، وإما جمهورية : نظام جمهورى لرئيس جمهورية يمثل رمز البلاد ولادخل له بالحكم وليس مسئولا ، وهناك رئيس للوزراء هو مسئول أمام البرلمان ويستطيع البرلمان أن يحجب الثقة عنه ويسقطه . وليس لرئيس الجمهورية دخل فى هذا،فهو يعين رئيسا آخر للوزراء بدلا منه . وهناك نظام يجعل رئيس الجمهورية هو المسئول أمام البرلمان ويمكن محاسبته وعزله مثل أمريكا .

أما فى مصر فرئيس الجمهورية هو الذى يملك ويحكم ، وهو ليس مسئولا أمام أحد أخطأ أم أصاب ، ولا يستطيع أحد أن يحجب الثقة عنه ولا يجوز عزله عمليا أو نظريا .

وهذا هو المكمن الأساسى للفساد .

فرئيس الجمهورية هو شخصية مصونة لاتمس ، وتدور من حوله القوانين والدساتير والبيانات والقرارات والأخطاء والجرائم ، وهو باق كالهرم الأكبر ، لايستطيع أحد أن يقترب من ذاته العلية .

وقد يأتى ويخطب فى الجموع ويقول إن هذه السنة سوداء ، والتى بعدها أشد سواداً وقتامة . ويمكن أن نقول له : يا سيدى كتر خيرك .. اتفضل سيادتك مشكورا وسوف نجعلها بيضاء ونجعل التى تأتى من بعدها أكثر بياضا .

ولكن من يستطيع أن يفعل هذا ؟

ومن يقدر ؟

من الذى يعلق الجرس فى رقبة القط ؟

النظام يسمح بتأليه الحاكم ، ولا يسمح بنقده بحال من الأحوال ، أساء أم أخطأ ، هذه أمور ليست محل مناقشة ، ولكنها من المسلمات المصرية التى يقبلها المواطن ، وله أن يسب ويلعن من يشاء وينقد كيفما يريد .

ولكن لو اقترب من ذات رئيس الجمهورية قطعت رقبته .

ويبدأ الحاكم فى العادة بشرا سويا ثم يصنعون منه إلها ؛ هذه هى عادة المصريين من قديم الزمان . والأمل ضعيف فى تغييرها .

التطرف الديني وعلاجه

ثم نأتى إلى ما يسمونه بالتطرف الدينى .

وهى ظاهرة نشأت فى معتقل طرة السياسى عام ١٩٦٦ نتيجة اضطهاد عبد الناصر ، ثم نمت وترعرت وزادت حتى أصبحت تمثلا تيارا كبيرا خطيرا على الحاكمين أولا قبل غيرهم .

أعداد هائلة من الشباب وجدت أن لا وسيلة للعيش فى هذه البلاد إلا من خلال

احتياجات بسيطة يمكن توفيرها وقد أمر بها الدين .. تتمثل فى جلباب واحد أبيض قصير وقطعة من القماش توضع فوق الرأس وتغنى عن دفع مئات الجنيهات فى الملابس الإفرنجية . وبحسها شعرت بطغيان القادة والكبراء وبعضها أخرجتهم عن الإسلام ، وباستفزازهم حدثت المناوشات والمصادمات وانتقلت نقط التماس من صعيد مصر إلى الوجه البحرى واستقرت فى القاهرة فى عدة نقاط.ما الذى يضمن لنا ألا تزيد ؟ ومن الذى يمكن أن يتنبأ بنتائجها ؟

وهى ثورة سياسية واقتصادية أخذت ثوبا إسلاميا .

وهى ثورة بكافة المعايير .. وقد تودى بالنظام فى نهاية درامية لا نحبها ولا نريدها ولا نتمناها .

وعلاجها فى بساطة ويسر – وهوغير متوافر وغير منتظر – أن يسارع النظام بقيادة هذه الثورة وتحقيقها ، بمعنى أن يحدث النظام انقلابا على نفسه ويفرغ ظاهرة العنف هذه من محتواها .

وهناك الخوف من أمريكا يحول دون هذا لأنها تمسك برقابنا وتعطينا كل شىء من أول رغيف الخبز إلى الطائرة والمدفع .

وقد قلنا إن شركات التوظيف كان يمكن أن توفر لنا ذلك لو أحسن استغلال الظاهرة والسير بها قدما وتشجيعها .

وزراعة القمح أمر ميسور ويزرعه الفلاح المصرى منذ آلاف السنين ، والمطلوب أن يسمح له بالزراعة دون تدخل من أحد ، والشىءالعجيب أن ربطة العنق التى يرتديها المصريون وهى ليست من لباسهم ولكنها شىء ورثوه عن الغرب يمكن بالاستغناء عنه أن يوفر على الدولة بضع مئات من ملايين الدولارات ، وقد جربت هذا إيران ونجحت فيه ، فلا تجد أحدا يرتدى ربطة عنق وبخاصة إذا علمنا أن ثمن الواحدة يتراوح ما بين خمسة دولارات إلى مائة دولار ، والله يضاعف لمن يشاء . والاستغناء عنها وغيرها لا يأتى بقرار ولكن بالقدوة .. والقدوة فقط ، فعندما قامت الثورة خلع جمال عبد الناصر الطربوش و لم يستخدمه أحد بعده حتى الآن . وأقفلت مصانع الطرابيش .

فلوجاء من يمكن أن نأخذ القدوة منه وفعل شيئا فسوف يقلده الجميع . وليس هناك من عجز فى ميزان المدفوعات ، وهو ليس فقرا ولكنه قلة رأى كما يقول المثل المصرى ، وأضيف وهو خيانة وعمالة وإيثار الدنيا على الآخرة ، وأنا وبعدى

الطوفان ، وهذا شعار جميع المسئولين الذين يحكمون منذ اليوم الأغبر الكئيب من صيف عام ١٩٥٢ .

ويقف العلماء فى صحن الأزهر ويطبلون ويزمرون ويهيصون ، ومنهم علماء أفاضل نبجلهم ونعترف بفضلهم ، وهم يصرخون أنهم ليسوا علماء سلطة ، ولكننا لا نصدقهم فى هذه ، وربما لايوافقوننا ولكنهم مخطئون ، وببساطة وسذاجة لا تتفق مع علمهم وفضلهم يطلبون من الشباب عدم التطرف ، تلك الصفة التى لا نفهم مدلولها على وجه التحقيق لأنها مطاطة تحمل معانى كثيرة .

ما هذا الهراء ؟

وما بال تلك العمائم الكبيرة تهتز وتطلب عدم التطرف ؟

مثلهم فى هذا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع .

ومثلهم فى هذا مثل الطبيب الذى يعود مريضا فيجد حرارته مرتفعة فيقف على ناحية من سريره ويصرخ فيه ويقول له أنا لست من أطباء السلطة وعليك أن تخفض حرارتك على الفور ، ومثل هذا الطبيب تقول له أنت من أطباء السلطة ومجنون أيضا لأن تغير الحالة لا يتأتى بأمر ، ولكنه يتأتى بزوال دواعيها ، ويمكن لهذا الطبيب أن يعطى المريض عقارا يخفض حرارته ثم يبحث عن أسبابها ليقضى عليها بشكل نهائى .

ولكن هذا لا يتأتى لأطباء السلطة .

نحن حيال ظاهرة تحتاج إلى تأمل وعلاج .

أناس يسكنون القصور وآخرون لايجدون مكانا للسكنى فى القبور .

وهذا ليس شعرا ولكنه واقع يعرفه يعرفه أهل مصر . والفتاة التى تذهب إلى الجامعة أمامها طريقان لا ثالث لهما حتى تظهر بالشكل اللائق أمام زملائها،فهى فى حاجة إلى عشر بلوزات وثمانية فساتين على الأقل ، وهذه هى المتوسطات التى سمعنا عنها وفى العام الواحد .

ملابس يصل ثمنها إلى ألف جنيه مصرى .

هذا الكلام عن الفتاة المصرية العادية رقيقة الحال من أوسط من يعيشون .

وهى فى نفس الوقت ترى بعض زميلاتها يأتين إلى الكلية كل يوم بفستان يصل ثمنه إلى خمسمائة جنيه ، ويتجاوز الألف فى أحوال كثيرة .

فماذا تفعل ؟

إما أن تصير مثلها وتتجه إلى الدعارة لتحقيق هذا المستوى ، واسألوا بوليس الآداب فعنده الخبر اليقين .

وإما أن تصبر على ما يعتمل فى نفسها من حقد وتمرد وتطلع .
أو أن تعثر على الحل العبقرى « الإسلام هو الحل » وفى الجلباب والنقاب نجاة من الفساد وقربى إلى الله .
وهؤلاء يمثلون تيارا قويا له حجم كبير ، وله مطالب ، وله وجهات نظر منها الصحيح ومنها الخاطىء ، والاقتراب منه والتفاهم معه أولى وأجدى من الصدام .
والصدام معهم ليس فى صالح أعدائهم أو مناوئيهم ، لأنهم لا يتمسكون بالحياة تمسك غيرهم .
يجب أن يقترب الحاكم من المحكوم ليعرف كيف يفكر ويفهم آلامه وأحزانه وشواغله ومتاعبه . ولكن أن يظل بعيدا عنه فى سور عاجى مرتفع كبير حيث أعلاه برج يجلس فيه فلا يأمن أن يُهدم هذا البرج ويُقتحم هذا السور ، ويفقد بعد ذلك كل شىء .
والاضطهاد والقمع لن يفيدا ، والعظة والعبرة فى التاريخ البعيد والقريب ، ولكن تفهم المشكلات بأبعادها الدينية والاقتصادية والسياسية هو الذى يصنع مجتمعا جديدا ليست فيه أحقاد أو إحن .
وصدقونى لامناص لكم إلا بالتنازل عن بعض امتيازاتكم ، وهى ليست حقا لكم فقد اغتصبتموها ، وهى حرام ووبال عليكم ، وسوف يأتيكم نبؤه بعد حين .

اعتياد الناس على الفساد والمنكر

نحن نعيش فى هذه الأيام « عصر الاضمحلال » وهوالعصر الذى يأكل الأخضر واليابس ويقضى على مظاهر الحياة فى هذه البلاد .
صار الفساد هو الغالب .
وتربى جيل يحرق البخور للحكام ، ويمجدهم ، ويسبح بحمدهم .
وهناك جيل آخر قد تربى ونشأ ، ويريد أن ينتقم وأن يدمر وأن يقتلع جذور الظالمين وهم من يسمونهم بالمتطرفين .
وهذه قضية لم تأخذ حقها من العناية والبحث ، وغاية ما تفعلونه هو أنكم تأمرونهم بعدم التطرف من خلال علماء لايثقون بهم ، ومن خلال العصى الغليظة فى أيدى رجال الأمن المركزى .
وهذا ليس العلاج .

وقد اعتاد الناس أخبار السوء والفساد ، فبعد أن كان خبر اغتصاب فتاة ينشر لأول مرة يثير الناس جميعا ، ويجلس له علماء الاجتماع والنفس وغيرهم يناقشون الظاهرة ، صار الخبر فى الصفحة الأولى بشكل يومى تقريبا ، واعتاده الناس ، ولم يعودوا يعلقون عليه .

كان تعذيب المعتقلين أيام عبد الناصر يتم فى خفية بعيداً عن أعين الرقباء ، واليوم صارت أخباره تطالعنا فى الصحف بشكل يومى .

كل هذا ينبىء بشر عظيم قادم ، ويجب على العقلاء رده ومنعه ، وذلك بإزالة دواعيه وليس بالصراخ والاجتماعات والبيانات التى لا تؤدى إلى شىء ، غير مزيد من تعميق الهوة بين فرقاء الأمة المختلفين .

لوسمحتم لصاحب رأى أن يقوله فى العلن دون تعذيب أو اعتقال فسوف يجد من يناقشه ويرد عليه .

الشرطة هى الحل !

قالوا الإسلام هو الحل .

وقال وزير الداخلية الشرطة هى الحل .

وأنا أصدق المقولتين وأومن بهما ولكن بطريقتى .

فالأولى مفهومة وواضحة .

والثانية بعدم التجاوز ، وأن يعرف رجل الشرطة أنه مواطن ، فلا يعذب ولايضرب ولايقتل مهما كانت الدواعي لذلك ، وليساعد على إزالة الفجوة التى نشأت بالفعل بين المواطن و رجل الشرطة .

وهناك عملية تستهدف أن يتم الفصل بين الشرطة و بقية المواطنين .

والرأى فى هذا أنه خطر عظيم يقوض المجتمع . ولا نحب أن يأتى اليوم الذى نجد فيه الشرطة فى مواجهة الشعب ، فلوحدث هذا وتكرس الانفصال فالنتائج وخيمة ولا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى .

أحد الحلول الجذرية لمعالجة الفصام والنكد بين قوى المجتمع عدم تجاوز رجل الشرطة وأن يعلم أنه يتعامل مع مواطن مثله ، وليعالج فى داخله فكرة الانفصال والتفوق وأنه من طائفة مخصوصة لها امتيازات تجعلها فوق مصاف الناس .

قتل ضابط شرطة فى حادث مؤسف أليم ، يحزن كل من سمع به ، فلا ينبغى أن

يأخذ الحادث حجما أكبر مما هو عليه ، وليبحث عن الجانى وليعاقب ، و يجب ألا يعتقد رجال الشرطة أن زميلا لهم قد قتل وينبغى الثأر بأية طريقة ولا ينبغى أن ينسوا أنه مواطن قد جنى عليه وقتل ، وتسير القضية فى هذا الخط المنطقى ، فإن قتل مهندس أو طبيب أو مدرس ـ وهذا يحدث كل يوم ، فالجريمة قائمة ما دام هناك بشر ـ فهل هذا يستدعى أن يستنفر الأطباء للانتقام لزميلهم الذى قتل أو المهندسون أو المدرسون . ؟

هل يتحول الشعب إلى طوائف ، كل طائفة تدافع عن نفسها بالطريقة التى تقدر عليها ؟

لعمرى إن هذا هو الفساد العظيم .

ويقولون إن الأمر يختلف ، فمقتل ضابط الشرطة يعرض بهيبة الحكومة ، وهذا غير صحيح بالمرة . فكم من رجال شرطة قد قتلوا فى بلاد مختلفة ، و لم يكن لهذا دخل بهيبة الحكومة

هيبة الحكومة بالعدل والإحسان .

هيبة الحكومة تكون باحترام القانون أى قانون .

هيبة الحكومة تتأكد باحترام المواطن والمحافظة على حقوقه .

هيبة الحكومة تصير واضحة فى نفس كل إنسان بتقديرها للحرية والديمقراطية واحترام آراء الآخرين ، وإعطائهم الفرصة لإبداء رأيهم بالطريقة التى يريدونها .

هيبة الحكومة حقيقة عندما تحترم الإنسان ، ولا تسمح بالاعتداء عليه .

هيبة الحكومة تزداد عندما يزهد المسئولون فى الحكم والمناصب ، ويعملون جاهدين فى الخلاص من عصر الاضمحلال الذى نعيشه .

هيبة الحكومة فى ميثاق ودستور يوضع ويحترم ويلزم به الجميع الحاكم قبل المحكوم . وتنحية العصا الغليظة ، وإرسال رجال الأمن المركزى ليزرعوا الصحراء .

حب الوطن من الإيمان

كان لى صديق قد توطدت العلاقة بينى وبينه أثناء وجودنا بالمعتقل عام ١٩٦٥ وكان من أكثر الناس تحمسا للهجرة من مصر عندما يأذن الله بالفرج ، والخروج من ذلك المعتقل البغيض .

وكنت من أشد الناس تحمسا للبقاء فى مصر رغم ما فيها وما لقيته وغيرى على يد المستعمرين الضباط .
ثم شاء الله وخرجنا من المعتقل على قدر من الله .
وبقيت رغم ما فى البقاء من عناء .
ورغم طريقة الحياة المضحكة التى عشتها شهورا تحت رقابة مباحث أمن الدولة الهزلية ، فقد كنت أسكن فى شبين القناطر ، وهى على بعد ثلاثين كيلو مترا من القاهرة ، وحكمها حكم حلوان . فهناك قطار كل ساعة يروح ويجىء من القاهرة وإليها .
ولما كنت أتبع محافظة أخرى غير القاهرة فقد كانت تعليمات فؤاد علام تقضى أن أذهب لأخبر مكتب المباحث التابع له ، وكان يقع فى مدينة أبى زعبل ، على بعد عشرة كيلو مترات تقريبا ، ثم أذهب إلى لاظوغلى لأخبر الباشا أننى جئت إلى القاهرة ، وكان هذا يتم كل يوم ، وهو يأخذ عدة ساعات أقضيها فى إثبات حالات الذهاب والمجىء ، وبطبيعة الحال كنت فى كثير من الأحيان لا أجد الضابط فى أبى زعبل فأجلس فى انتظار حضوره ، وقد لا يجىء فألغى الرحلة . أو أذهب إلى لاظوغلى فلا أجد الباشا فأجلس فى انتظاره حتى ينقض الوقت المناسب لقضاء المصالح ، فأعود إلى شبين القناطر .
وكنت أجد أنها إجراءات لاجدوى منها ، والغرض منها الإذلال والتحكم .
ولما أرهقت من هذه الأشياء تشجعت مرة ، وذهبت إلى القاهرة وعدت ، ولم أستأذن وتكرر ذلك ، ولم أعد أهتم .
وفى مرة قال لى الباشا – فؤاد علام – :
– مش كفاية اننا سايبينك رايح جاى على كيفك من غير إذن ؟
وقلت له متمتما ساخرا :
– الله يعمر بيتك يا معالى الباشا .
وأنا أقول فى أعماق :
– الله يخرب بيتك وبيت اللى عينك وبيت وزيرك يا جهلة يامجرمين .
وكنت أزمع البقاء فى مصر وأنا أعرف أنها تحت حكم التتار .
وأرجو من الله أن يزول هذا الحكم يوما ، أو تخف قبضته على الشعب
أما صاحبنا فقد غادر مصر ، وسافر فى البلاد ، وحصل على درجات علمية

رفيعة ، وحظى بثقة كثير من الهيئات العلمية والجامعات فى العالم ، وصار خبيرا فى فرع تخصصه . وهو يقوم بتدريس مادة نادرة فى إحدى كليات الهندسة ببلد عربى ، وكان من رأيه أن العسكر ماداموا يحكمون فلا خير يمكن أن يرجى ، ولاصلاح ولا فلاح .

وكان من رأيى أنه بعد موت عبد الناصر سوف تنصلح الأمور وتهدأ ، ثم تأخذ البلاد شكلها الطبيعى يوما بعد آخر ، حتى نصير مثل بلاد الدنيا ، وأن دوام الحال من المحال .

أما هو فكان متشبثا برأيه ، وعنده عقيدة هى إلى اليقين أقرب .. لا أمل فى مصر على الإطلاق ما دام العسكر فيها ، أقوياء كانوا أم ضعفاء ، ولا فرق بين عبد الناصر أو أنور السادات أو ثالث يمكن أن يأتى بعد الآخر .

وكان يرى أن حكم العسكر لايتفق مع طبيعة الأشياء ، وهو ضد التربية والحضارة والأخلاق وتحصيل العلوم .

ولم تطأ قدماه أرض مصر بعد أن غادرها فى أول حكم السادات ، بعد أن خرجنا من المعتقل .

وعندما كان يشتاق إلى أمه وإخوته فهو يلقاهم فى ذلك البلد الذى اختاره محلا لإقامته ، حيث يحظى بالتكريم والتبجيل والأستاذية فى الجامعة .

وكنت ألقاه فى خارج مصر وأقول له :

ــ الأمور تسير بالبلاد سيرا حسنا ، ويمكنك الحضور والأحوال هادئة .

والحكومة فى شغل شاغل بالنبت الجديد الذى يمسك بالخنجر والرشاش فيقول لى :

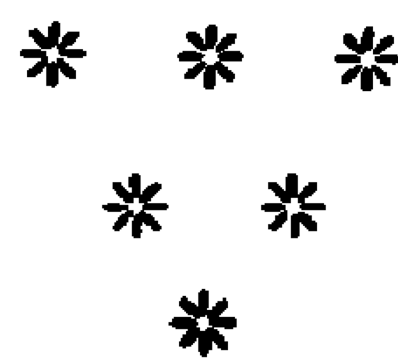
ــ أبدا . هذه الظواهر لاينبغى أن تخدع مثلك .

* مخطىء من ظن يوما ... أن للظالم دينا *

ثم تدور الأيام دورة العكس كما يقول جمال الدين الأفغانى .

وأجد أن كل ما كان يقوله صديقى العلامة ح . ص هو صحيح مائة فى المائة ، وأننا نعيش فى هذه البلاد بلا حقوق . ونعتمد فى الحصول على حريتنا على مزاج الحاكم ضعفه أو قوته . وهو ينكل بنا إن أراد ، ويمنعنا من السفر إذا شاء ، ويعتقل من لايعجبه فى الوقت الذى يراه ، وليست هناك حقوق حقيقية لمواطن يعيش فى هذه البلاد .

وأتذكر مقولته الحكيمة : أن لا أمان لمن يعيش فى مصر فى ظل حكومة العسكر وإن غيروا ملابسهم الكاكية .
ثم أرى الأمور تسير بنا وبهم إلى مستقبل مجهول غامض .
وأرى أننا نسير معهم وهم يقودوننا فى سرداب آخره شلال من دم متدفق يصنعه قوم لا نعرفهم ، وشباب لانراهم ، حيث الضحايا هم ونحن والجميع .
وماذا يجدى معنا غير الصبر فى عالم القردة والخنازير والذين لايفهمون .
تغير العالم وهم لم يدركوا هذا بعد .
زاد عدد السكان ، وغاية ما يفكرون فيه من قضايا هو تحديد النسل .
العنف يأخذ موقعه فى طول البلاد وعرضها ، وهم لايزالون على أوهامهم ..
الأمن المركزى والشوم وقنابل الدخان .
وإن شمل العنف كل المواطنين فماذا ستفعلون ؟
ستعلقون على الأعواد ، ويطلق عليكم الرصاص دون تمييز .
وعندها فقط سوف تندمون .
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ..
امنحوا هذا الشعب حقه من الحرية والعدل قبل فوات الفرصة .
أو هو الطوفان الذى يقتلعكم من جذوركم ، وينكل بكم وبنا .
والوطن هو المكان الآمن الذى يحصل الإنسان فيه على حقه الكامل فى الحياة الكريمة ، وهو المكان الذى يرتبط به ويعمل على النهوض به وتقديم حياته فداء له .
وهو بالتأكيد ليس حظيرة يعيش فيها ، يقدم له فيها العلف ويضرب بالشوم بين الحين والآخر ، حسب إرادة آمر الحظيرة .
الحرية والقانون واحترام المواطن .
أو هو شلال الدم والعنف والدمار .
وعليكم أن تختاروا .
وأنا أعرف كيف تفكرون وأدرك ما الذى اخترتم .
وما كلامى هذا غير صرخة فى واد ونفخة فى رماد .



ملاحق الصور (*)

(*) هذه الصور من كتاب النقط فوق الحروف الطبعة الثانية للأستاذ أحمد عادل كمال من إصدارات الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة .









الأستاذ حسن البنا

« فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ • فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ • »

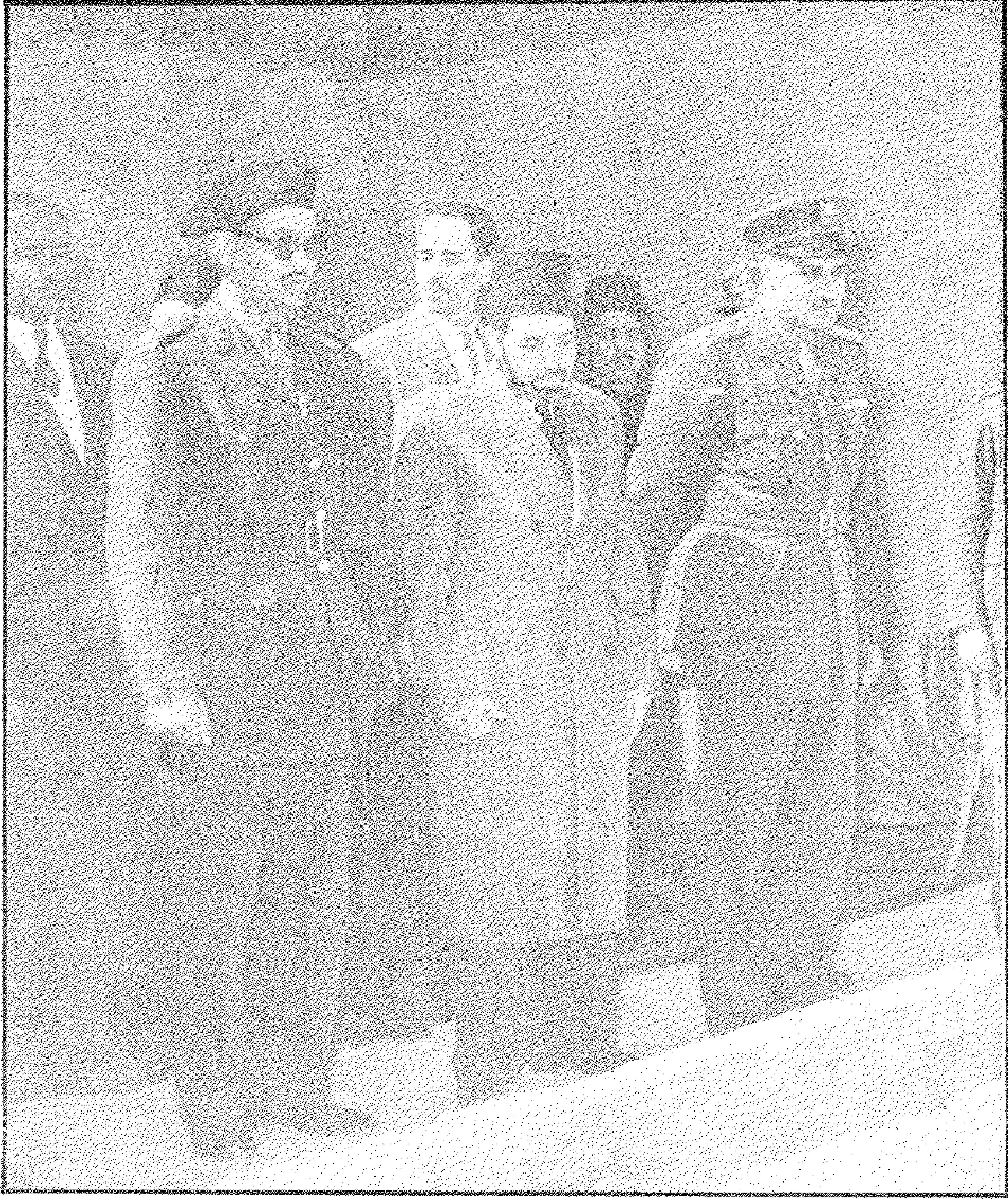


صورة لحسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين أمام المحكمة .

" وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ "



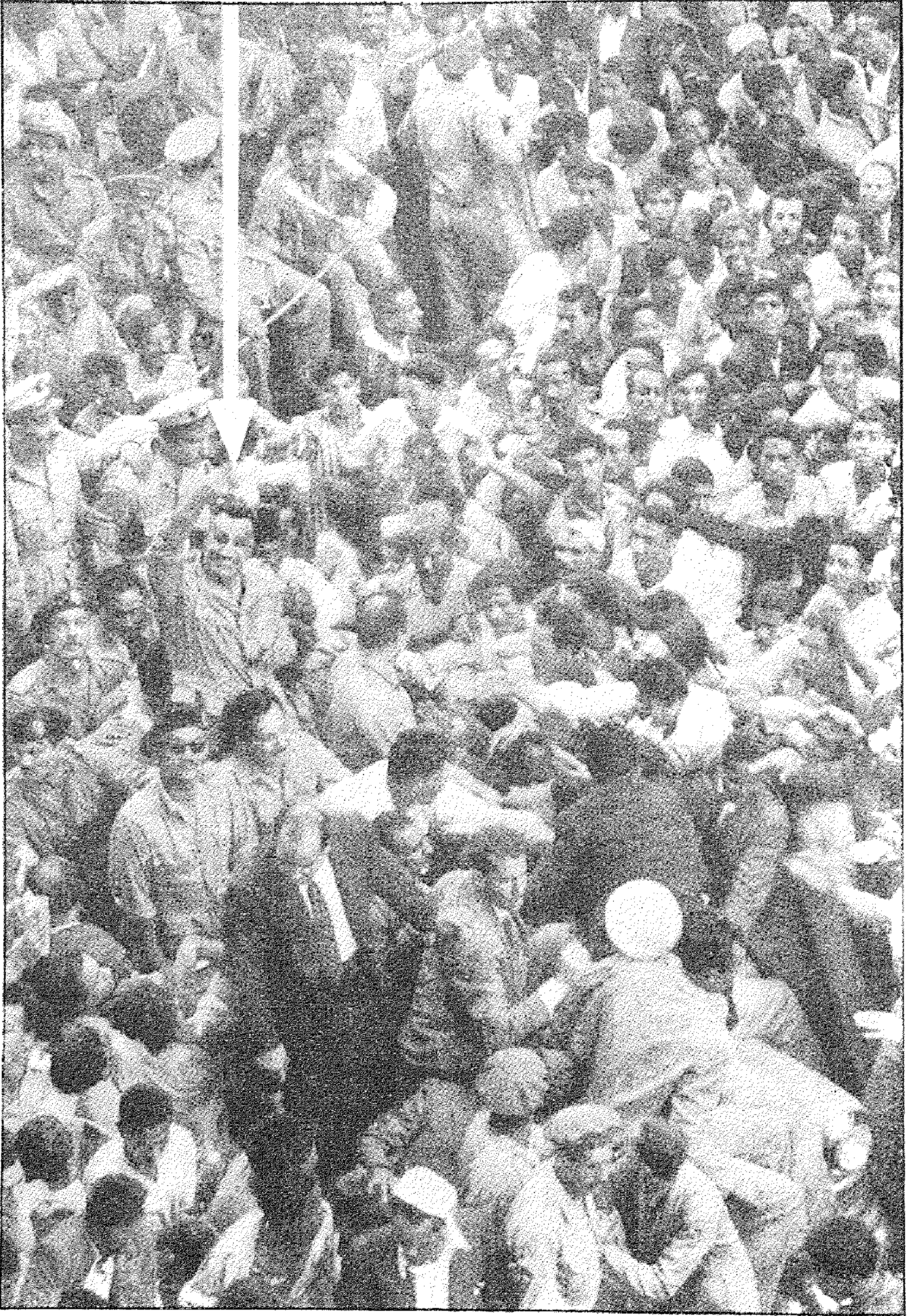
« الملهم » فى أول الثورة بأعلى وفى عزها بأسفل



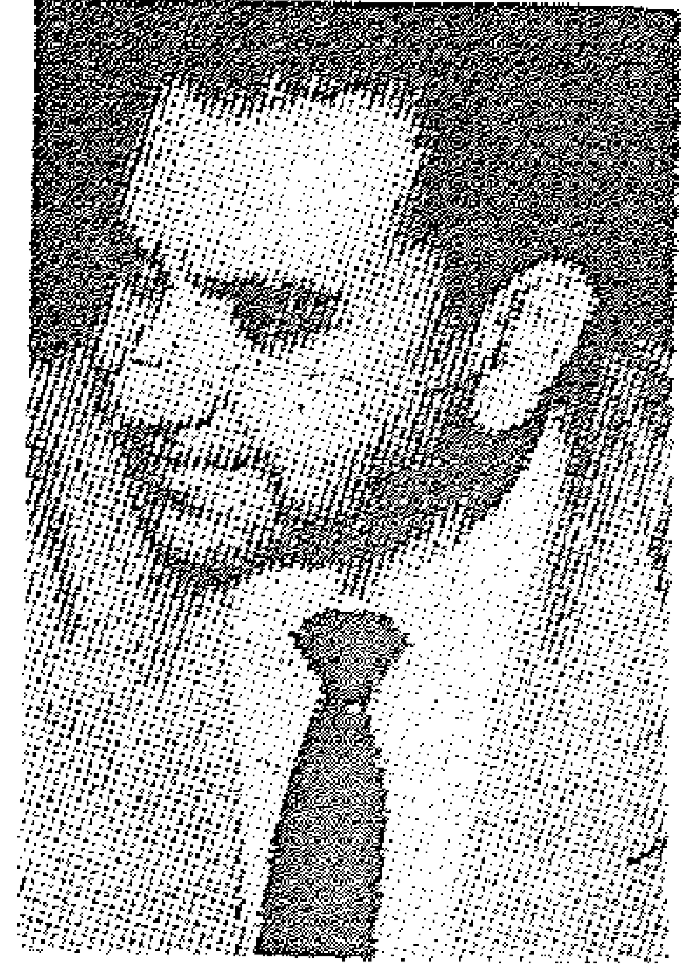
على قبر حسن البنا ١١ فبراير ١٩٥٤ جمال عبد الناصر - عبد الرحمن البنا
صلاح سالم وخلفهم صلاح دسوقي وجمال السنهوري

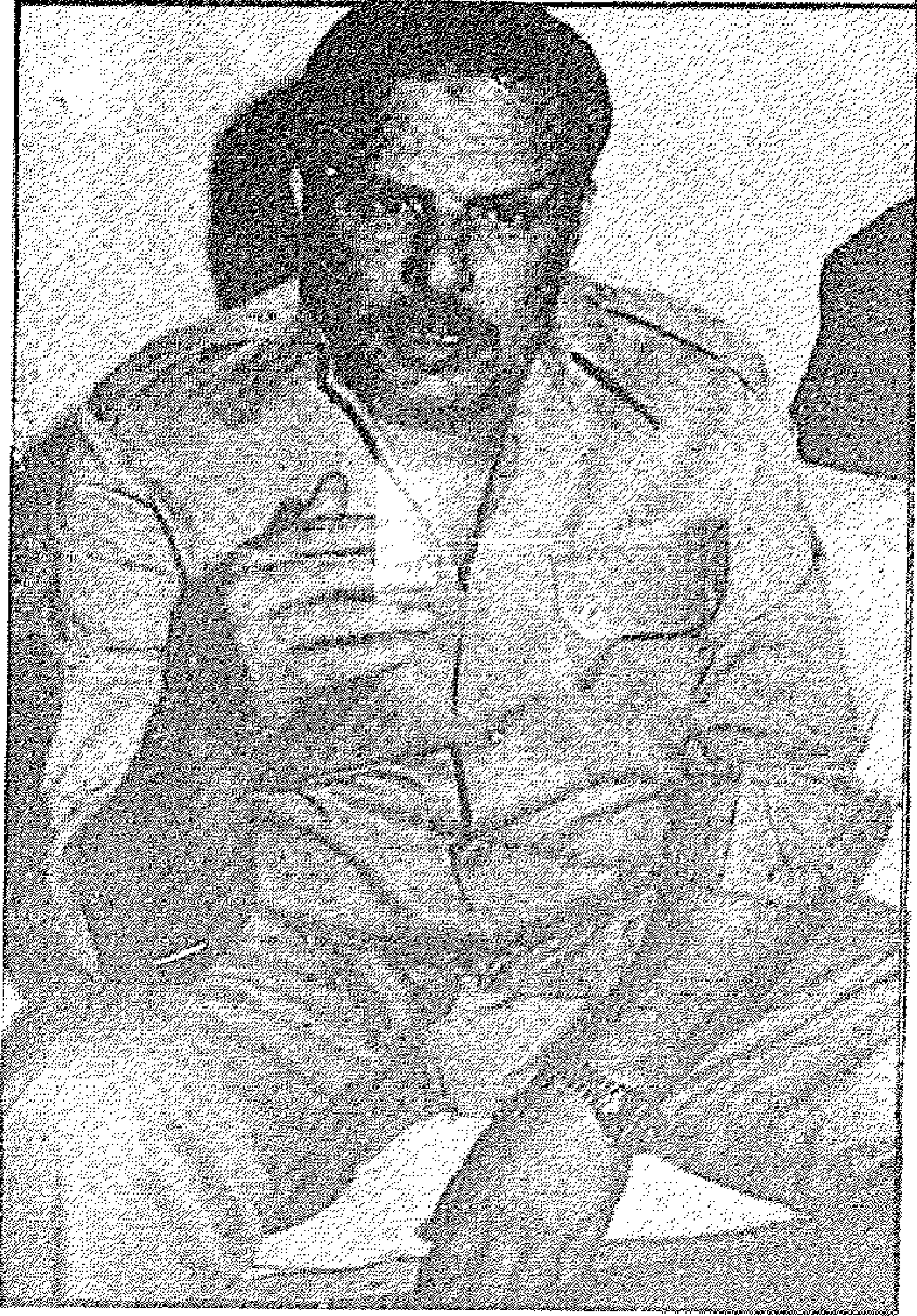


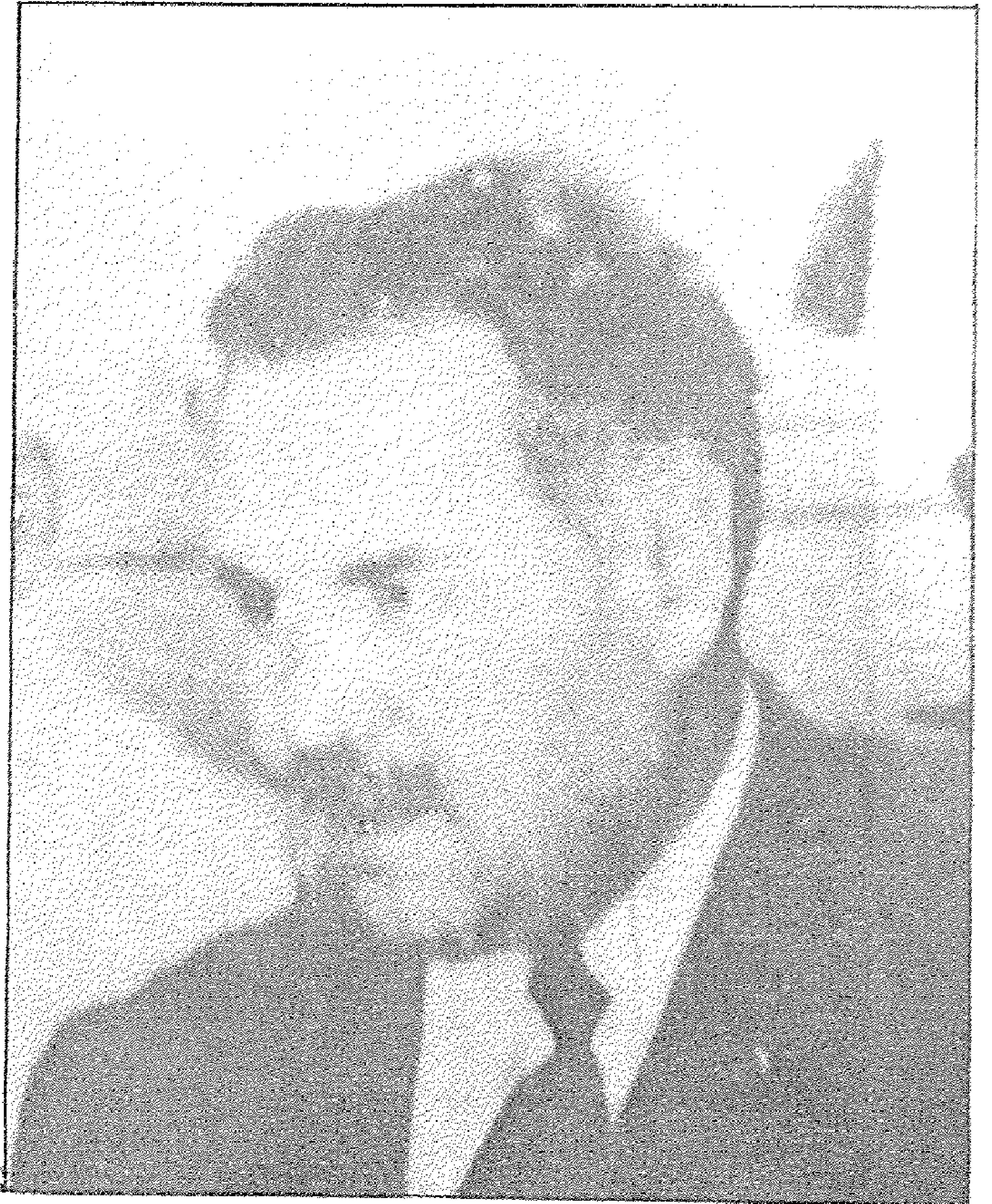
محمد نجيب يلقى آخر نظرة على مكتبه عند تحديد إقامته .



استقبال جمال عبد الناصر بميدان باب الحديد بالقاهرة بعد عودته من حادث المنشية


شمس بدران


▲ صفوت متهم بقتل العديد من المعتقلين


◀ سفاح السجن الحربى حمزة البسيونى

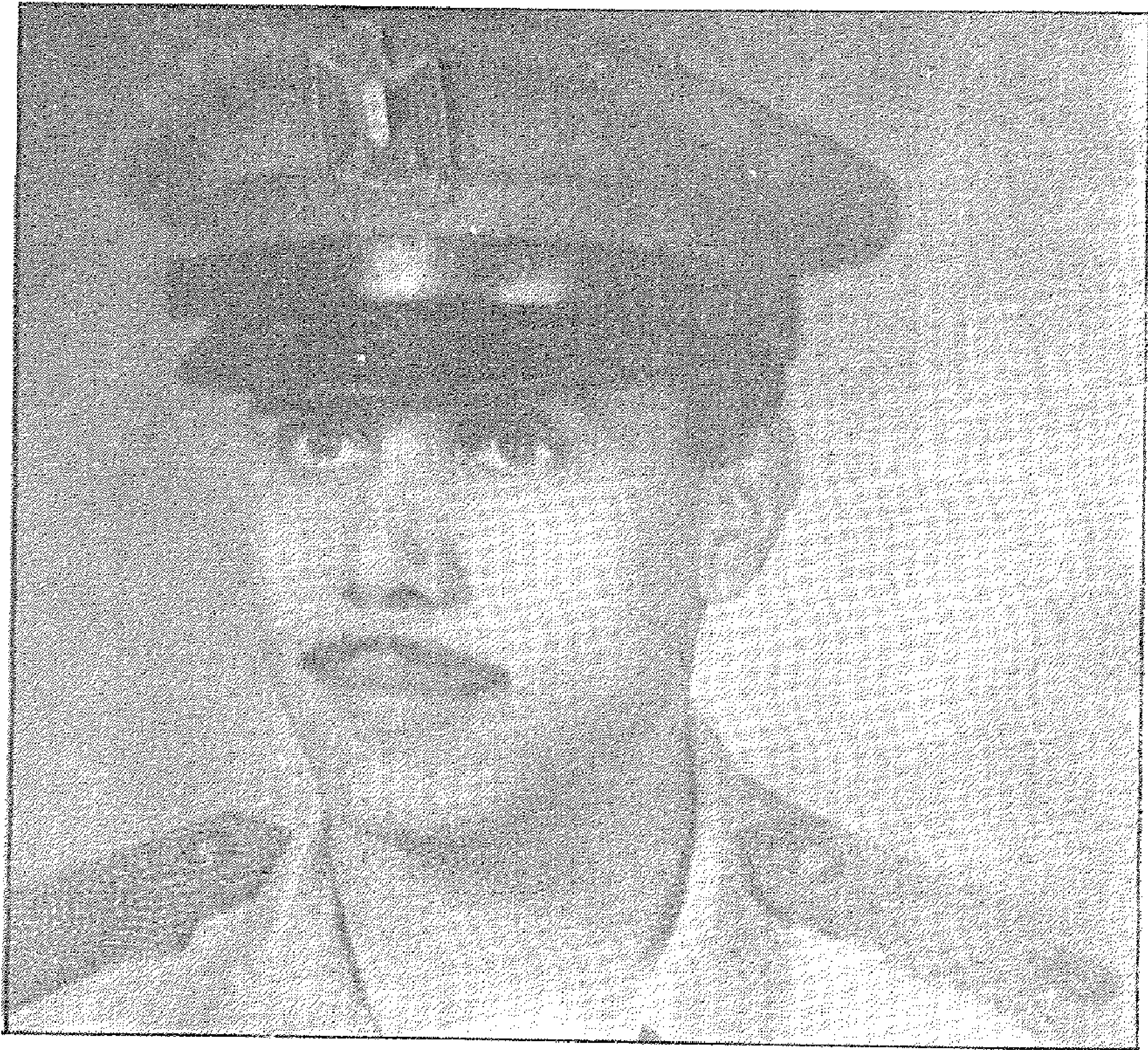
«يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ»



علي صبري

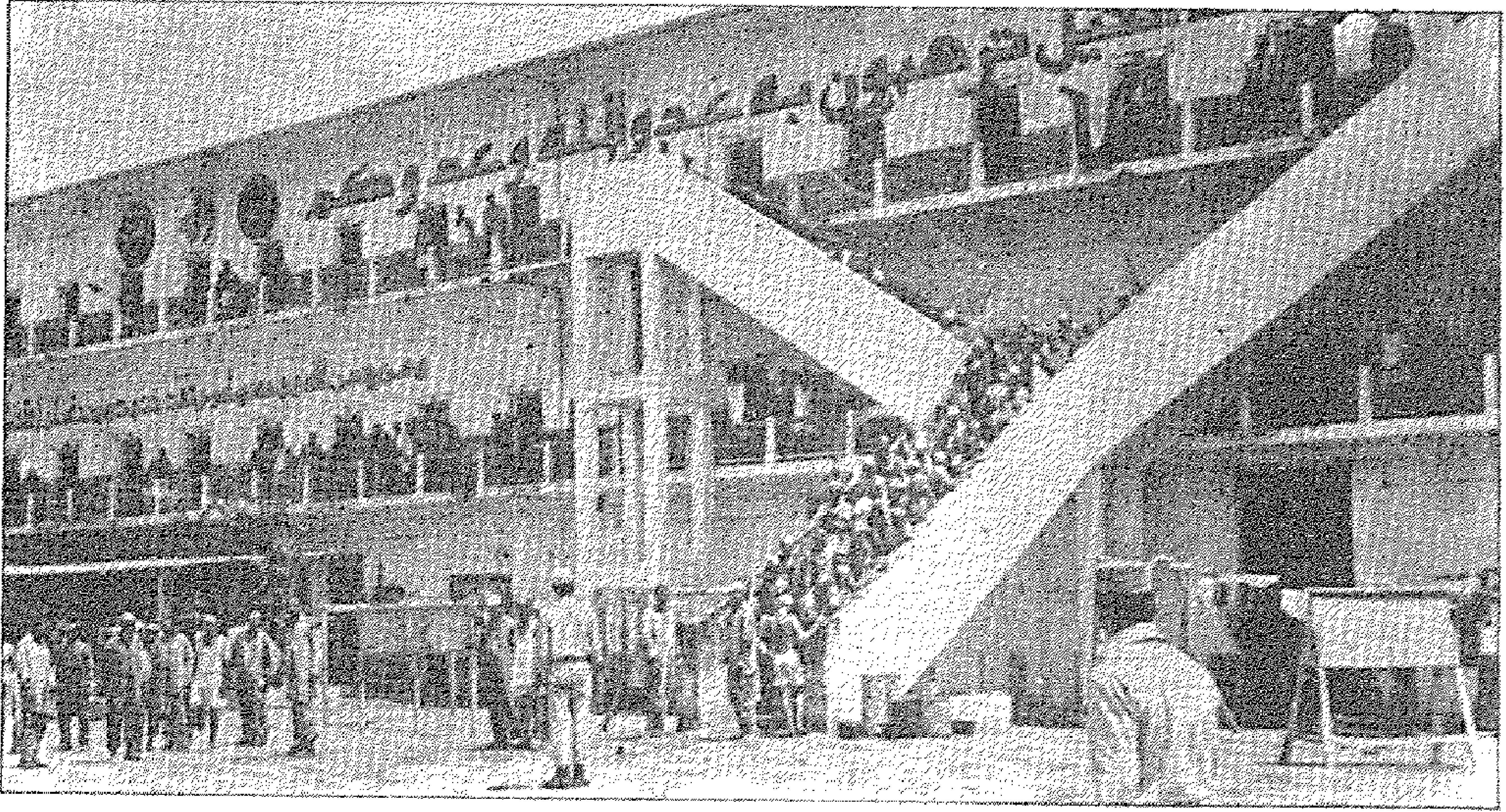


سامي شرف



محمد عصمت مصطفى

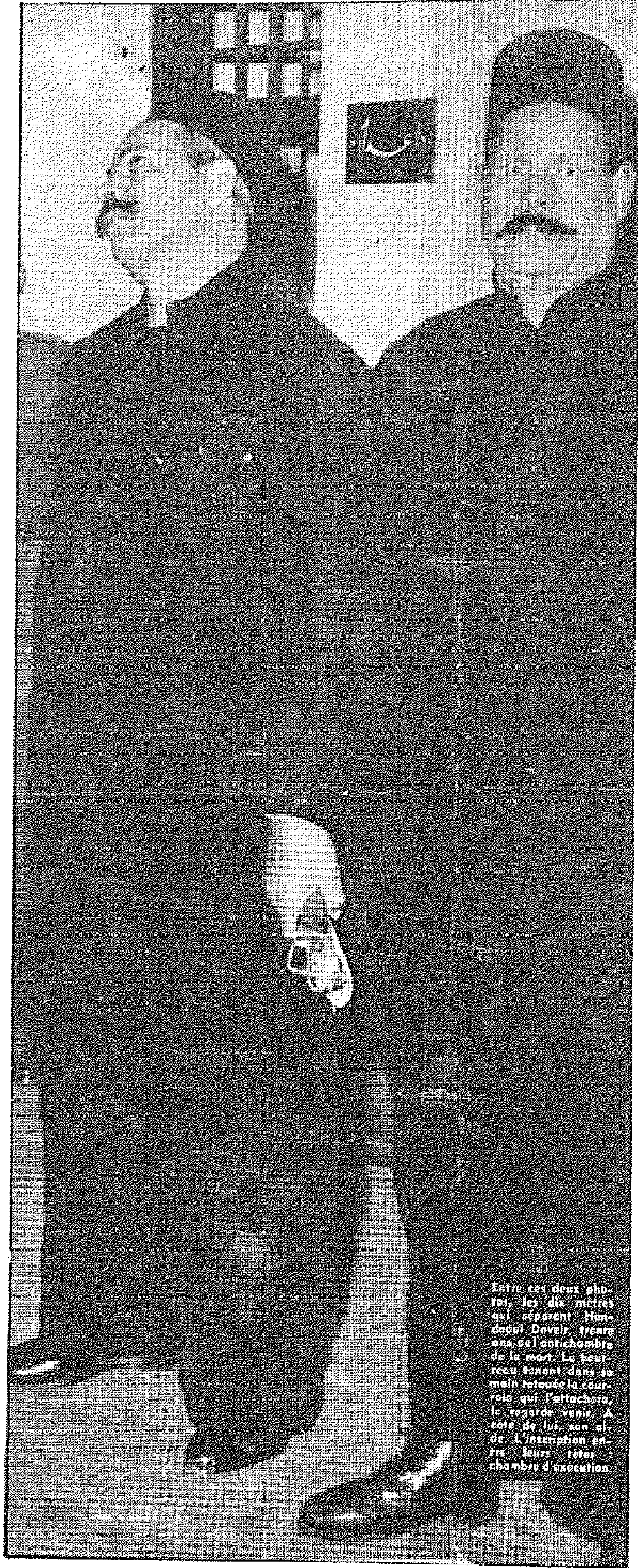
« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ● النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ● إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ●
وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ● »



فى السجن الحربى الكبير



الإخوان المسلمين فى السجن الحربى .



صورة لعشماوى قبل تنفيذ القتل يقف خارج غرفة الإعدام وقد أمسك بيمينه الحزام الجلدى الذى يقيد به يدى من يشنقه خلف ظهره ، وقد وقف مساعده إلى جانبه .



مأمور سجن الاستئناف يشرف على التنفيذ ، وقد كان بين كل واحد والذى يليه نصف ساعة يتم فيها الشنق ثم يفك من حبل المشنقة ويعاد تجهيزها ويجهز الشهيد التالى لها . وفى الصورتين ينظر المأمور فى ساعته ليضبط توقيت نصف الساعة .



مأمور سجن الاستئناف يرفع يده إشارة للتنفيذ ، رفعها ست مرات ، وحوله اثنا عشر شخصا بدت الغبطة والرضا على وجوه بعضهم !



▲ محمود عبد اللطيف أثناء المحاكمة بعد شفائه من الضرب

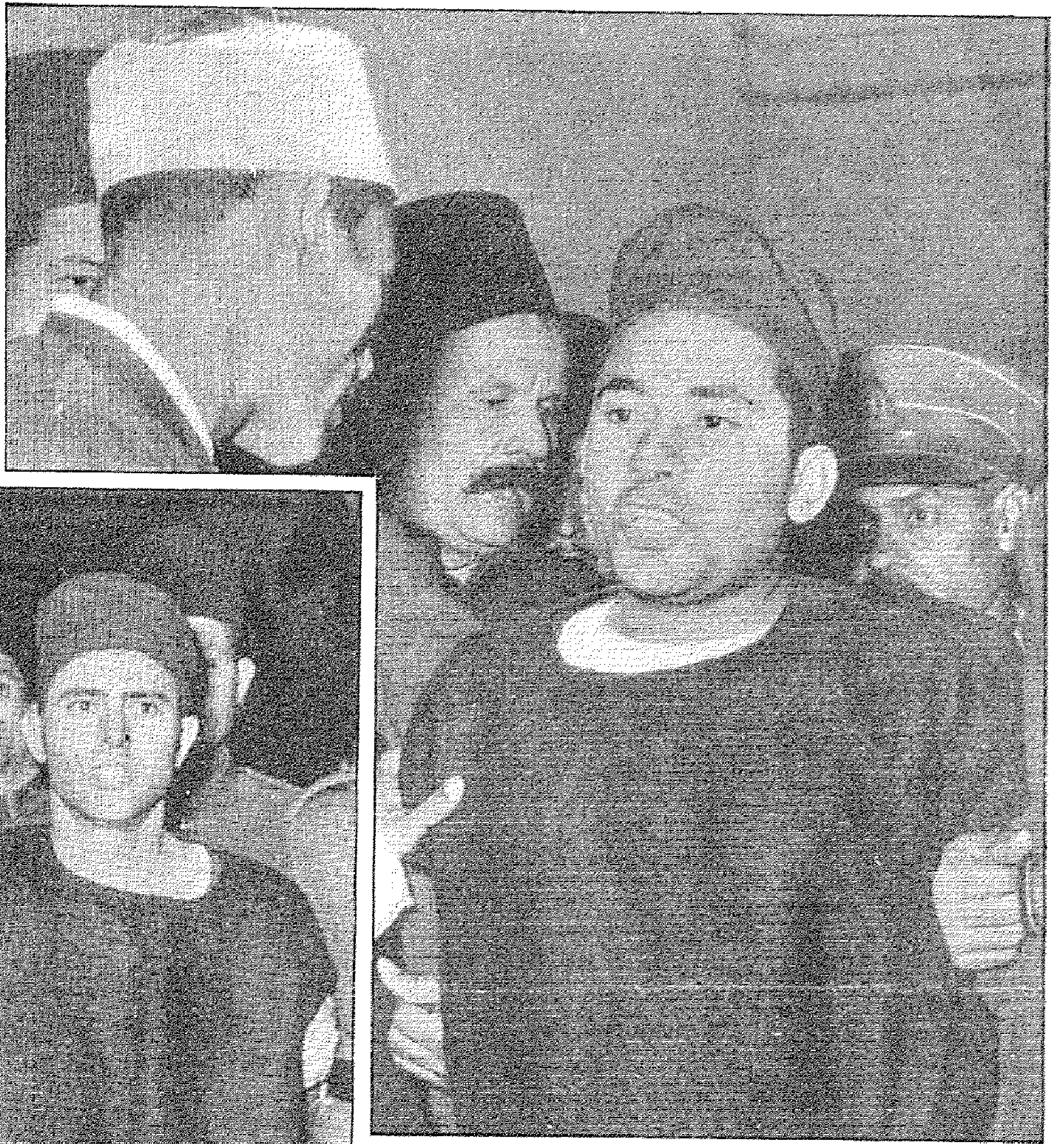
◄ صورة لمحمود عبد اللطيف بعد أن ضرب ضربا مبرحا من البوليس الحربى نقلا عن مجلة فرنسيـــة

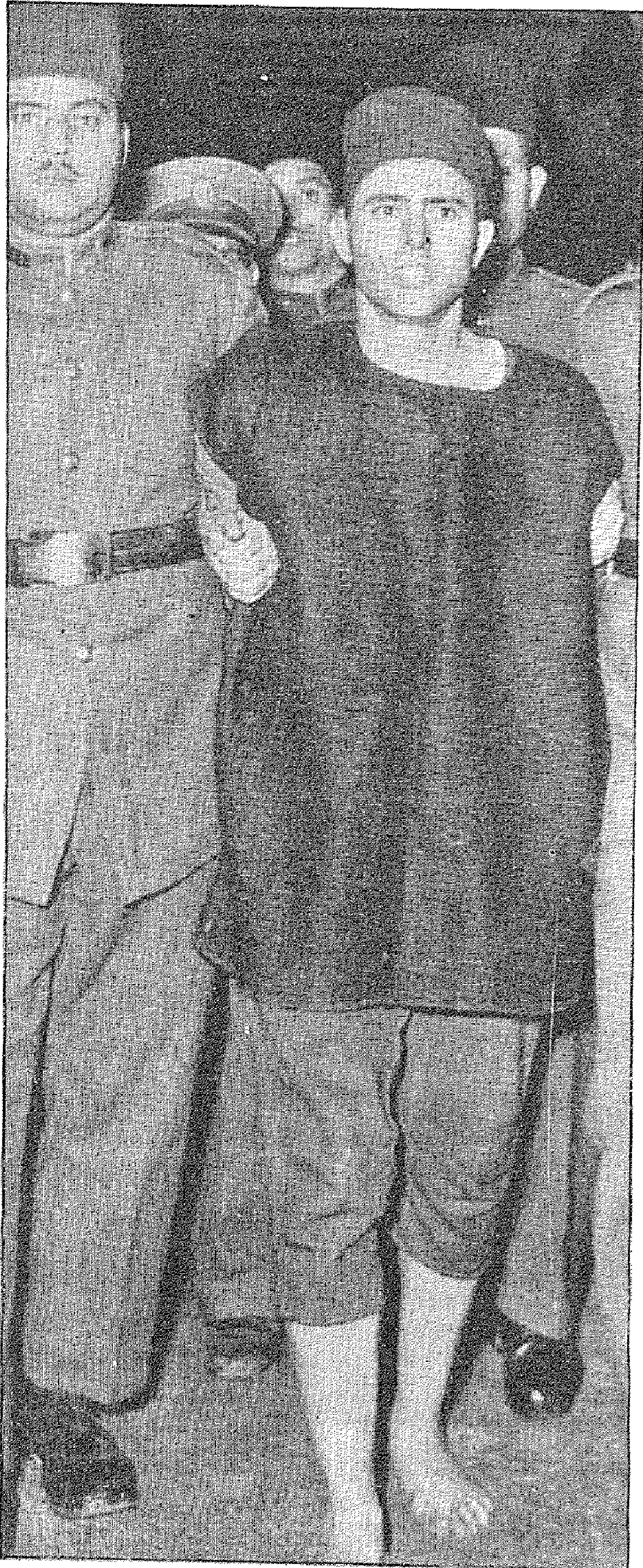


◀ صورة لمحمود عبد اللطيف قبل تنفيذ حكم الإعدام بدقيقتين .



▲ صورة لمحمد فرغلى قبل تنفيذ حكم الإعدام بدقيقتين .





صورة للأستاذ إبراهيم الطيب
قبل تنفيذ حكم الاعدام بدقيقتين

صورة للأستاذ هنداوى دوير
قبل تنفيذ حكم الاعدام بدقيقتين



يوسف طلعت فى طريقه إلى التحقيق مكبلة يداه وراء ظهره بقيد حديدى .



صورة للأستاذ يوسف طلعت قبل تنفيذ حكم الإعدام بدقيقتين



الأستاذ المرحوم عبد القادر عودة ◄
مؤلف التشريع الجنائى الإسلامى

صورة للأستاذ عبد القادر عودة قبل تنفيذ حكم الاعدام بدقيقتين

الفهرس

رقم الايداع : ٨٣٤٧ / ٨٨

الترقيم الدولى : ٠ - ١٢ - ١٤٧١ - ٩٧٧

سراديب الشيطان

إن عبد الناصر لم ينج من لعنة التاريخ رغم كل ما يقوله الناصريون ، وإن لعنة الشهداء والمعذبين سوف تطارد سيرته وتاريخه ، وهى محل حساب وعقاب من الله .

عبث بمقدرات أمة .

وقتل العزة والكرامة فى نفوس أبنائها .

وحوّلنا من شعب منتج إلى شعب متسول .

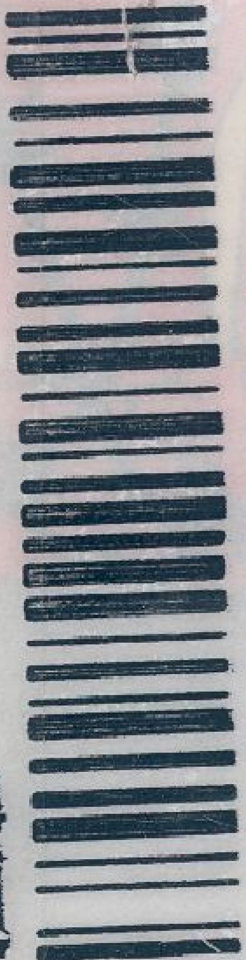
وصنع نظاما قد اعتمد الدعارة وسيلة وطريقة للحكم والسيطرة .

وضيّع جهاد الآباء من أجل الحرية والاستقلال والتفوق

ولم يترك مصر إلا بعد أن أخضعها لإسرائيل خضوعا لا رأى فيه ولا كرامة ولا نملك غير أن نفعل ما يأمرون .

كان غاية همه السيطرة والغلبة على أفراد شعبه المساكين ..

وماذا كانت النتيجة ؟





الزهراء للإعلام العربى